

دورية نصف سنوية علمية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية
A Bi-annual Peer-reviewed Journal for Historical Studies

العدد 10 - تموز / يوليو 2019
Issue 10 - July 2019



المـركز العـربي للأبحـاث ودراسة السيـاسات

Arab Center for Research & Policy Studies

The Arab Center for Research and Policy Studies (ACRPS) is an independent research institute for the study of the social sciences and humanities, with particular emphasis on the applied social sciences.

The ACRPS strives to foster communication between Arab intellectuals and specialists in the social sciences and humanities, establish synergies between these two groups, unify their priorities, and build a network of Arab and international research centers.

In its commitment to the Arab world's causes, the ACRPS is based on the premise that progress necessitates the advancement of society and human development and the interaction with other cultures, while respecting historical contexts, culture, and language, and in keeping with Arab culture and identity.

To this end, the Center seeks to examine the key issues afflicting the Arab world, governments, and communities; to analyze social, economic, and cultural policies; and to provide rational political analysis on the region. Key to the Center's concerns are issues of citizenship and identity, fragmentation and unity, sovereignty and dependence, scientific and technological stagnation, community development, and cooperation among Arab countries. The ACRPS also explores the Arab world's political and economic relations with its neighbors in Asia and Africa, and the Arab world's interaction with influential US, European, and Asian policies in all their economic, political, and communication aspects.

The Center's focus on the applied social sciences does not detract from the critical analysis of social theories, political thought, and history; rather, this focus allows an exploration and questioning of how such theories and ideas have directly projected themselves on academic and political discourse and guided the current discourse and focus on the Arab world.

The ACRPS regularly engages in timely research, studies, and reports, and manages several specialized programs, conferences, workshops, training sessions, and seminars that target specialists and the general public. The Center publishes in both Arabic and English, ensuring its work is accessible to both Arab and non-Arab readers.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات هو مؤسسة بحثية فكرية مستقلة للعلوم الاجتماعية والإنسانية وبخاصة في جوانبها التطبيقية.

يسعى المركز من خلال نشاطه العلمي البحثي إلى خلق تواصل بين المثقفين والمتخصصين العرب في العلوم الاجتماعية والإنسانية بشكل عام، وبينهم وبين قضايا مجتمعاتهم وأمتهم وبينهم وبين المراكز الفكرية والبحثية العربية والعالمية في عملية البحث والنقد وتطوير الأدوات المعرفية والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، كما يسعى المركز إلى بلورة قضايا المجتمعات العربية التي تتطلب المزيد من الأبحاث والمعالجات، وإلى التأثير في الحيز العام.

المركز هو مؤسسة علمية، وهو أيضًا مؤسسة ملتزمة بقضايا الأمة العربية وبالعمل لرقيها وتطورها، وهو ينطلق من كون التطور لا يتناقض والثقافة والهوية العربية، ليس هذا فحسب، بل ينطلق المركز أيضًا من أن التطور غير ممكن إلّا كرقي مجتمع بعينه، وكتطور لجميع فئات المجتمع، في ظروفه التاريخية وفي سياق ثقافته وبلغته، ومن خلال تفاعله مع الثقافات الأخرى.

يعنى المركز بتشخيص الأوضاع في العالم العربي وتحليلها، دولًا ومجتمعات وبتحليل السياسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وبالتحليل السياسي بالمعنى المألوف أيضًا، ويطرح التحديات التي تواجه الأمة على مستوى المواطنة والهوية، و التجزئة والوحدة، والسيادة والتبعية والركود العلمي والتكنولوجي، وتنمية المجتمعات والدول العربية والتعاون بينها، وقضايا الوطن العربي بشكل عام من زاوية نظر عربية.

ويعنى المركز العربي أيضًا بدراسة علاقات العالم العربي ومجتمعاته مع محيطه المباشر في آسيا وإفريقية، ومع السياسات الأمريكية والأوروبية والآسيوية المؤثرة فيه، بجميع أوجهها السياسية والاقتصادية والإعلامية.

لا يشكل اهتمام المركز بالجوانب التطبيقية للعلوم الاجتماعية، مثل علم الاجتماع والاقتصاد والدراسات الثقافية والعلوم السياسية حاجزًا أمام الاهتمام بالقضايا والمسائل النظرية، فهو يعنى كذلك بالنظريات الاجتماعية والفكر السياسي عناية تحليلية ونقدية، وخاصةً بإسقاطاتها المباشرة على الخطاب الأكاديمي والسياسي الموجه للدراسات المختصة بالمنطقة العربية ومحيطها.

ينتج المركز أبحاثًا ودراسات وتقارير، ويدير عدة برامج مختصة، ويعقد مؤتمرات وورش عمل وتدريب وندوات موجهة للمختصين، وللرأي العام العربي أيضًا، وينشر إصداراته باللغتين العربية والإنكليزية ليتسنى للباحثين من غير العرب الاطلاع عليها.



Contents المحتويات



Articles 5 | دراسات 5

English	Page	العربية
Tariq Madani The Historian and Quantitative Approaches: Demographic Studies of Islamic Cities Hypotheses and Questions	7	طارق مداني المؤرخ والمقاربات الكمية: حول الدراسات الديموغرافية لبعض الحواضر الإسلامية: عرض أطروحات وإثارة تساؤلات
Abdulrahman Helli Religious and sectarian diversity in the early Islamic period: A study of Dirar b. ‘Amr al-Ghatafani’s (d. c. 200AH / 815 AD) Kitab at-Tahrish “The Book of Instigation”	33	عبد الرحمن حللي التنوع الديني والطائفي في الفترة الإسلامية المبكرة من خلال كتاب «التحريش» لضرار بن عمرو الغطفاني (ت. نحو 200هـ/ 815م)
Said Benhammada Power and Political Criminalization of the Opposition in the Maghreb and al-Andalus of the 10th century CE/4th century AH	49	سعيد بنحمادة السلطة والتجريم السياسي للمعارضة ببلاد المغرب والأندلس خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي
Mohamed Cherif Ceuta in the Strategy of the Powers of the Western Mediterranean	67	محمد الشريف سبتة في استراتيجية دول الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط
Mohamed Abderrahman Hasan Arabic Origins of the Foundational Myth of Western Identity: Between Histories of the Conquest of America and the Conquest of al-Andalus	87	محمد عبد الرحمن حسن المصادر التاريخية العربية للأسطورة المؤسسة للهوية الغربية: بين تاريخي فتح أميركا وفتح الأندلس
Mohamed Bekkour Monk and Faqih: An Intersecting Biography of Nicholas Kleinard and Muhammad bin Kharouf	102	محمد بكور راهب وفقيه: سيرة متقاطعة لنيكولاس كلينرد ومحمد بن خروف
Ilyas Foutouh French Islamic School Alumni Associations and the Moroccan National Movement (1921-1956)	121	إلياس فتوح جمعيات قدماء تلاميذ المدارس والثانويات الفرنسية الإسلامية ودورها في العمل الوطني في المغرب (1921-1956)

Translations 143 | ترجمات

English	Page	العربية
David Carr Thaer Deeb Narrative and the Real World: An Argument for Continuity	145	ديفيد كار ترجمة ثائر ديب السرد والعالم الواقعي





Book Reviews 159 مراجـعات كتب

Fahmi Romdhani 161 فهمي رمضاني
Review of The Dialectic of Identity and History: Tunisian Readings of. Hicham Djait
مراجعة كتاب جدل الهوية والتاريخ: قراءات تونسية في مباحث هشام جعيط

Khaled Belarbi 170 خالد بلعربي
Renewal in Ibrahim al-Qadiri Boutchiche's Historiography
مسار التجديد في الكتابة التاريخية عند إبراهيم القادري بوتشيش
A Reading of Marginalized People in the History of the Islamic West: Theoretical and Practical Problems in Subaltern History
قراءة في كتاب «المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل»

Jamal Fazzeh 180 جمال فزة
On the Need to Define the Historian's Trade: A Reading of Bayadh al-Tayyeb's The Press and History
في الحاجة إلى تجديد صنعة المؤرخ: قراءة في كتاب "الصحافة والتاريخ" للمؤرخ الطيب بياض

Primary Sources 187 وثائق ونصوص

Salwa al-Zahiri 189 سلوى الزاهري
Four buried letters on Bayt al-Maghrib in Cairo
أربع رسائل دفينة حول «بيت المغرب بالقاهرة»

Ostour Seminar 209 ندوة أسطور

Abderrahim Benhadda 212 عبد الرحيم بنحادة
Introduction
المقدمة

Abdelhamid Henia 215 عبد الحميد هنية
Background Paper of the Ostour Seminar: Arab Historians And Their Sources
الورقة الخلفية لندوة أسطور: المؤرخ العربي ومصادره

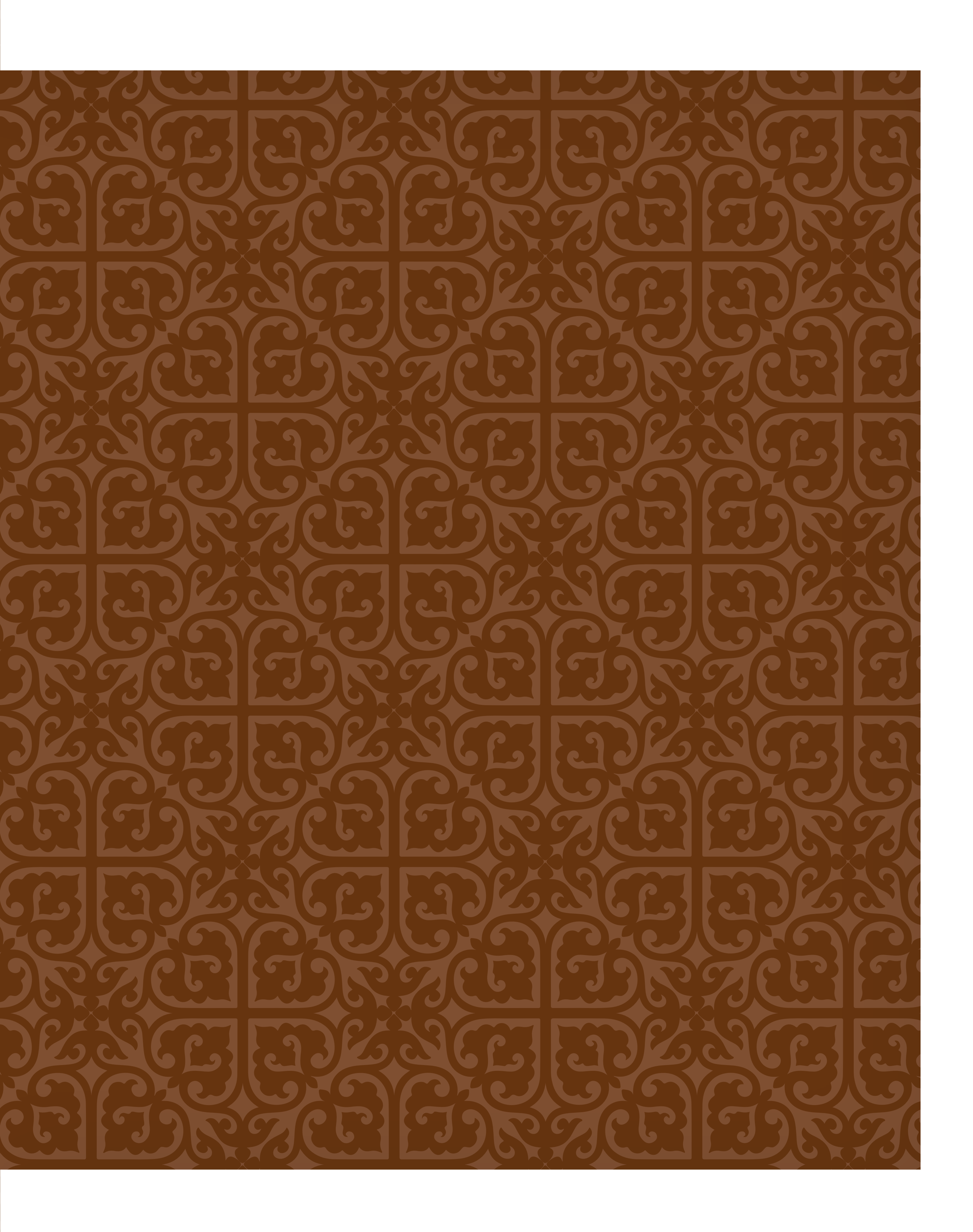
Wajih Kawtharani 218 وجيه كوثراني
Researching the Archive of the French Foreign Ministry: Data Analysis in Social and Political Affairs
في الاشتغال على أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية كشف معطيات في مسائل اجتماعية وسياسية (الخلافة، سايكس – بيكو، تقسيم سورية)

Abdelhamid Henia 232 عبد الحميد هنية
A Reseach Experience in Tunisia's Modern Ottoman Archives
تجربة بحث في الأرشيفات العثمانية في تونس خلال العهد الحديث

Otmane Mansouri 246 عثمان المنصوري
My Experience in the Portuguese Archives
تجربتي مع الأرشيف البرتغالي



دراسات
Articles





طارق مداني | Tariq Madani*

المؤرخ والمقاربات الكمية: حول الدراسات الديموغرافية لبعض الحواضر الإسلامية

عرض أطروحات وإثارة تساؤلات

The Historian and Quantitative Approaches: Demographic Studies of Islamic Cities

Hypotheses and Questions

يواجه المؤرخ إشكالات منهجية عند دراسته ظروف عيش المجتمعات التاريخية وأنماطها، خصوصًا عند سعيه لتحديد طبيعة نمـو السـاكنة ووتيرتها. فهـو غالبًا ما يواجه ندرة المصادر وشُـحَّ الوثائـق، ويضطر إلى "اختراع" مناهـل مصدرية جديدة، واسـتعمال مقاربات وآليات منهجية مستعارة من علوم أخرى، كالاستقصاء الإثنوغرافي أو المناهج الكمية، لعلها تمكّنه من استنطاق جديد للنصوص، وقراءات متجددة للمعطيات. إن الإقبال الكبير على المقاربات الكمية يضعنا أمام أسئلة أولية بخصـوص مشروعية الاسـتناد إلى هذه المقاربات، وبما يتعلق بمقاصد هـذه الأدوات الإحصائية وأهدافها، وكذا بحدودها المعرفية والمنهجية. من خلال هذه الدراسـة، سـنحاول التعريف بمراحل تطور التاريخ الكمي عبر أعلامه ومدارسـه، قبل أن نعـرض لبعـض الأطروحات التاريخية الكـبرى التي قاربت التاريخ الديموغـرافي للمجتمعات العربية - الإسـلامية وأطّرت البحث في هذا المجال. وفي مسـتوى آخر، سـنبرز - من خلال مجموعة من الدراسـات العربية والغربيـة الرصينة - مختلف المناهج المتعلقة بدراسـة وإحصاء سـاكنة المدن الإسـلامية عبر أزمنة تاريخة مختلفة. أما القصد من هذا العرض المُوسَّع لمجموعة من الحواضر الإسلامية، فهو توسيع المجال المدروس، واستعراض نقدي لنماذج مختلفة من استثمار النظريات الديموغرافية، ومن توظيف الآليات والمقاربات الكمية من خلال مختلف النصوص التاريخية والمعطيات العمرانية والأثرية.

كلمات مفتاحية: التاريخ الاسلامي، السكان، الديموغرافيا التاريخية، المقاربات الكمية، المشرق.

The historian attempting to comprehensively establish the living conditions of a particular society, or to determine rises and falls in population, is setting out on a difficult path. The sources and documents are typically lacking and he is thus forced to ‘invent’ new sources or use methods borrowed from elsewhere to make the existing sources speak. Indeed, when examining a document, he may be compelled to adopt the approaches of other disciplines such as social anthropology, ethnographic enquiry, or quantitative methodologies.

This study – after tracing the development of quantitative history through its various pioneers and schools of thought – looks in depth at methods by which the population of various historical Islamic cities can be measured. These methods draw on demographic theories, ways of teasing out the demographic clues scattered throughout classical texts, and mathematical extrapolations based on the area of and number of public buildings in these cities that can be used as indicators of population dynamics.

Keywords: Islamic history, Population, Historical demography, Quantitative approaches, Mashreq.

* أستاذ التعليم العالي في جامعة محمد الأول في المغرب، وعضو في مجموعة البحث 5648 بالمركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا، حاصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ وعلم الآثار من جامعة ليميير في ليون 2 بفرنسا.

Professor of Higher Education, Mohamed I University in Morocco. Member of Research Group 5648 at the National Centre for Academic Study in France. Received his doctorate in history and archaeology from Lumière-Lyon University, France.

مقدمة

يجد المؤرخ نفسه أمام مسالك وعرة إذا ما حاول استجلاء ظروف عيش مجتمع ما في مختلف أبعاده، أو إذا ما سعى لتحديد حركة المد والجزر على مستوى السكان. فغالبًا ما تنقصه المصادر والوثائق ويضطر إلى "اختراع" مصادر جديدة واستعمال آليات مستجلبة تمكنه من استنطاق النصوص، بل أحيانًا - عند افتقاد الوثيقة - يلجأ المؤرخ إلى ركوب مطيات علمية أخرى، يستند فيها إلى مقاربات العلوم الأخرى كالأنثروبولوجيا الاجتماعية أو الاستقصاء الإثنوغرافي أو المناهج الكمية.

مقصدنا من هذا البحث - بعد التعريف بمراحل تطور التاريخ الكمي عبر أعلامه ومدارسه - هو استقصاء مناهج وطرق إحصاء ساكنة بعض المدن الإسلامية عبر التاريخ، من خلال استثمار بعض النظريات الديموغرافية، أو عن طريق تفعيل النصوص القديمة واستنباط الإشارات الإحصائية المتفرقة فيها، أو بتوظيف الاستنتاج الرياضي المرتبط بمساحة هذه الحواضر وعدد منشآتها العمومية، باعتبارها مؤشرات دالة على ديناميكية عدد السكان.

أما إعطاء العمق الزمني في تحديد الفترات المدروسة من بداية الإسلام إلى فترة التاريخ المعاصر فهو، أولًا، متصل إجرائيًا بما تُقدمه المصادر القديمة وبما تطرحُه الدراسات المعاصرة. وهو، ثانيًا، مرتبط من الناحية المنهجية باقتناعنا؛ من جهة بضرورة المراوحة بين سوابق الظواهر ولواحقها لاستيضاح الأمور، لأن القضايا بدوافعها ونتائجها تُدرك، ومن جهة أخرى، لأن استيعاب ظواهر الديموغرافيا التاريخية لا يُستكمل إلا بذكر أولياتها وتولداتها، وبمقارنة معطياتها الإحصائية بين أزمنة مختلفة. فتمديد الإطار الزمني للبحث يتناسب مع إيقاع التغيرات السكانية المفصلية البطيء. ثم إن هناك سببًا آخر لا يقل وجاهة، يتمثل بخصوصية تحقيب التاريخ الإسلامي الذي لم تتأثر بنيات مجتمعاته، سياسيًا واجتماعيًا، إلا في فترات العصر الحديث.

أولًا: الديموغرافيا التاريخية: مسار طويل وطموحات محدودة

يتشكل خطاب المؤرخ في كل مرة وفق سياقات مرحلته ومستوى انفتاحه على مواضيع العلوم الأخرى ومناهجها. هذا الانفتاح، أصبح يتجاوز، في السنوات الأخيرة، منطق "العلوم المساعدة" إلى مفهوم "العلوم المتشابكة" باعتبار التأثير المتبادل بين مختلف التخصصات المعرفية على الصعيدين الإبستيمولوجي والمنهجي.

أما على الصعيد الأول، فقد مثلت الثورات العلمية المتلاحقة في العلوم "الحقة"، تأثيرًا ضاغطًا على تصور الإنسان نفسه، فتقلبت التصورات بين اختزال الإنسان في حيوانيته أو في مفهوم الآلة أو بين تشييئه أو تقزيمه في مجموعة أعضاء بيولوجية[1]. وقد انسحبت هذه الاختزالات المعرفية لتؤطر كثيرًا من تصورات المشتغلين بحقل العلوم الإنسانية والاجتماعية ومناهجهم.

أما على الصعيد الثاني، فما زالت قضية المُناهجة (تعدد المناهج وتداخلها) ترزح في مستوياتها الدنيا، ليس بالضرورة لاستعصاء الخوض فيها، ولكن لتصلب مواقف المشتغلين بهذه العلوم وتصوراتهم، بل ما زال كل تخصص يتخبط مع ذاته ويحارب أشباحه وأوثانه.

فالمؤرخ، كما أكد ذلك فرانسوا سيميوند (1873-1935) في مقاله المشهور[2]، ما فتئ يواجه الأوثان الثلاثة: "الفرد" و"السياسة" و"الكرونولوجيا". وفي المقابل، ما تزال مسيرة انفتاح المؤرخ تراوح بين الإقدام والتردد. فبعد مراجعة أولوياته، وتوسيع مفهوم الوثيقة وتحديد أشكال استنطاقها، أصبح ينفتح بحذر شديد على مقاربات العلوم الأخرى كالمناهج التكميمية الحسابية والإحصائية.

1 انظر التحليل المتميز لهذه الاختزالات الأربعة في:
Jean-Claude Guillebaud, *Le Principe d'humanité* (Paris: Seuil, 2001), pp. 43 - 158.

2 François Simiand, "Méthode historique et science sociale," *Annales, Economies, société, civilisations*, vol. 15, no. 1 (1960), pp. 83 - 119.

عرف هذا التاريخ الكمي سنواته التأسيسية بين ثلاثينيات القرن الماضي وخمسينياته على إثر استعمال رواد التاريخ الاقتصادي النماذج أو الأنظمة الرياضية[3]. ظهر هذا الاتجاه في الولايات المتحدة الأميركية مع سيمون كوزنيت Simon Kusnet في إطار دراساته في الاقتصاد السياسي، وضمن الرابطة العالمية للبحث في الدخل والثروة *International Association for Research in Income and Wealth*[4].

مثلت أبحاث عالم الاجتماع والاقتصادي الفرنسي سيميوند التي جمعت بين علوم الإحصاء والتحليل الاجتماعي[5] مُنطلق هذه المرحلة في فرنسا. وقد جاءت بعد ذلك فترة إيرنست لابروس الذي استلهم من أعمال سلفه، لتصبح مساهماته العلمية أنموذجًا للحوار بين علوم التاريخ والاقتصاد والإحصاء[6].

فإذا كان المعطى الرقمي، من قبلُ، يُستعمل استثناءً وبصفة معزولة، فقد أصبح يُوظفُ في إطار مجموعات إحصائية منسجمة ومنظمة، لخدمة إشكاليات تاريخية، عند أصحاب هذا التوجه الجديد في التاريخ الاقتصادي. عرف الحماس للمقاربات الكمية ومحاولة التمثيل الرقمي للظواهر التاريخية أوجه في الفترة 1950-1980، وساهم في تحويل شكل الخطاب التاريخي بتجاوز الطابع السردي من جهة، وبتأكيد الطبيعة العلمية لهذا التخصص من جهة أخرى[7].

ومع مرور الزمن، أصبحت المقاربة الكمية مدعومة بالتناول المعلوماتي للمعطيات، وأصبح توظيفها يتجاوز التاريخ الاقتصادي إلى ميادين جديدة، وخصوصًا التاريخ الديموغرافي. فقد سمحت إعادة صياغة وبناء المعطيات التاريخية بتقدم كبير في فهم السلوكات الديموغرافية.

أما بعد 1960، فقد أصبح المنهج الكمي والاتجاه التاريخي الجديد المعروف بـ L'histoire Sérielle (تاريخ المجموعات الإحصائية المنسجمة والمنتظمة) يطمح إلى الامتداد إلى الجانب الثقافي، مع محاولة إقامة علائق بين القياس ودراسة الذهنيات والتمثلات المجتمعية (المستوى الثالث بحسب بيير شوني)[8]، وأصبح يهتم بالنطاقات المخصصة عادةً للتحليل الكيفي، نحو: الثقافة المكتوبة، والمواقف تجاه الموت[9].

وإذا كان هذا الانجذاب إلى المنهج الكمي قد عرف أزمته في ثمانينيات القرن الماضي، فقد قام الباحثون بمراجعاتهم لتجاوز الثقة العمياء والساذجة بدلالات الأرقام؛ لكون المعايير الكمية ليس لها الوجاهة نفسها ودرجة الموضوعية العلمية نفسها بين العلوم الاجتماعية والإنسانية والعلوم "الحقة". غير أن المؤرخين ما يزالون مقتنعين بأهمية المعطى الرقمي وبشرعيته المتجددة، وبكونه لغة شاملة ووظيفية وقابلة الاختزال، لكن على أساس مشروع علمي أقل طموحًا، يَعتبر المعطيات الكمية أداةً منهجية ومؤشرًا نسبيًا، وليس فلسفةً وتاريخًا علميًا جديدًا. وأصبحت هذه الطموحات المتواضعة تركز أساسًا على الدراسات الاقتصادية والديموغرافية[10].

---

3 Maria-Novella Borghetti, "Histoire Quantitative, Histoire Sérielle," in: Christian Delacroix et al. (dir.), *Historiographies: Concepts et débats* (Paris: Gallimard, 2010), p. 412.

4 Jean Marczewski, *Introduction à l'histoire quantitative* (Genève: Droz, 1965), p. 185.

5 François Simiand, *Statistique et expérience: Remarques de méthode* (Paris: Éditions M. Rivière, 1922), p. 79.

6 Ernest Labrousse, *Esquisse du mouvement des prix et des revenus en France au 18e siècle* (Paris/ Montreux:. Éditions des Archives contemporaines, 1984), p. 697.

7 Bernard Lepetit, "L'Histoire quantitative: Deux ou trois choses que je sais d'elle," *Histoire & Mesure*, vol. 4, no. 3 - 4 (Janvier 1989), pp. 191 - 199.

8 Borghetti, p. 415.

9 Pierre Chaunu, *Histoire quantitative, histoire sérielle* (Paris: Editions Armand Golin, 1978), p. 304.

10 Borghetti, p. 417.

الحقيقة أن تخصص الديموغرافيا التاريخية فتح آفاقًا جديدةً وورشات عمل مختلفة، رغم أن الاستناد إلى آلية الاستنباط والإحصاء الافتراضي هو أمر استثنائي، يأتيه المؤرخ مكرهًا؛ لأنه، في غالب الأحيان، ليست له حظوة امتلاك مصادر دقيقة تُمكن من تصور التنامي العددي لمجتمع ما وإدراكه.

قد تتسرب إلى الذهن أسئلة أولية: لماذا السير، إذًا، في هذه الأرضية غير الثابتة؟ ولماذا الاستناد إلى هذه المناهج غير الدقيقة؟ ولماذا هذه الحُمى الرقمية التي أصابت المؤرخين؟ وما مبلغ مثل هذه المقاربات وهدفها؟

يمكن الإجابة عن هذه الأمور من جانبين معرفيين:

أولًا: لأن تحديد عدد السكان أو معرفة وضع الساكنة هو تحديد لأول فاعل ولأهم عامل في صناعة التاريخ: الإنسان، وهو كذلك الاقتراب من "المُعطى الأول" الذي يرسم الحدث، ويحددُ الطلب، ويصنع الصراع ويخلق أشكال التحضر.

ثانيًا: إذا سلمنا بهذا المعطى العام فلماذا إذًا محاولة التدقيق في العدد ونموه عبر الفترات؟ الحقيقة أن التزايد السكاني ليس تراكمًا كميًا فقط، بل هو أحيانًا تحولٌ نوعي مطردٌ مع العدد، بمعنى أن هناك تباينًا بين القلة والكثرة في قوانين العمران، وأن هناك عتباتٍ رقميةً حاسمةً Seuils Critiques وحدودًا حرجة، وطفراتٍ تتغير على إثرها بنية المجتمع وتصبح أشد تعقيدًا (اجتماعيًا، واقتصاديًا وسياسيًا)، تتبدل فيها السيناريوهات التاريخية، وتظهر مجموعة من الظواهر الناشئة والإفرازات المجتمعية الجديدة: من مستفيدين ومهمشين، من انتماء قبلي إلى آخر حضري أو من تفتيت التركيبة الواحدة لتجمعات متباينة، أو من تراجع هيمنة سلوكيات قديمة وقيم إلى أخرى جديدة. إن أي مجتمع متنامٍ عدديًا تتغير أقداره كيفيًا ارتباطًا بمكوناته وإمكاناته، ووفقًا لخياراته الفردية والجماعية.

مثلًا، يرى ابن خلدون أن القلة والكثرة تصنعان عز القبيلة أو ذلها. فعند حديثه عن قبيلة هوارة التي ذهب عزها بذهاب كثرتها، قال: "وكانت برقة من مواطن هوارة هؤلاء [...] ولما خرجت زُويلة (إحدى مدن برقة) انتقلوا منها إلى فزان من بلاد الصحراء وأوطنوها، وكان لهم بها مُلك ودولة [...] ومن قبائل هوارة هؤلاء بالمغرب أمم كثيرة [...] وذهب ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات بسبب الكثرة، وصاروا إلى الافتراق في الأودية بسبب القلة، والله مالك الأمور"[11].

طبعًا، يجب تأكيد ارتسام هذا الانتقال المجتمعي وهذا التعامل النوعي مع طاقات المجال ومعطياته بحسب الظروف والسياقات وآليات التوازن عبر مظاهر مختلفة: من الازدهار الاقتصادي إلى تدهور مستوى المعيشة وسوء التغذية، ومن التنظيم المهني المتخصص إلى عدم التناسب بين الفئة العاملة والفرص المتضائلة في العمل، ومن استصلاح الأراضي وتطور البوادي إلى الهجرة من القرى والنزوح عنها.

المستقر الرئيس أن معرفة عدد السكان هو أداة تاريخية لإدراك التركيبة المجتمعية وبنيتها، تنظيمًا وتناقضًا، وقدرة على استيعاب العناصر الحديثة أو الوافدة على المجتمع الحضري الأصلي وإدماجها، وهو معطى معرفي يساهم كذلك في توفير قاعدة بيانات أولية أشد صلابة لتفسير أسباب الأحداث والظواهر التاريخية وسياقاتها، ويمكن من تقدير معدل التغيرات وحجمها ووجهتها.

ثانيًا: قضايا كبرى وأطروحات متباينة حول التاريخ الديموغرافي للعالم الإسلامي

الحاصل، كذلك، أن إدراك المعطى السكاني يساعد على تصور جدية، أو هشاشة، مجموعة من الأطروحات "العامة" أو "النماذج" modèles التي حاولت التأريخ لفضاءات واسعة في العالم الإسلامي ورصد آثار التنامي السكاني وتجلياته وتقلباته.

11 أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **تاريخ العلامة ابن خلدون**، ج 6 (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1983)، ص 291-292.

فهذا هنري بيرين (1862-1935) يربط بين انتشار المسلمين وتنامي عددهم في فترات وجيزة بتجلياته العسكرية والاقتصادية عبر البحر الأبيض المتوسط، ويشير إلى الكيفية التي مثل فيها هذا الأمر قطيعة لوحدة هذا البحر، حيث ستُفصل إسبانيا (الأندلس) وإفريقية عن الحضارة، وكيف أن هذه التركيبة السكانية الجديدة ثقافيًا ستَحُد، بحسب رأيه، من عمليات التبادل في هذا الفضاء المتوسطي، قاطعة الشرق عن الغرب، وجاعلة البحر المتوسط "بُحيرة مُسلمة" Lac musulman[12].

يرى مارشال هودسون أن العالم الإسلامي ظل مركزًا للبشرية حتى القرن السادس عشر إلى حدٍ لم تستطع، لا عبقرية النهضة الأوروبية ولا اكتشاف العوالم الجديدة زحزحة هذا التفوق الإسلامي[13]. وارتباطًا بهذا الرأي، يتساءل الباحث الفرنسي كابرييل مرتنيز كرو[14] عن ذلك، ويقترح استنطاق المعطيات الديموغرافية للعالم في القرن الخامس عشر لفهم هذه الظاهرة، ليجد في إحصاءات المؤرخ الديموغرافي برابن[15] التي تكشف عن نسبة سكان العالم الإسلامي مقارنة بباقي العالم، ما يشد عضد هذا الرأي.

بعد تأكيد هذه المعطيات يحاول مرتنيز كرو تفسير هذه الأرقام المرتفعة للعالم الإسلامي التي صادفت حدس المؤرخ الكبير مارشال هودسون. فبعد تراجع سكاني طفيف ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر، ارتفع عدد سكان العالم الإسلامي ليتصدر المشهد في الفترة 1400-1700، وكان للعالم الآسيوي والأفريقي دور كبير في ذلك على خلاف العالم العربي.

الجدول (1)

تقديرات سكان العالم بالملايين عبر جهاته الكبرى في تواريخ مختلفة

المناطق	السنوات												
	400 ق.م	200 ق.م.	ميلادية	200	400	500	600	700	800	900	1000	1100	1200
الصين	19	40	70	60	25	32	49	44	56	48	56	83	124
الهند، باكستان، بنغلاديش	30	55	46	45	32	33	37	50	43	38	40	48	69
جنوب - غرب آسيا	42	52	47	46	45	41	32	25	29	33	33	28	27
اليابان	0.1	0.2	0.3	0.5	1.5	2	4	5	6	7	7	7	6
باقي آسيا من دون الاتحاد السوفياتي	3	4	5	5	7	8	11	12	14	16	19	24	31
أوروبا من دون الاتحاد السوفياتي	19	25	31	44	36	30	22	22	25	28	30	35	49

12 Henri Pirenne, *Mahomet et Charlemagne* (Paris: PUF, 1970); Maurice Lombard, "Mahomet et Charlemagne: le problème économique," in: *Espaces et réseau du Moyen Age* (Paris: Éditions Mouton, 1972).

13 Marshall Hodgson, *The Venture of Islam, Conscience and History in a World Civilization, The expansion of Islam in the Middle Periods,* vol. 2 (Chicago: The University of Chicago Press, 1974).

14 Gabriel Martinez-Gros, "La Seconde islamisation du monde," in: Patrick Boucheron (dir.), *Histoire du monde au XVe siècle, Temps et devenirs du monde,* Tome 2 (Paris: Édition pluriel, 2017), p. 416.

15 Jean-Noël Biraben, "L'Histoire du peuplement humain des origines à nos jours," in: Graziella Caselli, Jacques Vallin & Guillaume Wunsch (dir.), *Démographie: Analyse et synthèse: L'Histoire du peuplement et prévision,* vol. 5 (Paris: Edition de l'INED, 2004), pp. 9 - 31.

الاتحاد السوفياتي	13	14	12	13	12	11	11	10	10	11	13	15	17
إفريقية الشمالية	10	13	13	16	13	12	11	9	10	10	10	8	8
باقي إفريقية	7	9	12	14	18	20	17	15	16	20	30	30	40
أميركا الشمالية	1	2	2	2	2	2	2	2	2	2	2	2	3
أميركا من الوسط إلى الجنوب	7	8	10	9	11	13	14	15	15	13	16	19	23
أوقيانوسيا	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2
المجموع العالمي	152	223	250	255	204	205	211	210	227	227	257	301	399
المناطق	1250	1300	1340	1400	1500	1600	1700	1750	1800	1850	1900	1950	1970
الصين	112	83	70	70	84	110	150	220	330	435	415	558	774
الهند، باكستان، بنغلاديش	83	100	107	74	95	145	175	165	190	216	290	431	667
جنوب - غرب آسيا	22	21	22	19	23	30	30	28	28	31	38	75	118
اليابان	6	7	7	8	8	12	28	30	30	31	44	83	104
باقي آسيا من دون الاتحاد السوفياتي	31	29	29	29	33	42	53	61	68	78	115	245	386
أوروبا من دون الاتحاد السوفياتي	57	70	74	52	67	89	95	111	146	209	295	395	462
الاتحاد السوفياتي	14	16	16	13	17	22	30	35	49	79	127	180	243
إفريقية الشمالية	8	9	9	8	8	10	9	10	9	13	23	44	70
باقي إفريقية	49	60	71	60	78	104	97	94	92	90	95	167	266
أميركا الشمالية	3	3	3	3	3	3	2	3	5	25	90	166	283
أميركا من الوسط إلى الجنوب	26	29	29	36	39	10	10	15	19	34	75	164	283
أوقيانوسيا	2	2	2	2	3	3	3	3	2	2	6	13	19
المجموع العالمي	413	429	439	374	458	580	682	775	968	1243	1613	2521	3620

المصدر (بتصرف):

Jean-Noël Biraben, "L'Histoire du peuplement humain des origines à nos jours," in: Graziella Caselli, Jacques Vallin & Guillaume Wunsch (dir.), *Démographie: Analyse et synthèse: L'Histoire du peuplement et prévision,* vol. 5 (Paris: Edition de l'INED, 2004), p. 23.

أما أندري ميكيل[16] فقد طرح في كتابه **الإسلام وحضارته** أسئلة كبرى حول ديموغرافيا الدول الإسلامية. يقول متسائلًا إنه إذا كان الانفجار السكاني الهائل في القرن العشرين، أمرًا معلومًا، نتيجة انخفاض معدل الوفيات وتنامي معدل المواليد، الذي لا يزال قويًا جدًا، فكيف كان حال هذا العالم في الماضي؟

اعتمادًا على أبحاث عمر لطفي باركان[17] وروسل[18]، واستنادًا إلى معطيات تاريخ العالم الغربي، مع اقتراح تأويلات جديدة للنصوص والأحداث المعروفة، حدد ميكيل الخطوط العريضة لديموغرافيا الدول الإسلامية على النحو التالي: النقص المزمن في عدد الرجال، وأكثر من ذلك، التوزيع السيئ للسكان، ثم تضاؤل سكان الأرياف لمصلحة المدن. كما عرفت هذه المدن، اكتظاظًا حضريًا، وحساسية كبيرة للكوارث الديموغرافية كالأوبئة والمجاعات.

في هذا السياق، بين ابن خلدون كيف أن "الطاعون الجارف" كان كارثة ديموغرافية مدمرة حلت بأطراف العالم العربي غربًا وشرقًا، في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي؛ إذ يقول: "وأما لهذا العهد، وهو آخر المائة الثامنة، فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه، وتبدلت بالجملة [...] هذا ما نزل بالعمران شرقًا وغربًا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم، وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها، وفل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقض عمران الأرض، بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها، وإذا تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث"[19].

بعد الطاعون العظيم، سيعرف سكان العالم الإسلامي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ارتفاعًا حيويًا. وعلى إثر ذلك، ستتباعد معطيات بلاد المسلمين ديموغرافيًا عن مثيلاتها في أوروبا؛ إذ إنه "على خلاف التكاثر الغربي، ظلت التركيبة السكانية للمسلمين تخضع كليًا لقوانين الجوع والمرض. وما بين 1600م و1800م، سوف يمتد الإسلام على الخريطة بشكل أقل مما كان يمكن أن يتحقق لو توفّرت نفس الظروف الصحية الأوروبية"[20]. ويضيف ميكيل أنه كان يجب انتظار نهاية القرن التاسع عشر لتنطلق ديموغرافيا المسلمين من جديد. أما ذلك الضمور السكاني السابق، فقد أصبح فرضية أُخرى تُوظف لتفسير تخلف العالم الإسلامي حاليًا.

على مستوى البنية المجتمعية والتعداد السكاني، نُذكر بأطروحة بيير غيشار[21] حول البنية الاجتماعية "الشرقية" و"الغربية" في الأندلس، وهي تؤكد أن الخصائص الأنثروبولوجية للمجتمع العربي والبربري في الأندلس؛ من انقسامية، وزواج قرابي، وتركيبة اجتماعية، وقيم الشرف، خلفت مجتمعًا وتشكيلة بشرية أثرت، بكيفية واضحة، في طبيعة المجتمع الأندلسي على مختلف المستويات (السياسية، والاقتصادية، واستغلال المجال). ولقد احتفى بهذه الرؤية التحليلية كثير من الباحثين الفرنسيين والإسبان، إلى درجة أصبحت أطروحته أداةً للتحليل، وأنموذجًا للتفسير التاريخي واستكشاف خصوصية "إسبانيا المسلمة".

---

16 André Miquel, *L'Islam et sa civilisation,* Collection Destins du monde (Paris: A. Colin, 1968), p. 572.

17 Ömer Lutfi Barkan, "Essai sur les données statistiques des registres de recensement dans l'Empire Ottoman au XVe et XVIe siècles," *Journal of Economic and Social History of the Orient*, vol. 1, no. 1 (August 1957), pp. 9 - 36.

18 J.C. Russel, *Late Ancient and Medieval Population*, Transactions of the American Philosophical Society, New Series, vol. XLVIII, part 3 (Philadelphia: The American Philosophical Society, 1958).

19 أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **المقدمة** (بيروت: دار القلم، 1986)، ص 32-33.

20 Miquel, p. 572.

21 Pierre Guichard, *Structures sociales "orientales"et "occidentales" dans l'Espagne musulmane* (Paris: Éditions Mouton, 1977).

وانطلاقًا من رؤية سلبية مثقلة بالأفكار المسبقة عن الشرق، يُمكن إيراد المقولة التي صيغت أولًا في كتابات الرحالة فولني[22] القائلة بتراجع سكان الشام وتضاؤلهم في فترة الحكم العثماني. والحقيقة أنها لم تصبح انطباعات رحالة فقط، بل لقد كرستها مجموعة من الدراسات التاريخية اللاحقة والمسكونة بفكرة "استبداد الشرق" Despotisme Oriental، المتشبعة بالقراءات التوراتية حول بهاء الشرق[23] التي مفادها أن الشام عرف خلال السنوات 1600-1800 فترة ديموغرافية سوداء تقابلها فترة اندفاع سكاني في أوروبا، وبالطبع، بحسب هذه المقولات، كان وراء هذا الإفراغ والإخلاء استبداد الإدارة العثمانية وتنكيلها بساكنة الشام، قبل أن يُسلم الشام للقوى الغربية بلدًا شبه خال.

الحقيقة أن هذه الأطروحة، حول تضاؤل سكان الشام، عرفت عدة ردود من خلال دراسات متخصصة انطلاقًا من الأرشيف العثماني لتلك الفترة، وخصوصًا أن فكرة انكماش المدن العثمانية في القرن الثامن عشر لا تتطابق مع ما نعرفه عن التطور العام للسكان في العالم في التاريخ الحديث.

ويوصلنا هذا الأمر إلى الحديث عن بعض المناهج النظرية والمقاربات العامة المقارنة أو ما يسمى بظاهرة التناسب المتزامن والتنظيم الديموغرافي الذاتي.

ثالثًا: نظرية التناسب السكاني: مدخل منهجي أولي

يرى إرنست فاغمان Ernest Wageman وفرناند بروديل[24] أن هناك تناسبًا وتحركاتٍ جامعةً في المدن المتوسطية وعلى مستوى القارات. يلاحظ بروديل، بصفة عامة، زيادة في القرن السادس عشر، ثم ركودًا وتقلصًا في القرن السابع عشر، ونهوضًا في القرن الثامن عشر. وينطلق في رأيه هذا من فضاءين كبيرين، للمؤرخ تصور عام حول سكانهما (أوروبا والصين)، باعتبارهما وحدتي قياس تمثلان ربُع سكان العالم أو خُمُسه.

انطلاقًا من هذا المقياس ومن تتبع وتيرة تطور عدد السكان، تم ملاحظة تناسب متزامن بين مختلف القارات، تكون فيه التطورات السكانية (الناتجة من نمو تجاري، أو أوبئة كبرى ... إلخ) هزات ارتدادية يمكن قراءتها ورصدها عبر العالم، وملاحظة تزامنها في أماكن مختلفة، كأنه قدر كوني Cosmic Destiny. هذا التزامن، كان جليًا في القرن الثامن عشر، ونسبيًا في القرن السابع عشر، ومحتملًا جدًا في القرن الثالث عشر.

ويرى الاقتصادي والديموغرافي فاغمان أن التطور الديموغرافي مرتبط، أساسًا، بأسباب غير التي تتجلى في المجال الاقتصادي أو التقدم الطبي، لأن الاقتصاد الدولي لا يمكنه أن يشرح هذا التناسب المتزامن أو التوازن الذاتي، بل إن العامل الاقتصادي نفسه يمكن اعتباره، أحيانًا، نتيجةً وليس سببًا.

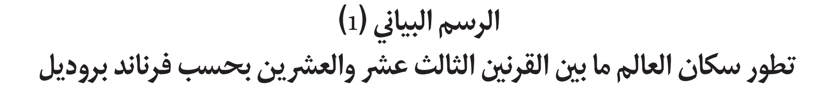
على العموم، تساعد هذه التقلبات شبه المتزامنة في أطراف الأرض على تخيل قضية أن التجمعات البشرية حافظت فيما بينها - على مستوى عدد السكان - على تناسب رقمي ثابت (الربع، والثلث، والنصف ... إلخ) وفهمها، ما يساعد على الاستنتاج والقياس. والحقيقة أن هذه الأعداد التعميمية، رغم عدم دقتها، تساعد على تتبع "النمو البيولوجي للإنسانية" باعتباره مخزنًا واحدًا كما يسميه الإحصائيون.

---

22 Constantin-François de Chasseboeuf Volney, *Voyages en Syrie et en Egypte, pendant les années 1783, 1784 et 1785* (Paris: Éditions Mouton & Co, 1959).

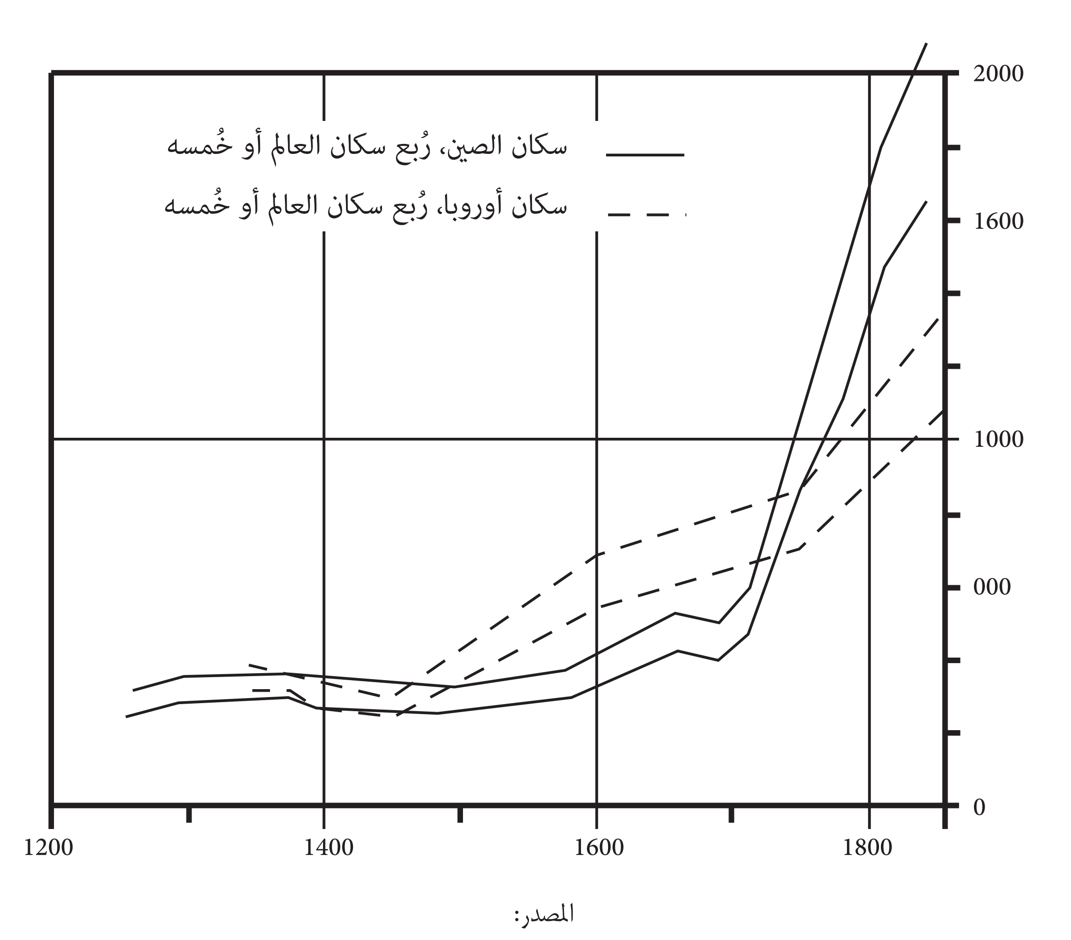
23 أنطوان عبد النور، "السكان وديمغرافية المدينة، مدن بلاد الشام في العصر العثماني"، ترجمة ماري فرانس جنابزي، **الفكر العربي**، العدد 29 (1982)، ص 267.

24 Fernand Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XVe-XVIIIe siècle: Les Structures du quotidien, Le possible et l'impossible*, vol. 1 (Paris: Armand Colin, 1979), p. 18.



الرسم البياني (1)

تطور سكان العالم ما بين القرنين الثالث عشر والعشرين بحسب فرناند بروديل



المصدر:

Fernand Braudel, *Les structures du quotidien: Le possible et l'impossible, Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XV-XVIII siècle*, Tome 1 (Paris: Armand Colin, 1979), p. 24.

وقد يكون التناسب عكسيًا بين فضاءين جغرافيين متباينين كما بين ذلك المؤرخ التونسي محمد طالبي حين درس التحولات الديموغرافية في دول المغارب Maghreb ما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر[25]. لقد حاول في هذا البحث تجاوز نقص المعطيات الرقمية في المصادر العربية، حيث لجأ إلى استثمار إشارات الجغرافيين العرب ليُبين الكثافة العمرانية التي ميزت استغلال المجال في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في المنطقة، الذي وافقه في أوروبا الميروفنجية والكارولنجية، غياب مدن تتجاوز ساكنتها 10 آلاف نسمة.

25 Mohamed Talbi, "L'Effondrement démographique au Maghreb du XI au XV siècle," *Cahiers de Tunisie*, vol. 25, no. 97 - 98 (1 et 2 trim. 1977), pp. 51 - 60.

لكن فيما بعد، في نهاية القرن الثاني عشر، حينما أصبحت المدن الأوروبية، نحو ميلانو، تعد 200 ألف نسمة وتعرف أوجها الاقتصادي والعمراني، كانت المدن المغاربية تشهد تراجعًا ديموغرافيًا واضحًا[26]. هذا التقهقر، بدأ، بحسب طالبي، خفيًا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ليصبح جليًا مع أزمات المجاعة والطاعون، وخصوصًا في سنة 395هـ/ 1005م، ليتبين أن هذه المنطقة أصبحت ذات ثقل ديموغرافي متراجع قبل أن تعرف بعد ذلك ما يُسميه الباحث "عمق الهاوية" الديموغرافية في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي مع الطاعون الأكبر والأزمات الأخرى المتلاحقة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

وأخيرًا، يخلص الباحث إلى أن محاولة تفسير منحنى هذا التراجع السكاني في العصر الوسيط يحتاج إلى مقاربة مجموعة من المستويات والظرفيات السياسية والسوسيو-اقتصادية والصحية، وربما كذلك ربطها بالمعطيات الطبيعية (الطقس والغطاء النباتي) من دون نسيان حالات الحرب، والتراجع التقني، والأزمات الطبيعية، والسياسات الضرائبية، وكذا تحولات البنية الاجتماعية[27].

رابعًا: تاريخ العالم الإسلامي: خصوصية المصادر وحفريات في الأصول

إلى جانب المقاربات العامة، يستند المؤرخ إلى مصادر متميزة تسعف، إلى حد بعيد، بناء مقاربات إحصائية - ديموغرافية لجوانب كثيرة من تاريخ الشعوب الإسلامية. فمنذ سبعينيات القرن الماضي، بدأ الاهتمام، عمومًا، بكتب التراجم والطبقات لتنوعها وأهميتها. ومثلت هذه الأعمال مرحلة وعي أكيدة بأهمية هذه النوعية من المصادر. ولقد بدأ الاهتمام بالبعد الإحصائي وبالإشارات المتعلقة بالميكرو - ديموغرافيا فيها، وخصوصًا أن هذه المصادر قد اهتمت بتراجِم وسير فئات مختلفة من المجتمع (الفقهاء والعلماء، والأطباء، والشعراء ... إلخ) عبر الزمن أو في حواضر إسلامية معينة (بغداد، ودمشق، وفاس، ومراكش ... إلخ).

ففي دراسة شارل بيلا حول مسألة إمكان معرفة نسبة التوالد في الفترة النبوية[28]، وانطلاقًا من مجموعة من المصادر؛ نحو **الطبقات الكبرى** لمحمد بن سعد و**نسب قريش** لمصعب بن عبد الله الزبيري و**الإصابة في تمييز الصحابة** لأحمد بن حجر، حاول استخلاص بعض المعلومات الديموغرافية الخاصة بفترة الثلث الأول من القرن السابع الميلادي (في مكة والمدينة) من خلال جمل من قبيل "فولدت له" أو "من ولد فلان".

فبعد إحصاء 700 امرأة في **نسب قريش** يقابلها 1726 مولودًا (1327 طفلًا ذكرًا و399 أنثى) انتهى إلى تحديد نسبة توالد تُعادل 2.46 (1.89 من الذكور و0.57 من الإناث). طبعًا؛ إذا اعتبرنا التحديد النسبي لمعدل الخصوبة مسألة مهمة يُمكن نمذَجتها وأجرأتها في دراسات لاحقة، فإن الأرقام المستقاة تبقى عامة، لها وعليها، كما أن التناسب بين الذكور والإناث أمر فيه نظر.

وانتقل الباحث بعد ذلك إلى تحديد آخر، انطلاقًا من 50 امرأة ذُكر أبناؤهن (340 طفلًا: 233 ذكرًا و117 أنثى)؛ أي بمعدل خصوبة يعادل 6.8 (4.46 من الذكور و2.36 من الإناث)، وبتناسب جديد بين الذكور والإناث (190 طفلًا ذكرًا لكل 100 أنثى). وفي عينة أدق للنساء اللاتي تزوجن أكثر من مرة، أحصى بيلا 27 حالة محددة بدقة يوافقها 102 من الأطفال (67 من الذكور و35 من الإناث) أي 177 ذكرًا لكل 100 أنثى. وبعد استعراض هذه العينات المختلفة، ووضع مجموعة من الحسابات والجداول الإحصائية الدقيقة، توصل الباحث إلى تحديد معدل الخصوبة في تلك الفترة بـ 2.5 لكل امرأة.

---

26 Ibid., p. 54.

27 Ibid., pp. 59 - 60.

28 Charles Pellat, "Peut-on connaître le taux de natalité au temps du Prophète? A la recherche d'une méthode," *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 14, no. 2 (August 1971), pp. 107 - 135.



لكن هذه النتائج لا تأخذ أهميتها ليتم أجرأتها معيارًا أو أنموذجًا، أو لفهم وتيرة تجدد الأجيال أو خصوبة الأسر، إلا باعتبار مجموعة من القضايا المرتبطة، بخصوصيات المصادر من جهة، وبالمعطيات السوسيولوجية المُشكلة للبيئة العامة من جهة أخرى؛ إذ إن حالات عديدة من العينات المدروسة تعود إلى فترة ما قبل الإسلام، حيث تكثر حالات تزوج الابن والأب من المرأة نفسها، وحيث تصبح المرأة زوجة لأخوين عن طريق الميراث، وحيث ظاهرة التعدد، وزواج النساء الأرامل والمطلقات أكثر من مرة.

في دراسة أخرى للباحث نفسه[29]، اعتمد فيها هذه المرة على كتاب **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** (1032-1089هـ/ 1623-1679م) لعبد الحي بن أحمد بن العماد، الذي يغطي فضاء ألف سنة في مجال العالم الإسلامي، ويُمكن من تتبع مجموعة من المشكلات، ومن عقد مقارنات بين القرون. فالكتاب يضم: 3311 ترجمةً تحمل إشارات إلى الأعمار، و1573 ترجمةً تحمل إشارات دقيقة إلى سنة الميلاد والوفاة. ولقد سمح هذا الكم من المعطيات بالوصول إلى مجموعة من الاستنتاجات حول معدل أعمار الأعلام عبر تسعة قرون.

الجدول (2)

معدل أعمار الأعلام عبر تسعة قرون من خلال كتاب: شذرات الذهب

الفترة الزمنية	معدل العمر من خلال ترجمات شذرات الذهب
القرن 2 الهجري	81 سنة
القرن 3 الهجري	85 سنة
القرن 4 الهجري	86 سنة
القرن 5 الهجري	82 سنة
القرن 6 الهجري	78 سنة
القرن 7 الهجري	75 سنة
القرن 8 الهجري	72سنة
القرن 9 الهجري	67 سنة
القرن 10 الهجري	71 سنة

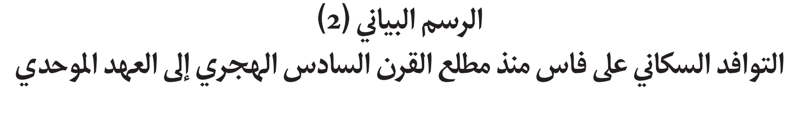
المصدر:

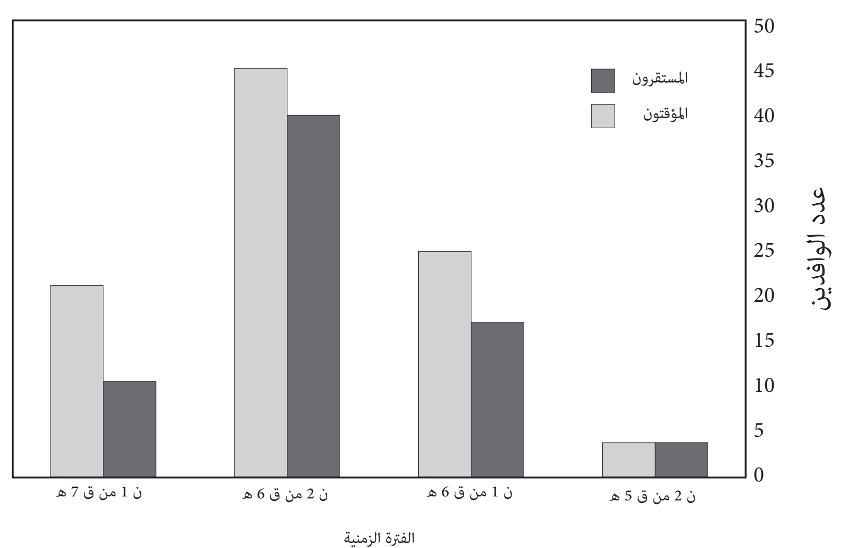
Charles Pellat, "Quelques chiffres sur la vie moyenne d'une catégorie de musulmans," in: *Mémorial Alfred Bel* (Leyde: Brill, 1974).

ليخلص في النهاية إلى معدل عمر عام يوافق (73-74 سنة شمسية = 75 سنة وثمانية أشهر قمرية) مع الاعتراف بأنها تبقى محاولة منهجية جزئية ومبسطة، ولكنها ربما كانت قادرة على فتح آفاق جديدة إذا ما تمّت مقارنتها بقضايا تحركات الأعلام والعلماء، وكذا بظروف وفاتهم (مرض، أو قتل، أو حوادث أخرى).

29 Charles Pellat, "Quelques chiffres sur la vie moyenne d'une catégorie de musulmans," in: *Mémorial Alfred Bel* (Leyde: Brill, 1974), pp. 233 - 246.

وحول المتن المصدري نفسه، نجد دراسة عبد الأحد الرايس حول حركية السكان بفاس في العصر الوسيط[30]، تنطلق من أحد كتب المناقب والتراجم، وهو كتاب **المستفاد في مناقب العباد** لمحمد بن عبد الكريم التميمي (ت. 604هـ)، لتحاول الكشف عن جزء من آليات النمو السكاني المرتبط بالهجرة الخارجية وترجمتها برسم بياني وجداول توضح أن التوافد السكاني على فاس سار في خط تصاعدي منذ مطلع القرن السادس الهجري، لترتفع نسبته نسبيًا في العهد الموحدي. وهذه النتائج، رغم قلة المعلومات المصدرية وعدم دقتها، لها أبعاد جديدة يمكن أن تكتسب أبعادًا جديدة؛ إذا ما ربطت بالبنيات الاقتصادية وتحولاتها في العصر الوسيط، ووُطنت مجاليًا وخرائطيًا على مستوى فضاء المدينة، وقُوبلت، بالموازاة مع المعطيات الأثرية الجديدة.


الرسم البياني (2)
التوافد السكاني على فاس منذ مطلع القرن السادس الهجري إلى العهد الموحدي



المصدر: عبد الأحد الرايس، "حركة السكان بفاس خلال عصر المرابطين والموحدين: حركة الوافدين مثالًا، **مجلة كنانيش**، العدد 4 (2002)، ص 34.

من المصادر المتميزة في العالم الإسلامي كذلك، نجد السجلات الإحصائية العثمانية التي ترجع إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. يضم كل سجل، خصوصًا في فترة السلطان سليمان القانوني (1520-1566)، معطيات رقمية دقيقة حول السكان والضرائب المدفوعة، تُجدد كل شهر أو كل أربعين سنة، شهر بحسب التقاليد الإدارية العثمانية[31].

تسمح هذه المعلومات برسم لوحة تاريخية حية لتركيا العثمانية (وبعض مدن الدول العربية التابعة آنذاك للإمبراطورية العثمانية) من حيث ساكنة المدن والبوادي، والأعيان والعسكر الإنكشاريين، والقبائل الرحل والطوائف الدينية، والتشكيلة الاقتصادية والمهن، الأسواق والضرائب. هذه الوثائق الغنية، سمحت للباحث التركي باركان بإقامة جداول دقيقة حول مُلاك الأراضي الفلاحية، والبنية

30 عبد الأحد الرايس، "حركة السكان بفاس خلال عصر المرابطين والموحدين: حركة الوافدين مثالًا"، **مجلة كنانيش**، العدد 4 (2002)، ص 9-34.

31 Barkan, p. 11.

الاجتماعية والإدارية للإمبراطورية العثمانية، وطوائف الأعيان. واستطاع، من خلال ثلاثة إحصاءات مختلفة ومتفرقة في الزمن في الفترة (1451-1575)، تتبع سكان المدن العثمانية وتأكيد نمو هذه المدن في القرن السادس عشر، ومقارنتها بمثيلاتها الأوروبية والآسيوية.

يمضي الباحث باركان في مجموعة من الاستنتاجات حول تتبع التقلبات الديموغرافية الأخرى، مراعيًا أُضمومة من المعطيات والمحاذير المنهجية المرتبطة بما يلي:

1. عدم الإشارة إلى الرجال العُزاب في الإحصاءات الضرائبية.
2. استعمال الضارب الثابت "5" لكل موقد أو أسرة بحذر، وبحسب الجهة المدروسة أو الفئة الاجتماعية أو وظائف الأسر.
3. غياب فئة العبيد في السجلات العثمانية، رغم أنها كانت تمثل، تقريبًا، ما بين خمسة وعشرة في المئة من سكان المدن آنذاك.
4. افتراض وجود تجار أجانب وطلبة المدارس، رغم غياب الأدلة الداعمة والإشارات الإحصائية في السجلات المدروسة.

الجدول (3)

سكان أهم المدن العثمانية عبر محطات زمنية مختلفة من خلال السجلات العثمانية

الأسماء	ما قبل 1520	1520-1530	1571-1580	ما بعد 1580
إسطنبول	97956 (عام 1478)	400000 (؟)	700000 (؟)	
حلب	67344	56881	45331	46365
دمشق	-	57326	-	42779 (عام 1595)
بورصة	-	34930	70686	-
أدرنة		22335	30140	-
ديار بكر	-	18942 (عام 1541)	31443	-
أنقرة	-	14872	29007	-
أثينا		12633	17616	-
توكات	17328 (عام 1455)	8354	13282	21219 (عام 1646)
سيفاس	3396	5560	16846	-
سراييفو	-	5632	23485	-
منستير	2645	4647	5918	-
سكوبيلي (مقدونيا)	4974	4631	9867	-
صوفيا	-	3899	7848	-

المصدر (بتصرف):

Ömer Lutfi Barkan, "Essai sur les données statistiques des registres de recensement dans l'Empire Ottoman au XVe et XVIe siècles," *Journal of Economic and Social History of the Orient*, vol. 1, no. 1 (August 1957), p. 27.

خامسًا: المؤشرات العمرانية ودلالاتها الديموغرافية في بعض المدن الإسلامية

في غياب مصادر مكتوبة دقيقة تسعف المؤرخ الديموغرافي بتتبع تطور سكان المدن الإسلامية، نشأ تيار من المؤرخين يقوم على استقراء الآثار والمنشآت القائمة بطريقة منهجية مبتكرة للإجابة عن كثير من أسئلة الديموغرافيا التاريخية. يمكن الحديث هنا عن مقاربة ألكسندر لزين Alexandre Lézine لتقدير عدد سكان مدن إفريقية (تونس) في العصر الوسيط على نحو نسبي؛ من خلال تتبع تاريخ الجوامع الكبرى، ومراحل توسيعها، وتحديد مساحتها، لاستنتاج طاقتها الاستيعابية في الصلوات الجامعة، ومن ثم، استخلاص التطور السكاني في هذه المدن من خلال عينة المصلين. لقد طبق لزين هذا المنهج التقديري على مسجد سوسة الأعظم في مقاربة أثرية-معمارية، استطاع على إثرها تحديد تطور عدد المصلين[32] عبر الزمن، مستخدمًا ضاربًا ثابتًا لتحديد الكثافة العامة للسكان. وانطلاقًا من المنهج نفسه، درس الجانب الديموغرافي لمدن تونسية أخرى، نحو القيروان عبر مسجدها الكبير (مساحته 9000م²).

في المنحى نفسه، وأمام القلة النسبية للوثائق والمعطيات الديموغرافية حول المدن العربية في العهد العثماني بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، اعتمد الباحث الفرنسي أندري ريمون André Raymond على المنشآت العمرانية الحضرية العامة، نحو الحمامات[33] والسقايات (السبيل)[34] بعددها وتوزيعها، باعتبارها مؤشرات على عدد السكان. فالحمام، يوازي إجمالًا، بحسب رأيه، عددًا من السكان يتراوح بين 3 و5 آلاف، أي بمعدل حمام لكل 4 آلاف ساكن. واعتمادًا على الإشارات الإحصائية المُستخلصة من المصادر حول المنشآت العمرانية العمومية، وخصوصًا في القاهرة العثمانية (ق. 15-18م)، استطاع ريمون، في مقاربة عامة، أن يفند بدءًا مسألة تدهور عدد السكان في العهد العثماني، بل إنه يؤكد ارتفاع عددهم (من 150 ألف نسمة في عام 1420 إلى 260 ألف نسمة في عام 1798)[35].

إن ما سنسعى لتمكين أعراقه، من خلال انتقاء بعض الأمثلة التي حاول أصحابها إعادة رسم الخريطة البشرية لمجموعة من المدن الإسلامية في فترات زمنية مختلفة، هو التنبيه إلى تباين المسالك المنهجية، وإلى كثافة القضايا التاريخية المتصلة بعدد السكان، وإلى ضرورة التعمق المعرفي في أي محاولة لفهم بنيات المجتمعات العربية وتغيراتها عبر التاريخ.

1. دمشق

بالنسبة إلى مدينة دمشق، يرى الباحث تييري بيانكي أن تحديد مساحتها وامتدادها في العصر الوسيط سهل التكميم نسبيًا، من خلال الاستعانة بالخرائط المعاصرة التي تمكن من استيعاب تطور المدينة في المراحل السابقة[36]. وبحسب رأيه، فإن دمشق، على شاكلة مدينتي القدس وحلب، وعلى عكس القاهرة وبغداد، منتظمة حول مركز عمراني قديم (منذ الألفية الثانية قبل الميلاد)، يتطور عمرانها عبر بناء الجوانب المحيطة بهذا المركز أو هدمها.

يحدد بيانكي مساحة دمشق في العصر الوسيط بـ 115 هكتارًا، تُضاف إليها مساحة الأحياء المحيطة بها، المحددة بـ 150 هكتارًا تقريبًا. أما فيما يخص تحديد عدد سكانها في تلك الفترة، فيرى هذا المؤرخ أننا لا نملك محددات دقيقة، ولكن إذا ما اعتمدنا مساحة

32 قدر لزين متوسط المساحة الضرورية للمصلي الواحد كالآتي: مستطيل عرضه 0.60م وطوله 1.35م.

33 André Raymond, "Les Bains publics au Caire à la fin du XVIIIe siècle," *Annales Islamologiques*, no. 8 (1969), pp. 129 - 150.

34 André Raymond, "Signes urbains et études de la population des grandes villes arabes à l'époque ottomane," *Bulletin d'études orientales,* vol. 27 (1974), pp. 183 - 193.

35 André Raymond, "La Population du Caire de Maqrizi à la Description de l'Egypte," *Bulletin d'études orientales*, vol. 28 (1975), p. 209.

36 Thiery Bianquis, "Damas," in: Jean-Claude Garcin (dir.), *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval,* Collection EFR no. 269 (Rome: L'Ecole française de Rome, 2000), p. 41.



دمشق داخل أسوارها Intra-Muros المحددة بـ 115 هكتارًا، وأنقصنا منها الثلث (أي المساحة التي تشكلها شبكة الطرقات الداخلية، والبنايات العامة)، يتبقى نحو 70 هكتارًا تُتخذُ فضاءً سكنيًا تحتله الدور والمنازل.

كل وحدة سكنية، بحسب تقدير المؤرخ، تغطي في المعدل مساحة 100م² وتأوي من 3 إلى 7 أفراد؛ بمعدل عام يوازي 100 وحدة سكنية في كل هكتار، وبساكنة تراوح بين 300 و700 فرد. بمعنى أنه إذا افترضنا أن المدينة كانت تضم 80 هكتارًا مساحةً سكنيةً، عدد السكان الذي يقابلها يراوح بين 24 و56 ألف فرد.

ويلجأ الباحث إلى طريقة أخرى يستعين فيها بمصدر إخباري قديم (ابن القلانسي، 1071-1160م)، الذي يحدد عدد أفران دمشق في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بـ 240 فرنًا. وكل فرن عمومي يلبي، بحسب تقديره، حاجات 50 عائلة كحد أقصى، كل واحدة منها مكونة من 5 أفراد أي ما يعادل (240×50=12ألف عائلة)؛ بمعنى آخر، 60 ألف فرد كحد أقصى.

إضافة إلى مؤشر القوت اليومي، يرتكز الباحث على معطيات رقمية تخص، هذه المرة، صبيب الماء، باعتباره أحد مقومات الحياة. استنادًا إلى الدراسات الأثرية حول شبكة المياه داخل دمشق في العصر الوسيط، ومقارنة بالمعطيات الرقمية لصبيب المياه في بداية القرن العشرين، فإن دمشق لم يكن عدد سكانها خلال فترات تاريخها الوسيط يخرج عمّا بين 200 و300 ألف ساكن[37]، وهذا رقم كبير.

2. بغداد

قدم المؤرخون والأثريون أطروحات وافتراضات مختلفة لتعداد ساكنة بغداد في العصور الإسلامية، فقد تراوحت الأرقام المُقدمة ما بين مئات آلافٍ إلى زهاء مليونَي ساكن. ولم تستند هذه التحديدات الرقمية في عمومها إلى معطيات حسابية دقيقة، بل هي افتراضات بُني صرحها انطلاقًا من عدد الحمامات المذكورة في المصادر التاريخية، أو استنادًا إلى معطى مساحة المدينة[38].

فيما يخص عدد الحمامات، يستعرض الإخباري الخطيب البغدادي (ت. 463هـ/ 1071م) روايات مختلفة: الأولى لمحمد بن يحيى الصولي (ت. 335هـ/ 946م)، وهي تذكر أن بغداد كانت تضم 60 ألف حمام، وهذا رقم مبالغ فيه. أما الروايتان الأخريان، والمتقاربتان في الزمن، فهما تبسطان معطيات رقمية متباينة: أكثر من 10 آلاف حمام بحسب المهلبي، وزير معز الدولة ما بين (322-334هـ / 934-945م)، ثم معطى 27 ألف حمام في عهد الخليفة المقتدر (295-320هـ/ 908-932م). ويضيف البغدادي رواية أخرى تحدد عدد حمامات بغداد في 50 ألفًا في عهد عضد الدولة الذي أحكم قبضته على بغداد في عام 368هـ/ 979م[39]. وطبعًا، يدعو تباين هذه الأرقام في فترة زمنية متقاربة إلى الشك فيها ويضيف التباسًا آخرَ.

وفي المقابل، فضل المؤرخ المعاصر عبد العزيز الدوري الانطلاق من الرقم الذي قدمه الإخباري هلال الصابي في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي (1500 حمام)، ومن مُعطى افتراضي مفاده أن كل حمّام كان يستجيب لحاجات 200 منزل، وأن كل عائلة تضم في المعدل المتوسط 5 أفراد، ليحدد عدد سكان بغداد في العصر الوسيط بـ 1.5 مليون نسمة في أقصى توسعها[40].

37 Ibid., p. 42.

38 Françoise Micheau, "Bagdad," in: Garcin, p. 93.

39 Ibid.

40 Abdelaziz Duri, "Bagdad," in: *Encyclopédie de l'Islam*,vol. 1, 2ème ed., (Leyde; Paris: Maisonneuve & Larose, 1960), p. 925.

حاولت دراسات أخرى تقدير عدد سكان هذه المدينة الإسلامية عبر تحديد مساحتها، وإن كان هذا المنحى لا يخلو من صعوبات معرفية ومنهجية. ومثل هذه المقاربات، تفترض أن نكون مطلعين سلفًا على حجم هذه المساحة وعلى كثافة السكان فيها، لكن رغم ذلك، جازفت مجموعة من المؤرخين المعاصرين واتخذت هذا المسلك.

طرح الباحث جاكوب لاسنر مقترحًا (40 ساكنًا في الهكتار الواحد في القرن الخامس الهجري)، واعتبر أن الكثافة السكانية فيها تقدر بخُمس كثافة القسطنطينية (200 ساكن في الهكتار)، نظرًا إلى شساعة مساحة حدائق بغداد وقصورها. وبتقديره مساحة مدينة بغداد في 7 آلاف هكتار، توصل إلى نتيجة متمثلة بـ 280 ألف ساكن[41]. ومن جهة أخرى خلَص روسل إلى أن كثافة بغداد الوسيطية يمكن تحديدها بـ 100 ساكن في الهكتار الواحد، وحدد مساحتها بـ 3 آلاف هكتار، ليقترح، أخيرًا، أن عدد السكان البغداديين يُقدر بـ 300 ألف ساكن[42].

لا شك في أنه من الصعب الحسم في هذه التقديرات المتباينة، لكنها على العموم تؤكد ضخامة مدينة بغداد مقارنة بمثيلاتها في العصر الوسيط، وتؤكد كل المصادر القديمة هذا الأمر. يذكر الجغرافي أبو العباس اليعقوبي في كتابه **البلدان** أن فيها 10 آلاف زقاق (درب أو سكة)، بينما يشير محمد بن جرير الطبري إلى عدد يبلغ 7 آلاف منزل تهدمت في حي الكرخ، على إثر فيضانات عام 270هـ/ 883م، أما جمال الدين بن القفطي، مؤرخ العلماء، فيحدد عدد أطباء بغداد بـ 860، في عام 319هـ/ 931م[43].

3. القاهرة

بالنسبة إلى القاهرة، غالبًا ما يجد المؤرخ الديموغرافي نفسه أمام تقديرات عامة ومرتفعة لسكان المدينة (500 ألف و600 ألف) بحسب دراسات مارسيل كليرجي Marcel Clerget وجانيت أبو لغد Janet Abu-Lughod[44]. أما الباحث ميكايل دولس Michael Dols، فيحدد العدد في 450 ألفًا قبل طاعون عام 1349م[45]. وفي المقابل، نجد تقديرات مخفضة (50 ألفًا و60 ألفًا) مقترحة انطلاقًا من إحصاءات رياضية استُمدت على نحو خاطئ من المصادر التاريخية[46]. على كل حال، تبقى تقديرات ريمون أوجه وأشد إقناعًا[47]، فهو يقترح، بالنسبة إلى الجزء من المدينة الذي لا يضم بولاق والفسطاط، أقل من 200 ألف في بداية القرن السادس عشر، وأقل من 250 ألفًا في القرن الرابع عشر.

4. حلب

تشير المصادر الإخبارية إلى تطور مهم في عمران حلب ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وإلى أن هذا النمو، وفق ما يؤكده دومينيك سورديل، امتد إلى خارج أسوار المدينة[48]. وفيما يخص المعطيات العمرانية، يحدد كتاب محمد بن علي عز الدين بن شداد: **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، الذي يصف فيه مدينة حلب قبل الغزو المغولي في عام 1260م، بعض أعداد معالمها (208 مساجد، و70 حمامًا) داخل أسوار المدينة[49].

41 Jacob Lassner, *The Topography of Baghdad in The Early Middle Ages* (Detroit: Wayne State University, 1970), pp. 159 - 160.

42 Russel, p. 89.

43 Micheau, p. 93.

44 Doris Behrens-Abouseif, "Le Caire," in: Garcin, p. 179 - 180.

45 Ibid.

46 Russel, p. 131.

47 Raymond, "La population du Caire," pp. 201 - 215.

48 Dominique Sourdel, "Esquisse topographique d'Alep intra-muros à l'époque ayyoubide," *Annales Archéologiques de Syrie*, vol. 2 (1952), pp. 109 - 133.

49 Anne-Marie Eddé, "Alep," in: Garcin, pp. 159-160.



إذا كان تطور المدينة، في الفترة الواقعة بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أمرًا لا جدال فيه، فإن تحديد عدد السكان في هذه الفترة الزمنية ليس منالًا سهلًا. فالمصادر التاريخية العربية تشير إلى بعض الأرقام الصعبة الاستيعاب على إثر الغزو المغولي (50 ألف شخص فروا من هذه المجازر، ربع السكان بحسب البعض، و100 ألف تمّ بيعهم رقيقًا)[50].

من جهة أخرى، ظلت محاولات تكميم عدد السكان وإحصائهم من خلال مساحة المدينة ومنشآتها العامة، مخيبة للآمال.

إن الإحصاء من خلال تحديد مساحة حلب يواجه مشكلتين أساسيتين: صعوبة تحديد مساحة الأحياء المحيطة بالأسوار، وجهل المؤرخين نسبة الفضاء المأهول أو غير المسكون داخل المدينة (نحو الأزقة، والمساحة غير المعمورة، والحدائق، والبنايات العمومية ... إلخ)، ما يجعل أي عملية تقييم للكثافة العمرانية وتكميمها محفوفة بالنسبية والخطأ.

توقفت تقديرات روسل لسكان مدينة حلب عام 1200م عند 14 ألفًا، انطلاقًا من مساحة المدينة داخل أسوارها. فقد أسس افتراضه على معطى 125 ساكنًا في الهكتار الواحد من دون أن يعير سكان الحارات المحيطة بالأسوار اهتمامًا، ما يجعل تقديره بعيدًا عن الواقع التاريخي[51].

من الناحية المنهجية، تبدو تقديرات الباحث ريمون - المعروف باستثماره عدد البنايات العمومية في المدن العربية في العهد العثماني مؤشرًا على حركية السكان ونموهم - التي تحدد العدد الموازي لكل حمّام في حدود 3000-3500 نسمة، مردودةً وغير مناسبة لمدينة حلب التي كانت تحوي في القرن الثالث عشر ما يناهز 163 حمّامًا عموميًا، إضافة إلى 30 حمامًا خاصًا، فالأمر مبالغ فيه.

الشيء نفسه بالنسبة إلى تقديرات أطروحة هينز كوب Heinz Gaube وأوجن فيرث Eugen Wirth المنطلقة من عدد المساجد، فقد خلصت إلى عدد سكان يناهز 200 ألف لمدينة حلب[52]. حقيقةً، إنه من الصعب تحديد عدد السكان الموازي لكل مسجد؛ لأن دور العبادة كانت تتخذ أشكالًا مختلفة: بناءً مستقلًا، أو غرفًا في منشآت عمومية، سواء كانت خانات أو أبراجًا. أما بناء المساجد فكان غالبًا لبواعث دينية أو شخصية أكثر منه استجابات لحاجات ديموغرافية في كل مرة.

ترى آن ماري إيدي أن كثافة مدينة حلب يمكن تحديدها، قبيل الحملة المغولية، في عام 1260م، بين 200 و350 ساكنًا في الهكتار[53]، في مساحة تقدر بـ 112 هكتارًا، إضافة إلى 4 هكتارات هي حيز القصبات ذات الكثافة المنخفضة والمحدودة.

كانت حلب داخل أسوارها تضم، على أقل تقدير، ما يُناهز 23 ألف ساكن، يضاف إليهم عدد سكان الأحياء المحيطة، الكثيرة العدد، ما بين 25-30 ألفًا. وبكثافة تقارب 350 ساكنًا في الهكتار، يمكن تقدير ساكنة المدينة بـ 40 ألفًا، وربما 45 ألفًا في الأحياء الهامشية، ما مجموعه 50-85 ألف ساكن.

أمام قلة الدراسات المرجعية عن عدد سكان حلب في العهد المملوكي، يبقى التذكير بأثر هجمات المغول في عام 1260م، والطاعون الأكبر في الفترة 1348-1349م والدمار الذي أحدثه تيمورلنك في عام 1400م، والأوبئة التي مست المدينة في منتصف القرن الرابع عشر، وخلال القرن الخامس عشر، باعتبار هذه العوامل مؤشرات كبرى دالة على ركود النمو الديموغرافي وتراجعه في شمال سورية، وإن كان تعيين أرقام دقيقة لن يتأتى إلا مع بداية القرن السادس عشر[54].

---

50 Ibid.

51 J.C. Russel, "The population of the Crusades States," in: Norman P. Zacour & Harry W. Hazard (eds.), *A history of the Crusaders: The Impact of the Crusades on the Near East*, vol. 5 (Madison: University of Wisconsin Press, 1985), pp. 295 - 314.

52 Eddé, p. 160.

53 Ibid., p. 161.

54 بالنسبة إلى القرن 16م، فإن الدراسات المُستنطقة للمصادر الإدارية والضرائبية العثمانية تؤكد تراجع عدد السكان في مدينة حلب من 67 ألف فرد في عام 1519م إلى نحو 45 ألفًا في عام 1580م، انظر: Barkan, pp. 9-36.

في غياب مصادر مكتوبة دقيقة ومعطيات أثرية بينة، لن يتبقى للباحث إلا خيار المقارنة بمعطيات المدن الإسلامية الأخرى لتحديد عدد السكان الحلبيين في العصر الوسيط. ولهذا المقصد، يمكن استثمار المعطيات الخاصة بالكثافة السكانية (الحد الأقصى والحد الأدنى) لمدن الغرب الإسلامي بما فيها الأندلسية لتشكيل رؤية عامة.

5. تونس

في الغرب الإسلامي، وفي تونس خصوصًا، تبقى مقاربة لزين هي الأدق منهجية، وإن كانت تنطلق من مقدمات ليست بالضرورة صحيحة ومُسلمًا بها. بالنسبة إلى هذا المهندس والمؤرخ، تعادل المساحة المفترضة (الضرورية) لكل مُصلٍّ في المسجد الأعظم 0.60×1.35 متر، ومن ثم ينطلق من مسجد الزيتونة حين أعيد بناؤه في عام 864م، وصار يستوعب 9 آلاف مصلٍّ، عندما كانت تونس ثاني مدينة في عهد دولة الأغالبة، وكانت ميناءً مهمًا في إفريقية (تونس)، ليصل إلى تقديراته التالية: في عام 732م، كانت تونس تضم 6500 ساكن، بينما وصل تعداد سكانها في عام 684م، إلى 9 آلاف فرد. أما الكثافة السكانية فكانت تتأرجح في استنتاجاته ما بين 140 و200 ساكن في الهكتار، علمًا أن امتداد مدينة تونس، في عهد الأغالبة، كان يصل إلى 500 متر، من شرقها إلى غربها، وإلى نحو 1000-1300 متر، من الشمال إلى الجنوب، مع العلم - بحسب الرحالة محمد العبدري الحاحي الذي زار تونس في بداية القرن الثالث عشر - أن أرباض المدينة كانت في حجم المدينة نفسها.

ومما تجود به المصادر التاريخية، إشارة ابن الشماع[55] المتعلقة بتونس التي كانت في عام 772هـ/ 1370م تضم 7 آلاف منزل، أي تقريبًا بحسب منهجية لزين، 35 ألف ساكن، وهو ما يقارب 120 ساكنًا في الهكتار الواحد. وتمت مضاعفة الرقم نفسه بضارب 10، من طرف الباحث إبراهيم جدلة بدعوى تعدد الزوجات والجواري، والخدم، والعبيد في المسكن الواحد، ليصل إلى حدود 70 ألف ساكن[56]. وكان هذا التعداد السكاني (سواء 35 أو 70 ألفًا) ينتشر في فضاء عمراني يحدده الباحثون انطلاقًا من بقايا آثار الأسوار القديمة، لما بين 1317-1350م، بـ 293 هكتارًا[57].

وبحسب المؤرخ عبد العزيز الدولاتلي[58]، كانت تونس في القرن الخامس عشر تُغطي أكثر من 250 هكتارًا؛ وبناءً عليه، كانت الكثافة السكانية تقارب 200 ساكن في الهكتار، داخل الأسوار، وكانت بنسبة أقل في الأرباض المحيطة التي ظلت تحافظ على طابع قروي في طريقة انتشارها.

في القرن السادس عشر، صارت تونس، بحسب ليون الإفريقي (الحسن الوزان)، تضم 10 آلاف كانون (موقد لكل أسرة) بما يمثل 50 ألف ساكن، إذا ما سلمنا أن الأسرة تضم 5 أفراد في المعدل العام، وبكثافة سكانية تصل إلى 160 ساكنًا في الهكتار[59].

في المقابل، تختلف قراءة إبراهيم جدلة مرة أخرى عن المعهود لتقترح تأويلًا لمعلومة ليون الإفريقي، وترفع عدد سكان تونس آنذاك إلى 80 ألف ساكن. وفي الحقيقة، يحصي ليون الإفريقي 10 آلاف كانون داخل المدينة و300 في حي "باب المنارة"، وأكثر من ألف في حارة السويقة، وأكثر من 300 في "باب البحر" أي ما يعادل 11600 كانون، أو مقدر بما بين 58 و116 ألف ساكن بحسب القراءات والتأويلات.

55 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري (تونس: الدار العربية للكتاب، 1984)، ص 105.

56 إبراهيم جدلة، **السكان الحضر بإفريقية من القرن 13 إلى القرن 16، الديموغرافية التاريخية في تونس** (تونس: دار سراس للنشر، 1993)، ص 97.

57 Mounira Chapoutot-Remadi, "Tunis," in: Garcin, p. 237.

58 عبد العزيز الدولاتلي، **مدينة تونس في العهد الحفصي**، تعريب محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتلي (تونس: دار سراس للنشر، 1987)، ص 107.

59 Chapoutot-Remadi, p. 237.

إلى جانب هذه الخلاصة، تأتي دراسات أحمد السعداوي وإبراهيم جدلة حول الأوبئة والكوارث التي ضربت تونس لاستكمال مشهد تطور نمو سكان هذه المدينة، فيشير السعداوي إلى الرجوع الدوري Periodicity للكوارث (جفاف، ومجاعة، وطاعون) كل 19 سنة، في الفترة الممتدة بين 665هـ/ 1206م و899هـ/ 1494م، وهو الأمر الذي يؤكده ليون الإفريقي؛ إذ يحدد، بدوره، هذا الرجوع الدوري في كل 10-15 سنة.

من جهة أخرى، تكشف الباحثة منيرة رمادي أن تونس عرفت أحد عشر وباءً في الفترة 749-899هـ/ 1348-1494م، وترى أن المشهد سيكون أشد وضوحًا إذا ما تم استنطاق الأرشيف الإيطالي والإسباني الذي سيسعف، لا محالة، بضخ رؤًى وتدقيقات جديدة[60].

6. القيروان

بدءًا، يرى الباحث منذر صقلي أنه من الصعب تحديد عدد سكان القيروان في العصر الوسيط بدقة. ويشير المؤرخ محمد طالبي إلى أن سكانها لم يتجاوزوا قط 50 ألفًا. أما لزين الذي استند إلى طريقته المعهودة في الربط بين مساحة المسجد الأعظم والتطور العمراني، فيحدد عدد سكانها في 9250 فردًا، في الربع الأخير من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. وفي حين يذهب طالبي إلى أن سكان القيروان في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ظلوا في ازدياد مستمر في عهد الأغالبة، فإن لزين، يعتبر أن المدينة آنذاك لم يكن لها أسوار ماثلة، وأن مساحتها كانت في توسع دائم، ما انعكس على توافد السكان وتكاثرهم.

في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، سيتسع عمران القيروان ليُقابله، بحسب طالبي، كثافة سكانية، حددها لزين بـ 35-36 ألف ساكن. وفي المقابل، يرى طالبي أن مُنعرج التراجع السكاني لإفريقية كاملةً، كان من منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وأن سكان القيروان عرفوا خلال هذه الفترة انخفاضًا كبيرًا على إثر مجاعة عام 395هـ/ 1005م وطاعونه.

7. فاس

تبقى المعطيات الديموغرافية لمدينة فاس قليلة باستثناء ما تفرق من المعطيات التي توفرها المصادر التي قد تسمح؛ إذا تم تحقيقها، باستنباط تقديرات تقريبية عن السكان. وتاريخيًا، أقيمت النواة الأولى للمدينة على الضفة اليمنى من وادي فاس سنة 172هـ/ 789م. سنوات بعد ذلك، أنشأ إدريس الثاني نواة أخرى على الجهة اليسرى لمسار الوادي. هذان التجمعان العمرانيان (عدوة القرويين، وعدوة الأندلس)، تطورا سريعًا، كل داخل أسواره، يفصلهما "وادي الجواهر"[61]. وعلى إثر ذلك، ستمثل موجات الهجرة نحو فاس، من قرطبة (202هـ/ 818م) والقيروان (210هـ/ 825م) مددًا بشريًا جديدًا مكنت فاس من تجاوز حالتها الجنينية عمرانيًا، ليكون الأمر بداية مسار حضري واسع. غير أن الاستقرار العمراني لم يمضِ وفق إيقاع متشابه في كلا العدوتين. فإذا لم تفتأ ضفة القرويين تتطور وتتعاظم، فإن الضفة الأخرى، في المقابل، ظلت خاملة عمرانيًا إلى أمد ليس قصيرًا، ببنايات متباعدة، تفصلها مساحات واسعة تحولت إلى عراصٍ وأراض فلاحية.

ومما أخبر به الجغرافي اليعقوبي (ت. بعد 287هـ/ 891م)، أنه كان على نهر فاس في زمانه "ثلاثة آلاف رحى تطحن [...] وعمارات جليلة"[62]. لا شك في أن عدد الرحى المنسوبة إلى عدوة القرويين مبالغ فيه، ووجب أن يؤخذ بحذر، غير أن هذا التوصيف يظل معبرًا.

---

60 Ibid., p. 238.

61 أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ ملوك فاس** (الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972)، ص 39.

62 أحمد بن إسحاق اليعقوبي، **كتاب البلدان**، وضح حواشيه محمد أمين ضناوي (بيروت: دار الكتب العلمية، [د.ت.])، ص 198.

وعلى نحو أقل مبالغة، يلفت الجغرافي البكري (432-487هـ/ 1014-1094م) نظرنا إلى أن مدينة فاس كانت تضم آنذاك نحو ثلاثمئة رحى، وعشرين حمامًا عموميًا، ومساحات خُضرًا تمد بغلّات وفيرة[63].

ويُضاف إلى ذلك وثيقة للدولة الموحدية تؤكد النمو العمراني عبر معطيات رقمية[64]. يتعلق الأمر بإحصاء جمعهُ المشرفُ علي بن عمر الأوسي، من خلال مخطوط لسلفه في المهنة، في فترة المنصور الموحدي (580-595هـ/ 1184-1198م). وتشير هذه الوثيقة إلى أن مدينة فاس كانت تضم في عهد الموحدين مرافق عمرانية عديدة، وفق ما يبينه الجدول الآتي.

الجدول (4)

معطيات إحصائية حول المرافق العمرانية بمدينة فاس في فترة المنصور الموحدي

المرافق	العدد
الحوانيت	9082
القيساريات	2
الترابيع والأطرزة المعدة للحياكة	3064
دار لعمل الصابون	47
الميضآت	42
المصريات	19041
الأرحاء	472
ديار سك النحاس	12
الديار لعمل الفخار	188
الكوش لعمل الجير	135
المساجد	782
السقايات	80
دور الدباغة	116
الحمامات	73
الأفران	1170
الدور	89236
دور عمل الزجاج	11
الفنادق	467

المصدر: أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ ملوك فاس** (الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972)، ص 48-49.

63 أبو عبيد البكري، **كتاب المسالك والممالك**، تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ج 2 (تونس: الدار العربية للكتاب؛ المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، 1992)، ص 795.

64 ابن أبي زرع الفاسي، ص 48-49.



مرة أخرى، إذا كانت بعض هذه المعطيات الإحصائية مُضخمة؛ إما بداعي إظهار عظمة المدينة، وإما نتيجةً لأخطاء استنساخ المعلومات الرقمية، فإنه من المؤكد أنها تعكس طرفًا من الحقائق التاريخية، وتكشف عن حجم المنشآت بفاس وتنوعاتها. إن تحليل المعطيات المتصلة بالقرن الثاني عشر الميلادي قد يسهم في تصور عدد السكان المستغل لهذه المنشآت وحجم التطور الاقتصادي ووتيرته لهذه المدينة التي أنشئت قبل بضعة قرون خلت. فالمستقر الرئيس عند إجالة النظر في هذه المعطيات المصدرية، في ضوء المعطيات الأثرية، هو أن مدينة فاس كانت تضم عدد سكان يناهز 100 ألف نسمة.

وفي مرحلة لاحقة، ينقل ليون الإفريقي، في وصف إفريقية، معلومات إحصائية مهمة: 20 ألف عامل في قطاع النسيج، و20 ألفًا آخرين، مستخدمين في أرحية المدينة الكثيرة. ويُضيف كذلك، أن حيًا واحدًا في المدينة قد يضم 500 كانون/ موقد[65].

ومما جاء كذلك في رسائل الرحالة المستعرب نيقولا كليناردوس Nicolas Clenardus (1493-1542م) أن ساكنة فاس عام 1540م تقدر بـ 40 ألف عائلة؛ أي ما بين 100 و240 ألف نسمة[66].

الحقيقة أن تحرير القول في مختلف هذه المعطيات والتقديرات، وتدقيقها تاريخيًا وإحصائيًا، لن يتأتيَا إلا باستثمار مختلف المعطيات المصدرية من كتب التواريخ والأعلام والجغرافيا، واستثمار الخرائط الدقيقة التي تم إنجازها في السنوات الماضية حول الأحياء والمنازل، وتوظيف أنظمة المعلومات لتمحيص الفرضيات واستنبات النتائج.

8. مدن الأندلس

تعتبر أبحاث الإسباني طوريس بالباس من الدراسات المرجعية المهمة وغير المسبوقة حول ديموغرافيا المدن الأندلسية وعمرانها. فبعد انتباهه، خلال خمسينيات القرن الماضي، إلى إغفال الدراسات الديموغرافية الغربية مدن الأندلس، رغم دورها الكبير في تاريخ القارة الأوروبية في القرن العاشر الميلادي، حاول الخوض في هذا المبحث الجديد متحديًا انعدام المعطيات الرقمية الدقيقة.

إن كان بالباس قد فطن إلى مسألة تضخيم المعطيات (سواء في المصادر العربية أو المسيحية)[67] - إما احتفاءً بهذه المدن وإما للدعاية السياسية - فقد احتفى ببعضها لتميز مُحتوياتها؛ إذ إن السجلات المسيحية المُحددة والمُحصية لممتلكات الموريسكيين المطرودين من المدن الإسلامية، أو ما يسمى Repartimientos (سجلات التوزيع)، لتوزيعها على المسيحيين، بوصفها سجلات ميورقة، وبلنسية ومالقة ومرسية ... إلخ، تُشير إلى معطيات دقيقة تخص عدد المنازل وأصنافها ومساحاتها.

كما أن المعطيات الأثرية لبقايا الدور الأندلسية في مالقة وغرناطة، سمحت لهذا الباحث بتحديد المعدل المتوسط لمساحة المنازل الأندلسية وحسابه: 172م^2، ومتوسط عدد العائلة الأندلسية المفترض في 5 أو 6 أفراد. وبالموازاة مع هذه المعلومات، استند بالباس إلى مُعطى مساحة المدن داخل الأسوار باعتبار هذه المدن إنشاءات ضخمة ومستدامة الأثر.

وبعد الإحصاءات الرياضية التي أكد بالباس أن خطأها محدود[68]، استطاع تجاوز الافتراضات السابقة غير المدعومة بتحليل كمي، وتقديم مجموعة من النتائج التي أصبحت مرجعًا لكثير من الدراسات الأندلسية التي نقدم بعضها في الجدول التالي.

65 تبقى الإشارة إلى ضرورة دراسة معنى كانون Feux عند ليون الإفريقي، وهل يتخذ المعنى نفسه في فاس والقاهرة وغيرهما.

66 Halima Ferhat, "Fès," in: Garcin, p. 219.

67 Leopoldo Torres Balbás, "Extension y demografia de las Cuidades hispano-musulmanas," *Studia-islamica*, no. 3 (1955), p. 41.

68 Ibid., p. 32.

الجدول (5)

أهم استنتاجات طوريس بالباس حول سكان المدن الأندلسية وتوسعها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين

المدينة	عدد السكان	مساحة المدينة	الفترة الزمنية
مالقة	15-20 ألفًا	37 هكتارًا	القرن 11م
غرناطة	26 ألفًا	75 هكتارًا	القرن 11م
طليطلة	37 ألفًا	106 هكتارات	القرنان 11 و12م
ميورقة	----	90 هكتارًا	القرنان 11 و12م
بلنسية	15 ألفًا	44 هكتارًا	القرنان 11 و12م
سرقسطة	17 ألفًا	47 هكتارًا	القرنان 11 و12م

المصدر:

Leopoldo Torres Balbás, "Extension y demografia de las Cuidades hispano-musulmanas," *Studia-islamica,* no. 3 (1955), pp. 49-52.

يَخلص بالباس إلى أن الأندلس، إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، عرفت على الأقل سبع مدن (قرطبة، وطليطلة، والمرية، وغرناطة، وميورقة، ومالقة، وبلنسية) يمكن تصنيفها في خانة المراكز العمرانية الغنية والعامرة التي يحتل عمرانها داخل الأسوار مساحة تتجاوز 40 هكتارًا، ويفوق عدد سكانها 15 ألف نسمة.

في هذا المنحى تؤكد المصادر القديمة والدراسات الحديثة أهمية مدينة قرطبة التي كانت تُعتبر من أهم مدن العالم في القرن العاشر الميلادي[69]. ومن المعطيات المهمة التي تجود بها المصادر الوسيطية، إحصاءٌ للدور أمر به الحاجب أبو عامر المنصور في نهاية القرن العاشر الميلادي. وقد شملت معطيات هذا الإحصاء الذي نقله لنا الجغرافي البكري 213077 من دور العامة، و60300 من الدور الكبيرة (الخاصة). كما ضمت قرطبة 300 حمام عمومي، و13 مقبرة وما بين 471 و1600 مسجد بحسب المصادر[70]، بينما يتجاوز عدد أحياء هوامش قرطبة في القرن العاشر الميلادي عشرين حيًا. وَوفقًا لهذه المعطيات، حدد بعض المؤرخين عدد سكان قرطبة الإسلامية بأنه ما بين 100 ألف و500 ألف نسمة (بحسب تقديرات بالباس وليفي بروفنصال مثلًا)[71].

ورغم أن هذه المقاربات (محاولات تحليلية كمية) قد تكون إضافة نوعية لدراسة المجتمعات العربية الإسلامية عبر التاريخ، فإن ثغراتها المنهجية تكشف حدودها ونسبيتها؛ إذ إن الاستدلال الافتراضي المنطلق، مثلًا، من الربط بين مساحة المسجد الأعظم وعدد السكان ليس وجيهًا في كل مرة، ففي إفريقية كما يؤكد ذلك فوزي محفوظ، كان بناء المساجد غالبًا ما يكون بإرادة رجال السياسية؛ لإعطاء الشرعية وإبراز القوة، وتخليد الاسم. فهي أقرب إلى الفعل السياسي من التأثير الديموغرافي. كما أن تقدير الضارب الثابت (5 أفراد) مقابل كل مصلٍّ، ونسيان طبيعة الأسر المسلمة الممتدة، والكثافة المرتفعة للمساكن الجماعية، يبقى مجازفة رقمية غير مؤصلة تاريخية بالنسبة إلى مجتمعات القرون الأولى الهجرية.

إن هذه الاعتراضات التي فصل فيها أنطوان عبد النور[72] في دراسة عامة، وفوزي محفوظ[73] عبر نموذج صفاقس ما بين القرنين الثالث والسادس الهجريين، لتفنيد كثير من المنطلقات الأولية بالنسبة إلى لزين، تبقى وجيهة؛ لا لإلغاء هذه الرؤية المنهجية، بل لتقويتها بمثل هذه الضوابط والتدقيقات.

---

69 Ibid.

70 Manuel Acién Almansa & Antonio Vallejo Triano, "Cordoue," in: Garcin, p. 121.

71 Ibid.

72 عبد النور، ص 270-271.

73 Faouzi Mahfoudh, "Aspects de la démographie de la ville de Sfax au Moyen Âge (IX-XII siècles)," in: *La démographie historique en Tunisie et dans le monde arabe,* collection Sources (Tunis: Céres productions, 1993), pp. 73 - 82.



من مسالك الضبط كذلك، الإلماع إلى أن دراسات لزين لسكان المدن التونسية تأتي بعد مجموعة أعماله حول المدن الرومانية في إفريقية. غير أن الفترتين الكلاسيكية والوسيطية مختلفتان على أكثر من صعيد؛ وبناء عليه، من المخالف للصواب استنساخ نماذج مستعارة واتخاذ المقاربة الإحصائية نفسها لدراسة سكان هاتين المرحلتين.

فالمهندس الفرنسي لزين يستند إلى مجموعة منطلقات أولية لا تجد لها تأكيدًا تاريخيًا في العصر الوسيط، فهو ينطلق من مبدأ أن مدن إفريقية لم تكن تملك في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي إلا مسجدًا واحدًا لخطبة الجمعة، وأن حضور الساكنة الذكورية (16 سنة) فما فوق ضروري في يوم الجمعة. وفي هذا الإحصاء الذي يستثني النساء والأطفال، ويعتبر كل مصلٍّ رب عائلة، يظن لزين أنه في الإمكان تحديد قدرة استيعاب المسجد الأعظم، في مرحلة معيَّنة، إذا ما أخذنا في الاعتبار مساحة 1.35×0.60 مترًا لكل مصلٍّ؛ فإذا ما حدد عدد أرباب العائلات، يتم ضرب هذا العدد في المعامل، المعهود استعماله في دراسة مدن البحر الأبيض المتوسط. وإذا كنا لا نستطيع معارضة لزين في وجود مسجد للخطبة في كل مدينة، فإن مُنطلقاته الأولى الأخرى لا تلقى إجماعًا: طبيعة الحاضرين للجمعة (الجنس والسن)، وتحديد المعامل نفسه لتحديد عدد العائلات الإفريقية في العصر الوسيط، وهذه مسائل افتراضية لا تستند إلى دراسات تاريخية دقيقة.

يبدو كذلك أن المقابر قد تكون أحيانًا وسيلة قياس التحولات الديموغرافية بالنسبة إلى المؤرخ، غير أن طرق الدفن الإسلامية المتميزة بالبساطة وغياب الأسماء على شواهد القبور أحيانًا، لا تسمح باستخلاصات رقمية مهمة، كما أن وجود عدة مستويات للدفن في المكان الواحد - كما تبدَّى ذلك للباحث خالد مودود حين دراسته لمقبرة قريش في القيروان (سبع طبقات) - تضيف إشكالًا جديدًا ذا طبيعة أركيولوجية[74].

قد لا نُجانب الصواب إذا أكدنا أن ما يزعج في مثل هذه المقاربات هو الربط الميكانيكي بين المنشأة العمومية، من دون مراعاة طبيعتها ومساحتها ومكانها داخل النسيج العمراني وارتباطها بشبكة المياه، وعدد السكان، وكذا الاعتماد على إحصاءات الحوليات العربية المبالغ فيها، من دون مناقشة أو تشكيك مستمر، ومن دون بناء نسق نظري يسترشد بسياقات المرحلة المدروسة ليشد من عضد جهازنا التحليلي.

إن هذه المقاربات المنهجية التي تضع الباحث ما بين التقديرات الرقمية الأكثر مغامرة، المحددة للسقف الأقصى أو الحد الأدنى للساكنة الحضرية، وبين النظريات الأكثر كيفية، المتلائمة مع المصادر، والمؤسسة لرؤى تاريخية حول المجتمعات الإسلامية في ارتباطها بالمعطيات السياسية والاقتصادية وبالنسيج الحضري وبنية السكان وحركاتهم، تبقى إحدى الوسائل المطلوبة لتجاوز النقص الكبير الموجود في المصادر والحوليات العربية. وإن الحرص على المتابعة النقدية والحذرة لهذه المحاولات لتجنب التبسيط التعسفي يجب أن يوازيه تأسيس معرفي يربط بين النماذج المستوحاة من التقديرات الرقمية والدراسات السكانية بالتاريخ السياسي، وتاريخ الذهنيات المرتبطة بوتيرة تجدد الأجيال، وبالأسر والسلوكات الاجتماعية.

إن الوصل المفصلي بين الكيفي والكمي وإحداث توازن خلاق بينهما، أمرٌ كفيل بتهيئة إطار ذهني يساهم في إعادة مسرح الظواهر التاريخية ويساعد على تفسيرها، من دون أن يوقعنا ذلك في أوهام الكمال. لا يكفي أن نقيس الظواهر، أو نُكممها، لنراها، كما أن الأرقام ليس لها بالضرورة وجاهة بديهية أو قدرة فعالة للكشف دون غيرها. ورغم ذلك، فإن المؤرخ مدعوٌّ إلى مراجعة يقينياته المتصلِّبة تجاه المناهج الكمية، مع ضرورة الاستفادة من أسس المنطق الضبابي ومناهجه Fuzzylogic[75]، وفقًا لطبيعة الظاهرة الإنسانية والاجتماعية التي يكتنفها الغموض والتعقيد، والتي يصعب تكميمها والتعبير عنها بقيم محددة وصارمة.



74 Ibid., p. 74.

75 شهيرة شرف، **منطق الضبابية والعلوم الإنسانية والاجتماعية: مقاربة نظرية تطبيقية** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016).

المراجع

العربية

- ابن أبي زرع الفاسي، أبو الحسن علي بن عبد الله. **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.** الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.
- ابن الشماع، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية.** تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري. تونس: الدار العربية للكتاب، 1984.
- ابن خلدون، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد. **تاريخ العلامة ابن خلدون.** ج 6. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1983.
- ______________. **المقدمة.** بيروت: دار القلم، 1986.
- البكري، أبو عبيد. **كتاب المسالك والممالك.** تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفن وأندري فيري. 2 ج. تونس: الدار العربية للكتاب؛ المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، 1992.
- جدلة، إبراهيم. **السكان الحضر بإفريقية من القرن 13 إلى القرن 16.** سلسلة الديموغرافيا التاريخية في تونس. تونس: دار سراس للنشر، 1993.
- الدولاتلي، عبد العزيز. **مدينة تونس في العهد الحفصي.** تعريب محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتلي. تونس: دار سراس للنشر، 1981.
- الرايس، عبد الأحد. "حركة السكان بفاس خلال عصر المرابطين والموحدين: حركة الوافدين مثالًا". مجلة **كنانيش.** العدد 4 (صيف – خريف 2002).
- شرف، شهيرة. **منطق الضبابية والعلوم الإنسانية والاجتماعية (مقاربة نظرية تطبيقية).** الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016.
- عبد النور، أنطوان. "السكان وديمغرافية المدينة، مدن بلاد الشام في العصر العثماني". ترجمة ماري فرانس جنابزي. **الفكر العربي.** العدد 29 (1982).
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. **كتاب البلدان.** وضح حواشيه محمد أمين ضناوي. بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت].

الأجنبية

- Balbás, Leopoldo Torres. "Extension y demografia de las ciudades hispano-musulmanas." *Studia-islamica*. no. 3 (1955).
- Barkan, Ömer Lutfi. "Essai sur les données statistiques des registres de recensement dans l'Empire Ottoman au XVe et XVIe siècles." *Journal of the Economic and Social History of the Orient*. vol. 1. no. 1 (August 1957).
- Boucheron, Patrick (dir.). *Histoire du monde au XVe siècle. Temps et devenirs du monde*. Paris: Édition pluriel, 2012.
- Braudel, Fernand. *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XVe-XVIIIe siècle.Les Structures du quotidien: Le Possible et l'impossible*. Paris: Armand Colin, 1979.



- Caselli, Graziella, Jacques Vallin & Guillaume Wunsch (dir.). *Démographie: Analyse et synthèse. L'Histoire du peuplement et prévision.* Paris: Edition de l'INED, 2004.
- Chaunu, Pierre. *Histoire quantitative, histoire sérielle*. Paris: Editions Armand Colin, 1978.
- Collectif. *La Démographie historique en Tunisie et dans le monde arabe.* Collection Sources. Tunis: Cérès Productions, 1991.
- Delacroix, Christian et al. (dir.). *Historiographies: Concepts et débats.* Paris: Gallimard, 2010.
- *Encyclopédie de l'Islam*. 2ème éd. Leyde; Paris: Maisonneuve & Larose, 1960.
- Garcin, Jean-Claude (dir.). *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*. Collection EFR no. 269. Rome: L'Ecole française de Rome, 2000.
- Guichard, Pierre. *Structures sociales "orientales" et "occidentales" dans l'Espagne musulmane.* Paris: Éditions Mouton, 1977.
- Guillebaud, Jean-Claude. *Le Principe d'humanité.* Paris: Seuil, 2001.
- Hodgson, Marshall. *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization.* vol. 2: *The Expansion of Islam in the Middle Periods.* Chicago: The University of Chicago Press, 1974.
- *La démographie historique en Tunisie et dans le monde arabe,* collection Sources. Tunis: Céres productions, 1993.
- Labrousse, Ernest. *Esquisse du mouvement des prix et des revenus en France au 18e siècle.* Coll. Réimpression. Paris/ Montreux: Éditions des Archives contemporaines, 1984.
- Lassner, Jacob. *The Topography of Baghdad in The Early Middle Ages*. Detroit: Wayne State University, 1970.
- Lepetit, Bernard. "L'Histoire quantitative: Deux ou trois choses que je sais d'elle." *Histoire & Mesure*. vol. 4, no. 3 (Janvier 1989).
- Lombard, Maurice. *Espaces et réseaux du haut Moyen Age.* Paris: Éditions Mouton, 1972.
- Marczewski, Jean. *Introduction à l'histoire quantitative.* Genève: Droz, 1965.
- Miquel, André. *L'Islam et sa civilisation*. Coll. "Destins du monde". Paris: A. Colin, 1968.
- Pellat, Charles. "Peut-on connaître le taux de natalité au temps du Prophète? A la recherche d'une méthode."*Journal of the Economic and Social History of the Orient*. vol. 14, no. 2 (August 1971).
- ________. "Quelques chiffres sur la vie moyenne d'une catégorie de musulmans," in: *Mémorial Alfred Bel*. Leyde: Brill, 1974.
- Pirenne, Henri. *Mahomet et Charlemagne.* Paris: PUF, 1970.
- Raymond, André. "Les Bains publics au Caire à la fin du XVIIIe siècle."*Annales Islamologiques*. no. 8 (1969).
- ________. "Signes urbains et études de la population des grandes villes arabes à l'époque ottomane."*Bulletin d'études orientales.* vol. 27 (1974).
- ________. "La Population du Caire, de Maqrizi à la description de l'Egypte."*Bulletin d'études orientales.* vol. 28 (1975).

- Russel, J.C. *Late Ancient and Medieval Population.* Transactions of the American Philosophical Society, New Series, vol. XLVIII, part 3. Philadelphia: The American Philosophical Society, 1958.
- Simiand, François. *Statistique et expérience: Remarques de méthode.* Paris: Éditions M. Rivière, 1922.
- ________. "Méthode historique et science sociale." *Annales. Economies, société, civilisations*. vol. 15, no. 1 (1960).
- Sourdel, Dominique. "Esquisse topographique d'Alep intra-muros à l'époque ayyoubide." *Annales Archéologiques de Syrie*. vol. 2 (1952).
- Talbi, Mohamed. "L'Effondrement démographique au Maghreb du XIe au XVe siècle."*Cahiers de Tunisie*. vol. 25, no. 97-98 (1e-2e trim. 1977).
- Volney,Constantin-François de Chasseboeuf. *Voyage en Syrie et en Egypte, pendant les années 1783, 1784 et 1785.* Paris: Mouton & Co.1959.
- Zacour, Norman P. & Harry W. Hazard (eds.). *A history of the Crusades.* vol. 5: *The Impact of the Crusades on the Near East*. Madison: University of Wisconsin Press, 1985.



عبد الرحمن حللي | Abdulrahman Helli*

التنــوع الدينــي والطائفــي في الفــترة الإســلامية المبكـرة مـن خـلال كتـاب "التحريـش" لـضرار بـن عمـرو الغطفـاني (ت. نحـو 200هـ/ 815م)

Religious and sectarian diversity in the early Islamic period: A study of Dirar b. ‘Amr al-Ghatafani’s (d. c. 200AH / 815 AD) Kitab at-Tahrish "The Book of Instigation"

يتنـاول هـذا البحث بالدرس والتحليـل كتاب **التحريش** لـضرار بن عمرو الغطفـاني (ت. نحو 200هـ/ 815م)، ويبرز من خلاله التنـوع الدينـي والطائفي والاختلافات بين المسـلمين في القرن الثـاني الهجري. كما يدرس أسـلوب المؤلف في عرضه الاختلافات في عصره، ويحلل موقفه منها. ويسلط الضوء على الجوانب التي يمكن أن يقدمها توافر هذا الكتاب الذي كان مفقودًا في مراجعة قضايا عدة في مختلف العلوم الإسـلامية. ويحلـل طريقة المؤلف في تقييم الاختلافات في عصره، ومحاولتـه إيجاد معيـار للدليل يضبط الاختلاف بين الفرق. ويخلـص البحث إلى أن كتاب **التحريش** يحـكي حقائق تاريخية لمّا يدركها كثير من المسـلمين اليـوم، وهم أحوج إلى معرفتها وتمثلها لحاضرهم، من أهمهـا أن الصورة المثالية عن رؤية واحدة للإسلام في الفترة المبكرة تحديدًا لا وجود لها، وأن الاختلاف الذي كان وسيبقى، له مبرراته العلمية، كما له أسباب خارجية ترجع إلى بعض علماء الدين الذين يوظفون الدين لمصالح شخصية ذات صلة بالمال والسلطة.

كلمات مفتاحية: التحريش، ضرار بن عمرو، الفرق الإسلامية، المعتزلة، القرن الثاني الهجري.

This article is a study and analysis of Dirar b. ‘Amr’s Kitab at-Tahrish demonstrating the religious and sectarian diversity of, as well as differences among, the Muslims of the second century AH. The article examines the author’s method in presenting the disagreements of his age and analyzes his position on these disagreements. It also sheds light on the topics covered by this book – which was lost – covering various issues in various fields of the Islamic sciences. It also presents an analysis of how the author evaluated the disagreements of his age and his attempt to establish a yardstick by which to evaluate differences between sects. The article concludes that Kitab at-Tahrish narrates historical truths most of today’s Muslims are oblivious to, awareness and revitalization of which is urgently necessary in their present-day lives. The most important of these truths are that the perception of a harmonized unified Muslim vision in the early centuries has no foundation in fact, and that differences have existed and will always exist for both intellectual reasons and external reasons attributable to the exploitation of religion by some religious scholars for their own personal gain, for the acquisition of wealth, authority and prestige.

Keywords: At-Tahrish, Dirar b. ‘Amr, Muslim Sects, Mu’tazilah, Second century AH.

* أكاديمي وأستاذ جامعي سوري متخصص في الدراسات الإسلامية، يعمل باحثًا ومحاضرًا في جامعة فرانكفورت.
Syrian Professor and Researcher in Islamic studies, Lecturer at the University of Frankfurt.

تمهيد[1]

يُعَدُّ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي من أغنى الفترات الزمنية في التاريخ الإسلامي من حيث التنوع الديني والطائفي والفكري، وكثرة الاختلاف بين المسلمين. يمكن إدراك هذه الحقيقة من خلال تتبع المصادر التاريخية، لا سيما تلك التي تؤرخ للملل والنحل والفرق، وما وصلنا من مصنفات القرن الثاني الهجري نفسه أهم شاهد على ذلك التنوع والاختلاف، حتى إن سيولة الاختلاف تلك أدت إلى نشوء اتجاه في كل علم يعنى بوضع معايير يمكن من خلالها ضبط الاختلاف في العلم نفسه وتقعيد أصوله. فكتاب **الرسالة** للشافعي (ت. 205هـ/ 820م) أُلِّف في سياق البحث عن ضوابط ومعايير للاختلاف بين أهل الرأي وأهل الحديث، و**الكتاب** لسيبويه (ت. 180هـ/ 796م) صُنِّف أيضًا للضبط النحوي، و**العين** للخليل بن أحمد (ت. 170هـ/ 786م) للضبط اللغوي. ومضت فترة طويلة لم يعثر فيها على كتاب يرجع إلى القرن الثاني الهجري يرسم صورة واضحة للاتجاهات العقدية والكلامية في تلك الفترة، ويرجع ذلك إلى اندثار كثير من كتب تلك المرحلة، لا سيما كتب المعتزلة، ويأتي العثور حديثًا[2] على مخطوط كتاب **التحريش** لضرار بن عمرو الغطفاني، ليقدم إضافة نوعية إلى المصادر التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري، وإلى مصادر الفرق والملل والنحل تحديدًا، حيث تضمن أسماء الفرق والاتجاهات والأفكار والمصطلحات التي كانت سائدة آنذاك. ويمكن القول من خلال تحليل الكتاب إن هاجس ضبط الاختلاف كان حاضرًا وصريحًا لدى المؤلف، وإن لم يكن هو موضوع الكتاب الأساسي، لكنه غير خاف في طريقة عرضه الاختلاف وأسبابه، وما انتهى إليه في آخر الكتاب. لذا يمكن قراءته في سياق كتب الشافعي (الأصولي) وسيبويه (النحوي) والخليل (اللغوي)؛ فضرار (المتكلم) حرص في كتابه على وصف سيولة الاختلاف الديني وأسبابه، وتقرير ما يضبط الدليل الذي يمكن أن يكون مرجعًا بين المختلفين، وما يحتمله من الاختلاف، أو ما يرجع إلى أسباب أخرى تتعلق بالمختلفين. ويمكن أن يتضح هذا الوصف من خلال المحاور التي سندرس من خلالها الكتاب.

أولًا: ضرار بن عمرو الغطفاني وكتابه التحريش

1. ضرار بن عمرو الغطفاني

نشأ الغطفاني في الكوفة وغادرها في سبعينيات القرن الثاني الهجري إلى بغداد، وقد اختُلف في تأريخ وفاته بين 193هـ و230هـ، وكان من المعتزلة، ومن تلاميذ واصل بن عطاء ثم خالفهم وانفرد بآرائه، حتى رفض المعتزلة تصنيفه واحدًا منهم، لكنه ظل متمسكًا ببعض آراء المعتزلة كالمنزلة بين المنزلتين[3]. لذا ظلت كتب التراجم والفرق تنسبه إلى المعتزلة مع الإشارة إلى مخالفته لهم، فيذكره ابن النديم (ت. 380هـ/ 990م) في **الفهرست** في فصل عنوانه: "ذكر قوم من المعتزلة أبدعوا وتفردوا"[4]، وذكر من كتبه **التحريش والإغراء**، وهو الكتاب موضوع هذا المقال، وسرد له عشرات من الكتب التي صنفها، ومعظمها في الجدل والردود على الأديان والفرق والأفكار التي كانت منتشرة في عصره، كما نسب له كتبًا في "تأويل القرآن"، و"تناقض الحديث"، و"اختلاف الناس وإثبات الحجة". لكنّ مطالعة نقده الواسع للاتجاهات التي كانت في عصره، وتبنيه أفكارًا من تصورات اتجاهات مختلفة، تعزز القول بتفرده، وهو ما أكده أبو القاسم البلخي (ت. 319هـ/ 931م) فنفى

---

1 تم نشر هذا المقال في سياق مشروع البحث العلمي LOEWE الممول من وزارة العلوم والفنون بولاية هيسن الألمانية، وذلك ضمن محور: "تحديد المواقع الدينية: الأنماط والجماعات في السياقات اليهودية والمسيحية والإسلامية"، في جامعة غوته - فرانكفورت، وجامعة يوستوس ليبيش - غيسن.
This article has been published within the framework of the Hessian Ministry for Science and Art funded LOEWE research hub "Religious Positioning: Modalities and Constellations in Jewish, Christian and Muslim Contexts" at the Goethe University Frankfurt / Justus-Liebig-University Giessen"

2 عثر على كتاب **التحريش** لضرار بن عمرو عام 2008 تقريبًا، ضمن المخطوطات الموجودة بجامع بلدة شهارة غرب صنعاء، وهي المخطوطة الوحيدة الباقية للكتاب، ويعود تاريخ نسخها إلى عام 540هـ، وهي جزء من مجموع يشتمل أيضًا على كتاب **المقالات** لأبي هاشم الجبائي (ت. 303هـ/ 916م).

3 نسب إليه ابن النديم كتابًا بالعنوان نفسه "المنزلة بين المنزلتين".

4 انظر: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن النديم، **الفهرست**، تحقيق أيمن فؤاد سيد (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2009)، ص 596-598.

عنه صفة الاعتزال أو قبول المعتزلة له[5]، ووصف أتباعه بالضرارية[6]، وهو ما فعله أيضًا أبو الحسن الأشعري (ت. 324هـ/ 936م)، والذي عد الضرارية واحدة من عشر هي أمهات الفرق الإسلامية[7]، وبدأ التعريف بهم بذكر ما فارق به الغطفاني المعتزلة[8].

وكما يشير رضوان السيد[9]، فإن شأن الغطفاني مثل شأن سائر المتكلمين الأوائل، ضاعت كتبهم وكتبه، إلى حدود القرن الرابع الهجري، إلا أننا نعرف مجمل آراء الغطفاني ومعتزلة الأجيال الثلاثة الأولى بعد واصل بن عطاء، من تواريخ علم الكلام مثل **طبقات المعتزلة** للكعبي وكتب القاضي عبد الجبار، و**مقالات الإسلاميين** للأشعري، و**الملل والنحل** للشهرستاني. وثمة شواهد تؤكد صحة نسبة الكتاب إليه، من خلال الإشارة إلى كتابه في مصنفات المتقدمين، وتطابق بعض الآراء المنسوبة إليه مع ما ورد في الكتاب، بل هناك شبه اقتباسات تظهر في **مقالات الإسلاميين**، وفي **الملل والنحل** منسوبة إلى الغطفاني.

وكان للمستشرق الألماني جوزيف فان إس السبق في إبراز أهمية الغطفاني في تطور الكلام المبكر، وذلك منذ أواخر ستينيات القرن الماضي في مقالات كتبها عنه، كما درس آراءه في موسوعته: "علم الكلام والمجتمع في القرنين الثاني والثالث للهجرة"[10]، وقد أثار اكتشاف كتاب **التحريش**[11] الاهتمام بالغطفاني مجددًا، فترجم الكتاب إلى التركية المحققان للنسخة العربية[12]، ونشر عنه المستشرق الألماني جوزيف فان إس ثلاثة مقالات[13]، إضافة إلى ما كتبه رضوان السيد الذي وعد بتحقيقه[14]، وحسن أنصاري الذي عني بكتاب **المقالات** للجبائي المكتشف مع المجموع المخطوط الذي فيه كتاب **التحريش**[15]، وآخرون[16].

---

5 أبو القاسم الكعبي البلخي، "باب ذكر المعتزلة من 'مقالات الإسلاميين'"، في: أبو القاسم البلخي والقاضي عبد الجبار والحاكم الجشمي، **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**، تحقيق فؤاد سيد (تونس: الدار التونسية للنشر، 1974)، ص 75.

6 انظر: ضرار بن عمرو الغطفاني، **التحريش**، تحقيق حسين خانصو ومحمد كسكين (إسطنبول: دار الإرشاد؛ بيروت: دار ابن حزم، 2014)، الهامش 2، ص 8، نقلًا عن: أبي إسحاق البلخي، **كتاب المقالات [مخطوط]**، مخطوطة في مكتبة الدكتور راجح عبد الحميد الكردي بالجامعة الأردنية، ورقة 37.

7 أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، مج 1، تحقيق نعيم زرزور (بيروت: المكتبة العصرية، 2005)، ص 25.

8 المرجع نفسه، ص 220.

9 انظر: رضوان السيد، "المعتزلة وتأثيراتهم في اللاهوت اليهودي!"، **الحياة**، 2008/8/23، شوهد في 2019/4/4، في: https://bit.ly/2FZ6L16

10 Josef van Ess, *Theologie und Gesellschaft im 2. und 3. Jahrhundert Hidschra: Eine Geschichte des religiösen Denkens im frühen Islam*, 3rd ed. (Berlin/ New York: Walter de Gruyter, 1992), pp. 32 - 63.

11 ضرار بن عمرو الغطفاني، **التحريش**، تحقيق حسين خانصو ومحمد كسكين (إسطنبول: دار الإرشاد؛ بيروت: دار ابن حزم، 2014)، ص 153.

12 Hüseyin Hansu & Mehmet Keskin, *Kitâbu't-Tahrîş: İlk Dönem Siyasî ve İtikâdî İhtilâflarında Hadîs Kullanımı* (İstanbul: Litera Yayınları, 2014).

13 Josef van Ess, *Kleine Schriften*, Hinrich Biesterfeldt (ed.), Series: Islamic History and Civilization, vol. 137, 3rd ed. (Leiden: Brill, 2018); Josef van Ess, "Das K. at-Taḥrīš des Ḍirār b. ʿAmr: Einige Bemerkungen zu Ort und Anlaß seiner Abfassung," in: Ess, *Kleine Schriften*, pp. 2461-2500; Hinrich Biesterfeldt, "Schicksal und selbstbestimmtes Handeln aus der Sicht von Ḍirār b. ʿchicksal at-Taḥrīš," in: Ess, *Kleine Schriften*, pp. 2501-2533; Josef van Ess, "Das Bild der Ḫāriǧiten im K. at-Taḥrīš des Ḍirār b.ʿAmr," in: Ess, *Kleine Schriften*, pp. 2534 - 2601.

14 انظر: السيد، وقد أشار في هذا المقال وفي غيره إلى أنه يعمل على إصدار نسخة محققة من كتاب **التحريش**، وأشار في موقعه على الإنترنت إلى أنه سيصدرها عام 2011، لكن لم أعلم أنه أصدرها حتى تاريخه.

15 نقل حسن أنصاري عن كاتب مجهول كتب على المخطوط نقلًا عن أبي علي الجبائي في كتابه **المقالات** نسبة كتاب **التحريش** إلى ضرار بن عمرو، وقوله عنه "وكان وضع - يعني ضرارًا - في تلك الأيام كتاب التحريش وكان ضرار كوفيًا ناصبيًا في كلام طويل ذكر فيه أنه تاب علي يدي علي الأسواري"، انظر: حسن أنصاري، "أبو علي الجبائي وكتاب المقالات"، بررسى تاريخى، شوهد في 2019/4/4، في: https://bit.ly/2TSAtca. وله عن كتاب التحريش بالفارسية "درباره كتاب التحريش ضرار بن عمرو"، بررسى تاريخى، شوهد في 2019/4/4، في: https://bit.ly/2K4QwE9؛
Hassan Ansari, "Kitābi Kalāmi az Ḍirār b. ʿAmr," *Kitāb-i Māh-i Dīn* 89 - 90 (1383-4/2004-5), pp. 4 - 13.
ونُشر له عن كتاب **المقالات** وصلة مخطوطه بمخطوط التحريش بالفرنسية:
Hassan Ansari, "Abū ʿAlī al-Jubbāʾī et son livre al-Maqālāt," in: Camilla Adang, Sabine Schmidtke & David Sklare (eds.), *A Common Rationality: Muʿtazilism in Islam and Judaism*, (Wurzburg: Ergon Verlag Wurzburg in Kommission, 2016), pp. 21 - 37.

16 Sean Anthony (rev.), "W., Kitāb al-Taḥrīsh. By Ḍirār ibn ʿAmr al-Ghaṭafānī," *Journal of Near Eastern Studies,* vol. 76, no. 1 (April 2017), pp. 199-203; Mehmetcan Akpınar, "Kharijism in Kufa: Accounts on Abu Bakr and ʿ Ac according to Dirar b. ʿAmr's (d. ca. 200/815) Kitab al-Tahrish," paper presented at the XXXIII, Deutscher Orientalistentag, Jena, 18-22/9/2017;

رامي محمود، "قراءة في كتاب التحريش لضرار بن عمرو الغطفاني (200هـ/ 815م)"، *İstanbul Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi*، العدد 35 (2016)، ص 281-292.

ومن أهم مقولات الغطفاني التي تفرد بها: مصطلح "الكسب" الذي تبناه الأشعري لاحقًا، والقول بالماهية الخفية لله والتي يدركها الإنسان بحاسة سادسة في الآخرة[17]، وتعدُّ شخصيته حاضرة بقوة في تاريخ نقد الأديان[18] والجدل في قضايا تتصل بالفلسفة والإنسان[19].

2. كتاب التحريش: العنوان والأسلوب والأهمية

يعدّ كتاب **التحريش** أقدم مخطوطة وصلتنا لها علاقة بأوائل المعتزلة، وأقدم كتاب يتناول الفِرَق والملل والاختلاف في القرن الثاني الهجري، يعرض المؤلف فيه آراء سائر الفرق الكلامية في زمانه بالكوفة وما حولها، وبطريقة فريدة تعتمد أسلوبًا أدبيًا فيه خيال ومجاز ورمزية، ويظهر البعد الأدبي من عنوان الكتاب، فسماه **التحريش**، والتَّحْرِيشِ بَيْنَ النَّاسِ إِغْرَاءُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، والإِفْسَادُ بَيْنَهُمْ. وحرَّش بين المتقاتلين أفسد وأغرى بعضَهم ببعض، وهيَّجهم على بعض، ويستعمل في تهييج الحيوانات على بعضها[20]، وهو منهي عنه في الإسلام لورود أثر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التحريش بين البهائم[21]، وهو تهييج بعضها على بعض للعب والفرجة، وقد أشار الغطفاني في كتابه إلى هذا الحديث[22]؛ مما يعني أنه استخدم هذه الكلمة في العنوان على سبيل النقد، لأن تأليب الفرق بعضها على بعض ظاهرة سلبية، وعلى سبيل السخرية، باتهامه من يحرض الفرق بعضها على بعض بأنه يعامل الناس كالبهائم.

ويعدُّ كتاب **التحريش** نصًا عربيًا نادرًا في هذه الفترة المبكرة من حيث استخدامه أسلوب الخيال الأدبي في موضوع لاهوتي، وإن كان سبقه ابن المقفع (ت. 142هـ/ 759م) في **كليلة ودمنة** لكن في موضوع آخر، وكان عملًا مترجمًا[23]. فيتحدث الغطفاني في كتابه على لسان شخصية رمزية أطلق عليها "الفقيه"، ولئن كانت كلمة "فقيه" مجازية ومطلقة فإن تخمين من هو المقصود من خلال السياق ليس أمرًا عسيرًا[24]، ويمثل الفقيه هنا مرجعًا يحتكم إليه أهل الفرق جميعًا، في سائر المسائل، وتسميته بالفقيه لا تعني أنه المختص بمجال الفقه والفروع، وإنما للفقيه هنا معنى أوسع يحيل إلى العالم بشؤون الدين عمومًا، وهذه الوظيفة التي يبرزها الكتاب للفقيه تجعل من الضروري إعادة النظر في دلالة اصطلاح الفقيه في تلك المرحلة ومقارنته بمصطلحات أخرى شبيهة.

يدور الكتاب على الفقيه الذي يأتيه جماعة يسألونه في قضية ما أو عن فرقة من الفرق فيوافقهم على ما يرونه، ويستشهد لهم بسيل من الآثار عن النبي والصحابة والتابعين، والتي تدعم وجهة نظرهم، ثم يأتيه آخرون مخالفون لهم، ويقولون له: كيف توافق على هذا؟ فيقول لهم الفقيه: لقد كذبوا على لساني، بل إن الصحيح كذا وكذا، ثم يعود فيورد عشرات الأحاديث والآثار التي تدعم وجهة النظر الثانية. ثم تأتي إليه جماعة ثالثة في قضية أخرى، ثم نقيضهم، ثم نقيضهم، ويدلل لكل منهم على مرادهم بالطريقة نفسها ... إلخ. وقد فعل ذلك على طول الكتاب في عشرات المسائل، أكثرها من مسائل علم الكلام المتداولة بين الفرق في القرن الثاني الهجري، وبينها بعض المسائل الفقهية، ويستشهد أحيانًا بالآيات القرآنية، وقلما يعلق الغطفاني على ما يورده باسم الفقيه، لكن طريقة عرضه توحي في مواضع كثيرة بما يميل إليه الغطفاني أو يتبناه، فنراه لا يعقب على الفقيه بل يحشد الأدلة التي تؤيد الفكرة التي يتبناها، وفي بعض المواضع يعقّب،

---

17 الأشعري، ص 221؛ وكذلك: Ess, *Theologie*, pp. 45, 47.

18 David Thomas et al., (eds.), *Christian-Muslim Relations: A Bibliographical History*, vol. 1 (600-900) (Leiden; Boston: Brill, 2009), pp. 371 - 374.

19 Cornelia Schöck, "Jahm b. Ṣafwān (d. 128/745–6) and the 'Jahmiyya' and Ḍirār b. ʿb. (d.200/815)," Sabrine Schmidtje (ed.), *The Oxford Handbook of Islamic Theology* (New York: Oxford University, 2016), pp. 55 - 86.

20 محمد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب**، ج 6، ط 3 (بيروت: دار صادر، 1993)، ص 279-280.

21 أخرجه سليمان بن الأشعث أبو داود في **السنن**، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قره بللي، ج 4 (دمشق: دار الرسالة العالمية، 2009)، ص 209، رقم 2562.

22 الغطفاني، ص 41.

23 Hinrich Biesterfeldt, "Das k. at-Taḥrīš des Dirār b. ʿAmr," in: Ess, *Kleine Schriften*, p. 2473.

24 Ibid., pp. 2478 - 2479.



بعنف وسخرية، على الفقيه وما يورده من شواهد، فيقول عن الفقيه في بداية بيان دوره في الاختلاف بين المسلمين "ثم حرَّش وهو عريان غير مستتر"[25]، واصفًا فعله بأنه مخالفة فاضحة لحديث النهي عن التحريش بين البهائم، وأنه لِعَوَار ما يبرر به لم يعد خافيًا على أحد، ويصف مواقفه في موضع آخر مفترضًا فيه سوء النية ورقة الدين بقوله "فلم ينج منه ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا قال فيه بالبهتان وقذفه بالعظيم جرأة على الله وإرادة هدم دينه"[26]، ويستهزئ به في مواطن أخرى، عندما يمثل دور أهل السنة والجماعة، بتصويره عبدًا للمال وتابعًا للملوك، "وقال الملك: يا غلام أعط الفقيه ألف دينار فإنه صاحب سنة وجماعة وإنه بلغني أن عليه دينًا"[27]، وفي سياق آخر "قال له الملك: فرجت عني أنت من أهل السنة والجماعة، وقد بلغني أن عليك دينًا، يا غلام أعطه خمسة آلاف دينار يستعين بها على دينه ومئة ثوب من الخاصة يكسوها عياله، ووَلَّاه قضاء مِصرٍ من الأمصار من أفضلها"[28]، ويعقب متهمًا على ما أورده الفقيه من آثار في فضائل البلدان بقوله "فلم يبْق للحرمين شيء"[29]، ويدعو عليه ذامًّا ومكذبًا ما يرويه من أحاديث تُشَبِّه الله بالإنسان "وقال [أي الفقيه] لعنه الله: إن الله نظر في الماء وخلق آدم على صورة نفسه. [...] وقال [أي الفقيه] لعنه الله: إن الله ينزل يوم عرفة"[30].

إن هذه المواضع القليلة التي يكشف فيها الغطفاني عن رأيه الصريح في بعض المسائل، ومواطن أخرى يستشف فيها رأيه، تكشف عن حدة في مواقفه من بعض المسائل، ولين في مسائل أخرى، تطرق إليها في سياق عرضه الاختلافات في عصره، وهي موضوع كتاب **التحريش** الأساسي، ومحل أهميته؛ إذ يقدم أقدم خريطة تفصيلية واسعة لسائر الفرق الإسلامية بالكوفة، منتصف القرن الثاني الهجري تقريبًا، لكن المسائل المثارة في الكتاب، كما أشار رضوان السيد[31]، كانت موضوع جدل في تلك الفترة في الكوفة وغيرها من المدن الإسلامية. فهو أقدم كتاب يظهر فيه مصطلح "السنة والجماعة"، وكذلك أسماء الفرق الإسلامية، فالشيعة يسميهم دائمًا الشِّيَع، ويفرق بينهم وبين الروافض، ومن الفِرق التي تكرر ذكرها بوضوح الجهمية والمعتزلة والإباضية والمرجئة، إضافة إلى آخرين عرَّف بهم من خلال آرائهم. ولم ينسب المؤلف نفسه إلى أي من الفرق، وسجل نقدًا تجاه آراء جميع الفرق تقريبًا.

وكما يظهر من الكتاب لم يكن الغطفاني واضحًا في موقفه من الحديث النبوي؛ فتضمن كتابه بعض الأحاديث التي اتهم رواتها بالوضع والكذب استنادًا إلى محتواها، وهي عند الآخرين من الأحاديث الصحيحة، وثمة أحاديث أخرى تصنف، بمعايير المحدثين لاحقًا، من الحديث الموضوع أوردها على لسان الفقيه تبريرًا لآراء السائل ولم يعقب عليها، كما كان يستشهد ببعض الأحاديث مباشرة، كحديث النهي عن التحريش وأحاديث أخرى تتعلق بالاختلاف، وسيشترط لاحقًا قبول الجماعة للخبر حتى يكون حجة، ونُسِب إليه كتاب في "تناقض الحديث"، فيبدو من خلال الكتاب أن الغطفاني لم يكن رافضًا للحديث أو حجيته[32]، إنما يرى أن ثمة شروطًا للأخبار حتى يحتج بها. وأرجع فان إس إظهار الغطفاني التناقضات في الأحاديث إلى أنه يريد إعطاء القرآن الأولوية[33]، فكان يكثر الاستشهاد بالقرآن في بعض الأماكن، لا سيما في القضايا التي يتبناها.

---

25 الغطفاني، ص 41.

26 المرجع نفسه، ص 101.

27 المرجع نفسه، ص 104.

28 المرجع نفسه، ص 130.

29 المرجع نفسه، ص 120.

30 المرجع نفسه، ص 136.

31 السيد.

32 عن موقفه من الحديث، انظر: محمود. وقد أحصى في كتاب **التحريش** ما يقرب من 311 حديثًا غالبها لبيان سوء استعمالها، وانظر أيضًا: محمد أنس سرميني، "تأملات في كتاب التحريش لمؤلفه ضرار بن عمرو الغطفاني"، 2017/9/6، شوهد في 2019/4/4، في: https://bit.ly/2UsAKGR
وتجدر الملاحظة أن تحقيق الكتاب تضمن أخطاء في تخريج الأحاديث، فضلًا عن أخطاء في ضبط الألفاظ وتدقيقها اللغوي.

33 Biesterfeldt, pp. 2464 - 2465.

ثانيًا: الأديان من خلال كتاب التحريش

لا يهدف الغطفاني في كتاب **التحريش** إلى الحديث عن الأديان في عصره، وإنما كان يقصد الحديث عن الاختلاف داخل الإسلام، لكن سياق الحديث أدى به إلى التطرق إلى المسيحية بما يعكس التصور عن فرقهم في عصره، وإلى أصناف المشركين بما يعكس أصنافهم الموجودة تاريخيًا.

فحديثه عن المسيحية كان من حيث اختلافها وأسبابه[34]، وكان يقصد به الإشارة إلى مقارنة ما حدث في الإسلام بما حدث في المسيحية، فيؤرخ لحظة الانقسام والاختلاف بأنها ترجع إلى ما بعد عيسى بن مريم عليه السلام، ويعزو سببه إلى أثر رجال الدين (الأحبار والرهبان)، ويربط بين أسماء هذه الفرق ووصف القرآن العقائد المسيحية التي انقسمت بشأن المسيح وأمه مريم، وهذه الفرق هي:

- الملكانية: يقولون ﴿إِنّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ (المائدة: 73).
- اليعقوبيون: يقولون ﴿إِنّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: 72).
- النسطورية: يقولون ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ﴾ (التوبة: 30).
- اليهود: يقولون "مريم كانت بغيًا" ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 156)، و"كان عيسى لغير رشده فتعلم السحر والكهانة وكان ساحرًا كاهنًا".
- المؤمنون: وهم قلة منهم يؤمنون أن عيسى بشر وأمه صديقة طاهرة، ﴿وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتّقَوْا لَكَفّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنّاتِ النّعِيمِ﴾ (المائدة: 65).

ولم يربط الغطفاني بين هذه العقائد التي أشار إليها القرآن وتسميته لأصحابها وبين الطوائف المسيحية في عصره، وكأنه كان يستعرضها فقط للمقارنة والاستشهاد في تفسير ظاهرة الانقسام الديني. وهو يحكي هذه الانقسامات على أنها موضوع أثر يروى عن ابن عباس، فيتابع في ذلك فكرة معروفة قبله عن هذه الانقسامات وأسماء أصحابها، كما سبقه إلى ذكرها، كما يشير فان إس[35]، المؤرخ سيف بن عمر التميمي (ت. 200هـ/ 815م)، وفي سياق غير مباشر وفي الحوار مع الفقيه يشير إلى عقيدة للنصارى في الجنة، وأنهم يرون أنه ليس فيها طعام ولا شراب[36].

إضافة إلى تصنيف اختلافات أهل الكتاب، يُعدِّد الغطفاني أصناف المشركين على لسان من يسأل الفقيه عن النفاق[37]، وأن المنافق "مقموع يكتم نفاقه" مقارنة بالمشركين الذين يعدد أصنافهم من حيث علاقتهم بالمسلمين سلمًا وحربًا[38]، مبرزًا من خلال هذه الأصناف أنهم ليسوا مضطرين إلى النفاق؛ فالصنف الأول "بعضهم يعطي الجزية عن يد وهم صاغرون"، وهم المُتَغلَّب عليهم أو المسالمون، وذِكْر معلومة تاريخية عن هذا الصنف يقدم إضافة مهمة تدعم الرأي الفقهي الذي يقول إن المشركين مثل أهل الكتاب من حيث إمكان قبول الجزية منهم، وهم قلة من المذاهب الفقهية كالمالكية، ويُستبعد أن يقصد بالمشركين هنا أهل الكتاب، وإن كان المتقدمون يشملونهم بإطلاق لفظ "المشركين" ثم يستثنونهم، لأن وصف أهل الكتاب بالمشركين كان في سياق مناقشة عقائدهم أو استثنائهم من عموم أحكام المشركين، وليس في سياق بيان قبول الجزية منهم.

---

34 الغطفاني، ص 42-43.

35 Biesterfeldt, pp. 2464 - 2465.

36 الغطفاني، ص 82.

37 عبارته: "ثم جاءه قوم آخرون فقالوا: ما تقول في النفاق مع محمد عليه السلام من المنافقين والمشركين؟ لأن المنافق مقموع يكتم نفاقه والمشركون أصناف بعضهم يعطي الجزية عن يد وهم صاغرون، وبعضهم حرب يجاهد المسلمين، وبعضهم مرتد ذليل محكوم عليه غير ممتنع"، المرجع نفسه، ص 82.

38 المرجع نفسه.



والصنف الثاني من المشركين "بعضهم حرب يجاهد المسلمين"، وهم الأعداء في المعارك وحالة الحرب، وهذا يعني بالضرورة أن من لا يحارب المسلمين من المشركين يدخل في الأصناف الأخرى وأن حاله المسالمة. أما الصنف الثالث من المشركين "بعضهم مرتد ذليل محكوم عليه غير ممتنع"، وهذا الصنف يُعَرَّف من خلال أربعة عناصر:

- مرتد إلى الشرك بعد أن كان مسلمًا.
- ذليل، بمعنى أنه محل خضوع وليس مصدر قلق للسلطة أو الجماعة.
- محكوم عليه، بمعنى أنه تحت سلطة الإمام.
- غير ممتنع، بمعنى أنه ليس باغيًا ولا قاطع طريق ولم يلتحق بالمحاربين، فلا منعة له من جيش أو حصن أو سلاح أو حلف مع الأعداء.

تشير هذه الأوصاف الأربعة إلى صنف ثالث من المشركين معروف في المجتمع، هم المشركون المرتدون عن الإسلام، الذين غيروا دينهم ولم يحاربوا أو يغادروا بلاد المسلمين ولم يضطروا إلى النفاق، واختاروا الردة إلى الشرك، فلم يقتلوا وظلوا تحت السيطرة، ويبدو أنهم كانوا ظاهرة حتى عُدُّوا قسيمًا للمحاربين والمسالمين، فهم راضخون لأحكام المسلمين مأمونو الجانب. وهذا الصنف الثالث المتحدث عن وجوده يتناقض مع التنظير الفقهي لدى جمهور المسلمين والقاضي بقتل المرتد لمجرد ردته بغض النظر عن محاربته، ويبدو أن الواقع التاريخي يؤكد ما أورده الغطفاني من وجود مرتدين مسالمين، استمروا في كل العصور[39].

إن هذا التوصيف المبكر لأصناف المشركين تأريخ من غير جدل في الحكم المتعلق بهم يعني أنهم ظاهرة موجودة في المجتمع، وفي حالتي دفع المشركين الجزية أو وجود مشركين مرتدين بعد الإسلام، يتناقض حالهم مع ما قرره جمهور الفقهاء من كيفية التعامل مع المشركين (الإسلام أو القتال) والمرتدين (التوبة أو عقوبة القتل)، ومن ثمّ فنحن أمام وثيقة تاريخية تعزز الاجتهادات المتأخرة التي ترى إطلاق حرية الاعتقاد من غير تمييز بين أهل الكتاب وغيرهم، وبين حرية الاعتقاد قبل الدخول في الإسلام أو بعده ما دام ذلك في إطار السلم.

ثالثًا: الاختلاف بين المسلمين

يرى الغطفاني أن ظاهرة الاختلاف والانقسام إلى فرق في الأديان واحدة، وأنها ظاهرة ترتبط بأمرين: الأول أن يحصل حادث مهم بين أتباع الدين الواحد فيبحثوا عن الموقف الديني تجاهه، والثاني موقف رجال الدين نفسه تجاه هذا الحدث ودورهم في شق صفوف الناس. وعليه، يرى أن ما جرى للمسلمين قد سبقهم إليه اليهود والنصارى، "فابتلي أصحاب موسى بالسامري، وأصحاب عيسى ببولس والذي بعده"[40]، فنظير السامري وبولس في الإسلام هو شخصية رمزية يسميها الفقيه، والحدث الذي كان أول سبب الاختلاف بين أهل الصلاة ومنه تشعبوا هو الاختلاف في شأن المواقف من الصحابة. لذا بدأ بعرض الاختلافات المتعلقة بالمواقف من الصحابة، ثم أتبعها باختلافات في تصورات عقدية تتصل بصفات الله أو الإيمان والعمل أو الآخرة، واختلافات أخرى ذات بعد سياسي أو تتصل بمسائل جزئية أو فقهية، ونظرًا إلى تداخل ما عرضه المؤلف من اختلافات، لعله راعى في ترتيب بعضها الجانب التاريخي، سأعيد تصنيف الاتجاهات التي ذكرها في كتابه بحسب موضوع الاختلاف وليس بحسب ترتيب الكتاب، وذلك للخروج من تداخل الموضوعات في سرده، ولتكون الصورة أوضح عن طبيعة الاختلافات، وسأنقل أسماء الفرق والاتجاهات كما ذكرها من دون تعريف بها

---

39 هذه الظاهرة تستحق الدراسة والتتبع في المصادر التاريخية والفقهية؛ إذ يبدو أن مدار الحكم الفقهي المتعلق بقتل المرتد، على مستوى الممارسة التاريخية، هو مدى بغي المرتد ومحاربته، فما دام المرتد مسالمًا خاضعًا للسلطة لم يقتل، وهذا يفسر استمرار الأقليات من الفرق المحكوم بردتها في التاريخ الإسلامي. فقد أشير في بعض المصادر الفقهية إلى أحكام عملية تتصل ببعض الفرق المسالمة والمصنفة خارج الإسلام، والتي ينطبق عليها نظريًا حكم المرتدين. انظر: معتز الخطيب، "الأقليات الدينية في الوعي الفقهي: النظام الفقهي ومأزق الدولة"، في: مجموعة مؤلفين، **المسألة الطائفية وصناعة الأقليات في الوطن العربي**، تنسيق محمد جمال باروت (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 443.

40 الغطفاني، ص 41.

نظرًا إلى كثرتها، ولتوافر مصادر خاصة بالتعريف بالفرق، وسأحرص على استخدام عباراته ما أمكن، في وصف مواقف الفرق وآرائها، مع إبراز المواطن التي أبدى فيها رأيه. وتجدر الملاحظة أنه في الغالب يعتمد قسمة ثنائية في عرض الاختلاف تجاه القضية الواحدة، مع احتمال وجود رأي ثالث أو رابع في القضية نفسها، كما أنه يقتصر في ذكر أصحاب الاتجاه في تبني كل فكرة على من عُرِفَ بالقول بها، وكان دقيقًا في نسبة الأقوال حتى إنه أفرد بعض أتباع الفرقة الواحدة في تبني القول دون الآخرين من أتباعها.

وقد استخرجت من الكتاب ما يربو على أربعين مسألة أساسية صنفتها ضمن محاور: عقدية، وأخرى ذات بعد سياسي، ومسائل من فروع الأحكام، واختلافات في طرق إدراك الحق. ولا يتسع بحث يهدف إلى وصف الكتاب وتقديم محتواه للكشف عن خيط ناظم للمسائل التي استعرض الكتاب الاختلاف فيها، لكن لدى التأمل نجدها تدور في المسائل العقدية حول مفهوم الإيمان نفسه، وصلته بالعمل، وأمور تتصل بصفات الله، أو حول المكلف ومسؤوليته، أو حول التكفير ووحدة الجماعة. وعليه، فإن حيزًا مهمًا من المسائل العقدية له صلة بالتصورات السياسية، على نحو مباشر أو تبعي (كل ما يخص العمل والجماعة له بعد سياسي). أما المسائل ذات البعد السياسي فكانت تدور حول الموقف من الصحابة واختلافاتهم، ومن ثم الموقف من الإمامة وما يتصل بالحاكم والتعامل معه وتوظيف الأحاديث لتبرير الموقف منه. أما المسائل الفرعية فهي من هوامش الاختلاف الديني أو السياسي، والاختلاف في توصيف ما اختلف فيه وفي سبيل إدراك الحق هو في جوهره اختلاف في تمييز ما يرجع إلى الدين وما يرجع إلى السياسة مما يختلف فيه، وبعبارة أخرى هو توصيف حال الشأن العام وربطه بالنص أو الدين أو الاجتهاد أو الجماعة، لذلك كان الحل الذي انتهى إليه يجمع بين مرجعية الدين ومرجعية الجماعة (الخبر المجتمع عليه)، وهو سعي منه لإيجاد ضابط للاختلاف الذي بسط صوَرَه في الكتاب، والذي يتلخص في هذه المحاور:

1. الاختلاف في المسائل العقدية

أ. الاختلافات في الإيمان وصفات الله

- الاختلاف في إطلاق اسم الإيمان[41]: ذهب الحشو والشُّكَّاك (الذين يشكون في إيمانهم من المرجئة) إلى الحذر في إطلاق اسم الايمان وإرجاء الأمر إلى الله، وتعليق النجاة به. أما المرجئة والخوارج والشيع، فذهبوا إلى الجزم في إطلاق وصف الإيمان على المؤمنين.
- قضايا العمل بأمر الله وإرادته ومشيئته ورضاه[42]: القدرية وهم من جميع أصناف أهل القبلة كفّروا مخالفيهم من أهل القبلة، وقالوا: ما عمل أحد من أهل القبلة بحسنة ولا بسيئة وإنما هو معمول بهم، ثم يعلق على رأيهم بما يعكس رؤيته التي توافق المعتزلة "وأبطلوا بتأويلهم دلالة آيات كثيرة على جزاء العمل"، وخالفهم من الخوارج الميمونية والأزارقة والفضيلية، ومن المرجئة الغيلانية والسمرية وعامة الحشو من جميع أصناف القبلة: يقولون الإيمان إقرار بلا عمل.
- ذكر قول الرافضة بالبداء، وعقب عليه بقوله "تعالى الله عما قالوا علوًا كبيرًا"[43].
- نقل الخلاف في إمكان رؤية الله، والكلام عن صفاته، ثم أغلظ القول على الفقيه بلعنه لما يرويه من آثار مما يقر به رؤية الله وتشابه صورته أو تجسده، ويصف هذه الأحاديث بالشرك والكفر والفرية على الله، ويصف قابليها بأنهم مشركون، عبدة الصورة[44]، على أن الغطفاني، كما أشرت، اختص برأي ثالث في الموضوع وهو إمكان رؤية الله في الآخرة، لكن بحاسة سادسة يخلقها الله.
- وعن النفاق قال بعضهم لا نفاق بعد رسول الله، في حين رأى آخرون القول بخصال للنفاق، وإن من أتى كبيرة فهو منافق[45].

41 المرجع نفسه، ص 72-74.
42 المرجع نفسه، ص 94-101.
43 المرجع نفسه، ص 106-107.
44 المرجع نفسه، ص 135-137.
45 المرجع نفسه، ص 137-139.



ب. الاختلاف في التكفير، والعلاقة بين الإيمان والعمل[46]

هذا المحور هو أكثر موضوعات الاختلاف تفصيلًا في الكتاب، حيث عرض فيه نحو تسعة اتجاهات بعضها متشابه أو فرع من قول سابق، وخلاصتها:

- الجماعة والمرجئة وبعض الخوارج وعامة أهل التوحيد ما خلا الشكاك والمتزمتين: رفض تكفير أهل القبلة.
- الغيلانية (طائفة من مرجئة أهل الشام): معرفة الله فطرة وليست بدين ولا تكليف ولا اكتساب ويستوي فيها جميع الخلق وإبليس والملائكة والمؤمنون.
- الجهمية (مرجئة خراسان وهم رأس المرجئة): الإيمان والإسلام ما بطن دون ما ظهر، وأما ما ظهر وبطن مما سوى معرفة الله أنه خالق من قول أو علم أو عمل فليس من الإيمان، ولا من الدين ولا من العبادة.
- مرجئة الكوفة (النعمانية، والصباحية، والوضاحية، وقيس الماضر، والردية) والبصرة (السموية): الإيمان قول، فمن قال أدى الفرض، أو هو قول لأنه دليل على موافقة القلب.
- الأزارقة والنجدات من الخوارج: الإيمان كل ما أقر به، والعمل أجمع ليس بدين ولا إيمان ولا عبادة، وأن الدين لا يتفاضل فيه أهله.
- الخوارج والشيع والمعتزلة وجميع من خالف المرجئة: العمل من الدين.
- الإيمان من الإسلام، والإيمان والإسلام اسمان للدين.
- الإيمان له أركانه، والإسلام له أركانه كما ورد في الحديث.
- المعتزلة: الفجار من أهل القبلة بين منزلتين، لا هم مشركون ولا كفار، ولا من الطيبين، فهم فجرة فسقة، وقد استشهد لوجهة نظرهم بآيات كثيرة، وأطال في وصف منزلة الفاسقين وأنهم الأخسرون أعمالًا، والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وأن المنافقين كانوا في عهد الرسول. وهذه من المسائل التي يشترك فيها الغطفاني مع المعتزلة.

ج. الاختلافات في الحساب والآخرة

- يعرض الاختلاف في الموقف من الشفاعة، ومصير أهل المعاصي في الآخرة، وهنا يصرح الغطفاني برأيه المتفق مع رؤية المعتزلة وهو القول بالوعد والوعيد، ويذهب إلى تكفير من يصدق الأحاديث التي تقول بالمغفرة للعصاة[47]، وهذا من أشد المواقف التي يتخذها صراحة في كتابه. وينقل رأي أصحاب السنة والجماعة القائلين بنجاة العصاة يوم القيامة، وإمكان الشفاعة لهم[48].
- من المسائل المتصلة بالآخرة يذكر الخلاف في قضية عودة عيسى بن مريم، فيؤيد ذلك الحشوُ والمتزمتون في الرواية، وأن عيسى يرجع ويصلي خلف رجل من هذه الأمّة ويكسر الصليب، وأنكر ذلك آخرون لأنه لا نبي بعد محمد[49].
- يعرض اختلاف أهل القبلة في وصف حال الميت، بين من يرى أنه لا ينسب إليه من الحياة شيء ولا يحل ذلك وأنه كذب وفرية على الله، وقول البعض إن الموتى يعقل بعضهم عن بعض ما يعقل الأحياء، وقول آخرين إن الأرواح تعقل دون الأجساد[50].

---

46 المرجع نفسه، ص 74-82.

47 المرجع نفسه، ص 70.

48 المرجع نفسه، ص 72.

49 المرجع نفسه، ص 108-109.

50 المرجع نفسه، ص 114-115.

- وعن مصير الأرواح بعد الموت، ذكر القول بالتناسخ وأنه مأخوذ من المجوس، ورد هذا القول ووصفه بالكفر[51].
- وعن عذاب القبر ذكر إنكار جميع الخوارج وعامة الشيع والمعتزلة وعامة المرجئة عذاب القبر، وقول الحشو والمقلدين به[52].
- وذكر خلافًا في حال من مات وعليه دَين للغير[53].

د. اختلافات في مسائل تتعلق بالنبوة والقرآن

ذكر خلافًا في تفضيل الأنبياء فرفض البعض ذلك وأجازه آخرون[54]، ونقل قول القدرية إن نساء الأنبياء كن يبغين، ونفي آخرين ذلك[55]، وعن حياة النبي محمد قبل الوحي قال الحشو وغيرهم ما آمن إلا بعد الأربعين، ورفض الآخرون هذا القول وأثبتوا له الإيمان والحنيفية[56].

كما نقل الخلاف في قراءة القرآن بحروف أخرى، وأن عليًا وابن مسعود وعمر كانوا يقرؤون بحروف أخرى، وأنه ذهب منه ما لا يدرى ما هو، ورفض ذلك الخوارج وأشباههم[57]، وكذلك الخلاف في الكفر بآية من القرآن هل هي كحال الكفر بكله، ويخص بالذكر قرآنية المعوذتين، فشهادة المهاجرين والأنصار وإجماع الأمّة على أنهما (المعوذتان) مثبتتان في اللوح المحفوظ، أما الحشو والحصيبية من الشيع والقدرية من المرجئة فيرون أنهما ليستا من القرآن[58].

2. الاختلافات ذات البعد السياسي

الاختلافات ذات البعد السياسي هي أول ما بدأ عرضه من الخلاف في الكتاب، وأوسع تلك الاختلافات هو المواقف من الصحابة وما جرى بينهم، فيذكر من اختلف فيه منهم، وموقف الفرق من كل منهم.

أ. الموقف من الصحابة

بدأ بعرض الموقف من عثمان (الخليفة الثالث)[59]؛ فمدح الأمويون وأتباعهم عثمانَ وكفّروا من قتله وأيّد قتله؛ بينما ذمّ الخوارج والروافض والشيع عثمانَ وكفّروه، وكفّروا من أيّده.

وعن الموقف من معاوية بن أبي سفيان[60]؛ تبرأ العوام من معاوية ومن اتبعه، أما أتباع ملوك بني أمية وأهل العطا [...] وأهل القبلة والمرجانية وأهل سسار من أهل الرأي فتولوا معاوية.

وعن الموقف من علي بن أبي طالب (الخليفة الرابع)[61]؛ مدح الرافضة والشيع عليًا ورأوا أنه خليفة النبي على أمّته، وأن النبي أسرّ إليه شيئًا من الوحي والدين، وأن الأمّة ارتدّت بعد النبي إلا أربعة، ثم تاب اثنان، ويعلق الغطفاني بعد ذكر ما أورد الفقيه من الأحاديث لهم بقوله "وفي نحو هذا من الحديث الضال المضل المفتعل"[62]. أما الخوارج فتبرؤوا من علي ومن تولاه وكفروه.

---

51 المرجع نفسه، ص 123-124.
52 المرجع نفسه، ص 112-114.
53 المرجع نفسه، ص 89-90.
54 المرجع نفسه، ص 115-117.
55 المرجع نفسه، ص 101.
56 المرجع نفسه، ص 118-120.
57 المرجع نفسه، ص 107-108.
58 المرجع نفسه، ص 109-111.
59 المرجع نفسه، ص 45-47.
60 المرجع نفسه، ص 48-50.
61 المرجع نفسه، ص 50-53.
62 المرجع نفسه، ص 52.

وعن الموقف من أبي بكر وعمر[63]؛ يورد الغطفاني على لسان الفقيه أحاديث ضد مواقف الرافضة والشيع ويعلق عليها بأنها "من الحديث الذي اتفقت عليه الجماعة المعصومة الأولى وقبلته الخوارج"[64]، وعبارته هنا صريحة في موقفه وتعليله.

وعن الموقف من طلحة والزبير[65]؛ مدحهما الحشو وأتباع الملوك من طلاب الفتن، وذمهما الخوارج والشيع. واتجهت الجلسية[66] والصمتية والحشوية والمتزمتون إلى الإمساك عن ذكر الصحابة بسوء وتحريم سبهم[67].

ب. الموقف من الخروج على الحاكم[68]

أورد الغطفاني ثلاثة مواقف من الخوارج، الأول ذمهم والتحريض على قتلهم، والموقف الثاني موقف الحلسية من الحشو والمتزمتين وهو ذم خروجهم على الإمام العادل، وتفضيل عدم القتال ما أمكن حتى في دفع الظلم. أما الموقف الثالث وهو موقف الخوارج والشيع والخناقين، فقد استحلوا الدماء والأموال، وقالوا بالخروج على الظالم واستحلال دم من أظهر المعاصي، وأطال في الروايات التي يستشهد الفقيه بها للخوارج في تكفير أهل المعاصي واستحلال دمائهم وأموالهم.

ج. الموقف من إمامة الفاسق والظالم والصلاة خلفه[69]

فذهب الحلسية والصمتية والحشوية والمتزمتون إلى القبول بإمامة الفاسق والصلاة خلفه والتقرب إلى السلاطين، أما الخوارج والشيع والمعتزلة فرفضوا إمامة الفاسق والظالم. وأورد على لسان الفقيه قبول أهل السنة والجماعة تولية الفاجر القوي، ورفض أهل الصلاح توليته وقالوا بمقاتلته إن أظهر فجوره[70].

د. قريش

فضل بعضهم قريشًا وجعل فيهم الإمامة، ورفض الخوارج ذلك[71].

هـ. التقية

ذكر الخلاف في التقية، فرفضها الأزارقة، وقبلها آخرون من الخوارج والشيع، وعلق على موقفهم بأنهم استحلوا التقية في الرغبة والطمع، فضلًا عن المخافة والرهبة[72].

---

63 المرجع نفسه، ص 53-56.

64 المرجع نفسه، ص 56.

65 المرجع نفسه، ص 56-58.

66 الجلسية (بالجيم) هكذا ضبطت في النسخة المحققة، ويبدو أنها الحِلْسِيَّة (بالحاء) كما في المصادر الأخرى، وهي مأخوذة من الحلس وهو "بساط يبسط في البيت، ومنه قيل في الحديث كن حلس بيتك، أي الزمه في الفتنة والهرج لزوم البساط له، ويقال للذين يرون هذا في الفتنة الحلسية"، انظر: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **غريب الحديث**، تحقيق عبد الله الجبوري، ج 1، إحياء التراث الإسلامي 23 (بغداد: مطبعة العاني، 1977)، ص 562. وأنكر عليهم الجاحظ انتسابهم إلى الصحابي عبد الله بن عمر وزعمهم أنه "رئيس الحلسية"، انظر: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ج 3، ط 7 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1998)، ص 130. ويلاحظ جوزيف فان إس أن الحلسية al-Ḥilsīya هو أقدم اسم لطائفة على الإطلاق، لكنه خرج من مفردات اللاهوتيين ومن النصوص، انظر:
Ess, *Kleine Schriften*, pp. 2481 - 2482.

67 الغطفاني، ص 84.

68 المرجع نفسه، ص 57-68.

69 المرجع نفسه، ص 84-88.

70 المرجع نفسه، ص 129-130.

71 المرجع نفسه، ص 117-118.

72 المرجع نفسه، ص 91-93.

و. الشام وأهلها، وأهل المشرق، وأهل الرايات السود

نقل على لسان الفقيه أخبارًا في مدح الشام وأهلها وعقب عليه بأنه "لم يبق للحرمين شيء"، ثم مدح أهل المشرق حتى رضوا[73]، وروى كذلك على لسانه أخبارًا في مدح أهل الرايات السود والدخول معهم (وهم بنو العباس) وروايات أخرى في ذمهم[74].

3. الاختلاف في مواقف من مسائل فرعية

نقل خلافًا في مسألة الدعوة (إنذار العدو قبل غزوه ودعوته إلى الدخول في الإسلام)، وقد رفضها البيهسية، وعلل موقفهم بموافقة ذلك لأهوائهم[75]، وذكر الخلاف في قتل النساء والصبيان في المعارك، فاستحله الأزارقة والمنصورية، ورفضه الميمونية من الخوارج والفضيلية والقدرية من جميع الأصناف (لأن في جميع الأصناف قَدَرًا)[76]. وأورد موقفين من الغنى والفقر مدحًا أو ذمًّا[77]، وكذلك الاختلاف في الإسراف في البناء، وفي الغناء[78]، وخلافًا إن كانت الصدقة تزيد في العمر[79]، وذكر رفض الحشو والمتزمتين اللعن، بينما قبله قوم لمن يستحقه وأنه تسبيح وطاعة وعبادة[80]. وينقل رفض خوارج الصفرية شهادة الواحد[81]، وعرض أقوالًا في الاستثناء في اليمين والطلاق، ورفض تحليف السلطان ذلك أنه إكراه[82]، كما نقل خلافًا بين الصحابة في حكم نكاح النساء في أدبارهن[83].

4. أصناف الناس في الموقف من اختلافاتهم وطرق إدراك الحق

بعد عرضه اتجاهات الناس ومواقفهم من مختلف القضايا العقدية والسياسية في عصره، يعرض وجهة نظر الفرق الرئيسة من الاختلاف نفسه، والذي سماه البلاء بين الأمّة[84]؛ يقول "فلما وقع البلاء بين الأمّة، وحرَّش (أي الفقيه) بعضهم على بعض، وروى لكل صنف منهم ما وافق هواه وتأوله، صار الناس على ستة أصناف"[85]؛ فالصنف الأول الصفرية والمرجئة، يرون أن الأمور داخلة في بعض ما كان على عهد رسول الله وإن اختلفت وتلونت، وأنه لا مخرج إلا في اتباع النبي.

الصنف الثاني الإباضية، يرون أن في الكتاب حكم ما ابتلينا به، ولو ابتلي النبي بمثل قومنا لحكم فيهم بمثل ما حكمنا.

والصنف الثالث النجدات (وقَبِلَهُ عنهم من المرجئة والحشو ممن يتعاطى الفتيا ويطلب الرياسة والقضاء ويتبع الملوك)، يرون أن الأمور حادثة ويُجْتَهد فيها الرأي، ولم يبتل النبي بمثل قومنا ولم ينزل الكتاب في حكم أمرهم.

أما الصنف الرابع والخامس فهم الشيع وأتباع الملوك، سلموا أمورهم للرجال وجعلوا الهدى في اتباعهم.

والصنف السادس والأخير هم بعض الحشو، أهملوا الأمر وقالوا النظر فيه بدعة.

---

73 المرجع نفسه، ص 120-121.
74 المرجع نفسه، ص 121-123.
75 المرجع نفسه، ص 90.
76 المرجع نفسه، ص 93-94.
77 المرجع نفسه، ص 102-104.
78 المرجع نفسه، ص 132-135.
79 المرجع نفسه، ص 104-106.
80 المرجع نفسه، ص 125-126.
81 المرجع نفسه، ص 111-112.
82 المرجع نفسه، ص 126-129.
83 المرجع نفسه، ص 131-132.
84 المرجع نفسه، ص 139-140.
85 المرجع نفسه، ص 139.



ويعقب عليهم بقوله: "اجتمعوا جميعًا أن الحق والهدى في اتباع النبي وأن الباطل في خلافه. والابتداع بدعة وكل بدعة ضلالة. فنقض ما أجمعوا عليه ما انفرد به كل منفرد منهم"[86]، ثم يلخص الأقاويل في طرق إدراك الحق، فعدد نحو خمسة عشر طريقًا يتبنى كل واحد منها فريق غير الآخر[87]، وهي تدور بين الخبر قرآنًا أو روايات، وبين الاجتهاد وما اتفقت عليه الجماعة، أو جمعًا بين ذلك، ثم يسرد مناقشة مجمل الأقوال بعد الاعتراض على كل منها، وينتهي إلى أن الحجة فيما أجمعت عليه الأمّة في الأخبار التي لا يدفعها أخبار مثلها[88]، وبهذا الإجماع عُرِف إبطال المخالف لأنه صدَّقَه، ولم يُتَكَاذَبْ فيه أنه حق، ثم خالفه بتأويل ورواية بعد الاجتماع على قبوله. ويدعم هذه الحجة بقوله "فإن كان الهدى لا يصاب باجتماع الأمّة فهو بأن لا يصاب لانفراد أبعد"[89]، "وليبطلن بترك الاجتماع جميع الدين"[90]، لكنه إذ يقرر ما تقوم به الحجة لا ينفي الاختلاف الذي يرى أن الحق فيه، وأن لا سبيل إلى تقويمه أبدًا[91].

خاتمة

بعد استعراض محتوى كتاب **التحريش** وأسلوبه، يمكنني القول إن هذا الكتاب يحمل رسائل عدة:

- ذمٌّ وتقريع لمن كانوا سببًا في تفريق أتباع الدين الواحد لأسباب شخصية تتعلق بطمعهم في المال والمنصب والجاه، والمقصود هنا من يمثل نموذج الفقيه سيئ الديانة والذي مارس التحريش.
- ذم الاختلاف غير المستند إلى دليل يقتضيه، والإقرار في الآن نفسه بأن الاختلاف في بعض وجوهه أمر لا مفر منه، نظرًا إلى طبيعة الأدلة المحتملة في كثير من المسائل المطروحة، وأثر الاجتهاد والتأويل في فهم النص. هذه الرسالة الثانية للكتاب يمكن لمحها صراحة في خاتمة الكتاب، حيث يُقِّرُ أن الحق في الاختلاف، وأنه لا سبيل إلى تقويمه، ويمكن تلمسها على نحو غير مباشر من خلال صمته عن كثير من استدلالات الفقيه، عندما يعرض وجهات نظر وأخبارًا متناقضة بحسب السائل، لا سيما عندما يورد آيات في الاستدلال.
- تقرير الأساس الذي يمكن أن يحتكم إليه المختلفون ويضبطوا به اختلافاتهم، ومن ثمّ تمييز الاختلاف الحق الذي يقتضيه الدليل والاختلاف الناتج من ضعف ديانة الفقيه ونزوعه إلى النفاق والكذب من أجل السلطة أو المال أو الجاه.

حرص الغطفاني بعد عرضه هذه الصورة السائلة من التنوع الديني والفكري، والشطط في الاختلاف في عصره، على إيجاد قاسم مشترك يضبط ما يدرك به الحق بين المختلفين؛ فضبط معيار الحجة بما أجمعت عليه الأمّة في الأخبار التي لا يدفعها أخبار مثلها.

---

86 المرجع نفسه، ص 140.

87 المرجع نفسه، ص 141-145.
وطرق إدراك الحق التي ذكرها: 1. البيهسية: الدليل على الحق نفسه لا يلتمس عليه شاهد غيره، 2. عامة الخوارج الصفرية: الدليل على الحق الواحد كائنًا ما كان إذا جاء بحق قبل، 3. الإباضية: الدليل على الحق الحق، 4. بعضهم: الحجة النبي، 5. النجدية: الدليل على الحق قول طائفتنا، 6. الحسنية: الدليل على الحق قول رجل يخالف النبي ولا يجب الحق اليوم لغيره، 7. الأزارقة والبدعية: الدليل على الحق ما نزل به الكتاب تلاوته. وما لم تتل به الكتاب باطل، 8. صنف من الحسنية: الدليل على الحق الروايات، 9. الرافضة والمعتزلة والحشو: الدليل على الحق أن من اجتهد عندنا واستحسن شيئًا ولم يوافق ولم يعط المعرفة عُذِر، 10. الرقاشية: الدليل على الحق أن جميع الناس بجميع الدين عالمون، 11. المرجئة: الدليل على الحق قول الجماعة حتى لا يبقى منهم أحد، 12. الحشو: الدليل على الحق أن الله لم يقم الحجة على أهل الأهواء، 13. بعض الحشو: لا حجة لله في شيء فيه الاختلاف وإنما الحجة فيما لم يقع فيه الاختلاف، 14. طائفة: الدليل على الحق الجماعة، 15. طائفة: الدليل على الحق جميع أشباه ما مضى من الأقاويل خصلتين أو ثلاث بذلك يدرك الحق.

88 "إن الأمّة أجمعت عليه في الأخبار التي لا يدفعها أخبار مثلها. ولأنهم أجمعوا على ذلك كما جاء إجماعهم على القبلة والزكاة ونحوها. وبذلك من اجتماعهم عرفنا إبطال من خالفنا"، الغطفاني، ص 144.

89 المرجع نفسه، ص 145.

90 المرجع نفسه.

91 "فإذا اختلفنا كان الحق في الاختلاف، وما انفرد به بعضنا عن بعض فإنا نؤخذ به هذا وبأية حجة يعلم بأن هذا هكذا. وهذا ما لا يوجد إلى تقويمه سبيل أبدًا"، المرجع نفسه.

وهو بتقريره هذا الضابط، يُقرُّ بحجية الخبر بشرط أن يكون ثمة إجماع عليه، ولا إشكال بعد ذلك في الاختلاف في تأويله، وقد سبق واستشهد بهذه الحجة في رده على مواقف الرافضة والشيع من أبي بكر وعمر، فيعلق على الآثار في فضلهما بأنها "من الحديث الذي اتفقت عليه الجماعة المعصومة الأولى وقبلته الخوارج"[92]، وكأنه بهذا الضبط للخبر بالإجماع على قبوله يرفض حجية خبر الآحاد التي اعتمدها أهل الحديث، وأَصَّل لها الشافعي. لكن يبقى سؤالان معلقان حول هذا الضابط الذي وضعه الغطفاني. السؤال الأول: أكان الغطفاني يرى شرط الإجماع على قبول الخبر فقط في المسائل الكبرى المتصلة بالعقيدة وشأن الجماعة أم يشمل هذا فروع الأحكام؟ والسؤال الثاني: أيكون هذا الضابط معيارًا لدرك الحقيقة وإثباتها أم لإقامة الحجة بين المختلفين وحل النزاعات والخصومات؟ لا يمكن حسم الإجابة عن السؤالين من خلال الكتاب نفسه، وهما مفتوحان لتتبع أفكار الغطفاني من مصادر أخرى، لكني أستشف أنه يقصد بالضابط الذي عبر عنه المسائل الكبرى التي تخص الاختلاف والتنازع بين الأمّة، وليس بصفته طريقًا لإدراك الحق في ذاته. فربط الأمر بالإجماع والجماعة المعصومة، وما اتفق عليه المختلفون من الأخبار، هو أقرب إلى إقامة الحجة على المختلفين منه إلى إقامة الحجة على إثبات الحق نفسه. لذا نجد في الغطفاني من الحدة ما يكفي عندما يقرر ما يتبناه، حتى إن كان لا يقر به الآخرون؛ وقد ظهر ذلك في الكتاب في تقرير مسائل الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين وذم الأخبار التي تشبّه الله بخلقه، وكان يستند في حجاجه إما إلى آيات يحشدها على لسان الفقيه تعزز الرأي الذي يميل إليه، وإما يرد الرأي المخالف لكونه تأويلًا أو تصديقًا لأخبار معناها شرك وكفر، وهذه حجة عقلية.

إن موقف الغطفاني في تقييد الخبر الحجة بالمجتمع عليه بين المختلفين من غير تكاذب هو تعبير عن الارتباك الذي كان في عصره في الموقف من قضيتي الإجماع وحجية الأخبار؛ فجمع بينهما أصلًا يحتكم إليه المختلفون وإن تفاوتوا في تأويل الخبر. وهما قضيتان جديرتان بالبحث من جديد في ضوء مصادر تلك الفترة؛ فالأخبار كانت زاد الفقيه في التحريش وتأجيج الخلاف، وفيها ما يصح وما هو مكذوب، وموضوع الإجماع كما يبدو من كتاب **التحريش** هو تقرير ما يصلح حجة من الأخبار، ويمكن بعده الاختلاف في التأويل فيكون الاختلاف حقًا، فتلتبس وظيفة الإجماع هنا مع الإجماع في القضايا الاجتهادية، وهي مسألة في حاجة إلى تحرير وتدقيق ومقارنة.

إضافة إلى ما ذكرت، فإن كتاب **التحريش** يثير أسئلة كثيرة جديرة بالمتابعة، ومن شأنها أن تدقق الرؤية عن التصورات والحقائق التاريخية التي كانت سائدة في القرن الثاني الهجري، كما يمكن أن تقدم رؤية نقدية لأحكام وتصورات سادت لاحقًا على أنها امتداد لحقائق استقرت مبكرًا بينما هي ليست كذلك، ويمكن أن أشير إلى بعض هذه الجوانب والأسئلة التي لاحظتها من خلال دراسة كتاب **التحريش**، وأوصي بمتابعتها:

- أسماء الجماعات والفرق الإسلامية: تتكرر في الكتاب أسماء كثير من الفرق التي أصبحت مستقرة ومعروفة لاحقًا في كتب الملل والنحل كالمعتزلة والخوارج والمرجئة. لكننا نجد في كتاب **التحريش** مستويات وأصنافًا من الفرق نفسها والاتجاهات، فثمة فئات من الخوارج وفئات من المرجئة ... إلخ، كما يسمي بعض التيارات المنتشرة في كل الأصناف كالقدرية، ويميز أيضًا بين تعابير تبدو مترادفة كالروافض والشيع، وثمة تعابير تبدو ملتبسة ومتداخلة وأحيانًا ذات بعد سياسي، أو قد تكون اتجاهًا أو فرقة أو جماعة، مثلًا: الحشو، العوام، أتباع الملوك، الحلسية، الصمتية، البدعية، أهل البدع، أهل التوحيد، أهل القبلة، أهل الصلاح، أهل الرأي (ولا نجده يذكر تعبير أهل الحديث)، أهل الصلاح، المتزمتون بالرواية، طلاب الفتن ... إلخ. والأهم من جميع تلك التسميات تعبير "السنة والجماعة" الذي يعدّ كتاب **التحريش** أقدم كتاب يذكر هذا الاصطلاح، ويستخدمه في سياق الذم، وغالبًا في قضايا ذات بعد سياسي، فما الحمل الدلالي لهذا التعبير المركب؟ وما الفرق بينه وبين التعابير الأخرى؟ وما المشترك معها؟ وما الخاص بها؟

---

92 المرجع نفسه، ص 56.



- المفاهيم والمصطلحات المستخدمة في الكتاب: رغم أن الكتاب استخدم أسلوب الخيال الأدبي في معالجة موضوع لاهوتي، فإنه مكتنز بمصطلحات تنتمي إلى مختلف العلوم من لغة القرن الثاني الهجري، وبعضها ما يزال ملتبسًا، أو استقر لاحقًا بمعنى مختلف؛ فمثلًا مصطلح الفقيه المستخدم في الكتاب يحمل دلالة أوسع من دلالته التي استقرت لاحقًا واختصت بمجال أحكام الفروع. ويمكن أن نعدد الكثير من المفاهيم والمصطلحات المستخدمة في الكتاب والتي أصبحت لاحقًا جزءًا من علوم الحديث أو أصول الفقه أو علم الكلام، من ذلك مثلًا: مفاهيم "الخبر المجتمع عليه"، والحديث، والرواية، والرواية الشاذة، والتوفيق بين الروايات، والتفرد في القول، و"الأخبار التي لا يدفعها أخبار مثلها"، و"إدراك الحق"، و"الجماعة المعصومة"، والدليل، والحجة، والتأويل، والإجماع، وغيرها مما يمكن أن يعدّ كتاب **التحريش** من أقدم المصادر المدونة في استخدامها، وهي جديرة بالضبط الدلالي في سياق القرن الثاني الهجري.
- ما أورده الغطفاني في وصف أصناف المشركين من حيث موقفهم من السلطة، وجعل المرتدين منهم صنفًا مستقلًا غير محارب، يدعو إلى إعادة النظر في المصادر التاريخية تحديدًا عن أحوال وأصناف غير المسلمين والمرتدين عن الإسلام، وكيفية تعامل السلطة السياسية والقضائية معهم آنذاك، والمعيار الذي استندوا إليه في ذلك، ومن شأن تأريخ هذه الظاهرة أن تكشف عن رؤية فقهية مختلفة كانت مستندًا لهذا النمط من التعامل مع غير المسلمين في تلك المرحلة يختلف عما استقر في المذاهب الفقهية لاحقًا.

وختامًا يمكن القول إن كتاب **التحريش** يحكي حقائق تاريخية لمّا يدركها كثير من المسلمين اليوم، وهم أحوج إلى معرفتها وتمثلها لحاضرهم، من أهمها أن الصورة المثالية عن رؤية واحدة للإسلام في الفترة المبكرة تحديدًا لا وجود لها، وأن الاختلاف الذي كان وسيبقى، له مبرراته العلمية، كما له أسباب خارجية ترجع إلى بعض علماء الدين ممن يوظفون الدين لمصالح شخصية ذات صلة بالمال والسلطة والجاه.



المراجع

العربية

- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق. **الفهرست**. تحقيق أيمن فؤاد سيد. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2009.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. **غريب الحديث**. تحقيق عبد الله الجبوري. إحياء التراث الإسلامي 23. بغداد: مطبعة العاني، 1977.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث. **السنن**. تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قره بللي. دمشق: دار الرسالة العالمية، 2009.
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل. **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**. تحقيق نعيم زرزور. بيروت: المكتبة العصرية، 2005.
- البلخي، أبو القاسم والقاضي عبد الجبار والحاكم الجشمي. **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**. تحقيق فؤاد سيد. تونس: الدار التونسية للنشر، 1974.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. ط 7. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1998.
- الغطفاني، ضرار بن عمرو. **التحريش**. تحقيق حسين خانصو ومحمد كسكين. إسطنبول: دار الإرشاد؛ بيروت: دار ابن حزم، 2014.
- مجموعة مؤلفين. **المسألة الطائفية وصناعة الأقليات في الوطن العربي**. تنسيق محمد جمال باروت. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.
- محمود، رامي. "قراءة في كتاب التحريش لضرار بن عمرو الغطفاني (200هـ/ 815م)". *İstanbul Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi*. العدد 35 (2016).

الأجنبية

- Akpınar, Mehmetcan. "Kharijism in Kufa: Accounts on Abu Bakr and ʿ Ac according to Dirar b. ʿAmr's (d. ca. 200/815) Kitab al-Tahrish." paper presented at the XXXIII. Deutscher Orientalistentag. Jena. 1822-/9/2017.
- Adang, Camilla, Sabine Schmidtke & David Sklare (eds.). *A Common Rationality: Muʿtazilism in Islam and Judaism*. Wurzburg: Ergon Verlag Wurzburg in Kommission, 2016.
- Ansari, Hassan. "Kitābi Kalāmi az Ḍirār b. ʿAmr." *Kitāb-i Māh-i Dīn* 89-90 (13834-/20045-).
- Anthony, Sean (rev.). "W., Kitāb al-Taḥrīsh. By Ḍirār ibn ʿibn al-Ghaṭafānī." *Journal of Near Eastern Studies*. vol. 76, no. 1 (April 2017).
- Ess, Josef van. *Kleine Schriften*, Hinrich Biesterfeldt (ed.). Series: Islamic History and Civilization. vol. 137. 3rd ed. Leiden: Brill, 2018.
- ________. *Theologie und Gesellschaft im 2. und 3. Jahrhundert Hidschra: Eine Geschichte des religiösen Denkens im frühen Islam*. 3rd ed. Berlin; New York: Walter de Gruyter, 1992.
- Hansu, Hüseyin & Mehmet Keskin. *Kitâbu't-Tahrîş: İlk Dönem Siyasî ve İtikâdî İhtilâflarında Hadîs Kullanımı*. Istanbul: Litera Yayınları, 2014.
- Schöck, Cornelia. "Jahm b. Ṣafwān (d. 128/745–6) and the 'Jahmiyya' and Ḍirār b. ʿAmr (d.200/815)." Sabrine Schmidtje (ed.). *The Oxford Handbook of Islamic Theology*. New York: Oxford University, 2016.
- Thomas, David et al (eds.). *Christian-Muslim Relations: A Bibliographical History*. vol. 1 (600900-). Leiden; Boston: Brill, 2009.



*Said Ben Hamada | سعيد بنحمادة

السلطة والتجريم السياسي للمعارضة ببلاد المغرب والأندلس خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

Power and Political Criminalization of the Opposition in the Maghreb and al-Andalus of the 10th century CE/4th century AH

تهدف هذه الدراسة إلى الحديث عن مظاهر التجريم السياسي التي انتهجتها الخلافتان الفاطمية والأموية ضد المعارضة. فالصراع السياسي الذي عرفته بلاد المغرب والأندلس، خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بين العُبيديين الشيعة في إفريقية ونظرائهم الأمويين السنّة في الأندلس، واتخذ طابعًا مذهبيًا وعقديًا، أدى إلى تجريمهما لكل سلوك مناوئ، وتحويل مواقف المعارضة من بُعد مذهبي وعقدي إلى مفهوم سياسي؛ لأن الإسماعيليين والمروانيين أحسّوا بقوة العلماء الذين شكّلوا سلطة فكرية مؤطرة للمجتمع. لذلك، اصطبغت المعارضة بصبغة دينية وسياسية، أجبرت الخلافتين على النحت من المعجم الديني؛ لمحاربة رموزها، في إطار السعي إلى التجريم السياسي لسلوكهم، وفي سياق تداخلت فيه السياسة بالعقيدة والمذهب.

كلمات مفتاحية: بلاد المغرب، الأندلس، الفاطميون، الأمويون، التجريم السياسي.

This study discusses the policy of political criminalization adopted by the Fatimid and Umayyad Caliphates against their internal opposition. The political conflict experienced by the Maghreb and al-Andalus during the 10th century between Shi'i 'Ubaydis in Ifriqiyya and their Sunni Umayyad counterparts in al-Andalus, which took a doctrinal form, led to both of them criminalizing the other; opposition positions thus shifted from the realm of the confessional and the doctrinal to a political concept. The Ismailis and the Marwanids were both aware of the power of the Ulema, who constituted an intellectual authority framing society, and opposition was thus given a both religious and political coloring, whose symbols both Caliphates were forced to fuse elements from the religious dictionary in order to combat as part of attempts to politically criminalize their behavior – in a context where the political overlapped with doctrine and confession.

Keywords: Maghreb, al-Andalus, Fatimids, Umayyads, Political Criminalization, Opposition, Creed, Confession

* أستاذ التعليم العالي، متخصص في تاريخ الغرب الإسلامي، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، مكناس، المغرب.
Professor of Higher Education, Historian of Islamic Occident, Regional Center for Education and Training, Meknes, Morocco.

مقدمة

مثّل القرن 4هـ/ 10م مرحلة انعطاف حضاري بسبب التحولات العميقة التي تعلّقت بالبنى السياسية والثقافية مشرقًا ومغربًا. ولعل قيام ثلاث خلافات يدلّ على ذلك؛ إذ تزامن وجود الخلافة العباسية في بغداد مع قيام الخلافة الفاطمية بإفريقية، والخلافة الأموية في قرطبة.

وكان لبلاد المغرب والأندلس نصيبهما من ذلك المنعطف التاريخي؛ إذ لم يقتصر الصراع بين أمويي قرطبة والعبيديين على التدافع السياسي، وإنما امتد إلى الجهود الدعائية لنشر مذهبيهما؛ الأمر الذي جعل المعارضة تتحول من المفهوم السياسي إلى العقدي الذي نتج منه تجريم كل سلوك، أو ردة فعل، يقف في وجه الاستقطاب الأموي أو الفاطمي، وهو ما يمكن اعتباره بمنزلة جريمة سياسية مخلّة بأمن الدولة في العصر الوسيط.

ومن ثم، فإن الإشكال الجوهري للتجريم السياسي للمعارضة، في سياق بلاد المغرب والأندلس، منذ القرن 4هـ/ 10م، يكمن في التحول الذي مسّ المفهوم والمرجعية والوظيفية وما ترتّب على ذلك من مآلات، شملت بنية السلطة والمجتمع والمؤسسات، لكون النظم الأمنية انتقلت من السلطة الدينية لقاضي الجماعة إلى السلطة الزمنية للحاكم؛ فلم تعد الأحكام تستند إلى ضوابط شرعية وعرفية، بحسب الاجتهاد القضائي، وإنما غدت إفرازًا للواقع السياسي والحربي، وأصبح كل خارج عن الشرعية الرسمية مجرمًا، بالمفهوم المرجعي لإحدى الخلافتين اللتين بالغ خطابهما الرسمي في تمجيد "البطولات السياسية والعقدية" للخلفاء.

ونستحضر في ذلك التجريم الدوافع العقدية للخلافتين، وضحاياه من أهالي بلاد المغرب والأندلس؛ لأن السلطتين الشيعية والسنية برّرتا ممارستيهما بأن المخالفين لا يعارضون الخلفاء سياسيًا فحسب، وإنما صوّرتاهم بأنهم مناوئون للأمة و"منافقون"، يجب الحد من خطورتهم الفكرية والاجتماعية، بالقتل، أو التعذيب، أو المصادرة، وغيرها من أنواع العقوبات[1].

وبالمثل، فإن لفظ السياسة المضاف إلى التجريم، نقصد به المكون المذهبي والعقدي للخلافتين؛ فمعارضة الحكم الفاطمي معارضة للنظرية السياسية للإمامة؛ لأن الإمام لديهم "معيَّن من عند الله بالنصوص، إما الجلية، ومعناه التي أظهرها النبي عليه السلام للأمة [...] وإما بالنصوص الخفية، وهي نص من الله ورسوله على تعيين الإمام واسمه ونسبه، وكذا في كل عصر"[2]. في حين يرى الأمويون، على غرار الفكر السياسي السني، أن "تعيين الإمام راجع إلى اختيار الخلق"[3].

وبهذا المعنى، فإن التجريم السياسي للمعارضة حاول من خلاله الفاطميون والأمويون محاصرة القوى المناوئة لمرجعية نظام الحكم ومشروعيته، وبدوافع سياسية أو مذهبية أو عقدية؛ إذ إن موضوع التجريم والمستهدفين منه هو ما حدد طبيعة ردات فعل الخلافتين إزاءه؛ للحيلولة دون شيوع المواقف الرافضة للنظرية السياسية الشيعية أو السنية في الخلافة، كما رام تنفيذها العبيديون والمروانيون، وإن لم يكن للضحايا نزوع وبواعث سياسية جلية إزاء السلطتين الزمنيتين في بلاد المغرب والأندلس.

أولًا: السياق التاريخي للتجريم السياسي للمعارضة ومساقاته

استندت الفعالية السياسية في بلاد المغرب والأندلس خلال القرن 4هـ/ 10م إلى المكون القبلي، والميول العقدية التي مثّلت "إطارًا روحيًا يضبط قواعد الضبط الاجتماعي الإسلامي الذي اندمج فيه طواعية النظام القبلي البدوي والحضري المغربي"[4]. وهو ما يفسر تنوع

1 القاضي النعمان بن محمد بن منصور، **افتتاح الدعوة**، تحقيق فرحات الدشراوي (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1986)، ص 306، 319.

2 عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، تحقيق عبد السلام الشدادي، ج 4 (الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم الآداب، 2005)، ص 248.

3 المرجع نفسه.

4 كزافييه دو بلانهول، **تاريخ أرض الإسلام: الأسس الجغرافية للتاريخ الإسلامي**، ترجمة معاوية سعيدوني (تونس: دار الغرب الإسلامي، 2008)، ص 133-139.

مكونات الجغرافيا السياسية والقبلية العقدية، واختلاف الفاعلين المؤثرين في المجال والحقبة المذكورين؛ حيث كان الصراع السياسي والعقدي بين الخلافة الفاطمية العبيدية الشيعية بإفريقية منذ إعلانها في عام 296هـ/ 909م، والقيام الرسمي للخلافة الأموية الأشعرية المالكية في الأندلس في عام 316هـ/ 928م. وبناء عليه، "فإن الصراع الأندلسي الفاطمي يكتسي [...] صبغتين متكاملتين: الأولى عسكرية، والثانية دعائية سياسية ومذهبية"[5].

وعُقدت في فلك ذلك الصراع الأحلافُ القبلية التي تباينت وضعيتها، بحسب الخلافة الموالية لها؛ لإنتاج التوازن السياسي والاجتماعي آنذاك، ما جعل هذا القرن يجسّد فترة الخلخلة وإعادة بناء الخريطة القبلية ببلاد المغرب والأندلس، في إطار جدلية المجتمع والسلطة والثقافة في المعيش اليومي، وتجليات ذلك من حيث "العقائد والعادات والفنون، وطرز الاندماج البيئوي مع الطبيعة والذاكرة الجماعية، ونظام القرابة، وتقسيم العمل، وكل المعطيات التي تشكّل أرضية الوجود اليومي"[6]، في سياق سياسي وعقدي وجّه مساقات العالِم والسلطان وشيخ القبيلة.

وبذلك يعكس التجريم السياسي للمعارضة الصراع بين السلطة السياسية للخلفاء والسلطة الدينية للعلماء، ما دام أن الأمر، في ظل التنافس بين الخلافتين، ارتكز على إدانة السلطتين الفاطمية والأموية لكل تمرّد اجتماعي وفكري، يحاول الأهالي من ورائه الدفاعَ عن استقلالهم الذاتي[7].

إن تعريف التجريم السياسي للمعارضة، وفق منظور سياقي، ينبّهنا إلى مكونات الظاهرة السيادية ببلاد المغرب والأندلس خلال القرن 4هـ/ 10م، في علاقتها بالفاعلين المباشرين والمنفعلين، على السواء، حيث وجود دولة الخلافة، وسلطة الإمارة، والمجال الحيوي للقبيلة؛ فيكون التجريم السياسي للقوى المعارضة، بحسب ما نرومه، في مركز دائرة بنيوية معقدة المستويات تجمع بين الانشطار والانصهار؛ إذ توجد الخلافة العليا التي انشطرت إلى ثلاث خلافات: عباسية، وفاطمية، وأموية. وما يلي هذا المستوى يتشكل من إمارات مغربية محلية مثّل استقلالها الذاتي هدفًا للصراع بين الخلافتين، وتدَخُّلًا غير مباشر من العباسيين عبر حلفائهم الأغالبة بإفريقية؛ فاصطدمت الرغبة في الاستقلال بالصمود في فرض السيادة الدينية والسياسية، لينبثق مفهوم التجريم المتماهي مع كل تيار معارض للفاطميين أو الأمويين. وشكّلت القبائل المكون الثالث في هذه البنية، وهدفها الذود عن الخصوصية المحلية[8].

وكان من تجليات ذلك الصراع الثنائي بين الخلافتين، وبتسخيرهما الزعامات القبلية المحلية ببلاد المغرب، أن أفرزا جدلًا فكريًا بين الموالين للسلطتين والمعارضين لهما، إذ عملت السلطتان على توظيف أحد جيوب الخلاف بين المسلمين، والمتعلق بقضية الإمامة التي تعتبر "أعظم خلاف بين الأمة [...] إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثلما سُلَّ على الإمامة في كل زمان"[9].

وتجدر الإشارة إلى التفاوت في جغرافيا التجريم السياسي للمعارضة في بلاد المغرب والأندلس خلال القرن 4هـ/ 10م؛ حيث إن ثقل الوجود الإسماعيلي بإفريقية، مقارنة بالمغرب الأقصى، جعل كثافة إدانتهم للمعارضين تُسجَّل في المغرب الأدنى، وبالأخص في القيروان، حيث حيوية علماء المالكية هناك، في مقابل اليد الطولى للأمويين في أقصى بلاد المغرب والأندلس، وهو ما تنبّه إليه بعض الباحثين الذين تعرّضوا للتكوين الديني للنظرية السياسية في تفسير الصراع بين الأندلس وإفريقية خلال هذه الفترة[10].

---

5 فرحات الدشراوي، **الخلافة الفاطمية بالمغرب (296-365هـ/ 909-975م): التاريخ السياسي والمؤسسات**، ترجمة حمادي الساحلي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994)، ص 334.

6 محمد أركون، **تاريخية الفكر العربي الإسلامي**، ترجمة هاشم صالح (الدار البيضاء: مركز الإنماء القومي؛ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1996)، ص 104.

7 هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/ منتصف القرن العاشر الميلادي**، ج 2 (المحمدية: مطبعة فضالة، 1995)، ص 246، 247.

8 المرجع نفسه، ص 247.

9 محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق أحمد فهمي محمد، ج 1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ص 13.

10 العلوي القاسمي، ج 2، ص 245؛ عبد القاهر البغدادي، **الفَرق بين الفِرَق وبيان الفرقة الناجية منهم**، تحقيق محمد عثمان الخشت (القاهرة: مكتبة ابن سينا، 1988)، ص 32.

وقد مرّ الصراع بين الخلافتين بمراحل استُعملت فيها وسائل الترغيب والترهيب، من قبيل السفارات الاستقطابية، كما هي الحال في عام 316هـ/ 928م، لمّا بعث الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (300- 350هـ/ 913-961م) القاضي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى، لاستمالة القبائل، "فلم يلبث أن هَويت إليه أفئدة كثير من زعمائهم، بين مصحح في ولايته، مستجيب لدعوته، مغتنم لعطيته، مستعينين على مدافعة من قد هدّ ركنه من بني عبيد الله إمام الشيعة، المقتحم أرضه عليه ودونه"[11]. قبل أن يعمد الأمويون إلى تثبيت وجودهم العسكري بسبتة، التي اتخذوها قاعدة حربية في صراعهم ضد الفاطميين منذ عام 319هـ/ 931م[12].

ويبدو أن الخلفاء الأمويين لم يكونوا مطمئنين إلى ولاء بعض شيوخ القبائل لهم؛ بسبب تقلّب مواقفهم، إذ كان عبد الرحمن الناصر "منطويًا على الحذر من بوادرهم، معتقدًا قلاهم والازورار عنهم، مقتصرًا على من أظهر مكاتبته منه وموالاته على بعد واحتراس من كيادهم، مطيّبًا لهم بالإهداء والرفد، غير مستدع لهم إلى العبور عليه ولا مستكثر منهم بالإمداد لهم"[13]. وإن استحدثت منهم الخلافة فرقة عسكرية ضمن جيشها، وسميت "البرابر الطنجيين"، كان من مهماتها التصدي للتدخل الفاطمي ببلاد المغرب[14].

أما سياق التجريم السياسي للمعارضة من لدن الفاطميين، فهو يُخفي البعد العقدي؛ إذ يجب أن نميز فيه بين مرحلتي الدعوة والدولة لدى العبيديين[15]، فقد استهدفت الدعاية الإسماعيلية تطويع المنطقة قبل إعلان الخلافة؛ ذلك أن "بني عبيد لما ملكوا القيروان، أظهروا تبديل مذهب أهل البلد، وأجبروا الناس على مذهبهم؛ [...] فارتاع أهل البلد من ذلك"[16]، و"منعوا من بث العلم، وسجنوا العلماء في دورهم"[17].

وقد كان لذلك أثر جلي في المشهد الديني بإفريقية منذ أول حملة عسكرية تمشيطية في عام 298هـ/ 910م، وبعدها حملة مصالة بن حبوس المكناسي منذ عام 305هـ/ 917م التي استهدفت تاهرت الرستمية الإباضية، ونكور بني صالح وفاس الإدريسية السنيتين، وسجلماسة المدرارية الخارجية، مناصَرًا في ذلك من لدن موسى بن أبي العافية الذي كان مواليًا للفاطميين، قبل دخوله في طاعة الأمويين في عام 319هـ/ 932م، وكانت غاية الفاطميين من تلك الحملات محاولة عزل الأندلس عن بلاد المغرب[18].

وفي الحملة الثانية لمصالة بن حبوس، في عام 309هـ/ 921م، ستبرز المواقف التجريمية للفاطميين من معارضيهم ببلاد المغرب، فقد اعتَقل ابنُ حبوس الأميرَ يحيى بن إدريس وصادر أمواله، خوفًا من زعامته السياسية والروحية، وانتمائه إلى الأدارسة الشيعة الزيدية[19]، الأمر الذي جعل الفاطميين يحاربون إمارة مثّلت لهم "معارضة سياسية وعقدية"، واكتسبت مشروعيتها من مبايعة الأهالي

---

11 أبو مروان بن حيان، **المقتبس**، تحقيق ب. شالميتا وف. كورينطي وم. صبح، ج 5 (مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة؛ الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1979)، ص 256.

12 أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، تحقيق بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، مج 2 (تونس: دار الغرب الإسلامي، 2013)، ص 187.

13 أبو مروان بن حيان، **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي (بيروت: دار الثقافة، 1965)، ص 190.

14 ابن حيان، **المقتبس**، تحقيق شالميتا وكورينطي وصبح، ص 88.

15 بوبة مجاني، **الإسماعيليون في بلاد المغرب العربي** (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2014)، ص 13-50.

16 عبد الرحمن الدباغ، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، ج 2 (القاهرة: مكتبة الخانجي؛ تونس: المكتبة العتيقة، [د. ت.])، ص 298.

17 المرجع نفسه، ج 3، ص 39.

18 القاضي النعمان، ص 276-282.

19 العلوي القاسمي، ج 2، ص 252؛ أبو الحسن الأشعري، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج 1 (بيروت: المكتبة العصرية، 1990)، ص 136؛ البغدادي، ص 36. والزيدية يقولون بإمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في أيام خروجه، وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك (71-125هـ/ 691-743م).

لأمرائها، فتحولت إلى سلطة حاكمة منذ النصف الثاني من القرن 2هـ/ 8م؛ فـ "الضربة التي وجّهها الجيش العبيدي الفاطمي، بقيادة مصالة بن حبوس، لأدارسة فاس، أعطت تشتت الأمراء ورجال دولة قائمة ولو في فترة ضعفها وملاحقتهم في كل مكان"[20]، ولا سيما أن قيام إمارة الأدارسة ورسوخها بالمغرب اعتمدا على تكييف الهياكل الاجتماعية المحلية أكثر من الاقتصار على الأسس المذهبية؛ إذ "تطورت الإمارة الإدريسية تطورًا قبليًا ولم تتطور تطورًا مذهبيًا، وما تعرض النظام القبلي لهزة اجتماعية إلا وتعرضت الإمارة الإدريسية للنتائج نفسها"[21].

وفي الوقت الذي تزايد فيه النفوذ البحري للبيزنطيين شرق البحر الرومي، والنورماندي غربه، وانشغال الخلافتين بهما، اقتصر الفاطميون والأمويون على التأديب الجماعي للمعارضة القبلية ببلاد المغرب؛ لردع "الانفعال الاجتماعي" والتمردات عبر حملات التهدئة، ومواجهة "بؤر الفكر السياسي"[22]، في ظل تعدد المذاهب والعقائد، وخضوع بلاد المغرب والأندلس، وقتئذ، لثلاثة تيارات كبرى مؤثرة سياسيًا وفكريًا: الخوارج، والسنة، والشيعة، مع وجود جيوب عقدية أخرى كالاعتزال[23].

اضطرت الخلافتان إلى المراهنة على الدعاية؛ لكسب المشروعية من خلال توفير العدالة والأمن الاجتماعيين، في إطار الترغيب الذي يسبق الترهيب والتجريم السياسي للمعارضين. فأبو عبد الله الشيعي (ت. 298هـ/ 910م) لما استقر برقادة، وبعد القضاء على الأغالبة، "أمر مناديًا فنادى بالقيروان بالأمان التام للعامة ورجوع من كان تنحى عن وطنه إليه، فرجع الناس إلى أوطانهم وقرّوا في قرارهم، وأخرج العمال إلى البلدان ونادى فيها بالأمان وبطلب أهل الدعارة والفساد، فأنكاهم عقوبة، فسكنت الدهماء، وأمنت السبل، ومشت السيارة، وخاف أهل الأذى والدعارة، وقتلوا حيث ما ثقفوا، وطلبوا أين توجهوا، وأمر بقطع شرب المسكر وكل ما ظهر من المنكر، ونشر العدل وأذاعه، واستوت الأمور واعتدلت، واشتدت المملكة وقويت، وأمن كل خائف"[24].

وهو الخطاب نفسه الذي روجت له الخلافة الأموية التي جعلت من الأمن الاجتماعي والنفسي قاعدة لمشروعيتها الدينية والسياسية؛ فقد استغل الخليفة الناصر مناسبة استقباله السفير البيزنطي بقرطبة، ليدفع المنذر بن سعيد البلوطي (ت. 255هـ/ 965م)؛ لإبراز المجهود الأمني بالأندلس، والتعريض في الوقت ذاته بالفاطميين. ومما جاء في خطبة البلوطي: "وإني أذكّركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمّت شعثكم، بعد أن كنتم قليلًا فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم! ولّاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحطت بكم شُعُل النفاق حتى صرتم في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال ونكد العيش والتقتير! فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد العافية بعد استيطان البلاء. أنشدكم الله - معاشر الملأ! - ألم تكن الدماء مسفوكة فحنقها؟ والسبل مخوفة فأمنها؟ والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خرابًا فعمرها؟ وثغور المسلمين مهتضمة فحماها وزهّرها؟"[25]. داعيًا إلى تجديد الولاء السياسي والمذهبي للخلافة الأموية؛ لأن في "التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها، حفظ الأموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود، وتوفى العهود، وبها وصلت الأرحام، وصحت الأحكام، وبها سد الله الخلل، وآمن السبل، ووطأ الأكناف، ورفع الاختلاف"[26].

---

20 العلوي القاسمي، ج 2، ص 244.

21 المرجع نفسه، ص 255.

22 المرجع نفسه، ص 242.

23 محمود إسماعيل، **الأدارسة في المغرب الأقصى (172-375هـ): حقائق جديدة** (الكويت: مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، 1989)، ص 49-69؛ محمد الطالبي، **الدولة الأغلبية: التاريخ السياسي، 184-296هـ/800-909م**، ترجمة المنجي الصيادي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995)، ص 631-788.

24 القاضي النعمان، ص 246، 247. انظر نص "كتاب الأمان" و"كتاب العدل"، ص 253-257، 270-275.

25 أبو الحسن النباهي، **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا** (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1983)، ص 67.

26 المرجع نفسه، ص 68.

إن مدخلات التجريم السياسي للمعارضة ومخرجاته، وفق سياق بلاد المغرب والأندلس خلال القرن 4هـ/ 10م، تكمن أساسًا في الصراع بين بنية السلطة لدى الخلافتين وبنية القبيلة ببلاد المغرب؛ فإذا كان العبيديون والأمويون يتنافسون لبسط سيادتهم على المجال المذكور، ونشر عقيدتيهم، فإن مرامي زعماء القبائل والعلماء تستهدف المحافظة على الاستقلال المجالي والاجتماعي والفكري، ومن ثم كان الصراع بين البعد الوحدوي الكلي (الخلافة) والبعد التنظيمي المحلي (القبيلة)، فأدى إلى ممارسة الخلافتين عنفًا ماديًا ورمزيًا، تعددت أشكاله ووظائفه في حق كل مناوئ لهما.

ثانيًا: أثر التجريم السياسي للمعارضة في المعيش اليومي

كان لهذه المرحلة التي اتسمت بالصراع السياسي والعقدي تجليات فكرية، منها وجود العلماء الراسخين في علم الجدل والمناظرات، ولا سيما الذين تولوا الخطط الدينية والإدارية منهم، والذين تعرّضوا لمحن؛ بسبب مخالفتهم لعقيدة إحدى السلطتين، فكان ذلك داعيًا إلى متابعتهم، والتضييق عليهم في معيشهم اليومي[27].

1. التدابير الأمنية للخلافة الفاطمية إزاء المعارضة

تعدّ المسألة الأمنية من النظم التي حظيت باهتمام الفاطميين بإفريقية، لما لها من دور في كبح جماح المعارضين للمشروع العقدي العبيدي؛ لذلك، طبّق متولّو تلك الخطط مشروع السلطة؛ للدفاع عن مشروعيتها في الحكم، من خلال ما أُوكل إليهم من اختصاصات واسعة ومتداخلة[28].

والمتتبع للمعجم الدلالي لتلك النظم يقف على تعددها. فقد سُميت الشرطة، وعامل المعونة الذي كان يوجد في الأقاليم خارج العاصمة، وتكمن مهمته في "معونة أهل الأحكام من القضاة وأصحاب المظالم والدواوين في تنفيذ أحكامهم في حبس من أمروا بحبسه، وإطلاق من رأوا إطلاقه، وإشخاص من كاتبوه بإشخاصه"[29]. أما ليلًا، فالمسؤولية الأمنية بالمدن كانت من اختصاص الأعوان والعسس المكلفين بتأمين الدروب والأحياء، مستعينين في ذلك بالكلاب، وشملت وظيفتهم الأمنية أيضًا مطاردة رموز المعارضة؛ فالمنصور الفاطمي (386-411هـ/ 996-1020م) استخدم هؤلاء لتعقّب "صاحب الحمار"؛ حتى يحُولوا دون وصول المؤونة إليه في قلعة كيانة التي حوصر بها[30].

أما "الدوارة"، فهم صنف آخر من الشرطة يوكل إليهم، بأمر من الخليفة العبيدي أو من أحد ولاته، تعقّب المعارضين للدولة ومذهبها، مثل الشعراء الذين هجا أحدهم الخليفة المعز لدين الله، فنكّل به[31].

وبتأملنا ما سبق، يظهر أن صاحب الشرطة لدى الفاطميين بإفريقية قد ارتبطت وظائفه عمومًا بالنظر في الجرائم، وتنفيذ العقوبات، ومنها تلك التي تدخل في نطاق التحقيق، والتأكد من مخالفة المذهب الشيعي[32]، إما امتثالًا لتعليمات الخلفاء أو لأحكام القضاة

---

27 القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق محمد بن شريفة، ج 5 (المحمدية: مطبعة فضالة، 1982)، ص 98-99.

28 الدشراوي، ص 583-608.

29 قدامة بن جعفر، **الدواوين من كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر الكاتب**، دراسة وتحقيق مصطفى الحياري (عمان: الجامعة الأردنية، 1986)، ص 18.

30 إدريس عماد الدين القرشي، **عيون الأخبار وفنون الآثار**، تحقيق مصطفى غالب (بيروت: دار الأندلس، 1984)، ص 423.

31 أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، تحقيق بشير البكوش، ج 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994)، ص 298، 498.

32 المرجع نفسه، ص 137-138.

الإسماعيلية، وإما تنفيذًا لأوامر "صاحب المحرس" أو "صاحب الخبر" المكلف بالأمن العام، وإبلاغ الحكام الشيعة أخبار العلماء والعامة بالمدن؛ إذ كان من بين أدواره التجسس على فقهاء المذهب المالكي[33].

ويبدو أن السجون الفاطمية بإفريقية كانت تقام بناء على تمييز بين الجرائم؛ إذ خصص بعضها للصوص، في مقابل مرافق يودع فيها معارضو الدولة، ومن دخل في شاكلتهم؛ فأبو جعفر أحمد بن نصر بن زياد الهواري (ت. 317هـ/ 929م) سجن في "بيت الدم مع السراق وأصحاب الدماء [...] شهرين، ثم أخرج [...] بعد ذلك من ذلك البيت إلى البيت الذي يُحبس فيه جميع الناس"[34]. ومما يذكر في هذا الصدد "سجن الزيادية"[35]، وسجن "دار البحر"[36]، وسجن "الفلقة"[37].

ومن مظاهر تضييق العبيديين على المعارضة أنهم اتخذوا إجراءات تمكّنهم من التحكم في الحياة اليومية بالمدن[38]، من قبيل ضرب الأبواق ليلًا في الأزقة، إيذانًا بحظر التجول، ليبدأ بعد ذلك تدخّل رجال الشرطة والعسس؛ فـ "كان البوق إذا ضُرب فمشى أحد بعد ضربه ضربوا عنقه؛ لأنه لا يمشي حينئذ إلا من يسرق أو يخرج لضرب من الفساد. فكان معد [ابن إسماعيل الأمير الفاطمي (342-365هـ/ 953-975م)] قد ثقف البلد تثقيفًا شديدًا بالعسس والحرس والرصد الشديد"[39].

وكان أصحاب الشرطة ينتشرون في القيروان في مجموعات، تضم "رابطة وعساسة وكلابًا"[40]، فكان منهم من يترصد بـ "رحبة بن أبي داود"، و"السماط على دار ابن أسود الداعي"، و"سوق ابن هشام، وعنده رصد وكلاب"[41]، و"بئر أم عياض"[42].

مكّنت هذه التغطية من تسهيل المراقبة، وهو ما تفسّره صكوك الاتهام التي حررها بنو عبيد ضد رموز المعارضة؛ إذ "كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر، كأنهم ذمة، تجري عليهم في أكثر الأيام محن شديدة"[43]. دليلنا في ذلك أن أبا الحسن القابسي (ت. 403هـ/ 1012م) سئل عن "عدد الذين قتلهم عبيد الله وبنوه من العلماء والعبّاد؟ فأجاب: هم نحو أربعة آلاف رجل ليردّوهم عن الترضي عن الصحابة، فاختاروا الموت، فيا حبذا لو كان رافضيًا فقط، ولكنه زنديق"[44].

وتؤكد الروايات العبيدية نفسها مثل تلك المتابعات، وتبرّرها بمسوغات عقدية وسياسية، فقد خصص القاضي النعمان (ت. 363هـ/ 974م)، أحد مؤرخي الخلافة الفاطمية، فصلًا ضمن كتابه **افتتاح الدعوة** عن "أخبار المنافقين على المهدي عليه السلام وما آلت أمورهم إليه"، و"ذكر من نكث في ذلك الوقت من أهل إفريقية ممن أَعطَى الأمان وعقوبتهم على النكث والعدوان"[45]. وأدرج

33 محمد بن حارث الخشني، **أخبار الفقهاء والمحدثين**، تحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا (مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية؛ معهد التعاون مع العالم العربي، 1991)، ص 231.

34 الدباغ، ج 3، ص 8.

35 المالكي، ج 2، ص 476.

36 الدباغ، ج 3، ص 40.

37 المرجع نفسه، ص 46.

38 محمد الصالح مرمول، **السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي** (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983)، ص 155.

39 المالكي، ج 2، ص 487.

40 المرجع نفسه، ص 488.

41 المرجع نفسه.

42 المرجع نفسه.

43 القاضي عياض، ج 5، ص 300.

44 أبو الحسن القابسي، **فتاوى أبي الحسن القابسي**، تحقيق الحسين أكروم، ج 2 (الرباط: دار أبي رقراق، 2017)، ص 427.

45 القاضي النعمان، ص 306، 319. وتمثل مؤلفات القاضي النعمان أنموذجًا للخطاب المدافع عن النظرية العقدية والسياسية للفاطميين في بلاد المغرب والأندلس؛ لأنه ممن أوكل إليهم نقل العلم إلى "المؤمنين"، نيابة عن "الأئمة"، نذكر من ذلك **افتتاح الدعوة**، و**دعائم الإسلام**، و**تأويل الدعائم**، و**الهمة في آداب اتباع الأئمة**، و**اختلاف أصول المذاهب**.

في **المجالس والمسايرات** فصلًا، نعت فيه الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر بـ "الخاسر"، في مقابل تلقيب المعز الفاطمي بـ "أمير المؤمنين"[46]. وهو ما يبرّر الإمعان في التنكيل بالمالكية الذين توبعوا بسبب معارضتهم لعقيدة السلطة، فأوذوا في "أموالهم [...] وقتل من قتل منهم في مصيرهم وبين جماعتهم"[47].

لقد كثرت العقوبات وتنوعت، وغدا للخليفة الفاطمي صلاحيات واسعة، وسلطة تقديرية في تكييف التّهم والجرائم؛ حتى يسهل تنزيل الأحكام وفق المنظور العقدي للخلافة؛ ذلك أنه لما "التأث أمر المغرب، أخرج [عبيد الله المهدي الشيعي (296-322هـ/ 908-933م)] إليه القائم، فأصلحه، ودمّر من نجم فيه، وانصرف بعد بلوغه ما أراده، ورُفِع أن قومًا ممن أجاب دعوته مراقون عن الدين، واستحلوا المحارم ورفضوا الظاهر، فعاقبهم على قدر ذنوبهم، فقتل قومًا منهم، وسجن آخرين، وخلّدهم في المحابس مصفدين إلى أن فنوا عن آخرهم، ومحّص المؤمنين، وأغلق باب رحمته مدة من السنين"[48].

ويُعد أبو إسحاق بن البرذون (ت. 297هـ/ 909م) أنموذجًا للعلماء المعارضين للعبيديين، ما جعله عرضة للتعذيب على أيديهم، فقد عُرف عنه "الذب عن مذهب مالك بن أنس"[49]، وهو ما جيّش عليه بطش الفاطميين الشيعة الذين استفزتهم جهوده المذهبية تلك؛ إذ "كان شديد التحكك للعراقيين والمناقضة والملاحاة لهم، فدارت عليه بذلك دوائر دولتهم، ضُرب بالسياط مرة أيام الصديني القاضي، ثم سعى عليه العراقيون عند دخول الشيعي القيرواني [...] وكانت الشيعة بالقيروان تميل إلى أهل العراق لموافقتهم إياهم في مسألة التفضيل، ورخصة مذهبهم، ورفعوا عليه [وعلى ابن هذيل] لأبي عبد الله الشيعي [...] أنهما يطعنان في دولته، ولا يفضلان عليًا [...] فحبسهما، ثم أمر عامل القيروان [...] بضرب ابن هذيل خمسمائة سوط، وبضرب رقبة ابن البرذون"[50]. غير أن العامل أخطأ في العقوبة، "فضرب ابن البرذون، وقتل ابن هذيل، ثم تنبه من الغد فقتله"[51]، بعد أن استتابه حتى يرجع عن إسلامه السني فرفض، "ثم ربطت أجسامهما بالحبال، وجرتهما البغال مكشوفين بالقيروان، وصلبا نحو ثلاثة أيام، ثم أنزلا ودفنا"[52].

إن السياق الذي حصل فيه هذا التنكيل ليجلي طبيعة التجريم السياسي للمعارضة؛ لأن إعدام العالِمين المذكورين تمّ عقب دخول الفاطميين القيروان، وهو ما يعني أن العبيديين أرادوا سن تشريع يحدد الضوابط العقدية التي إذا خالفها العلماء وزعماء القبائل والعامة أُدرجوا في خانة المعارضين للسلطة والمهددين لأمنها، وهو ما تؤكده ملابسات هذه الواقعة، فقد نعت عاملُ القيروان ابنَ البرذون بـ "الخنزير" إمعانًا في الإذلال النفسي، وأن خَدَمة الدولة الفاطمية أتوا به رفقة ابن هذيل إلى زعيمهم عبيد الله المهدي يريدون منهما الإقرار برسالته فأبيا؛ "فأمر عبيد الله بذبحهما وربطهما إلى أذناب البغال"[53]، في محاولة منه لوأد المعارضة السياسية في مهدها، بعدما كانا قد تلقيا من المهدية كتابًا من العبيديين يخيّران فيه بين الدخول في الدعوة الفاطمية أو التعذيب حتى الموت فأبيا، فرد عبيد الله الشيعي على ذلك الرفض بقوله: "ما جعل الله لي ولا لأحد أن يعطيهم ما منعهم الله [...] فمن يأتي بما يكره الإمام التقي، كان سبيله سبيل أهل الذمة، إذا أبانوا ما في قلوبهم من بغض النبي صلى الله عليه وسلم، لم يسعنا فيهم إلا القتل"[54].

46 القاضي النعمان بن محمد بن منصور، **المجالس والمسايرات**، تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي (بيروت: دار المنتظر، 1996)، ص 164.
47 القاضي النعمان، **افتتاح الدعوة**، ص 323.
48 المرجع نفسه، ص 329.
49 القاضي عياض، ج 5، ص 117.
50 المرجع نفسه، ص 118.
51 المرجع نفسه، ص 118.
52 المرجع نفسه، ص 119.
53 المرجع نفسه، ص 120.
54 المرجع نفسه.

وإذا كان ابن البرذون، وغيره من العلماء، قد صمد في وجه الفاطميين، فإن أخاه عبد المالك قد انخرط، على العكس من ذلك، في سلكهم؛ فقد كان شافعي المذهب قبل أن يتشيع[55].

وهكذا يتبين الأثر العقدي في تعامل السلطة الفاطمية مع المعارضة السنية، وإدراجه رموزها ضمن أهل الذمة، ويبرر في الوقت نفسه تشددها في ضبط المشهد الديني بإفريقية؛ إذ "منع عبيد الله في هذا الحين الفقهاء أن يفتوا بمذهب مالك، وأمرهم ألا يفتوا إلا بمذهبهم الذي ينسبونه إلى جعفر بن محمد، ويسمونه مذهب أهل البيت، من سقوط طلاق البتة، وإحاطة البنات بالميراث، وغير ذلك، وغلظ الأمر على المالكية من هذا الحيز، ومُنعوا من التحليق والفتيا، فكان من يأخذ منهم ويتذاكر معهم، إنما يكون سرًا، وعلى حال خوف ورقبة"[56].

وفي عام 308هـ/ 920م نالت العقوبة من حسين بن مفرج الذي يعتبر ممن "امتحن من المدنيين على يد ابن عبدون القاضي، فضم هو وأبو عبد الله السدري [...] إلى المهدية، فضربا ثم قتلا ثم صلبا، لكلام حفظ عنهما في الشيعي"[57]. أما أبو عثمان سعيد بن محمد بن صبيح الحداد (ت. 330هـ/941م)، من أهل القيروان، الذي أسهم في تفعيل "المقاومة الجدلية" ضد بني عبيد، معوّلًا في ذلك على "الاختبار، والنظر، والمناظرة [...] عالمًا بالفقه [...] والرد على الفِرَق، ومن أدهى الناس وأعرفهم في ما اختلفوا فيه"[58]، فقد كادت مناظراته لقادة الفاطميين أن تودي بحياته، لولا قوة أفكاره التي مكّنته من الاستماتة في وجه علمائهم وقادتهم الدعويين؛ "فقد ناظرهم مناظرة القرين المساوي، لا بل مناظرة المتعزز المتعالي، لم يحجم لهيبة سلطان، ولا خاف ما خيف عليه من سطوتهم"[59]. وقد تعددت القضايا التي ناظر فيها العبيديين، وبمحضر أبي عبيد الله الشيعي، في جوانب سياسية مثل ولاية الإمام علي كرم الله وجهه، و"أن محمدًا ليس بخاتم النبيئين"، و"أن أصحاب محمد يرتدون بعده"، وصحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه للنبي عليه السلام[60].

وكانت قوة شكيمة ابن حداد في الدفاع عن الإسلام السني هو ما اعتبر جريمةً قدَح من خلالها الفاطميون فيه؛ فقد ناظر يومًا داعي العبيديين، "فغضب من كلامه رجل من كتّابه، يلقب بشيخ المشايخ، وقام له بالرمح، فكفه عنه بعض من حضر ذلك المجلس، وقال له: شيخ كبير ومبارك، ثم عطف على أبي عثمان فقال له: يا شيخ لا تغضب، هذا الشيخ أتدري كم يغضب لغضبه؟ اثنا عشر ألف سيف، فقال له أبو عثمان: لكن أنا يغضب لي الواحد القهار، الذي أهلك عادًا وثمودًا"[61].

ومن ثم نتبين المكانة الاجتماعية التي كانت لابن الحداد في مجتمع لم يتوانَ حكامه في المتابعة السياسية لمخالفيهم في العقيدة، إلى درجة أن الأمير العبيدي ضحّى بأقرب خَدَمه لما أقر هذا الأخير برمزية ابن الحداد في القيروان إعجابًا به؛ لأن ذلك يعتبر جريمة تستوجب القتل، لكونه أعلى من قيمة من يعارض عقيدة السلطة[62].

وعمد الفاطميون إلى التجسس على مخالفيهم، والتضييق عليهم في نشر العلم، ومنهم ابن الحداد نفسه الذي كان تحت مراقبة الشرطة العبيدية، وبإيعاز من عامل القيروان، فبينما هو جالس مرة في "أسطوانه، إذ مر به صاحب المحرس، فنظر إليه وحوْله جلساؤه، وزال عنه، فقال بعضهم: إنما مر إلى العامل يخبره خبرك واجتماع الناس عندك"[63].

---

55 المرجع نفسه، ص 121.

56 المرجع نفسه.

57 المرجع نفسه، ص 131.

58 - المرجع نفسه، ص 78، 79.

59 المرجع نفسه، ص 82.

60 المرجع نفسه، ص 82-84؛ إبراهيم التهامي، **جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة** (بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون، 2005)، ص 325-337.

61 القاضي عياض، ج 5، ص 84.

62 المرجع نفسه، ص 85.

63 المرجع نفسه، ص 87.

وهكذا يتضح نوع القضايا التي كان العبيديون يتابعون بسببها العلماء المالكية، وهي تعبير عن صراع بين السلطة ومعارضيها، واستوجبت تجريمًا سياسيًا من الشيعة.

ولم يكن أبو جعفر أحمد بن نصر بن زياد الهواري (ت. 317هـ/ 929م) أقل شأنًا في هذا الصدد من ابن الحداد، فمبعث جريمته هو استماتته أيضًا في الدفاع عن المذهب المالكي؛ ولذلك لحقته المحنة في عام 308هـ/ 920م، سجن على إثرها مع جملة من العلماء؛ إذ إنه "كان يجلس في مسجد رحبة القرشيين، وكان يجلس إليه من أتاه فخطر به صاحب المحرس يومًا، ومعه بعض المشارقة [الشيعة بلاد المغرب]، فاستفظعوا جلوسه واجتماع الناس حوله، فوكل صاحب المحرس عليه وعلى من كان معه الشرط [...] فصار إلى ابن أبي المنهال [القاضي] فأرسل إليه جماعة من أعوانه، فوقفوا عليه، ثم أمر به إلى السجن، من غير أن يدخل عليه"[64].

إن السبب في هذه الملاحقة هو الانتصاب لتدريس علوم تجيّش المعارضة الفكرية ضد السلطة الرسمية وعقيدتها، وهو ما يفسر التشديد والعقاب الذي تعرّض له ابن زياد الهواري، وغيره من أهالي القيروان، على يد القاضي الذي "استنطقهم رجلًا رجلًا، ثم كتب بخبرهم إلى عبيد الله، فأعرض عبيد الله عن خبرهم، فبقي في السجن"[65] مدة، قبل إطلاق سراحه. وحين توفي صُلي عليه سرًا في داره؛ توقيًا من بطش "قضاة الوقت" الفاطميين[66]، ومنهم محمد بن عمر المروزي الذي عُرف بتعذيبه لرموز المذهب المالكي بإفريقية، فرادى وجماعات، حتى اقترن اسمه بالمحن التي استهدف من خلالها أهالي القيروان؛ إذ "كان له تشيع قديم ونظر في الفقه من قول الأئمة، وجعل إليه تولية القضاة والحكام بسائر البلدان" [67].

ويعتبر أبو القاسم محمد بن محمد بن خالد القيسي الطرزي (ت. 317هـ/ 929م)، والي المظالم، ممن "امتحن على يد المروزي قاضي الشيعة، ضربه في الجامع على رأس الناس، وحبسه مع أهل الجرائم، وفعل ذلك المروزي بجماعة من رجال المدنيين ومن يحسب في جملتهم [...] وقوم مرابطين من أهل تونس"[68]، منهم أبو سعيد محمد بن محمد بن سحنون (ت. بعد 306هـ/ 918م)، الذي نال حظه من القاضي المذكور الذي هدده بالتصفية وأشبعه ضربًا[69]. وكذلك فعل أبو عبيد الله الشيعي بأحمد بن أحمد بن زياد الفارسي (ت. بعد 316هـ/ 928م) الذي كتب في عقد صداق شرطًا مخالفًا لرأي الشيعة؛ فـ "ضربه بالعصا بطحًا"[70]. وبالمثل جرى لأبي جعفر أحمد القصري (ت. 322هـ/ 933م) الذي آخذه القاضي الصديني الذي "حبسه بسبب أنه [...] ينتقص أبا حنيفة"[71]. أما أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم (ت. 333هـ/ 944م) فقد "دارت عليه محنة الشيعي، حبسه وقيده مع ابنه مدة بسبب بني الأغلب والتهمة في السلطان"[72]، شأنه شأن كثير ممن "سجن أيضًا في أيام المشارقة"[73].

وتماديًا في تجريم المعارضة، عمد الفاطميون إلى التأكد من الشعائر الفردية للأهالي، واختبار مدى توافقها مع المذهب الرسمي للسلطة وعقيدتها، تحت طائلة التعذيب؛ فكان التجريم بسبب مخالفة بعضهم الفرائض الدينية، كما حددها الإمام العبيدي، حيث

64 المرجع نفسه، ص 96-97.
65 المرجع نفسه، ص 97.
66 المرجع نفسه.
67 القاضي النعمان، **افتتاح الدعوة**، ص 247؛ مجاني، ص 60-67، 72.
68 القاضي عياض، ج 5، ص 105.
69 المرجع نفسه، ص 108-109.
70 المرجع نفسه، ص 113.
71 المرجع نفسه، ص 138.
72 المرجع نفسه، ص 324.
73 المرجع نفسه، ج 6، ص 26.

تحوّل التعبد غير المطابق لمذهب السلطة إلى جريمة تستوجب المتابعة. فمحمد بن سليمان القطان "امتُحن على يد المروزي قاضي الشيعة، رُفع إليه أنه ينتقصه ويطعن في أحكامه، هو وآخر من أصحابه يُعرف بأحمد النجار [...] فأحضرهما إلى الجامع، وقال لابن سليمان: شهد عندي العدول أنك تنتقص أمير المؤمنين، وتطعن في إمامته، فضربه ثلاثمائة درة. وقال لأحمد النجار: ثبت عندي أنك صمتَ يوم الفطر ولم تفطر بإفطار أمير المؤمنين ردًا عليه. وذلك أن الشيعة تصوم قبل رمضان بيوم، وتفطر قبل الناس بيوم"[74].

أما أبو بكر محمد بن اللباد (ت. 333هـ/ 944م)، فقد قاطع إحدى صلوات الجنازة؛ بسبب إمامة ابن أبي المنهال، قاضي الفاطميين، لها، فأغرى العبيديون هذا الأخير به، "فوجّه وراءه في جماعة منهم [...] وعقد عليه محضرًا بشهادة القوم، بفتحه بابه، وانتصابه للفتوى [...] بخلاف مذهب أمير المؤمنين، وأنه يلبس السواد، ويخطب في الأعياد، و[يدعو] لبني أمية [...] فأمر ابن أبي المنهال بسجنه [...] فأقام مسجونًا [حتى تشفع له ابن أخيه لدى القاضي] على ألا يفتي ولا يجتمع إليه الناس، ولا يفتي إلا بمذهب السلطان"[75]. ويبدو أنه لم يلتزم ذلك؛ إذ كان يخرج إلى المسجد، "فيأتي الطلبة بابه، فتفتح لهم خادمة، فإذا اجتمعوا أتته، فيدخل، وتغلق عليهم فيقرأون [...] وكانوا ربما جعلوا الكتب في أوساطهم حتى تبتل بأعراقهم، فأقاموا على ذلك إلى أن توفي"[76].

وقد سخّرت السلطة العبيدية علماءها للتنقيص من نظرائهم المالكية في المجالس العلمية؛ فمحمد بن مسرور الإبزاري (ت. 295هـ/ 907م) كان ضريرًا ويعاني تعقف أصابع يديه، فكان "بعض فقهاء العراق بالقيروان، إذا جلس مع أصحابه يمد يديه، ويعقف أصابعه، يحيكه إذا تكلّم في حلقته، ليضحك أصحابه"[77].

ولم يسلم المتصوفة من ملاحقات الفاطميين، غير أن هؤلاء تهيّبوا من السلطة الروحية للأولياء، ولذلك كان تجريمهم لهم أقل مما ألحقوه بالعلماء. ولنا في حالة أبي عثمان سعدون بن أحمد الخولاني (ت. بعد 324هـ/ 935م) ما يؤكد ذلك؛ إذ كان "يخرج في الحراسة والبروز على الحصون، فربما خرج في أربعة آلاف خباء ممن يجتمع إليه، حتى خافت منه الشيعة"[78].

وهكذا تتضح مظاهر التجريم السياسي الذي نهجه الفاطميون ضد مخالفيهم، والذي يجد مرجعيته في معارضة التشيع الذي اتخذوه أساسًا لسلطتهم ببلاد المغرب، فتحوّل العلماء المعارضون إلى ضحايا لحقتهم أنواع التعذيب والتنكيل؛ بسبب حرصهم على الدفاع عن المذهب المالكي السني.

2. الخلافة الأموية والتجريم السياسي للمعارضة

أدرك الأمويون طبيعة الصراع الذي نشب بينهم وبين العبيديين، وهو صراع لا يقتصر على الرغبة في بسط السيادة على المجال الجغرافي لبلاد المغرب والأندلس فحسب، وإنما هي حرب عقدية بين خلافتين، قامت كل واحدة منهما على رؤية عقدية ومذهبية في السياسة والمجتمع والثقافة. وتجلّى هذا المنظور لدى الأمويين منذ إعلان عبد الرحمن الناصر الخلافة السنية بقرطبة عام 316هـ/ 928م؛ إذ دشن حملة استقطاب واسعة في صفوف زعماء القبائل الأندلسية والمغربية؛ لثنيهم عن موالاة الفاطميين، والتشهير بالمشروع العبيدي وصاحبه "عبيد الله الشيعي، المنتزي على بلد إفريقية، المضلل للناس بما شرع من بدعته الغالية، وإطفاء من نور السُّنة"[79].

---

74 المرجع نفسه، ج 5، ص 140.

75 المرجع نفسه، ص 292-293.

76 المرجع نفسه، ص 293-294.

77 المرجع نفسه، ص 142.

78 المرجع نفسه، ص 136.

79 ابن حيان، **المقتبس**، تحقيق شالميتا وكورينطي وصبح، ص 255.

ويبدو أن هذه الخطة الدعائية مكّنت الأمويين من استمالة بعض الزعامات القبلية المحلية، "وعاظُّوا عبيد الله الشيعي، صاحب إفريقية [...] وقلّبوا مجانّهم إليه ونصبوا الحرب لرجاله، فكفكفوهم عن الإيغال في بلدهم من قاصية المغرب"[80]. ولا سيما أن المشروع الأموي لم يكن ليقتصر على بسط النفوذ السياسي والروحي على الغرب الإسلامي فحسب، وإنما كان طموح خلفاء قرطبة ينصبّ على المطالبة بإرث بني مروان بالمشرق[81].

غير أن سياسة الترغيب التي سنّها الناصر لم تُنسه التشدد في ملاحقة المعارضين المستقوين بالفاطميين. ولعل في كيفية تعامله مع عمر بن حفصون الثائر بجيان وإلبيرة ما يؤكد ذلك؛ فقد نعته الخطاب شبه الرسمي بنعوت تصبّ في التجريم السياسي لكل معارض للخلافة؛ فسمّته "الخبيث" و"الفاسق"، و"المارق"، و"اللعين"، ومن "ذوي الخلاف والمعصية"، و"المارد"، و"المرتد"[82]، وسميت مدينته، بُبَشتَر، التي انطلقت منها ثورته "مدينة المجرمين"[83]. فما كان من الناصر إلا أن شنّ عليه حملة عسكرية؛ ففي عام 316هـ/ 928م فتح الناصر مدينة ببشتر، "ثم أمر بهدم المسجد الجامع الذي كان اتخذه اللعين عمر بن حفصون أول ثورته، خدعة لمن كان معه من فسقة المسلمين [...] إذ كان اللعين أسّسه على غير تقوى من الله ورضوان، [...] فسوّي بالأرض وأحرق منبره الذي حُمل عليه الدعاء للعين المرتد ونسله الخبيث، وجرى عليه ذكر وليّه عبيد الله الشيعي الذي كان علق حبله وتشبث بدعوته"[84].

وتواصل التجريم السياسي للمعارضة في عهد الحَكَم المستنصر (350-366هـ/961-976م)، فقد فرّ عبد الملك بن سميت، المعروف بخنوص، من الدولة الأموية إلى الفاطميين، فاعتقله محمد بن سليمان بن نقورة، التاجر بسواحل إفريقية في عام 361هـ/ 972م، "فتحيل عليه هذا التاجر محمد بن سليمان، وكاتب صاحب الشرطة العليا قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس أن يوجه إليه بمركب معمر مع من يثق به؛ فأرسل نحوه مركبًا مناسبًا"[85]، أقلّه، وابنه، إلى مدينة الزهراء، حيث أحيلا على صاحب المدينة بها، محمد بن أفلح؛ "وأغلظ له وأمر بضمه وضم ابنه إلى السجن بالزهراء"[86]. وهو السجن الذي كان يتوفّر على جناح خاص باعتقال المعارضين للخلافة الأموية، وكان يحظى بالزيارات الدورية للخلفاء؛ ففي السنة المذكورة "ركب [...] أمير المؤمنين إلى الدويرة المبتناة في هذا العام قرب سجن الزهراء في الدار المنسوبة إلى السقائين فامتحنها وثقفها من جهاتها، ثم نقل إليها من داخل السجن عبد الملك بن شعيب المعروف بخنوص الموصد في قيوده مع ابنه، وقاسم الموثق قبلهما في السجن بالاتهام بالتشريق"[87]، أي: التشيع للفاطميين. وأن أبا زكريا يحيى بن محمد بن زكرياء بن القطام الطيطلي (ت. 393هـ/ 1002م)، "ذبح بعد انصرافه من صلاة العيد بالناس [...] نقم عليه بعض ولاة البلد شيئًا فقتله"[88]، بمعية جملة من علماء مدينة طليطلة[89].

وبذلك لم يخرج التجريم السياسي للمعارضة من الأمويين عما سنّه الفاطميون، لتبرير ملاحقتهم لكل من يهدد سلطتهم السياسية والمذهبية ببلاد المغرب والأندلس.

---

80 المرجع نفسه، ص 256، 257.

81 المرجع نفسه، ص 305.

82 المرجع نفسه، ص 60-61، 64، 66-68، 220.

83 المرجع نفسه، ص 233.

84 المرجع نفسه، ص 219-220.

85 ابن حيان، **المقتبس**، تحقيق الحجي، ص 86-87.

86 المرجع نفسه، ص 87.

87 المرجع نفسه، ص 88.

88 القاضي عياض، ج 5، ص 232.

89 الخشني، ص 379.

ثالثًا: ردة فعل العلماء ضد التجريم السياسي من السلطة

كان من الطبيعي أن يصدر عن ضحايا مثل هذا التضييق ردات فعل إزاء الخلافتين، ولا سيما الفاطمية منهما، وهي مواقف تبلورت على أساس عقدي، الأمر الذي ولّد تيارًا معارضًا منظمًا، عرف قادته بـ "مشيخة القيروان"، على الرغم من التعذيب والسجن، فـ "هذا يموت، وهذا يُضرب، وهذا يُسجن، وهم صابرون لا يفرون، ولو فروا لكفرت العامة دفعةً واحدة"[90].

وقد تعددت تلك المواقف، فقد أصر بعضهم، وهو في ساحة المعركة ضد بني عبيد وحصار المهدية، أن يقرأ كتاب **الإمامة** لمحمد بن سحنون[91]، أو إقامة المجالس العلمية المستفزة لبني عبيد، وهو ما عرف بالقيروان وقتئذ بـ "مجلس السبت"، أو رفض تولي القضاء للفاطميين، أو الصلاة وراء أئمتهم[92]، أو عدم تسلّم أموالهم[93]، حتى إن أحد العلماء فضّل رعاية البقر في مقابل بقائه بالقيروان؛ لكي لا يستغل العبيديون مكانته الرمزية؛ "فكان إذا أصبح يأخذ مصحفه في مخلاته، وعصاته، ويخرج، حتى إذا ساق البقر وأبعده عن العمارة، أقبل على قراءة القرآن؛ فإذا أقبل الليل أتى، فسلمه الله من فتنة بني عبيد، وخمل ذكره"[94].

أما أبو بكر عتيق بن أبي صبيح الجزيري القيرواني (من أهل القرن 4هـ/ 10م) "فبلغ أمره بني عبيد، فرفعوه مع ابنه محمد، وطلبوهما بالدخول في دعوتهم ويليا قضاء صقلية، فأبيا، فعذبوهما شديدًا وفرقوا بينهما، ويقولون لكل واحد عن الآخر: إنه دخل في دعوتهم، فيقول لهم كل واحد عن الآخر: دعه يفعل ما يحب، لن يغني عني من الله شيئًا"[95]. في حين آثر غيرهما الدعاء على الفاطميين، وآل على "نفسه ألا يشبع من طعام ولا نوم، حتى يقطع الله دولة بني عبيد"[96]. وكان أحد العلماء يدعو عليهم بقوله: "اللهم أدخلني في شفاعة أسود رمى فيهم بحجر"[97]، وفي ذلك مؤشر على التيار العلمي والاجتماعي الذي عقد رموزه العزم على عدم الدخول في طاعة بني عبيد، أو التسليم لهم في أمر بلاد المغرب، والتحريض ضدهم بالدعاية لمقاطعتهم، و"ذمهم والتحذير منهم"[98]، وتشويه معالمهم من قبيل تسمية عاصمتهم المهدية بـ "المردية" و"المهدومة"[99].

ويعد أبو علي حسن بن خالد البلوي (ت. 407هـ/ 1016م) أنموذجًا آخر لتعقب الفاطميين العلماء المناوئين لهم، فقتل طعنًا بالسكاكين؛ إذ "دخل عليه قوم من المشارقة والشرط مع محمد بن لصوية [أحدهم، وهو من قبيلة كتامة]، عامل محمد بن حسن على

---

90 الدباغ، ج 2، ص 292. ومن نماذج ذلك ما قام به قاضي الفاطميين بإفريقية محمد بن عمر المرودي، من تنكيل بقاضي طرابلس وقاضي صقلية ومحتسب القيروان وغيرهم، انظر: المرجع نفسه، ج 2، ص 291، 331، 348؛ ج 3، ص 10، 57. والقاضي إسحاق بن أبي المنهال في عهد أبي عبيد الله الشيعي، فهو "رجل سوء، امتُحن على يديه جماعة من الصلحاء والعلماء المدنيين؛ فضرب بعضهم، وحبس بعضهم"، منهم أبو جعفر أحمد بن نصر بن زياد الهواري (ت. 317هـ/ 929م) الذي سجن على يديه في عام 308هـ/ 920م مدة تسعة أشهر في المهدية، على الرغم من مرضه المزمن بالإسهال. وأبو بكر محمد بن محمد بن اللباد (ت. 333هـ/ 944م) الذي "سجن أيامًا ثم أطلق ومنع الفتوى والاستماع واجتماع الطلبة عليه حتى توفي، وكان [منهما من] يأتيان إليه في خفية، وربما جعلا الكتب في أوساطهما وحجزتهما حتى تبتل بأعراقهما خوفًا من بني عبيد أن ينالوهم بمكروه [...] كان أصل محنته أنه صلى على جنازة استؤذن لها، وقد حضر ابن أبي المنهال القاضي بجنازة أخرى [...] فصلى أبو بكر، وصلى وراءه ابن أبي المنهال، ثم قدمت الجنازة الأخرى وصلى عليها ابن أبي المنهال فجلس أبو بكر ومد رجليه واستدبر القبلة ولم يصل وراءه؛ فشق ذلك على ابن أبي المنهال، فبعث وراءه ودار بينهما كلام في ذلك؛ فأمر بسجنه"، انظر: المرجع نفسه، ج 3، ص 8، 25، 26؛ مجاني، ص 67، 68.

91 القاضي عياض، ج 5، ص 324.

92 المرجع نفسه، ص 290، 292، 314.

93 المرجع نفسه، ج 6، ص 37؛ التهامي، ص 308-325.

94 القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، **تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض**، تحقيق محمد الطالبي (تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1968)، ص 337.

95 القاضي عياض، **ترتيب المدارك**، ج 6، ص 34.

96 المرجع نفسه، ج 5، ص 313.

97 المرجع نفسه، ج 6، ص 27.

98 المرجع نفسه، ص 54، 57.

99 المرجع نفسه، ج 5، ص 300.



القيروان [...] وهو في مسجده ومعه جماعة من الناس؛ فقتلوا أبا محمد الغرياني الفقيه، وآخر بدويًا، ظانين أنه أبو علي؛ فلما عرفوا مالوا على أبي علي بسكاكينهم، وجردوا جماعة ممن كان في المسجد فحملوا أبا علي على داره وقد وقعت فيه ثلاث جراحات، إحداها في صدغه أخذت إلى قفاه، واثنتان في جانبه الأيسر أنفذتا مقاتله، توفي في داره بعد العشاء الآخرة، وبقي دمه بالمحراب"[100]. ولما ثارت العامة غضبًا على مقتل الشيخ، حاول عامل القيروان استرضاءهم؛ "فجاء برجلين فقال إنهما اللذان قتلاه؛ فقتلهما"[101]. وفصل "صاحب المظالم" بين أبي بكر الورّاق وميمون بن عبد الهواري الشاعر الذي عيّر الوراق بالتشيع، قبل أن يقتله الفاطميون في عام 409هـ/ 1018م[102].

وبالمثل راجت الكرامة والرؤيا التي بشّرت بالشهادة لمن قُتل في المواجهة ضد الفاطميين، فقد رأى أحدهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد أمّنه وطمأنه[103]. وأن أبا الفضل العباس الممسي (ت. 334هـ/ 945م) الذي قتله بنو عبيد، رآه من أخبر عنه أنه عاينه بعد موته، وهو في "علبة، وعليه ثياب [...] فسألته، وكان يكلمني، وكأنه يكلم قومًا معه، فقال لي: قد جمعنا الله وأصحابنا من أهل العلم، فنحن نتناظر في العلم كما ترى عند مالك بن أنس رضي الله عنه"[104]. وربيع القطان (ت. 334هـ/ 945م) الذي قال عنه أحد القيروانيين: "رأيتُ ربيعًا القطان، بعد أن قتل، فسألته عن حاله، فقال لي: تارة تزخرف لنا الجنان، وتارة يشرف علينا الحور والولدان، وتارة تهتك لنا الحجُب"[105].

وفضلًا عن ذلك، تداول المجتمع أخبار مقتل أولئك العلماء، واحتفظت الذهنية الجمعية بصور وتمثلات لضحايا العنف والتصفية الجسدية للعلماء المالكية الذين قضوا نحبهم على يد الخلافة الفاطمية، وهو ما تدل عليه قصائد الرثاء التي تعدد نظمها لهذا الغرض[106].

وبموازاة ذلك ناصر المالكية الحركات السياسية والعسكرية التي وقفت في وجه الفاطميين؛ إذ شارك بعضهم في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي ضد بني عبيد[107]، وتكشف هول ما تعرّض له أهالي إفريقية من محن؛ بسبب إصرار غالبيتهم على عدم التشيع؛ إذ "لما أظهر بنو عبيد أمرهم، ونصبوا حسينًا الأعمى السبّاب [...] في الأسواق للسب بأسجاع لُقّنها، يتوصل منها إلى سب النبي صلى الله عليه وسلم، في ألفاظ حفظها، كقوله: العنوا الغار وما وعى، والكساء وما حوى، وغير ذلك، وعلقت رؤوس الحمر والكباش على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلقة، مكتوب فيها أسماء الصحابة، اشتد الأمر على أهل السنة؛ فمن تكلم أو تحرك قتل ومثّل به، وذلك في أيام الثالث من بني عبيد، وهو إسماعيل الملقب بالمنصور [(334-341هـ/ 945-952م)]، سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة [942م]، فقام على بني عبيد، والناس يتمنون قائمًا عليهم، فتحرك الناس لقيامه، واستجابوا له، وفتح البلاد ودخل القيروان"[108].

ومما يعطي هذه الثورة أهميتها، في سياق التجريم السياسي للمعارضة ورموزها، أنها قامت على أساس عقدي؛ فابن كيداد ثار باسم الخوارج، وحتى إن سانده السنة في تمرده، فإن المسوغ هو أن كلا التيارين، الإباضي والمالكي بالقيروان، مضافًا إليهما بعض الحنفية، كان ضحية التطبيق السياسي للنظرية الشيعية في الخلافة بإفريقية؛ لذلك، "نفر الناس مع أبي يزيد [...] وخرج فيهم فقهاء القيروان وصلحاؤهم، ورأوا أن الخروج معه متعيّن لكفرهم [الفاطميون]؛ إذ هو من أهل القبلة، وقد وجدوه يقاتلونهم معه"[109].

---

100 الدباغ، ج 3، ص 153.

101 المرجع نفسه، ص 154.

102 أبو الحسن علي بن رشيق القيرواني، **أنموذج الزمان في شعراء القيروان**، تحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكوش (تونس: الدار التونسية للنشر؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986)، ص 419-420.

103 الدباغ، ج 6، ص 56.

104 المرجع نفسه، ج 5، ص 308.

105 المرجع نفسه، ص 319.

106 المرجع نفسه، ص 308-309، 319-320.

107 الدشراوي، ص 247-313.

108 الدباغ، ج 5، ص 303-304.

109 المرجع نفسه، ص 304؛ التهامي، ص 115.



ولذلك أظهر بعض العلماء المالكية براغماتية في التعامل مع هذا الوضع؛ إذ كان أحدهم "يشير بيده إلى أصحاب أبي يزيد: هؤلاء من أهل القبلة، وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة، يريد بني عبيد، فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتالهم؛ فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة بني يزيد، والله يسلط عليه إمامًا عادلًا يخرجه عنا"[110]. وكانت الثورة قد رفعت في البداية خطابًا سياسيًا سنيًا، من خلال الترحم على الخليفتين الراشدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، والحض على المذهب المالكي، لذلك سمي زعيمهم "شيخ المؤمنين"[111].

وتُظهر الاحتفالية الحربية التي رافقت هذه الثورة البعدَ النفسي لرموز المالكية الذين ناصروها، والانعكاسات الوجدانية التي خلّفها تجريم المعارضة من الخلافة الفاطمية؛ فقد خرج مع أبي يزيد مخلد الثائر "الفقهاء والصلحاء معلنين في الأسواق بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضا عن أبي بكر وعمر والصحابة حتى ركزوا بنودهم عند الجامع [...] منها بندان أصفران، مكتوب في أحدهما البسملة و'محمد رسول الله'، وفي الآخر: 'نصر من الله وفتح قريب على يدي الشيخ أبي يزيد'، اللهم انصر وليك على من سبَّ أولياءك"[112].

وزيادة في ترسيخ البعد العقدي للثورة، باعتبارها ردة فعل على مذهبية المتابعات العبيدية لأهالي القيروان السنة، كفّر ابن كيداد هؤلاء في خطبة دعائية، "أبلغ فيها، وحرض الناس على جهاد الشيعة، وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب، ثم لعن عبيد الله الشيعي وابنه [...] فخرج وخرج الناس معه لقتال الشيعة الفجّار"[113].

ومن خلال برنامج الثورة وشعاراتها، تتضح مساقاتها، وسبب المعارضة المذهبية للفاطميين؛ لأن الثوار ركزوا على التوحيد والنبوة وأفضلية الخلفاء الراشدين، إلى درجة مجاملة المالكية لقائد الثورة برفع شعارات تعود إلى الخوارج الأوائل[114].

وقد اعتبر الفاطميون هذه الثورة "فتنة"، وأن قائدها "دجال لعين"، وتدخل ضمن الجرائم السياسية الموجهة ضد الخلافة وعقيدتها؛ فكان خلفاؤهم يذكرون "أيام الفتنة وبعضَ من كان اتبع مخلد اللعين فيها وتولاه ونزع إليه"، ويعتبرونهم من "حزب الشيطان، وحشو الجحيم وحطب النيران، من كان منهم [...] ومات على ذلك غير تائب منه، ولا راجع عنه"[115]. فجندوا ضدها عصبية كتامة، وعبؤوا الإمكانات المالية، حيث بلغ مقدار ما خصصوه لذلك "مائة ألف دينار واثني عشر ألف ألف درهم"[116]. وسخّروا ضدها دعاية واسعة ذات ميول عقدية، تكفّر ابن كيداد النكاري، حيث تليت الخطب الرسمية من "أمير المؤمنين" الفاطمي تؤكد شرعية السلطة، وتشنع ما قام به الثائر المذكور، وتعتبر "أن هذا اللعين النكاري قد استشرى أشره، واستوبأ مرتعه، وحملته الأماني الغرارة، والنفس التي هي بالسوء أمارة، على أن غمط نعمة الله عليه، وسول له الشيطان الذي هو قرينه ألا غالب له، وإنما أرخى له أمير المؤمنين في زمامه، ليعثر في فضل خطامه، فلعنه الله لعنًا وبيلًا، وأخزاه خزيًا طويلًا، وصيره إلى نار تلظى"[117]. وفي المقابل تشيد الخطبة بالولاء

110 الدباغ، ج 5، ص 304.

111 المرجع نفسه، ج 6، ص 73-74. وممن خرج مساندًا ثورة ابن كيداد: أبو الفضل الممسي، وربيع بن سليمان القطان، وأبو العرب تميم، وأبو إسحاق السبائي، وأبو عبد الملك مروان بن نصرون الزاهد، وأبو حفص عمر بن محمد العسال، وعبد الله بن محمد الشقيقي، وإبراهيم بن محمد المعروف بالعشاء الحنفي، انظر: المرجع نفسه، ج 5، ص 304، 319.

112 ابن عذاري، مج 1، ص229.

113 المرجع نفسه، ص 229-230. ويبدو أن الانتماء العقدي قد تحكّم في التحالف الظرفي بين الخوارج والمالكية؛ إذ انقلب ابن كيداد على أنصار السنة في الثورة، وعرّضهم للفاطميين حتى يقتلوهم ويتخلص من الطرفين معًا، انظر: القاضي عياض، ج 5، ص 306-307.

114 القاضي عياض، ج 5، ص 305-306.

115 القاضي النعمان، **المجالس**، ص 72.

116 المرجع نفسه، ص 551.

117 منصور الجوذري، **سيرة الأستاذ جوذر**، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة (القاهرة: دار الفكر العربي، 1954)، ص 54.

السياسي والمذهبي لقبيلة كتامة المذكورة، لأن أهلها "خبيئة الله لهذا الحق المحمدي الفاطمي المهدي حتى أظهره الله وأعلاه"، مشبهة إياهم بـ "حواريي عيسى، وأنصار محمد صلى الله عليه"[118].

خاتمة

وخلاصة القول إن الصراع الفاطمي - الأموي لأجل بسط النفوذ السياسي والعسكري والمذهبي على بلاد المغرب والأندلس، خلال القرن 4هـ/ 10م، أدى إلى تجريم المعارضة من الخلافتين الشيعية والسنية؛ فاتخذ المناوئون للدولتين العبيدية بإفريقية والمروانية بالأندلس مواقف تماهى فيها المنحى السياسي مع المضمون المذهبي والعقدي؛ فانبرى شيوخ القبائل والعلماء والمتصوفة للتصدي للسلطتين المذكورتين اللتين لم تتوانيا في مواجهة تلك المعارضة، بتجريم خطابها وسلوكها تجريمًا سياسيًا، ومتابعة رموزها، وإلحاق مظاهر التعذيب بهم. وهو ما يدل على أهمية إعادة قراءة بعض المفاهيم والنظم في سياقها الحضاري ببلاد المغرب والأندلس، ويجعل من القرن 4هـ/ 10م مفتاحًا لفهم ما أعقبه من منعطفات حضارية، حتى إن غادر العبيديون بلاد المغرب إلى مصر؛ لأنهم حرضوا بني هلال على الدولة الزيرية، لما خلع هؤلاء طاعتهم، فتحوّل الهلاليون إلى معطى بنيوي في الوقائع والمؤسسات السياسية والاجتماعية والثقافية بالمنطقة إلى نهاية العصر الوسيط؛ ما أضفى على التجريم السياسي دلالات تركيبية أشد تعقيدًا.



118 المرجع نفسه، ص 54.

المراجع

- ابن جعفر، قدامة. **الدواوين من كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر الكاتب**. دراسة وتحقيق مصطفى الحياري. عمان: الجامعة الأردنية، 1986.
- ابن حيان، أبو مروان. **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**. تحقيق عبد الرحمن علي الحجي. بيروت: دار الثقافة، 1965.
- ــــــــــ. **المقتبس**. تحقيق ب. شالميتا وف. كورينطي وم. صبح. مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة؛ الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1979.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**. تحقيق عبد السلام الشدادي. الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم الآداب، 2005.
- ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد. **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**. تحقيق بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد. تونس: دار الغرب الإسلامي، 2013.
- ابن محمد بن منصور، القاضي النعمان. **افتتاح الدعوة**. تحقيق فرحات الدشراوي. تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1986.
- ــــــــــ. **المجالس والمسايرات**. تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي. بيروت: دار المنتظر، 1996.
- ابن موسى بن عياض السبتي، القاضي عياض. **تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض**. تحقيق محمد الطالبي. تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1968.
- ــــــــــ. **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**. تحقيق محمد بن شريفة. المحمدية: مطبعة فضالة، 1982.
- أركون، محمد. **تاريخية الفكر العربي الإسلامي**. ترجمة هاشم صالح. الدار البيضاء: مركز الإنماء القومي؛ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1996.
- إسماعيل، محمود. **الأدارسة في المغرب الأقصى (172-375هـ): حقائق جديدة**. الكويت: مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، 1989.
- الأشعري، أبو الحسن. **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: المكتبة العصرية، 1990.
- البغدادي، عبد القاهر. **الفَرق بين الفِرَق وبيان الفرقة الناجية منهم**. تحقيق محمد عثمان الخشت. القاهرة: مكتبة ابن سينا، 1988.
- التهامي، إبراهيم. **جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة**. بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون، 2005.
- الجوذري، منصور. **سيرة الأستاذ جوذر**. تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة. القاهرة: دار الفكر العربي، 1954.
- الخشني، محمد بن حارث. **أخبار الفقهاء والمحدثين**. تحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا. مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية؛ معهد التعاون مع العالم العربي، 1991.
- الدباغ، عبد الرحمن. **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**. تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور. القاهرة: مكتبة الخانجي؛ تونس: المكتبة العتيقة، [د. ت.].

- الدشراوي، فرحات. **الخلافة الفاطمية بالمغرب (296-365هـ/ 909-975م): التاريخ السياسي والمؤسسات**. ترجمة حمادي الساحلي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994.
- دو بلانهول، كزافييه. **تاريخ أرض الإسلام: الأسس الجغرافية للتاريخ الإسلامي**. ترجمة معاوية سعيدوني. تونس: دار الغرب الإسلامي، 2008.
- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد. **الملل والنحل**. تحقيق أحمد فهمي محمد. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992.
- الطالبي، محمد. **الدولة الأغلبية: التاريخ السياسي، 184-296هـ/ 800-909م**. ترجمة المنجي الصيادي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995.
- العلوي القاسمي، هاشم. **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/ منتصف القرن العاشر الميلادي**. المحمدية: مطبعة فضالة، 1995.
- القابسي، أبو الحسن. **فتاوى أبي الحسن القابسي**. تحقيق الحسين أكروم. الرباط: دار أبي رقراق، 2017.
- القرشي، إدريس عماد الدين. **عيون الأخبار وفنون الآثار**. تحقيق مصطفى غالب. بيروت: دار الأندلس، 1984.
- القيرواني، أبو الحسن علي بن رشيد. **أنموذج الزمان في شعراء القيروان**. تحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكوش. تونس: الدار التونسية للنشر؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.
- المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد. **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**. تحقيق بشير البكوش. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994.
- مجاني، بوبة. **الإسماعيليون في بلاد المغرب العربي**. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2014.
- مرمول، محمد الصالح. **السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.
- النباهي، أبو الحسن. **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1983.



محمد الشريف | Mohamed Cherif*

سبتة في استراتيجية دول الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط

Ceuta in the Strategy of the Powers of the Western Mediterranean

اضطلعت مدينة سبتة، بفضل موقعها الجيوستراتيجي المهم على مضيق جبل طارق، بدور محوري في تاريخ المغرب خلال العصر الوسيط، وفي تاريخ العلاقات المغربية - الإيبيرية، وتاريخ الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط؛ إذ كانت المدينة بوابة المغرب نحو العالم الخارجي، ومعبرًا من معابر التاريخ الكبرى بين أوروبا وإفريقية. وقد سمح لها موقعها الجغرافي المتميز بأن تصبح أحد المراكز الرئيسة في التجارة المتوسطية، والمنفذ الأساسي للتجارة الخارجية المغربية على الواجهة المتوسطية. تمتعت المدينة خلال فترة طويلة باستقلال ذاتي، ما يؤشر إلى أهميتها بوصفها إحدى النقط الرئيسة لمنطقة مضيق جبل طارق، في فترة كانت الهيمنة على هذا الأخير رهانًا تتنافس من أجلها القوى المسيحية (قشتالة، وأرغون، وجنوة، والبرتغال)، والقوى الإسلامية (المغربية – النصرية). وفي صبيحة يوم الأربعاء، 14 جمادى الآخرة 818هـ - 21 آب/ أغسطس 1415م، غزت البرتغال مدينة سبتة، مستغلة ما كان يعانيه المغرب آنذاك من تفكك واضطراب وأزمات في أواخر عصر بني مرين. ولم يكن ذلك الغزو حدثًا بسيطًا، بل إنه مثّل منعرجًا في تاريخ المغرب، نجم عنه نتائج سياسية واقتصادية، ما نزال نعاني انعكاساتها حتى الوقت الراهن. تسعى هذه الدراسة للوقوف على أهمية المدينة استراتيجيًا وتجاريًا من خلال فحص علاقاتها التجارية ببعض قوى الحوض الغربي للمتوسط، وكيف أضحت المدينة عرضة للأطماع الخارجية التي تُوّجت باستيلاء البرتغاليين عليها. ثم تتعرض لدوافع الغزو البرتغالي للمدينة، وانعكاسات ذلك على التطور الحضاري للمغرب.

كلمات مفتاحية: سبتة، جمهورية جنوة، مملكة أرغون، مملكة قشتالة، الغزو البرتغالي.

Thanks to its geostrategic position on the Strait of Gibraltar, the city of Ceuta was one of the major trading centers of the medieval Mediterranean. Under the Afazids it was one of the key strategic points on the straits, during a time when the region was fiercely contested between Christian and Muslim powers (Aragon, Castile, Genoa, Portugal, Grenada and the Marinids). On August 21 1415 the city was taken by Portugal, taking advantage of the deep crisis that beset Morocco at the end of the Marinid period. This conquest was not a simple historical event but a turning point in Moroccan history whose political and economic consequences continue to affect Morocco today. The first part of this study traces Ceuta's strategic and commercial importance through its trade with particular Mediterranean powers and various efforts by foreign powers to control it, efforts crowned by the Portuguese occupation of 1415. In the second part we examine the reasons behind the Portuguese conquest of the city.

Keywords: Ceuta, Republic of Genoa, Kingdom of Aragon, Kingdom of Castile, Portuguese conquest.

* جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – تطوان، المغرب.
Abdelmalek Essaadi University, Faculty of Arts and Humanities, Tetouane, Morocco.

تمهيد

تحتل مدينة سبتة موقعًا استراتيجيًا مهمًا؛ فهي شبه جزيرة مطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى بوغاز جبل طارق على نحو بديع. وغير بعيد عن المدينة إلى جهة الغرب يوجد جبل موسى الذي ينسب إلى موسى بن نصير؛ القائد الذي فتح طارق بن زياد الأندلس في عهده.

تعدّ المدينة محصنة تحصينًا طبيعيًا وتتمتع بمناعة عظيمة باعتبارها شبه جزيرة محاطة بالمياه، وحتى البقعة الضيقة التي تربطها باليابسة من جهة الجنوب تخترقها قناة يمكن أن تعزل المدينة وتحميها من أيّ هجمات تأتيها من القارة. وهذه الوضعية الخاصة جغرافيًا، التي منحتها مكانة متميزة خلال تاريخها الإسلامي، استمرت بعد ذلك ولكن على نحو معاكس في تحديد مصيرها.

خريطة مدينة سبتة



المصدر: حسين مجدوبي، "المغرب يجمد المطالبة بـ'سبتة ومليلية' المحتلتين مقابل تفهم إسبانيا لموقفه"، 2016/5/3، شوهد في 2019/6/20، في: http://bit.ly/2NjsBlK

وبسبب موقعها، صارت سبتة محط أنظار العالم القديم والحديث، لأنها تربط القارة الأفريقية بأوروبا، كما كانت تشرف على الحركة التجارية العالمية التي تمر عبر البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي، ما جعل الدول تتسابق إما إلى ربط علاقات الود والصداقة معها والاستفادة من مكاسب تجارية واقتصادية، وإما إلى احتلالها.

ظلت المدينة على امتداد تاريخها الإسلامي ممرًا للفتح والجهاد بالأندلس، حتى إنها سميت "باب الجهاد"، و"فرضة المجاز"، و"محل أساطيل المسلمين"، إضافة إلى أنها كانت أحد المراكز العلمية المشعّة الكبرى في تاريخ الثقافة الإسلامية، لما أبدعه أعلامها من نتاج علمي، وما ساهموا به من معرفة غطّت جميع الميادين الفكرية. كما بلغت المدينة شأوًا عظيمًا في مستواها الثقافي والعلمي لم تبلغه مدينة مغربية أخرى، حتى أضحت أبرز حاضرة علمية في الغرب الإسلامي، ويكفي أن نذكر من أعلامها القاضي عياض،



والشريف الإدريسي، وأبا العباس أحمد العزفي، وابن خمير السبتي، وأبا الربيع بن سبع، وابن رشيد السبتي، ومحمد بن علي التجيبي، وقاسم بن عبد الله بن الشاط، وأبا الخطاب بن دحية، وأبا الحسن الغافقي الشاري، وابن عبيد الله الحجري، وغيرهم، حتى وصفت بأنها "دار علم"[1].

أولًا: سبتة في الدراسات التاريخية الحديثة

إن الأهمية التي تمتعت بها مدينة سبتة، محليًا ودوليًا، جعلتها تستأثر بنظر كثير من الدارسين، حتى إن المكتبة العربية أصبحت غنية نسبيًا بالدراسات "السبتية"؛ فبيبليوغرافيا المدينة تُعد الآن من أهم البيبليوغرافيات المتوافرة حول ماضي مدينة مغربية وسيطية. كما أن تحقيق مؤلفات علماء سبتة، ونشر تراثهم أو إعادة نشره، وتنظيم الندوات والملتقيات العلمية، وإنجاز الرسائل والأطروحات الجامعية، داخل المغرب وخارجه، ظاهرة تلفت الانتباه خلال الأعوام الأخيرة، وتدل في الوقت نفسه على خصوبة ميادين البحث التي يقدمها تاريخ المدينة، خصوصًا أنه يقدم عناصر الإجابة عن كثير من الإشكالات التاريخية التي يطرحها تاريخ المغرب، وتاريخ العلاقات المغربية - الإيبيرية، إضافة إلى أن المدينة شهدت ميلاد ظواهر تاريخية حاسمة في التطور التاريخي لبلاد المغرب، بمختلف أبعادها السوسيو-دينية؛ مثل ظاهرة "الشرافة" chérifisme، و"الاحتفال بعيد المولد النبوي"، و"مؤسسة المدرسة"، الأمر الذي يجعل من تاريخ المدينة "مختبرًا"[2] لتتبّع نشأة بعض الظواهر وتطورها التي حددت مسار التاريخ المغربي.

إن صعوبة حصر بيبليوغرافيا سبتة تأتي من كون تاريخ المدينة يندمج اندماجًا كبيرًا في تاريخ المغرب، وتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط، وتاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية[3]. فالإلمام بالكتابات المتعلقة بالمدينة يقتضي الاطلاع على تاريخ المنطقة كلها، وهو الأمر الذي يتجاوز مقدرة باحث منفرد، ولا سيما أن الأدوات البيبليوغرافية المتوافرة تشكو نقصًا في المعلومات، وعدم الانتظام في توافرها؛ إذ ليس أي دليل بيبليوغرافي، أو نشرة "منتظمة" متعلقة بالإصدارات التاريخية حول تاريخ المغرب، وبالأحرى تاريخ سبتة. أضف إلى هذا وجود شبه قطيعة بين الباحثين العرب (والمغاربة خاصة) المهتمين بتاريخ المدينة وبين الباحثين الغربيين (والإسبان خاصة)، بل يكاد ينعدم خيط التواصل بين الطرفين؛ فلا الإسبان مطلعون بما فيه الكفاية على الدراسات العربية، ولا الباحثون العرب على علم ودراية وثيقة بالدراسات الإسبانية حول المدينة[4]. ولا يقتصر هذا الجهل، أو "التجاهل"، المتبادل على الدراسات العامة فقط، بل إننا نلاحظه حتى في الدراسات المتخصصة، وفي الأطروحات الجامعية[5].

اتجهت أنظار الباحثين الإسبان بصفة أساسية إلى تاريخ سبتة ما قبل الإسلامية[6]، فهناك أطروحات شاملة ودراسات قطاعية لهذه الفترة، تعتمد أساسًا على نتائج الحفريات الأثرية، وبصفة ثانوية على نصوص المؤرخين اللاتينيين الكلاسيكيين؛ إنها دراسات غنية ومتباينة المواضيع، ترمي إلى توضيح ظروف نشأة المدينة، والأساطير والخرافات المصاحبة لها، كما تسطّر تاريخها السياسي منذ

---

1 انظر: إسماعيل الخطيب، **الحياة العلمية في سبتة خلال القرن السابع** (تطوان: مطبعة الهداية، 1986).

2 Halima Ferhat, *Sabta des origine au XIVe siècle* (Rabat: Ministère des affaires culturelles, 1994), pp. 15, 468.

3 Halima Ferhat, "Sabta: Etat bibliographique," *Hespéris-Tamuda*, vol. 28, no. 1 (1990), p. 164.

4 تمثل دراسات العرب والإسبان ما يقرب من 89 في المئة (46.4 في المئة، و42.22 في المئة، على التوالي) من مجموع الدراسات التي أحصيناها حول المدينة والبالغ عددها 405 دراسات.

5 Mohamed Cherif, "Ceuta dans les écrits récents," *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, no. 7 (1994).
وتوجد جميع الدراسات المشار إليها في المتن بإحالاتها الكاملة في الجرد البيبليوغرافي المثبت في هذا الدراسة. أما مصادر تاريخ المدينة فقد خصصنا لها دراسة نقدية مفصلة في كتابنا:
Mohamed Cherif, *Ceuta aux époques almohade et mérinide* (Paris: L'Harmattan, 1996).

6 من بين 170 عنوانًا باللغة الإسبانية هناك 102 من هذه العناوين (أي 60 في المئة) متعلقة بالتاريخ القديم للمدينة.

ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر البيزنطي، مرورًا بالعصر الفينيقي والروماني والوندالي، وتُبرز دور المدينة في المبادلات التجارية في مضيق جبل طارق، في ضوء نتائج الحفريات الأركيولوجية، أو التنقيبات في أعماق البحر، وتبحث في صناعاتها، وخزفيتها، وفي مسكوكاتها، كما تدقق في أصل تسمية المدينة، وطبونيميتها، وطبوغرافيتها الكلاسيكية، وجغرافيتها التاريخية، ومشاكل تزويدها بالماء ... إلخ[7]. إن هذه البحوث تتزايد في الوقت الحاضر، ولكن نظرًا إلى تبايناتها المنهجية، والطابع التقني الدقيق لأكثريتها، فإنها لم تقدم حتى الآن إلا القليل من الأعمال التركيبية.

إن أسباب هذه الأهمية المعطاة لتاريخ "سبتة ما قبل الإسلام" من لدن الباحثين الإسبان مرتبطة، من دون شك، بالدينامية التي يعرفها البحث التاريخي في إسبانيا حاليًا، وبالإمكانات المتوافرة، وعلى رأسها وجود مؤسسات علمية مشجعة في المكان عينه[8]. على أن هذه الأسباب تتجاوز قطعًا نطاق الاهتمام التاريخي العلمي الصرف، لتلامس أرضية الأيديولوجيا الاستعمارية الإسبانية. فهناك توجه قار في الدراسات الإسبانية يرمي إلى إيجاد ما يسمى روابط "الاستمرارية" بين سبتة "القديمة"، وسبتة "الإسبانية". ومن هذا المنطلق لا تمثّل الفترة المغربية الإسلامية إلا مرحلة عارضة، لا تحظى باهتمام هذه الدراسات الإسبانية. إن عناوين بعض الدراسات، فضلًا عن مضمون أغلبها، تعبّر عن ذهنية هذا التوجه في الدراسات الإسبانية ومراميه[9]. وإلا كيف نفسّر كون الفترة الإسلامية لا تحظى إلا بحظ يسير جدًا من الدراسات الأركيولوجية، بينما يغصّ باطن الأرض السبتية بالبقايا الأثرية التي تعود إلى هذه الفترة، وهي البقايا التي لا تلقى سوى الإهمال، باعتراف الأركيولوجيين الإسبان أنفسهم[10].

وعلى عكس هذا الاهتمام بسبتة "ما قبل الإسلامية" من طرف الباحثين الإسبان، يظهر أن الفترة التاريخية نفسها لا تثير بتاتًا اهتمام زملائهم المغاربة. إنه لمن اللافت للانتباه ذلك التغييب التام لعصور "ما قبل الإسلام" في الدراسات المغربية والعربية عمومًا، كما نلاحظ هذا الإهمال في الأطروحات الجامعية أيضًا؛ فأهم دراسة مغربية صدرت حول سبتة، وهي دراسة حليمة فرحات التي تحاول تتبّع تاريخ المدينة "منذ النشأة" إلى القرن الرابع عشر[11]، لا تخصص سوى 20 صفحة من عمل ضخم (نحو 500 صفحة)، للكلام عن أصول المدينة، وكل تاريخها في ما قبل الإسلام. ويظهر أن الباحثة المغربية لم تأخذ في الاعتبار النتاج التاريخي الإسباني الغني والمتنوع حول هذه الفترة. أما باقي الدراسات العربية فإنها لا تتعرض لتاريخ المدينة ما قبل الإسلام إلا على سبيل التمهيد لدراسة الفترة اللاحقة، وهذا التمهيد الذي لا يتعدى بضعة أسطر في أغلب الأحيان، يعيد صياغة ما سطّره المؤرخون والجغرافيون العرب القدماء، بما في ذلك الأساطير والخرافات المصاحبة لأخبارهم. ولا عجَب أن نجد ندوة مغربية جامعية بعنوان "سبتة: التاريخ والتراث"[12] لا تتطرق مداخلاتها بتاتًا إلى تاريخ المدينة في ما قبل الإسلام.

إن أسباب هذا النقص في الدراسات المغربية كثيرة. ويجب أن نشير أولًا إلى الإهمال الذي نوليه لفترة تاريخية انتهت مع ظهور الإسلام؛ وكأن الاهتمام بالفترة الإسلامية يتمّ على حساب الفترات السابقة لها. ومما له مغزاه، هو ذلك الإهمال الذي يوليه التقليد

---

7 نعطي بعض الأمثلة لهذه الدراسات، علمًا أن البيبليوغرافيا الكاملة يمكن الاطلاع عليها في دراستنا، انظر:
Cherif, "Ceuta dans les écrits récents."

8 يُعد "مركز الأبحاث السبتية" الذي أسسته بلدية سبتة، في عام 1969، من أنشط مراكز البحث الإسبانية؛ إذ نشر عددًا كبيرًا من المؤلفات سواء في سلسلة "دراسات تاريخية"، أو في سلسلة "إصدارات القاعة الأركيولوجية البلدية"، إضافة إلى إصدار مجلتين متخصصتين في تاريخ المدينة هما *Tranfretana* (مجلة معهد الدراسات السبتية)، ومجلة *Cuadernos del Archivo Municipal de Ceuta*.

9 Manuel Gordillo Osuna, "Continuidad hispánica de Ceuta," *Africa*, no. 246 (1962); David Schiriqui & Manuel Leria, *Ceuta Antigua y Moderna* (Ceuta: Instituto Nacional de Enseñanza Media, 1965); Martin Lunas, *Ceuta: Historia de una Ciudad Española (*Malaga: Ayuntamiento de Ceuta, 1982).

10 Carlos Posac Mon, "Datos para la arqueología musulmana de Ceuta," *Hespéris-Tamuda*, vol. 1 (1960), pp. 159 - 160.

11 Ferhat, *Sabta des origine au XIVe siècle.*

12 نشرت أعمال الندوة في **مجلة كلية الآداب بتطوان**، العدد 3 (1989).

الهيستوريوغرافي المغربي لتاريخ المغرب القديم الذي يكاد يصبح في نهاية المطاف تاريخًا مُقصًى من التاريخ الوطني[13]. ويُضاف إلى مختلف هذه الأسباب سبب آخر موضوعي يتمثل في المعرفة الضحلة التي نتداولها، منذ زمن طويل، حول هذه الفترة. إن الوثائق المستعملة في الدراسات العربية ما تزال تستند إلى الشهادات الأدبية الكتابية، ويجب أن نشير إلى الصعوبات التي تعترض الباحث المغربي، لأسباب متعددة، للحصول على المعطيات والمعلومات النابعة من الحفريات الأركيولوجية السبتية؛ فقد أضحت هذه الأخيرة حكرًا على الباحثين الإسبان، منذ أن استولت إسبانيا على مقاليد المدينة المغربية.

في الوقت الذي اتجهت فيه أنظار الباحثين الإسبان إلى تاريخ مدينة سبتة ما قبل الإسلام، سيتخذ الباحثون العرب، والمغاربة، الفترة الإسلامية ميدان بحثهم المفضل. لقد عرفت عملية نشر مؤلفات العلماء السبتيين في الأعوام الأخيرة نشاطًا نوّه به المهتمون في حقل الدراسات المغربية والإسلامية، ووضعت رهن إشارة الباحثين مادة تاريخية غنية. ومع ذلك، فإن هذا النشاط في النشر لم يستتبعه تراكم في البحث التاريخي التحليلي. وتركّزت المجهودات، بصورة قويّة، في دراسة الحياة الفكرية للمدينة وتراجم علمائها[14]؛ فالندوات التي خُصّصت للمدينة بالمغرب اتخذت من الميدان الأدبي والحياة الفكرية موضوعًا لها[15]. لكن لم ينبثق، حتى الآن، من هذه الدراسات الأدبية محاولات تركيبية مرتكزة على إشكالات تاريخية واضحة، تتجاوز مرحلة الوصف والافتتان بثقافة مدينة مغربية إسلامية كان إشعاعها العلمي قويًا طوال العصر الوسيط. إنها دراسات لا يمثل فيها البُعد التاريخي إلا حيزًا ثانويًا، لكنها تشكّل ظاهرة تراكمية تجدر الإشارة إليها.

أما في الميدان التاريخي، فإن الدراسات الأكاديمية المتخصصة قليلة جدًا؛ إذ لا يمكن أن نذكر سوى دراسة زليخة بن رمضان حول المعالم المادية والحضارية للمدينة (1987)، ودراسة كاتب هذه الورقة، محمد الشريف، حول "سبتة على عهد الموحدين والمرينيين" (1987)، ودراسة حليمة فرحات، السابقة الذكر (1994)، في حين تظل الدراسات التاريخية الأخرى الوصفية والأكثر عمومية، والأقل تنظيراً (كدراسات محمد بن تاويت[16]، وإدريس خليفة[17]، والحاج محمد السراج[18] ... إلخ) موجهة إلى الجمهور العريض. أما باقي الدراسات الجامعية الأخرى فإنها أعطت الأولوية للبعد الأدبي (محمد الغازي[19]، وإسماعيل الخطيب[20]، وحسن الوراكلي[21]، وعبد السلام شقور[22]، وغيرهم).

وبغضّ النظر عن تباينها المنهجي، فإن الدراسات المغربية يربطها دافع أساسي، يتم التعبير عنه صراحة أو ضمنيًا، وهو كشف تاريخ المدينة، تعميقًا لمعنى مغربيتها وعُروبتها وإسلاميتها؛ وهو طابعها وهويتها الحقيقية. وليس جزافًا أن يُعنوِن إدريس خليفة كتابه بـ**التاريخ المغربي لمدينة سبتة**؛ فهو يندرج في إطار كفاحي، "يهدف إلى إظهار مغربية سبتة تاريخيًا"، وإقامة الدليل على مغربيتها

13 J.F. Clément, "L'historiographie récente du Maroc," *Lettre d'information de l'AFEMAM*, no. 2 (1987).

14 من بين 188 عنوانًا باللغة العربية، هناك 138 عنوانًا (أي ما نسبته 73.4 في المئة) متعلقًا بالجانب الفكري، أو بالأعلام البشرية التي يصعب في كثير من الأحيان حصر الدراسات المخصصة لها.

15 على سبيل المثال، نجد أن نصيب التاريخ في ندوة "سبتة: التاريخ والتراث" لا يتعدى ست مداخلات (ثلاث مداخلات في تاريخها الوسيط، وثلاث مداخلات في تاريخها الحديث والمعاصر)، في حين أن نصيب باقي المداخلات (إحدى وعشرون مداخلة) متعلق بمناحي الحياة الأدبية وشخصياتها الفكرية.

16 محمد بن تاويت، **تاريخ سبتة** (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1982).

17 إدريس خليفة، **التاريخ المغربي لمدينة سبتة**، ج 1 (تطوان: مطبعة ومكتبة الأمنية، 1988).

18 محمد السراج، **خلاصة تاريخ سبتة** (تطوان: مطابع ديسبرس، 1976).

19 Mohamed El Ghazi, "Les rapports intellectuels entre Al Andalus et Ceuta au XIIIe siècle," PhD. Dissertation, Paris 4, Paris, 1988.

20 الخطيب.

21 حسن الوراكلي، **شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة** (تطوان: منشورات جمعية البعث الإسلامي، 1984).

22 عبد السلام شقور، **القاضي عياض الأديب: الأدب المغربي في ظل المرابطين** (طنجة: دار الفكر المغربي، 1983).

"قبل الإسلام وبعده". وليس غريبًا أن نجد نعت "الإسلامية" لصيقًا بأغلب عناوين الدراسات العربية. والواقع أن مدينة سبتة بوضعيتها السياسية الحالية، ووضعها الاستعماري المفارق، تعيش في عمق الضمير والوجدان المغربيّين، ولا يمكن تناول تاريخها من دون الانخراط فيه بكل الجوارح.

في البيبليوغرافيا الإسبانية يظهر أن القرن العاشر الميلادي هو الذي يحظى باهتمام الباحثين الإسبان؛ إذ إنه القرن الذي أصبحت فيه سبتة مدينة "أندلسية"، بخضوعها لسيطرة أمويّي الأندلس. ولا شيء يعكس لنا بطريقة جلية هذا التوجه من دراسات خواكين بالبي برميخو، وخاصة أطروحته "مساهمة في تاريخ مدينة سبتة حتى السيطرة المرابطية"[23]. وفي هذا العمل الذي فتح الطريق أمام أبحاث أخرى تستلهم خطواته وقناعاته الأيديولوجية، خصص المؤلف الفصل الخامس لما يسميه "سبتة الإسبانية"، وجعله واسطة عقد أطروحته. ففي حين لم يخصص سوى 9 صفحات لـ "سبتة الإسلامية" (ص 113-122)، و10 صفحات لـ "سبتة والقاضي عياض" (ص 207-217)، نجده يخصص نحو 60 صفحة لـ "سبتة الإسبانية" (ص 123-179)، ثم يفرد لاحقًا دراسة مطولة حول التدخل الأموي في سبتة وشمال المغرب.

ومع ذلك، نلاحظ أن تيارًا أكاديميًا، ولو أنه ما يزال ضعيفًا، بدأ يأخذ مكانة في الدراسات الإسبانية المتعلقة بسبتة المغربية. يكفي أن نلقي نظرة على أعمال موسكيرا ميرينو، وكاليرو M.I. Calero، وزانون R. Zanón، وفالنسيا J. Valencia، وراموس كالفو Ramos Calvo، وغيرهم، لنلمس معالم هذا التيار الجديد. وهذا التوجه تدعمه دراسات أخرى جعلت من الجوانب المادية للمدينة المغربية موضوعًا لها؛ مثل الجوانب المعمارية الحضرية، والمسكوكات والأقليات الإثنية والدينية والنشاط التجاري، وهي دراسات تطبعها إرادة إظهار اندماج المدينة في العالم المتوسطي، فضلًا عن اندماجها في وسطها الطبيعي المغربي.

إن المساهمة الفرنسية في كتابة تاريخ سبتة تعود إلى عقود خلت، وقد أولت اهتمامها أساسًا للعلاقات التجارية للمدينة بعالم حوض البحر الأبيض المتوسط. فباستثناء الملاحظات المقتضبة لهنري تيراس Henri Terrasse حول بعض معالم المدينة، نجد أن الدراسات الفرنسية الأخرى قد أولت اهتمامها لعلاقة المدينة بالساحل الفرنسي، وخاصة بمدينة مرسيليا، استنادًا إلى الوثائق العدلية المتعلقة بتجارة مرسيليا ومحاضر مينائها. كما أن بعض الباحثين الفرنسيين اعتمدوا في دراساتهم على الأرشيفات الإسبانية، مثل شارل إيمانويل دوفورك، أحد أكبر المختصين في العلاقات المغربية - الإيبيرية في العصور الوسطى؛ إذ إن دراساته المختلفة حول العلاقات المغربية - القطلانية، وخاصة تلك التي خصصها لـ "مسألة سبتة في القرن الثالث عشر"، لا يمكن الاستغناء عنها، مثل أطروحته الرائدة "إسبانيا القطلانية وبلاد المغرب في القرنين 13 و14"، التي تستند إلى كم هائل من الوثائق المحفوظة في الأرشيفات الأوروبية، وخاصة أرشيفات قطلونيا. وهناك من اعتمد على الأرشيف الإيطالي لدراسة علاقات المدينة التجارية بدول حوض البحر المتوسط، ويكفي أن نذكر العمل القيم للباحث الفرنسي جورج جيهال حول الجنويين في غرب البحر المتوسط[24]، وهو عمل رائد ومحكم التوثيق ومجدد في ما يخص استغلال قاعدة متينة من وثائق الأرشيفات الإيطالية التي تلقي أضواء كاشفة على مكانة سبتة في خريطة المبادلات التجارية في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

إن إسهامات الدراسات الأنكلوسكسونية والإيطالية والبرتغالية تظل ضعيفة، مقارنة بالنتاج التاريخي المغربي أو الإسباني، أو حتى الفرنسي؛ فبعض الباحثين الأميركيين ساهموا في الثلاثينيات من القرن الماضي بأبحاث جيدة حول نشاط التجار الإيطاليين في بلاد المغرب،

---

23 استعمل المؤلف في عنوان أطروحته كلمة "Ocupación"، وليس "Dominación":
J. Vallvé Bermejo, "Contribución a la Historia Medieval de Ceuta Hasta la Ocupación almoravide," Faculted de Filosofia y Letras, Madrid, 1962.

24 G. Jehel, *Les Génois en Méditerranée occidentale (fin XIe-début XIVe siècle): Ébauche d'une strategie pour un empire* (Amiens: Centre d'Histoire des Sociétés et Université de Picardie, 1993).

وخاصة في سبتة، نذكر منهم كروغر[25] وبيرن W. Byrne، ولكن الباحث البريطاني لاثام هو الذي أسهم إسهامًا فعالًا في كتابة تاريخ سبتة الإسلامية؛ ذلك أن دراساته حول النظام التحصيني للمدينة[26]، وخاصة حول آل العزفي، تعتبر من أهم الدراسات المنجزة حتى الآن وأدقها حول هذه الأسرة التي طبعت تاريخ سبتة خلال العصر الوسيط[27]. أما الباحثون الإيطاليون؛ مثل دي توتشي Di Tucci، وجيو بيستارينو Geo Pistarino، ولورا باليتو Laura Balleto، فقد اهتموا بسبتة في إطار اهتمامهم بنشاطات تجار بلدهم في مدينة الزقاق.

ثانيًا: العلاقات التجارية بين سبتة وقوى الحوض الغربي للمتوسط

إن الوقوف على أهمية سبتة في استراتيجية دول الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط لن يتم إلا بمعرفة أهميتها التجارية وعلاقاتها التجارية بمختلف هذه الدول. اضطلعت مدينة سبتة بدور كبير في التجارة المتوسطية، واحتكرت نسبة كبيرة من التجارة البحرية المغربية طوال العصر الوسيط؛ إذ كانت المدينة المنفذ الرئيس على الواجهة البحرية المتوسطية للمغرب. وأصبح النشاط التجاري عماد المدينة الاقتصادي وشريانها الحياتي الحيوي، بل طبع هذا النشاط جميع مناحي الحياة الأخرى السياسية منها والاجتماعية والفكرية والدينية والمعمارية؛ حتى أصبح من المؤكد الآن أن تاريخ المدينة لن يُفهم من دون أخذ العامل التجاري في الاعتبار.

وسنقتصر على إبراز العلاقات التجارية السبتية بقوتين من قوى البحر الأبيض المتوسط: جمهورية جنوة، ومملكة أرغون[28].

1. العلاقات التجارية بين سبتة والجمهورية الجنوية

كانت لجمهورية جنوة الأسبقية، منذ بداية حياتها التجارية على البندقية، في ما يخص التجارة مع السواحل المغاربية، ليس فقط بفضل موقعها الجغرافي القريب من إفريقية، وإنما كذلك لأن جزيرتي كورسيكا وسردينيا كانتا بمنزلة محطات ومخازن بالنسبة إلى تجارتها[29]. وإذا كان البيزيون هم الإيطاليين الأوائل الذين عقدوا المعاهدات التجارية مع المغاربة، فإنه من المؤكد أن الجنويين قد حصلوا، في الفترة نفسها تقريبًا، على امتيازات ومراكز تجارية في بلاد المغرب، حتى إن الجنويين أصبحوا، في أواخر القرن 6هـ/ 12م، سادة التجارة مع سبتة من دون منازع. وقد كانت الاهتمامات التجارية الجنوية تغلب على طموحاتهم السياسية في بلاد المغرب، على عكس الأرغونيين أو القشتاليين الذين ربطوا العلاقات التجارية بالعمل العسكري في أغلب الأحيان.

عقد الجنويون عدة معاهدات واتفاقيات سلام وتجارة مع المرابطين والموحدين، وبفضل تلك الاتفاقيات والامتيازات الممنوحة لتجار جنوة، سرعان ما عرفت التجارة الجنوية توسعًا كبيرًا في عموم المغرب، وبصفة خاصة في سبتة كما يدل على ذلك حجم المبادلات التجارية بين المدينتين.

---

25 H.C. Krueger, "Genoese Trade with Northwest Africa in the Twelfth Century," *Speculum*, vol. 8, no. 3 (1933), pp. 377-395; H.C. Krueger, "The Wares of Exchange in the Genoese-African Traffic of the Twelfth Century," *Speculum*, vol. 12, no. 1 (1932), pp. 57 - 71.

26 J.D. Latham, "The Strategic Position and Defense of Ceuta in the Later Muslim Period," *Islamic Quarterly*, vol. 15, no. 4 (1971), pp. 189 - 204.

27 هي دراسات ترجمها أمين توفيق الطيبي ضمن كتابه: أمين توفيق الطيبي، **دراسات في تاريخ مدينة سبتة الإسلامية** (طرابلس، ليبيا: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1989).

28 للوقوف على تفاصيل هذه العلاقات التجارية، يستحسن الرجوع إلى كتابنا: محمد الشريف، **سبتة الإسلامية: دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي (عصر الموحدين والمرينيين)**، تقديم امحمد بن عبود، ط 2 (الرباط: منشورات جمعية تطاون - أسمير، 1996).

29 Anna Mascarello, "Quelques Aspects des Activités Italiennes Dans le Maghreb Médiéval," *Revue d'Histoire et de la Civilisation du Maghreb*, vol. 5 (1968), p. 66; Carlos Posac Mon, *Relaciones Entre Génova y Ceuta Durante el Siglo XII* (Tétouan: Editorial Cremades, 1958), pp. 163 - 164.

الجدول (1)

حجم المبادلات التجارية الجنوية مع سبتة ومدن أخرى خلال الفترة 1184-1200م (بالليرة الجنوية)

	1184-1188م	1189-1193م	1194-1198م	1200م
سبتة	368	7293	2908	1703
بجاية	824	3735	432	645
تونس	805	1901	46	20
وهران	5	1098	98	

المصدر:

H.C. Krueger, "Genoese Trade with Northwest Africa in the Twelfth Century," *Speculum*, vol. 8, no. 3 (1933); H.C. Krueger, "The Wares of Exchange in the Genoese-African Traffic of the Twelfth Century," *Speculum*, vol. 12, no. 1 (1937).

توضح هذه الأرقام أن سبتة كانت متفوقة في عملياتها التجارية على تونس وبجاية، وهما المدينتان اللتان ارتبطتا بعلاقات تجارية تقليدية بالإيطاليين، على الرغم من بعدها الجغرافي. فخلال الفترة 574-596هـ/ 1179-1200م، استثمرت جنوة بمدينة سبتة 18472 ليرة، أي أكثر من نصف مجموع استثماراتها في جميع موانئ شمال إفريقية. إنها الفترة التي كتب فيها أحد الألمان المشاركين في الحملة الصليبية، في صيف 584هـ/ 1189م، أن "سبتة أغنى مدن المغرب، والأكثر شهرة بفضل تجارتها مع جنوة وبيزا، ومع جميع التجار المسيحيين المتوافدين على إفريقية"[30].

وتفترض بعض الدراسات أن العلاقات الجنوية - المغربية عرفت انخفاضًا ملحوظًا بعد هزيمة العقاب، في عام 609هـ/ 1212م، وأن جمهورية جنوة أصبحت تولي اهتمامها لشرق بلاد المغرب (بجاية وتونس)، على حساب غربه (سلا وسبتة). لكن يظهر من الأبحاث التي قام بها بوتييه[31] ودوفورك[32] خلال الفترة 606-622هـ/ 1210-1226م، اعتمادًا على وثائق الأرشيف الجنوي، أن ميناء سبتة بقي يمثل أهم نقطة تجارية بالمغرب. واعتمدت المؤرخة الإيطالية لورا باليتو على الوثائق ذاتها مدعمة إياها بعقود أخرى تعود إلى الفترة ذاتها، وقامت بعملية إحصائية لمجموع رؤوس الأموال التي وظفها الجنويون في التجارة مع بلدان المغرب خلال الفترة 1222-1226م، وخلصت إلى أن ميناء سبتة كان يتفوق من بعيد على باقي الموانئ المغاربية، كما يتضح من الجدول (2)[33].

30 Mascarello, p. 74; Mon, p. 168.

31 R.M. Bautier, "Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du Nord et l'équilibre économique méditerranéen du XIIe au XIVe siècle," *Bulletin philologique et historique* (1953-1954), pp. 408 - 410.

32 Charles Emmanuel Dufourcq, "Aperçu sur le commerce entre Gênes et le Maghreb au XIIIe siècle," in: Édouard Perroy (ed.), *Économies et sociétés au Moyen âge* (Paris: Publications de la Sorbonne, 1973).

33 مصطفى نشاط، **نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية في العصر الوسيط** (وجدة: مكتبة الطالب، 2005)، ص 86.



الجدول (2)

حجم المبادلات التجارية الجنوية مع سبتة ومدن أخرى خلال الفترة (1222-1226م)

	1222-1226م
سبتة	4864 ليرة جنوية
تونس	1223 ليرة و8 أفْلُس و6 دنانير
بجاية	779 ليرة و16 فلسًا

المصدر: .Ibid.

ومع ذلك، فمن المؤكد أن تجار جنوة لم ينقطعوا عن سبتة، لأننا نتابع نشاطهم وفنادقهم وقنصليتهم وسفنهم في هذه المدينة في عام 639هـ/ 1242م، وهو العام الذي كان براتو أوبيزيو Prato Oppizzio قنصلًا فيها[34]، وكذلك خلال الأعوام 642-643، و646، و647 هـ/ 1245-1246، و1248، و1250م ... إلخ. ولا شيء يعكس لنا أهمية تجارة جنوة في المدينة من كون الجمهورية الجنوية نظمت في عام 665هـ/ 1267م قناصلها وراء البحار في قنصليتين عامتين: إحداهما في صور، وهي تشرف على قنصليات سورية ومصر، والأخرى لم يكن مقرها سوى مدينة سبتة، وهي تشرف على قنصليات المغرب الكبير والأندلس[35].

وتميزت نهاية القرن 7هـ/ 13م وبداية القرن 8هـ/ 14م بتراجع التجارة الجنوية عن أسواق المغرب الكبير. وبحسب المعطيات الحالية للوثائق، يظهر أن الحوض الغربي من البحر المتوسط قد أصبح ينفلت شيئًا فشيئًا من أيدي جنوة لصالح قطلونيا.

ويظهر أن انبعاث مملكة أرغون، وتوجهها نحو سبتة، سيكون لهما دور كبير وراء التقلص التدريجي اللاحق لتجارة جنوة في سبتة؛ فالمنافسة بين جنوة وقطلونيا حول هذه السوق المغربية ظهرت جليًا في عام 631هـ/ 1234م، عقب هجوم يُعتقد أنه "قطلاني"[36] على المدينة المغربية. ويظهر أن حدة هذا الهجوم على مياه سبتة كانت تستهدف السفن الجنوية، وتخويف تجارها.

ومع ذلك، فإن العلاقات بسبتة لم تنقطع كليًا؛ ففي بداية القرن 8هـ/ 14م، كان تجار جنوة يحتلون مكانة مهمة في سوق سبتة، وساهموا في تثبيت سلطة النصريين بها في عام 705هـ/ 1306م[37]. وإذا كانت وثائق العدول الموثقين تنقصنا بالنسبة إلى هذه الفترة، فإن "كتب التجارة" الإيطالية للقرن 8هـ/ 14م، تشهد على أهمية التجارة مع سبتة واستمرارها، كما هو الشأن بالنسبة إلى باقي المناطق

34 Dufourcq, p. 728.

35 E. de La Primaudaie, "Les Villes Maritimes du Maroc, Commerce, navigation et geographie comparée," *Revue Africaine*, vol. 16, no. 92 (1872), p. 206.

36 ترجح الباحثة الإسبانية موسكيرا مورينو أن المهاجمين على ميناء سبتة كانوا من البرتغاليين:
M. Mosquera Merino, "Ceuta y Génova: Incidencias Bélicas (Siglo XIII)," Actas del Congreso Internacional "El Estrecho de Gibraltar," Ceuta, November 1987, pp. 231 - 248.

وانظر كذلك أطروحتها:
M. Mosquera Merino, "La Señoria de Ceuta en el Siglo XIII (Historia Política y Económica)," PhD. Dissertation, Complutense University, Madrid, 1994, pp. 106 - 110.

37 Mascarello, p. 74.

المغاربية الأخرى. وحتى فترة سقوط المدينة بيد البرتغال في عام 818هـ/ 1415م، كان الجنويون يقيمون بكثافة في المدينة[38]. ورغم ما قيل عن دور تجار جنوة المستقرين بالبرتغال في التحريض على غزو المدينة[39]، باتفاق مع تجار جنوة المستقرين بسبتة، وذلك بهدف إضعاف القرصنة السبتية "الصخرة الدائمة في وجه التجارة المتوسطية"، فإنه يظهر أن الجنويين المستقرين في المغرب كانوا معارضين بطريقة صريحة لاحتلال البرتغال للمدينة المغربية، لأنه كان سيُفقدهم دورهم وأرباحهم التجارية[40].

2. العلاقات التجارية بين سبتة وشبه الجزيرة الإيبيرية: مملكة أرغون

توطدت العلاقات التجارية السبتية بالقطلانيين بصورة واضحة طوال القرنين 7-8هـ/ 13-14م. ويرجع الفضل إلى دوفورك الذي درس بعمق هذه العلاقات، وأظهر كثافتها اعتمادًا على كم هائل من وثائق الأرشيفات القطلانية[41].

لم تكن العلاقات القطلانية - السبتية تجارية فقط، بل ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالعمل السياسي والعسكري أيضًا. فعلى خلاف الجاليات المسيحية الأخرى ذات الطابع التجاري، فإن القطلانيين، مثلهم مثل القشتاليين والبرتغاليين لاحقًا، تبنّوا سياسة التدخل العسكري المباشر، حتى إن أحد الدارسين المحدثين يتحدث عن "الإمبراطورية الأرغونية"[42]، خصوصًا أن منطقة الزقاق كانت من أسخن مناطق الصراع المغربي - الإيبيري. وقد كان الجنويون، منافسو القطلانيين الأقوياء، يسيطرون على السوق السبتية، ولم يكن من السهل إزاحتهم عن هذه السوق، وانتزاع زعامتهم التي ترجع إلى القرن 6هـ/ 12م. إذًا، لجأ القطلانيون إلى القوة العسكرية؛ فتدخلهم البحري السافر في صيف 1234م (محرم - ذو القعدة 628هـ) في مياه سبتة، كان يكتسي طابعًا عدائيًا واضحًا للجنويين. لقد أراد التجار القطلانيون اغتنام فرصة استقلال المدينة المغربية الحديث عن السلطة الموحدية، وانعزالها، لإزاحة الجنويين، منافسيهم الرئيسين، أو على الأقل إضعاف وجودهم بسبتة؛ لهذا السبب أحرق القطلانيون سفن جنوة التي كانت راسية بمياه سبتة.

لكن هذه الأزمة لم يكن لها مخلفات تذكر، وكان موقف الملك الأرغوني، بصفة عامة، لصالح سبتة خلال القرن 7هـ/ 13م. فعندما منع رعاياه من مزاولة القرصنة في عام 648هـ/ 1250م، تخلّى عن استعمال القوة تجاه سبتة. كذلك، لم يكن الملك جاك الغازي ولا رعاياه التجار، متحمسين لفكرة الحرب الصليبية ضد إفريقية، التي كان يدعو إليها البابا ألفونسو العاشر، والكنيسة في عام 658هـ/ 1260م، والتي كان من أهدافها الرئيسة الاستيلاء على مدينة سبتة. إنهم كانوا يفضّلون الاتجار بسلام مع سبتة، ومع باقي الموانئ المغربية، عوض الارتماء في حرب صليبية غير مضمونة النتائج. ولم تخفت نشاطات القطلانيين في سبتة بعد عام 660هـ/ 1262م. كانت التجارة وأرباحها أهم الجسور التي تختفي معهما الصراعات السياسية والاختلافات الدينية، أو على الأقل تحدُّ من غلوائها.

---

38 R. Ricard, "Contribution à l'étude du commerce génois au Maroc durant la période portugaise," in: *Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc* (Coimbra: Universidade de Coimbra, 1955), p. 117; J. Heers, *Gênes au XVe siècle* (Paris: S.E.V.P.N., 1961), p. 460.

39 انظر: أحمد بوشرب، "المخططات البرتغالية خلال القرنين 15 و16"، في: عبد الله العروي [وآخرون]، **في النهضة والتراكم: دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية** (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1986)، ص 200.

40 Mohamed Cherif, "Notes sur les activites commerciales de Gênes à Ceuta aux XIIe et XIIe siècles," *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, no. 5 (June 1993), p. 44.

41 Charles Emmanuel Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles: De la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du sultan Mérinide Abou-l-Hasan (1331)* (Paris: PUF, 1966).

42 R. Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides: Des origines à la fin du XVe siècles* (Paris: *Publications de l'Institut d'études orientales d' Alger,* 1947), p. 432.

توطدت النشاطات التجارية بين السبتيين والقطلانيين بعد توقيع اتفاقية "السلم والهدنة" في عام 667هـ/ 1269م، بين أبي القاسم العزفي، حاكم سبتة، وملك أرغون جاك الغازي. والواقع أنه ليتمكن التجار القطلانيون من التعامل التجاري بحرّية، وفي ظروف مواتية بسبتة، لم تكن هناك طريقة أفضل من عقد اتفاقية مع العزفيين، حكام المدينة. وفي الأعوام اللاحقة، نجد القطلانيين يتاجرون بكل حرية؛ ليس في مدينة سبتة وحدها، وإنما مع الموانئ المجاورة لها كذلك (مثل الكدية، والمزمة، وغساسة).

عند نهاية القرن 7هـ/ 13م، كان الأرغونيون، وخاصة تجار برشلونة وميورقة، يترددون بانتظام على ميناء سبتة. ولم يطرح إدماج مدينة سبتة في مشروع السلم المقترح في عام 686هـ/ 1287م بين المرينيين والقطلانيين أيّ مشكلة. وعلى الرغم من فشل السفراء القطلانيين في عقد هذا السلم، فإن مفاوضاتهم كانت لها انعكاسات إيجابية على النشاطات التجارية القطلانية بسبتة، ولنا شهادات وجودهم في المدينة في عامَي 687هـ/ 1288م و695هـ/ 1296م.

في بداية القرن 8هـ/ 14م، وبينما نشاهد تراخيًا في النشاطات الجنوية بسبتة، فإن العلاقات الاقتصادية بين الموانئ المرينية وموانئ أرغون كانت مستمرة. وعلى الرغم من غياب أيّ اتفاقية، فإن التجارة لم تتوقف، ولو أنها كانت تتم في جو محفوف بالأخطار. ويؤكد محضر برشلوني لعام 702هـ/ 1302م، أصدره مجلس المئة للمدينة القطلانية، أن العلاقات التجارية بين أرغون وسبتة والكدية قد حافظت على انتظامها مدة 30 عامًا تقريبًا، قبل إصدار هذا المحضر[43]. ويُرجع بعض الباحثين هذا الانتظام إلى ما خلّفته اتفاقية السلم التي وقّعتها مملكة أرغون مع إمارة سبتة العزفية في عام 667هـ/ 1269م [44].

لم تكن الحروب، أو القرصنة البحرية، أو انعدام الاستقرار السياسي بالمغرب، من العوامل التي تكبل تجارة سبتة كليًا؛ ففي أعقاب إعلان العزفيين استقلالهم في سبتة عام 704هـ/ 1304م، لم يتسرع ملك أرغون في إرسال أسطوله للتعاون مع المرينيين لإخضاع المدينة، على الرغم من الثمن الضخم الذي اقترحه عليه السلطان المريني مقابل مساعدته إياه؛ فهو لم يكن يريد أن يعرقل تجارة رعاياه في المدينة. وعلى الرغم من تغيير حكام سبتة، فإن طابع المدينة التجاري، والأرباح التي كانت تقدمها للتجار المسيحيين، بقيت قائمة. ظل القطلانيون يتوافدون عليها، وقد صارت مؤقتًا بيد النصريين. ففي هذه الأعوام من القرن 8هـ/ 14م، على غرار الحال خلال أعوام القرن 7هـ/ 13م، كان للقطلانيين نشاط كبير ومثمر في المدينة التي كانت تستقطب قسمًا كبيرًا من الاستثمارات القطلانية بالمغرب في مطلع القرن 8هـ/ 14م[45].

والواقع أن مدينة سبتة كانت المنفذ الرئيس لسلع المغرب على الواجهة المتوسطية، ومحط أغلب السلع المسيحية الموجهة إلى أسواق المغرب. فبفضل موقعها الجغرافي المتميز، ومكانتها الرئيسة داخل شبكة الطرق التجارية البحرية المتوسطية، ستتمكن المدينة من احتكار غالبية التجارة الخارجية المغربية. وتفيد وثائق الأرشيفات القطلانية، مثلًا، أن المدينة كانت تستقطب أكثر من ثلثي الاستثمارات القطلانية بالمغرب في مطلع القرن 8هـ/ 14م، والتي قدّرها دوفورك بـ 200 ألف دينار سنويًا[46]. إلا أن الجرد الدقيق الذي قام به حديثًا جيهال حول الاستثمارات الجنوية ببلاد المغرب خلال القرن 7هـ/ 13م[47]، يظهر لنا بدقة مكانة سبتة في العلاقات التجارية المتوسطية[48]. فمن خلال الإحصائيات التي أوردها، يتبين لنا أن سبتة وبجاية وتونس كانت تمثل 98 في المئة من العمليات التجارية

43 Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib*, p. 163.

44 مصطفى نشاط، "التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول 668-759هـ"، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية (1)، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1988-1989، ص 293.

45 Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib*, p. 555.

46 Ibid.

47 Jehel.

48 Ibid., p. 332.

والرساميل الجنوية المستثمرة في بلاد المغرب خلال الفترة 550-689هـ/ 1155-1290م. أما 2 في المئة الباقية، فكانت تتوزع على مناطق أخرى غير واضحة، أطلق عليها أسماء غير مضبوطة؛ مثل "إفريقية"، أو "بلاد البربر". ومن بين الموانئ المغاربية الثلاثة التي كانت تتركز بها تجارة جنوة، والتجارة المتوسطية بصفة عامة، يظهر أن سبتة كانت المركز التجاري الدولي الذي يحتل من بينها مكانة السبق. فعلى إجمالي الفترة، كانت الاستثمارات الجنوية بها تمثل 37.5 في المئة من عدد العمليات التجارية، و42.3 في المئة من الرساميل المستثمرة، بينما تأتي بجاية، رغم قربها الجغرافي من إيطاليا، في المرتبة الثانية بالنسبة إلى عدد العمليات (30.4 في المئة)، أمام تونس (29.2 في المئة)، بل إن الإحصائيات تفنّد آراء بعض الباحثين التي تفترض تراجع دور سبتة التجاري بعد عام 647هـ/ 1250م. وهذه الإحصائيات تفيد أن سبتة كانت تمثل 26-27 في المئة من مجموع العمليات الجنوية وقيمتها في المغرب الكبير كله؛ وبذلك تكون جمهورية جنوة وحدها قد استثمرت قرابة 45 ألف ليرة في سبتة خلال القرن 7هـ/ 13م، وهو رقم ضخم يوضح، بلا شك، أهمية المقادير الضريبية التي كانت تستخلصها ديوانة المدينة.

لم تتوقف نشاطات التجار المسيحيين عن التطور في سبتة طوال العصر الوسيط. فقد أعطت المنافسة الأسبقية لبعضهم على بعض، بحسب مكانتهم وإشعاعهم بالبحر الأبيض المتوسط: جنوة طوال القرن 6هـ/ 12م وبداية القرن 7هـ/ 13م، ومرسيليا في النصف الثاني من القرن 7هـ/ 13م، والقطلانيون في القرنين 7 و8هـ/ 13 و14م. هذا التحقيب، كما يظهر لنا في الوضعية الحالية للوثائق ولمعارفنا التاريخية، قابل لأن يُراجع في ضوء اكتشاف وثائق جديدة، أو في ضوء نتائج أبحاث في طور الإنجاز. ولكن يمكننا القول إن سبتة لم تفقد أبدًا أهميتها التجارية، على الرغم من تغير "جنسية" زبائنها، وإنها ظلت مكانًا مفضّلًا لدى التجار المسيحيين طوال العصر الوسيط. بيد أن تلك الأهمية الكبرى للمدينة استراتيجيًا وتجاريًا جعلتها عرضة للأطماع الخارجية التي تُوّجت باستيلاء البرتغاليين عليها.

ثالثًا: الحملات الإيبيرية على سبتة قبل الاحتلال البرتغالي

في صبيحة يوم الأربعاء، 14 جمادى الآخرة 818هـ - 21 آب/ أغسطس 1415م، غزت البرتغال مدينة سبتة، الثغر التاريخي في علاقات المغرب ببلدان شبه جزيرة إيبيريا، وبوابته الرئيسة على عالم البحر الأبيض المتوسط، مستغلة ما كان يعانيه المغرب آنذاك من تفكك واضطراب وأزمات في أواخر عصر بني مرين. ولم يكن ذلك الغزو حدثًا بسيطًا، بل إنه مثّل منعرجًا في تاريخ المغرب، نجم عنه نتائج سياسية واقتصادية ما نزال نعاني انعكاساتها السلبية حتى الوقت الراهن.

وإذا كان الشروع في التخطيط للاستيلاء على المدينة المغربية يرجع إلى بداية القرن 9هـ/ 15م، فإن نيات هذا الاستيلاء تعود إلى فترات أقدم بكثير؛ فهناك حملات سيّرتها مختلف القوى الإيبيرية على الساحل المغربي قبل الحملة البرتغالية على سبتة، ويكفي التذكير ببعضها فقط[49].

تسجّل مصادرنا عدة اصطدامات بين الأسطول البرتغالي والأسطول السبتي في نهاية القرن 6هـ/ 12م، والمغرب الموحدي في أوج قوته. ففي محرم 576هـ - حزيران/ يونيو 1180، هاجمت "أرمادا" برتغالية بقيادة فواس روبينهو Fuas Roupinho ميناء سبتة، واستحوذت على جميع السفن الراسية به وساقتها إلى لشبونة[50]. وبعد مرور عام واحد، أحرز الأسطول السبتي انتصارًا مدوّيًا على البرتغاليين في مياه شلب في حزيران/ يونيو 1182[51]، وفي العام نفسه هاجم الأسطول البرتغالي سبتة مرة ثانية، إلا أن قائده لقي حتفه

49 Cherif, *Ceuta aux époques almohade et mérinide*, pp. 52 - 53.

50 Jeronimo de Mascarenhas, *Historia de la ciudad de Ceuta* (Ceuta: Algazara: 1995), p. 45.

51 أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: قسم الموحدين**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني [وآخرون] (بيروت: دار الغرب الإسلامي؛ الدار البيضاء: دار الثقافة، 1985)، ص 145.

في المعركة، وأسر المغاربة فيها 1800 من الجنود البرتغاليين واستولوا على أكثر من 20 سفينة[52]. ويرجع إخفاق هذه المحاولات إلى كون الأسطول المغربي أقوى من الأسطول البرتغالي في ذلك العهد.

وفي فترة الانحلال الموحدي هاجم القطلانيون، على ما يرجح، المدينة في عام 1234م[53]، وفي العام التالي حاصرتها سفن جنوة ولم ترفع عنها حصارها إلا بعد الحصول على تعهّد المدينة بأداء فدية نقدية سنوية ضخمة[54].

وفي عام 1260م هاجم القشتاليون مدينة سلا، بعد أن كانت سبتة المستهدفة، بأسطول مكون من 37 سفينة واحتلوا المدينة 11 يومًا[55]. وبعد عامين من حملة سلا، شرع الملك القشتالي في الإعداد لحملة أخرى، لا يُعرف هدفها، إلا دوفورك يؤكد أن سبتة كانت وجهتها[56]. وعمومًا، فإن مدينة سبتة لم تزل تقع في صميم مشاريع ألفونسو العاشر الحربية، وهو الذي يقول في ملحمته المشهورة المعروفة بالأنشودة Cántigas: "سوف أقوم بغزو المغرب، وسبتة، وأصيلة". وظل التهديد القشتالي جاثمًا بكلكله على سبتة[57].

وفي عام 1279م قام الأميرال الأرغوني كونراد لانسيا Conrad Lancia بهجوم على مرسى سبتة، وأسر عددًا من السفن الراسية به. وفي تعليقه على هذا الحدث، يقول دوفورك إن هذا الهجوم لا يجب اعتباره "حدثًا شاذًا ومعزولًا"، وإنما يندرج في سياسة مخطط لها يقودها الملك بيير الثالث الأرغوني، وهو "تدخل محسوب ضد أهم مركز لانطلاقة المرينيين المغيرين على شبه الجزيرة الإيبيرية"، أي سبتة[58].

ومنذ سقوط طريفة في عام 1292م وتمكُّن القشتاليين من الضفة الشمالية للزقاق، أصبحت سبتة مهددة أكثر فأكثر بهجوم عسكري نصراني ضدها.

وفي عام 1341م، بعد الانتصار القشتالي البرتغالي على المرينيين في معركة طريف (ريو سالادو)، حصل الملك البرتغالي على صك بابوي للقيام بحملة على المسلمين، وهو الصك الذي جدده أربع مرات، في الأعوام 1345 و1355 و1377، من دون أن تُنظّم أي حملة.

وعلى الرغم من أن أي حملة صليبية لم ترَ النور آنذاك، فإن مطالبة ألفونسو الرابع المتكررة للبابا تعتبر دليلًا على إرادة ملوك البرتغال للاستيلاء على الأراضي الإسلامية، سواء من خلال مهاجمة غرناطة، أو عن طريق تسيير حملة ضد المغرب.

وبمقارنة حدث الاستيلاء على سبتة في عام 1415م بهذه الأحداث، يتضح أن فشل الحملات المسيحية السابقة، ومن ثمّ اختلاف نتائجها عن نتيجة حملة سبتة، ناتج من عدم "وجود دول مسيحية مستقرة وقوية بما فيه الكفاية للقيام بسياسة غزو منظمة"[59].

والجدير بالذكر أن سياسة الكنيسة الرومانية وفكرة الاستيلاء على سبتة وتمسيحها التي صاغها السياسيون المسيحيون في شبه الجزيرة الإيبيرية، سيلتقي بعضها ببعض. ولم يقتصر العالم النصراني رامون لول في نظرته التوسعية المسيحية ذات البعد المتوسطي

---

52 Mascarenhas, p. 46; H. Miranda, *Historia Política del Imperio Almohade*, vol. 2 (Tetuán: Instituto General Franco de estudios e investigación hispano-árabe, 1956), p. 280.

53 Merino, "La Seňoria," pp. 99 - 107.

54 *Charles Emmanuel* Dufourcq, "La question de Ceuta au XIIIe siècle," *Hespéris*, vol. 42 (1955), p. 75.

55 ابن عذاري، ص 418.

56 *Charles Emmanuel* Dufourcq, "Un projet castillan du XIIIe siècle: La croisade d'Afrique," *Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*, no. 1 (1966), p. 41.

57 انظر: خلف الغافقي القبتوري، **رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي**، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة (الرباط: المطبعة الملكية، 1979)، الرسالة الثامنة، ص 117-121 (تهديد قشتالة لسبتة في حال عدم تجديد الهدنة بين البلدين التي أوشكت أن تنتهي).

58 Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib*, p. 202.

59 L.F. Thomaz, *Le Portugal et l'Afrique au XVe siècle: Les débuts de l'expansion* (Lisboa: Instituto de Investigaçao Cientifica Tropical, 1989), p .7.

على البلاد الحفصية التي كان يتردد عليها بكثرة فقط، بل جعل من سبتة الهدف الأول عندما اختمرت في ذهنه فكرة غزو المسيحيين بلاد المغرب[60]. فقد قدّم لمؤتمر فيين Vienn بفرنسا في عام 1210م، أي قبل أكثر من قرنين من غزو البرتغاليين سبتة، اقتراحًا بتشكيل منظمة تضم كافة الفرسان النصارى، وعليها أن تعمل، من دون انقطاع، على احتلال الأراضي المقدسة (فلسطين) ويكون أولى مهماتها "احتلال سبتة والقسطنطينية لاتخاذهما قاعدتين لشن الهجمات ضد المسلمين"[61]. وفي نحو عام 1260م تمت ترقية "الأخ" لورنزو البرتغالي، وهو من جماعة الفرانسيسكانيين، وأحد المتحمسين للحملة الصليبية ضد الشمال الأفريقي، إلى مرتبة عليا في التراتبية الكنسية، وأُعطِي له مقر كنسي في أرض in patribus يجب انتزاعها من المسلمين، ولم تكن تلك الأرض سوى مدينة سبتة[62].

ومن خلال هذه الأمثلة التي أتينا على ذكرها، يتبين أن سبتة كانت دائمًا هدفًا للقوى الإيبيرية، وأن الخطر الذي يهددها كان يأتي من جهة البحر. ومنذ النصف الثاني من القرن 14م كانت الغلبة البحرية قد استلقت بيد الأمم النصرانية، ومن بينها البرتغال تحديدًا، التي نهج ملكها فرناندو الأول (1367-1383م) سياسة ترمي إلى فتح إمكانيات جديدة للتطور الاقتصادي وتطوير الملاحة والتجارة البعيدة المدى. وقد ساهم في وضع هذه السياسة مستشاروه، وممثلو "البرجوازية الميركانتيلية"[63].

رابعًا: الظروف المساعدة على غزو سبتة

في عام 785هـ/ 1383م، اعتلى عرش البرتغال الملك جواو الأول (حكم 1384-1433م). وبعد عامين انتصر على ملك قشتالة، خوان الأول، في معركة ألبوخاروتا Albujarrota (7 رجب 787هـ - 14 آب/ أغسطس 1385م)، وهي المعركة التي مكّنت البرتغال من استكمال وحدتها الترابية واستقلالها التام، قبل غيرها من الممالك النصرانية الأخرى بشبه الجزيرة الإيبيرية. واعتبر انتصار ألبوخاروتا انتصارًا للطبقة البرجوازية النامية بالبرتغال.

وبعد أربعة أعوام، تهيّأت الظروف لعقد اتفاقية هدنة بين البلدين مدتها عشرة أعوام، تلتها معاهدة سلام بينهما في 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1411م. ويتحدث زورارا[64] عن أجواء الفرحة التي عمّت البرتغال في هذه الفترة نتيجة عودة السلم إلى البلدين الجارين. وخلال عهد الملك جواو الأول، بدأت البرتغال، بدعم من برجوازيتها، تطمح إلى التوسع خارج أراضيها، وتبحث عن امتداد خارج البحار[65]. فعقب الحروب التي حتمت على مملكة البرتغال التركيز أساسًا على الحدود مع قشتالة، بدأت الآن تأخذ في الاعتبار الإمكانات الجديدة التي توفرها التجارة والاستيلاء على المناطق البعيدة. فبرمجت حملات عسكرية مهمة مباشرة عقب توقيع معاهدة السلم مع قشتالة. وأولى هذه الحملات كانت تستهدف الاستيلاء على غرناطة، إلا أنها لم ترَ النور[66] آنذاك، قرر الملك جواو الأول توجيه حرابه نحو سبتة[67].

---

60 الشريف، ص 126.

61 E. Allison Peers, *Ramon Lull: A Biography* (London: Society for promoting Christian Knowledge, 1929), p. 351.

62 Dufourcq, "Un projet castillan du XIIIe siècle," p. 34.

63 J. Cortesáo, *Historia dos descobrimentos Portugueses*, vol. 2, 4th ed. (Lisboa: Livros Horizonte, 1984), p. 229; J.P. Oliveira Martins, *Portugal nos Mares* (Lisboa: Guimaraes Editores, 1994), pp. 23 - 33.

64 Gomes Eanes de Zurara, *Cronica da Tomada de Ceuta por el rei D. Joao I*, Francisco Maria & Esteves Pereira (eds.) (Lisboa: Academia das Sciências de Lisboa, 1915), p. 53.

65 Thomaz, pp. 15 - 16.

66 يفترض أن تكون حملة البرتغاليين ضد غرناطة بتنسيق مع قشتالة، لكن ملك أرغون رفض المشاركة فيها، انظر: de Zurara, p. 54. ثم إن ملك أرغون كانت تربطه اتفاقية هدنة مع سلطان غرناطة.

67 A. Baeza Herrazti, "Ceuta lusitana," in: A. Baeza Herrazti (ed.), *Portugal y Ceuta: Una Historia Común* (1415-1668) (Ceuta: Instituto de Estudios Ceutíes, 2001), p. 35.

ومع ذلك، وبحسب زورارا، ظلّت البرتغال تتوجس من خطر الهجوم القشتالي على أراضيها في حالة تراخيها في تحصين الحدود. وكان هذا التوجس أحد الانشغالات الكبرى للعاهل البرتغالي قبل الإقدام على احتلال سبتة[68].

وقد استغل جواو الأول ما كان يعانيه المغرب الأقصى آنذاك من تفكك واضطراب واقتتال داخلي، وما صاحب ذلك من طاعون، أواخر أيام دولة بني مرين[69]، وكذلك المنازعات القائمة بين سلاطين فاس وسلاطين بني الأحمر في غرناطة[70]. واستغل، بالدرجة الأولى، غياب أسطول بحري يدافع عن المدينة.

ومن المعلوم أن هزيمة الأسطول المغربي في معركة طريف (ريو سالادو) البحرية، في عام 1340م، كانت كارثة بالنسبة إلى القوى البحرية المغربية. وبعد وفاة أبي الحسن المريني، سيغدو انحطاط القوة البحرية المرينية متسارعًا رغم بعض المحاولات التي قام بها السلطان أبو عنان لتقوية الأسطول. وعلى الرغم من الضعف العام الذي ميّز البحرية الإسلامية في هذه الحقبة، "إذ صار المسلمون فيه [البحر] كالأجانب"، فإن ذلك الانحطاط لم يشمل بعضًا "من أهل البلاد الساحلية" التي بقي "لهم المران عليه"، بحسب رؤية ابن خلدون الذي كان يستحضر مثال مدينة سبتة، ولا شك، في تنظيراته لتطور القوى الإسلامية؛ فأسطول مدينة سبتة لم يكن قد اضمحل كليًا، لأننا نجده يشارك في استرجاع الجزيرة الخضراء، في عام 770هـ/ 1368م، من القشتاليين في فترة كانت سبتة خاضعة للنصريين[71]. ويظهر الآن أن نصريّي غرناطة، هم الذين أعطوا الضربة القاضية للأسطول السبتي عندما أفرغوا ميناء المدينة من السفن الحربية، قبل أعوام قليلة من احتلال البرتغاليين لها[72].

يمكن القول إن ملك البرتغال شرع في التفكير في حملة عسكرية كبيرة ضد المسلمين منذ عام 1411م[73]. وفي عام 1415م قرر أن يكون هدف الحملة مدينة سبتة، مفتاح مضيق جبل طارق. وفي هذه الحقبة كان المغرب يعيش انهيارًا، ولم تكن سلطة مخزنه تتجاوز أبواب فاس.

لقد أحاط الملك هدف حملته بالسرية التامة، ما أثار مخاوف الممالك الإيبيرية. وعرفت الاستعدادات البرتغالية لتقوية الأسطول زخمًا قويًا في عام 1414م في مختلف مناطق البرتغال، وعاشت الدول الإيبيرية، بما في ذلك غرناطة، في قلق كبير من نيات الملك جواو الأول. وإذا كان السر الذي غلّف به هدف الحملة هو أصل القلق والتوجس، فإن هناك أيضًا حجم الأسطول الذي كان عدد وحداته في ارتفاع مطّرد. ثم إن البرتغال لم يكن لها عدو معلن، ولم تكن تعرف تأزمًا في علاقاتها الخارجية، ليُعتقد أن الهجوم سيوجَّه ضد دولة ما. ويشير زورارا إلى حالة الترقب والخوف والحيطة في شبه الجزيرة الإيبيرية من هدف الحملة[74].

---

68 de Zurara, p. 69.

69 الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج 1، ط 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، ص 317-318؛ ابن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر بأبناء العمر**، ج 3، تحقيق حسن حبشي (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1969)، ص 40-41؛ أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى: الدولة المرينية**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج 4 (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1955)، ص 92.

70 **ديوان ابن فركون**، تقديم وتعليق محمد بن شريفة (الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1987)، ص 69-87.

71 عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج 6 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ص 7، 327.

72 محمد الشريف، **الغرب الإسلامي: نصوص دفينة ودراسات**، ط 2 (تطوان: منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، 1999)، ص 158-159.

73 Aires do Nascimento, *Estudo Codiclogico, Historico, Literario, Linguistico* (Lisboa: Faculdade de Letras da Universidade de Lisboa, 1977), pp. 262-264; I. Drumond Braga, *Ceuta portuguesa (1415-1656)* (Ceuta: Instituto de Estudios Ceutíes, 1998), p. 27.

ويرجع دياس دينيس فكرة غزو سبتة إلى سنة 1410م على الأقل:
A.J. Dias Dinis, "Antecedentes da Expansáo Ultramarina Portuguesa: Os Diplomas Pontificios dos Séculos XII a XV," *Revista Portuguesa de História*, vol. 10 (1962), pp. 92 - 93.

74 de Zurara, p. 128.

بعث قشتالة سفارة إلى البرتغال لتأكيد معاهدة السلم المبرمة بينها وبين البرتغال، وشرعت إشبيلية في تحصين أسوارها. وانتشرت التخوفات نفسها في مملكة أرغون التي اعتقدت أن قرارات السياسة الخارجية للبرتغال، بعد توقيع معاهدة السلم بينها وبين قشتالة، يمكن أن تضرّ بمصالح الأرغونيين، وهو ما يتردد بكثرة في الوثائق الأرغونية لهذه الفترة. ويصف ماتيو بيزانو في كتابه حالة القلق التي كان يعيشها الملك الأرغوني، ورغبته في معرفة نيات الملك جواو الأول. وفي الأخير قرر الملك فرناندو أن يبعث سفراءه مباشرة إلى البرتغال للاستفسار عن أهداف الحملة[75]، خاصة بعد الإشاعات القوية التي تقول إنها ستستهدف صقلية. وفي 9 كانون الثاني/ يناير 1415م أبلغت الملكة فيليبا D. Filipa السفارة الأرغونية بأن زوجها لا ينوي مهاجمة الأراضي الأرغونية.

وإذا كانت للدول المسيحية أسباب تجعلها تتوجس من الحملة البرتغالية على أراضيها، فإن الدولة النصرية كانت لها مبررات إضافية لتتخوف من حملة يمكن أن تكتسي طابعًا صليبيًا. توجه السلطان الغرناطي يوسف الثالث إلى الملك البرتغالي بالسؤال نفسه، كباقي ملوك شبه الجزيرة الإيبيرية[76]. ولم يفصح جواو الأول لأعضاء السفارة الغرناطية عن أي شيء بخصوص هدف الحملة. وفي الاتجاه نفسه، بعث السلطان الغرناطي زوجته ريكافورا Ricaforra التي التقت بالملكة فيليبا على أمل الحصول على معلومات عن الحملة. وعلى الرغم من الهدايا الثمينة التي أهديت إليها[77]، فإن الملكة فيليبا لم تقدم أيّ معلومات للملكة الغرناطية، وكذلك كان مصير المبعوثين الغرناطيين الذين أعادوا المحاولة مع الأمير دون دوارتي D. Duarte بعد ذلك.

وقد ازدادت الإشاعات حول الضحية المحتملة للهجوم البرتغالي بالتزامن مع المراحل الأخيرة للاستعدادات. وانتشرت في البرتغال ذاتها إشاعات كثيرة حول هدف الحملة. فالبعض كان يرى أن وجهتها القدس، لشكر الرب على الانتصار على القشتاليين. وأشاع البعض أن الأسطول البرتغالي سيرافق الأميرة إيزابيلا إلى إنكلترا التي كانت ستتزوج الملك الإنكليزي[78]، وأن هذا الأسطول سيساعد هنري الخامس ابن أخي الملكة فيليبا في السيطرة على نورمانديا، إن لم يستعمل للسيطرة على إنكلترا ذاتها وإخضاعها للبرتغال[79]. وأشاع آخرون أن الأسطول البرتغالي سيوضع رهن البابا للقضاء على الحركات البدعية، والسماح للكنيسة بأن تكون لها قيادة واحدة[80].

وسط جميع هذه التكهنات المتباينة، نجد يهوديًا واحدًا، جوداس الأسود Judas Negro، خادم الملكة فيليبا، كان يعتقد أن الحملة ستسير ضد سبتة، مبينًا أن حسابات فلكية قد أوحت له بذلك[81].

والرواية الوحيدة التي قدّمها التاج البرتغالي لهدف الحملة هو أنها ستسير ضد دوق هولندا غيوم دو بافيير بسبب الأضرار التي ألحقها قراصنته بالسفن البرتغالية. ولإبعاد الأنظار عن سبتة، ولعدم خلق أجواء توتر مع الحلفاء الإيبيريين، بعث ملك البرتغال سفيرًا إلى دوق هولندا لطمأنته بأن الحملة ليست موجهة ضد هولندا، وأن الأمر يتعلق بإبعاد شكوك المنافسين الإيبيريين، وعدم إيقاظ المغاربة من سباتهم[82].

---

75 M. de Pisano, *Livro da guerra de Ceuta*, Roberto Correa Pinto (trans.) (Lisboa: Academia das sciencias de Lisboa, 1915), p. 19.

76 يؤكد ماتيو دي بيزانو أن سلطان غرناطة كان قد توجه إلى فرناندو الأول للحصول على معلومات حول الأسطول البرتغالي قبل أن يبعث بسفرائه إلى البرتغال، انظر: de Pisano, pp. 21 - 22.

77 Ibid., p. 23.

78 Anna Unali, *Ceuta 1415: Los Orígenes de la Expansión Europea en Africa* (Ceuta: Ciudad Autónomica de Ceuta, 2004), pp. 216 - 217.

79 Carlos Roma de Bocage, *Etude Préliminaire sur la Prise de Ceuta par les Portugais le 21 aout 1415* (Lisboa: Typ. da cooperativa militar, 1912), p. 25.

80 Ibid.

81 de Zurara, p. 93.

82 Ibid., pp. 114 - 115.



بعد عامين أو ثلاثة أعوام من التحضيرات، وعلى الرغم من وفاة الملكة دونيا فيليبا، غادر الأسطول البرتغالي لشبونة في 25 تموز/ يوليو 1415م، في اليوم الذي يصادف عيد القديس جاك الكبير Saint Jacques le Majeur. وكان على رأس قيادة الأسطول الملك دون جواو الأول، يساعده عدد من أبنائه؛ من بينهم دون دوارتي، ودون بيدرو D. Pedro، ودون إنريكي D. Henrique. وفي 28 تموز/ يوليو، وفي مدينة لاغوس Lagos قد يكون الفرنسيسكي جواو دي كسيرا Joao de Xira نشر مرسومًا صليبيًا أصدره البابا، لكننا لم نعثر أبدًا على أثره[83]. وعلى الرغم من أن هدف الحملة كان مدينة سبتة، فإن الملك دون جواو تردد آخر لحظة، وفكر في تغيير هدف الحملة نحو جبل طارق، لكن الأسطول اتجه في النهاية نحو سبتة. وأدت عاصفة إلى تشتيت السفن البرتغالية، ولم يعد لعنصر المفاجأة أي دور في الحملة.

وفي منتصف ليلة اليوم التالي (20 آب/ أغسطس)، غادر الأسطول رأس الكبش متوجهًا نحو مياه سبتة، فكان وصوله إليها صبيحة اليوم المشؤوم، يوم الأربعاء 14 جمادى الآخرة 818هـ (21 آب/ أغسطس 1415م)، حيث تم احتلال المدينة بعد حرب غير متكافئة، جرت في شوارعها. ويذكر زورارا أن "السبتيين قاتلوا دفاعًا عن منازلهم حتى النهاية، مؤثرين الموت على الفرار، وكانوا، وهم عزل من السلاح، يرمون أنفسهم على الجند المسلحين، مستميتين في القتال. ولم يستسلموا حتى أمام الكثرة من الجند. وكان من يسقط منهم جريحًا يواصل القتال ويلوّح بيده على أعدائه"[84].

وتعرضت المدينة لأعمال النهب والسلب بحثًا عن الغنيمة، وذهبت طعمة للنيران محتوياتُ المتاجر والمخازن من التوابل والثياب الرفيعة والسجاجيد الشرقية. وقُتل سكانها، ونزح من نجا منهم خارج المدينة، لتبدأ معركة تحريرها[85]، وما تزال مستمرة.



83 A.J. Dias Dinis (ed.), *Monumenta henricina*, vol. 2 (Coïmbra: Comissão Executiva das Comemorações do V Centenário da Morte do Infante D. Henrique, 1960), p. 72.

84 أمين توفيق الطيبي، **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس**، ج 2 (طرابلس، ليبيا؛ تونس: الدار العربية للكتاب، 1997)، ص 278-279.

85 حسن الفكيكي، **سبتة المحتلة: ذروة وعينا الوطني 1415-1912** (الرباط: مديرية الوثائق الملكية، 2003)؛ حسن الفكيكي، **سبتة المغربية: صفحات من الجهاد الوطني**، تقديم محمد حجي، سلسلة المعرفة للجميع 14 (الرباط: منشورات رمسيس، 2000).

المراجع

العربية

- ابن خلدون، عبد الرحمن. **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992.
- ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد. **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: قسم الموحدين**. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني [وآخرون]. بيروت: دار الغرب الإسلامي؛ الدار البيضاء: دار الثقافة، 1985.
- بن تاويت، محمد. **تاريخ سبتة**. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1982.
- الخطيب، إسماعيل. **الحياة العلمية في سبتة خلال القرن السابع**. تطوان: مطبعة الهداية، 1986.
- خليفة، إدريس. **التاريخ المغربي لمدينة سبتة**. تطوان: مطبعة ومكتبة الأمنية، 1988.
- **ديوان ابن فركون**. تقديم وتعليق محمد بن شريفة. الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1987.
- السراج، محمد. **خلاصة تاريخ سبتة**. تطوان: مطابع ديسبرس، 1976.
- الشريف، محمد. **سبتة الإسلامية: دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي (عصر الموحدين والمرينيين)**. تقديم امحمد بن عبود. ط 2. الرباط: منشورات جمعية تطاون - أسمير، 1996.
- ________. **الغرب الإسلامي: نصوص دفينة ودراسات**. ط 2. تطوان: منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، 1999.
- شقور، عبد السلام. **القاضي عياض الأديب: الأدب المغربي في ظل المرابطين**. طنجة: دار الفكر المغربي، 1983.
- الطيبي، أمين توفيق. **دراسات في تاريخ مدينة سبتة الإسلامية**. طرابلس، ليبيا: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1989.
- ________. **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس**. طرابلس، ليبيا؛ تونس: الدار العربية للكتاب، 1997.
- العروي، عبد الله [وآخرون]. **في النهضة والتراكم: دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية**. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1986.
- العسقلاني، ابن حجر. **إنباء الغمر بأبناء العمر**. تحقيق حسن حبشي. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1969.
- الفاسي، الحسن بن محمد الوزان. **وصف إفريقيا**. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. ط 2. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983.
- الفكيكي، حسن. **سبتة المغربية: صفحات من الجهاد الوطني**. تقديم محمد حجي. سلسلة المعرفة للجميع 14. الرباط: منشورات رمسيس، 2000.
- ________. **سبتة المحتلة: ذروة وعينا الوطني 1415-1912**. الرباط: مديرية الوثائق الملكية، 2003.
- القبتوري، خلف الغافقي. **رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي**. تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة. الرباط: المطبعة الملكية، 1979.
- **مجلة كلية الآداب بتطوان**. العدد 3 (1989).

- الناصري، أحمد بن خالد. **الاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى: الدولة المرينية**. تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري. الدار البيضاء: دار الكتاب، 1997.
- نشاط، مصطفى. "التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول 668-759هـ". دبلوم الدراسات العليا في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية (1). جامعة الحسن الثاني. الدار البيضاء، 1988-1989.
- ______. **نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية في العصر الوسيط**. وجدة: مكتبة الطالب، 2005.
- الوراكلي، حسن. **شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة**. تطوان: منشورات جمعية البعث الإسلامي، 1984.

الأجنبية

- Bautier, R.M. "Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du Nord et l'équilibre économique méditerranéen du XIIe au XIVe siècle." *Bulletin philologique et historique* (19531954-).
- Bermejo, J. Vallvé. "Contribución a la Historia Medieval de Ceuta Hasta la Ocupación almoravide." Faculted de Filosofia y Letras. Madrid, 1962.
- Braga, I. Drumond. *Ceuta portuguesa (14151656-)*. Ceuta: Instituto de Estudios Ceutíes, 1998.
- Brunschvig, R. *La Berbérie orientale sous les Hafsides: Des origines* à *la fin du XVe siècles.* Paris: Publications de l'Institut d'études orientales d' Alger, 1947.
- Cherif, Mohamed. "Notes sur les activites commerciales de Gênes à Ceuta aux XIIe et XIIe siècles." *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*. no. 5 (June 1993).
- ________. "Ceuta dans les écrits récents." *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*. no. 7 (1994).
- ________. *Ceuta aux époques almohade et mérinide*. Paris: L'Harmattan, 1996.
- Clément, J.F. "L'historiographie récente du Maroc." *Lettre d'information de l'AFEMAM*. no. 2 (1987).
- Cortesáo, J. *Historia dos descobrimentos Portugueses*. 4th ed. Lisboa: Livros Horizonte, 1984.
- de Bocage, Carlos Roma. *Etude Préliminaire sur la Prise de Ceuta par les Portugais le 21 aout 1415*. Lisboa: Typ. da cooperativa militar, 1912.
- de La Primaudaie, E. "Les Villes Maritimes du Maroc, Commerce, navigation et geographie comparée." *Revue Africaine*. vol. 16, no. 92 (1872).
- de Mascarenhas, Jeronimo. *Historia de la ciudad de Ceuta*. Ceuta: Algazara: 1995.
- de Pisano, M. *Livro da guerra de Ceuta*, Roberto Correa Pinto (tran.). Lisboa: Academia das sciencias de Lisboa, 1915.
- de Zurara, Gomes Eanes. *Cronica da Tomada de Ceuta por el rei D. Joao I*." Francisco Maria & Esteves Pereira (eds.). Lisboa: Academia das Sciências de Lisboa, 1915.
- Dias Dinis, A.J. (ed.). *Monumenta henricina*. Coïmbra: Comissão Executiva das Comemorações do V Centenário da Morte do Infante D. Henrique, 1960.
- ________. "Antecedentes da Expansáo Ultramarina Portuguesa: Os Diplomas Pontificios dos Séculos XII a XV." *Revista Portuguesa de História*. vol. 10 (1962).
- do Nascimento, Aires. *Estudo Codiclogico, Historico, Literario, Linguistico*. Lisboa: Faculdade de Letras da Universidade de Lisboa, 1977.
- Dufourcq, Charles Emmanuel. "La question de Ceuta au XIIIe siècle." *Hespéris*. vol. 42 (1955).

- ________. "Un projet castillan du XIIIe siècle: La croisade d'Afrique." *Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*. no. 1 (1966).
- ________. *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles: De la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du sultan Mérinide Abou-l-Hasan (1331)*. Paris: PUF, 1966.
- El Ghazi, Mohamed. "Les rapports intellectuels entre Al Andalus et Ceuta au XIIIe siècle." PhD. Dissertation. Paris 4. Paris, 1988.
- Ferhat, Halima. "Sabta: Etat bibliographique." *Hespéris-Tamuda*. vol. 28, no. 1 (1990).
- ________. *Sabta des origines au XIVe siècle*. Rabat: Ministère des affaires culturelles, 1994.
- Heers, J. *Gênes au XVe siècle*. Paris: S.E.V.P.N., 1961.
- Herrazti, A. Baeza (ed.). *Portugal y Ceuta: Una Historia Común* (1415-1668). Ceuta: Instituto de Estudios Ceutíes, 2001.
- Jehel, G. *Les Génois en Méditerranée occidentale (fin XIe-début XIVe siècle): Ébauche d'une strategie pour un empire*. Amiens: Centre d'Histoire des Sociétés et Université de Picardie.
- Krueger, H.C. "The Wares of Exchange in the Genoese-African Traffic of the Twelfth Century." *Speculum*. vol. 12, no. 1 (1932).
- ________. "Genoese Trade with Northwest Africa in the Twelfth Century." *Speculum*. vol. 8, no. 3 (1933).
- Latham, J.D. "The Strategic Position and Defense of Ceuta in the Later Muslim Period." *Islamic Quarterly*. vol. 15, no. 4 (1971).
- Lunas, Martin. *Ceuta: Historia de una ciudad Española*. Malaga: Ayuntamiento de Ceuta, 1982.
- Martins, J.P. Oliveira. *Portugal nos Mares*. Lisboa: Guimaraes Editores, 1994.
- Mascarello, Anna. "Quelques Aspects des Activités Italiennes Dans le Maghreb Médiéval." *Revue d'Histoire et de la Civilisation du Maghreb*. vol. 5 (1968).
- Merino, M. Mosquera. "Ceuta y Génova: Incidencias Bélicas (Siglo XIII)." Actas del Congreso Internacional "El Estrecho de Gibraltar." Ceuta, November 1987.
- ________. "La Señoria de Ceuta en el Siglo XIII (Historia Política y Económica)." PhD. Dissertation. Complutense University. Madrid, 1994.
- Miranda, H. *Historia Política del Imperio Almohade*. vol. 2. Tetuán: Instituto General Franco de estudios e investigación hispano-árabe, 1956.
- Mon, Carlos Posac. "Datos para la arqueología musulmana de Ceuta." *Hespéris-Tamuda*. vol. 1 (1960).
- Osuna, Manuel Gordillo. "Continuidad hispánica de Ceuta." *Africa*. no. 246 (1962).
- Peers, E. Allison. *Ramon Lull: A Biography*. London: Society for promoting Christian Knowledge, 1929.
- Perroy, Édouard (ed.). *Économies et sociétés au Moyen âge*. Paris: Publications de la Sorbonne, 1973.
- Ricard, R. *Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc*. Coimbra: Universidade de Coimbra, 1955.
- Schiriqui, David & Manuel Leria. *Ceuta Antigua y Moderna*. Ceuta: Instituto Nacional de Enseñanza Media, 1965.
- Thomaz, L.F. *Le Portugal et l'Afrique au XVe siècle: Les débuts de l'expansion*. Lisboa: Instituto de Investigaçao Cientifica Tropical, 1989.
- Unali, Anna. *Ceuta 1415*: *Los Orígenes de la Expansión Europea en Africa*. Ceuta: Ciudad Autónomica de Ceuta, 2004.

محمد عبد الرحمن حسن | Mohamed Abderrahman Hasan*

المصادر التاريخية العربية للأسطورة المؤسسة للهوية الغربية: بين تاريخي فتح أميركا وفتح الأندلس

Arabic Origins of the Foundational Myth of Western Identity: Between Histories of the Conquest of America and the Conquest of al-Andalus

مثّل تاريخ فتح أميركا مصدرًا أساسيًا لإدراك الذات وتشكّل الهوية لدى الأمم الغربية، وغذّى مخيلة امتيازها على أمم العالم. توضح هذه الدراسة المقارنة أن المعرفة التاريخية الغربية الحديثة تتصل بالمعرفة العربية أكثر من اتصالها بأصل إغريقي - روماني خالص، خلاف ما هو رائج في الفكر الغربي الحديث والمعاصر، فتقارِن النصوص التي كتبها المؤرخون الإسبان عن فتح أميركا في القرن السادس عشر الميلادي بالنصوص العربية التي كُتبت حول فتح الأندلس في القرنين التاسع والعاشر للهجرة. تستخرج الدراسة التماثلات بين القصتين، وتخلص إلى أن قصة فتح أميركا نسخة من قصة فتح الأندلس، استعادها الإسبان في بداية العصر الحديث. ومن ثمّ، تؤكد تعدد أصول المعرفة الغربية، على النقيض من مزاعم نقاء أصلها الإغريقي - الروماني.

كلمات مفتاحية: فتح أميركا، فتح الأندلس، ثيمات معاودة، هوية غربية.

The history of the conquest of America has constituted a primary source of self-perception and identity formation for Western nations, feeding their imaginary that sees them as superior to other nations of the world. This comparative study shows that modern Western historical knowledge is linked much more closely to Arab knowledge than it is to a pure Greco-Roman origin, contrary to the commonly-accepted idea in contemporary Western thought. It compares the work of Spanish historians on the conquest of America in the sixteenth century CE with Arab texts concerning the conquest of al-Andalus written in the 9th and 10th centuries AH, drawing out similarities between the two stories. It concludes that the narrative of the conquest of America is a copy of the al-Andalus conquest narrative, reclaimed by the Spanish at the beginning of the modern era. It thus affirms the diverse origins of western knowledge against the claim that it is purely Greco-Roman.

Keywords: Conquest of America, Conquest of al-Andalus, Recurring Themes, Western identity.

* كاتب وأستاذ جامعي من السودان، متخصص باللسانيات، ومشتغل في تاريخ الفنون ونقد نظام المعرفة الغربية.

Sudanese writer and university professor, specialized in linguistics and interested in the history of art and criticism of western epistemology.

مقدمة

يعتبر كثير من المؤرخين الغربيين فتح أميركا أعظم أحداث التاريخ الحديث؛ فقد صيغت منه قصة أقرب إلى الخيال، قيل فيها إن خمسمئة رجل فقط فتحوا مملكة المكسيك الضخمة التي حكمت ملايين البشر[1]. فالمؤرخ فرانسيسكو لوبيز غومارا (1511-1566)، أول من دوّن تاريخ الفتح، وسيرة الإسباني هرنان كورتس Hernàn Cortés (1485-1547) قائد الفتح، كتب يقول: "إن فتح المكسيك، وتحويل شعب إسبانيا الجديدة إلى المسيحية يمكن، ويجب، أن يُضمّا إلى تواريخ العالم، ليس لأنهما حدثا بطريقة متقنة، بل لأنهما حدثان عظيمان بدرجة بالغة"[2]. وينتهي في موضع متقدم من كتابه نفسه إلى وصف فتح أميركا بأنه "الحدث الأعظم منذ بدء الخليقة"[3]. وكتب أيضًا المؤرخ الإسباني أنطونيو دي سولي (1610-1669)، معلقًا على فتح المكسيك، ومضيفًا إليه فتح بيرو إن ما جرى "حدث غير مسبوق في التاريخ، وليس له مثيل في القصص الخيالية"[4]. وبعدهما كتب المؤرخ الإنكليزي وليام روبرتسون (1721-1793) عن الإخوة بيزارو، المنسوب إليهم فتح بيرو، قوله: "رجال غير عاديين"؛ لأنهم هزموا "واحدة من أعظم ممالك العالم"[5]. وتعليقًا على هذا التمجيد للفتح، يقول المؤرخ الأميركي المعاصر، ماثيو رستال، إن قصة الفتح أحدثت في أوروبا، في أثناء القرن السادس عشر، ما يمكن تسميته "نزعة عبادة كورتس" (Cortés cult)، مبينًا أن "معجبي كورتس كانوا يسافرون إلى مقر إقامته في إسبانيا، كأنهم حجاج، وتعزز تقديسه لاحقًا بسيرته التي كتبها غومارا في عام 1552، وحاول الملك الإسباني إيقاف نشرها"؛ لأن مكانة كورتس المتصاعدة هددت مكانة الملك نفسه[6]. ويتطلب تعرف صلة هذه القصة بالتاريخ العربي الإسلامي وصفًا مختصرًا للظروف التي جرت فيها. فهي وثيقة الصلة بالوجود العربي الإسلامي في الأندلس الذي استمر تسعمئة عام امتدت من عام 92هـ/ 711م الذي دخل فيه المسلمون الأندلس، إلى أن خرجوا منها في الفترة 1609-1614. فقد عاش عرب الأندلس ومسلموها فتح أميركا في إسبانيا، واستمروا مواطنين إسبانًا مدة قاربت القرن بعد الفتح[7].

خلفية تاريخية مختصرة لـ "الفتح" الإسباني لأميركا

في عام 1492، استولى الملكان فيرناندو وإيزابيلا، ملكا أراغون وقشتالة اللذان وحدا مملكتيهما بزواجهما، على مملكة غرناطة، آخر ممالك المسلمين الأندلسية. وفي السنة نفسها وصل كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus إلى أميركا صدفة، وكان قاصدًا

1 في هذه الدراسة، كلمة "فتح" تقابلها كلمة Conquest في المصادر التاريخية الإنكليزية، وكلمة Conquista في المصادر الإسبانية. فالدراسة تقارن بين نسختي نمط محدد من أنماط الخطاب التاريخي، هو "خطاب الفتح" Discourse of conquest لدى الإسبان في بداية العصر الحديث والعرب في العصور الوسطى. ولأن اهتمام الدراسة يتركز على البحث في تشابه عناصر قصتي فتح أميركا وفتح الأندلس، فإنها غير معنية بتحديد ما إذا كانت سيطرة الإسبان على أميركا تعتبر فتحًا، أم غزوًا أم حتى "لقاءً" Encounter، كما يفضل بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين تسمية ما جرى. فالبحث في مدى تطابق النصوص ومفاهيمهما مع وقائع الماضي ليس جزءًا من تحليل الخطاب هنا.

2 Francisco López de Gómara, *Cortés, The Life of the Conqueror by his Secretary*, Lesley Byrd Simpson (Trans., ed.) (Berkely & Los Angles: University of California Press, 1966), p. xvi.

3 David A. Brading, *The First America: The Spanish Monarchy, Creole Patriots and the Liberal State 1492 - 1876* (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), p. 46.

4 Antonio De Solis, *History of the Conquest of Mexico by the Spaniards*, Thomas Townsend (trans.), vol. 1 (London: John Osborn, 1738), p. 457.

5 William Robertson, *The History of America*, vol. 3 (London: W. Strahan, 1739), pp. 3 - 5.

6 Mathew Restall, *Seven Myths of the Spanish Conquest* (Oxford: Oxford University Press, 2003), p. 12.

7 اتفق معظم النصوص العربية على أن دخول الأندلس كان في عام 92هـ، واختلفت في الشهر، فيقول ابن عبد الحكم إنه كان في شعبان، انظر:
Ibn Abd-El-Hakam, *History of the Conquest of Spain*, John Harris Jones (ed.) (Guttenberg-London: John Harris Jones, 1858), p. 9;
بينما يقول ابن القوطية إنه كان في رمضان من ذلك العام، انظر: أبو بكر محمد بن عمر بن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس** (القاهرة: دار الكتاب المصري؛ بيروت: دار الكتاب اللبناني 1989)، ص 33.

الهند، بعد أن شارك في الحرب ضد مسلمي غرناطة، جنديًا في الحملة الصليبية[8]. وبناء على وصول كولومبوس أميركا، طلب ملك إسبانيا من البابا أن يمنحه تلك القارة، معتمدًا على ما سماه الأوروبيون حق (الاكتشاف) الذي كان يتطلب تقديم قصة، تثبت الوصول إلى ما يعتبرونه "أرضًا جديدة". فأصدر البابا، ألكسندر السادس Alexander VI (1431-1503)، في الرابع من أيار/ مايو 1493، براءة بابوية Papal Bull، منحت أميركا لإسبانيا. وقسّم المرسوم أراضي العالم التي اعتبرها الأوروبيون "جديدة" بين البرتغال وإسبانيا، أقوى دولتين أوروبيتين آنذاك، فمنح الأراضي الواقعة إلى الغرب من خط الطول 100 لإسبانيا، والبلاد الواقعة شرقه للبرتغال.

بعد ذلك تدفق المهاجرون الإسبان إلى أميركا، فكثرت أعدادهم فيها. وفي أول نيسان/ أبريل 1520 وصلت رسالة من قائد إسباني لم يكن معروفًا آنذاك، اسمه هرنان كورتس، إلى كارلوس الأول، ملك إسبانيا، تشارلز الخامس (1500-1558)، المسمى "شارلكان" في المصادر العربية، يخبره فيها بأنه "اكتشف" في عام 1519، داخل قارة أميركا، بلدًا يسميه سكانه يوكاتان Yucatan[9]، وأطلق عليه الإسبان اسم "إسبانيا الجديدة"، وهو دولة المكسيك الحالية، ثم وصلت رسالة ثانية من كورتس في آب/ أغسطس 1521، تخبر الملك بأنه تمكن من فتح ذلك البلد الذي يسكنه شعب يسمى الأزتك Aztecs. وبفضل تلك الرسائل التي حكى فيها كورتس لملك إسبانيا قصة الفتح، وأرسل معها شيئًا من الذهب والفضة، بوصفه خراج المملكة المفتوحة، أجازه الملك حاكمًا على المكسيك في عام 1522. وبتلك القصة تغيرت نهائيًا أوضاع قارة كاملة، ثم تغيرت أوضاع العالم ككل؛ إذ انطلق بعدها تنافس محموم بين بلاد غرب أوروبا لغزو العالم، واستمر ذلك طوال العصر الحديث. من هنا تتخذ القصة أهميتها في تاريخ العالم الحديث.

الأطر النظرية والمنهجية والموضوعية

تكمن أهمية البحث عن المصادر التاريخية لخطاب فتح أميركا في جوانب عدة، أولها أنه الخطاب الذي صاغ المفاهيم، وبرر الممارسات التي تحققت بها السيطرة الأوروبية على العالم في العصر الحديث. فبحسب قول المؤرخ ماثيو رستال، استندت ادعاءات الأوروبيين، حول حقهم في نشر حضارتهم، إلى "أسطورة التفوق الإسباني التي تشكل جزءًا من الأسطورة الأكبر حول الامتياز الأوروبي، وتشكل نواة الأيديولوجيات العرقية التي أسست للتوسع الاستعماري منذ أواخر القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين"[10].

وتسهم دراسة خطاب تاريخ فتح أميركا في معرفة الكيفية التي تطور بها خطاب الفتوح الأوروبية الحديثة، وكيف جعل من شعوب العالم وأراضيها وثرواتها موضوع وصف، يتيح للأوروبيين السيطرة عليها. وتوضح مقدار مساهمة هذا الخطاب في تطوير نظام المعرفة الغربية المعاصر، القائم على التمييز بين الأمم الغربية، باعتبارها ذات "مجتمعات حديثة"، والأمم غير الأوروبية المعتبرة "مجتمعات تقليدية". فبابتكار مرحلة تاريخية، تسمى "الحداثة"، أمكن إعادة إنتاج التمييز القديم بين الأوروبيين وغير الأوروبيين الذي اصطُنِع في (عصر الاكتشاف) على أسس عنصرية، فأُعيد إنتاجه في معرفة تاريخية تتلبس ثوب العلم والموضوعية. أما بالنسبة إلى الأمم غير الأوروبية، فتتمثل أهمية خطاب الفتوح الأوروبية في أنه غرس في الشعوب التي غزَوْها استعدادات الخضوع للغزاة، فزودها بصورة سالبة

8 كان كولومبوس ضمن القوات الصليبية التي حاصرت مسلمي مدينة "بازا"، حتى استسلموا عام 1489، ضمن الحملة على غرناطة، وشهد واقعة استسلامها أيضًا، انظر مقالة عباس حمداني "الإطار الإسلامي للرحلات الاستكشافية"، في: سلمى الخضراء الجيوسي (محرر)، **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، ج 2 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998)، ص 199؛ وعن حضوره مراسم تسليم مفاتيح غرناطة للملك الإسبان، بواسطة السلطان أبي عبد الله الصغير، خاطب كولومبوس الملك، قائلًا في يومياته: "في اليوم الثاني من يناير، في مدينة غرناطة العظمى، شاهدت الرايات الملكية لفخامتكم ترفع عنوة على أبراج الحمراء، قلعة المدينة. ورأيت ملك مسلمي إفريقيا يخرج إلى بوابة المدينة، ويقبل اليدين الملكيتين لمعاليكم..."، انظر:
Christopher Columbus, *The Log*, Robert H. Fuson (trans.) (Camden-Maine: International Marine Publishing, 1992), p. 51.

9 أرسل كورتس رسالته في العاشر من تموز/ يوليو 1519، إلى الملكة جوانا وابنها الإمبراطور تشارلز الخامس، فتأخرت، ووصلت في التاريخ المذكور، انظر:
Hernando Cortés, *Letters from Mexico*, Anthony Pagden (trans.) (New Haven & London: Yale University Press, 1986), pp. 3 - 46.

10 Restall, p. xix.



عن نفسها، باعتبارها مجتمعات عاجزة. فقد تبنت النخب الوطنية التي تلقت تعليمًا غربيًا تلك القصص التي تصطنع صورة خارقة للغزاة الأوروبيين، بوصفهم متفوقين حضاريًا، وأشاعتها بين أجيال المواطنين التالية، عبر مؤسسات التعليم والثقافة الحديثة، فرسخت لديها ثقافة تبعية من الصعب تغييرها اليوم، إلا بجهد كبير.

تستهدف الدراسة إبراز الدور المهم للمعرفة التاريخية العربية في نقد مركزية التاريخ الأوروبي الحديث. وهو نقد يتطور اليوم في مناطق متعددة من العالم، أهمها أميركا اللاتينية[11]. فالخروج من المنظور التاريخي التخصصي الضيق الذي يبحث في جزئيات مشتتة من حقب الماضي، إلى منظور شامل يُعيد التفكير في القضايا المعاصرة، مثل نشأة الحضارات، وتاريخ العصر الحديث، ودور المعرفة في السيطرة على الشعوب، لا يجد اهتمامًا كبيرًا من المعنيين بدراسة التاريخ العربي. فتحاول هذه الدراسة لفت النظر إلى قدرة الدراسات التاريخية العربية على إغناء هذا الجهد المتنامي اليوم في بلاد الجنوب[12].

من ناحية اصطلاحية، يُقصد بتعبير فتح أميركا مجموع عمليات الغزو والسيطرة التي تمت في الفترة 1520-1535، وغُزيت فيها مملكة الأزتك في المكسيك، ومملكة الإنكا Inca في بيرو، وممالك أخرى. فبعد كورتس أرسل إسبان آخرون من أميركا رسائل إلى الملك، تضمنت قصصًا مشابهة حول فتحهم ممالك مجاورة للمكسيك، فصاغ الإخوة بيزارو قصة فتح مملكة بيرو، وكتب الإخوة ألفارادو قصة فتح غواتيمالا. ويُتخذ فتح المكسيك المثال الأبرز لفتوح أميركا، وهذا هو المعنى الذي يُستخدم به هذا التعبير في الدراسة الحالية. فحيثما ورد فيها تعبير "فتح أميركا"، أو "فتح المكسيك"، فإن كلًا منهما يحيل إلى الآخر. والفرق أن الأول يلائم وصف الصورة العامة للفتح، بينما يلائم الثاني الوصف التفصيلي لأحداثه، فليس ثمة فرق كبير بينهما.

والسؤال الرئيس الذي تطرحه هذه الدراسة: ما مصادر المعرفة التاريخية التي تطورت ضمنها قصة فتح أميركا، ومنحتها مكانة مركزية في خطاب الفتوح الأوروبية الحديثة؟ والإجابة المفترضة هي إن المعرفة التاريخية العربية التي تطورت في الأندلس، خاصة تلك التي تناولت حادثة فتحها، شكلت المصدر الأساس للمخيلة التاريخية الإسبانية التي صاغت قصة فتح أميركا. وهذه الفرضية التي تقوم على مسلمة مضمونها أن المعرفة التاريخية تسهم في إنتاجها مخيلة وذاكرة جماعيتان، تبررها ملاحظتان الأولى تاريخية، والثانية اجتماعية. فمن الناحية التاريخية، غلب على القرن السادس عشر الذي كُتب فيه تاريخ فتح أميركا انشغال إسباني بتصاعد النفوذ الإسلامي الجديد، متمثلًا بظهور أساطيل الأتراك العثمانيين في حوض البحر الأبيض المتوسط، فحينها كان مسلمو الأندلس ما زالوا يعيشون في إسبانيا ولم يتم إخراجهم بعد، وهو ما هدد بثورات داخلية، تدعمها الجيوش التركية التي سيطرت على الساحل الجنوبي للمتوسط، فغزت مصر في عام 1517، ثم الجزائر في عام 1518، أي قبل سنة واحدة فقط من غزو إسبانيا أميركا. فهددت تركيا السواحل الجنوبية لإسبانيا والبرتغال أيضًا؛ لأنها كانت تنافس البرتغال في فرض النفوذ على منطقة المحيط الهندي، فاحتلت اليمن، مقتربة من الهند[13]. والملاحظة الثانية هي أن معرفة المجتمعات بذاتها، وتصورها لتاريخها، يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بمخيلتها الجماعية التي تلهم طرق تعاملها مع الآخرين. ولأن الثقافة الأندلسية بقيت في شبه جزيرة أيبيريا مدة تقارب الألف عام، فإنها استمرت حتى بعد إخراج المسلمين في عام 1614؛ لأن الثقافة ليست متاعًا منقولًا يحمله أصحابه معهم، فظلت تأثيراتها في مخيلة الإسبان، وذاكرتهم التاريخية، باقية مدة طويلة، تجاوزت فترة كتابة قصة فتح أميركا.

11 أكثر الاتجاهات الفكرية المعاصرة تمثيلًا لهذا التوجه هو مشروع فض الكولونيالية De-coloniality Project، انظر الكتاب الآتي:
Walter D. Mignolo & Arturo Escobar (eds.), *Globalization and the Decolonial Option* (New York: Routldge, 2010).

12 للاطلاع على نموذج بالعربية لنقد التاريخانية الغربية من منظور غير تمركزي، انظر مقالة: إنريك دوسل، "ما بعد المركزية الأوروبية - النظام العالمي وحدود الحداثة"، في: فردريك جيمسون وماساو ميوشي (محرران)، **ثقافات العولمة**، ترجمة ليلى الجبالي (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004).

13 لم تكن تركيا غائبة عما يسميه الأوروبيون "عصر الاكتشاف"، ولتعرف وجهة نظر حديثة حول هذا الموضوع، انظر الفصل الأول في: جانكارلو كازالي، **رُيّاس البحر الهندي: عصر الاستكشاف العثماني**، ترجمة مصطفى قاسم، سلسلة عالم المعرفة 463 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2018).

أما المنهج المستخدم، هنا، في تحليل الخطاب التاريخي، فمنهج عابر للنظم Trans-Disciplinary Approach، يزاوج، نقديًا، بين التاريخانية النقدية وما يسمى في دراسة الخطاب التاريخي المعاصرة "دراسة التوبوي" Study of Topoi، ويُقصد به "تحليل الثيمات المعاودة" Analysis of Recurring themes؛ لاستخلاص منظومة العناصر السردية التي يتكرر ظهورها في النصوص التاريخية المختلفة. فمنذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين، تطورت البحوث في الطابع السردي في المجالات المتاخمة للأدب، خاصة الأسطورة والتاريخ. فكان الناقد نورثروب فراي أول من ربط الدراسة الأدبية بالمعرفة السردية، مبينًا تحكّم أساليب أدبية معينة في تنظيم المعرفة السردية الغربية[14]. وبعده ميز هايدن وايت بين الحبكة plot والقصة Story، في تحليل أجراه على عينة معتبرة من نصوص المؤرخين. فأوضح تطابقها مع أجناس أدبية مختلفة، مثل الملهاة والمأساة والرواية[15]، فحقق نقلة مهمة في ميدان التاريخانية Historiography، مرتئيًا أن مهمة المؤرخين هي إنتاج قصة تفسر تعاقب أحداث معينة، مع تحكم عدد محدود من الأنماط السردية فيها.

أما تحليل الثيمات المعاودة الذي طوره الباحث الألماني المتخصص بالدراسات الإسلامية، ألبريخت نوث، في دراسته لنصوص المؤرخين المسلمين، فيقوم على رأي مضمونه أنهم كانوا يستعيدون عناصر سردية من نصوص قديمة حين يحتاجون إدراج حدث في نصوصهم، وليس لديهم معلومات كافية عنه؛ لشغل الفراغ الذي قد يسببه إهمالهم للحدث[16]. ثم استخدم توماس زيقوريتش المقاربة ذاتها لدراسة النصوص التي صاغ بها المؤرخون المسلمون صورًا إيجابية للفاعلين الاجتماعيين، مثل المصلحين والمتصوفة، وأيضًا الفاتحين[17]. وتظهر جدوى هذه المقاربة في قدرتها على استقصاء العلاقات بين الخطابات المتماسة على مدى حقب طويلة، كما في حال خطابي فتوح شمال المتوسط وجنوبه المدروسين هنا. ولقلة دراسات الثيمات المعاودة في نصوص الفتوح الإسلامية، عند الباحثين الغربيين والعرب أيضًا، فإن أمثلته المتوافرة قليلة جدًا. ومن القلة التي طبقته نيكولا كلارك التي لخصت مواقف الباحثين الغربيين من تاريخ الإسلام المكتوب بالعربية، في موقفين أحدهما يقلل من قيمته، والآخر يمنحه قيمة في حدود معينة[18].

فكثير من الباحثين الغربيين يعتبرون الطابع التكراري للنصوص التاريخية العربية مانعًا من اتخاذها مصدر معرفة تاريخية، لأنها، بحسب قول أحدهم، "تخاطبنا عن طريق القصص المستعادة والسرديات المجردة [...]، وأنها مغرقة في الخيال"[19]. ويرى آخر أن تواريخ الفتوح "يمكن اختزالها إلى حقائق محدودة ذات طبيعة عامة وحسب، وأن تفاصيل الأحداث، وآراء من تنسب إليهم معايشتها، لا تضيف شيئًا"[20]. وهذا موقف يستبطن تمييزًا مسبقًا بين المعرفة التاريخية العربية - باعتبارها لا تستحق صفة المعرفة العلمية؛ لأنها تقوم على استعادة الثيمات - والمعرفة الغربية التي اعتبروها ذات طابع علمي، على الرغم من أنها لا تقل اعتمادًا على الثيمات المعاودة، كما سيوضح التحليل الآتي لخطاب فتح أميركا.

---

14 حدد فراي أربعة أنماط سردية: الرومانسي، والتراجيدي، والكوميدي، والمفارقة. وربطها بفصول السنة الأربعة في الفصل الأول من:
Northrop Frye, *Anatomy of Criticism: Four Essays* (Princeton & Oxford: Princeton University Press, 2000).

15 Hayden White, "Interpretation in History," *New Literary History*, vol. 4, no. 2, On interpretation: II (Winter 1973), pp. 295 - 297.

16 Albrecht Noth, *The Early Arabic Historical Tradition: A Source Critical Study* (New York: Darwin, 1994).

17 Thomas Sizgorich, *Violence and Belief in Late Antiquity: Militant Devotion in Christianity and Islam* (Pennsylvania: University of Pennsylvania Press, 2009), p. 217.

18 تأخذ نيكولا كلارك مثالًا للتوجه الأول باتريشيا كرون Patricia Crone التي ترى أن النصوص العربية تعكس مشاغل القرنين التاسع والعاشر الميلاديين التي كتبت فيها، وليس أحداث القرن السابع الذي هو موضوعها، فتعتبرها تزييفًا لما جرى؛ لكونها تستعيد أحداثًا من الماضي لتفسر بها أحداثًا جديدة. وترى نيكولا أن ستِفان لدر Stefan Leder يمكن تصنيفه أيضًا إلى جانب باتريشيا. انظر مقدمة الكتاب الآتي:
Nicola Clarke, *The Muslim Conquest of Iberia: Medieval Arabic Narratives* (New York: Routledge, 2012).

19 انظر مقدمة الكتاب الآتي التي تقدم مسحًا مختصرًا لهذا النوع من وجهات النظر:
Shoshan Boaz, *The Arabic Historical Tradition and Early Islamic Conquests: Folklore, Tribal Lore, Holy War* (New York: Routledge, 2016).

20 Ibid., p. 4.

العناصر السردية في تاريخ فتح الأندلس المستعادة في تاريخ فتح أميركا

بما أن موضوع الدراسة هو استخلاص مصادر قصة فتح أميركا، كما صاغها المؤرخون الغربيون، فستورد عناصرها أولًا، ثم يُورَد ما يوازيها من عناصر فتح الأندلس[21]. وهي تمر بأربع مراحل، تحقق كل منها نقلة مهمة في مسارها، وتتميز عناصر المرحلتين الأولى والثانية بأنها تستهدف التمهيد لوقوع الفتح، فالمرحلة الأولى تؤكد تفوق الغزاة بقدراتهم العقلية ورقيهم الحضاري، والمرحلة الثانية تؤكد انحطاط الروح المعنوية لأهل البلد. فالمرحلتان تهيئان قارئ القصة لتلقي صورة الغزاة بوصفهم كائنات استثنائية ذات أفعال إيجابية، وتصور المواطنين عاجزين عن الفعل. وبذلك تُعِدّ لانطلاق المرحلة الثالثة التي يبدأ فيها الفتح، على مستوى الأفعال الرمزية، لتتبعه المرحلة الرابعة التي ترصد الأفعال العملية، فتكتمل في نهايتها سيطرة الإسبان على العاصمة مكسيكو. ولمحدودية المجال المسموح به للدراسة، تكتفي بمقارنة تفصيلية لعناصر المرحلة الثالثة في القصتين؛ لقلة عددها، مقارنة بالمراحل الأخرى. وتورد، باختصار، واحدًا، فقط، من عناصر المرحلة الأولى، وهو العنصر الوحيد الذي لاحظ مؤرخون عرب وجوده في القصتين، وهو "حرق السفن" الذي يُقدِمُ به قائدا الفتحين، طارق بن زياد وكورتس[22].

فبعد مدة قليلة من نزول الجنود الإسبان سواحل المكسيك، تمرد بعضهم؛ لأن كورتس صار يتصرف بما لم يفوضه فيه قائده المباشر، حاكم كوبا، فطالبوا بالرجوع. وتقول نصوص مؤرخي الفتح إن كورتس حسم التمرد بعبقرية نادرة، فقد شرح في رسالته للملك ما فعله قائلًا: "لمعرفتي بأن السفن إذا ما بقيت هناك فستنشب ثورة، وأنه بمجرد ذهاب الراغبين في الرجوع فإنني سأبقى وحيدًا، وأن كل ما تم تحقيقه، باسم الله وباسمكم، سيكون عرضة للزوال، ابتكرت خطة أعلنت بموجبها عدم صلاحية السفن للإبحار، وقمت بإغراقها Grounded them، ففقدوا كل أمل في الهرب، وتقدمت آمنًا"[23]. ثم أضاف برنال دياز (1496-1584) الذي كان جنديًا في حملة الفتح، وكتب تاريخًا لها: إن كورتس، بعد أن دمر السفن، خطب في جنوده، قائلًا: "إننا قليلو العدد وليس لنا أن ننتظر أملًا ولا عونًا إلا من الرب، فلا سفن لدينا تعيدنا إلى كوبا، ولا مفر من الاعتماد على سيوفنا وصلابة قلوبنا"[24]. أما المؤرخ سرفانتس سالازار، فيقول: إن كورتس أحرق سفنه، ولا يتبنى ما قرره كورتس ورفيقه دياز من أن السفن تم إغراقها. وكتب مؤرخ إسباني آخر، هو جوزيف أكوستا (1540-1600)، مؤكدًا ما أشاعه سالازار عن أن كورتس "حرق سفنه وبقي محاطًا وسط أعدائه، لينتصر أو يموت"[25].

من جهتها أوردت النصوص العربية أن ابن زياد حين نزل ساحل الأندلس لم يأمنه العرب، هو وجنوده؛ لأنه أخذ يتصرف من دون إذن حاكم المغرب، وقائده المباشر موسى بن نُصير، فطالبوا بالرجوع إلى المغرب. وليتجنب ابن زياد ذلك، حرق كل سفن الحملة، بحسب بعض المؤرخين[26]، ثم خطب فيهم حاضًّا إياهم على النصر، أو الموت دونه، فتوحد الجنود، وعزموا على ملاقاة جيش الفيزيقوط الذين

21 خلافًا لنصي ابن عبد الحكم وابن حبيب المكتوبين في القرن التاسع الميلادي، ونص ابن القوطية المكتوب في القرن العاشر الميلادي، كُتب بعض النصوص العربية المعتمد عليها هنا بعد القرن الحادي عشر الميلادي، لكن معظم مادتها التاريخية مأخوذة من نصوص القرنين التاسع والعاشر.

22 أشار إلى هذا التماثل، بطريقة عابرة، محمد عبد الله عنان، انظر: محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس: من الفتح إلى عهد الناصر** (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1988)، ص 49.

23 Cortés, p. 52.

24 Bernal Díaz, *The Conquest of New Spain*, John M. Cohen (trans.) (Harmondsworth: Penguin, 1963), p. 131.

25 Joseph de Acosta, *The Natural & Moral History of the Indies*, Edward Grimestone (trans.), Clements Robert Markham (ed.), vol. 2 (London: The Hakluyt Society, 1880), p. 520.

26 يرى عبد الحليم عويس أن إحراق طارق سفنه لم يرد عند مؤرخي المدرسة المصرية، مثل ابن حبيب، ولا عند مؤرخي المدرسة الأندلسية، مثل ابن القوطية وابن عبد الحكم، وأنه ورد عند الإدريسي ومعاصره ابن الكردبوس، فحسب، وأن الحميري المتأخر عنهما نقل الخبر عن الإدريسي، انظر: عبد الحليم عويس، **قضية إحراق طارق بن زياد للسفن بين الأسطورة والتاريخ** (القاهرة: دار الصحوة للنشر، 1987)، ص 6-7.

كانوا يحكمون الأندلس آنذاك. ورد ذلك عند عدد من المؤرخين، أبرزهم الحميري، في سياق وصفه لجبل طارق، فقال: "وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبد الله لما جاز بالبربر الذين معه تحصن بهذا الجبل. وقدّر أن العرب لا ينزلونه، فأراد أن ينفي عن نفسه التهمة، فأمر بإحراق المراكب التي جاز بها فتبرأ بذلك مما اتُّهِم به"[27]. وكتب الإدريسي أيضًا، معرفًا بجبل طارق، "وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبد الله بن ونموا الزناتي، لما جاز بمن معه من البرابر وتحصنوا بالجبل أحس في نفسه أن العرب لا تثق به فأراد أن يزيح ذلك عنه، فأمر بإحراق المراكب التي جاز فيها، فتبرأ بذلك عما اتُّهِم به"[28].

من الواضح أن حادثة حرق السفن في فتح أميركا تماثل حادثة فتح الأندلس مماثلة تامة في كل التفاصيل، ففي القصتين يتمرد على القائد بعض جنوده؛ لأنه يتصرف من دون إذن الحاكم العام، رئيسه المباشر؛ وليحسم أمر التمرد، يقوم القائد بعمل انتحاري، فيدمر سفن الحملة. وتقول بعض نصوص مؤرخي القصتين أنه يحرقها، ثم يخطب في المتمردين؛ أنه لم يبق سبيل للنجاة سوى النصر، فيتوحدون، ويتوجهون إلى غزو المملكة. وعلى الرغم من أن التماثل في النصوص الإسبانية والعربية يبلغ حد التطابق التام؛ لأنه يتضمن كل العناصر (التمرد، وحرق السفن، والخطبة، وتوحد الجنود)، فإن المؤرخين الغربيين يبحثون عن المصدر التاريخي لقصة حرق كورتس سفنه في تاريخ الرومان. فالمؤرخ الأميركي وليام برسكوت (1726-1795) يربطها بحكاية أوردها المؤرخ الإنكليزي إدوارد غيبون Edward Gibbon (1737-1794)، في كتابه "تاريخ تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها"، نسب فيها إلى القائد الروماني يوليان حرق سفنه[29]. وعلى الرغم من أن برسكوت لا يورد مصدر القصة التي نقلها غيبون، فإن حملة يوليان، حتى إن صح حرق سفنه فيها، لا تتضمن تماثلًا مع حادثة حرق كورتس لسفنه؛ لأن وظيفة الثيمة المستعادة لا تتمثل في عنصر واحد، هو الحرق، بل في جملة عناصرها التي تشكل ما يمكن أن يسمى "ثيمة عنقودية" Cluster Theme، وهي تختلف تمام الاختلاف عن وظيفة العنصر المفرد. فالحادثة في فتح المكسيك تتضمن مقدمة لحادثة الحرق، هي التمرد الذي سببه تصرف القائد من دون إذن الحاكم، وله حدث ثانوي هو الخطبة، تتبعه نتيجة هي توحد المتمردين مع الجيش. فهناك خمسة عناصر تتضامن؛ لتحقق الوظيفة الإقناعية الخاصة بالوحدة السردية، وتسهم في صناعة الحقيقة التاريخية. وجميع هذه العناصر توجد مترابطة، بالطريقة ذاتها، في قصة فتح الأندلس وحدها. فمن دون هذا النوع من الترابط المنطقي تصبح الحادثة المعزولة بلا وظيفة داخل القصة. والأهم من هذا، أن حادثة الحرق في قصة حملة يوليان لا ترد في سياق تطابق شامل مع بقية عناصر قصة فتح المكسيك، بخلاف الحال في قصة فتح الأندلس التي تتطابق عشرات من عناصرها السردية مع قصة فتح المكسيك.

تبدأ المرحلة الثالثة بوصول الإسبان إلى مدينة مكسيكو، وكانت تسمى عند المواطنين "تنوتشتيتلان" Tenochtitlan، فاستقبلهم موكتِزوما Moctezuma، ملك المكسيك آنذاك، المعروف باستبداده بمواطنيه، وأحسن ضيافتهم. ويقول المؤرخون إن المكسيكيين استضافوا الإسبان لاعتقادهم بأنهم لا يريدون الاستقرار في مملكتهم، وأنهم سيعودون مكتفين بالحصول على شيء من الذهب. ولأن الذهب لم تكن له قيمة كبيرة عند المكسيكيين، لم يشغلهم ذلك. فكان سوء الفهم هذا من أبرز أسباب انتصار الإسبان؛ كونه أبعد قوة كبيرة من المكسيكيين عن نطاق الدفاع عن بلدهم. وبحسب النصوص الإسبانية، انتبه كورتس إلى هذا منذ البداية، فعمل على دعم اعتقاد المكسيكيين بأنه لا يرغب في الاستيلاء على حكم مملكتهم. فكتب غومارا عن أن كورتس كان يخبر المكسيكيين بأنه جاء ليرد عنهم ظلم الملك موكتِزوما، وأنه سيعود بعد ذلك إلى بلاده، حتى لا يوحدوا قواهم ضده[30]. فظلت قوة المكسيكيين مشتتة ولم يفكروا في محاربته.

---

27 أشار بروفنصال إلى وجود تعبير آخر بدلًا من "لا ينزلونه" في نسخة أخرى من مخطوط الحميري، وهو "لا يثقون به". وهو أوضح في المعنى، ويطابق اللفظ الذي أورده الإدريسي الذي أخذ عنه الحميري، انظر: أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري، **صفة جزيرة الأندلس**، تحقيق لافي بروفنصال، ط 2 (بيروت: دار الجيل، 1988)، ص 75.

28 محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ج 2 (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002)، ص 540.

29 William Prescott H, *History of the Conquest of Mexico*, vol. 1 (Philadelphia: J. B. Lippincott Company, 1873), p. 368.

30 Diego Durán, *History of the Indies of New Spain*, Doris Heyden (Trans.) (Norman: Oklahoma University Press, 2009), p. 548.

في فتح الأندلس، نسبت النصوص العربية التصرف نفسه إلى نبلاء الفيزيقوط الذين كانوا يشكلون طبقة القادة العسكريين في البلد، وحكام مقاطعاته؛ إذ تقول إن من أسباب انتصار المسلمين اعتقاد زعماء الفيزيقوط أن طارقًا لا يريد الاستيلاء على الحكم، وظنوا أنه سيكتفي بالغنائم، ويعود إلى حيث أتى، فلم يفكروا في محاربة المسلمين ومساندة ملكهم الذي تسميه المصادر العربية "لودريق" بينما تسميه المصادر الإسبانية "رودريغو" Rodrigo[31]. ومن جهته، أدرك طارق أهمية تثبيت اعتقاد زعماء الفيزيقوط بأنه لا يريد الاستيلاء على بلدهم، فكان يطمئنهم بأنه سيعود إلى إفريقية، بعد أن يعينهم على التخلص من ظلم ملكهم الذي عُرف باستبداده. فقد كتب ابن عذارى عن خذلان نبلاء الفيزيقوط لملكهم لودريق، قائلًا: "فلما دخلت العرب والبربر مع طارق، أسلمته [لودريق] النصرانية، وانهزمت عنه"[32]. أما المقري، فيورد ما دار بين نبلاء الفيزيقوط بقوله: "وقال بعضهم لبعض: إن هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا، وليس من أهله، وإنما كان من أتباعنا، فلسنا نعدم من سيرته خبالًا في أمرنا، وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا، إنما مرادهم أن يملؤوا أيديهم من الغنائم، ثم يخرجوا عنا، فهلمّ فلنهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم، لعلهم يكفوننا إياه، فإذا انصرفوا أقعدنا في ملكنا من يستحقه"[33]. يؤكد نص المقري أن عدم مشاركة زعماء الأندلس في الدفاع عن بلدهم كان بتدبير مسبق بينهم، عندما علموا بوصول الغزاة. ومؤخرًا لاحظ مؤرخ معاصر، هو ديفيد لفرنغ لويس، التماثل الواضح بين اعتقاد نبلاء الفيزيقوط واعتقاد نبلاء الأزتك بأن الغزاة سيكتفون بالغنائم، فلم يتصدَّ، لا هؤلاء ولا أولئك، للغزاة، وكان ذلك الاعتقاد الخاطئ سببًا في فتح الأندلس والمكسيك. لكن لويس لم ينتقل من هذه الملاحظة اليتيمة إلى تتبع بقية التماثلات في القصتين[34].

تستمر قصة فتح أميركا قائلة إنه بعد أن استقر الإسبان في العاصمة مكسيكو، بدؤوا يبحثون سرًا عما سمعوا أنه كنز هائل، يضم كنوز ملوك المكسيك السابقين، يخبئه الملك موكتزوما في مكان خفي. وترد الحكاية عند غومارا أولًا، على الرغم من أنها غير موجودة في رسائل كورتس، فقد كتب ساردًا: بينما كان كورتس يتجول داخل قصر موكتِزوما "لاحظ أن أحد الحوائط أكثر بياضًا من غيره. وحين اقترب رأى أنه طُلي بطلاء أبيض حديث، وأنه كان بابًا قبل أن يُسد بالحجر والطين. فنادى خادمين (وكان البقية نائمين لأن الوقت متأخر جدًا) ففتحوه. فدخل ووجد عدة غرف، في بعضها أصنام ومشغولات من الريش وجواهر وحجارة كريمة وفضة وكمية مذهلة من الذهب، وكثير جدًا من الأشياء الجميلة التي أدهشته. فأغلق الباب قدر استطاعته ثم خرج، دون أن يلمس أي شيء حتى لا يلفت انتباه موكتِزوما"[35]. أما برنال دياز، فيحكي الحادثة بطريقة مختلفة عن غومارا الذي نسب اكتشاف الكنز إلى كورتس وحده. فلأن دياز كان جنديًا في الحملة، حرص على إسناد دور الشركاء إلى الجنود في العثور على الكنز. فذكر أنه بينما كان بعضهم يتجول في قصر موكتِزوما، "لفت انتباه اثنين من رجالنا، أحدهم نجار هو ألونسو يانيز، آثار على أحد الجدران دلّت على أنه كان فيه باب يمكن المرور عبره، تم إغلاقه. ولأننا كنا قد سمعنا من قبل أن مونتزوما [موكتِزوما] كان يحفظ كنزه في هذه الغرفة [...] استدعينا كورتس، فنجح في فتح الباب، ودخل أولًا يرافقه بعض القادة، وحينما رأوا كمية الأشياء الذهبية والمجوهرات والصحاف الموجودة في تلك الغرفة صُعقوا تمامًا، ولم يعرفوا ما يفعلونه بتلك الثروة"[36]. أما المؤرخ دييغو دوران، فيقول: "في يوم ما، قاد حب استطلاع الإسبان، ونهمهم للذهب، إلى ما بدا وكأنه باب صغير منخفض، تم حديثًا، وبإغراء من غموضه قاموا بفتحه، وعند مرورهم من الباب وجدوا غرفة واسعة في وسطها

31 مؤلف مجهول، **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة فيها بينهم**، تحقيق إبراهيم الأبياري (القاهرة: دار الكتاب المصري؛ بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1981)، ص 19.

32 أحمد بن محمد بن عذاري، **البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب**، ج 2 (بيروت: دار الثقافة، 1980)، ص 3.

33 أحمد بن محمد التلمساني المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب**، ج 1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 2012)، ص 248.

34 David Levering Lewis, *God's Crucible: Islam and the Making of Europe, 570 - 1215* (New York: Norton, 2008), p. 125.

35 Gómara, p. 169.

36 Diaz, p. 242.

كومة من ذهب ومجوهرات وحجارة كريمة، بارتفاع أقصى طول ممكن لرجل. وقد ضمت كومة من آنية ذهبية وصحافًا مصنوعة على طريقة تلك الشعوب"[37]. وحين أضاف الإسبان هذا الكنز المخبأ إلى الكنز الذي غنموه من حملاتهم على المقاطعات الأخرى، وهم في طريقهم إلى العاصمة مكسيكو، شكل مجموع الكنزين جملة الثروة التي جمعوها من فتحهم للمكسيك.

وفي النصوص العربية عن فتح الأندلس، حصل المسلمون على كنزين أيضًا. أحدهما مخبأ خلف باب، عثر عليه موسى بن نصير حين لحق بطارق في الأندلس، والثاني جمعه طارق من غنائم المدن المختلفة. يورد ابن عبد الحكم خبر كنز موسى في قوله: "حدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا الليث بن سعد قال لما فُتحت الأندلس جاء إنسان إلى موسى بن نصير فقال ابعثوا معي أدلكم على كنز، فبعث معه. فقال لهم الرجل انزعوا هاهنا فنزعوا، قال فسال عليهم من الزبرجد والياقوت شيء لم يروا مثله قط، فلما رأوا تهيبوه وقالوا لا يصدقنا موسى بن نصير فأرسلوا إليه حتى جاء ونظر إليه"[38]. أما الموضع الذي كان الكنز مخبأ خلفه، ونُزع، فلم يورد ابن عبد الحكم تفاصيل كافية عنه من رواية الليث بن سعد. لكن مؤرخًا آخر، هو الذهبي، يورد رواية الليث بن سعد بألفاظ قريبة من نص ابن عبد الحكم، لكنها أكثر تفصيلًا، فيقول: "بعث موسى ابنه مروان على الجيش [...]، ودله رجل على كنز بالأندلس، فنزعوا بابه فسال عليهم من الياقوت والزبرجد ما بهرهم"[39]. هنا يكمل الذهبي ما أهمله ابن عبد الحكم من رواية الليث، وهو أن الكنز كان له باب، أو خلف باب. ويجب ملاحظة أن جنود موسى يعتقدون أنه لن يصدق خبر الكنز، فيرسلون إليه، ويحضر فعلًا ليرى ضخامته. وهذا يطابق تمامًا ما أورده دياز حول تصرف الجنود الإسبان حين عثروا على كنز المكسيك المخبأ خلف الباب، فقال إنهم استدعوا كورتس، فحضر بنفسه ليراه. وهكذا، تتماثل ثيمة الكنز في نصوص مؤرخي فتح أميركا مع ما سبق أن أوردته النصوص الغربية قبل سبعمئة عام من غزو كورتس للمكسيك.

ليس هذا كل شيء فيما يخص الكنز، فالنصوص العربية تؤكد أن كنز طارق احتوى على التركة الثمينة الخاصة بجميع ملوك الأندلس السابقين، والتي ضمت جزءًا من كنز النبي سليمان. فالحميري يعدد محتويات الكنز بقوله: "فمنها مائة وسبعون تاجًا مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة، ووجدوا فيها ألف سيف مجوهر ملوكي ووجدوا فيها من الدر والياقوت أكيالًا وأوساقًا ومن آنية الذهب والفضة، وأنواعها ما لا يحيط به وصف، ووجد بها مائدة سليمان ابن داؤود"[40]. أما المقري، فيقول: "ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة، منها مائة وسبعون تاجًا من الدر والياقوت والأحجار النفيسة، وإيوان ممتلئ من أواني الذهب والفضة. وهو كبير، حتى قيل: إن الخيل تلعب فيه فرسانًا برماحهم، لوسعه. وقد قيل: إن أواني المائدة من الذهب وصحافها من اليشم والجزع، وذكروا فيها غير هذا مما لا يكاد يصدقه الناظر فيه"[41].

ومثلما أكدت النصوص العربية أن الكنز الذي عثر عليه المسلمون كان يضم سيوف ملوك الأندلس السابقين وتيجانهم وثرواتهم، كررت قصة فتح أميركا القول نفسه، فالمؤرخ دوران يزودنا بمعلومات مهمة عن أصحاب كنز المكسيك المخبأ، فقد ضم "الكنوز التي كان يملكها كل الملوك الذين كانوا أسلافًا له [أي لموكتِزوما]، وكانت تودع في تلك الغرفة، ولا يحق للحاكم التالي استعمالها. فحين يموت الملك كانت كل ثروته من الذهب والسلاح وزيه الحربي توضع يوم وفاته في تلك الغرفة وتُحرس، كأنها أشياء مقدسة أو ذات قيمة دينية. وعلى الملك الذي يتولى الحكم أن يبدأ جمع ثروته الخاصة؛ حتى لا يقال إنه يستخدم ما تركه أسلافه، ليبقى الكنز شاهدًا على عظمة مدينة مكسيكو - تنوتشتيتلان"[42]. وهكذا، يتطابق وصف مؤرخي فتح أميركا لكنز كورتس تطابقًا تامًا مع وصف مؤرخي فتح الأندلس لكنزي طارق وموسى، من حيث المكان المخبأ فيه، ومن حيث محتواه الذي ضم تركة الملوك السابقين، ومن حيث وظيفته؛ بكونه سجل تاريخ المكسيك الملكي.

---

37 Durán, p. 532.

38 Ibn Abd-El-Hakam, p. 6.

39 محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج 4 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001)، ص 498.

40 الحميري، ص 131.

41 المقري، ص 159-160.

42 Durán, p. 532.

حتى الآن لم يعثر مؤرخو فتح أميركا في كنز المكسيك على مائدة سليمان التي وُجدت في كنز الأندلس. وهنا يسعف دوران جهود المقارنة، حين يلاحظ أن الإسبان عثروا بين قطع الكنز على تحفة رباعية مميزة، حظيت بانتباههم وإعجابهم، فيقول واصفًا قطع الكنز: "كان أهمها إناء من أربعة صحاف كبيرة، صُنع على هيئة نافورة. وباختصار، احتوت تلك الغرفة أكثر الثروات إثارة للدهشة فيما شوهد على الإطلاق، وقد أخذ الإسبان المذهولون الصحائف دليلًا على وجود تلك الثروات العظيمة"[43]. يقدم دوران وصفًا لأكثر قطع الكنز تميزًا على أنها قطعة رباعية ذات صحاف، وهذا يماثل تمامًا القطعة الفريدة في كنز الأندلس التي سماها المسلمون "مائدة سليمان"؛ لأنها كانت رباعية القوائم، وذات صحاف أيضًا. ولا فرق بين تشبيه المسلمين قطعتهم الأندلسية الرباعية ذات الصحاف بأنها مائدة، وتشبيه الإسبان قطعتهم المكسيكية الرباعية وصحافها بأنها نافورة، فالتشبيه أمر مجازي، والمهم هو وصف الطرفين لهيئة القطعة الرباعية التي تميزت من بقية القطع، فالمسلمون ابتكروا لقطعتهم اسم "المائدة"، وهي لم تكن سوى محراب كنيسة مطعّم بالجواهر[44]. وما جعلهم يعتبرونها مائدة أنهم عثروا معها على عدد كبير من الصحاف الذهبية والكؤوس، وهو ما يقول دوران أيضًا أنه كان مع قطعة كنز المكسيك. أما غومارا فيقول صراحة إن قطعة المكسيك الرباعية كانت مائدة أيضًا، فكتب أن الكنز احتوى "مائدة من الذهب والفضة وصحافًا وكؤوسًا وأوعية من الحجارة الكريمة"[45].

ليبلغ التطابق بين الكنزين حده الأقصى، لا يبقى إلا أن تقول نصوص الإسبان إن كنز المكسيك شبيه بكنوز الملك سليمان، كما فعل المسلمون قبلهم. وهذه المرة يبادر كورتس بنفسه إلى إسعاف المقارنة، فهو يربط كنوز المكسيك بالملك سليمان قبل أن يعثر عليها جنوده، ما يرجح أن ذلك الربط مصدره معرفة قديمة، سابقة على فتح أميركا، تسكن ذاكرة الإسبان الجماعية. ففي الرسالة الأولى إلى ملك إسبانيا التي نقل فيها كورتس خبر نزوله ساحل المكسيك، شبه ثروة المكسيك بكنوز سليمان، قبل أن يبدأ السير إلى الداخل. فنقل إلى الملك ما سمعه عن ثراء مدينة مكسيكو بالذهب والجواهر بقوله: "سنحاول أن نرى ونعرف سر هذه الأشياء التي سمعنا عنها، بحيث يمكننا تزويد معاليكم بتقرير حقيقي، وكذلك الحال في ما يخص الذهب والفضة والحجارة الكريمة التي يمكن لمعاليكم الحكم عليها، بحسب العينات التي سنرسلها لكم. في نظرنا لا يمكن الشك في أنه يجب أن يكون منه في هذه الأرض ما يساوي حجم ما أخذه سليمان من المنطقة التي يقال إنه حصل منها على ذهب المعبد"[46]. ومن جانبه أكد المؤرخ الأميركي برسكوت أن الفاتحين الإسبان شبهوا كنز المكسيك بكنز الملك سليمان[47]. وهكذا، تتطابق كل عناصر الكنز الذي يشكل أيضًا ثيمة عنقودية أشد تعقيدًا وتشعبًا من ثيمة حرق السفن.

أخيرًا، يضيف غومارا عنصرًا مهمًا مكملًا لكنز المكسيك، ليزيد مقدار تماثله مع كنز الأندلس. فيقول إن ملك إسبانيا تلقى من كنوز المكسيك: "حجارة كريمة كثيرة بينها زمردة رائعة بحجم قبضة اليد مربعة ولها قمة مثل الهرم"[48]. فيضيف إلى مائدة المكسيك قطعة مميزة أخرى هي درة كبيرة، نادرة المثال. وعند مؤرخي الأندلس أيضًا كانت أهم قطع الكنز، بعد المائدة الذهبية ذات الصحاف، جوهرة كبيرة نادرة، سماها بعضهم "يتيمة الدر"، إشارة إلى عدم وجود مثيل لها، وذكر الحميري "قليلة الدر"[49].

لا بد من ملاحظة أن تماثل وصف النصوص العربية لكنز الأندلس مع وصف النصوص الإسبانية لكنز المكسيك لا يقف عند كونهما مخفيين خلف باب خفي، ويضمان ثروات الملوك السابقين، وأنهما وُجدا في غرفة واسعة، ويضمان مائدة رباعية ذات صحاف،

---

43 Ibid.

44 تقول مصادر عربية أن تلك القطعة كانت محراب كنيسة طليطلة، رباعي القواعد ومزينًا بالذهب والجواهر، وتورد قولًا آخر بأنها مذبح، انظر: الجيوسي، ص 60.

45 Gómara, p. 296.

46 Cortés, p. 29.

47 William H. Prescott, *History of the Conquest of Mexico*, vol. 2 (Paris :Baudry's European Library, 1844), p. 361.

48 Gómara, p. 296.

49 الحميري، ص 5.

ودرة نادرة المثال، وأنهما يرتبطان بكنوز الملك سليمان، فالتماثل يفيض عن هذا الحد؛ لأن أنماط سلوك الفاتحين تجاه الكنزين تتشابه أيضًا. فمثلما قال المؤرخون المسلمون أن طارق بن زياد استولى سرًا على جزء من مائدة سليمان، فكسر إحدى قوائمها وأخفاها عن موسى ليتخذها دليلًا على أنه الذي عثر عليها، وليس موسى بن نُصير، الذي أخذها منه[50]، يقول المؤرخون الإسبان إن جنود كورتس استولوا أيضًا على جزء من مائدة كنز المكسيك، وهو صحافها. فقد ذكر دوران ضمن ما سبق اقتباسه حول القطعة الرباعية ذات الصحاف: "أخذ الإسبان المذهولون الصحائف دليلًا على وجود تلك الثروات العظيمة"[51].

لا توضح قصة فتح أميركا وظيفة هذا الدليل، بخلاف وظيفته المهمة في صراع موسى وطارق، غير أن المهم عند الإسبان أن يكون الجزء المأخوذ من مائدة المكسيك "دليلًا" أيضًا، مثلما هو دليل في قصة فتح الأندلس.

يُلاحظ أن المواجهة بين الغزاة وأهل المملكة تدور، في قصتي الفتحين، طوال هذه المرحلة الثالثة، على مستوى الأفعال الرمزية فحسب. فمن جهة الفاتحين يبدأ الغزو بعمل رمزي يعبر عن تصميمهم على الفتح، فيدمرون سفنهم، ثم يلقي قائدهم خطبة تحسم أمر التمرد. وبحديثه أيضًا يضلل زعماء المملكة فيقنعهم بأنه لا يريد البقاء في بلدهم. وكذلك يستولي الغزاة على كنز له قيمة رمزية، إلى جانب قيمته المادية، فالكنز المخبأ يضم تركة الملوك السابقين الدالة على استقلال المملكة السياسي، وسيادة ملوكها. وبعد هذه المرحلة المعتمدة على الأفعال الرمزية، تندلع مواجهة عسكرية بين الطرفين في المرحلة الرابعة، فيستولي في نهايتها الغزاة الإسبان على العاصمة مكسيكو، بمجموعة أفعال تطابق أيضًا الأفعال التي أوردتها النصوص العربية عن فتح الأندلس. والمثال على ذلك هو الحدث الختامي الذي تحقق به النصر الحاسم للإسبان، وبه اكتمل الفتح، وهو اعتقال ملك المكسيك، ثم قتله. ويمكن إيراده هنا باختصار؛ إذ لا تكتمل من دونه قصة فتح أميركا.

فبعد أن حاصر الإسبان العاصمة مكسيكو مدة طويلة، عجز أهلها عن الدفاع عنها؛ لفقدهم الرجال والغذاء والماء. وعندما تأكد لملك المكسيك كواوتموك Cuauhtémoc الذي تولى حكمها بعد موت موكتِزوما قرب سقوط عاصمته، حاول الهروب منها. لكن الإسبان تمكنوا من القبض عليه؛ لأنه بدلًا من أن يخفي نفسه خرج إلى القناة المائية المحيطة بالمدينة في موكب من الزوارق، تميز زورقه بينها بزينة ملكية فاخرة، وجلس داخله على عرشه الملكي الفخم. فكان المظهر المميز للزورق الملكي سببًا في تعرف الجنود الإسبان إليه، فأسروا الملك. يقول برنال دياز "شاء الرب أن يكون غارسيا هولغين Garcia Holguin من يقبض على زورق كواوتموك الذي بسبب زينته الثمينة وعرشه الملكي، عُرف أنه الزورق الذي يقل ملك المكسيك"[52].

لقد تكررت قصة الزعيم المكسيكي الذي يتسبب في هزيمة جيشه بظهوره في زينته الملكية في مواضع عدة من قصة فتح أميركا، حتى إن بعض المفكرين الغربيين المعاصرين اتخذوا ذلك علامة على عدم فهم شعوب أميركا وظيفة العلامات. فاعتبر المفكر الفرنسي تزفتان تودروف، في دراسة له حول فتح أميركا، استخدم فيها منهجًا سيميولوجيًا، ولقيت رواجًا عالميًا في آخر القرن العشرين، أن المكسيكيين لم يفهموا أن من الممكن استخدام العلامات بطريقة خادعة لتضليل أعدائهم، فاستخدموها لتدل على حقيقة الشيء، والكشف عن طبيعته[53].

---

50 Ibn Abd-El-Hakam, p. 4.

51 Durán, p. 532.

52 Díaz, p. 402.

53 انظر أيضًا رأي المؤرخ أنطوني باغدن Anthony Pagden التي تقارب أطروحة تودروف في مقدمته التي كتبها للكتاب:
Tzvetan Todorov, *The Conquest of America: The Question of the Other* (Norman: University of Oklahoma Press, 1999);
ولترجمة عربية موفقة للكتاب نفسه، انظر: تزفتان تودروف، **فتح أمريكا: مسألة الآخر**، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: سينا للنشر، 1992).

وفي النصوص العربية كان ظهور ملك الفيزيقوط لودريق في ساحة المعركة بزينة ملكية كاملة، وهو محمول على عرشه الكبير الذي وصفه المؤرخون المسلمون بأنه "سرير"، كان سببًا في قتله على يد طارق بن زياد، واكتمال الفتح. فقد كتب ابن الرقيق حول المواجهة الحاسمة بين المسلمين وجيش الفيزيقوط: "وجاز طارق إلى الأندلس [...]، فلما بلغ ملوك الأندلس خبره نفروا إلى الملك الأعظم، وهو لذريق [لودريق] وكان طاغيًا، في جموع عظيمة على دين النصرانية، وزحف إلى طارق في عدة عظيمة، وعاد بسرير من ذهب مكلل بالدّر والياقوت [...]، وحفّت به الرجال وقعد لذريق على سريره، وعلى رأسه تاج وعليه قفازان مكللان بالدر والياقوت وجميع الحلية التي يلبسها الملوك قبله. فلما انتهى إلى الجبل الذي فيه طارق، خرج إليه وجميع أصحابه رجالة ليس فيهم راكب [...] وكان الجبل وعرًا، فكان البربر أسرع منهم على أقدامهم فسبقوهم إلى خيلهم، وركبوا خيولهم البربر، ووضعوا فيهم السيف، وأبادوهم، ولم يرفعوا عنهم السيف ثلاثة أيام ولياليها"[54]. كما هو واضح، تكرر قصة القضاء على ملك المكسيك حادثة القضاء على ملك الأندلس نفسها؛ بسبب إظهاره زينته بدلًا من التخفي عن أعين الغزاة.

لا يقف التطابق بين نهاية قصتي فتح أميركا وفتح الأندلس عند حادثة القضاء على الزعيم؛ بسبب زينته، فبحسب مؤرخي فتح أميركا، حينما قبض غارسيا هولغين على ملك المكسيك نازعه فيه قائده المباشر، غونزالو ساندوڤال Gonzalo de Sandoval، مدعيًا أنه القائد الذي يعمل هولغين تحت إمرته، وأن شرف القبض على الملك يجب أن يكون له، وليس لهولغين[55]. وصف دياز ما جرى بقوله: "عندما علم ساندوڤال بالخبر أمر سائق مركبه بالإسراع بأقصى سرعة ممكنة ولحق بهولغين وطالبه بتسليم الأسير. ورفض هولغين طلبه، قائلًا إنه هو الذي قبض على الملك وليس ساندوڤال. فرد ساندوڤال بأن هذا حدث فعلًا، لكنه هو القائد وأن هولغين جندي تحته"[56]. فتصاعد الخلاف بينهما إلى أن رُفع إلى كورتس.

في قصة فتح الأندلس كان الأمر نفسه قد حدث في القبض على الملك الثاني. فبعد أن لحق موسى بن نُصير بطارق، حاصر المسلمون في قرطبة الملك الثاني الذي يلي لودريق في المكانة[57]. وحين اشتدت وطأة الحصار، حاول الملك الهرب سرًا، لكن مغيث الرومي الذي كان تحت قيادة موسى انتبه إلى خروجه، فطارده حتى قبض عليه. فنازعه موسى شرف القبض عليه؛ بدعوى أنه القائد عليه، وما يحققه مغيث يجب أن يُنسب شرفه إليه. وصف صاحب الأخبار المجموعة ما جرى بين موسى ومغيث بقوله: "فبعث إليه موسى هات العلج، فقال والله لا تأخذه وأنا أقدم به على الخليفة، فهجم عليه فنزعه منه"[58]، ولما رأى مغيث إصرار موسى، اقترح عليه حلًا كان ضحيته الملك الأسير، فقال: "أنا أصبته. ولكن أضرب عنقه، ففعل"[59]. وفي فتح المكسيك أيضًا، قُتل ملك المكسيك الثاني كواوتموك، بعد أن دار خلاف حول أسره أيضًا.

بالقبض على الملك كواوتموك وقتله تنتهي قصة فتح أميركا، ويتضح أنها تستعيد معظم عناصر قصة فتح الأندلس، على الأقل في حدود المرحلة الثالثة. ويمكن تلخيص التطابقات التي كشفت عنها هذه الدراسة، بما يلي: تدمير السفن، واعتقاد زعماء البلد برجوع الغزاة، والكنز المخبأ خلف الباب، وتركة الملوك السابقين، والمائدة والدرة النادرتان، والقضاء على الزعيم بسبب زينته الملكية، وأخيرًا،

54 أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم بن الرقيق، **تاريخ أفريقية والمغرب** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1980)، ص 43.

55 Díaz, p. 403.

56 Ibid.

57 سمى صاحب الأخبار المجموعة هذا الملك "ملك قرطبة"، ويقول عنه "فأسره مغيث، ولم يؤسر من ملوك الأندلس غيره"، وهو يصف قرطبة بأنها "دار ملك بني أمية ولذريق الرومي قبلهم"، فيكون ملك قرطبة الذي أسره مغيث بعد موت لودريق في مدينة قرطبة ملكًا تاليًا للودريق، بحسب قول صاحب الأخبار المجموعة، انظر: مؤلف مجهول، **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم** (مجريط [مدريد]: مطبعة ربدنير، 1867)، ص 14-18.

58 المرجع نفسه، ص 19.

59 المرجع نفسه، ص 20؛ وفي نسخة الكتاب التي حققها إبراهيم الأبياري، انظر: ص 27.

خلاف الفاتحين حول أسر الزعيم. وهذه الثيمات السبع ذات طبيعة عنقودية، أي تضم عدة عناصر تتضامن وظيفيًا مع بعضها؛ لتخدم استراتيجية الخطاب السردي التي تستهدف اصطناع الحقيقة التاريخية. وتتكامل مع تطابقات هذه الثيمات السبع مجموعة تطابقات أخرى، تخص المرحلة الرابعة، تظهر على مستوى الحيل التي يلجأ إليها الطرفان في أثناء الحرب، وهو ما يجعل من قصة فتح أميركا نسخة من قصة فتح الأندلس.

بصياغة قصة فتح خارق للمكسيك، أنتج المؤرخون الغربيون كثرة من النصوص حول غزو بلاد أميركا، فأسست القصة خطابًا تاريخيًا غربيًا حول فتوح العصر الحديث، ما زال سائدًا في الوقت الحاضر. والمعرفة التاريخية الغربية، بحسب ما تظهر في خطاب الفتوح، ترتكز على بنية عميقة، تتصل بخطاب المعرفة العربية في العصر الوسيط، وتتزود منه بقواعد توليدية، تتيح لها إنتاج كثرة من النصوص التي تستثمر لاصطناع تاريخ يُنسب، اصطناعًا، إلى منابع أوروبية خالصة، إغريقية - رومانية حصرًا.

والنتيجة النهائية هي أن المعرفة الغربية الحديثة، على العكس من مزاعم أصلها الإغريقي النقي، مثلها مثل معارف كل الحضارات الأخرى، متعددة الأصول. وأنها مرتبطة ارتباطًا عميقًا بالحضارات التي تزامن وجودها مع بداية صعود أوروبا في القرن السادس عشر، وأبرزها حضارة شرق المتوسط وجنوبه.

خاتمة

كما ورد في بداية هذه الدراسة، يصف معظم الباحثين الغربيين نصوص الفتوح المكتوبة بالعربية في العصر الوسيط بأنها سرديات ذات ثيمات معاودة، فحسب، لا قيمة تاريخية لها، فهي، بحسب شوشان بواز "قصص فولكلورية عن ماض مجيد، وانعكاس لحالة ذهنية وأجندة تخص مبتكريها وناقليها، واستجابة تعكس انشغالات واهتمامات الوسط الاجتماعي لمستهلكيها"[60]. وهي ليست بأي حال معرفة تكشف عن حقيقة الفتوح التي تتناولها، وإنما تمثل "الأساطير المؤسسة للمجتمع المسلم"، بحسب تعبير هيو كيندي Hugh Kennedy[61]. وقياسًا على هذا الموقف من النصوص العربية المعتمدة على القصص المستعادة، تخلص هذه الدراسة إلى أن ما يعتبره المفكرون والمؤرخون الغربيون تاريخًا أوروبيًا حديثًا، يبدأ بفتح الإسبان المكسيك وبيرو وهندوراس وغيرها؛ بكونه يقوم على قصص مستعادة بكثافة من النصوص العربية، كما أوضحت الدراسة، ولا ينقل أيضًا أي نوع من المعرفة الصحيحة عما جرى في المكسيك وبقية بلاد أميركا في مرحلة الغزو الأوروبي لها، فيجب اعتباره يمثل "الأساطير المؤسسة للمجتمع الغربي" الحديث، إن صح وصف كيندي النصوص العربية بهذه العبارة.



60 Boaz, p. 6.

61 Ibid.

المراجع

العربية

- [مؤلف مجهول]. **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم**. مجريط [مدريد]: مطبعة ربدنير، 1867.
- [مؤلف مجهول]. **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة فيها بينهم**. تحقيق إبراهيم الأبياري. القاهرة: دار الكتاب المصري؛ بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1981.
- [مؤلف مجهول]. **ذكر بلاد الأندلس**. تحقيق لويس مولينا. مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1983.
- ابن الرقيق، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم. **تاريخ أفريقية والمغرب**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1980.
- ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر. **تاريخ افتتاح الأندلس**. القاهرة: دار الكتاب المصري؛ بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1989.
- ابن عذاري، أحمد بن محمد. **البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب**. بيروت: دار الثقافة، 1980.
- الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله. **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002.
- تودروف، تزفتان. **فتح أمريكا: مسألة الآخر**. ترجمة بشير السباعي. القاهرة: سينا للنشر، 1992.
- جيمسون، فردريك وماساو ميوشي (محرران). **ثقافات العولمة**. ترجمة ليلى الجبالي. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004.
- الجيوسي، سلمى الخضراء (محرر). **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998.
- الحميري، محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم. **صفة جزيرة الأندلس**. تحقيق لافي بروفنصال. ط 2. بيروت: دار الجيل، 1988.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان. **سير أعلام النبلاء**. بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001.
- سالم، السيد عبد العزيز. **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة**. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 2002.
- عنان، محمد عبد الله. **دولة الإسلام في الأندلس: من الفتح إلى عهد الناصر**. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1988.
- عويس، عبد الحليم. **قضية إحراق طارق بن زياد للسفن بين الأسطورة والتاريخ**. القاهرة: دار الصحوة للنشر، 1987.
- لوكازالي، جانكار. **رُيّاس البحر الهندي: عصر الاستكشاف العثماني**. ترجمة مصطفى قاسم. سلسلة عالم المعرفة 463. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2018.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب**. بيروت: دار الكتب العلمية، 2012.



الأجنبية

- Bethencourt, Francisco. *Racism: from the Crusades to the Twentieth Century*. Princeton: Princeton University Press, 2013.
- Boaz, Shoshan. *The Arabic Historical Tradition and Early Islamic Conquests: Folklore, Tribal Lore, Holy War*. New York: Routledge, 2016.
- Brading, David A. *The First America: The Spanish Monarchy, Creole Patriots and the Liberal State 1492-1876*. Cambridge: Cambridge University Press, 1998.
- Clarke, Nicola. *The Muslim Conquest of Iberia: Medieval Arabic Narratives.* New York: Routledge, 2012.
- Columbus, Christopher. *The Log.* Robert H. Fuson (trans.). Camden-Maine: International Marine Publishing, 1992.
- Cortés, Hernando. *Letters from Mexico*. Anthony Pagden (trans.). New Haven & London: Yale University Press, 1986.
- De Acosta, Joseph. *The Natural & Moral History of the Indies*. Edward Grimestone (trans.). Clements Robert Markham (ed). London: The Hakluyt Society, 1880.
- De Gómara, Francisco López. *Cortés: The Life of the Conqueror by his Secretary*. Lesley Byrd Simpson (Trans., ed.). Berkely & Los Angles: University of California Press, 1966.
- Díaz, Bernal. *The Conquest of New Spain.* John M. Cohen (trans.). Harmondsworth: Penguin, 1963.
- Durán, Diego. *History of the Indies of New Spain*. Doris Heyden (Trans.). Norman: Oklahoma University Press, 2009.
- Frye, Northrop. *Anatomy of Criticism: Four Essays*. Princeton & Oxford: Princeton University press, 2000.
- Ibn Abd-El-Hakam, Abdurrahman. *History of the Conquest of Spain*. John Harris Jones (ed.). Guttenberg- London: John Harris Jones, 1858.
- Lewis, David Levering. *God's Crucible: Islam and the Making of Europe, 570-1215*. New York: Norton, 2008.
- Mignolo, Walter D. & Arturo Escobar. (eds.). *Globalization and the Decolonial Option*. New York: Routledge, 2010.
- Noth, Albrecht. *The Early Arabic historical Tradition: A Source Critical Study*. New York: Darwin, 1994.
- Prescott, William H. *History of the Conquest of Mexico*. Paris: Baudry's European Library, 1844.
- _______. *History of the Conquest of Mexico*. Philadelphia: J. B. Lippincott Company, 1873.
- Restal, Mathew & Florine Asselberg. *Invading Guatemala: Spanish, Nahua and Maya Accounts of the Conquest Wars*. Pennsylvania: The Pennsylvania State University Press, 2007.
- Restall, Mathew. *Seven Myths of the Spanish Conquest.* Oxford: Oxford University Press, 2003.
- Robertson, William. *The History of America*. London: W. Strahan, 1739.
- Sizgorich, Thomas. *Violence and Belief in America: Militant Devotion in Christianity and Islam*. Pennsylvania: University of Pennsylvania Press, 2009.
- De Solis, Antonio. *History of the Conquest of Mexico by the Spaniards*. Thomas Townsend (trans.). vol. 1. London: John Osborn, 1738.
- Todorov, Tzvetan. *The Conquest of America: The Question of the other*. Norman: University of Oklahoma Press, 1999.
- White, Hayden. "Interpretation in History." *New Literary History*. vol. 4, no. 2. On interpretation: II (Winter 1973).

محمد بكور | *Mohamed Bekkour

راهـب وفقيـه: سـيرة متقاطعـة لنيكـولاس كليـنرد ومحمـد بـن خـروف

Monk and Faqih: An Intersecting Biography of Nicholas Kleinard and Muhammad bin Kharouf

تحاول هذه الدراسـة، متوسـلة بالمنهج البيوغرافي، إعادة بناء سـيرة كل من الراهب البلجيكي نيكولاس كلينرد والفقيه التونـسي محمد بن خروف، مع التركيز على كشـف حيثيات اللقاء الذي جمع بينهـما في غرناطة ثم انتقالهما إلى فاس. وكان كلينرد قد قرر دراسـة اللغة العربية معتمدًا على جهده الشـخصي، وغادر بلاده في رحلة طويلة قادته إلى غرناطة حيث التقى بابن خروف أحد أعلام الثقافة الإسـلامية، وكان قد أُسِر أثناء الحملة الإسـبانية على تونس ثم نُقل إلى إسـبانيا وبيع في أسواقها. وساهم هذا اللقاء في اتساع معارف كلينرد عن الإسلام، وطمَح إلى استعمال ذلك في الجدل الديني ضد المسـلمين. تجنح الدراسـة إلى القول إن هذا اللقاء كان حدثًا فريدًا وقتئذ، كونه أسـفر عن حالة من التثاقف والتقارب العاطفي بين هذين العَلَمين، نقيض حالة الصراع والكراهية التي وسمت العلاقة بين العالمين الإسلامي والمسيحي.

كلمات مفتاحية: البيوغرافيا، نيكولاس كلينرد، محمد بن خروف، غرناطة، فاس.

This study attempts to reconstruct the biography of the Belgian monk Nicholas Kleinard and the Tunisian Faqih Muhammad bin Kharouf, focusing on uncovering the circumstances of their meeting in Grenada and subsequent move to Fez. Kleinard had resolved to study Arabic through his own efforts, and left his country on a long journey which took him to Grenada. There he met Ibn Kharouf, one of the great figures of Islamic culture, who had been imprisoned during the Spanish campaign against Tunis and then transported to Spain and sold as a slave in its markets. In the course of this meeting he helped to teach Kleinard more about Islam, information the latter hoped to use in religious disputation. The study suggests that this meeting was probably unique in its time, since it resulted in a kind of mutual education as well as an emotional closeness between these two great men – the opposite of the general atmosphere of strife and hatred that was then characteristic of the relationship between the Christian and Islamic worlds

Keywords: Biography, Nicholas Kleinard, Muhammad bin Kharouf, Grenada, Fez.

* باحث في التاريخ من المغرب.

Moroccan historian.

تمهيد

هل نحن في حاجة إلى تأكيد القول بأهمية السيرة في كتابة التاريخ؟ إن العلاقة بين السيرة والتاريخ ليست مسألة حديثة، بل تعود إلى لحظة ميلاد التاريخ نفسه الذي لم يكن في طفولته سوى مجموعة من السير. والشعور بعدم الثقة تجاه نصوص السيرة هو وليد الفترة المعاصرة، فقد هيمنت الأيديولوجيات الجماعية، فنأى معظم المؤرخين بأنفسهم عن السيرة، زاعمين غلبة الطابع التخييلي عليها وافتقارها إلى الموضوعية. ولكن السير عادت مجددًا بقوة إلى الواجهة واكتسحت ميدان الكتابة التاريخية، وبالخصوص بعد ثمانينيات القرن العشرين؛ إذ دافع الكثير من المؤرخين الجدد عن البيوغرافيا لكي تأخذ مكانتها ضمن هذه الكتابة، باعتبارها من المجالات الأكثر خصوبة في البحث التاريخي، بل إن أفق التاريخ اتسع بفضل المقاربات المعرفية المتعددة التي سعت إلى التقريب بينها، وبين السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا والنقد الثقافي، باعتبارها حقولًا معرفية متداخلة[1].

أصبحت سير حياة الأشخاص تمارس إغراء حقيقيًا للقراء والباحثين، إذ توقعهم في شراك سحر أحداثها، وتحرك فضولهم للاطلاع على التفاصيل الحميمية والأسرار الممتعة لحيوات شخوصها. ولا أنكر وقوعي تحت سطوة بعض من هذا السحر عندما التقيت صدفة بسيرة الشخصيتين، موضوع هذه الدراسة، حين مطالعتي إحدى كُنّاشات المؤرخ المغربي محمد بن علي الدكالي (1868-1945)، وهو، حسبما نعتقد، أول من اهتدى إلى الربط بين هاتين الشخصيتين، بعد اطلاعه على مقالة[2] نشرها الأب اليسوعي هنري لامنس Henri Lammens[3]. قدم خلالها ملخصًا للكتاب الذي صدر ببلجيكا في السنة التي قبلها حول سيرة الراهب نيكولاس كلينرد Nicolas Clénard الذي يعد أول مستعرب بلجيكي سعى لتعلم اللغة العربية. وعندما وقف الدكالي على حديث كلينرد عن أستاذه العربي الذي علَّمه اللغة العربية اكتشف أن هذا الأستاذ هو الفقيه التونسي الشهير محمد بن خروف[4].

كان هذا الإغراء حافزًا لإنجاز هذه الدراسة التي تسعى للكشف عن أسرار اللقاء الفريد والمثمر الذي جمع بين راهب وفقيه في أواخر العصور الوسطى، حين كانت العلاقة بين العالمين الإسلامي والمسيحي يطبعها الكثير من العداء والكراهية، كما تسعى للبحث في طبيعة العلاقة المعرفية والإنسانية التي جمعت بينهما، ومحاولة الكشف عن أجوبة لأسئلة ما زال يلفها الغموض من قبيل الظروف التي ساهمت في لقاء عَلَمين من ثقافتين مختلفتين، وطبيعة العلاقة التي جمعت بينهما في ضوء مفارقة غريبة: سيد/ تلميذ وعبد/ أستاذ، ومدى قدرة أحدهما على التأثير في الآخر.

يمكن القول إن تجربة الإنسي[5] البلجيكي نيكولاس كلينرد فريدة في بابها، فهو أول راهب أوروبي قرر دراسة اللغة العربية وقصد المغرب لهذا الغرض، يقوده حلم إنشاء كرسي لتدريس اللغة العربية بجامعة لوفان Leuven في بلجيكا. وقد كان، بحق، شخصًا موهوبًا كرس اثنتي عشرة سنة من حياته لتحقيق مشروعه الطموح، في ضوء غياب تام للوسائل الداعمة والإمكانات المساعدة. ولأجل ذلك حظي باهتمام واضح في الأوساط العلمية الأوروبية التي أنجزت عددًا مهمًا من الدراسات حول حياته وأعماله، أهمها البيوغرافيا التي أنجزها، بالتعاون، المستشرق فيكتور تشوفين Victor Chauvin وعالم اللاتينيات ألفونس رورش Alphonse Roersch بعنوان "دراسة

---

1 لمزيد من التفصيل حول علاقة السير بالتاريخ انظر: خالد طحطح، **البيوغرافيا والتاريخ** (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2014).

2 هنري لامنس، "درس العربية بأوروبا في القرن السادس عشر"، **المشرق**، العدد 22 (15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1901)، ص 1029-1033؛ هنري لامنس، "درس العربية بأوروبا في القرن السادس عشر"، **المشرق**، العدد 24 (15 كانون الأول/ ديسمبر 1901)، ص 1115-1120.

3 هنري لامنس (1862-1937)، مستشرق بلجيكي المولد فرنسي الجنسية. من علماء الرهبان اليسوعيين. عاش معظم حياته في بلاد الشام.

4 محمد بن علي الدكالي، **كناشة مخطوطة**، ميكروفيلم رقم 22، الخزانة العامة بالرباط، ورقات من رقم 17 إلى رقم 22.

5 نسبة إلى الحركة الإنسية، وهي حركة ثقافية وفنية أوروبية تعود إلى عصر النهضة. وتتميز بإيمانها بالإنسان، والاهتمام بجميع أشكال المعرفة، وإعادة اكتشاف الأدب القديم، إضافة إلى الاعتناء بدراسة اللغات القديمة.

حول حياة وأعمال نيكولاس كلينرد"[6]، والتي شكلت المصدر الأساس لهذه الدراسة. وفي الصورة المقابلة نجد أن ابن خروف لم يكن أقل هِمَّة وطموحًا، إذ رحل إلى المشرق وتزود من علوم المنطق والأصول والكلام التي كانت قد اندرست معالمها في المغرب الكبير، وشكل بذلك نموذجًا نادرًا لفقهاء أواخر العصور الوسطى الذين لم يغرقوا في تفاصيل الفروع، ولم يشيحوا بوجوههم عن غيرها من العلوم.

يتعلق الأمر إذًا بعلمين كبيرين ساقهما القدر إلى لقاء تاريخي أسفر عن حالة من التثاقف غير معهودة في ذاك العصر. ومع ذلك فقد ظل كل منهما مجهولًا بالنسبة إلى الثقافة الأخرى، فكلينرد لم يحظ بأي عناية في الدراسات العربية[7] عكس الأوروبيين الذين أنجزوا عنه عددًا مهمًا من الدراسات والأبحاث. ونفس الأمر حصل مع ابن خروف الذي لم ينل أي اهتمام من الدارسين الغربيين. وحسبما وقفنا عليه، فإننا نرجح أن الورقة التي قدمها فان كونيكسفيلد في الندوة الدولية التي نظمتها مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات بتونس سنة 1998، هي الدراسة الأوروبية الوحيدة التي خصصها باحث أوربي لابن خروف[8].

إن اللقاء الذي جمع بين كلينرد وابن خروف أحدث تقاربًا نفسيًا عميقًا، رغم الشقة التي تمتد بينهما على مسافة تاريخية طويلة من الصراع والكراهية. لقد أقاما على تخوم ثقافتين متصارعتين، وتنقلا، واحد اختيارًا والثاني إجبارًا، بين عالمين متناقضين دينيًا وحضاريًا. ومن المؤكد أن هذا الوضع أثر عميقًا في صياغة مواقفهما النفسية وتشكيل رؤاهما الفكرية. لكن من الطبيعي أن العيش على الحدود يُولِّد الكثير من الحذر وعدم الثقة، وهو ما يدفع المرء إلى إعمال مبدأ التقية، فيفصح عن نيات ومعتقدات ويضمر أخرى، فتحجب الغيوم أمام الدارس كثيرًا من تفاصيل حياته، وخصوصًا أفكاره الحميمة ومعتقداته الشخصية. وهذا ما جعلنا نلاحظ اختلافًا واضحًا بين روايتي الرجلين اللتين سرداهما لأهل مِلَّتِهِمَا: الراهب يتحدث عن مشروعه التنصيري الذي يريد أن يُجنِّد له كل وسائل الدعم، أما الفقيه فيخبر بإسلام النصراني، وأنه اضطر إلى إخفاء إيمانه تجنبًا لسقوطه في أتون المحرقة.

نيكولاس كلينرد: رحلة البحث عن درس العربية

ولد كلينرد، كما أخبر في إحدى رسائله، في 5 كانون الأول/ ديسمبر سنة 1493 أو 1494 في دييست Diest؛ قرية صغيرة غرب مدينة برابنت Brabant في الأراضي المنخفضة، من عائلة غنية متنفذة وذات يد مع أصحاب السلطة. وأرسلته أسرته حين كان صبيًا إلى مدينة لوفان لمتابعة تعليمه، فأنهى دراسته الجامعية بتفوق متخصصًا في اللغات القديمة والشرقية: اللاتينية والإغريقية والعبرية والكلدانية. ومثل أغلب الطلاب آنذاك التحق بالدراسات اللاهوتية لينخرط في سلك رجال الدين، لكنه لم يكن يميل إلى المناصب الكنسية، فقد كان طموحه متعلقًا بمزيد من التحصيل العلمي، وخاصة دراسة اللغات القديمة التي كرس لها كل جهوده[9]، متأثرًا بالجو العام في

---

6 Victor Chauvin & Alphonse Roersch, *Étude sur la vie et les travaux de Nicolas Clénard* (Bruxelles: Hayez, 1900).
تناول المؤلفان سيرة حياة كلينرد ومراحل تعلمه اللغة العربية، إضافة إلى بيبليوغرافيا كاملة لأعماله. وقد استطاعا إعادة بناء سيرة كلينرد انطلاقًا من رسائله المكتوبة باللاتينية، والتي كان يرسلها لأصدقائه في أنحاء أوروبا. وكانت هذه الرسائل قد جمعت بعد وفاته ونشرت في خمس مناسبات منفصلة في الفترة 1550-1606. ثم أعاد ألفونس رورش نشرها في:
Alphonse Roersch, *Correspondance de Nicolas Clénard*, vol. 3 (Bruxelles: Palais des Academies, 1940-1941).
حيث قام بتحقيق هذه الرسائل وترجمتها إلى الفرنسية. وبلغ عدد الرسائل التي نشرها أربعًا وستين رسالة، أربع عشرة منها لم يسبق نشرها. ثم أنجز دراسة شاملة لهذه الرسائل التي تغطي الفترة 1528-1542.

7 الغريب أن الدراسات باللغة العربية حول هذه الشخصية منعدمة، باستثناء المقال الذي نشره الأب هنري لامنس (وهو ليس بعربي)، والمشار إليه سابقًا، انظر: لامنس. أما في مصادر التاريخ المغربي فلا نكاد نعثر على أي أثر لكلينرد رغم أنه أقام في فاس أكثر من سنة ونصف.

8 P.S. Van Koningsveld, "Mon Kharouf: quelques remarques sur le maître tunisien du premier arabisant néerlandais, Nicolas Clénard (1493-1542)," in: Abdeljelil Temimi (ed.), *Nouvelles approches des relations islamo-chrétiennes a l'epoque de la Renaissance* (Zaghouan: Fondation Temimi pour la Recherche Scientifique et l'Information, 2000), pp. 123 - 141.

9 Chauvin, p 7.

الأراضي المنخفضة حيث كانت أفكار الحركة الإنسية قد اخترقت المدارس والكليات، وكان ديديي إيرازم[10] Didier Érasme المنتقد العنيف لسلوك رجال الدين قد أوجد تيارًا فكريًا واسعًا يمقت حياة الرهبان، ويؤمن بأهمية التعليم، وخصوصًا تعليم اللغات القديمة.

حصل كلينرد سنة 1520، وهو ما زال في ريعان شبابه، على إذن لتدريس اللغتين الإغريقية والعبرية في أحد المعاهد، وهي المهمة التي تفوَّق فيها على أقرانه، بل "صنَّف في أصول هذه اللغات كُتبًا عوَّل عليها العلماء فجعلوها ركنًا للتعليم في المدارس والكليات، وبقيت بعد مؤلِّفها نحو مئة سنة يُرجع إليها دون غيرها"[11]. ثم رُسِّم كاهنًا سنة 1527، غير أنه أُجبر، منذ ذلك الحين، على مواجهة محاكمات طويلة ومؤلمة[12].

وكان قد بدأ في هذه المرحلة تعلمه الذاتي للغة العربية، وشعر بجاذبية شديدة نحوها كما صرح في بعض رسائله. وبدأت قصته مع هذه اللغة بالضبط سنة 1521، حسبما أكده رورش في مقدمة كتابه المذكور سابقًا، بعد حصوله على نسخة مطبوعة لأجزاء من الكتاب المقدس (مزامير داوود) مكتوبة بخمس لغات هي اليونانية والعبرية والكلدانية والعربية، إضافة إلى ترجمة لاتينية. ومنذ النظرة الأولى أثارته هذه اللغة الجديدة، فقد كان يجهل تمامًا أبجدياتها، ولم يكن قد سبق له قط أن سمع أحدًا يقرأها أو يتكلم بها. وفي لحظة نشوة وإعجاب، قرر أن يتعلم هذه اللغة.

كان النص المكتوب بخمس لغات وسيلة فعالة بيد كلينرد لتحقيق هدفه. ويشرح في رسالته التي بعثها من غرناطة إلى الإمبراطور الإسباني شارل الخامس Charles V سنة 1542، تفاصيل الجهود المضنية التي بذلها لتعلم هذه اللغة[13]. لقد لاحظ أن أسماء الأعلام والأماكن الجغرافية تكتب وتنطق تقريبًا بنفس الكيفية في اللغتين العبرية والكلدانية، وافترض أن الأمر كذلك في اللغة العربية، بما أنها تشترك مع اللغتين السابقتين في الأصل السامي. ثم لاحظ أن قراءة العربية تكون من اليمين إلى اليسار مثل العبرية، فتوسَّل بهذه الأخيرة التي ظنَّها قد تنير له بداية الطريق. ولتصبح المقارنة ممكنة بين اللغات التي كان يتقنها جيدًا وبين العربية، اختار المزمور الثالث والثمانين[14]، الذي تعددت فيه أسماء الأعلام، ليكون نقطة الانطلاق لفك شيفرة هذه اللغة الغريبة، فجعل يقابل بين كلمات الآيات وحروفها، متسلحًا بالمثابرة المستميتة، ومواصلة العمل ليل نهار، حتى عثر على ما سماه "كنزه" الذي لم يكن سوى كلمة "إسماعيليين" والتي بفضلها تمكَّن من التعرف إلى بعض الحروف الهجائية الأولى[15] مثل "السين واللام والميم". ثم استطاع قراءة بعض الكلمات التي تشبه مثيلاتها في العبرية، من حيث نطقها وعدد حروفها مثل: "نفس، وسلام، ولسان"، بل اكتشف بعض القواعد البسيطة لهذه

---

10 ديديير إيرازم (1469-1536)، عالم لاهوت هولندي من أشهر رواد النهضة الأوربية. تلقى تعليمًا دينيًا، وقام برحلات كثيرة في أوروبا فحصّل معارف كثيرة، مكنته من أن يلقب بأمير الإنسيين. ومن أهم كتبه "مدح الحماقة" الذي كتبه سنة 1511.

11 ألف كلينرد ابتداء من سنة 1529 كتابًا في قواعد العربية أعيد طبعه أكثر من ست وعشرين طبعة، ونَشر في نفس السنة كتابًا حول اليونانية، انظر: لامنس، ص 1030.

12 Abel Lefranc, "Nicolas Clénard, Humaniste Belge, et les Commencements du Collége de France," *Humanisme et Renaissance*, vol. 7, no. 3 (1940), pp. 253 - 269.

13 لمزيد من التفصيل حول الجهود الشخصية التي قام بها كلينرد لتعلم اللغة العربية، انظر المقال الذي أنجزه كودفروا دو كالاتاي أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بمعهد الدراسات الشرقية بالجامعة الكاثوليكية في لوفان:
Godefroid de Callatay, "Apprendre l'arabe en autodidacte est possible: Nicolaus Clenardus l'a fait au 16ème siècle et il nous explique comment," *Acta Orientalia Belgica*, XXV (Bruxelles & Leuven: Société Belge d'Etudes Orientales, 2012), pp. 9-30, accessed on 1/4/2019, at: http://bit.ly/2WaFYZH

14 يقول المزمور، بحسب النص العربي المنشور في الكتاب الذي اعتمده كلينرد: "اللهم لا تصمت، لا تسكت، ولا تهدأ يا الله. فَهُوَ ذا أعداؤك يعجون ومبغضوك قد رفعوا الرأس على شعبك. مكروا مؤامرة وتشاوروا على أحميائك. قالوا تعالوا نبدهم من الأمم ولا يُذكر بعدُ اسم إسرائيل. تآمروا جميعًا متفرقين بقلوبهم، وتعاهدوا عليك عهدًا. مساكن الأدوميين والإسماعيليين، مؤاب والهاجريون. جابال وعمان وعماليق. فلسطين مع ساكني صور. وأيضًا أشور ساعدوهم. وصاروا أنصارًا لبني لوط".

15 "هناك، في هذا المزمور، حشد من الكلمات التي ستكون مفيدة لي: إسرائيل، الأدوميون، الإسماعيليون، مؤاب، الهاجريون، وشعوب أخرى أصبحت تابعة الآن لمحمد. اعتقدت أنها يمكنها مساعدتي في تعلم اللغة العربية، لاستخدامها يومًا ضدهم وذبحهم بسيفهم". من رسالة إلى المسيحيين كتبها كلينرد بفاس سنة 1541، انظر: Callatay, p. 16.

اللغة. غير أنه كان ما يزال يجهل قواعد استخدام هذه الكلمات "وكثيرًا ما كان يكتفي بالنظر إلى تركيب الكلمة ضاربًا الصفح عن حركاتها مثله في ذلك مثل الأخرس الذي يدرك معنى الشيء بمجرد نظره إليه ولو لم يعرف النطق به"[16].

بعد هذه النجاحات الشخصية المشجِّعة، اقتنع كلينرد بضرورة البحث عن أستاذ متمكن يفتح له مغاليق هذه اللغة، فرحل إلى فرنسا سنة 1530 لهذا الغرض، غير أنه "وصل إلى باريس متأخرًا جدًا أو مبكرًا جدًا؛ متأخرًا لأن في سنة 1519 كان فرانسوا الأول François I قد استدعى من جنوة الأسقف أوغسطين جوستنياني Augustin Justinien لتعليم اللغتين العبرانية والعربية في أحد معاهد باريس، لكن الأسقف المذكور لم يقم في فرنسا إلا سنتين ثم عاد إلى موطنه سنة 1522 [...] ومبكرًا لأن كرسي العربية لم يتم اعتماده رسميًا في كوليج دي فرانس College de France إلا في سنة 1587 من طرف هنري الثالث Henri III"[17]. ولما لم يجد مبتغاه عاد من رحلته الفرنسية فقط ببعض المال من عائدات بيع كتبه.

عاد إلى لوفان إذًا من دون أن يخطو خطوة جديدة في مشروعه. وكانت الأجواء المحيطة به غير مريحة، في ضوء تنامي العداء للإنسيين والبروتستانت ومدرِّسي اللغات. وشعر أنه لم يعد هناك ما يربطه ببلده، إذ تزايدت سطوة محاكم التفتيش، التي انتقد انتهاكاتها بمرارة، في ظل حكم شارل الخامس الذي لم يكن يتساهل أبدًا مع المنشقين، وأصدر أحكامًا بالغة القسوة ضد البروتستانت، والذين كان منهم الكثير من معارف كلينرد وأصدقائه. ثم كان لحرمانه من الحصول على منصب في كلية اللغات الثلاث Collège trilingue بسبب معارضة عميدها، أثر عميق في شعوره بأنه لم ينل ما يستحقه؛ فقد ظل محاضرًا بسيطًا، في حين أن نجاحه الباهر في التدريس ومنشوراته حول اليونانية والعبرية، كانا يذكيان طموحه لينال كرسيًا في كلية بوسليدين Busleiden خلفًا لكامبنسيس Campensis الذي استقال، وعُيّن مكانه أستاذ آخر كان أقل شهرة من كلينرد. كل هذا، إلى جانب رغبته في درس العربية، سيدفعه إلى اختيار الاغتراب والرحيل نحو إسبانيا التي كان قد بلغ إلى مسامعه أن بعض كلياتها تدرّس العربية.

لقد ارتبط اختيار كلينرد إسبانيا وجهة لرحلته بسببين: أولهما أن أحد طلبته كان قد أخبره أن كلية سلامنكا Salamanque خصصت كرسيًا لتدريس اللغة العربية. وثانيهما لقاؤه الحاسم بفرناند كولومب Fernand Colomb (ابن المكتشف كريستوف كولومب Christophe Colomb) الذي كان يسعى إلى إنشاء مكتبة كبيرة في إشبيلية، فعرض على كلينرد الإشراف على تنظيمها ضمن عقد مدته ثلاث سنوات[18].

رحل كلينرد مع كولومب في اتجاه إسبانيا سنة 1531. وبدل إشبيلية، اتجها إلى سلامنكا، وما إن دخلاها حتى توجه كلينرد إلى كليتها ينشُد درس العربية، لكنه لم يجد ضالته، إلا أنه أُخبر أن أستاذ الإغريقية نونيوس Nonius مهتم بالعبرية والكلدانية والعربية. فقصده على وجه السرعة ليتخذه معلمًا له، ورغم أن هذا الأستاذ حاول ثنيه عن مشروعه، فإنه ظل مصممًا على تعلم هذه اللغة مهما تجشم في سبيلها من صعاب.

كان نونيوس قد تعلم العربية على يد فخّاري عربي في إشبيلية، إلا أنه كان قد أهملها منذ مدة طويلة. وكانت خزانته تتوفر على بعض الكتب العربية، فأعار تلميذه كتاب الإنجيل مضبوطًا بالشكل الكامل، فكان في يده أثمن من الكنز في يد البخيل. وانكبَّ على مطالعة الفصل الأول منه، حيث سلسلة نسب المسيح التي تورد عددًا من الأعلام. فاكتشف حروف العلة وتعرَّف الحركات والضوابط كالهمزة والشدَّة، وتمكن أخيرًا من القراءة. واستمر مثابرًا على المطالعة والدرس حتى تعرَّف تراكيب الألفاظ وبعض قواعد تصريف الأفعال.

---

16 لامنس، ص 1032.

17 Chauvin, p. 16.

18 Ibid., p. 23.

ثم بدأ مع أستاذه دراسة "الآجرومية" التي كان نونيوس قد اعتمدها في دراسته القديمة، وحاول أن يفسرها لتلميذه، لكن كلينرد أدرك أنَّ هذا الكتاب إذا كان يصلح للعرب، فهو قطعًا غير مفيد للأوروبيين، وآثر عليه كتاب **المفَصَّل** للزّمخشري الذي عثر عليه بين كتب نونيوس. ولم يقتصر على ما يتلقاه من أستاذه، بل اعتمد على جهوده الخاصة ومساعدة بعض البلجيكيين المقيمين بالمدينة في ترجمة بعض الشروحات باللغة الإسبانية التي كان كلينرد يجهلها. ومع كامل امتنانه لأستاذه، الذي عبر عنه في رسائله، فإنه وَثِق في جهوده الشخصية وفي معلميه الخُرس (الحروف والكلمات). وتابع دراسته وحده مدة تسعة أشهر، فعكف على نص الإنجيل يفك رموز اللغة ويستخلص قواعدها، حتى وجد من نفسه القدرة على تدريس هذه اللغة في المدارس، ووضع قاموسًا بالكلمات الواردة في الإنجيل، وفكَّر في وضع كتب مدرسية لتعليم الأوروبيين، فاقترح على بعض أصحاب المطابع إنشاء حروف عربية تمكنه من نشر أعماله[19].

وبعيدًا عن جهود كلينرد لتعلم اللغة العربية ظلت حياته في سلامنكا غامضة. فكل ما ذكره في رسائله أنه سارع إلى التخلي عن عقده مع كولومب واختار الاستقرار في المدينة، وأنه تولّى تعليم ابن شقيق ملك نابولي مدة لم يحددها بدقة، ثم شرع يعطي دروسًا خصوصية في اليونانية معتمدًا أسلوبًا جديدًا جعلها تحظى بإقبال كبير. وأمام هذا النجاح عُرض عليه منصب بكلية سلامنكا، لكن في هذا الوقت بالضبط كان قد تلقى عرضًا من ملك البرتغال جون الثالث John III ليقوم بوظيفة تعليم أخيه الأمير هنري Henry الذي سيصبح لاحقًا ملك البرتغال. وكان ناقل هذا العرض يعرف نقطة ضعف كلينرد، فأعلَمه أن في مدينة إيفورا Évora، حيث مقر الأمير، يقيم طبيب عالم بالعربية، اسمه أنطونيوس فيليبوس Antonius Filippos، كان يقرأ للأطباء العرب بلغتهم الأصلية[20].

في البرتغال، تعمقت دراسة كلينرد للغة العربية، فهناك بدأ كتابة الحروف وتمكن من إثراء معجمه اللغوي. ولا شك في أنه وجد الوقت الكافي لممارسة هوايته، فدروس الأمير كانت تقتصر على ساعة واحدة في اليوم، هذا إضافة إلى أيام الأعياد والمناسبات ورحلات الأمير للصيد، التي كانت أيام عطل بالنسبة إلى كلينرد. كان يجد ضالته عند أنطونيوس، وبالرغم من كبر سن هذا الأخير وثقل سمعه، فقد توطدت صداقتهما وعكفا على دراسة كتب ابن سينا في الطب. وكان لهذه النجاحات والحماسة صدى في مراكز التعليم بأوروبا، فعرضت عليه جامعة فيينا إنشاء كرسي للغة العربية، لكنه رفض العرض لأنه كان ينوي الرجوع إلى لوفان وتأسيس الدراسات العربية هناك[21]، بعد أن يحصل على تكوين لغوي عميق. ولأجل ذلك لم تغره الأخبار التي تحدثت عن إمكانية ترشيحه ليصبح كاردينالًا، بل كان يضحك من الأمر قائلًا: "لا يمكن الحصول على شيء من روما"[22].

ومهما كان دور أستاذيه الأوروبيين، نونيوس وأنطونيوس، فإن معلوماتهما حول اللغة العربية كانت لا تتجاوز حد المبتدئ، وهو حد لم يكن ليرضي كلينرد الذي أخذ يبحث بجد عن أستاذ عربي أصيل يعرف جيدًا قواعد هذه اللغة ويحسن نطقها. وكان هذا المسلك معروفًا لدى بعض الأوروبيين آنذاك، فقد سبق لبعض المهتمين بتعلم العربية أن اتخذوا عبيدًا عربًا لهذا الغرض[23].

قرر كلينرد الرحيل للبحث عن هذا المعلم المفترض، وأُخْبِر أن في سرقسطة عبدًا عربيًّا متضلعًا باللغة العربية. ورغم محاولة الأمير البرتغالي ثنيه عن المغادرة مقترحًا عليه إنشاء كرسي للعربية بكلية كومبري Combre، فإنه اعتذر عن ذلك وقرر المغادرة باتجاه سرقسطة

---

19 Ibid., pp. 122-123

20 Ibid., p. 29.

21 Ibid., p. 126.

22 Ibid., p. 36.

23 يمكن أن نذكر في هذا الصدد ريمون لول Raimond Lulle، وهو فيلسوف وراهب فرانشسكاني كتالاني شديد الإيمان بالمسيحية إلى حد الهلوسة الدينية. كانت تحدوه رغبة جامحة في تحويل المسلمين إلى المسيحية، فقرر تعلم اللغة العربية لتحقيق مشروعه التنصيري، واشترى عبدًا عربيًا وأرغمه على تعليمه العربية والدين الإسلامي مدة تسع سنوات. وكان يضربه ويهينه، وفي أحد الأيام وأثناء نقاشهما، "جدَّف هذا العبد بحق المسيح"، فكان مصيره الموت، لمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى:
Ernes Renan & Haureau Barthelemy, *Histoire littéraire de la France*, vol. 29 (Paris: G. p. Gaston and L.D. Léopold Delisle, 1885).

في تشرين الثاني/ نوفمبر 1538. وفي طريقه عَلِم أن الفخّاري العربي الذي علَّم أستاذه الأول نونيوس ما زال على قيد الحياة، فاتجه رأسًا إلى إشبيلية حيث يعيش والتمس منه أن يعلمه العربية، غير أن الفخّاري أعرض عنه وتجاهله، ولم يكن يجيب عن أسئلة زائره خوفًا من إثارة انتباه محاكم التفتيش التي كانت تحصي الأنفاس على بقايا العرب خلال تلك الفترة الحرجة. فما كان منه إلا أن قصد سوق العبيد فوجد بينهم رجلًا تونسيًّا يزعم معرفته الجيدة بهذه اللغة، فابتاعه كلينرد واتخذه معلمًا له مقابل أجرة معلومة. غير أن خيبته كانت كبيرة لأنه بعد ثمانية أيام أرسل أهل هذا التونسي فديته وافتكُّوهُ من أسره، وحرموا بذلك التلميذَ مُعلِّمَه. ولكن هذا المعلم قبل رحيله، دلَّ كلينرد على عبد تونسي آخر يعيش في ألمرية، وزعم له أنّه من كبار العلماء، وأنه متمكن جدًا في العلوم الدينية واللغوية.

كانت الأيام الثمانية التي قضاها كلينرد مع معلمه العربي الأول كافية ليستيقن دور مثل هذا المعلم لتطوير دراسته العربية، فرحل على عجل إلى غرناطة، وقدم نفسه لنائب الملك بالمنطقة، لويس دي مندوزا Luis de Mendoza حاكم الموركسيين (مركيز المونذخار)، الذي رحب به واستقبله استقبالًا جيدًا، ووافق على مساعدته لشراء "عبد ألمرية". وكان أصحاب هذا العبد قد حددوا سعره بمئة دوقة. وقرر كلينرد السفر بنفسه إلى ألمرية، على الرغم من قساوة الجو في ذلك الشتاء الاستثنائي، وخطورة الوقوع في أيدي الموريسكيين الثائرين في شعاب تلك الجبال الوعرة. وهناك وجد أن أصحاب العبد رفعوا سعره إلى ثلاثمئة دوقة. ولحسن الحظ فإن المركيز وابنه كانا يرغبان في تعلم اليونانية، فأعانه على شراء العبد بشرط أن يبقى كلينرد في غرناطة من أجل تعليمه وابنه اليونانية[24].

وصرّح كلينرد بأنه عثر على كنز لا يقدر بثمن[25]، لأن هذا العبد الذي لم يكن في النهاية سوى العالم التونسي محمد بن خروف، ساعده كثيرًا في مشروعه، فقد علّمه كيف يتحدث اللغة العربية بطلاقة، وكيف يكتبها بشكل صحيح، ونسخ له المخطوطات العربية بما أنه لم يكن في إمكانه شراؤها بسبب مصادرتها من قبل محاكم التفتيش. كما تعرّف بمساعدته إلى القرآن والإسلام أكثر فأكثر. فمن هو ابن خروف؟ وكيف وصل إلى إسبانيا؟

محمد بن خروف التونسي: محنة الأسر والعبودية

لا تسعفنا المصادر العربية كثيرًا في استعادة تفاصيل سيرة محمد بن خروف التونسي، خصوصًا في ضوء غياب التراث المكتوب الذي خلَّفه هذا العالم الكبير. والمعلومات التي تضمنتها هذه المصادر لا تنير كثيرًا من مسار حياة هذا الفقيه الذي انتقل بين عوالم مختلفة أكسبته، لا شك، ثقافة غزيرة. ومع أن ترجمته وردت في عدد كبير من كتب الفهارس والتراجم، فإن المعوَّل أساسًا على ما ورد في أربعة منها، لأن ما سواها لا يتجاوز النقل الحرفي عن هذه المصادر الأربعة، وهي: فهرسة أحمد المنجور[26]، وفهرسة عبد الواحد الحسني السجلماسي[27]، وكتاب **جذوة الاقتباس** لابن القاضي[28]، ثم **نشر المثاني** لمحمد بن الطيب القادري[29].

خص المنجور، وهو تلميذ ابن خروف، شيخه بترجمة متوسطة ضمت معلومات مفيدة حول هذا الشيخ، والعلوم التي درَّسها، إضافة إلى معلومات انفرد بها عن فترة أسره وقدومه إلى فاس. بينما أورد السجلماسي نص إجازة ابن خروف لوالده، وهي وثيقة

24 Chavin, p. 127.

25 Ibid., p. 128.

26 أحمد المنجور، **فهرس أحمد المنجور**، تحقيق محمد حجي، سلسلة الفهارس 1 (الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976)، ص 15، 69-71.

27 عبد الواحد الحسني السجلماسي، **الإلمام ببعض من لقيته من علماء الإسلام**، تقديم وتحقيق نفيسة الذهبي (الرباط: مطابع الرباط نت، 2008)، ص 79-84.

28 أحمد بن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، ج 1 (الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973)، ص 322-323.

29 محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، سلسلة التراجم 3، ج 1 (الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977)، ص 91.

ذات أهمية كبرى، لكونها أحد النصين اليتيمين اللذين نتوفر عليهما الآن مما خلفه ابن خروف، إلى جانب النص الثاني الذي ورد في إحدى كناشات المؤرخ المغربي محمد بن علي الدكالي منقولًا عن رحلة ابن خروف المفقودة. في حين انفرد محمد بن الطيب القادري بمعلومة مفادها أن ابن خروف اتخذ بفاس دكانًا للشهادة من أجل كسب قوته. وذكر ابن القاضي أنه "كان إذا كتب إلى المريني (المقصود السلطان أحمد الوطاسي الذي افتكه من الأسر) وراسله كتب إليه: معتق إيالتكم خروف. قلت (أي ابن القاضي): ولما اتفق لي أسر وخلصني منه أحمد المنصور الشريف الحسني (السعدي) خلد الله ملكه، ونظم في الصالحين سلكه، مثل ما اتفق لهذا الرجل فاقتديت به، وصرت أكتب في مخاطباتي له ولغيره: معتق إيالة مولانا أيده الله بمنه"[30]. أما باقي المؤلفات التي ذكرت ابن خروف فهي تكتفي بنقل ما ورد في هذه المصادر الأربعة ولا تقدم أي إضافة.

وبحسب بعض المصادر فإن ابن خروف خلف كتابين عبارة عن فهرسة ورحلة. ويذكر عبد الحي الكتاني أن له سند رواية متصلًا بالكتابين، فهو يرويهما "من طريق القصار والمنجور وابن عبد الجبار الفجيجي الثلاثة عنه (أي ابن خروف)"، ولكنه يشير إلى أنه وقف فقط على "بعض" من كتاب الرحلة التي يصفها بأنها "رحلة واسعة"[31]، في حين لا يذكر معرفته بالفهرسة. ومن المعلوم أن رواية الكتاب في الثقافة الإسلامية لا تعني بالضرورة اطلاع الراوي على الكتاب، وإنما قد يكون أُخبر به فقط من قبل شيوخه. ونصوص الإجازات تحمل الكثير من العبارات الدالة على هذا المعنى. ولذلك فإن ما هو مؤكد عندنا هو اطلاع الكتاني على كتاب واحد فقط لابن خروف نعته بـ "الرحلة". والراجح أنها نفس الرحلة التي وقف عليها محمد بن علي الدكالي بعد استعارتها من الكتاني. هذا ما يدل عليه قول الدكالي: "وقال ابن خروف في رحلته بعد كلام سبق له في كيفية دخول الإسبان لمدينة تونس وكيفية الاستيلاء عليها غدرًا، وأسره في جملة من أُسر بعدما أمَّنهم ملكها الحسن الحفصي ها هناك ما نصه: [...]". ثم أضاف الدكالي: "[...] من خط المؤلف من مبيضة رحلته رحمه الله المسوقة من فاس إلى سلا حرسها الله بمنه"[32]. ولعل هذه القطعة هي التي أشار محمد المنوني إلى وجودها بالخزانة العامة بالرباط، والتي قال بخصوصها في كتابه المصادر العربية: "فهرسة خروف التونسي]...[الموجود قطعة منها ب خ ع (أي الخزانة العامة، وهي المكتبة الوطنية حاليًا)، تحت رقم: ح 135. ومن موضوعاتها حديث المؤلف عن أسره ثم افتكاكه على يد أبي العباس الوطاسي، حيث أقام بفاس يفيد ويستفيد"[33]. وكان ابن خروف أشار إلى فهرسته هذه ضمن إجازته والد عبد الواحد السجلماسي صاحب كتاب "الإلمام"، فذكر أنه صنف فهرسة كبرى ضاعت أثناء احتلال الإسبان لتونس فكتب أخرى ملخصة سماها بـ "العجالة"[34].

نعتقد إذًا أن الأمر يتعلق بكتاب واحد لا بكتابين، وإنما جاء الخلط بسبب وصف هذا الكتاب تارة بالفهرسة وأخرى بالرحلة. ومهما يكن، فإن هذه القطعة تعدّ الآن في حكم المفقود. وهذا من سوء حظنا لأننا فقدنا مصدرًا ثمينًا كان قمينًا بمدّنا بمعلومات قد تكون نفيسة حول سيرة صاحبه، ولم يبق بأيدينا سوى مصادر قليلة وغير ذات قيمة كبيرة. وقد أشرنا سابقًا إلى أن الترجمة التي قيدها أحمد المنجور تلميذ ابن خروف، تظل هي المصدر الأكثر غنىً من حيث المعلومات المفيدة لنا في محاولة إعادة بناء هذه السيرة. ووصف المنجور أستاذه

---

30 المكناسي، ص 323.

31 عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، اعتنى به إحسان عباس، ج 1، ط 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982)، ص 375-376.

32 الدكالي، ورقة 22.

33 محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث**، ج 1 (الرباط: جامعة محمد الخامس منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1983)، ص 123. غير أن الباحث البلجيكي فان كونكسفيلد الذي أنجز دراسة عن ابن خروف أكد أن الرقم الذي ذكره المنوني ليس صحيحًا، وأن محاولاته المتكررة، بمساعدة بعض أصدقائه المغاربة، للبحث عن المخطوطة بالخزانة العامة باءت بالفشل، انظر:
Koningsveld, p. 127.

34 "فأخذت علم الحديث عن خلق كثير يطول ذكرهم، قد ذكرناهم في فهرستنا المسماة بالعجالة التي كتبتها من حفظي بمحروسة فاس أتأنس بها. وأما الفهرسة الكبرى فضاعت في جملة الكتب حين أُخذت تونس". انظر: السجلماسي، ص 83.

بـ "الشيخ الفقيه النحوي البياني الأصولي الكلامي المفسر الأديب"، وأيضًا "شيخنا المعقولي الأديب المتفنن الحاج الرحال أبو عبد الله محمد بن خروف الأنصاري التونسي"[35]. وهذه الأوصاف تتكرر في جميع المصادر الأخرى التي ترجمته أو ذكرته في سياق ترجمات أخرى. لقد اشتهر ابن خروف بتمكنه من علوم المعقول والأصول كالمنطق وعلم الكلام وأصول الفقه والتفسير، إضافة إلى علوم اللغة من نحو وبيان وأدب. وفي الوقت الذي اقتصر فيه أغلب فقهاء فاس حينئذ على فقه الفروع، كان هو من بين العلماء المعدودين الذين اهتموا بعلوم الأصول والمنطق والبيان، بفضل رحلاته إلى المشرق حيث كانت سوق هذه العلوم نافقة وتجارتها رابحة، فدرس على يد شيوخ كبار في بلاد مصر وأرض الحرمين أمثال الشيخ ناصر الدين اللقاني المصري وأخيه شمس الدين، والشيخ شمس الدين الحطاب الطرابلسي، وشهاب الدين النشيلي القاضي بمكة، وأبي الحسن البكري، وشمس الدين محمد بن عراق، وطاهر بن زيان القسنطيني المديني، وكمال الدين الطويل قاضي قضاة مصر، وغيرهم كثير. هذا إضافة إلى شيوخه التونسيين كأبي عبد الله محمد بن مغوش، والفقيه القاضي أبي العباس سليطن، والفقيه الشريف بن علي، والفقيه المفتي أبي محمد حسن الزنديوي، والفقيه المعقولي الصوفي أبي عبد الله محمد الخونجي. وفي سنة 1535 امتُحن بالأسر بعد حملة شارل الخامس على مدينة تونس واستباحتها، فنُقل إلى إسبانيا حيث مكث ست سنوات، قبل أن يتم فداؤه من طرف سلطان المغرب. فقدِم إلى فاس وهناك تفرّغ للدرس والتدريس، فحضر مجالس كبار العلماء وذاكرهم وأخذ عنهم، مثل عبد الواحد الونشريسي، وزين الدين عبد الرحمن سقين، ومحمد اليَسِّيتني وعلي بن هارون، وعبد الوهاب الزقاق، وغيرهم[36].

انتصب للتدريس بفاس بعد افتكاكه من الأسر، واعتنى أكثر بالعلوم العقلية، كما ذكر المنجور في فهرسته: "قرأت عليه تلخيص المفتاح، ومختصر السعد التفتازاني، وإيسغوجي، والرسالة الشمسية في المنطق للكاتبي، وبعض جمل الخونجي، وجمع الجوامع للسبكي، ومحاذي ابن هشام ختمته وأعدته إلى الإضافة، وجملة من القطب على الشمسية، وختمت عليه إيسغوجي مرارًا نضع ضروب الأشكال المنتجة والعقيمة من الاقتراني ما تركب من الحمليات ومن الشرطيات متصلة أو منفصلة أو متنوعة، أو من الحملي والشرطي ومن الاستثنائي وهو رامز التناقض والعكس، في لوح الاستملاء حتى تُفهم هنالك. وعلى يده فتح الله بصيرتي في تلك العلوم"[37]. وكان دوره عظيمًا في إحياء هذه العلوم بفاس بعدما كانت قد اندرست، "فهو مجدد سند تعليمها بها، وعنه أُخذت على الحقيقة"[38]. وقال المحبي في **خلاصة الأثر** عند ترجمة محمد بن قاسم القصار (تلميذ ابن خروف): "[...] وكان سوق المعقول كاسدًا بفاس فضلًا عن سائر أقطار المغرب، فنفق في زمانه ما كان كاسدًا من سوق الأصلين، والمنطق، والبيان، وسائر العلوم لأن أهل المغرب كانوا لا يعتنون بما عدا النحو والفقه والقرآن مما يوصل إلى الرئاسة الدنيوية [...] إلى أن رحل اليَسِّيتني إلى المشرق فأتى بشيء من ذلك، ثم ورد الشيخ خروف التونسي، وكان إمام ذلك كله والمقدم فيه"[39]. أما القصار فقد نعت شيخه ابن خروف بـ "المنفرد بالمنطق والكلام وأصول الفقه والبيان بفاس"[40]، ومقابل ذلك كانت براعته أقل في علوم الفروع، وكان طلابه الذين يحضرون حلقاته لتدريس **مختصر خليل**، يلاحظون كم يشقّ عليه ذلك "إذ لم يكن له كتب في الفقه مما حفظ ولا درس"[41].

تجنب ابنَ خروف أكثر طلبة فاس، رغم غزارة علمه، ولم ينتفع من علومه إلا شيوخ معدودون أمثال القصار والمنجور. أما سبب هذا التجافي فيشرحه المنجور قائلًا: "لازمته قريبًا من سنتين إثر قدومه، وتجنّبه أكثر الطلبة لوقفة كانت في لسانه شبه العجمة، وما زال

35 المنجور، ص 15، 69.

36 المرجع نفسه، ص 15، 71.

37 المرجع نفسه، ص 70.

38 القادري، ص 91.

39 محمد بن أمين بن فضل الله المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج 4 (القاهرة: المطبعة الوهبية، 1284هـ)، ص 121.

40 محمد القصار، **فهرسة محمد بن قاسم القصار**، مخطوط رقم 294/6، مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء، ورقة 2.

41 المنجور، ص 71.

البعض منها إلا بعد مدة، ولأنهم ما أَلِفوا تلك الفنون ولا عرفوا قدرها"[42]. ويؤكد المحبي أن هذه الأسباب جعلت أهل فاس لا يقدّرونه قدره، وحصرت الانتفاعَ به في بضعة طلاب[43]. ولا شك في أن هذه العجمة التي استولت على لسانه، ثم زالت بعد فترة، كانت بسبب طول المدة التي قضاها في بلاد الإسبان، فدرج لسانه على الحديث بلغة أخرى غير العربية التي أضحى التكلم بلسانها محرمًا في شبه الجزيرة الإيبيرية.

لقد دامت فترة أسره ست سنوات، لا نعرف عنها سوى أنه كان مستعبدًا في ألمرية قبل أن يشتريه كلينرد وينتقل معه إلى غرناطة. ونعتقد أن ابن خروف لم يدوِّن شيئًا عن حياته في الأسر، فالدكالي الذي بدا مهتمًا بهذه المرحلة من حياته، بعد وقوفه على مقالة الأب لامنس في **مجلة المشرق**، بحث عن رحلته/ فهرسته حتى حصل عليها، من صديقه الكتاني كما نظن، ولكنه لم يعثر فيها على طائل. ويدل على ذلك النصُّ الذي قيده الدكالي في كناشته، والذي لم يتجاوز فيه ابن خروف جملة واحدة عند حديثه عن فترة أسره، قائلًا: "هذا وكانت مدة أسري ستة أعوام غير قليل، محفوظ فيها ديني وبدني فضلًا من الله، له الشكر على ذلك، إلى أن خلصني الله تعالى خلاصًا جميلًا على يدي مالكها (يعني فاس) مولاي السلطان المؤيد أبي العباس أحمد الوطاسي، أجمل الله خلاصه، فبذل في فدائي مالًا كثيرًا يقرب من الألف دينار بعد محاولة عظيمة يطول ذكرها، وعاملني بعد الخروج بما لا أُحصي عدَّه، جعله الله تعالى له عُدَّة. وأول يوم قابلته فيه، وذلك في أول رجب الفرد عام سبعة وأربعين وتسعمائة، وقد خلع علي من أحاسين ملابسه"[44]. ولو عثر الدكالي على معلومات إضافية حول فترة الأسر لكان قد دونها بالتأكيد لأنه كان بصدد البحث عن العلاقة بين كلينرد وابن خروف. وهو أول باحث عربي، فيما وقفنا عليه، اكتشف هذه العلاقة كما أشرنا سابقًا. ولا يظهر الأمر غريبًا بالنسبة إلينا، فالحديث عن الذات عند علماء المسلمين غير محبّذ إلا في مجال العلم والتعلم، وما عدا ذلك يدخل تحت طائلة الرياء المنهي عنه شرعًا، وذِكْرُ بعض الأحداث مما عاصره المؤلف يكون من باب أخذ العبرة فقط لا من باب تسجيل التفاصيل التي لا طائل من ورائها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فحري به أن ينسى معاناة الأسر والعبودية بدل تَذَكُّر ما قد ينكأ الجروح النفسية التي لم تكد تندمل. فنحن نتصور أن إقامة ابن خروف عبدًا أسيرًا في إسبانيا، في زمن محاكم التفتيش وحملات التنصير القسرية التي شملت بقايا المسلمين هناك، قد تكون أكرهته على إظهار تنصُّره، وإن لم يكن الأمر كذلك فهي على الأقل أجبرته على إخفاء إيمانه والتخلي عن ممارسة شعائره.

وفي المقابل تحدث ابن خروف في رحلته عن "كيفية دخول الإسبان لمدينة تونس وكيفية الاستيلاء عليها غدرًا، وأسره في جملة من أُسر بعدما أمَّنهم ملكها الحسن الحفصي"[45]، والمقصود هنا الحملة الإسبانية التي قادها شارل الخامس بنفسه على مدينة تونس سنة 1535، مستغلًا لجوء السلطان الحسن الحفصي إليه طالبًا مساعدته في استرجاع ملكه من الأتراك الذين طردوه من تونس.

كانت السلطة الحفصية قد وصلت إلى حالة من التدهور الشديد في بداية القرن السادس عشر، وأصبحت بلاد تونس منطقة صراع بين القوات الإسبانية والعثمانية التي استغلت ضعف سلطة الحفصيين، وانحسار نفوذ السلطان الحفصي الحسن بن محمد في الشمال الغربي من البلاد، بعد خروج جل القبائل والمدن الكبرى عن طاعته. وبعد أن سيطر الأتراك بقيادة الأخوين عروج وخير الدين على الجزائر، مدوا أنظارهم إلى تونس قبل أن تسقط في يد الإسبان الذين كانوا يرغبون في احتلال البلاد لوقف التوسع العثماني غرب حوض البحر المتوسط.

42 المرجع نفسه، ص 70.

43 المحبي، ص 121.

44 الدكالي، ورقة 22.

45 المرجع نفسه.

وتمكن خير الدين من قيادة حملة تركية دخلت تونس في آب/ أغسطس 1534، وألحقتها إلى جانب الجزائر بالخلافة العثمانية، فلجأ الحسن الحفصي إلى الإمبراطور شارل الخامس يستعطفه ويتعهد له بالتبعية إن هو ساعده على استرجاع ملكه. واستغل الإمبراطور هذه الاستغاثة ليقود بنفسه أسطولًا ضخمًا يتألف من أربعمئة قطعة بحرية، بمشاركة قوات إسبانية وإيطالية وألمانية وبرتغالية فيما يشبه حملة صليبية حقيقية، قدر قوامها بأربعة وعشرين ألف جندي[46]. وبعد مواجهات كبيرة بين الحملة الإسبانية وقوات المسلمين بقيادة خير الدين، دخل جيش الإمبراطور مدينة تونس في 21 تموز/ يوليو 1535، واستباحوها، فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال واغتصبوا الحرائر وهدموا المساجد وحرقوا الكتب. وفي الجملة كانت مقتلة عظيمة لم ينج منها إلا من قَدَر على الفرار، أما من أدركه الإسبان قبل ذلك فكان بين مقتول ومأسور. وعنها قال ابن أبي دينار: "وهذه الواقعة هي المعبر عنها بمخطرة الأربعاء، وكان السلطان الحسن أباح البلاد للنصارى ثلاثة أيام [...] وقيل في هذه الواقعة، أُسر الثلث، ومات الثلث، وهرب الثلث. وسمعت من شيوخ البلد من يقول عدد كل ثلث ستون ألفًا، والله أعلم بكل ذلك. وكانت هذه الواقعة سنة إحدى وأربعين وتسعمائة"[47].

كانت الواقعة مفاجئة لأهل المدينة ومنهم ابن خروف، فقد كان الحسن الحفصي وعدهم بالأمان، وأخبرهم أن دور الإسبان سيقتصر فقط على طرد الأتراك ومساعدته لاسترجاع ملكه المسلوب من دون أن يدخلوا المدينة، غير أن المشاركين في الحملة قدموا بدوافع صليبية تحدوهم المشاركة في حرب مقدسة ضد "الكفار". ولم يكن القتل والأسر إلا تجسيدًا لتلك الروح الدينية المتعصبة التي تحكم علاقة المسيحيين بالمسلمين في غرب المتوسط حينئذ. ويروي ابن أبي الضياف بمرارة هذه الخديعة قائلًا: "وذلك أن الصبنيول اشترط على هذا السلطان الحسن استباحة المدينة ثلاثة أيام، والتزم بذلك، ولا علم لأحد من أهلها، فبينما الناس في سكون وعافية، واغترار بطلب ذلك الأمان، وأسواقهم مفتوحة، فهجم عليهم عسكر الصبنيول على حين غفلة، وامتدت أيديهم لاغتيال النفوس، ونهب الأموال، وفر إلى جبل زغوان من أمكنته الفرصة بنفسه وأهله. يقال في هذه الواقعة مات الثلث من أهل تونس ونجا الثلث وأُسر الثلث، وتغيرت البلاد، وطمست أعلامها"[48].

كان مصير ابن خروف من الثلث المأسور. ومع شديد الأسف فإننا لا نتوفر على أي معلومة تتعلق بظروف أسره ونقله إلى بلاد الأندلس، التي بيع في أحد أسواق عبيدها. كما لا نعرف شيئًا عن عمره لحظة أسره، وطبيعة الأعمال التي كُلِّف بها من طرف أسياده، وحيثيات هؤلاء الأسياد. وكل ما نعرفه هو ما حكاه كلينرد في رسائله لأصدقائه. فهو يذكر أنه لما سمع خبر ابن خروف، وعلم أنه عالم متمكن في فنون اللغة العربية، رحل بسرعة إلى غرناطة حيث أقنع المركيز نائب الملك في مملكة غرناطة بمساعدته لشراء هذا العبد، ثم أصر على مرافقة جنود المركيز بنفسه إلى ألمرية رغم بعد المسافة وخطورة تلك الجبال المأهولة بالموريسكيين المعادين. وحين علم أسياد ابن خروف بحرصه هذا رفعوا السعر من المئة دوقة التي اقترحوها في البداية إلى ثلاثمئة دوقة. وكان كلينرد مرغمًا على دفع المبلغ الجديد لأنه غير مستعد لتضييع هذه الفرصة الثمينة، ولذلك طلب مساعدة المركيز الذي دفع مئة وثمانين دوقة من ثمن العبد مقابل بقاء كلينرد مدة بغرناطة لتعليم المركيز وابنه اللغة اليونانية.

ونعلم أيضًا أن كلينرد حين عثر على ابن خروف كان كمن عثر على كنز ثمين فتح أمامه بابًا واسعًا للعبور نحو الثقافة الإسلامية والتعمق في الدراسات العربية. وفي المقابل كان هذا اللقاء بسْمةَ القدر في وجه ابن خروف التي فتحت الطريق لإنقاذه من العبودية وعودته إلى بلاد المسلمين، مستعيدًا مكانته كواحد من أكبر علماء أواخر العصر الوسيط بالمغرب الكبير، حيث استقر في فاس مَرعي الجانب،

46 حول تفاصيل هذه الحملة انظر: درويش الشافعي، "الحملة الإسبانية على تونس في سنة 1535م"، **الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية**، العدد 30 (أيلول/ سبتمبر 2017).

47 ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس** (تونس: مطبعة الدولة التونسية، 1286هـ)، ص 155.

48 أحمد بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ج 2 (تونس: نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، 1963)، ص 13.

مُلاحظًا من قبل السلطان. وقضى أزيد من ثماني عشرة سنة منتصبًا للتدريس بالقرويين وبمدرسة العطارين وغيرها من مراكز التعليم بفاس. وعن هذه المرحلة من حياته كتب: "فلما حططت رحلي فاس المحروسة، أنست جنابهم مربعًا يانعًا وعيشًا خصيبًا، فاشتغلت مدة إقامتي فيها بالقراءة بجامعها الأعظم، ومراجعة الأفاضل والاستفادة والإفادة حسب الطاقة"[49]. وبجانب اشتغاله بالدرس والتدريس اتخذ دكانًا للشهادة إلى أن توفي بفاس عام 966هـ الموافق سنة 1558م.

لقاء المغتربَين: من غرناطة إلى فاس

سبق أن أشرنا إلى ظروف اللقاء بين كلينرد وابن خروف. كلاهما كان مغتربًا عن بلاده، وبينما كان أحدهما يعيش حياة العبودية الجسدية والاضطهاد الديني والثقافي، كان الآخر يقوده الحماس الشديد لتحقيق مشروع كرَّس له سنوات من عمره. كان اللقاء مثمرًا جدًا بالنسبة إلى كلينرد، فقد عثر على كنز عظيم مثَّل فتحًا جديدًا في دراسته العربية والإسلامية، واطَّلع بفضله أول مرة على الدين الإسلامي وعلى القرآن الكريم، ومن ثم لم يعد طموحه مقصورًا على تعلم العربية بل تعداه إلى أكثر من ذلك، فقد أخذته الحماسة إلى الرغبة في دراسة الإسلام والرد عليه. أما بالنسبة إلى ابن خروف فلم يكن الأمر يعدو أن يكون استبدال عبودية بعبودية جديدة، ومع ذلك فقد أظهر تفانيًا صادقًا في تلقين كلينرد كل ما يحتاج إليه لإتقان اللغة العربية. ويدلّ على ذلك التقدم السريع الذي أحرزه كلينرد في هذا المجال. ولم يَقْصُر درسه على اللغة فقط، بل ضم إليه درس الدين أيضًا بما في ذلك درس العقيدة والسيرة النبوية.

من المؤسف أن نسجل هنا غياب المصادر التي من شأنها أن تكشف لنا طبيعة العلاقة المعقدة التي جمعت بين هذين المغتربين في ضوء المفارقات العديدة التي طبعتها: السيد/ العبد، التلميذ/ الأستاذ، المسيحي/ المسلم، الراهب/ الفقيه. إن رسائل كلينرد التي تعتبر المصدر الوحيد لسيرته لا تقدم لنا الشيء الكثير في هذا الشأن. كما لا تشجعنا على تصديق كل ما تحتويه من معلومات، فهي في النهاية مُوجّهة إلى أطراف مسيحية، نُقدّر أن كلينرد كان يريد تلميع صورته لديها والظهور بمظهر الأبطال الفاتحين. أما بالنسبة إلى المصادر العربية فإننا لا نتوفر إلا على نص المنجور الذي يقدم معلومات شحيحة، لكنها وللمفارقة تتناقض كثيرًا مع ما أورده كلينرد. وهو ما يطرح مشكلة أخرى.

تقول الرواية الإسلامية الواردة في فهرسة المنجور: "ومنهم شيخنا المعقولي الأديب المتفنن الحاج الرحال أبو عبد الله محمد ابن خروف الأنصاري التونسي. قَدِم من أرض العدو حين افتَكَّه سلطانها المريني أبو العباس أحمد من الأسر في حدود السبعة والأربعين، قدم به آسره النصراني طالبًا أن يُقرئه النحو كشأنه معه في أرضهم، فإنه كان يقرأ عليه هناك المفصَّل للزمخشري ليتوصل الآسر المذكور إلى فهم القرآن، فإنه كان ينظر فيه ويتطلب فهمه ويفهم في النحو بعض فهم، فأفتى شيخنا الإمام بالمنع من ذلك بعد أن كان الفقيه أسيرُه يعِده بذلك، ولذا قدم معه. وشيخنا الإمام هو السبب في فدائه بإلحاحه على المريني ومدحه إياه له بعرفه بتلك البلاد.

قلت: وهو المذهب، إذ قال مالك: ينهى أن يعلّم المسلمُ الكافرَ القرآن والخط العربي لأنهم يتوصلون بذلك إلى المصحف.

كان هذا النصراني من عظمائهم ختن المركش[50] صاحب غرناطة. قيل كان طالبًا للحق مائلًا إلى الإسلام يقرأ في المصحف ويبكي، وإنه مات على الإسلام، وتفطن له النصارى وراموا حرقه ثم لم يفعلوا سترًا على العامة وسياسة لأنه من قسيسيهم. حكى لي ذلك شيخُنا هذا على ما أُخبِر به. وكان يبحث عن أمره من يأتي من الأندلس. وكان هذا القسيس يُحسن إلى شيخنا المذكور، ولكن قبَض فيه نحو

49 الدكالي، ورقة 22.

50 يقصد أن كلينرد كان صهرًا للمركيز نائب الملك بمملكة غرناطة. والغريب أن كلينرد لم يشر قط إلى علاقة المصاهرة التي جمعته بهذا الحاكم، بل إن كل ما جمع بين الشخصين هو علاقة الصداقة لا غير. فمن أين أخذ ابن خروف هذه المعلومة؟ يبدو أنه لم يكن يدري ما يدور حوله في غرناطة.

ألف أوقية، فيحتمل أن ذلك لكون الإسلام حينئذ لم يكن تمكَّن من قلبه، ولئلا يتفطَّن له النصارى. ورجوعُه حينئذ إلى أرضهم لعلَّه ليأخذ شيئًا من ماله. والله تعالى أعلم بحقيقته"[51].

هذه الرواية المختصرة التي من الواضح أن مصدرها ابن خروف نفسه، لا تقدم الكثير من التفاصيل، ربما بسبب إحجامه عن الحديث لطلابه عن محنته في الأسر، وما واكبها من المآسي التي قد يكون تعرض لها، أو ربما لاقتصاد المنجور في رواية هذه التفاصيل لأنها مما يخرج عن قصده في الفهرسة التي تُعنى أساسًا بمسألة التعليم والتعلم. ومهما يكن فإن هذه الرواية تخالف ما أورده كلينرد من عدة وجوه سنناقشها لاحقًا.

يقدم كلينرد رواية أخرى، لا يمكن الاطمئنان إليها اطمئنانًا كبيرًا أيضًا، خصوصًا إذا علمنا أنها وردت في سياق رسائله إلى جهات كان يسعى إلى الحصول على دعمها. وهذه الرسائل التي كتبها في غرناطة وفاس وجّهها إلى ثلاثة أطراف: بعض أصدقائه، والإمبراطور شارل الخامس، ورسالة أخرى وجهها "إلى المسيحيين". في الرسالة التي بعث بها من غرناطة إلى صديقه لاتوموس Latomus بتاريخ 12 تموز/ يوليو 1539، يدافع عن فكرة التنصير السلمي للمسلمين La croisade pacifique، التي بدأ يتحمس لها أكثر فأكثر مستفيدًا من سلاحه اللغوي الذي قضى سنوات في شحذه. فقد أصبح يرى أن التحويل السلمي للمسلمين إلى المسيحية عن طريق الجدل الديني سيكون أشد فاعلية وأقل تكلفة من الحروب ومحاكم التفتيش. ومن الملاحظ أن هذه الفكرة لم تكن واردة ضمن أهداف مشروعه لتعلم العربية قبل هذه اللحظة.

كيف اقتنع بهذه الفكرة؟ لا نعرف بالضبط، لكن فكرة الجدل ضد المسلمين بدأها اللاهوتيون العرب ثم اليونانيون في المشرق، ولم تستمر في أوروبا بسبب الجهل بلغات المسلمين ومذاهبهم. وعندما انتقلت المجادلات الدينية المشرقية إلى بلاد الأندلس انتشرت ظاهرة المناظرات والجدل الديني. وأصبحت المناظرة حقلًا معرفيًا إسلاميًا تُقعَّد له القواعد ويدرَّب عليه العلماء للدِّفاع عن الدين الإسلامي أمام شبهات المسيحيّين. وكان هؤلاء قد ترجموا أجزاء من القرآن الكريم إلى اللاتينية، وظهر مسيحيون مخلصون وهبوا أعمارهم لتقعيد هذا الجدل الديني ضد المسلمين، مثل ريمون لول Raymond Lol الذي اتخذ عبدًا مسلمًا ليعلمه العربية، ثم ألف عدة رسائل للرد على الإسلام.

من المؤكد أن كلينرد لم يكن يحمل هذه الفكرة قبل وصوله إلى غرناطة، فرسائله التي تعدّ المصدر الوحيد لسيرته، كما أشرنا، تخلو من أي انتقاد للدين الإسلامي أو رغبة في تنصير المسلمين قبل مرحلة غرناطة. وبعد لقائه بابن خروف اطلع على القرآن الكريم وأخذ يدرس العقيدة الإسلامية، فلاحظ أن هذا الدين من السهل التشكيك فيه وتحطيم أسسه، خصوصًا أن القرآن يعترف بالإنجيل، وهذا يوفر قاعدة صلبة للمسيحية. كما اعتبر أن بعض أفكار المسلمين سخيفة مثل اعتقادهم أن الجنة بها عدد كبير من النساء، وأن الرجل هناك سيتزوج ما لا حصر له منهن. ومع ذلك يعتقد كلينرد أن من الخطأ مهاجمة دين واسع الانتشار، لكن من الملائم مناقشة المسلمين في قضايا العقيدة ضمن شروط تضمن النجاح. وهذه الشروط حددها فيما يلي: أولًا المعرفة والفهم، أي قراءة القرآن وأصول العقيدة الإسلامية، لأنه من الغباء مهاجمة ما لا تفهمه، "وسيكون من الأفضل أن نبقى صامتين من أن نبدو سخيفين حين ندافع عن قضية مقدسة بشكل خاطئ". الشرط الثاني لهذا النجاح يتمثل في المعرفة الجيدة باللغة العربية وقواعدها، إذ إن الجدل لن يخدم أي غرض إذا كان مكتوبًا باللاتينية التي يجهلها المسلمون. أما الشرط الثالث فهو ضرورة التمييز بين الدين المرفوض والناس الذين يؤمنون به والذين يجب أن نُظهر لهم كامل المودة[52].

---

51 المنجور، ص 69-70.

52 Chauvine, pp. 132 - 133.

إن المشكلة واضحة بالنسبة إلى كلينرد والحل الذي اقترحه واضح أيضًا: ما يجب القيام به هو أن يصبح على دراية جيدة بطبيعة الإسلام، ثم يؤسس درس العربية بلوفان صحبة أستاذه العربي لتدريب تلامذته على المحادثة والممارسة، فيمكنه، بعدها مع طلابه، ترجمة القرآن والكتب الدينية، والرد عليها ردًا حاسمًا، مع أمل أن يحقق ذلك نجاحًا وانتشارًا في جميع بلاد الشرق[53].

لقد بدأ كلينرد تنفيذ مشروعه رغم الصعوبات التي كان يعلم أنه سيواجهها. وكانت أولى الصعوبات عدم وجود مخطوطات عربية تمكّنه من دراسة الدين الإسلامي بعد أن منعتها الكنيسة. وحاول مرارًا الاتصال ببعض الجهات من أجل التوسط لدى محاكم التفتيش كي تسلمه المخطوطات التي تحتجزها في انتظار حرقها، ووعده المركيز بمساعدته في البحث عنها، وإحضارها ليستنسخها أستاذه العربي، لكن من دون جدوى. ثم حاول الحصول على دعم الحكومة الإسبانية واتصل بمدرِّس فيليب الثاني Philip II سيليكوس Silicaeus الذي كان قد عرفه في سلامنكا، والذي كان بحسب ما قال، يشاطره أفكاره. ولم يتردد هذا الأخير في تشجيعه، ووعده بالدعم العظيم من إسبانيا، ولكنه طلب منه أن ينظّم ملتقى في غرناطة لتنصير المسلمين الذين يعيشون في الأندلس، حتى يقتنع الملك بدعم مشروعه. ولكن كلينرد رفض العرض لأنه، كما قال، يرفض أن يحارب هؤلاء العبيد الذين هم تحت رحمة محاكم التفتيش[54].

وأمام عجزه عن الحصول على المخطوطات العربية التي تمكّنه من دراسة الإسلام عن قرب، قرّر الذهاب بنفسه إلى إفريقية حيث سيتمكن، إضافة إلى ذلك، من التعمق في فهم النظام الديني الإسلامي. فترك مُعلِّمه بغرناطة وغادر رفقة صديقه المخلص غيوم Guillaume الذي لم يفارقه منذ غادرا معًا لوفان. وكان يدرك خطورة مشروعه، وصرّح بأن المسلمين، الذين سيذهب إليهم، سيرجمونه بالحجارة لو عرفوا خططه. ولذلك سيحرص على التكتم الشديد على مشروعه. وكانت خطته هذه تعتمد على الكثير من الحكمة التي لم تكن تنقصه. وقرر أن يقول، في كل مكان ودائمًا، إنه جاء إلى إفريقية لتعلم العربية من أجل تأسيس هذا التعليم في أوروبا، وامتلاك المخطوطات النحوية اللازمة لذلك. وقرر أيضًا ألّا يشارك في أي مناقشة دينية، وإذا بدأها أحدهم سيرفض المساهمة فيها منذ البداية. وإضافة إلى ذلك قرّر ألّا يَكرَه هؤلاء المسلمين، فقد قيل له الكثير عن عدم الثقة باليهود والمسلمين، وكان يعلم أن هذه الشعوب تكره المسيحيين، ولكنه كان يؤمن، كما قال، بأن الحب أقوى من الكراهية[55].

واستنادًا على هذه التفاصيل التي يقدمها كلينرد يبدو غريبًا تصريح المنجور بإسلام هذا النصراني، فالرجل لم يكن محبًا للإسلام ولا راغبًا في التحول إليه، بل على العكس من ذلك، كانت نياته الحقيقية، كما صرّح بذلك، هي تحويل المسلمين إلى المسيحية. وهذا يدل على أن ابن خروف لم يكن يعلم شيئًا عن نيات كلينرد الخفية، فقد تكتم هذا الأخير على مشروعه أمام أستاذه الذي كان يرى اهتمامه الشديد بتعلم العربية وتعلقه بالدين الإسلامي من دون أن يدري خططه السرية. ولذلك عندما قرر كلينرد الذهاب إلى المغرب زوده أستاذه برسالة توصية إلى السلطان يوصيه به خيرًا. وتظل مسألة عدم مصاحبة كلينرد أستاذه/ عبده في رحلته إلى المغرب غير مفهومة، علمًا أنه كان في الإمكان أن يمثّل عونًا له في تحقيق مآربه الخفية.

كانت العلاقات حينئذ بين البرتغال ومملكة فاس في أفضل حالاتها، فالبَلدان وقّعا حديثًا معاهدة سلام مدة إحدى عشرة سنة. وكان السلطان الوطاسي الأخير لجأ إلى مهادنة البرتغال بعد محاصرته من طرف الأشراف السعديين، الذين كانوا قد سيطروا على كل البلاد ولم يتركوا له إلا فاس، والنواحي التي سقطت في أيديهم سنة 1550. كانت المعاهدة تقضي بأن يتمتع البرتغاليون بحماية قنصل بلادهم المقيم بفاس، فأصبحت المدينة تعج بالتجار البرتغاليين. واعتقد كلينرد أن الأوضاع مُطمئنَة والجو ملائم تمامًا ليقوم بمغامرته،

53 Ibid., p. 133.

54 يذكر مؤلفا سيرة كلينرد أنه ندم على هذا القرار فيما بعد.

55 Chauvine, p. 40.

فعبَر من جبل طارق في اتجاه سبتة التي وصل إليها في 10 نيسان/ أبريل 1540. وبعد أربعة أيام من الراحة في سبتة اتجه إلى تطوان التي يذكر أنه ناظر فيها أحد العلماء في النحو العربي فغلبه، رغم أن الأخير درس خمس سنوات بفاس. ثم غادر تطوان في 29 نيسان/ أبريل نحو فاس التي وصل إليها في 4 أيار/ مايو (28 ذو الحجة 946هـ). وكانت رحلة صعبة بسبب الأمطار والجبال الوعرة وضرورة الإيواء في الخيام.

وفي فاس استقبله الملك بنفسه، وأخذته الدهشة عندما حيَّاه بلغة عربية فصيحة، ثم تناقشا طويلًا حول أهدافه من الزيارة، فازداد إعجاب الملك بفصاحته ونباهته، وعبَّر له عن ترحيبه ومساعدته في مقصوده، وعيَّن له حارسًا ملكيًا يرافقه أثناء تنقلاته بالمدينة. وقد شجعه ذلك على أن يستقر بالمدينة أكثر مما كان يتوقع. ويذكر أنه اختار ألّا يقيم وسط التجار والمغامرين البرتغاليين الذين كانوا يستقرون بـ "الديوانة" في المدينة القديمة تجنبًا لإثارة الشكوك حوله. ومع ذلك فإنه كان لا يسلَم من شتائم المسلمين بسبب هيئته ككاهن غريب المظهر. وبالطبع لا يمكن الوثوق كثيرًا برواية كلينرد التي لا تخفي مظاهر المبالغة والاحتفاء بالذات، فالصورة التي أراد أن يرسمها لنفسه في عيون المسيحيين هي صورة مسيح مخلص جاء لإنقاذ المسلمين الذين يذكر أنه كان بالنسبة إلى بعضهم مشكلة تزعجهم باستمرار، فبدل أن يرطن ببعض الكلمات بالعربية كما يفعل التجار، كان هذا "الفلماني" يتحدث عربية أفصح من أبناء البلد، ويستشهد بآيات من القرآن الكريم، ويعرف النحو أكثر من باقي علماء البلاد[56].

قضى كلينرد في فاس سنة من الحياة الهادئة الوادعة، عكف خلالها يدرس العربية أكثر فأكثر، واخترق معارف المسلمين واستوعب تعاليم ديانتهم، وتَحصَّل على عدد كبير من المخطوطات النحوية وغيرها. وخلال ذلك بدأت المساعي لتحرير ابن خروف من العبودية، وهي مساعٍ يلفها الكثير من الغموض في ضوء تناقض المعلومات الواردة وتضاربها عند المنجور وكلينرد. وإذا صدقنا هذا الأخير فإن المفاوضات حول تحرير ابن خروف بدأت منذ وصوله إلى فاس، حيث وعده السلطان بالمساعدة مقابل تسريح ابن خروف الذي كان يحظى بشهرة كبيرة في فاس. كما وعده بأن يبقى ابن خروف في خدمته ما دام مقيمًا بفاس. وفي رسالته المؤرخة في 5 تموز/ يوليو 1540 التي بعثها إلى صديقه بارفوس Parvus كتب قائلًا: "لقد سرقت المور (المغاربة) [...] اشتريت عبدي بـ 180 دوقة[57] وبعته للسلطان بـ 500 دوقة. ولو كنت أكثر دهاءً لبعته بسعر أعلى بكثير. والآن ماذا يمكن فعله أكثر من شراء عبد آخر بدوقات معدودة وإعادة بيعه بالآلاف؟ سأنطلق من هنا مباشرة إلى غرناطة، وبقليل من البحث سأعثر على عبد آخر. هناك واحد في مالقة وآخر في قرطبة وثالث في إشبيلية، وكلهم تونسيون"[58].

ولكن وصول ابن خروف إلى فاس لم يتم إلّا في أواخر جمادى الآخرة عام 947هـ[59]، إذ ذكر أنه التقى بالسلطان يوم فاتح رجب (يوافق 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1540). فلماذا بقي في إسبانيا كل هذه المدة إذا كان الاتفاق قد تم قبل 5 تموز/ يوليو؟ هل رفض المركيز الذي كان دفع جزءًا من ثمنه، إرساله إلى المغرب؟ لا نملك الجواب عن هذين السؤالين، غير أن النص السابق يفضح جشع كلينرد ورغبته في استثمار هذه التجارة المربحة لتحقيق أغراض مادية بحتة. وهذا الجشع هو الذي حاول المنجور تبريره بقوله: "وكان هذا القسيس يحسن إلى شيخنا المذكور، ولكن قبض فيه نحو ألف أوقية، فيحتمل أن ذلك لكون الإسلام حينئذ لم يكن تمكن من قلبه، ولئلا يتفطن له النصارى". وهي مبررات تبدو ساذجة في الظاهر، غير أنها تستند ولا شك إلى كثير من الوقائع التي يصعب تفسيرها في ضوء التناقضات

56 Ibid., p. 42.

57 في رسالة أخرى ذكر أنه اشتراه بـ 300 دوقة، دفع منها دي مندوزا حاكم غرناطة 180 دوقة.

58 Koningsveld, pp. 136 - 137.

59 انظر إلى عدم اطلاع المنجور على تفاصيل قدوم شيخه إلى فاس، فزعم أنه قدم مع النصراني آسره؟ وهو أمر يصعب فهمه، إذ من المنطقي أن يكون أخذ هذه المعلومات عن شيخه نفسه.

الكثيرة التي تحملها رسائل كلينرد. فإذا كان يسعى إلى الربح المادي من خلال بيع ابن خروف بسعر مرتفع جدًا، لماذا افتدى إذًا خمسة أسرى مسيحيين بفاس؟ هل يمكن القول إنه كان وسيطًا بين السلطان والمركيز الذي كان قد ساهم في شراء ابن خروف؟

في الواقع يحوم حول فترة إقامة كلينرد في فاس غموض كبير، إذ يصعب تفسير رسالة التوصية التي كتبها ابن خروف لسلطانها، ثم الترحيب الذي لقيه بها والسماح له بالبحث عن الكتب، بل وتخصيص حارس ملكي له. كل ذلك يثير فضول الباحث. فهل استطاع كلينرد خداع ابن خروف بإظهار إسلامه[60]؟ أم أنه فعلًا شعر بدرجة معينة من الميل نحو الدين الجديد؟ إننا لا نستطيع الجزم بأي من ذلك، ولكن من المؤكد أن مغامرة كلينرد بالإقامة في مجتمع آخر مناقض لعقيدته وثقافته، ومحاولته اللعب على الحبلين من خلال الحرص على إرضاء المسلمين والمسيحيين في نفس الآن، أحدثتا لديه شرخًا نفسيًا كبيرًا، وتناقضًا وجدانيًا أوقعاه في محنة سببت له الكثير من الألم والإرهاق النفسي ثم الوفاة المبكرة.

لقد انقلبت حياة كلينرد في فاس رأسًا على عقب، بعد سنة من قدومه إليها، وتحولت كل النجاحات التي حققها هناك إلى سراب، فقد مُنع من التعلم، وأُبعد عن أستاذه، وصودرت مخطوطاته ومُنع من الحصول على أخرى، وقضى الشهور الأخيرة بالمدينة في حالة يرثى لها أشبه بالسجين. وقد أشار في رسائله إلى كل ذلك، ولكنه لسوء حظنا اعتمد في سرد أحداث هذه المحنة على التلميحات فقط، فذكر أن الذي سبب له هذه المحنة هو "الوحش" الذي لم يكن، بحسب تشوفين ورورش، سوى القنصل البرتغالي بفاس[61].

وفي ضوء غياب التفاصيل والمعطيات الكافية، واستنادًا إلى مجريات الأحداث التي استعرضناها سابقًا، يمكن أن نعيد بناء ما حدث بمدينة فاس كالتالي: يبدو أن كلينرد، لكي ينال رضى المسلمين بفاس ومعهم السلطان، اضطر إلى إظهار ميله إلى الإسلام. وبما أن غرضه اكتشاف هذا العالم من أجل مهاجمته، فقد كان على استعداد لتوظيف كل الأسلحة التي كان يراها ضرورية في هذا المخطط. وهكذا اقترح التوسط لإطلاق سراح ابن خروف، الأمر الذي سيزيده حظوة عند المسلمين، خصوصًا أن ابن خروف كان معروفًا عند علماء المدينة مثل اليسّيتني الذي كان قد لقيه بتونس خلال رحلته إلى المشرق. ثم يبدو أن كلينرد في حواره مع المسلمين أبدى استعداده لإعلان إسلامه، وترتب عن ذلك انتشار شائعات قوية جرت بفاس عن تحوله إلى الإسلام[62]. ولا نستبعد أن يكون قد أشهر إسلامه فعلًا للمقربين منه كأستاذه من باب الخداع لا غير. ولكنه فوجئ بما لم يكن في حسبانه، فقد وصل خبر إسلامه إلى القنصل البرتغالي، الذي لم يكن يُكِنُّ له كثيرًا من الودّ بسبب المكانة التي اكتسبها عند السلطان، فتمكَّن من التأثير في الأمراء البرتغاليين باستعمال وجهة النظر الدينية، خاصة في ظل محاكم التفتيش، فاتهام كلينرد بالميل إلى الإسلام كان كافيًا للقضاء عليه، خصوصًا أن هؤلاء الأمراء كانوا يعلمون مواقفه تجاه حرية التفكير في المسائل الدينية واللاهوتية[63]. كان رد فعل البرتغاليين صارمًا، فقد صادروا أمواله هناك، وحرموه من مستحقات المعاش المترتب عن سنوات الخدمة في تعليم الأمير هنري. ولا يمكن هذا الوضع أن يروق لكلينرد نظرًا إلى تداعياته الخطيرة على مستقبله عندما يعود إلى بلاده، فقد يصبح مهددًا بالحرمان الكنسي إلى الأبد، وهذا سيمنعه من العودة لأنه قد يتعرض لحكم الموت حرقًا[64]. ولأجل ذلك حاول كلينرد تدارك الأمر، فأرسل رفيقه غيوم إلى البرتغال لتكذيب الإشاعة. وغادر غيوم فاس في اتجاه البرتغال في نيسان/ أبريل 1541، ثم عاد في 5 آب/ أغسطس محملًا بأخبار سيئة[65]. وبعد هذه الخيبة انتبه كلينرد إلى خطئه

60 انظر نص المنجور وهو في ذلك يروي عن شيخه.

61 Chauvine, p. 44.

62 Ibid., p. 47.

63 Ibid., p. 48.

64 ذكر المنجور أن قومه حاولوا حرقه فعلًا. ونعتقد أن مصدر هذه الفكرة هو كلينرد نفسه الذي روج أنه مهدد بالحرق إذا ما عاد إلى بلاده مسلمًا.

65 Chauvine, p. 49.

الجسيم وشعر بخطورة الموقف، وقرر أن يسابق الزمن لرأب الوضع، ومنذ لحظة عودة رفيقه بدأ في كتابة رسالته الشهيرة "رسالة إلى المسيحيين"[66]. ثم لإزالة الشكوك قرر أن يرسل غيوم ثانية إلى البرتغال ويُحَمِّله هذه المرَّة رسالة مباشرة إلى تلميذه الأمير هنري يوضح له فيها موقفه[67].

وعلى مستوى آخر كانت الشكوك تتزايد وسط صفوف المسلمين تجاه نياته الحقيقية، وتهمة الردة عن الإسلام لو ثبتت ستقضي عليه لا محالة. فيكفي القول إن كلينرد كان مسلمًا وارتد عن دينه ليقتل بحسب تعاليم الشريعة الإسلامية[68]. وكان عالم فاس وإمامها اليسّيتني أكثر حزمًا في مواجهة هذا النصراني المتلوّن، فأصدر فتوى تحرّم تعليمه العربية أو غيرها من العلوم الدينية، لأن ذلك، في نظره، مخالف لما قرره إمام المذهب. واحتج على الموقف المتخاذل للسلطان الذي ترك عالمًا مسلمًا في خدمة نصراني كافر. وتحت هذه الضغوط أمر السلطان بتجريد كلينرد من مخطوطاته وإيقاف جميع نشاطاته.

في الواقع سقط كلينرد ضحية مغامراته، وكاد أن يصبح منبوذًا من العالَمين اللذين اختار أن يقف على حدودهما، ووجد صعوبة كبيرة في التنصل من هذه الورطة التي لم تكن في الحسبان، وفي إثبات براءته من تلك الاتهامات التي لاحقته من الجهتين. ولم ينل ما كان يأمله من البرتغال، رغم طلباته المتكررة والملحة. ولم يلق إلحاحه صدى عند الأمير، فقرر المغادرة نحو إسبانيا عسى أن يجد هناك الدعم الذي يرجوه لمشروعه. أما بخصوص الحجج التي قدمها بفاس لتبرير رحيله فلا نملك بشأنها أي معلومات، غير أن قول المنجور: "ورجوعه حينئذ إلى أرضهم لعله ليأخذ شيئًا من ماله"، يؤكد أنه استخدم قصة ماله المحتجز لدى الأمير البرتغالي مبررًا للمغادرة والرحيل.

غادر كلينرد فاس وحده متجهًا إلى مدينة أصيلة، التي وصلها يوم 8 أيلول/ سبتمبر 1541. وهناك، ولسوء حظه، كُسرت ذراعه اليمنى بعد حادث سقوطه عن الحصان. ثم غادر في اتجاه قادس ومالقة وصولًا إلى غرناطة، حيث يبدو أنه نزل عند المركيز الذي كان يعوِّل على دعمه. ولا نعرف شيئًا عن تفاصيل هذه الرحلة، لأنه لم يصل إلينا عنها شيء يذكر. فقط في 17 كانون الثاني/ يناير 1542 نجده في غرناطة، وهو التاريخ الذي وقَّع فيه رسالته إلى شارل الخامس، يخبره فيها بوصوله إلى المدينة قبل أيام. وبعد أن تأكد نهائيًا من الموقف البرتغالي شعر بخيبة أمل كبيرة أمام هذا النكران للجميل. وهنا بكى كلينرد على نفسه للمرة الأولى، وأرسل رسالة إلى شارل الخامس يستعطفه ويطلب مساعدته في خططه[69].

وفي غرناطة يظهر كلينرد متحمسًا لإتمام مشروعه، فهو عازم حسبما يخبر في رسائله، على البحث عن عبد آخر في إسبانيا يساعده على دراسته للعربية، ومن ثم العودة إلى المغرب. وهذا يدل على أنه حافظ على علاقات جيدة بفاس. غير أن الهموم والسقام توالت عليه، فسقط مريضًا ومات بعدها بقليل، وقُبر في قصر الحمراء الذي شيَّده ملوك الأندلس من بني أُميَّة.

أما ابن خروف فقد استقر بفاس، وحظي هناك بتقدير خاص من السلطان والعلماء وأهل المدينة، وكُني بـ "جار الله" تيمنًا بتحرره من العبودية وعودته إلى دار الإسلام. واشتهر برسوخه في العلوم العقلية حتى أصبح إمامها المبرز. وظل يستفسر عن مصير سيده وتلميذه الذي كان يرجو أن يكون سببًا لتحوله وهدايته إلى الإسلام لينال الثواب الأعظم.

66 كتاب شهير لكلينرد كتبه ما بين 5 آب/ أغسطس و18 أيلول/ سبتمبر، ولكنه لم يُكمله. ويرى مؤلفا سيرته أن السبب في عدم إتمام الكتاب يعود إلى الكسر الذي أصيبت به يده اليمنى مما منعه من الكتابة خاصة في غياب غيوم. إلا أننا نعتقد أنه بعد عبوره إلى إسبانيا لم يعد في حاجة إلى مثل هذا الكتاب الذي كان يسعى من خلاله إلى الدفاع عن نفسه أمام أهل ملّته وتكذيب الإشاعات حول إسلامه.

67 Chauvin, p. 50.

68 Ibid., p. 47.

69 Ibid., pp. 53 - 50.

خاتمة

مثّل لقاء كلينرد وابن خروف، بحيثياته وملابساته، حالة فريدة في تاريخ العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في الغرب الإسلامي خلال أواخر العصر الوسيط، فقد وحدتهما الغربة واللغة رغم اختلافهما في الثقافة والمعتقد. وإذا كانت مرحلة غرناطة طبعت هذه العلاقة بعدم التكافؤ، لكون أحدهما سيدًا مالكًا والآخر عبدًا مملوكًا، فإن مرحلة فاس اتسمت بحصول هذا التكافؤ بعد تحرر ابن خروف. ومن المؤكد أن كلًا منهما كان يحرص على تحويل الآخر إلى دينه، ولكنّ شهادتيهما تؤكدان أن علاقتهما طبعها الكثير من الود والتقدير بغض النظر عن اختلاف الدين.

لقد عاش كل من الراهب كلينرد والفقيه ابن خروف شطرًا من حياته، طوعًا أو كرهًا، في عالم غير عالمه. وعاد كلاهما إلى أهل ملته من دون أن يتمكن أي منهما من العودة إلى بلده. وماتا وقُبرا بعيدًا عن وطنيهما ومسقطي رأسيهما. وانتهت مغامرتهما على حدود تحفّها ألغام العداء والكراهية. وإذا كان ابن خروف قد تحقق رجاؤه في النجاة من الاستعباد والانتقال إلى بلاد المسلمين، حيث قضى ما تبقى من عمره مرعيًا بعناية السلطان ومحاطًا بإجلال طلابه، فإن كلينرد مات كَمَدًا على فشله في تحقيق حلمه بتأسيس كرسي لتعليم اللغة العربية في لوفان، يكون قوة ضاربة في الجدل الديني ضد المسلمين. إلا أن مشروعه هذا لم يُقبر بموته، فبعد فترة وجيزة على رحيله تأسست معاهد اللغة العربية في العديد من العواصم الأوروبية الكبرى، وخرَّجت أعدادًا غفيرة من المستشرقين ممن تجندوا لتنفيذ المشروع الذي لم يستطع كلينرد تحقيقه قيد حياته.



المراجع

العربية

- ابن أبي دينار. **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس.** تونس: مطبعة الدولة التونسية، 1286هـ.
- ابن أبي الضياف، أحمد. **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان.** تونس: نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، 1963.
- الدكالي، محمد بن علي. **كناشة مخطوطة.** ميكروفيلم رقم 22. الخزانة العامة بالرباط.
- السجلماسي، عبد الواحد الحسني، **الإلمام ببعض من لقيته من علماء الإسلام.** تقديم وتحقيق نفيسة الذهبي. الرباط: مطابع الرباط نت، 2008.
- الشافعي، درويش. "الحملة الإسبانية على تونس في سنة 1535م". **الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية.** العدد 30 (أيلول/ سبتمبر 2017).
- طحطح، خالد. **البيوغرافيا والتاريخ.** الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2014.
- القادري، محمد بن الطيب. **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني.** تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق. سلسلة التراجم 3. ج 1. الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977.
- القصار، محمد. **فهرسة محمد بن قاسم القصار.** مخطوط رقم 294/6. مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء.
- الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير. **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات.** اعتنى به إحسان عباس. ط 2. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982.
- المحبي، محمد بن أمين بن فضل الله. **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر.** القاهرة: المطبعة الوهبية، 1284هـ.
- المكناسي، أحمد بن القاضي. **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس.** الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973.
- المنجور، أحمد. **فهرس أحمد المنجور.** تحقيق محمد حجي. سلسلة الفهارس 1. الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976.
- المنوني، محمد. **المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث.** الرباط: جامعة محمد الخامس منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1983.
- لامنس، هنري. "درس العربية بأوروبا في القرن السادس عشر". **المشرق.** العدد 22 (15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1901).
- ________. "درس العربية بأوروبا في القرن السادس عشر". **المشرق.** العدد 24 (15 كانون الأول/ ديسمبر 1901).

الأجنبية

- *Acta Orientalia Belgica*. XXV. Bruxelles & Leuven: Société Belge d'Etudes Orientales, 2012.
- Chauvin, Victor & Alphonse Roersch. *Étude sur la vie et les travaux de Nicolas Clénard.* Bruxelles: Hayez, 1900.
- Lefranc, Abel. "Nicolas Clénard, Humaniste Belge, et les commencements du Collége de France." *Humanisme et Renaissance*. vol. 7, no. 3 (1940).
- Temimi, Abdeljelil (ed.). *Nouvelles approches des relations islamo-chrétiennes a l'epoque de la Renaissance*. Zaghouan: Fondation Temimi pour la Recherche Scientifique et l'Information, 2000.
- Renan, Ernes & Barthelemy Haureau. *Histoire littéraire de la France.* Paris: G. p. Gaston and L.D. Léopold Delisle, 1885.
- Roersch, Alphonse. *Correspondance de Nicolas Clénard*. vol. 3. Bruxelles: Palais des Académies, 1940-1941.



إلياس فتوح | Ilyas Foutouh*

جمعيات قدماء تلاميذ المدارس والثانويات الفرنسية الإسلامية ودورها في العمل الوطني في المغرب (1921-1956)

French Islamic School Alumni Associations and the Moroccan National Movement (1921-1956)

حضرت جمعيات قدماء تلاميذ المدارس والثانويات الفرنسية الإسلامية حضورًا خافتًا في الكتابات التاريخية المغربية المختلفة، ويعود ذلك إلى شح مصادر الموضوع، أو إلى الاهتمام بالوقائع والمؤسسات السياسية أكثر من الاهتمام بالمؤسسات الجمعوية. وحتى رواد الحركة الوطنية الذين عايشوا حدث الاستعمار الفرنسي وشاركوا في تطور العمل الوطني، لم يتعرضوا لهذا الموضوع إلا لمامًا، في معرض الحديث عن حدث تاريخي معين، باستثناء محمد حسن الوزاني الذي أفرد في مذكراته مذكرات حياة وجهاد صفحات لهذه الجمعيات وغيرها. من هذا الإشكال كان المنطلق. أما الهدف، فهو إبراز دور جمعيات قدماء تلاميذ المؤسسات التعليمية الفرنسية الإسلامية المغربية في العمل الوطني، باعتبار أنها كانت آلية من آليات الاستقطاب والتأطير والتنظيم لدى النخبة المغربية، وإظهار أهمية الممارسة الجمعوية في المغرب زمن الاستعمار، على الرغم من جنينية هذه المؤسسات في المجتمع. وأشار ذلك إلى نشوء مجتمع مدني حديث، بمؤسسات بدت كأنها تعوض تلك التقليدية التي طبعت حياة المغاربة في فترات طويلة من تاريخهم. ومن هنا نتساءل: كيف نشأ العمل الجمعوي في المغرب؟ وكيف سخّره المغاربة لخدمة العمل الوطني؟

كلمات مفتاحية: المغرب، الحماية الفرنسية، جمعيات قدماء التلاميذ، المجتمع المدني، الحركة الوطنية.

Islamic Alumni Associations have been little discussed in Moroccan historiography, either because of a scarcity of sources or because writers have been interested more in events and political institutions than associational organizations. Even the pioneers of the national movement who witnessed French colonization and participated in the development of the national movement only mentioned this topic in passing, in reference to particular historical events, with the exception of Muhammad Hassan al-Wazzani, whose memoir Life and Jihad dedicates many pages to these associations. This is the problematic the study sets off to address, seeking to highlight the role played by associations of alumni of Francophone Moroccan Islamic educational institutions in the nationalist movement. These associations formed a mechanism for recruitment and organization of the Moroccan elite. It also shows the importance of associational practice in colonial Morocco, despite the embryonic nature of these associations in society, indicating the emergence of a modern civil society of institutions seeming to compensate for those that had characterized Moroccan life for much of its history. It then asks how associational activity emerged in Morocco and how it was used by Moroccans to serve the national movement.

Keywords: Morocco, French Protectorate, Alumni Associations, Civil Society, National Movement.

* باحث في التاريخ المعاصر، حاصل على شهادة الدكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس.
A Researcher in the contemporary history. PhD holder, Faculty of Arts and Humanities, Sais, Fes.

مقدمة

لا مراء في أن الحركة الجمعوية في البلدان المستعمَرة، الأفريقية والآسيوية، على السواء، ارتبطت، منشأً وسيرورة، بنظيراتها في البلدان المستعمرة الأوروبية، على وجه الخصوص، إذ أدى الاحتكاك بالجماعات المعمِّرة الحريصة على إعادة إنتاج النموذج الأصل في بلدان الاحتضَان إلى وقوف المستعمَرين على مزايا العمل الجمعوي، ونصيبه في الارتشاف من قيم المدنية الغربية، وما يمنحه من شحنات تؤهل للمطالبة بالاستقلال وتحقيق الاندماج[1]. ويرى بعض الباحثين الذين اهتموا بالظاهرة في إفريقية أن العمل الجمعوي كان من العوامل الحاسمة التي أدخلت المجتمعات التقليدية (المتخلفة) في مسلسل الفصل بين ما هو ديني وما هو مدني (سياسي)، الأمر الذي ترتب عليه، على نحو طبيعي، حصول خلل في المعادلة التقليدية المؤطرة للمجتمع. إن اقتحام العمل الجمعوي للمجال العام قلّص، وأحيانًا حدّ، من فعاليات المؤسسات التقليدية التي كانت في السابق مسؤولة عن تحقيق التوازنات الاجتماعية، وهي مؤسسات كانت في أغلبها تستمد مرجعياتها من الدين والخدمة الروحية[2].

والمؤكد أن الاستعمار خلق، من غير قصد، دينامية داخلية، جعلت المؤسسات المحلية تنتقل من طور الإطارات التقليدية المتحكَّم فيها بروابط العصبية والنسب والمصاهرة، إلى طور البحث عن إطارات قبل حداثية، ترتكز على الانفتاح وحسن التدبير والحكامة والمردودية والمحاسبة وتناوب النخب[3].

لم تكن البلاد المغربية في منأى عن هذه التطورات التي حدثت في البلدان المستعمَرة، فقد نشأت الجمعيات بين الأهالي عن طريق الاحتكاك بالمستعمِرين، فرأوا في هذه التنظيمات الحديثة القدرة على تحقيق آمالهم في التنظيم والوحدة بينهم، والمشاركة الفعلية في الحياة اليومية، والدفاع عن قضايا الأمة الواقعة تحت الاستعمار. ومن بين هذه الجمعيات نجد جمعيات قدماء تلاميذ المدارس الإسلامية التي تمتعت بدعم كبير من إدارة الحماية الفرنسية، قبل أن ينشأ، بعدئذ، صراع حولها بين سلطات الحماية والنخبة المغربية. فكيف نشأت جمعيات قدماء تلاميذ المدارس والثانويات الفرنسية الإسلامية المغربية؟ وما أهم أوجه الصراع بين الحماية وممثلي هذه الجمعيات؟ وكيف وظفتها النخبة الوطنية في العمل الوطني لمصلحتها؟

أولًا: جمعيات قدماء تلاميذ المدارس والثانويات الفرنسية الإسلامية: دواعي التأسيس

أُسست جمعيات قدماء تلاميذ المؤسسات التعليمية الفرنسية الإسلامية في المدن المغربية الكبرى، بإيعاز من سلطات الحماية الفرنسية. ومن تلك الجمعيات: جمعية قدماء تلاميذ الثانوية الإسلامية مولاي إدريس في فاس التي أُسست في عام 1921، وجمعية قدماء مدرسة أبناء الأعيان في الدار البيضاء في عام 1922، والنادي الأدبي الإسلامي لأبناء الأعيان في سلا في عام 1927، وجمعية قدماء تلاميذ المدارس الإسلامية الابتدائية في مراكش في عام 1929، وجمعية قدماء تلاميذ الثانوية الإسلامية في الرباط في عام 1930، وجمعية قدماء المدارس الإسلامية الابتدائية في مكناس في عام 1931، وجمعية قدماء تلاميذ الثانوية البربرية في أزرو في عام 1942[4].

1 Michèle O. Deye-Finzi, *Les associations en ville africaines: Dakar-Brazzaville* (Paris: L'Harmattan, 1985), p. 2.

2 Ibid., pp. 31 - 34.

3 Ibid., p. 28.

4 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, des Beaux-Arts et des Antiquités au Maroc, au Directeur des Affaires Indigènes, "Note au sujet des associations d'anciens élèves des établissements scolaires d'enseignement musulman," 16/3/1934, A.D.N: Carton 1MA.200/435, p. 1.



لقد هدفت الحماية من وراء تأسيس مثل هذه الجمعيات، واشتغالها في الأوساط المغربية، إلى القيام بعمل الدعاية لمحاسن التعليم بين المغاربة، وتحسين الوضع المادي والمعنوي للتلاميذ وقدماء تلاميذ المؤسسات التعليمية الفرنسية الإسلامية، وجعلهم أمام أعين فرنسا، وتحت مراقبة سلطة إدارتها[5]. كما بيّنت ذلك القوانينُ المنظمة لهذه الجمعيات التي اعتُرف عبرها بعضوية مدير المؤسسة مستشارًا تقنيًا لها[6]، الأمر الذي يجعلها مراقَبة على الدوام من طرفه. ويقول محمد حسن الوزاني في هذا الصدد: "وفرض عليها [أي جمعيات قدماء التلاميذ] الرقابة، بجعل مدير المدرسة الثانوية 'مستشارًا فنيًا'، له حق الحضور في الجلسات، وتناول الكلام فيها، لإبداء 'مشورته الفنية'، وهي ترمي إلى حصر نشاط الجمعية في نطاق قوانينها، والعمل على تطبيق ما تصدره إليه إدارة الاستعلامات السياسية من توجيهات وتعليمات، إذ كان في الحقيقة ممثلها تحت ستار 'الاستشارة الفنية'. ولكن الجمعية تعمل برأيه وإيحائه إذا ما اشتمت فيها رائحة التدخل السياسي، أو ظهرت عليها سمات العرقلة، وهو ما كان يبدو في أغلب الأحيان، إن لم يكن في كل الأحيان، لأن المستشار كان أداة الإدارة السياسية، وأحيانًا كانت تقع بينه وبين الحاضرين مناقشات حادة، بل مشادات تؤدي إلى توتر العلاقات بين الجانبين"[7]. إن دور المستشار التقني هو ما حاولت الجمعيات تجاوزه مرارًا؛ للإفلات من الرقابة، وسنأتي على ذكر ذلك لاحقًا، وتتنصل، بحسب بنودها من حيث المبدأ، من أي عمل ديني أو سياسي[8]. غير أن جميع جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية تجاوزت الإطار المحدد لها سلفًا، وهُيئت من طرف الوطنيين لتكون آلية أولية لتكوين فرق توجه المغرب نحو الاستقلال. لقد استسلمت هذه الجمعيات في أحايين كثيرة لتحريض سياسي موجه ضد فرنسا، بحسب تعبير مديرية الداخلية[9].

ومن ناحية أخرى، تميز نشاط جمعيات قدماء التلاميذ بتنوع الاهتمام؛ فجمعية فاس فضّلت المسرح، وأنشأت فرقة ممثلين يرتحلون من مدينة إلى أخرى، عارضين مسرحياتهم، وناشرين هذا الفن، وحاصلين على عائدات مالية من وراء اهتمامهم ذاك. وجمعية سلا كانت ذات صبغة أدبية[10]، وجمعية الرباط اهتمت بالدروس المسائية[11]، وتنويع العرض التعليمي. أما جمعية الدار البيضاء، فنظمت محاضرات استهدفت قدماء التلاميذ، بشراكة مع جمعية المدرسة المهنية، واختصت جمعيتا مكناس ومراكش بمساعدة التلاميذ المعوزين[12].

---

5 Direction de l'Intérieur, section politique, "L'Activité politique des associations d'anciens élèves des établissements d'enseignements franco-musulmans," [Sans Date], A.D.N: Carton 1MA.200/435, p. 1.

6 Le Directeur général de l'Instruction publique, p. 1.

7 محمد حسن الوزاني، **مذكرات حياة وجهاد: التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية**، ج 1: **طور المخاض والنشوء** (فاس: منشورات مؤسسة محمد حسن الوزاني، 1982)، ص 354.

8 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, p. 1.

9 Direction de l'Intérieur, p. 1

10 عرفت بتنظيم كثير من المحاضرات، منها محاضرة حول تاريخ سلا، ألقاها الوزير محمد الناصري، إذ كان يحضرها مئتا شخص، ومحاضرات ألقيت مرة كل شهر، من مثيل: فضل التعليم في الكبر، والنهضة الأدبية العربية، وجامعة باريس في القرون الوسطى، ومحاضرة عبد الرحمن زنيبر حول السرطان، وكنه الحياة للمهدي بنعبود. وفي 19 آب/ أغسطس 1934 ألقى محمد صلاح ميسة، الأديب الجزائري، محاضرة عن تأثير الترجمة في اللغة العربية، ومحاضرة لمحمد الفاسي، رئيس جمعية طلبة شمال إفريقية المسلمين، حول الرحالة ابن بطوطة، ومحمد بن الطيب عواد عن مسألة تعليم البنات في المغرب في أيلول/ سبتمبر 1935، انظر: محمد بنعياد، **طريق الحرية: التاريخ الصغير لمدينة سلا: أيام كفاح الملك والشعب، 1912-1956** (الرباط: مطبعة شالة، 1986)، ص 60؛ نجاة المريني، "فعالية الحركة الثقافية في الحركة الوطنية في سلا (1925-1950)"، في: مجموعة مؤلفين، **الحركة الوطنية بمدينة سلا: النشأة - الرواد - الخصوصية، مائدة مستديرة 7-8 مارس 2003** (الرباط: المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2004)، ص 57؛
Kenneth Brown, *Les gens de salé, les slawis: Traditions et changements de 1830 à 1930*, préface de Mohammed Naciri (Casablanca: Eddif, 2001); M'hammed Aouad & Maria Awad, *Les Trente Glorieuses ou l'âge d'or du Nationalisme marocain 1925-1955*, *Témoignage d'un compagnon de Mehdi Ben Berka* (Rabat: Imprimerie Al Maarif Al Jadida, 2006), pp. 42 - 43.

11 كان يحضر هذه الدروس 250 تلميذًا موزعين على خمسة أقسام، يقوم بها أساتذة من إدارة العلوم والمعارف، وشملت حتى فئة غير المتمدرسين من التجار والحرفيين وغيرهم، انظر: "المشروعات الإصلاحية"، **مجلة المغرب**، السنة 3، العدد 7 (كانون الأول/ ديسمبر 1934)، ص 20.

12 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, p. 3.

إضافة إلى هذا، مارست جمعيات قدماء التلاميذ دورًا مهمًا في حياة الشباب المتعلم، عبر تنظيمه وتوجيهه في المجال العلمي والأدبي والثقافي، عن طريق إلقاء محاضرات[13]، والتدريب على التمثيليات[14]. وتجسد هذا الأمر في محاربة أفكار الشيوخ، بتشجيع الفتيات على التمدرس، والدعوة إلى إصلاح النظام التعليمي، بمطالبة مديرية التعليم العمومي ببرنامج للتعليم متوج بدبلوم، تمخّض عنه إحداث شهادة التعليم الابتدائي للفتيات المسلمات في عام 1942[15]. وعملت هذه الجمعيات على تشييد العديد من المدارس الحرة[16]، وعلى مساعدة الطلبة، سواء داخل المغرب أو خارجه. وعلى المستوى الفني، اهتمت أكثر بالفن المسرحي؛ لما يتيحه من فرص اللقاء والتواصل مع الجماهير العريضة، وإن كان هو الآخر خاضعًا للرقابة والمنع في أحايين كثيرة. والأكيد أن الأعمال المسرحية[17] التي قدّمتها الجمعيات التلاميذية، بواسطة فرقها المسرحية، توزعت على محورين: محور الوطنية ونفخ الروح القومية، والتذكير بأمجاد الماضي، وأعمال الأسلاف العظام، كما جاء في عدة مسرحيات ("صلاح الدين الأيوبي"، "هارون الرشيد"، "فتح الأندلس"، "المنصور الذهبي"، "الوليد بن عبد الملك"، "في سبيل التاج")، ومحور الدعوة الإصلاحية، والتنديد بالجهل والخرافة، والحث على العلم والتعليم الذي لم يكن ينفصل عن العمل الوطني، مثل ("أدب العلم ونتائجه"، "بالعلم ينتهي الفساد"، "طرطوف")[18] وهنا

---

13 من المحاضرات التي ألقيت في جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس في فاس، نجد محاضرات لمحاضرين فرنسيين، كمحاضرة هاردي حول المدخل لدراسة التاريخ المعاصر، ومحاضرة فينون في عناصر علم الاجتماع، ومحاضرة ماسينون في الرجال والأفكار، ووسائل اجتماعية إسلامية، ومحاضرة بلونديل في الحالة الاقتصادية والمالية لأوروبا في ربيع 1924، ومحاضرة روشيط في العلوم الطبيعية، وأخرى من تقديم محاضرين مغاربة، كمحاضرة عبد الله الفاسي في رحلة إلى فرنسا، ومحاضرة النظام الإداري في القرن الأول من الإسلام لعبد الحي الكتاني، ومحاضرة التربية والتعليم لعلي زكي وغيرها. وكلها كانت في إطار نادي المسامرات التابع للجمعية. ولم تقتصر على التلاميذ، بل حضرها عامة الجمهور من المثقفين، وقد بلغ عددهم أحيانًا 500 شخص، انظر: الوزاني، ص 277-279؛ عثمان أشقرا، **في سوسيولوجيا الفكر المغربي الحديث** (الدار البيضاء: عيون المقالات، 1990)، ص 90-91. أما جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي يوسف، فكانت تنظم محاضرات أسبوعية عامة، يقوم بها أحد الأعضاء مساء السبت من كل أسبوع، وإلقاء محاضرة أدبية أو علمية مرة في الشهر، من إنجاز ذوي العلم والاطلاع. انظر: "يوم للأدب بالمغرب"، **مجلة المغرب**، السنة 2، العدد 17 (شباط/ فبراير 1934)، ص 9.

14 أبو بكر القادري، **المجاهد محمد اليزيدي ضمير حزب الاستقلال ورجل الصدق والوفاء والوطنية** (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1999)، ص 13-14.

15 محمد عمراني، "قضايا التعليم والحركة الوطنية من خلال بعض الكتابات المعاصرة"، في: مجموعة مؤلفين، **التعليم والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط خلال فترة الحماية وحضور تاريخ المقاومة وجيش التحرير في الكتاب المدرسي** (الرباط: المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2007)، ص 161.

16 حاولت جمعية قدماء تلاميذ الثانوية الإسلامية مولاي إدريس في فاس إنشاء مدرسة لتعليم البنات في عام 1923. غير أن المجلس البلدي لمدينة فاس أوقف المشروع؛ لما لاحظه من نزوع الجمعية إلى الخروج عن النمط التعليمي الفرنسي. لكنها تمكنت من تأسيس مدرسة باب الحديد في عام 1938؛ لإدماج بنات قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس في سياق أضحى فيه تأسيس المدارس الحرة أمرًا مباحًا، انظر: عمراني، ص 161؛

Daniel Rivet, *Le Maroc de Lyautey à Mohammed V: Le double visage du Protectorat* (Casablanca: Editions Porte d'Anfa, 2004), p. 271.

17 من المسرحيات التي مثّلتها فرقة جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس رواية **صلاح الدين الأيوبي** في عام 1927، ورواية **انتصار البراءة** لمحمد الزغاري، ومسرحية **أميرة الأندلس** لأحمد شوقي التي عُرضت في مراكش في آب/ أغسطس 1933، ومُنعت في طنجة في عام 1935، بعد تدخّل ممثل إسبانيا في طنجة، ومُنعت تمثيلية "طرطوف" التي عرّبها المهدي المنيعي، رئيس الجمعية؛ لأن عبد الحي الكتاني، أحد الشيوخ التابعين للحماية، اعتبر نفسه المقصود بالمسرحية. ومثلت مسرحيات أخرى في الدار البيضاء والرباط. وكانت فرقة التمثيل مؤلفة من محمد التازي، ومحمد الزغاري، وعبد السلام التويمي، وعبد القادر بن جلون، وحماد بوعياد، والمهدي المنيعي، والغالي الشدادي، ومحمد الخلطي، والعربي قصارة، والمهدي بن سليمان، ومحمد بن الشيخ، ومحمد الميسوم، ومحمد بن الحسن بوطالب، وأحمد الودغيري، انظر: عبد الكريم غلاب، **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية إلى بناء الجدار السادس في الصحراء**، ج 1 (الرباط: مطبعة الرسالة، 1987)، ص 40؛ الوزاني، ص 388-389؛ "رواية أميرة الأندلس وتمثيلها بالحمراء"، **مجلة المغرب**، السنة 2، العدد 12 (أيلول/ سبتمبر 1933)، ص 11؛

Robert Rezette, *Les Partis politiques marocains*, préface de Maurice Duverger (Paris: Armand Colin, 1955), p. 77.

في سلا أنشئت فرقة للتمثيل في عام 1928، بإدارة عبد اللطيف الصبيحي، وأعضاؤها هم: عبد الرحمن بن الطيب عواد، وعبد السلام عواد، ومكي بن علي عواد، وعمر بن عبد الله عواد، وعمر بنالي، وعبد الكريم بوعلو، وعبد القادر بوزيد، ومحمد شماعو، وعبد الكريم حجي، وعبد اللطيف حربات، وقاسم حصار، ومحمد زمزمي جعايدي، والعربي معنينو، ومحمد ملاح، ومحمد المريني، وعبد الكريم صبونجي، وأحمد الصفار، ومهدي زنيبر، وعمر زنيبر. وقد مثلت عددًا من التمثيليات المسرحية في عدد من المدن المغربية؛ سلا، والرباط، والدار البيضاء، وفاس، والجديدة. وقدمت مسرحية "الرشيد والبرامكة" في حزيران/ يونيو 1928، في سينما النهضة في الرباط، ثم في وقت لاحق في الدار البيضاء، و"وفاء العرب"، و"طارق بن زياد"، ومسرحيات كوميدية لموليير، ومثلت مسرحيات في عيد العرش، مثل "في سبيل التاج" في عام 1927، و"بلال يعذب" في عام 1945، انظر: بنعياد، ص 60-61؛ المريني، ص 57؛

Aouad & Awad, Marge 33, pp. 40-42; Brown, p. 259.

في الرباط مُثلت مسرحيات، من قبيل**:** "رواية الصحراء" في عام 1936، و"غفران الأمير للأب الرحماني" في عام 1935 في مسرح رويال، حيث أدى أدوارها السيتل العيساوي، وأحمد بن غبريط، والطيب بنونة، والعربي ملين، والمهدي بن بركة، وأبو بكر حجي، انظر: "جمعية قدماء اليوسفية"**، مجلة المغرب**، السنة 5، العدد 3 (أيلول/ سبتمبر -تشرين الأول/ أكتوبر 1936)**،** ص 16**؛** "جمعية قدماء اليوسفية"**، مجلة المغرب**، السنة 3، العدد 8 (كانون الثاني/ يناير-شباط/ فبراير 1935)، ص 24-**25.**

18 أشقرا، ص 121.



يشير روبير ريزيت بقوله: "من بين أهم المنظمات الموازية لكتلة العمل الوطني، نجد جمعيتي قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس بفاس، ومولاي يوسف بالرباط، اللتين كانتا على اتصال مباشر بكتلة العمل الوطني، حيث عملتا على تطوير العمل المسرحي الذي استغلتاه من أجل الربط بين أعضاء الكتلة الذين ينتمون إلى مدن مختلفة من المغرب، فرؤساؤها وأغلب أعضاء مكاتبها كانوا من المنتمين إلى التيار الوطني"[19].

وحول هذه الأعمال المسرحية، نجد مراسلة سرية صادرة في 16 شباط/ فبراير 1929، أوردها محمد حسن الوزاني في مذكراته، جاء فيها: "إن الشباب يلتزمون الحيطة والحذر، وينتشون بما يحققونه من انتصارات، فينعزلون في هيئاتهم، ويستعملون بعض الشخصيات التي ظلت محايدة في الصراع بين المجددين والمحافظين؛ للوصول إلى إقامة تحالف بين جميع المتعلمين المسلمين، على أساس المصلحة العليا للوطن، وهؤلاء المحايدون هم بالضبط الذين قاموا بدور فعال في تنظيم المسرح المغربي، وشجعوا بدراهمهم ونصائحهم الفنانين الهواة من الشباب، وتتبعوا باهتمام التمثيليات المسرحية العربية، وهذا ما تنبأنا به، فإن التصالح بين المجددين وخصومهم سائر في التحقيق بل في طريق التحقيق، وسيتم في مجال الفنون والأدب، وهؤلاء الذين شاهدناهم في فاس والرباط والدار البيضاء يرتقون الخشبة، وهم في أزياء أوروبية، قد أصبحوا يصدرون اليوم نشرة لجمعيتهم، ويعقدون اجتماعات لدفتر المطالب، ويتطلعون إلى ارتقاء المناصب العليا في المخزن المركزي، ويطمحون إلى أن يكونوا قادة الشعب المغربي"[20]. ويؤكد مثل هذا الكلام استغلال النخبة المغربية للجمعيات التلاميذية، في إطار العمل الثقافي والفني؛ لأجل خدمة القضايا الوطنية، واعتمادها تنظيمًا أول؛ إذ كانت عبارة عن تنظيمات تمرّسوا فيها على التنظيم قبل إنشاء الأحزاب السياسية.

وبطبيعة الحال، احتاجت هذه النشاطات مجتمعة إلى مصادر التمويل التي لم تكن قارة، وكانت غير منتظمة؛ لهذا، استعانت هذه الجمعيات بموارد مختلفة، منها: هبات أغنياء المسلمين، وتمثيل قطع مسرحية لفائدة الجمعية، وكل الأعطيات التي تُوقف على الجمعية اعتباريًا بحسب المكانة الاجتماعية للمانح، وتحصيلًا للأجر الإلهي[21].

ومهما يكن، اعتُبرت جمعيات قدماء تلاميذ المدارس الإسلامية بمنزلة اتفاق مميز بين فرنسا وأعضاء تلك الجمعيات، ممزوجٍ بحماسة الشباب للحدث؛ لذا، وجدت السياسة النخبوية الفرنسية في المنتمين إليها مساعديها الجيدين، بحسب تعبير بول مارتي Paul Marty[22]. وهو ما أكده نوغيس Noguès في تقرير له حول جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس، بقوله: "إنهم يمثلون [أعضاء جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس] عنصرًا متميزًا عبره توجّه سياستنا الشباب بشكل مفيد"[23]. كان واضحًا أن الهدف هو مراقبة الشبان وإدماجهم في منظومة القيم الفرنكوفونية، وإبعادهم عن كل ما هو أصيل، وجعلهم واسطة بين الشبان الآخرين في الدعاية للسياسة الفرنسية. لكن انقلب الأمر لمصلحة الوطنيين خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، فقد ظنت سلطات الحماية الفرنسية أن وجود مثل هذه الجمعيات بين الأهالي يخدم مصالحها، غير أن تلك الجمعيات سارت عكس ذلك تمامًا. لقد انطلقت طموحات الأطر المسيّرة لها منفلتة من قبضة فرنسا؛ لتصير وعاء يخدم أهداف النخب الجديدة. فكيف حدث ذلك؟

---

19 Rezette, p. 258.

20 الوزاني، ص 367-369.

21 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, p. 3

22 M'barek Zaki, "Les Associations nationales d'étudiants de jeunesse et de sport de la période colonialiste," in: Nourddine El Aoufi (ed.), *La société civile au Maroc: Approches* (Rabat: Imprimerie El Maarif Al Jadida, 1992), pp. 110 - 111.

23 William A. Hoisington Jr., *L'héritage de Lyautey: Noguès et la politique française au Maroc 1936 - 1943* (Paris: L'Harmattan, 1995), p. 95.

ثانيًا: فدرالية جمعيات قدماء تلاميذ المدارس والثانويات الإسلامية في عام 1934: اتحاد مجهض

عرفت الحركة الجمعوية في المغرب تطورًا ملموسًا خلال ثلاثينيات القرن العشرين؛ بسبب التغيرات الكبرى في أوروبا (المد اليساري)، من جهة، ومن جهة أخرى، ما شهده المغرب من تنامي الوعي الوطني مع حملة الظهير البربري في 16 أيار/ مايو 1930، وتأسيس كتلة العمل الوطني في عام 1933، وإصدار كثير من الجرائد التابعة لها، مثل **عمل الشعب**. فنشأت في إثر ذلك موجة ثانية من جمعيات قدماء التلاميذ فجر عام 1930 في الرباط ومكناس ومراكش. لم يكن الخطاب الوطني في هذه الفترة متطورًا بعد، ليطالب بالاستقلال، لكنه كان ناضجًا بما فيه الكفاية للمطالبة بالإصلاحات العامة، ولا سيما إدماج "الأهالي" في النظام؛ للاستفادة من دينامية التطور. وفي السياق نفسه، فعّل الوطنيون دور جمعيات قدماء التلاميذ في مطالبهم الإصلاحية المتعلقة بالمجال التعليمي.

لقد حمل عام 1933 تغييرًا تنظيميًا ملحوظًا، باتت فيه العناصر الوطنية في حركية دائمة؛ للاستحواذ على مكاتب[24] أغلب جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية المتميزة ببسط سلطات الحماية يديها عليها. إنه عام الصراع بين الحماية ومن تصفهم بمسيّري جريدة **عمل الشعب**. وهذا ما تلخصه مذكرة صادرة عن مديرية الشؤون الأهلية في 6 آذار/ مارس 1934: "لاحظنا منذ أشهر عديدة، كما لاحظ من قبل السيد كوتلاند Cottland، تنامي نشاط جمعيات قدماء التلاميذ. لا يمكن بأي حال من الأحوال إنكار

24 في عام 1934 أصبحت مكاتب جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية على النحو الآتي:

- **جمعية قدماء تلاميذ الثانوية الإسلامية مولاي إدريس:** الرئيس: المهدي المنيعي (مستخدم في البنك الإنكليزي)، نائبه: عبد الله بوعياد (مدير مطبعة)، الكاتب: أحمد بن إدريس بن بوشتى (محام)، مساعد الكاتب: جندي أحمد (مندوب "ممثل" تجاري)، الخازن: لحلو بن التهامي (تاجر)، المشرف على المكتبة: برادة عبد القادر بن عمر.
- **جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي يوسف في الرباط:** الرئيس: عبد الكريم بوهلال (تاجر)، نائبه: إسماعيل فرج (كاتب مترجم في المحافظة العقارية)، الخازن: الحاج محمد القباج (كاتب في المحكمة العليا الشريفية)، مساعد الخازن: محمد بوهلال (مستخدم في بنك الدولة)، الكاتب: عمر القباج، مساعد الكاتب: بن عاشر فرج (من دون مهنة)، الأعضاء: مولاي الطاهر الرفاعي (من دون مهنة، مكفوف)، وحسن بورقية (كاتب في مديرية الشؤون الشريفية).
- **جمعية قدماء تلاميذ مدرسة أبناء الأعيان في سلا:** الرئيس: عبد الكريم بوحلو، نائبه: الحاج محمد عواد، الكاتب: محمد المريني، مساعد الكاتب: أبو بكر القادري، الخازن: عبد الله الزاوي، مساعد الخازن: محمد حجي، المشرف على المكتبة: محمد الصابونجي، المعاونون: عمر عواد، وعمر علي الدكالي، وأحمد حصار، ومحمد حصار.
- **جمعية قدماء مدارس أبناء الأعيان الابتدائية في الدار البيضاء:** الرئيس: محمد الدزيري (موظف)، نائبه: محمد بن جلون، الكاتب: محمد اليعقوبي (مستخدم في المحافظة العقارية)، مساعد الكاتب: أحمد الشرايبي (تلميذ في المرحلة الثانوية)، الخازن: عبد الله الدزيري، المشرف على المكتبة: عبد الوهاب بن جلون.
- **جمعية قدماء تلاميذ مدرسة أبناء الأعيان في مراكش:** الرئيس: مولاي العربي بن الحسن العلوي، نائبه: مولاي عمر العلمي، الكاتب: عبد القادر المسفيوي (أستاذ في مدرسة بن يوسف)، مساعد الكاتب: محمد الطنجاوي، الخازن: محمد بنيس، مساعد الخازن: عبد الواحد تداني (مطبعي)، المعاونون: عمر الطنجاوي (مترجم في مكتب مراكش)، وعباس القباج (مترجم)، المشرف على المكتبة: محمد بن شقرون.
- **جمعية قدماء تلاميذ مدرسة أبناء الأعيان بمكناس:** الرئيس: السنتيسي محمد (مترجم في مصلحة التخطيط)، نائبه الأول: السرغيني عبد الرحمن (محاسب في دار شالرو)، نائبه الثاني: بناني عمر ملاك، الكاتب العام: مولاي حسن المريني (مترجم في مصلحة التخطيط)، مساعد الكاتب: السنتيسي حميد (كاتب في الأحباس)، الخازن العام: السغيني محمد (مترجم بمصلحة التسجيلات)، مساعد الخازن: التراب حسن (مستخدم في مصلحة التخطيط)، المعاونون: إدريس علمي (تاجر)، وعبد الرحمن الصفار (تاجر)، والتراب حسين (طالب طب في فرنسا)، وبوتريكة إدريس (تاجر). انظر:

Le Directeur Général de l'Instruction Publique, pp. 7 - 20.

أن توجهاتها الظاهرة ليست سليمة. فبفاس أسفرت انتخابات مكتب جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس عن قيادة محرري 'عمل الشعب' لها، وترؤسها من قبل المنيعي الذي يعتبر شخصًا مشبوهًا. وبمراكش خرجت الجمعية من فتورها، وعلى الرغم من التصريحات المؤكدة على ولائها لنا، فإنه ليس من المستحيل ألا تستقبل الأوامر من جمعية فاس. وبالرباط الرئيس الذي كان موظفًا وفيًا، استبدل بتاجر أكثر استقلالية عن السلطة، وذي توجهات وطنية [عبد الكريم بوهلال]. وبسلا تمخّض عن الانتخابات الجزئية دخول محمد حصار إلى المكتب، وهو يعد مناضلًا وطنيًا ومراسلًا لعمل الشعب، وأبو بكر القادري المطرود من المدرسة؛ بسبب وقاحاته المتكررة. وبالدار البيضاء نشير إلى اجتماعات عديدة لأعضاء المكتب وتواطئهم مع المنيعي. وبصفة عامة يبحث الوطنيون عن الإطاحة بالموظفين من مكاتب الجمعيات؛ لتعويضهم بالمناضلين، وهدفهم هو القيام بدور سياسي بهذه المؤسسات التي عبر قوانينها الأساسية لا يمكن أن تكون سوى مجموعات ودية أو خيرية"[25].

وتشير في السياق نفسه مراسلة أخرى، من مدير التعليم العمومي إلى مدير الشؤون الأهلية، في 16 آذار/ مارس 1934، إلى أن: "في فاس في تشرين الثاني/ نوفمبر 1933، حاول مسيّرو عمل الشعب الاستحواذ على إدارة المجموعة، بعد أن قاموا بحملة صحفية بغيضة ضد شخصيات المؤسسة التي ينتمي إليها قدماء التلاميذ. وبسلا حدث كل هذا، الصحافي حصار هو تلميذ مطرود من المدرسة منذ ستة أشهر فقط تم انتخابه في انتخابات جزئية مغرضة. وبمراكش حاول قدماء التلاميذ في لحظة التقرب من الباشا عن طريق الالتفاف حول ابن أخيه ثم الثورة ضده"[26].

انفلتت مكاتب الجمعيات من بين أيدي سلطات الحماية الفرنسية، ولم يعد المديرون (المستشارون التقنيون) والأطر التربوية بقادرين على ضبطها واحتوائها والتحكم في حركيتها، كما كان في السابق: "لا يمكن لمديرينا ومدرسينا القيام سوى بتوثيق الأفعال والأقوال وإرسالها في تقارير. لا يمكن أن يُطلب منهم التصرف أكثر من ذلك في الكواليس، سيفقدون مكانتهم الاعتبارية من دون ربح لأي أحد"[27]. من ثمّ أصبحت المكاتب أكثر استقلالية بعد انتخاب أشخاص يتمتعون باستقلالية مادية عن الحماية، أي غير الموظفين في أكنافها، وهو ما أكدته مديرية الشؤون الأهلية بالقول: "يبحث الوطنيون عن إطاحة مكاتب الجمعيات من الموظفين لتعويضهم بالمناضلين"[28]، وهو ما سهّل عملية التحكم، وتوجيه مسار هذه الجمعيات. إنه صراع الإرادات بين الحماية والوطنيين، إرادة الحماية التي هدفت إلى استخدام هذه الجمعيات أداةً للتوجيه والإدماج وضبط النخبة، وإرادة الوطنيين التي حوّلتها من وضع الاستكانة والخضوع لإملاءات الحماية إلى مرحلة أعلى، تجلّت في صراع مباشر داخلها ضد من يدينون بالولاء لفرنسا، ولسياسة الإدماج المستهدفة للنخبة المغربية.

نجح التيار الوطني، في عام 1934، في السيطرة على أغلب جمعيات قدماء التلاميذ، باستثناء جمعية مكناس التي ظلت وفية في ولائها لسياسة الحماية الفرنسية، ولم تنخرط في حملة جمعية فاس لتأسيس اتحاد لجمعيات قدماء التلاميذ[29].

ومنذ هذا التاريخ باتت جمعيات قدماء التلاميذ فاعلًا في العمل السياسي الوطني؛ نظرًا إلى عدم السماح للمغاربة بحرّية كاملة في إنشاء التنظيمات الحزبية، وهو مؤشر على ارتباط العمل الجمعوي بالممارسة السياسية؛ حتى بعد الاستقلال[30].

25 Direction des Affaires Indigènes, "Note sur le projet de création d'une fédération des associations d'anciens élèves des collèges musulmans et des écoles de fils de notables," 6/3/1934, A.D.N: Carton 1MA.200/435.

26 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, p. 2.

27 Ibid., p. 5

28 Direction des Affaires Indigènes.

29 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, p. 3.

30 Rezette, p. 258.

وفي هذا الإطار يقول مدير التعليم العمومي في مذكرة إلى مدير الشؤون الأهلية: "إن عقلية المغاربة مختلفة، فلئن كان المغربي خريج المدرسة الفرنسية، فإنه يصعب عليه تصور الحدود التي تحد من نشاط جمعيةٍ ما لقدماء التلاميذ، وإطارها المتواضع الذي تشتغل فيه. إنها جمعية عفوية مكونة من أفراد، وذات أهداف غير دينية، وهي ممارسة إذا كانت حديثة في نظر المغربي، فهو يعتقد في فاعليتها وفضلها في تحقيق آماله الجديدة في الفترة الآنية. إنها أداة أصبحت بين أيديهم [المغاربة] وستُستخدم لأغراض مختلفة، جيدة وسيئة"[31].

حتّم تداخل العمل السياسي مع العمل الجمعوي في المغرب، خلال الثلاثينيات، على سلطات الحماية التراجع عن سياستها المتبعة في هذا المجال؛ لتجاوز ما ينذر بمخاطر سياسية من تنامي الشعور بالوحدة الوطنية، وانتشاره بين هذه النخبة المتعلمة، الأمر الذي كاد أن يتحقق بمشروع فدرالية جمعيات قدماء التلاميذ. وهذا ما يشير إليه مدير التعليم العمومي بقوله: "يجب الخروج من هذا الوضع، فجمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية في تنامٍ كبير في هذه الآونة، وإن حزب عمل الشعب المعادي لفرنسا، والمعارض لأي تعاون حقيقي، يستقطب نشاطها، فهذه الجمعيات تعيش من أجل هذا الحزب في كامل الاستقلالية. إنها متجهة إلى وضع نفسها في خدمة الجبهة المناهضة للمسيحية، وليست هي الوحيدة التي تخضع لهذا التوجه: جميع الجمعيات الإسلامية، الرياضية، الكشفية، الخيرية [...] تستجيب بدرجات متفاوتة جهرًا أو سرًا للأوامر السرية للمنشقين، ولردود الفعل المناهضة للحكومة والأجانب، إما بطريقة مباشرة وإما غير مباشرة"[32].

لقد نتج من اجتياح الوطنيين التنظيمي لجمعيات قدماء التلاميذ الدعوة إلى إنشاء فدرالية لجمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية في المغرب في عام 1934. فكيف تم ذلك؟ ومن الفاعلون في هذه الدعاية؟ وهل تحققت مساعي الوحدة؟

يقول مدير التعليم العمومي في رسالة موجهة إلى مدير الشؤون الأهلية: "أعلمني مدير مدرسة أبناء الأعيان الإسلامية بالدار البيضاء أن رئيس قدماء التلاميذ لهذه المؤسسة زاره زملاؤه منذ أيام من فاس في إطار القيام بجولة للدعاية؛ بغرض تأسيس فدرالية جمعيات قدماء التلاميذ. يشرفني أن أثير انتباهكم حول هذا الأمر [...] يبدو غريبًا في البداية أن رئيس جمعية قدماء تلاميذ ثانوية فاس، المنيعي، وهو مستخدم بسيط في بنك إنكليزي، أن تتوافر له عائدات تسمح له بالقيام بجولة للدعاية عبر أرجاء المغرب. إنني واثق من أن المنيعي يلعب لعبة مزدوجة، وأنه يحتفظ به على رأس جمعية قدماء التلاميذ بفاس؛ لاستكمال عمل هو سيئ بالنسبة إلينا. فمنذ الصيف الأخير، وعبر منشور جريدة **إرادة الشعب**، أخذت جمعيات قدماء التلاميذ على عاتقها نشاطًا جديدًا [...] توجه عام بدأ يتضح، يدفع بشكل منتظم مهمات مكاتب الجمعيات التي تحاول أداء دور سياسي بالنسبة إلى جمعيات لا يمكنها إلا أن تكون مجموعات ودية أو خيرية"[33]. تجسد هذا التوجه العام في الدعوة إلى تأسيس اتحاد جمعيات قدماء التلاميذ، فأصبحت جمعية فاس، من خلال هذه المبادرة، موجهة ومؤثرة، وذات نفوذ قوي في باقي جمعيات قدماء التلاميذ، من خلال مكتبها، وفي شخص رئيسها المنيعي. بل تعدّ أصل أي تحريض، بحسب تعبير مدير التعليم العمومي الذي قال: "من فاس تصدر الأوامر دائمًا، والفرق المسرحية المتنقلة من هناك إلى أي مكان آخر، لا تشتغل بالمسرح فقط، كما هو الحال بصفرو خلال فصل الصيف الماضي، حيث تقوم بممارسة الدعاية السياسية الوطنية ضد فرنسا"[34].

31 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, pp. 4 - 5.

32 Ibid.

33 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, des Beaux-Arts et Antiquités au Maroc, au Directeur des Affaires Indigènes, [Sans Date], A.D.N: Carton 1MA.200/435.

34 Ibid.



تمّت الدعوة إلى هذا الاتحاد في ظل شعارات الوحدة التي نودي بها في مختلف أرجاء الوطن العربي الرافضة للوجود الاستعماري، فقد كانت كلمات شكيب أرسلان موجهة إلى مختلف التنظيمات، وهو ما أكدته مذكرة لمديرية الشؤون الأهلية، جاء فيها: "إن مشروع الفدرالية مطابق لشعارات شكيب أرسلان: 'تجمعوا، تعاونوا، وحدوا الصفوف، اتحدوا، الاتحاد قوة'"[35].

لقد وُضعت أسس هذا المشروع المتبنّى من كتلة العمل الوطني خلال الزيارات المتكررة للمنيعي والوزاني ومحمد الخلطي إلى الرباط وسلا والدار البيضاء ومراكش[36]. وعبر الدورية الصادرة عن الجمعية، والموجهة إلى مكاتب الجمعيات المختلفة التي دعت إلى إبداء آرائها حول الاتحاد، وتعيين مندوبين، في حالة الانخراط، عن كل جمعية، لعقد الاجتماع التأسيسي في الدار البيضاء[37]. ولم تقتصر هذه الدعوة على الجمعيات في المنطقة الفرنسية، بل استُدعي أعضاء الجمعيات الأدبية في القصر الكبير وتطوان[38]. لم تكن في أعين الحماية دعوة إلى وحدة جمعيات قدماء التلاميذ فحسب، بقدر ما تشير إلى وحدة المجال المغربي والرأي العام حول القضايا المطروحة للإصلاح، وعدم القبول بالتقسيم الاستعماري للبلاد المغربية أيضًا.

عُقد الاجتماع التحضيري لتأسيس فدرالية جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية في المغرب في الدار البيضاء، في 7 آذار/ مارس 1934، في مقر سكنى محمد الشرقاوي (زنقة طنجة)، وحضره محمد الوزاني، ومحمد اليزيدي، والمهدي الصقلي، ومحمد الدزيري، وعبد الله الدزيري، والمختار بن عبد السلام، وأحمد بن علال الشرايبي، وعبد الواحد بن زلول (بن حسن)، ومحمد بن حسن بن زلول، وبوبكر الشاوي، والصديق عواد، وعبد الكريم بوعلو، وبوبكر الصبيحي، ومحمد الحجوي، وبناني عبد العزيز، والحاج مصطفى الرويسي، وعبد العزيز اليعقوبي، والمختار بن فلاح. وقدّمت مساهمات من عبد العزيز بناني ومحمد الحجوي؛ لسد النفقات الأولية لهذا الاتحاد. كان عدد الحاضرين 18 عضوًا[39].

لقد أسفر هذا الاجتماع عن وضع برنامج مطالب وأهداف تأسيس هذا الاتحاد التي تتمثل في تحسين وضعية الجمعيات (المالية والأدبية)، ونظام أساسي متجانس للجمعيات، ومسألة التعليم العمومي والمهني، ومعادلة الشهادات الثانوية لنظيراتها الفرنسية، وإحداث مجلة، وتحويل المكتبات المحلية إلى مكتبات عمومية[40]. وإجمالًا تجلّت أهدافها في المطالبة بحرّية التعليم الأهلي، وإنشاء كثير من المدارس الابتدائية، وتعليم اللغتين العربية والفرنسية في جميع المؤسسات، مؤكدين أن للمغاربة الحقوق نفسها التي للفرنسيين، وينبغي لهم أن يتمتعوا بالامتيازات عينها المتعلقة بالتعليم، وتهتم عمومًا بكل ما من شأنه تحسين أوضاع الأهالي[41]. ووُجهت الدعوة للمشاركة في هذا المؤتمر، الذي قُرر عقده في الرباط في أيام 27 و28 و29 حزيران/ يونيو 1934 في قاعة المامونية، إلى كل منخرطي جمعيات قدماء التلاميذ، ومستشاريها التقنيين، وقدماء التلاميذ غير المنخرطين الذين طلبوا ذلك، وحُددت واجبات الانخراط بخمسة فرنكات، وغير المنخرطين بعشرة فرنكات[42]. فهل تركت الحماية هذه المبادرة الوحدوية تسير

35 Direction des Affaires Indigènes.

36 Ibid.

37 Service du Contrôle Civil, "Note pour le délégué à la Résidence Générale," Fédération des associations d'anciens élèves, 6/3/1934, A.D.N: Carton 1MA.200/435.

38 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, des Beaux Arts et des Antiquités au Maroc, au Directeur du Service du Contrôle Civil, "Bulletin de renseignements sur l'activité politique des associations d'anciens élèves," 30/4/1934, A.D.N: Carton 1MA.200/435.

39 Le Contrôleur Civil Chef de la Région de Rabat au Commissaire Résident Général de la République française au Maroc (Service du Contrôle Civil), 9/3/1934, A.D.N: carton 1MA.200/435.

40 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, 30/4/1934.

41 Le Contrôleur Civil Chef de la Région de Rabat, "Bulletin de renseignements," 14/3/1934, A.D.N: Carton 1MA.200/435.

42 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, 30/4/1934.

نحو النجاح؟ ومن ثمّ يتقوى دور هذه الجمعيات التي ستصبح، لا محالة، ممثلة للرأي العام المغربي، في غياب برلمان أو مجلس يقوم بذلك؟

لم يعد الأمر يستقيم لسلطات الحماية الفرنسية مع مكاتب جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية، فحاولت، على مضض، ثنيهم عن أعمالهم، ولا سيما أنها كانت عنصرًا فاعلًا في ضبط حركية النخبة المغربية؛ لذا، رأت سلطات الحماية في هذا الاتحاد تهديدًا لمصالحها في البلاد، وتأليبًا للمغاربة على سياستها، من خلال المطالبة بحريات أكبر، ولا سيما في المجال التعليمي. وهو ما رفضته الإقامة العامة جملة وتفصيلًا؛ إذ يقول مدير التعليم العمومي في مذكرته حول جمعيات قدماء التلاميذ: "تحاول جمعيات قدماء التلاميذ حاليًا، بتحريض واضح من مسيّري عمل الشعب، التجمع في فدرالية، ستعمل على تمثيل الرأي المغربي الأهلي. وفي الحقيقة هي تتلقى الأوامر لتنفيذها، وهو ما يقود إلى دعم العمل السياسي لحزب كاره للأجانب أكثر منه وطني"[43]. فكيف تعاملت الحماية مع هذا الاتجاه؛ لدفن المشروع في مهده؟

يقول المراقب المدني، رئيس جهة الرباط، في رسالة إلى مفوض الإقامة العامة في المغرب، مؤرخة في 7 آذار/ مارس 1934، حول معارضة إنشاء فدرالية لجمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية: "يشرفني إخباركم أنه من المناسب أن تعارض الحكومة إنشاء فدرالية من هذا النوع، لأن مكتب هذا التنظيم سيشكّل حتمًا من أعضاء مكاتب جمعيات قدماء التلاميذ [...] ومما لا ريب فيه، في ظل ما سبق، أن فدرالية قدماء تلاميذ مدارس أبناء الأعيان ليس لها هدف سوى الانغماس في نشاط دعائي وطني ضد فرنسا، لهذا أقول بضرورة منع هذا التأسيس"[44].

من هنا اتبعت سلطات الحماية الفرنسية؛ لوأد فكرة فدرالية جمعيات قدماء التلاميذ، مسارين مختلفين: يتجلى الأول في إمكانية استخدام حق الاعتراض (الفيتو) الذي منحه لها ظهير 24 أيار/ مايو 1914[45]؛ لمنع الجمعيات التي تراها مخالفة لقوانينها، والثاني هو القيام بمساعٍ سرية لدى جمعيات قدماء التلاميذ، ولا سيما في الدار البيضاء ومراكش؛ لحثّهم على رفض هذا المشروع، ومن ثمّ إحداث انقسامٍ بين مكاتب الجمعيات حول هذه الفكرة[46]. فهل نجحت سلطات الحماية في إحداث شرخ بين جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية؟

فضّلت سلطات الحماية اتباع الوسيلة الثانية، فمارست ضغطًا سريًا على كل جمعية على حدة؛ لدفعها إلى عدم الانخراط في الفدرالية، وتظهر محايدة في كل ما يجري، ومحافظة على اتصالاتها بهذه الجمعيات كافة. وبالفعل، قام أورتليب Orthelieb، المراقب المدني ورئيس جهة الشاوية، بمساعيه لتحقيق هذا الهدف لدى مكتب جمعية الدار البيضاء الذي كان مؤلّفًا من موظفي الحماية، وله قابلية أكبر للخضوع لآرائها[47]. لكن مجهوداته باءت بالفشل؛ إذ وافق أعضاء هذه الجمعية على حضور الاجتماع التحضيري[48]. في حين نجد مكتبي الرباط وسلا حسما الأمر لمصلحة الانضمام إلى الفدرالية، على الرغم من اعتراضات نيسيل

43 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, 16/3/1934.

44 Le Contrôleur Civil Chef de la Région de Rabat au Commissaire Résident Général de la République Française au Maroc, "Fédération des anciens élèves des écoles de fils de notables," 7/3/1934, A.D.N: Carton 1MA.200/435.

45 هو أول ظهير خاص بتأسيس الجمعيات في المغرب.

46 Direction des Affaires Indigènes.

47 Ibid.

48 L'Interprète-Lieutenant-Colonel Mangot Directeur du Journal Essaada au Directeur des Affaires Indigènes, "Note," 8/3/1934, A.D.N: Carton 1MA.200/435.

Neicel، مدير ثانوية مولاي يوسف؛ لأن مكتبيهما يتكونان من الشبان المغاربة المصممين على خدمة القضية الوطنية، التي هي مظهر لأي عمل مقنع في نظرهم، بحسب تعبير مدير الشؤون الأهلية[49]. ولم تجد هذه المساعي صدى إلا مع جمعية مكناس التي اعتذرت عن عدم حضور الاجتماع التأسيسي للفدرالية[50]. وفي مقابل ذلك، رفض المقيم العام الرئاسة الشرفية لهذه الفدرالية التي من المحتمل أن تكون غطاء رسميًا قويًا لو قُبلت[51].

وأمام تشبث جمعيات قدماء تلاميذ المؤسسات التعليمية الفرنسية الإسلامية بمشروع فدرالية الجمعيات، لم تجد الحماية من خيار أمامها سوى إجهاض هذا المشروع، عن طريق الوسائل القانونية المتاحة لها، الملخصة في تطبيق المادتين: 3 و4 من ظهير 5 حزيران/ يونيو 1933، المعدل لظهير 24 أيار/ مايو 1914، ويعطي الحق للسلطات في رفض الاعتراف بأي جمعية مخالفة لقوانين الحكومة[52]. وطبقًا لذلك، منعت إنشاء فدرالية جمعيات قدماء تلاميذ المدارس الإسلامية الفرنسية، معززة هذا القرار بعدم جدوى هذه الفدرالية، وبأنها لا تتوافق والأفكار المتبناة عند تأسيس جمعيات قدماء التلاميذ، ولا مع أهدافها الطبيعية[53]. مدعمة ذلك بالأحداث التي عرفتها مدينة فاس في 10 أيار/ مايو 1934، بعد زيارة السلطان محمد الخامس لها[54]. فهل استمرت جمعيات قدماء تلاميذ المدارس الإسلامية على نهج عامي 1933 و1934 نفسه؟

ثالثًا: جمعيات قدماء تلاميذ المدارس والثانويات الإسلامية ومشاركتها في أحداث 11 كانون الثاني/ يناير 1944

اتجهت سلطات الحماية الفرنسية إلى استعادة السيطرة على جمعيات قدماء التلاميذ، بعد منع إنشاء فدراليتها. ولتحقيق ذلك نهجت أساليب عدة مكّنتها مؤقتًا من ضمان توجيه هذه الجمعيات ومراقبتها؛ فسعت لرفض مختلف أعضاء المكاتب المعروفين بانتماءاتهم الوطنية، كما حدث مع جمعية سلا التي هددت بحلها ما لم يُغيَّر أعضاء المكتب الذين اضطروا إلى الاستقالة في عام 1936، وهذا ما تشير إليه الرسالة التالية: "إن جمعيات قدماء تلاميذ المدارس والثانويات الإسلامية تتسم حاليًا بحالة جيدة. لقد انتُخب بالرباط وفاس ومكناس في المكتب رجال غالبيتهم من الموظفين، وبسلا فهمت العناصر المتعقلة أن حضور أفراد ذوي سوابق في مكتبهم، سيوقف نشاط مجموعتهم، لذا حاولوا تنظيم انتخابات للحصول على ثقتنا عبر وضع إدارة جمعيتهم بين أيدي موظفينا"[55]، إضافة إلى تقديم دعم رسمي لها، ومنحها مقرات جديدة، ودعمها ماديًا، وإشراك ممثليها في مجلس الحكومة الأهلي؛ إذ دعت رؤساء ست جمعيات إلى الحضور في أشغال الشعبة الأهلية في عام 1937، واستدعيت إلى كل الاحتفالات الرسمية، وحضرت في اللجان التي تدرس

49 Direction des Affaires Indigènes.

50 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, 30/4/1934.

51 Ibid.

52 Ibid.

53 Service du Contrôle Civil, "Note pour le Délégué à la Résidence Générale," 8/3/1934, A.D.N: Carton 1MA.200/435.

54 Le Directeur du Collège Moulay Youssef, "Réponse à la note circulaire N 3409 IP/3T du 1 mai sur le rôle du conseiller technique des associations d'anciens élèves," 28/5/1943, A.D.N: carton 3M.900/38.

55 Service de l'enseignement secondaire primaire et professionnel musulman au Directeur des Affaires Indigènes, 4/7/1935, A.D.N: carton 3MA.900/38.

منح التعليم الثانوي الإسلامي، وأعطيت جمعية فاس صفة المنفعة العامة في عام 1941؛ أي دمجها في النظام، وجعلها مشاركةً في الحياة السياسية العامة[56].

من هنا بُنيت خطة سلطات الحماية الفرنسية على إرجاع جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية إلى حظيرتها، وإحياء السياسة القائمة على الاحتواء والمراقبة والإدماج، والإبعاد عن كل ما يثير النزعة الوطنية في نفوس أعضائها. وهذا ما توضحه مذكرة مديرية التعليم العمومي حول موقف الشباب المغربي، مؤرخة في 20 نيسان/ أبريل 1941، ومتضمنة الإجراءات الواجب اتخاذها؛ للسيطرة على جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية. وهي كالآتي:

- "احتواء جمعيات قدماء التلاميذ بسلاسة ومساعدتها في عملها.
- الحث على تعديل الأنظمة الأساسية، على شاكلة ما تم القيام به بالنسبة إلى جمعية فاس، يسمح للمستشارين التقنيين وموظفي الإدارة في المجال المالي خاصة، بمراقبة صارمة لهذه الجمعيات وضرورة موافقة الكل عليه.
- لا يغيب عن بالنا أن موقف قيادة الجمعيات يحدَّد من قبل هذا المكتب أو ذاك تبعًا لما يلحقه من تعديلات في تركيبته، إذا كانت عميقة وذات مغزى. وهو ما يفرض على السلطات مراجعة مواقفها تجاه مجموعات قدماء التلاميذ.
- إعطاء الشباب الفرنسي في المغرب، عبر جميع الوسائل في المؤسسات التعليمية ومؤسسات تكوين الشباب، الإحساس بالمسؤولية التي تفترض، وعلى المنوال نفسه، حضورهم جنبًا إلى جنب مع المسلمين، مع تجنب الأخطاء والكلمات المسيئة.
- إبعاد تلاميذنا وقدماء تلاميذنا، كلما أمكن ذلك، عن التظاهرات التي عبرها تبحث الجماعة الفرنسية عن تأكيد إظهار قوتها ووحدتها، ومن ثمّ تجنب تزويد الشباب الوطني المغربي بأسلحة من شأنها أن تدعم موقفه بالحق في التظاهر.
- وفي الأخير، دعوة الإدارات لمنح قدماء تلاميذنا في كل مرة يثبتون استحقاقهم فيها مسؤوليات إدارية بمعايير واضحة، ومنصفة وضامنة لتكافؤ الفرص، لكن مع الاحتفاظ بالسماح لهم بالقيام بدور سياسي، وجعلهم في وضع مميز، إذا ما أريد وضع نهاية لعملهم بعد ذلك"[57].

فهل نجح الفرنسيون في احتواء جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية، وإبعاد منخرطيها عن الممارسة السياسية؟

رغم عديد الامتيازات التي تحصّلت عليها جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية من سلطات الحماية الفرنسية، والوضع الاعتباري الذي أضحت تمثّله رسميًا، فإنها تحولت إلى منحى آخر غير الذي رُسم لها بداية الحرب العالمية الثانية، فقد فتحت هذه الحرب آمال الشعوب المستعمرة وتطلعاتها نحو الانعتاق والحرية، ولا سيما أنهم شاركوا في تحرير بلدان أوروبا من ألمانيا النازية، وتطور العمل السياسي في مختلف أرجاء العالم الثالث. لم يكن المغرب بعيدًا عمّا يجري، فتطورت مطالب الأحزاب السياسية، وتنامى تنظيمها السياسي والاجتماعي والثقافي، وأصبحت أكثر جرأة، مقارنة بسنوات الثلاثينيات. واعتمدت في كل هذا وذاك على أهم أدواتها وآلياتها التنظيمية المتمثلة في جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية؛ لما توافر لديها من سلاسة في التنظيم، وسهولة في التنقل، ويسر في نقل الأفكار، وتنسيق بين القيادات، واستقطاب للأفراد؛ بفعل الاعتراف الرسمي بها من سلطات الحماية، وما تبعه من حرية، وإنْ كانت جزئية في هذه المرحلة. إنها بحق آليات فاعلة وأساسية، ولازمة لا محيد عنها في حركية النخبة الوطنية في التعبئة المجتمعية

56 Direction de l'Intérieur, Section politique, pp. 1 - 2.

57 Direction de l'Instruction Publique, "Note au directeur de l'instruction Publique, Attitude actuelle de la Jeunesse Marocaine," 20/4/1941, A.D.N: Carton 3MA.900/56, pp. 7 - 8.

للقضايا الوطنية زمن الحرب العالمية الثانية، من ثمّ خضعت هذه الجمعيات لتوجهات الحزب الوطني سياسيًا، وثقافيًا، وتعليميًا، وشبابيًا. كيف حدث ذلك؟

تراجع تأثير الحماية الفرنسية ونفوذها على جمعيات قدماء التلاميذ، بحلول عام 1943، لمصلحة الوطنيين الذين شكّلوا طوقًا تعذر على أطر الحماية اقتحامه، أو النفاذ إليه. إذ على الرغم من علمها المسبق بما يجري من تحركات للحزب الوطني، فإنها لم تستطع فعل شيء في انتخابات تجديد المكاتب[58] في عام 1943، واكتفت بالتتبع والمراقبة، لكنها توجست خيفة مما يحدث[59].

ومن ثمّ حقق الحزب الوطني نجاحًا مبهرًا في إدماج قيادات الجمعيات في العمل الوطني عبر أطره[60]، فتمكّن، وجمعية قدماء ثانوية مولاي يوسف في الرباط، من انتخاب المهدي بن بركة، بداية عام 1943، رئيسًا لها على حساب منافسه رشيد ملين، وضمّ إلى جانبه قاسم الزهيري، العضو في جمعية سلا أيضًا، ومحمد اليزيدي وبوبكر الصبيحي، وكانا من قبل من مسيّري الجمعية الرياضية للرباط وسلا. وفي سلا نشأ صراع حاد بين الحزبيين (الحزب الوطني) والقوميين (الحركة القومية)، فتكون المكتب في غالبيته من الحزبيين، وضم بالخصوص قاسم الزهيري، مدير **مجلة المغرب**، وعبد الرحيم بوعبيد. أما في فاس، فكانت انتخابات المكتب مختلفة عن نظيراتها في المدن الأخرى؛ إذ لم تحمل تغيرات ملموسة، فقد احتفظ محمد الزغاري وبناني بسلطة رمزية على الجمعية، وأعيد انتخاب المكتب السابق، باستثناء شابين مندفعين عُوِّضا برجلين أكثر اتزانًا، هما الغزاوي الرجل الثري في مجال النقل، وممثل جمعية النجاح الرياضي، وأحمد بن إدريس[61].

وفقدت الحماية في مكناس نفوذها في هذه الجمعية، وقد أشرنا إلى ذلك النفوذ الذي كان قائمًا في عام 1934، فعوّض المكتب القديم لجمعية قدماء تلاميذ المدارس الإسلامية، باستثناء الرئيس وعضوين منه، بآخر جديد، أغلبه من العناصر الحزبية، من بينهم

58 أصبحت مكاتب جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية في عامي 1942 و1943 على النحو الآتي:
جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس في فاس: الرئيس: محمد الزغاري، نائبه: أحمد باحنيني، الكاتب: أحمد الحمياني، مساعد الكاتب: محمد بن شقرون، الخازن: أحمد السبتي، مساعد الخازن: محمد الغزاوي، المشرف على المكتبة: محمد بن سودة، المعاونون: بن إدريس أحمد، والصقلي محمد، وعبد الرحمن السلاوي.
جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي يوسف في الرباط: الرئيس: المهدي بن بركة، نائباه: أحمد اليزيدي ومولاي الطاهر الرفاعي، الكاتب: أحمد بن عبد الله، مساعداه: أحمد الشرقاوي وعبد الكريم الفلوس، الخازن العام: عبد السلام الدبي، مساعد الخازن: السيتل العيساوي، المعاونون: قاسم الزهيري، وعبد الرحيم بوعبيد، ومحمد بلمختار، مكلف بالأرشيف: عبد الله الركراكي.
جمعية قدماء تلاميذ الثانوية البربرية في أزرو: الرئيس: عبد الحميد بن مولاي أحمد، الكاتب: عبد الله بن عمر، الخازن: عبد الرحمن نايت الحو، المعاونون: العربي بن القايد علي العياشي، وعمار بن ناصر، وتبور.
جمعية قدماء تلاميذ مدرسة أبناء الأعيان في الدار البيضاء: الرئيس: الحاج مختار بن عبد السلام، نائبه: محمد بن الحاج عبد الواحد بن جلون، الكاتب: بوبكر بومهدي، مساعد الكاتب: الديوري أحمد، الخازن: الدخيسي أحمد، المشرف على المكتبة: الشرايبي العربي.
جمعية قدماء تلاميذ مدرسة أبناء الأعيان في مكناس: الرئيس: السنتيسي محمد، نائبه: عمر بن شمسي، الكاتب العام: الكتاني محمد، مساعد الكاتب: بوزبع عبد السلام، الخازن: الدريسي العلمي، مساعد الخازن: صلاغ عبد الرحمن، المعاونون: مكي بن محمد بن مكي، والتازي محمد بن محمد بن قاسم، وجعفر بن عبد القادر، ومزوار محمد، والمكي بادو.
جمعية قدماء تلاميذ مدرسة أبناء الأعيان في سلا: الرئيس: عبد الرحمن زنيبر، نائبه: عبد الرحيم بوعبيد، الكاتب: الصديق بلعربي، مساعد الكاتب: العربي حسن، الخازن: عبد الله الزناوي، مشرف المكتبة: أحمد بليمني، المعاونون: الطاهر زنيبر، وقاسم الزهيري.
جمعية قدماء تلاميذ المدارس الفرنسية العربية في مراكش: الرئيس الشرفي: مولاي العربي العلوي، المستشار التقني: مونطيل Montel، الرئيس: محمد بن الحاج عمر، نائبه: محمد الدباغ، الكاتب: البشير بن عباس، مساعد الكاتب: إدريس الدباغ، الخازن: يوسف بن عباس، مساعد الخازن: محمد بن الشرقاوي، مشرف المكتبة: محمد زعراوي، المعاونون: مولاي العربي مسعودي، ومولاي عمر العلوي، وأحمد الغجدامي، ومحمد برادة.
جمعية قدماء تلاميذ وجدة: الرئيس: عبد القادر بن مصطفى، نائبه: بن عبد الله بن الحاج العربي، الخازن: أحمد بن دالي، مشرف المكتبة: بن ناصر بن الحاج العربي. انظر:
"Composition des bureaux des associations d'anciens elèves," Année 1942-1943, A.D.N: Carton 3MA 900 / 38.

59 Direction des Affaires Politiques, Section politique, "Note sur les associations d'anciens élèves des écoles et collèges franco-musulmans composition et tendances actuelles," Avril 1943, A.D.N: Carton 1MA.200/435, p. 1.

60 Rezette, p. 310.

61 Direction des Affaires Politiques, pp. 1 - 2.

أربعة أشخاص لهم تأثير كبير. إن مجمل أوراق التصويت عبر المراسلة تتضمن لائحة أعضاء المكتب التي تشكلت بعد الانتخابات، وهو ما يشير إلى أن تركيبته معدّة سلفًا[62].

إن تمثيل المنتمين إلى الحزب الوطني في مكاتب جمعيات قدماء التلاميذ المختلفة، أتى عبر تزايد عدد المنخرطين، وعدد قدماء التلاميذ المشاركين في عملية التصويت. يلاحظ هذا في جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي يوسف في الرباط التي تضاعف منخرطوها خمس مرات (250 في عام 1943، مقابل 55 في عام 1942). لقد كان جل هذه الانخراطات خلال الأسابيع الثلاثة السابقة للجمع العام، وهو ما يشير إلى طابعها الانتخابي، ويحيل على قدرة الوطنيين على التعبئة في مثل هذه المناسبات[63]. لكنها انتخابات حملت في طياتها صراعًا قويًا بين القوميين والحزبيين، وهو ما أنذر بحرب تنظيمية بين الطرفين، وانتقال التجاذبات السياسية بين التيارين إلى الجمعيات الموازية، في وقت كان فيه المغرب في حاجة إلى رص الصف والوحدة في مواجهة الاستعمار[64]. ومن ثمّ كان هناك صراع مواقع بين التيارين، يخفي اختلافات عميقة بين الطرفين.

وبالعودة إلى تكتيك الحزب الوطني في احتواء جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية واستقطابها، ينبغي لنا تأكيد الدور الذي قام به المهدي بن بركة في استدراج أعضائها. إن علاقاته المتميزة بالأميركيين، وقربه من مراكز القرار الحزبية والقصر، جعلته أكثر الشخصيات أهلية لتطويق التردد، وتوفير شروط الإجماع بين عناصر جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية[65]. وهذا ما تبرزه إحدى المذكرات الصادرة عن مديرية الشؤون السياسية في نيسان/ أبريل 1943: "ترأس المكتب الجديد [جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي يوسف] المهدي بن بركة، وهو طالب شاب، منحته نجاحاته الدراسية وضعًا اعتباريًا بين زملائه، ووعيه بذلك جعله حريصًا على التميز، له صلات وطيدة مع العديد من أعضاء جمعية فاس، وواحد من زملائه في المكتب قاسم الزهيري، وهو في الآن نفسه عضو في جمعية سلا، واثنان آخران: اليزيدي والصبيحي من بين مسيّري الجمعية الرياضية للرباط وسلا. ما من شك في أن بن بركة يشكل حلقة وصل مع الجمعيات الإسلامية الأخرى"[66].

في سياق السيطرة على مكاتب جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية، سعت مكاتب هذه الجمعيات المنتخبة، في عام 1943، للتملص من رقابة مديري المؤسسات (المستشارون التقنيون لها) ووصايتهم، والتقارب مع المخزن المركزي بوساطة أحمد بركاش، مندوب الوزير الأعظم في التعليم العمومي[67].

لقد راهنت هذه الجمعيات دائمًا على التخلص من رقابة المستشار التقني؛ لتضمن حرية أكبر لتحركاتها؛ فالأنظمة الأساسية لجمعيات قدماء التلاميذ تعترف بعضوية مدير المؤسسة التعليمية في مكاتبها. غير أن هذا البند لم يكن سوى بند نمطي[68]؛ إذ سجل مديرو المؤسسات في سلا والرباط وفاس، في مناسبات عدة، أن أعضاء مكاتب الجمعيات الذين استُقبلوا من السلطات الفرنسية، أو من أحمد بركاش، كان استقبالهم من دون إشعار المستشار التقني. ووضع قدماء تلاميذ فاس والرباط رؤيتهم حول تعليم البنات المسلمات، من دون إخبار، أو مناقشة، مديرَي الثانويتين اللذين وجبت استشارتهما[69]. وكانت جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي يوسف في الرباط

62 Ibid, p. 1.

63 Ibid.

64 Ibid.

65 Rezette, p. 310.

66 Direction des Affaires Politiques, pp. 1 - 2.

67 Ibid., p. 2.

68 Le Directeur Général de l'Instruction Publique, 16/3/1934.

69 Direction des Affaires Politiques.



قد أعدّت تقريرًا حول العدالة، اعتمادًا على وثائق مديرية الشؤون الشريفة، من دون أن يعلم به مدير الثانوية. ووضعت الجمعية في عام 1941 تعديلًا في نظامها الأساسي، يبطل نفوذ المستشار التقني. لكنه قوبل بالرفض[70].

أما التقارب الحاصل بين جمعيات قدماء التلاميذ والمخزن المركزي، فهدفه الربط بينهما، وتقوية العناصر الشابة، وتطوير الساكنة المغربية، فكلا الطرفين مستفيد من هذا التوافق؛ فالارتباطات التدريجية لقدماء التلاميذ تجعل المخزن راعيًا لها، وباسطًا يديه على المؤثرة منها. وعمومًا كلا الجانبين أمِلا من وراء ذلك في مد فعل السلطات الوطنية على التعليم الفرنسي الإسلامي[71]. من هنا كان تكتيك الحزب الوطني يقضي بالآتي: استقطاب قيادات الجمعيات، والسيطرة على المكاتب، والانفلات من مراقبة مديري الثانويات (المستشارون التقنيون)، ودفع جمعيات قدماء التلاميذ إلى التقارب مع السلطان، ومن ثمّ عُدت حلقة وصل بين السياسي والمخزن المركزي. وهذا ما توضحه مذكرة مديرية الشؤون السياسية الصادرة في نيسان/ أبريل 1943، بقولها: "تسيطر العناصر النشيطة من الشباب الوطني على الجزء الأكبر من إدارة ومكاتب جمعيات قدماء التلاميذ، وتتطلع هذه الجمعيات إلى القيام بدور مهم في حياة البلاد، وهو ما ينذر بخطر يتخطى إطار نشاطها المنصوص عليه في أنظمتها الأساسية. فهم يحاولون جاهدين التحرر من وصاية المستشار التقني، ويتقاربون مع المخزن الذي يريدون الحصول على مباركته؛ حتى تحصل جمعياتهم على دعم قوي"[72]. إنها هواجس الحماية من تحوّل هذه الجمعيات إلى خطر محدق بسلطتها، وتهديد استقرارها وأمنها.

لقد حققت جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية غاياتها المنشودة، وإن كانت في إطار لا يتجاوز ما ينص عليه قانونها التنظيمي، من الاهتمام بصلات الود والصداقة وتطوير التعليم، إلا أنها استطاعت الإفلات من بين أيدي سلطات الحماية، وانخرطت في العمل السياسي، بوصفها نخبًا مغربية، تلقّت قدرًا من التعليم، وأصبحت آلية من آليات اشتغال الأحزاب السياسية الوطنية في هذه المرحلة. تمخّض عن هذا كله أن شاركت جمعيات قدماء التلاميذ في حدث تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال، توقيعًا، ونشرًا، وتظاهرًا. فما نسبته 20 في المئة من الموقعين عريضة المطالبة بالاستقلال كانوا من ممثلي[73] هذه الجمعيات، وكُلّف أعضاؤها في كل من فاس والرباط وسلا بنسخ هذه العريضة وتوزيعها على مختلف مدن المغرب[74]. وكان ممن قدموا الوثيقة للسلطان محمد الخامس أحمد الحمياني، كاتب جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس، وعبد الحميد الزموري، رئيس جمعية قدماء تلاميذ الثانوية البربرية في أزرو[75]. وقدّمها للقنصلية الأميركية المهدي بن بركة، رئيس جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي يوسف في الرباط، وعبد الرحيم بوعبيد، نائب رئيس جمعية قدماء تلاميذ مدرسة أبناء الأعيان في سلا[76]. ومن بين من قدّم الوثيقة للمقيم العام الفرنسي، محمد الزغاري، رئيس جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس[77]. ومن بين من قدّم الوثيقة للقنصلية الإنكليزية، أحمد باحنيني، نائب رئيس جمعية قدماء تلاميذ

---

70 Direction de l'Instruction Publique, 20/4/1941.

71 Ibid., p. 2.

72 Ibid.

73 من بينهم المهدي بن بركة، وعبد الرحيم بوعبيد، وعبد الحميد بن مولاي أحمد، وقاسم الزهيري، وعبد الله بن عمر، ومحمد الغزاوي، وأبو بكر القادري، وأبو بكر الصبيحي، وأحمد بن شقرون، وأحمد الشرقاوي، ومحمد الزغاري، والحسن بوعياد، وعمر بن ناصر، وأحمد باحنيني، وأحمد الحمياني، والصديق بلعربي، وعبد الله الرجراجي، ومحمد اليزيدي، وعمر بن شمسي، وعبد الهادي الصقلي.

74 Rezette, p. 310.

75 أبو بكر القادري، **مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية: من 1941 إلى 1945**، ج 2 (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997)، ص 183.

76 المرجع نفسه، ص 181-186.

77 عبد السلام البكاري، **وثيقة 11 يناير 1944** (القنيطرة، المغرب: البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، 2005)، ص 341.

ثانوية مولاي إدريس[78]. إن هذا الأمر يظهر المشاركة الواضحة، والدور الفاعل الذي قامت به جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية في أثناء تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال. فما موقف الحماية من هذا التحول؟ وكيف كانت تبعات هذه المشاركة على جمعيات قدماء تلاميذ المدارس والثانويات الفرنسية الإسلامية؟

تشير مراسلات وتقارير كثيرة، جرت بين مسؤولي الحماية الفرنسية، بأصابع الاتهام المباشر إلى جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية، على أنها من قاد التظاهرات، إلى جانب الحزب الوطني، في أثناء المطالبة بالاستقلال، وهذا ما تعبّر عنه رسالة مدير التعليم العمومي إلى الكاتب العام للحماية، في 14 حزيران/ يونيو 1944، وجاء فيها: "لقد أُسست جمعيات قدماء تلاميذ المؤسسات التعليمية الفرنسية الإسلامية، لكنها حادت عن الأهداف المسطّرة، وتوجهت نحو التحريض السياسي الموجه ضد فرنسا. إن من يتحمل مسؤولية 'أزمة يناير' هم ممثلو جمعيات قدماء التلاميذ الأكثر تأثيرًا بفاس والرباط وسلا وأزرو، الخاضعة لقناعاتهم الخطيرة المفسّرة بالموقف الذي تبنّوه، والدور الأول الذي قاموا به في هذه الأحداث [...] إن الحفاظ على هذه الجمعيات وتعددها وانتشارها أدى إلى تغطية المغرب بشكل فعال بشبكة من التنظيمات المطيعة للأوامر الصادرة عن الرباط أو فاس، وخلق اضطرابات في أرجاء البلاد. ونسجل هنا عدم مشاركة جمعيتي الدار البيضاء ومراكش في هذه الحركة، وننوه بالهدوء الذي ساد مراكش لحظة الاضطراب؛ بفضل التدخل الشخصي للباشا الكلاوي"[79]. وتشير رسالة أخرى للمراقب المدني، رئيس جهة الرباط، إلى مدير الشؤون السياسية في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1944 إلى الموضوع نفسه بالقول: "مما لا شك فيه أن هاتين الجمعيتين [الرباط وسلا]، عنصران يمثلان الدعاية الوطنية، وفاعلان في أحداث يناير الأخير، فتركيبة مكتبيهما، ومشاركة مسيّريهما في التحريض كفيل بإثبات ذلك"[80]. وتوضّح أيضًا رسالة الجنرال سوفران Suffren، رئيس جهة فاس، إلى سفير فرنسا مفوض الإقامة العامة في المغرب، في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1944 الأمر نفسه مع جمعية فاس بالقول: "لم يكن الزغاري صادقًا عندما صرح لمدير الثانوية في 29 كانون الثاني/ يناير بعد الزوال، بأنه لم يرغب في هذا الأمر، وأن الأحداث تجاوزته، لأنه هو وزملاءه من المكتب هم المهيؤون للقضية برمتها. فالزغاري نفسه تحدث في الأيام القليلة الماضية، حول مواجهات خطيرة ستحدث، وأعطى تعليماته إلى شعبة الصحة التابعة للحزب لتكون على استعداد تام لذلك. وكما كتب السيد بارون Baron: إنها المرة الثانية في 11 سنة التي ينشأ فيها وضع مماثل كهذا، المرة الأولى اعتقدنا أنه حادث عرضي، لن نسمح الآن بهذا العبث، سيكون خطأ سياسيًا فادحًا إذا ما احتفظنا بوجود هذه الجمعيات من قدماء التلاميذ التي ستحوّل كل ما فعلناه إلى مجموعات سياسية معارضة لعملنا"[81].

تبيّن هذه الرسائل المشاركة الفاعلة لجمعيات قدماء التلاميذ في أثناء تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال، توقيعًا، وتنسيقًا، وتظاهرًا، ضد سلطات الحماية. وهو ما يبرز الدور الذي اضطلعت به، وأيضًا التخوفات التي كانت لدى أطر الحماية الفرنسية من تنامي هذه الجمعيات التي تجاوزت دورها التقليدي المرسوم لها سلفًا، إلى دور سياسي فاعل في المجتمع المغربي. ويمكننا القول إن هذه الجمعيات كانت نواة لمجتمع مدني، بدأ يرسم معالم طريقه في وسط المجتمع، عبر فاعليته التي اكتسبها، والحظوة التي توافرت لديه من خلال الثقة المكتسبة من شريحة مهمة من المجتمع؛ بفضل الدفاع عن قضايا البلاد المغربية في هذه المرحلة.

78 غلاب، ص 276-277.

79 Le Directeur de l'Instruction Publique au Secrétaire Général du Protectorat, "Associations d'anciens élèves," 14/6/1944, A.D.N: Carton 1MA.200/435.

80 Le Contrôleur Civil Chef de la Région de Rabat au Directeur des Affaires Politiques, "Dissolution des Associations d'Anciens Elèves Rabat-Salé," 3/11/1944, A.D.N: carton 1MA.200/435.

81 Le Général Suffren Chef de la Région de Fès à l'Ambassadeur de France Commissaire Résident Général de France au Maroc, "Association des Anciens Elèves du Collège Moulay Idriss," 13/11/1944, A.D.N: carton 1MA.200/435.



إن الاستبعاد الذي شمل النخبة المتعلمة في الاستفادة من النظام القائم، واسترقاق فئات أخرى، جعلا تلك النخبة تنتفض ضد فرنسا التي لم تعد مرغوبًا فيها، بعد انتشار حركات التحرر في أرجاء العالم الثالث. من هنا لم تكن مشاركة جمعيات قدماء التلاميذ في التظاهرات المطالبة باستقلال البلاد (تظاهرات 29 كانون الثاني/ يناير في الرباط وسلا وفاس، و5 شباط/ فبراير في أزرو) لتمر من دون عقاب من الحماية. إن الإكراه البدني كان وظل طوال عهد الحماية الوسيلة الفاعلة لمجابهة أي تفكير أو تعبير عن الاستقلال، يهدد مصالح هذا النظام في المغرب. من ثمّ كانت هناك عمليات اعتقال المنتمين إلى تلك الجمعيات، وسجنهم أو نفيهم، والهدف هو قطع رأس هذه التنظيمات، ومحو دورها في المجتمع؛ فقد أصدرت المحاكم أحكامًا قاسية في حق القائمين على هذه الجمعيات، ففي أزرو حكمت على رئيس جمعية قدماء تلاميذ الثانوية البربرية، عبد الحميد بن مولاي الزموري، بسنتين سجنًا في 8 أيار/ مايو 1944؛ بسبب إضرابات 5 شباط/ فبراير في الثانوية البربرية في أزرو، وأدين كاتب الجمعية، عبد الله بن عمر، بالتهمة نفسها وحُكم عليه بـ 18 شهرًا[82]. وحُكم على رئيس جمعية قدماء تلاميذ الرباط بسنتين سجنًا، باعتباره محرضًا ومشاركًا في أحداث 29 كانون الثاني/ يناير 1944، والسيتل العيساوي بسنتين حبسًا، وعبد الله الركراكي المسؤول عن الأرشيف بسنتين. وقاسم بن محمد الزهيري من سلا، وعبد الرحيم بوعبيد بالمدة نفسها، والصديق بن إبراهيم، كاتب الجمعية، حُكم عليه بستة أشهر[83]. كان الهدف من هذا قطع رأس التنظيم، وإفراغ المكاتب، وتشتيت الجهد، وإبعاد القادة ذوي الحظوة لدى منخرطي الجمعيات.

رابعًا: مآل جمعيات قدماء تلاميذ المدارس والثانويات الإسلامية بعد عام 1944

وجب حل جمعيات قدماء تلاميذ المدارس الإسلامية الفرنسية، واستبدالها بتنظيمات أكثر تحكّمًا من لدن الحماية، وهذا ما جاء في قول مدير التعليم العمومي: "بناء على ما سبق، من الواضح جدًا أن تأثير جمعيات قدماء التلاميذ مضرّ بنا، لذا يجب حل جميع جمعيات قدماء تلاميذ الثانويات الإسلامية، على الرغم من أن هذا القياس العام غير منصف بالنسبة إلى الأخريات، مثل مراكش والدار البيضاء، التي لم تمارس أي دور سياسي"[84]. إن المشاركة في المطالبة بالاستقلال نتج منها حل جمعيات قدماء التلاميذ كافة، بما فيها تلك التي ظلت محايدة[85]. لكن من يحارب وضعًا قائمًا كان لزامًا عليه استحداث آخر جديد، يجد فيه ضالته ويحقق أهدافه.

استُبدلت جمعيات قدماء التلاميذ الإسلامية بلجان للرعاية، ولم يكن الأمر هينًا على سلطات الحماية المتخوفة من تكرار الاحتجاجات من منخرطيها مرة أخرى. وهذا ما جاء في رسالة مدير التعليم العمومي إلى الكاتب العام للحماية في 14 حزيران/ يونيو 1944: "وليكون هذا الحل مقدورًا عليه ومقبولًا من دون احتجاجات عنيفة أعتقد من المناسب استبدال هذه الجمعيات بلجان للرعاية تسمح لنا بالحفاظ على روابطنا مع العنصر المغربي، وعرض قصدنا ونيتنا في متابعة سياسة الاتصال"[86]. لقد وُجدت هذه اللجان سابقًا في كل الثانويات، متكفلة فيها بدعم التمدرس والنشاط التعليمي؛ إذ اعتبرها رؤساء المؤسسات التعليمية ذات قيمة كبرى، ومتعاونة معهم:

---

82 Le Chef de Bataillon Laubies, Chef du cercle d'Azrou, au Contrôleur Civil Chef du territoire de Meknès, "Association Amicale des Anciens Elèves du Collège Berbère d'Azrou," 18/10/1944, A.D.N: Carton 1MA.200/435.

83 Le Contrôleur Civil Chef de la Région de Rabat au Directeur des Affaires Politiques.

84 Le Directeur de l'Instruction Publique au Secrétaire Général du Protectorat.

85 Secrétariat Général du Protectorat, "Note pour le Directeur des Affaires Politiques, Association d'anciens élèves des établissements de l'enseignement musulman," 30/6/1944, A.D.N: Carton 1MA.200/435.

86 Le Directeur de l'Instruction Publique au Secrétaire Général du Protectorat.

"إن هذه اللجان في أهدافها المدرسية وما بعد الدراسة، ستكون معروفة بدقة، وأعضاؤها سيكونون محدودي العدد، ونشاطاتها لن تتجاوز المنصوص عليه في قانونها الأساسي؛ إذ ستكون متعاونة مع الإدارة بطريقة فعالة"[87]. إنه الرهان الفرنسي على تحديد عدد المنخرطين، وعدم تركه مفتوحًا كما كان مع جمعيات قدماء التلاميذ، والحد من نشاطاتها، وجعلها في خدمة نيات فرنسا. وفي هذا الصدد يشير تقرير لمديرية الداخلية إلى أنه: "تم حل كافة جمعيات قدماء التلاميذ ونقلت ممتلكاتها المادية والمعنوية إلى لجان الرعاية، وتم اعتقال وسجن العناصر الأكثر لفتًا للانتباه من مسيّريها الموقّعين عريضة المطالبة بالاستقلال، واستعاد رؤساء المؤسسات مقراتها [...] ولم يعترف بالجمعيات التي في طور التأسيس، المدارس الإسلامية بوجدة 1944، ومزكان 1945، وتلك التي بالمدرسة الإسلامية بآسفي المصرح بها في نهاية 1943 لم تشتغل أبدًا"[88].

كان مشروع حزب الاستقلال هو تغطية البلاد بشبكة جمعوية كثيفة، قادرة على نشر الأفكار السياسية للحزب، وبث الوعي الوطني، ولا سيما من جمعيات قدماء التلاميذ التي تمتعت بدعم من الحماية الفرنسية، وتوافر لها الاعتراف الرسمي والقانوني، ووُجدت في الحواضر الكبرى التي انطلقت منها احتجاجات 11 كانون الثاني/ يناير 1944. لكن هذا المشروع أحبطته سلطات الحماية التي رأت فيه تهديدًا صريحًا لمصالحها في البلاد المغربية[89]. فكيف أصبحت جمعيات قدماء تلاميذ المؤسسات الإسلامية بعد عام 1944، بعد حلها من الإقامة العامة؟

باتت جمعيات قدماء التلاميذ غير معترف بها رسميًا من سلطات الحماية، لكنها غضّت الطرف عن أعمالها، وظلت تراقبها، فأذنت أحيانًا لنشاطها، واعترضته أحيانًا أخرى؛ لذا، انتقلت هذه الجمعيات من طور الاشتغال العلني، إلى الممارسة السرية، ما عدا حالة النشاطات التي حظيت بدعم أطر الحماية. لقد ظلت جمعية مراكش متمسكة بأهدافها المدرسية، فقد حررت مذكرات عام 1946 تضمنت اجتماعات مشتركة منظمة مع تلاميذ المدارس الحرة[90]. أما جمعية مكناس، فاهتمت بإلقاء الدروس الليلية، وجددت كل سنة مكتبها، فانتُخب عمر بن شمسي رئيسًا لها في عام 1947. وفي الرباط سطع نجم جمعية قدماء تلاميذ معهد جسوس، بعد "إقبار" جمعيتي الرباط وسلا. وعن هذه الأخيرة عاد عبد الرحيم بوعبيد والدكتور عبد الرحمن زنيبر، لكن العربي حصار ظل قويًا في مركزه، فطالبوا بتجديد المكتب واستعادة المقر السابق. وفي الدار البيضاء لم تستطع جمعية أبناء الأعيان تجديد مكتبها الذي كان معترفًا به إلى حدود عام 1948؛ إذ أصبح حزب الاستقلال مخترقًا لها في شخص المهدي الصقلي. وأصبح الأمير مولاي الحسن رئيسًا شرفيًا لها، إذ حاولت أن تضم بين ظهرانيها قدماء التلاميذ من جميع المدارس الإسلامية في الدار البيضاء، وطالب قدماء تلاميذ الإدريسية بإعادة إنشاء الجمعية من جديد[91].

وفي أزرو تحرّك أعضاء المكتب منذ عام 1948، وانخرطوا بكثافة في المؤتمرات التي عقدت في مختلف ربوع التراب الوطني التابع للإدارة الفرنسية[92]، فأصبحت الجمعية أكثر نشاطًا في نضالها السياسي، إلى جانب التنظيمات السياسية؛ إذ أحدثت الجمعية مجلس الأطلس الذي كانت تناقش فيه جميع الإشكاليات التي تهم المقاومة المغربية[93].

---

87 Ibid.

88 Direction de l'Intérieur, Section politique.

89 Ibid., pp. 3 - 4.

90 Ibid.

91 Ibid.

92 سليمان جابري، "دور الثانوية البربرية أزرو: ثانوية طارق بن زياد في النضال الوطني من أجل الاستقلال، 1927-1956"، في: مجموعة مؤلفين، **التعليم والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط**، ص 184.

93 Mohamed Benhlal, *Le Collège d'Azrou: La Formation d'une élite berbère civile et militaire au Maroc* (Paris: Edition Karthala-Ireman, 2005), p. 389.



وبفعل هذا الحراك السياسي للجمعية، أقدمت سلطات الحماية، في عام 1951، على تقسيم الجمعية إلى جمعيتين: واحدة تضم قدماء التلاميذ العاملين في قطاع العدل، والثانية تجمع قدماء التلاميذ المشتغلين في التعليم. وفي عام 1955 اقترحت الإقامة مكتبًا للجمعية، يجمع بين قدماء التلاميذ وأعضاء هيئة التدريس في الثانوية، وكبار موظفي الإقامة العامة، وترأس المكتب الجديد فرد من قدماء التلاميذ، وطالب بعودة السلطان محمد بن يوسف إلى عرشه[94]، فمثّل ذلك احتجاجًا من الجمعية على قرار النفي، فضلًا عن مطالبتها بالاستقلال التام للمغرب في عام 1955[95]. ووجّهت الجمعية مذكرة إلى منظمة الأمم المتحدة في العام نفسه، ألحّت فيها على ضرورة تصفية القضية المغربية، بعودة الملك الشرعي إلى البلاد، وإعلان الاستقلال[96].

خاتمة

ظهرت جمعيات قدماء تلاميذ المدارس الإسلامية المغربية بوصفها شكلًا حديثًا من أشكال التنظيم الاجتماعي الذي أصبح بديلًا من المؤسسات التقليدية المغربية، وما فتئت تناضل وتقاوم المستعمر الفرنسي ثقافيًا في مرحلة أولى، وسياسيًا في مرحلة ثانية؛ لتصبح منظمات موازية للأحزاب الوطنية، استخدمتها بطريقة وأخرى في المواجهة مع سلطات الحماية الفرنسية، ولا سيما أنها كانت النموذج المسموح بتأسيسه في الأوساط المغربية[97]. وعلى الرغم من المراقبة المضروبة على هذه الجمعيات وأعضائها، استطاعت أن تفلت منها، وتندمج في العمل السياسي للحركة الوطنية، فكانت المشاركة الواضحة لجمعيات قدماء التلاميذ في الاحتجاج ضد صدور الظهير البربري في 16 أيار/ مايو 1930، وفي أحداث 11 كانون الثاني/ يناير 1944، من خلال تنظيمها لكثير من التظاهرات، سببًا مباشرًا في حل الإقامة العامة الفرنسية هذه الجمعيات.

ونسجل، إلى جانب مشاركتها في الأحداث الوطنية المختلفة، أن هذه الجمعيات هي من بين التنظيمات الأولى التي مارست فيها النخب المغربية أشكال التداول على التسيير، واختبرت فيها التدافع الانتخابي، وطورت خلالها آليات المحاسبة المختلفة. ونقلت في الوقت نفسه المجتمع المغربي من إطاره التقليدي إلى الحداثي، اعتمادًا على مثل هذه المؤسسات. وبصمت هذه المرحلة على ارتباط العمل الجمعوي بالأحزاب السياسية، وهو ما استمر بعد حصول المغرب على الاستقلال، لتطرح إشكالات العلاقة بينهما، ومدى جدوى عمل جمعوي مسيّر وموجّه من السياسي. ونشير أيضًا إلى أن دور جمعيات قدماء تلاميذ المدارس المختلفة سرعان ما خفت بعد الاستقلال، ولم يعد لها صدى في أرجاء البلاد المغربية كما كان؛ الأمر الذي يجعلنا نقف على إشكالية تراجع مثل هذه المؤسسات، والممارسة الجمعوية المرتبطة بها في البلاد المغربية، زمن الاستقلال، عن التأطير والمشاركة المجتمعية.



94 Ibid.

95 جون واتربوري، **أمير المؤمنين: الملكية والنخبة السياسية المغربية**، ترجمة عبد الغني أبو العزم وعبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، ط 2 (الرباط: مؤسسة الغني للنشر، 2004)، ص 165.

96 جابري، ص 185.

97 عبد الله إبراهيم، "الحركة الوطنية والعمل الثقافي"، **مجلة الكرمل**، العدد 11 (1984)، ص 114.

المراجع

العربية

- إبراهيم، عبد الله. "الحركة الوطنية والعمل الثقافي". **مجلة الكرمل**. العدد 11 (1984).
- أشقرا، عثمان. **في سوسيولوجيا الفكر المغربي الحديث**. الدار البيضاء: عيون المقالات، 1990.
- البكاري، عبد السلام. **وثيقة 11 يناير 1944**. القنيطرة، المغرب: البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، 2005.
- بنعياد، محمد. **طريق الحرية: التاريخ الصغير لمدينة سلا: أيام كفاح الملك والشعب، 1912-1956**. الرباط: مطبعة شالة، 1986.
- "جمعية قدماء اليوسفية". **مجلة المغرب**. السنة 3، العدد 8 (كانون الثاني/ يناير-شباط/ فبراير 1935).
- "جمعية قدماء اليوسفية". **مجلة المغرب**. السنة 5، العدد 3 (أيلول/ سبتمبر-تشرين الأول/ أكتوبر 1936).
- "رواية أميرة الأندلس وتمثيلها بالحمراء". **مجلة المغرب**. السنة 2، العدد 12 (أيلول/ سبتمبر 1933).
- غلاب، عبد الكريم. **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية إلى بناء الجدار السادس في الصحراء**. الرباط: مطبعة الرسالة، 1987.
- القادري، أبو بكر. **مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية: من 1941 إلى 1945**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997.
- ______. **المجاهد محمد اليزيدي ضمير حزب الاستقلال ورجل الصدق والوفاء والوطنية**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1999.
- مجموعة مؤلفين. **التعليم والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط خلال فترة الحماية وحضور تاريخ المقاومة وجيش التحرير في الكتاب المدرسي**. الرباط: المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2007.
- مجموعة مؤلفين. **الحركة الوطنية بمدينة سلا: النشأة - الرواد - الخصوصية، مائدة مستديرة 7-8 مارس 2003**. الرباط: المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2004.
- "المشروعات الإصلاحية". **مجلة المغرب**. السنة 3، العدد 7 (كانون الأول/ ديسمبر 1934).
- واتربوري، جون. **أمير المؤمنين: الملكية والنخبة السياسية المغربية**. ترجمة عبد الغني أبو العزم وعبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق. ط 2. الرباط: مؤسسة الغني للنشر، 2004.
- الوزاني، محمد حسن. **مذكرات حياة وجهاد: التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية**، ج 1: **طور المخاض والنشوء**. فاس: منشورات مؤسسة محمد حسن الوزاني، 1982.
- "يوم للأدب بالمغرب". **مجلة المغرب**. السنة 2، العدد 17 (شباط/ فبراير 1934).

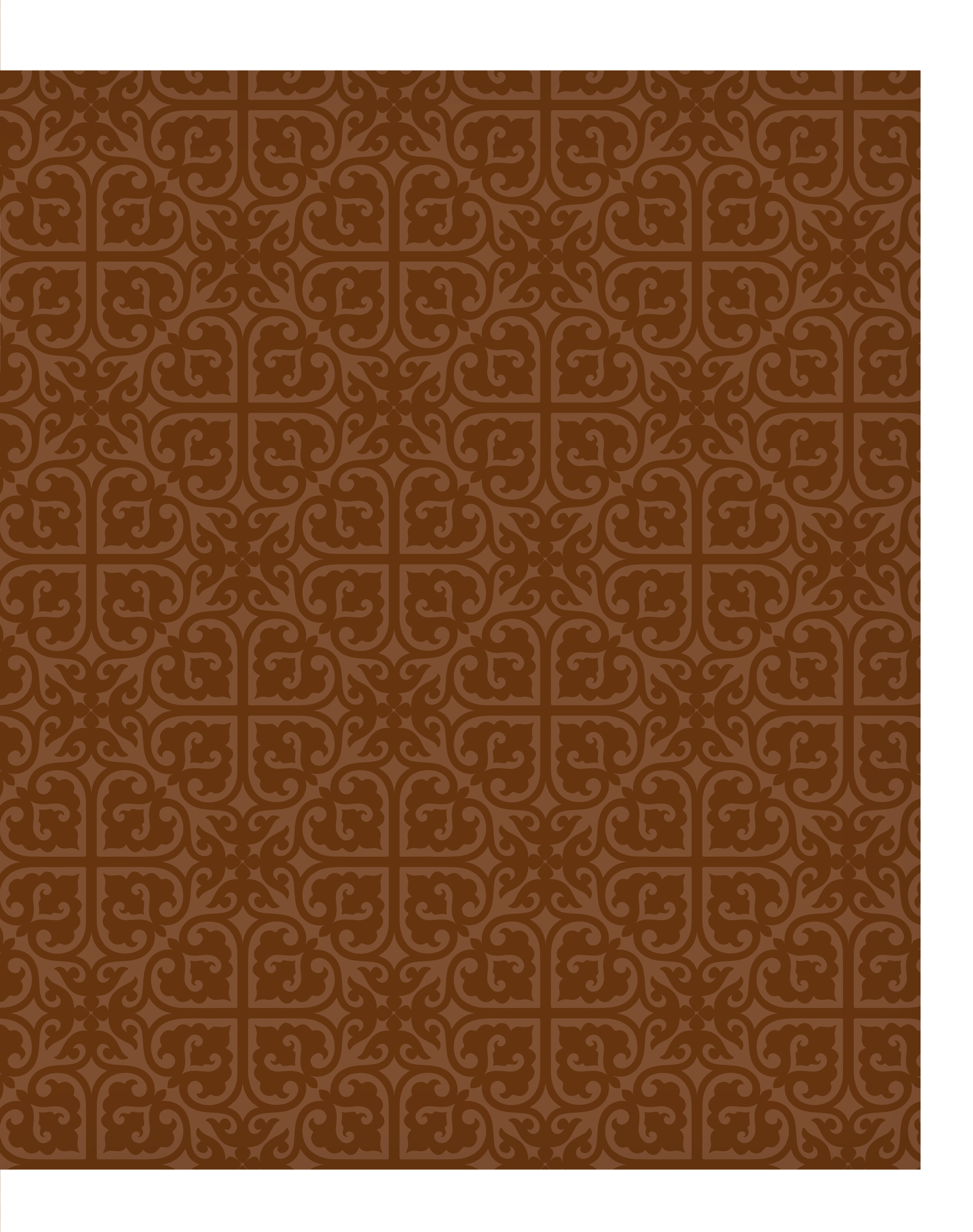


الأجنبية

- Aouad, M'hammed & Maria Awad. *Les trente glorieuses ou l'âge d'or du nationalisme marocain 19251955-, Témoignage d'un compagnon de Mehdi Ben Berka*. Rabat: Imprimerie Al Maarif Al Jadida, 2006.
- Benhlal, Mohamed. *Le collège d'Azrou: La formation d'une élite berbère civile et militaire au Maroc*. Paris: Edition Karthala-Ireman, 2005.
- Brown, Kenneth. *Les gens de Salé, les Slawis: Traditions et changements de 1830 à 1930*. préface de Mohammed Naciri. Casablanca: Eddif, 2001.
- "Composition des bureaux des associations d'anciens élèves." Année 1942-1943. A.D.N: Carton 3MA 900/38.
- Deye-Finzi, Michèle O. *Les associations en ville africaines: Dakar-Brazzaville*. Paris: L'Harmattan, 1985.
- Direction de l'Instruction Publique. "Note au directeur de l'instruction publique, attitude actuelle de la Jeunesse Marocaine." 20/4/1941. A.D.N: Carton 3MA.900/56.
- Direction de l'Intérieur, Section politique. "L'Activité politique des associations d'anciens élèves des établissements d'enseignement franco-musulman." [Sans Date]. A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- Direction de l'Intérieur. section politique. "L'activité politique des associations d'anciens élèves des établissements d'enseignements franco-musulmans." A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- Direction des Affaires Indigènes. "Note sur le projet de création d'une fédération des associations d'anciens élèves des collèges musulmans et des écoles de fils de notables." 6/3/1934. A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- Direction des Affaires Politiques, Section politique. "Note sur les associations d'anciens élèves des écoles et collèges franco-musulmans composition et tendances actuelles." Avril 1943. A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- El Aoufi, Nourddine (ed.). *La société civile au Maroc: Approches*. Rabat: Imprimerie El Maarif Al Jadida, 1992.
- Hoisington Jr., William A. *L'héritage de Lyautey: Noguès et la politique française au Maroc 1936-1943*. Paris: L'Harmattan, 1995.
- L'interprète-Lieutenant-Colonel Mangot Directeur du Journal Essaada au Directeur des Affaires Indigènes. "Note." 8/3/1934. A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- Le Chef de Bataillon Laubies. Chef du cercle d'Azrou. au Contrôleur Civil Chef du territoire de Meknès. "Association Amicale des Anciens Elèves du Collège Berbère d'Azrou." 18/10/1944. A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- Le Contrôleur Civil Chef de la Région de Rabat au Commissaire Résident Général de la République Française au Maroc (Service du Contrôle Civil). 9/3/1934. A.D.N: carton 1MA.200/435.
- Le Contrôleur Civil Chef de la Région de Rabat au Commissaire Résident Général de la République Française au Maroc. "Fédération des anciens élèves des écoles de fils de notables." 7/3/1934. A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- Le Contrôleur Civil Chef de la Région de Rabat au Directeur des Affaires Politiques. "Dissolution des Associations d'Anciens Elèves Rabat-Salé." 3/11/1944. A.D.N: carton 1MA.200/435.
- Le Contrôleur Civil Chef de la Région de Rabat. "Bulletin de renseignements." 14/3/1934. A.D.N: Carton 1MA.200/435.

- Le Directeur de l’Instruction Publique au Secrétaire Général du Protectorat. "Associations d’anciens élèves." 14/6/1944. A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- Le Directeur du Collège Moulay Youssef. "Réponse à la note circulaire N 3409 IP/3T du 1 mai sur le rôle du conseiller technique des associations d’anciens élèves." 28/5/1943. A.D.N: carton 3M.900/38.
- Le Directeur Général de l’Instruction Publique, des Beaux-Arts et Antiquités au Maroc, au Directeur des Affaires Indigènes. [Sans Date]. A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- Le Directeur Général de l’Instruction Publique, des Beaux-Arts et des Antiquités au Maroc, au Directeur du Service du Contrôle Civil, "Bulletin de renseignements sur l’activité politique des associations d’anciens élèves." 30/4/1934. A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- Le Directeur Général de l’Instruction Publique, des Beaux-Arts et des Antiquités au Maroc, au Directeur des Affaires Indigènes. "Note au sujet des associations d’anciens élèves des établissements scolaires d’enseignement musulman." 16/3/1934. A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- Le Général Suffren Chef de la Région de Fès à l’Ambassadeur de France Commissaire Résident Général de France au Maroc. "Association des Anciens Elèves du Collège Moulay Idriss." 13/11/1944. A.D.N: carton 1MA.200/435.
- Rezette, Robert. *Les partis politiques marocains*. Préface de Maurice Duverger. Paris: Armand Colin, 1955.
- Rivet, Daniel. *Le Maroc de Lyautey à Mohammed V: Le double visage du Protectorat*. Casablanca: Editions Porte d’Anfa, 2004.
- Secrétariat Général du Protectorat. "Note pour le Directeur des Affaires Politiques, Association d’anciens élèves des établissements de l’enseignement musulman." 30/6/1944. A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- Service de l’enseignement secondaire primaire et professionnel musulman au Directeur des Affaires Indigènes. 4/7/1935. A.D.N: carton 3MA.900/38.
- Service du Contrôle Civil. "Note pour le délégué à la Résidence Générale." Fédération des associations d’anciens élèves. 6/3/1934. A.D.N: Carton 1MA.200/435.
- Service du Contrôle Civil. "Note pour le Délégué à la Résidence Générale." 8/3/1934. A.D.N: Carton 1MA.200/435.


أسطور
OSTOUR
ترجمات
Translations





ديفيد كار | David Carr*
ترجمة ثائر ديب | Thaer Deeb**

السرد والعالم الواقعي

Narrative and the Real World: An Argument for Continuity

مـا يبيّنـه ديفيد كار في بحثه هذا هو أنَّ السرد والعالم الواقعي لا يسـتبعدان أحدهما الآخر. وأنَّ الحياة ليسـت تسلسـل أحداث بلا بنية؛ بل تتألّف من بنى معقدة لتكوينات زمنية متشابكة تتلقّى معانيها من داخل الفعل ذاته. فليس صحيحًا أيضًا أنَّ الحيـاة تفتقـر إلى وجهـة نظر تحوّل الأحداث إلى قصة من خـلال حكيها. يبينّ كار أيضًا أنّ محـطّ اهتمامنا ليس الماضي بل المسـتقبل، عبر ما نلتقطه من تكوينات تمتد إلى المسـتقبل. وبهذا المعنى، فإنَّ الفعل ينطوي على اتّخاذ وجهة نظر مسـتقبلية ارتجاعيـة حيال الحاضر. ويمكن النظر إلى أفعـال الحياة على أنّها عملية نحكي من خلالها قصصًا لأنفسـنا. وما نظرة السـارد الارتجاعية سـوى امتداد وصقل لوجهة نظر متأصّلة في الفعل ذاته. ذلك أنّ حكاية القصص نشاط اجتماعي، تُحكى فيه قصة حياة المرء للآخرين بقدر ما تُحكى له هو نفسه.

يبيّن كار، أخيرًا، أنَّ الزمن الإنسـاني الاجتماعي، شـأنه شـأن الزمن الإنسـاني الفردي، مبنيّ في تسلسـل تكويني. ويمكن لسيرورة السرد العملية من المرتبة الأولى، تلك السيرورة التي تكوّن شخصًا أو جماعة، أن تغدو سردًا من المرتبة الثانية لا تتغير ذاته لكن اهتمامه هو اهتمام معرفي أو جمالي في المقام الأول.

كلمات مفتاحية: الأحداث، المستقبل، حكاية القصص، الزمن الإنساني الاجتماعي، الزمن الإنساني الفردي.

Narrative and the real world are not mutually exclusive. Life is not a structureless sequence of events; it consists of complex structures of temporal configurations that interlock and receive their meaning from within action itself. It is also not true that life lacks a point of view which transforms events into a story by telling them. Our focus of attention is not the past but the future, because we grasp configurations extending into the future. Action involves the adoption of an anticipated future-retrospective point of view on the present. The actions of life can be viewed as the process of telling ourselves stories. The retrospective view of the narrator is an extension and refinement of a viewpoint inherent in action itself. Because storytelling is a social activity, the story of one's life is told as much to others as to oneself. Social human time, like individual human time, is constructed into configured sequences. The practical first-order narrative process that constitutes a person or a community can become a second-order narrative whose subject is unchanged but whose interest is primarily cognitive or aesthetic.

Keywords: Events, future, storytelling, Social human time, individual human time.

* ديفيد كار (1940-)، أكاديمي ومفكّر ظاهراتي أميركي، من أعماله: الظاهراتية ومشكلة التاريخ (1974)، تأويل هسرل (1987)، الزمن والسرد والتاريخ (1991)، تناقض الذات (1999)، التجربة والتاريخ: منظور ظاهراتي إلى العالم التاريخي (2014).

David Carr (born 1940), American phenomenology scholar. Among Professor Carr's publications: Phenomenology and the Problem of History (1974), Interpreting Husserl (1987), Time, Narrative and History (1991), The Paradox of Subjectivity (1999), and Experience and History: Phenomenological Perspectives on the Historical World (2014).

** كاتب ومترجم سوري.

Syrian writer and translator.

ما العلاقة بين سردٍ وما يصفه من أحداث؟ هذا واحد من الأسئلة التي دار الجدال حولها بين كثيرٍ من المساهمين في النقاش الحيوي المتعدد التخصصات الذي تناول السرد في السنوات الأخيرة.

عُنِيَ الجدال المذكور بصدق الروايات السردية، بالمعنى الأوسع لمصطلح الصدق هذا. فالتواريخ السردية التقليدية تزعم أنّها تخبرنا ما حصل بالفعل. وتصوّر السرديات القصصية التخييلية، بالتعريف، أحداثًا لم تحصل قطّ، لكنْ غالبًا ما يُقال إنّها تبدو واقعية؛ أي إنّها تخبرنا كيف يمكن أن تكون قد جرت أحداث معينة لو أنها جرت بالفعل. وقد تكون بعض التواريخ غير صحيحة وبعض القصص **غير محتملة**، لكن ما من شيء يحول، من حيث المبدأ، بين هذه السرديات وبين النجاح في تحقيق هدفها، بل إننا نتّخذ بعض الحالات مثالًا على النجاح الباهر.

بيد أنّ حلفًا قويًا من الفلاسفة ومنظّري الأدب والمؤرّخين ظهر مؤخّرًا وأعلن أنَّ هذه النظرة القائمة على الفهم الشائع هي نظرة خاطئة وساذجة. فالحوادث الواقعية لا تتآزر معًا بطريقة سردية، وإذا ما تعاملنا معها كما لو أنها تفعل، فلن نبدو واقعيين؛ وذلك ليس بسبب الافتقار إلى الأدلة أو بعد الاحتمال فحسب، وإنّما لأنَّ كلّ رواية سردية تقدّم لنا، بحكم شكلها، صورة مشوّهة للأحداث التي ترويها. وتتمثّل إحدى نتائج ذلك بالنسبة إلى النظرية الأدبية بنظرة إلى التخييل السردي تؤكّد استقلاليته وانفصاله عن العالم الواقعي. كما تتمثّل إحدى النتائج بالنسبة إلى نظرية التاريخ في التشكك في الروايات التاريخية السردية.

ما أودّ القيام به هو الوقوف ضد هذا الحلف، ليس دفاعًا عن النظرة القائمة على الفهم الشائع، بل دفاعًا عن الحقيقة الأعمق والأشدّ إثارة للاهتمام التي أحسب أنّها تشكّل أساسها. فالسرد ليس مجرد طريقة محتملة النجاح في وصف الأحداث؛ بل تتأصّل بنيته في هذه الأحداث ذاتها. والرواية السردية ليست تشويهًا شكليًا للأحداث التي ترويها، بل هي امتداد لواحد من سماتها الأساسية. وفي حين يدافع آخرون عن الانفصال الجذري بين السرد والواقع، فلن أدافع من جهتي عن اتصالهما فحسب، بل أيضًا عن اشتراكهما في الشكل. دعونا ننظر باقتضاب إلى وجهة النظر التي تدافع عن الانفصال قبل أن نمضي في جدالنا ضدها.

1

في نظرية التاريخ، قد يتوقع المرء نظرة كهذه من أولئك الذين يؤمنون بأنّ التاريخ السردي لطالما احتوى على عناصر من التخييل لا بدّ لتاريخ علمي جديد من أن يطردها. وهؤلاء يراوحون من الوضعيين إلى مؤرّخي **الحوليات**. والمفارقة أنَّ التشكك حيال التاريخ السردي نشأ بين أولئك الذين أغدقوا عليه ذلك الضرب من الاهتمام الذي يُدَّخر في العادة لموضوعٍ محلّ إعجاب وعاطفة. خذوا عمل لويس مينك، على الرغم من أنّه يتحدث عن السرد باعتباره "طريقة للفهم" و"أداة معرفية"، ويبدو لأول وهلة أنّه يدافع عن التاريخ السردي ضد الاختزاليين مثل همبل، فإنّه يصل في النهاية إلى استنتاج مماثل لاستنتاجهم، وهو أنَّ التاريخ التقليدي يمنعه شكله ذاته من تحقيق ادعائه المعرفي. فالبنية السردية، لا سيما الانغلاق والتكوين اللذان تسبغهما بداية القصة ووسطها ونهايتها على تسلسل الأحداث، هي بنية مستمدة من فعل حكاية القصة، وليس من الأحداث ذاتها. وفي النهاية، فإنَّ مصطلح "التاريخ السردي" هو نوع من إرداف الخُلف الذي يجمع لفظتين متناقضتين: "فهو كتاريخ يدّعي أنّه يمثّل، من خلال شكله، جزءًا من تعقيد الماضي الواقعي، لكنّه، كسرد، نتاج بناء خيالي لا يقوى على الدفاع عن ادّعائه الحقيقة بأيّ إجراء مقبول من إجراءات الحجاج أو التوثيق"[1]. يقول مينك: "القصص لا تُعاش بل تُحكى. ليس للحياة بدايات وأواسط ونهايات [...] خصائص السرد تُنقَل من الفنّ إلى الحياة"[2].

1 Louis O. Mink, "Narrative Form as a Cognitive Instrument," in: R. H. Canary & H. Kozicki (eds.), *The Writing of History* (Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1978), 145.

2 Louis O. Mink, "History and Fiction as Modes of Comprehension," *New Literary History*, vol. 1, no. 3 (1970), p. 557f.

إن كان مينك لا يتوصّل إلى مثل هذه الاستنتاجات المتشككة إلّا على مضض، فإنّ هايدن وايت يعتنقها بجرأة. وهو مثل مينك، يطرح السؤال عن قدرة السرد على التمثيل. وبعد تحرّيه "قيمة السرد في تمثيل الواقع"، من الواضح أنّه يستنتج في هذا الصدد أنّ تلك القيمة ليست سوى صفر. ويتساءل "ما الأمنية التي يحققها، ما الرغبة التي يلبّيها ذلك التهويم الذي مفاده أنَّ الأحداث **الواقعية** تُمَثَّل على النحو الصحيح حين يمكن أن نبيّن أنّها تبدي التماسك الشكلي الذي تبديه قصة؟"[3]، "هل يقدّم العالَم نفسَه للإدراك حقًّا على هيئة قصص حسنة الصنع؟ أم أنّه يقدّم نفسه أكثر بالطريقة التي يقترحها الحوليون والإخباريون، إمّا كسلسلة محض من دون بداية أو نهاية أو كسلاسل من البدايات تنقطع فحسب ولا تصل إلى ختام قطّ؟". بالنسبة إلى وايت، الإجابة واضحة: "الفكرة التي مفادها أنَّ سلاسل الأحداث الواقعية تمتلك الصفات الشكلية للقصص التي نرويها عن الأحداث المتخيّلة لا أصول لها إلا في الأمنيات وأحلام اليقظة والتهويمات". الحوليون والإخباريون على وجه التحديد هم من يقدمون لنا "نماذج للطرائق التي يقدّم بها الواقع نفسّه للإدراك"[4].

ما يسوق مينك ووايت في هذه الوجهة المتشككة هو في جزء منه إيمانهما المشترك بالعلاقة الوثيقة بين السرديات التاريخية والتخييلية؛ فإذا ما نظرنا إلى بعض دراسات السرد الأدبي الأشدّ أثرًا في السنوات الأخيرة، نجد نظرة مشابهة إلى العلاقة بين السردي والواقعي، وهي نظرة يقتسمها البنيويون وغير البنيويين على حد سواء. يعبّر فرانك كيرمود عن الأمر، في دراسته النافذة الموسومة **الإحساس بالنهاية: دراسات في نظرية التخييل**، على هذا النحو: "في ’فهم‘ العالم [...] نستشعر حاجةً [...] لاختبار ذلك التناغم بين البداية والوسط والنهاية الذي هو جوهر تخييلاتنا الشارحة"[5]. لكن مثل هذه التخييلات "تتدهور"، على حدّ قوله، إلى "أساطير" ما إن نصدقها أو ننسب خصائصها السردية إلى ما هو واقعي، أي "ما إن يكفّ وعينا عن اعتبارها متخيَّلة"[6]. ويتحدث سيمور تشاتمان، في عرضه المفيد مؤخّرًا لنظريات السرد البنيوية، عن البنية المؤلّفة من بداية ووسط ونهاية، ويلحّ على أنّها تصحّ "على السرد، على حوادث القصة كما تُسرَد، ولا تصحّ على [...] الأفعال ذاتها، وذلك ببساطة لأنّ مثل هذه المصطلحات لا معنى لها في العالم الواقعي"[7]. وهو في هذا يردد ما يقوله معلمه رولان بارت الذي يقول في عمله الشهير "مدخل إلى التحليل البنيوي للسرد": "لا يعرف الفنّ أيّ سكون". بعبارة أخرى، ما من شيءٍ في قصةٍ إلا وله مكانه في بنيةٍ في حين يُزَال ما هو خارجيّ دخيل؛ وهي بهذا تختلف عن "الحياة" التي يكون كلّ شيء فيها عبارة عن "رسائل مختلطة" Communications Brouillees[8]. هكذا يعمد بارت، مثل مينك، إلى طرح السؤال القديم عن العلاقة بين "الفن" و"الحياة"، ويصل إلى الاستنتاج ذاته: الأوّل عاجزٌ في تكوينه عن **تمثيل** الثانية.

يجمع بول ريكور في كتابه **الزمن والسرد**، الصادر مؤخّرًا، بين نظرية التاريخ ونظرية الأدب كي يقيم تناولًا للسرد مركّبًا يُفترض به أن يكون محايدًا في ما يتعلق بالتمييز بين التاريخ والتخييل. وتحظى مشكلة التمثيل بالنسبة إلى ريكور، كما بالنسبة إلى وايت، بأهمية مركزية: المفهوم الرئيس في تناوله هو مفهوم **المحاكاة**، المستمد من كتاب **فنّ الشعر** لأرسطو.

تحتفظ نظرية ريكور بهذا المفهوم ولا ترفضه، تبدو للوهلة الأولى كأنّها تجري بعكس التأكيد الذي وجدناه لدى آخرين على الانفصال بين السرد و"العالم الواقعي". لكنّ ريكور إذ يُحكِم نظريته الكاملة في علاقة المحاكاة يكشف أنّه أقرب إلى مينك ووايت

3 Hayden White, "The Value of Narrativity in the Representation of Reality," in: W. J. T. Mitchell (ed.), *On Narrative* (Chicago: The University of Chicago Press, 1981), p. 4.

4 Ibid., p. 23.

5 Frank Kermode, *The Sense of An Ending: Studies in the Theory of Fiction* (London: Oxford University Press, 1966), p. 35f.

6 Ibid., p. 39.

7 Seymour Chatman, *Story and Discourse: Narrative Structure in Fiction and Film* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1978), p. 47.

8 Roland Barthes, "Introduction a l'analyse structurale des recits," *Communications*, vol. 8, no. 1 (1966), p. 7.

والبنيويين مما يبدو عليه للوهلة الأولى. وهو لا يبلغ حدّ القول معهم إنَّ العالم الواقعي تسلسلي أو تتابعيّ صرف، بل يُبقي بدلًا من ذلك على أنَّ له "بنية ما قبل سردية" من عناصر تعنو للتشكيل السردي[9].

لكن هذا التشكيل القبلي ليس بنية سردية هو ذاته، وهو لا ينقذنا مما يبدو أنَّ ريكور يعتبره ضربًا من التشوش التكويني المرتبط بتجربة الزمن، وهي ذاتها تجربة "مختلطة، عديمة الشكل، على الحدّ، بكماء"[10]. ويخلص ريكور من دراسته **اعترافات** أوغسطين إلى أنَّ تجربة الزمن تتّسم بـ "النَّشاز" بصورة أساسية. ويضفي الأدب، في شكله السردي، التناغم إلى هذه "المعضلة" Aporia من خلال ابتداع حبكة؛ ذلك أنَّ السرد هو "توليف المتغاير" الذي تُجمَع فيه معًا عناصر العالم البشري المتباينة، "فاعلون وأهداف ووسائل وتفاعلات وظروف ونتائج غير متوقعة، وما إلى ذلك"[11]، ويُضفى عليها الانسجام. ومثل الاستعارة التي كرّس ريكور لها أيضًا دراسة مهمة، فإنَّ السرد "ابتداع دلالي" يُدْخَل فيه شيءٌ جديد إلى العالم من طريق اللغة[12]. وبدلًا من وصف العالم، فإنّه **يُعيد** وصفه. الاستعارة، كما يقول ريكور، هي القدرة على "الرؤية كما لو أنَّ"[13]. والسرد يفتحنا على "عالم الكما لو أنَّ"[14].

هكذا تكون البنية السردية بالنسبة إلى ريكور في النهاية منفصلة عن "العالم الواقعي" كما هو حالها عند المؤلّفين الآخرين الذين اقتبسناهم. وهو يكرر أفكار مينك ووايت والآخرين إذ يقول: "لا تؤخذ أفكار البداية والوسط والنهاية من التجربة؛ فهي ليست سمات لفعل واقعي بل آثار ترتيب شعري"[15]. وإذا ما كان دور السرد هو الإتيان بشيء جديد إلى العالم، وكان ما يأتي به هو توليف المتغاير، فمن المفترض أنّه يسبغ على حوادث العالم شكلًا ما كانت لتمتلكه من دونه. إنَّ قصةً من القصص لتعيد وصف العالم؛ وبعبارة أخرى، فإنّها تصفه مفترضةً **كما** لو أنّه، في الحقيقة، ليس ما هو عليه[16].

ما يُظهره هذا المسح المقتضب لوجهات النظر الحديثة حول السرد لا يقتصر على أنَّ البنية السردية تُرى بقوة على أنّها سمة **للنصوص** الأدبية والتاريخية، بل يتعدّاه إلى أنَّ تلك البنية تُرى على أنّها لا تنتمي **إلّا** إلى مثل هذه النصوص وحدها. فالمقاربات المختلفة لمشكلة التمثيل تضع القصص والتواريخ على صعيد مختلف جذريًا عن العالم الواقعي الذي تزعم تصويره. وما نظرة ريكور إلى هذا الأمر سوى نظرة لطيفة ومحبّذة لما سبقها من نظرات. وهو يعتقد أنَّ السرديات التخييلية والتاريخية توسّع الواقع، وتمدد فكرتنا عن أنفسنا وعمّا هو ممكن. وما فيها من محاكاة ليست محاكاةً للواقع بل إبداعًا له. ويبدو أنَّ هايدن وايت يحمل بخلاف ذلك وجهة نظر أكثر قتامة وأكثر تشككًا، يقتسمها مع بارت وما بعد البنيويين مثل فوكو وديلوز. فالسرد ليس مجرد هروب أو عزاء أو تحوّل عن الواقع؛ بل قد يصل في أسوأ الأحوال إلى كونه أفيونًا: تشويه مفروض من الخارج كأداة قوة وتلاعب. والسرد في كلتا الحالتين صنيع ثقافي، أدبي مختلف عمّا هو واقعي[17].

9 Paul Ricoeur, *Temps et recit* (Paris: Seuil, 1983), pp. I, 113.

10 Ibid., p. 14.

11 Ibid., p. 102.

12 Ibid., p. 11.

13 Ibid., p. 13; Paul Ricoeur, *La Métaphore vive* (Paris: Seuil, 1975), p. 305 ff.

14 Ricoeur, *Temps et recit*, p. 101.

15 Ibid., p. 67.

16 ثمة تناول نقدي مفصّل لكتاب ريكور في مقالتي التي هي مراجعة له والموجودة في:
David Carr, "Review Essay," *History and Theory*, vol. 23, no. 3 (1984), pp. 357 - 370.

17 يتناول وايت نفسه في مقالة حديثة العهد له هذه التطورات تناولًا أشد تفصيلًا مما أفعله هنا. لكنّ لي ثلاثة تحفّظات على عرضه الذي يُعدّ نموذجًا للبحث والتركيب: من الواضح أنَّ التواضع يمنع وايت من تسجيل دوره المهم في التطورات التي يصفها؛ وهو عمومًا يوافق على الاتجاهات التي سوف أنتقدها؛ وهو لا يوفّق، كما أحسب، في تقويم موقف ريكور، ربما لأنَّ كتاب **الزمن والسرد** لم يكن متوافرًا له، انظر:
Hayden White, "The Question of Narrative in Contemporary Historical Theory," *History and theory*, vol. 23, no. 1 (1984), pp. 1 - 33.

كان هناك بعض الخارجين على وجهة النظر هذه، مثل الناقدة الأدبية باربرا هاردي والمؤرّخ بيتر مُنز والفيلسوف فريدريك أولافسون[18]. ويقدّم أليسدِر ماكنتاير وجهة نظر مختلفة جدًا في كتابه **ما بعد الفضيلة**، وسيكون لديّ المزيد مما أقوله عنه لاحقًا. لكنَّ من الواضح أنَّ ما أسميته نظرية الانفصال هي محلّ اقتناع بعض من أهمّ الذين يكتبون عن السرد في التاريخ والتخييل. وأودّ الآن أن أبيّن لماذا أجد هذا الرأي على خطأ.

2

انتقادي الأول لتلك النظرية هو أنها تقوم على التباس خطير. فما الذي يُفترض بذلك السرد، بحسب النظرة الانفصالية، أن يشوّهه؟ "الواقع" هو أحد المصطلحات المستخدمة. ولكن ما الذي يعنيه الواقع؟ يبدو في بعض الأحيان أنَّ العالم "الواقعي" لا بدَّ من أن يكون العالم المادي، ذلك العالم الذي يُفترض أن يكون عشوائيًا واعتباطيًا أو بخلاف ذلك وعلى الضد منه منظّمًا بدقّة على أسس سببية؛ لكنّه يُفترض به، في جميع الأحوال، أن يكون حياديًا حيال المشاغل البشرية. فالأشياء تحدث في تسلسل لا معنى له، مثل الساعة "المتكتكة" التي ذكرها فرانك كيرمود. حين يُسأل ما الذي تقوله "نحن متفقون على أنّها تقول **تيك توك**. ومن خلال هذا التخييل نؤنسنها [...] نحن، بالطبع، من نقيم الفرق التخييلي بين الصوتين؛ **تيك** هي كلمتنا التي تعبّر عن بداية مادية، **وتوك** هي كلمتنا التي تعبّر عن نهاية"[19].

لكنّ هذا المثال البارع يزيد تعقيد المشكلة، لأنّ ما تصوره القصص والتواريخ وما يجب قياس السرد قبالته إذا ما أردنا أن نحكم على صلاحية النظرة الانفصالية ليس الواقع المادي في المقام الأول، بل الواقع الإنساني، بما في ذلك نشاط "أنسنة" الأحداث المادية ذاته. فهل يمكن أن نقول عن الواقع الإنساني إنه مجرد تسلسل أو تتابع، شيء تلو الآخر، كما يبدو أنّ وايت يوحي به؟ من الأفضل أن نتذكر هنا ما بيّنه بعض الفلاسفة حول تجربتنا مع مرور الزمن. فوفقًا لهوسرل، حتى التجربة الأكثر سلبية لا تشتمل على تذكّر الماضي فحسب بل تشتمل أيضًا على التوقّع الضمني للمستقبل، أو ما يسميه الاستباق. وما يراه لا يقتصر على أنَّ لدينا القدرة النفسية على التخطيط قُدُمًا والتذكّر. وزعمه هو الزعم المفهومي أنّه لا يسعنا أن نجرّب أيّ شيء كما يحدث، بوصفه حاضرًا، إلا على خلفية ما تلاه وما نتوقع أن يتلوه[20]. وقدرتنا على التجربة ذاتها، قدرتنا على أن ندرك ما هو **كائن**، أي "الواقع كما يقدّم نفسه لتجربةٍ من التجارب"، كما يقول هايدن وايت، تُطاول المستقبل والماضي.

تحليل هوسرل للتجربة الزمنية هو في هذا الصدد نظير النقد الذي يقدّمه ميرلو بونتي لفكرة الإحساس في التجريبية الكلاسيكية وزعمه أنَّ ترسيمة الصورة الخلفية أساسية في الإدراك المكاني[21]. وهو يعتمد على علماء نفس الغشتالت الذين يدينون بدورهم لهوسرل. فوحدات الإحساس المتميزة والمحددة بدقّة يجب أن تُفهم على أنّها تشكيل يجب تجربته ككلّ. ويستنتج ميرلو بونتي أنّ الأحاسيس،

---

18 Barbara Hardy, "Towards a Poetics of Fiction: An Approach Through Narrative," *Novel: A forum on Fiction*, vol. 2, no. 1 (1968), p. 5f; Barbara Hardy, *Tellers and Listeners: The Narrative Imagination* (London: A & C Black, 1975); Peter Munz, *The Shapes of Time* (Middletown, CT: Wesleyan University Press, 1977); Frederick Olafson, *The Dialectic of Action* (Chicago: University of Chicago Press, 1979).

وقد شدد عدد من المنظّرين الألمان على تواصل التجربة والسرد، انظَر:
Wilhelm Schapp, *In Geschichten Verstrickt*, 2nd ed. (Wiesbaden: Klostermann Rotereihe, 1979); Hermann Lübbe, *Bewusstsein in Geschichten* (Freiburg: Verlag Rombach, 1972); Karlheinz Stierle, "Erfahrung und narrative Form," in: J. Kocka & T. Nipperdey (eds.), *Theorie und Erzahlung in der Geschichte* (Munich: Taschenbuch-Verlag, 1979), p. 85ff.

19 Kermode, p. 44f.

20 Edmund Husserl, *The Phenomenology of Internal Time-Consciousness*, J. S. Churchill (trans.) (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1964), p. 40ff.

21 Maurice Merleau-Ponty, *The Phenomenology of Perception*, C. Smith (trans.) (New York: The Humanities Press, 1962), p. 3ff.

بعيدًا عن كونها وحدات التجربة الأساسية، هي نتاجات للتحليل مجردة جدًا. ولا بدّ من قول الشيء ذاته، على أساس تحليل هوسرل للتجربة الزمنية، عن فكرة تسلسل الأحداث المنعزلة "المجرد" أو "المحض". وهذا ما يَثْبُتُ أنّه تخييل، تخييل نظري في هذه الحالة: قد يسعنا أن نتصوره، لكنه ليس واقعيًا بالنسبة إلى تجربتنا. فالأحداث حين نواجهها، حتى في أشدّ حالاتنا سلبية، تكون مشحونة بالدلالة التي تستمدها من تذكّراتنا واستباقاتنا.

إن كان هذا يصحّ على تجربتنا الأشدّ سلبية، فهو يصحّ أكثر على حياتنا النشطة التي نستشير فيها التجربة السابقة، ونتصوّر المستقبل، وننظر إلى الحاضر على أنّه ممرّ بين الاثنين. وكلّ ما نواجهه ضمن تجربتنا يعمل إمّا أداةً لخططنا وتوقعاتنا وآمالنا وإما عقبةً أمامها. ومهما تكن "الحياة" مختلفة عن ذلك، فإنّها من الصعب أن تكون تسلسلًا بلا بنيةٍ لأحداث منعزلة.

قد يُعترَض بأنَّ البنية ليست بالضرورة بنية سردية. ولكن ألا توجد صلة بين بنية الوسيلة - الغاية الخاصة بالفعل وبنية البداية – الوسط - الخاتمة الخاصة بالسرد؟ في الفعل، نحن دومًا في خضمّ شيء ما، أسرى تشويق الطوارئ التي يُفترض أن تجد حلّها في اكتمال مشروعنا. ومن المؤكد أنّ سردًا يجمع أفعالًا كثيرة كي يشكّل حبكة. لكنَّ الكلّ الناتج غالبًا ما يظلّ يوسَم بأنّه فعلٌ واسع النطاق: تقدّم في العمر، مجرى علاقة حب، حلّ لغزٍ محيطٍ بجريمة قتل. فبنية الفعل، ضيق النطاق وواسعه، هي بنية مشتركة بين الفنّ والحياة.

ما الذي يمكن أن يعنيه أنصار النظرة الانفصالية، إذًا، حين يقولون إنَّ الحياة ليس لها بدايات وأواسط ونهايات؟ لا يقتصر الأمر على أنّهم ينسون الموت، كما يشير ماكنتاير[22]، و من ثمّ الولادة، بل ينسون جميع أشكال الانغلاق والبنية الأخرى الأقلّ تحديدًا إنّما المهمة التي يمكن العثور عليها على طول المسار من الولادة إلى الموت. هل يقولون إنَّ لحظةً يُدَشَّن فيها فعلٌ، على سبيل المثال، ليست بداية واقعية لمجرد أنَّ لها لحظات أخرى تسبقها، وأنّ الزمن (أو الحياة) يتواصلان بعد انتهاء الفعل وتحصل أشياء أخرى؟ لعلّهم يضعون ذلك قبالة إطلاقية البداية والنهاية في رواية، إذ تبدأ في الصفحة الأولى وتنتهي في الصفحة الأخيرة مع "النهاية". لكنَّ من المؤكد أنَّ المهم هنا هو العلاقة المتبادلة بين الأحداث المصوَّرة، وليس القصة بوصفها سلسلة من الجمل أو المنطوقات. وما أقوله هو أنَّ بنية الوسيلة - الغاية الخاصة بفعل من الأفعال تبدي بعض خصائص بنية البداية – الوسط - الخاتمة التي يقول أنصار النظرة الانفصالية إنّها تغيب في الحياة الواقعية.

هكذا يمكن لحوادث الحياة أن تكون أيّ شيء ما عدا كونها مجرد تسلسل أو تتابع؛ الأحرى أنّها تشكّل بنية معقدة من التشكيلات الزمنية التي تتشابك وتستمدّ تعريفها ومعناها من داخل الفعل ذاته. من المؤكد أنَّ بنية الفعل قد لا تكون منسقة؛ فالأشياء لا تعمل دومًا كما هو مخطط لها، لكن هذا يقتصر على أنّه يضيف إلى الحياة عنصر المصادفة والتشويق ذاته الذي نجده في القصص، وهو لا يبرر الادعاء أنَّ الفعل العادي هو فوضى عناصر بلا رابط يربطها.

لكن، لعلّ ثمّة طريقة أخرى للتعبير عن النظرة الانفصالية لا تتضمن الزعم غير المعقول أنَّ الأحداث البشرية ليس لها بنية زمنية. ليست قصةٌ من القصص مجرد سلسلة من الأحداث منظَّمة زمنيًا، بما في ذلك تلك التي لبنيتها بداية ووسط ونهاية. وما ينتمي إلى مفهومنا للقصة لا يقتصر على تطور الأحداث، بل يتعدّاه إلى قاصّ وجمهور يُقَصّ له. وقد يُعتقد أن هذا يضفي على الأحداث المترابطة في قصةٍ نوعًا من التنظيم الذي يُنكَر من حيث المبدأ على حوادث الفعل العادي.

ثمة ثلاث ميزات للسرد قد تبدو أنّها تبرر هذا الادعاء. أولًا، في قصةٍ جيدة، وكي نستخدم صورة لرولان بارت، يجري قطعٌ لكلّ ضوضاء أو سكون خارجيين؛ أي إنّ القاصّ لا يخبرنا نحن الجمهور إلا بما هو ضروري لـ "دفع الحبكة قُدمًا". ويجري اصطفاء من

22 Alasdair MacIntyre, *After Virtue* (Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 1981), p. 197.

بين جميع الأحداث والأفعال التي قد تنخرط فيها الشخصيات، فلا يجد طريقه إلى القصة سوى القليل منها. أمّا في الحياة، في المقابل، فيُبقى على كلّ شيء؛ كما يكون هناك السكون كلّه.

تفضي هذه النقطة الأولى إلى الثانية. فالاصطفاء يكون ممكنًا لأن القاصّ يعرف الحبكة على نحو لا يعرفه (وقد لا يعرفه) الجمهور ولا الشخصيات. وتوفّر هذه المعرفة المبدأ اللازم لاستبعاد ما هو خارجي. إن الصوت السردي، كما يقول هايدن وايت[23]، هو صوت السلطة، لا سيما في العلاقة بالقارئ أو بالمستمع. فهذا الأخير هو في موقف العبودية الطوعية في ما يتعلق بما سيُكشف عنه ومتى. ويحظى بالقدر ذاته من الأهمية أنَّ الصوت السردي هو صوت **منطوٍ على مفارقة**، احتمالًا على الأقلّ، لأنَّ القاصّ يعرف العواقب الفعلية والمقصودة لأفعال الشخصيات. وهكذا تتجسد هذه المفارقة في المقام الأول في العلاقة بين القاصّ والشخصية؛ لكنها تتعلّق بالجمهور أيضًا، نظرًا إلى أنَّ توقعاته، مثل توقعات الشخصيات، يمكن أن تخيب بشدّة.

يمكن النظر إلى موقف المفارقة لدى القاصّ على أنّه تابع (وهذه هي النقطة الثالثة) لموقعه الزمني بالعلاقة بأحداث القصة. وهذا الموقع، تقليديًا، هو موقع **تالٍ للأحداث**، مزية من مزايا الإدراك اللاحق الذي يقتسمه المؤرّخ وقاصّ القصص التخييلية (في العادة). ويسمح هذا الموقع، كما يشير آرثر دانتو، بتوصيفات للأحداث مستمدة من علاقتها بأحداث لاحقة، وبذلك غالبًا ما يكون مقتصرًا على مشاركين في الأحداث ذاتها[24]. ويمكن اعتبار هذه النظرة اللاحقة لأحداث القصة، بطريقة مينك المفضلة، نظرة **خارج** الأحداث أو **فوقها** تطاولها جميعًا في لمحة وترى ترابطها[25]. هذا التحرر الواضح من قيود الزمن، أو من تتبّع الأحداث على الأقلّ، يعبّر عن نفسه في بعض الأحيان في التباين بين ترتيب الأحداث وترتيب قصّها. وتُظهر حالات الخطف خلفًا والخطف قُدُمًا، على نحو مؤكّد، سلطة الصوت السردي على كلٍّ من الشخصيات والجمهور.

باختصار، لا ينطوي مفهوم القصة، كما قال روبرت سكولز وروبرت كيلوغ، على تسلسل الأحداث الجارية فحسب، بل على وجود ثلاث وجهات نظر مميزة بصدد تلك الأحداث: وجهة نظر القاصّ، ووجهة نظر الجمهور، ووجهة نظر الشخصيات[26]. ومن المؤكّد أنَّ وجهات النظر هذه قد تتوافق في بعض الحالات: قد تُقَصّ قصة من وجهة نظر شخصية من الشخصيات، أو بصوتها. وهنا حتى الجمهور يعلم بقدر ما تعلم الشخصية وتبدو وجهات النظر جميعها متطابقة؛ ولكن حتى رواية ضمير المتكلّم عادةً ما تُسرد بعد الواقعة، كما تتوقف عملية الاصطفاء على اختلاف وجهة النظر بين المشارك والقاصّ. وعلى أيّ حال، فإن مجرد احتمال التباين بين وجهات النظر الثلاث يكفي لإثبات هذه النقطة؛ نقطة أنَّ أحداث القصة وتجاربها وأفعالها قد يكون لها معنى، وتاليًا مبدأ للتنظيم، مُقصى عن نطاق الشخصيات في القصة.

باعتبارنا مشاركين وفاعلين في حياتنا الخاصة، وفقًا لهذا الرأي، نحن مضطرون إلى أن نعوم مع الأحداث ونأخذ الأشياء كما تأتي. فنحن مقيدون بالحاضر ومحرومون من وجهة نظر القاصّ السلطوية والارتجاعية. وبذلك فإنَّ الفارق الفعلي بين "الفنّ" و"الحياة" لا يكون التنظيم مقابل الفوضى، بل خلوّ الحياة من وجهة النظر التي تحوّل الأحداث إلى قصة عن طريق **قصّها**. ليس القصّ مجرد نشاط لفظي وليس مجرد إعادة تلاوة للأحداث، بل هو نشاط يمليه نوع معيّن من المعرفة المتفوقة. لا شكّ في أنَّ هناك الكثير من الحقيقة في هذا التحليل، وهو كدفاع عن الرأي الانفصالي متفوّق حتمًا على الزعم أنَّ الأحداث البشرية تشكّل تسلسلًا بلا معنى. لكن هذا الدفاع، شأنه شأن سابقه، يتجاهل بعض السمات المهمة لـ "الحياة الواقعية".

---

23 Hayden White, "The Structure of Historical Narrative," *Clio*, vol. 1, no. 3 (1972), p. 12ff.

24 Arthur Danto, *Analytical Philosophy of History* (London: Cambridge University Press, 1965), p. 143ff.

25 Mink, "History and Fiction," p. 557ff.

26 Robert Scholes & Robert Kellogg, *The Nature of Narrative* (New York: Oxford University Press, 1966), p. 240ff.

مفتاح هذا التجاهل هو إحساس خاطئ بكوننا "مقيدين إلى الحاضر". فالحاضر هو على وجه الدقّة زاوية نظر أو نقطة أفضلية تفتح على المستقبل والماضي أو تتيح النفاذ إليهما. وهذا ما أعتبره معنى التحليل الهوسرلي. حتى في التجربة السلبية نسبيًا المتمثلة بسماع لحن، كي نستخدم مثال هوسرل، نحن لا نكتفي بأن نجلس وننتظر وصول التنبيهات إلينا، بل نلتقط تشكيلًا يمتد إلى المستقبل الذي يعطي لكل علامة من العلامات المسموعة معناها. هكذا يتمثّل الحاضر والماضي في تجربتنا كتابع لما سيكون.

إنَّ طبيعة الفعل الغائية تسبغ عليه، بطبيعة الحال، الطابع ذاته المتجه نحو المستقبل. ولا يقتصر الأمر على أنَّ أفعالنا وحركاتنا، الحاضرة والماضية، تستمد معناها من النهاية المتوقعة التي تخدمها؛ بل يتعدّاه إلى أنَّ محيطنا يعمل مجالًا للعمليات، وإلى أنَّ الأشياء التى نواجهها في أثناء تجربتنا تعزز مقاصدنا (أو تعيقها). والحال أنه يمكن القول، في حياتنا النشطة، إنَّ بؤرة اهتمامنا ليست الحاضر بل المستقبل؛ ليست الأدوات بل العمل الذي يتعيّن القيام به، كما يقول هايدغر[27]. وقد لاحظ ألفريد شوتز أنَّ للفعل، من الناحية الزمنية، الطابع شبه الارتجاعي الذي يتوافق مع صيغة المستقبل التام: إذ يُنظَر إلى عناصر الفعل وأطواره من منظور اكتمالها، على الرغم من أنّها تتكشّف في الزمن[28].

إذا كان هذا صحيحًا عندما نكون مستغرقين في الفعل، فإنّه أكثر صحّة في لحظات الانسحاب التأمّلي أو التداولي غير المعنية بصوغ المشاريع والخطط فحسب، بل أيضًا بالمراجعة وإعادة التقويم المتواصلتين المطلوبتين أثناء تقدمنا واضطرارنا إلى التعامل مع ظروف متغيرة. وجوهر النشاط التداولي هو توقع المستقبل وبسط الفعل بأكمله كسلسلة موحدة من الخطوات والمراحل، من الوسائل المتشابكة والغايات. وفي هذا كلّه يصعب القول إنّ اهتمامنا مقتصر على الحاضر، كما يصعب القول إنّه ما من اصطفاء يقع. ومن المؤكّد أنَّ الضوضاء أو السكون لا يُستبعدان تمامًا، لكنهما يتم التعرّف إليهما بوصفهما ضوضاء أو سكونًا وتُدفعان إلى الخلفية.

الردّ الواضح هنا هو، بالطبع، أنّ المستقبل المعنيّ في جميع هذه الحالات ليس سوى المستقبل المتوخّى أو المتوقَّع، وأنَّ الفاعل ليس بحوزته سوى شبه إدراك لاحق، أو شبه استرجاع. والأساسي بالنسبة إلى موقع القاصّ هو ميزة الإدراك اللاحق الفعلي، وهو تحرر فعلي من قيد الحاضر يضمنه احتلال موقع أبعد من الأحداث المسرودة أو فوقها أو خارجها. فالقاصّ متوضّع في ذلك الموقع المحظوظ أبعد من جميع الظروف غير المتوقعة التي تطرأ، وأبعد من جميع عواقب فعلنا غير المقصودة التي تبلو أيامنا وخططنا.

هذا صحيح، بالطبع؛ فالفاعل لا يشغل مستقبلًا فعليًا في ما يتعلق بالفعل الحالي. وما أراه يقتصر على أنَّ الفعل يبدو منطويًا، بصورة أساسية في الحقيقة، على اعتماد وجهة نظر ارتجاعيةٍ - متوقَّعةٍ للمستقبل بصدد الحاضر. نحن نعلم أننا في الحاضر وأنَّ ما هو غير متوقَّع قد يحدث، لكن جوهر الفعل هو السعي للتغلب على هذا القيد من خلال أقصى تكهّن ممكن. ليس الروائيون والمؤرخون وحدهم من ينظرون إلى الأحداث من حيث علاقتها بأحداث لاحقة، إذا ما استخدمنا صيغة دانتو الخاصة بوجهة النظر السردية؛ فنحن جميعًا نفعل ذلك طوال الوقت، في الحياة اليومية. والفعل هو نوع من التأرجح بين وجهتي نظر حول الأحداث التي نعيشها والأشياء التي نفعلها. فالأمر لا يقتصر على أننا لا نكتفي بالجلوس ونترك الأمور تحصل لنا؛ بل نحن نفلح في الجزء الأكبر من مفاوضاتنا مع المستقبل، أو في جزء كبير منها على الأقلّ. نحن، في النهاية، قادرون على الفعل.

ما أقوله، إذًا، هو أننا نسعى باستمرار، بهذا القدر أو ذاك من النجاح، لأن نشغل موقع القاصّ في ما يتعلق بحياتنا. وكي لا نحسب أنَّ هذا مجرد استعارة متكلّفة، يكفي أن نفكر في الأهمية التي يحظى بها، في عملية التأمل والتداول، نشاط الإخبار الحرفيّ عمّا نفعله،

27 Martin Heidegger, *Being and Time*, J. Marcquarrie & E. Robinson (trans.) (New York: Harper and Row, 1962), p. 99.

28 Alfred Schutz, *The Phenomenology of the Social World*, G. Walsh & F. Lehnert (trans.) (Evanston, IL: Northwestern University Press, 1967), p. 61.

بالنسبة إلى الآخرين وكما بالنسبة إلينا. ولدى السؤال، "ما الذي تفعلونه؟" نتوقّع أن نخرج بقصة مكتملة ذات بداية ووسط ونهاية، إخبار أو نقل هو وصف وتبرير في آن معًا. وحقيقة أننا غالبًا ما نحتاج إلى حكاية مثل هذه القصة حتى لأنفسنا بغية استيضاح ما نحن بصدده تلقي الضوء على أمرين مهمين. الأول هو أنَّ هذا النشاط السردي، حتى لو صرفنا النظر عن دوره الاجتماعي، هو جزء مكوِّن من أجزاء الفعل، وليس مجرد تنميق أو تعليق أو غير ذلك من الأشكال المرافقة العارضة. والثاني هو أننا في بعض الأحيان ننتحل، على نحوٍ ما، وجهة نظر الجمهور الذي تُحكى له القصة، حتى في ما يتعلّق بفعلنا، فضلًا عن وجهتي النظر اللتين سبق ذكرهما: وجهة نظر الفاعل أو الشخصية ووجهة نظر القاصّ.

هكذا كان لويس مينك يعمل بتمييز خاطئ تمامًا حين قال إنّ القصص لا تُعاش بل تُحكى. فهي تُحكى إذ تُعاش، وتُعاش إذ تُحكى. ويمكن النظر إلى أفعال الحياة وآلامها على أنّها عملية إخبار أنفسنا بقصصٍ، أو إصغاء إلى تلك القصص، أو تأديتها، أو عيشها. وأنا لا أفكر هنا سوى بعيش المرء حياته الخاصة، بصرف النظر عن البعد الاجتماعي التعاوني والعدائي لفعلنا الذي يرتبط بالسرد على نحوٍ أشدّ وضوحًا. وفي بعض الأحيان يكون علينا أن نغيّر القصة كي تستوعب الأحداث؛ وفي أحيان أخرى نغيّر الأحداث، من خلال الفعل، كي تستوعب القصة. ليس الأمر، كما يوحي مينك، أننا نعيش ونفعل أولًا ثم نتحلّق، بعد ذلك، حول النار ونحكي عما فعلناه، لنخلق شيئًا جديدًا تمامًا بفضل منظورٍ جديد. وليست وجهة نظر السارد الارتجاعية، بقدرتها على رؤية الكلّ بكلّ ما فيه من مفارقة، في تعارض لا حلّ له مع وجهة نظر الفاعل، بل هي امتداد وتنقيح لوجهة نظر متأصّلة في الفعل ذاته. ومينك والآخرون على حقّ، بالطبع، في اعتقادهم أنَّ السرد يكوّن أو يشكّل شيئًا ما، ويخلق معنى ولا يكتفي بعكس شيء موجود على نحو مستقل عنه أو بمحاكاته. ويفعل السرد هذا، على الرغم من تشابكه مع الفعل، في سياق الحياة ذاتها، وليس بعد الواقعة فحسب، على أيدي المؤلّفين، في صفحات الكتب.

بهذا المعنى، يكون النشاط السردي الذي أشير إليه عمليًا قبل أن يغدو معرفيًا أو جماليًا في التاريخ والتخييل. كما يمكن أن نصفه بأنّه أخلاقي أو اعتباري بالمعنى الواسع الذي يستخدمه أليسدِر ماكنتاير والمستمدّ في النهاية من أرسطو. وهذا يعني أنّ السرد بمعناه لديّ لا يقتصر على الفعل والتجربة بل يتعدّاهما أيضًا إلى الذات التي تفعل وتجرّب. وبدلًا من كوني مجرد مادة ثابتة زمنيًا تشكّل أساس مفاعيل الزمن المتغيرة وتدعمها، مثل شيء في علاقته بخصائصه، فأنا ذاتُ قصةِ حياة لا تني تُحكى وتُعاد حكايتها في سياق العيش، وأنا أيضًا القاصّ الرئيس لهذه القصة، كما أنتمي أيضًا إلى الجمهور الذي تُحكى له. ويمكن النظر إلى المشكلة الأخلاقية - العملية الخاصة بالهوية الذاتية والتماسك الذاتي على أنّها مشكلة توحيد هذه الأدوار الثلاثة. وربما يكون ماكنتاير محقًّا في مهاجمته مثال **التأليف** الذاتي أو الأصالة بوصفها صنم الفردانية الحديثة والتمركز على الذات[29]. لكنَّ مشكلة التماسك لا يمكن حلّها على الدوام، كما يبدو أنَّ ماكنتاير يعتقد، من خلال الحصانة التي تتمتّع بها قصةٌ وضعها المجتمع وأدواره مقدّمًا. وقد تعتمد هويتي كذات على القصة التي أختارها وما إذا كان في مقدوري أن أجعلها متآزرة على طريقة ساردها، إن لم يكن على طريقة مؤلّفها. وقد تكون ثمة أهمية لفكرة الحياة بوصفها تسلسلًا لا معنى له، تلك الفكرة التي سبق أن نبذناها باعتبارها وصفًا بعيدًا عن الصواب، إذا ما اعتبرناها ذلك الاحتمال الدائم لحصول ما يطارد الذات ويتهددها من تفتت وتفكك وانحلال.

3

لكن ما علاقة كلّ هذا بالتاريخ؟ لقد أنحينا باللائمة على نظرية الانفصال لإساءتها فهم "الواقع الإنساني"، لكن المعنى الذي نحمله لهذا المصطلح الأخير يبدو مصممًا، كما تشير خاتمة القسم السابق، للتجربة الفردية والعمل والوجود الفرديين. والحال أنَّ لجوءنا إلى بعض المواضيع الظاهراتية قد يشير إلى أنَّ ما قلناه مرتبط منهجيًا بوجهة نظر ضمير المتكلّم المفرد. أمّا التاريخ، في المقابل،

29 MacIntyre, p. 191.

فيتعامل في المقام الأول مع الوحدات الاجتماعية، ومع الأفراد إلى الحدّ الذي تكون فيه حياتهم وأفعالهم مهمة للمجتمع الذي ينتمون إليه. والسؤال، هل للتصور السردي للتجربة والفعل والوجود الذي طوّرناه في القسم السابق أيّ صلة على الإطلاق بـ "الواقع الإنساني" في أشكاله الاجتماعية على وجه التحديد؟

أعتقد أنّ له مثل هذه الصلة، وسوف أقدّم في هذا القسم عرضًا موجزًا لذلك. ثمة معنى واضح، بالطبع، يكون فيه تصورنا للسرد اجتماعيًا من البداية. فوظيفة القصّ، سواء كان مجازيًا أو حرفيًا، هي نشاط اجتماعي، وعلى الرغم من أننا تحدثنا عن الذات بوصفها جمهورًا لسردها الخاص، فإن قصة حياة المرء ونشاطه تُقَصّ للآخرين بقدر ما تُقصّ للذات. وما أراه هو أنَّ الذات هي ذاتها تفاعل أدوار، لكن من الواضح أنَّ الفرد تكوّنه المعاملات بين الأشخاص كما يكوّنه التأمل الشخصي الداخلي. بيد أنَّ الكلام عن البناء الاجتماعي للذات شيء، واستقصاء تكوين الكيانات الاجتماعية شيء آخر.

للنظر في السؤال السابق، ليس من الضروري أن نتبنى موقف عالم الاجتماع أو المؤرّخ اللذين يراقبان شيئًا من الخارج. نحن أيضًا مشاركون في مجموعات، وقد يتأتّى فهمنا الأفضل لطبيعة هذه المجموعات من التأمّل في معنى المشاركة. وما يستوقفني في شأن الحياة الاجتماعية هو مدى مشاركة الفرد في تجارب وانخراطه في أفعال موضوعها الفعلي ليس الفرد نفسه بل المجموعة. فالعيش في منطقة، وإقامة التنظيمات السياسية والاقتصادية بغية تعهدها بالرعاية وتحضيرها، واختبار تهديد طبيعي أو بشري والارتقاء لمواجهته: هذه تجارب وأفعال لا تقبل النسبة في العادة إليّ وحدي، أو إليّ، أو إليك، أو إلى الآخرين بوصفنا أفرادًا. فهي تعود إلينا: ليست تجربتي بل **تجربتنا**، ولست **أنا** من يفعل، بل **نحن** الذين نفعل على نحو جماعي متناغم. والقول إننا نبني منزلًا لا يكافئ القول إنني أبني منزلًا، وإنك تبني منزلًا، وإنه يبني منزلًا وهلمّ جرا. ومن المؤكّد أنَّ استخداماتنا اللغوية لـ**نحن** لا تحمل جميعها معنى العمل المتناغم، وتقسيم العمل، وتوزيع المهمات، والغاية المشتركة. وفي بعض الحالات، تكون الـ**نحن** مجرد اختصار لمجموعة من الأفعال الفردية. لكن الحياة الاجتماعية تشتمل على بعض الحالات المهمة جدًا التي ينسب فيها الأفراد تجاربهم وأفعالهم، من خلال المشاركة، إلى ذات أو فاعل أكبر ليسوا سوى جزءٍ منه.

إذا كان الأمر كذلك، فقد لا تكون ثمة ضرورة لأن نتخلى عن مقاربة ضمير المتكلّم في الانتقال من الفردي إلى الاجتماعي، بل لأن نستكشف فحسب صيغته الجمعية بدلًا من صيغته المفردة. حين نجري مثل هذه النقلة، نجد توازيات عديدة مع تحليلنا تجربة الفرد وفعله. وتكون لدينا تجربة مشتركة حين نفهم سلسلة من الأحداث على أنّها تشكيل زمني يستمد طوره الحالي أهميته من علاقته بماضٍ ومستقبلٍ مشتركين. وبالمثل، فإنَّ الانخراط في عمل مشترك يعني تكوين سلسلة من الأطوار التي يُفصَح عنها كخطوات ومراحل، ومشاريع فرعية، ووسائل وغايات. فالزمن الإنساني الاجتماعي إنّما يُبنى، شأنه شأن الزمن الإنساني الفردي، في تشكيل من السلاسل تؤلّف أحداث فعلنا المشترك وتجربتنا المشتركة ومشاريعهما.

أعتقد، كما من قبل، أنَّ بنية الزمن الاجتماعي يمكن أن تدعى بنية سردية، لا لأنَّ لها النوع ذاته من الانغلاق والتشكيل اللذين وجدناهما على المستوى الفردي فحسب، بل أيضًا لأنَّ هذه البنية ذاتها باتت ممكنةً مرة أخرى من خلال نوع من التأمّل الذي تمكن مقارنته بتأمّل الصوت السردي. فالتسلسل الزمني لا بدّ من أن يوضع موضع فهم مستقبلي - ارتجاعي يمنحه تشكيله أو تكوينه، ويضفي على أطواره معناها المتمثّل بتقديم حدث جرت تجربته على نحو مشترك أو بتحقيق هدف مشترك. لكن تقسيم العمل، الضروري لتنفيذ مشاريع مشتركة، قد يكون في حالة المجموعات سمة من سمات البنية السردية نفسها؛ أي إنَّ التفاعل بين الأدوار، السارد والجمهور والشخصية، يمكن أن يكون هنا مقسّمًا بالمعنى الحرفي بين المشاركين في المجموعة. ويمكن لبعض الأفراد أن يتحدثوا بالنيابة عن المجموعة أو باسمها، ويوضحوا للآخرين ما نختبره "نحن" أو نفعله. ويجب بالطبع أن تُصَدَّق "القصة" الناتجة أو تُقبل لدى الجمهور الذي تخاطبه كي يكون لأعضائها أن يفعلوا أو يعيشوا بوصفهم "شخصيات" القصة التي تُحكى.

لم أتحدث في القسم الأخير عن التنظيم الزمني - السردي للتجارب والأفعال فحسب، بل أيضًا للذات التي تجرّب وتفعل؛ فالذات، شأنها شأن الوحدة بين عديد التجارب والأفعال، تتكون بوصفها الموضوع الذي تدور حوله قصة حياة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى تكوين ضروب معينة من المجموعات التي تبقى بعد تجارب وأفعال مشتركة معينة لتكتسب وجودًا مستقرًا بمرور الوقت. ليست المجموعات جميعها من هذا النوع؛ ثمة تجمعات من الأفراد لا تشكّل مجموعات إلا من خلال اقتسامها خصائص موضوعية مثل الموقع أو العرق أو الجنس أو الطبقة الاقتصادية. أمّا المجموعات من نوع خاص وذات الأهمية اجتماعيًا وتاريخيًا فتتكوّن عندما ينظر الأفراد إلى بعضهم بعضًا بطريقة يستخدمون فيها الـ**نحن** في وصف ما يحدث لهم، وما يفعلونه، ومن هم. وهذا هو، بالطبع، نوع المجموعة التي يُحتَفَظ لها بكلمة "جماعة". وفي بعض الحالات الأكثر إثارة للاهتمام، تغدو الخصائص الموضوعية ذاتها، مثل الجنس أو العرق أو الطبقة، أساسًا لتحوّل نوع من المجموعات إلى نوع آخر؛ إذ يُدرك الأفراد أنَّ هذه المجموعة بوصفها عرقًا أو جنسًا أو طبقة هي مجموعة مضطهدة أو محرومة، وما يُفهَم على أنّه تجربة مشتركة يمكن أن يُلَبَّى من خلال الفعل المشترك.

توجد الجماعة بهذا المعنى بفضل قصة يُفصَح عنها وتُقبل، وعادةً ما تُعنى بأصول المجموعة ومصيرها، وتفسّر ما يحدث الآن في ضوء هذين القطبين الزمنيين. وليس احتمال الموت بغير أهميةٍ في مثل هذه الحالات، إذ يجب على المجموعة ألّا تتعامل مع تهديدات الدمار الخارجية المحتملة فحسب، بل أيضًا مع ميلها النابذ إلى التفتت. ويمكن القول من جديد إنَّ الوظيفة السردية هي وظيفة عملية قبل أن تكون معرفية أو جمالية؛ تجعل العمل المتناغم ممكنًا، كما تعمل على الحفاظ على الذات التي تفعل. بل إنَّ علينا أن نمضي أبعد من ذلك ونقول إنها **تكوّن** المجموعة بالمعنى الحرفي. وكما من قبل، فإنَّ السرد ليس وصفًا أو رواية عن شيء موجود مسبقًا بمعزل عن السرد الذي يكتفي بالمساعدة على تحقيقه. الأحرى أنّ السرد، شأنه شأن وحدة القصة والقاصّ والجمهور والبطل، هو ما يكوّن الجماعة ونشاطاتها وتماسكها في المقام الأول.

لقد بدأت هذه الدراسة بمناقشة فعل الفرد وتجربته وهويته، وانتقلت من هناك إلى الجماعة، فتعاملت مع هذه الأخيرة على أنّها تشبه الأول. ونظرًا إلى أنَّ استعارة القصّ والإصغاء، كما ذكرنا من قبل، أكثر ملاءمةً للمجموعة منها للفرد، فإنّ من الممكن القول إنَّ ترتيبنا قد يكون أفضل إذا ما قُلب. ولعلّنا نقدّم الذات الفردية كنوع من جماعة القصّاصين والمستمعين والشخصيات، متلاحمة في فهمها قصة مشتركة وفي تأديتها. ومع أنني أجد هذا مثيرًا للاهتمام، إلا أنه قد يكون مضللًا؛ فالقصة المهمة هنا هي قصة من نوع خاص؛ القصة السيرية الذاتية التي تكون القضية فيها هي وحدة وتماسك ذات، متطابقة مع كلّ من قاصّ القصة ومستمعها. إنّ وحدة الذات وتماسكها، بكلّ مشكلاتها المصاحبة، هي مسألة صميمية بالنسبة إلينا جميعًا، وهي لهذا السبب أفضل نقطة انطلاق لإجراء مقارنة تلقي الضوء على الوجود الاجتماعي.

قد يشعر بعضهم بعدم الارتياح حيال هذا الإحياء لفكرة الذات الجمعية. فعلى الرغم من أنّنا نجد سوابق تاريخية للفكرة التي مفادها أنَّ الجماعة شخص "كبير"، لا سيما لدى أفلاطون وهيغل، فإنّها موضع شكّ كبير في هذه الأيام. ويدرك الجميع أننا في الكلام العادي غالبًا ما ننسب إلى مجموعاتٍ خصائصَ ونشاطات شخصية، لكن قلّةً هم المستعدّون لاعتبار ذلك أكثر من مجرد **طريقة تعبير**. حتى أولئك الذين يفضلون الكلّية على الفردانية في النقاشات حول منهجية العلوم الاجتماعية، عادةً ما ينأون بأنفسهم عن أيّ تصور من تصورات الذاتية الاجتماعية[30]. إنّ الفردانيين هم الذين يصرّون على الذات الهادفة والعقلانية والواعية بوصفها المفتاح لما يجري في المجتمع، لكنهم يقصرون هذا التصور على الشخص الفرد؛ في حين يشدد الكلّيون على درجة انغماس سلوك الفرد في سياقات غير مقصودة من نوع بنيوي وسببي.

30 Ernst Gellner, "Explanation in History," in: J. O'Neill (ed.), *Modes of Individualism and Collectivism* (London: Heinemann Educational, 1973), p. 251; Anthony Quinton, "Social Objects," *Proceedings of the Aristotelian Society*, vol. 76, no. 1 (1975-1976), p. 17.

لا شكَّ في أنَّ هنالك أسبابًا كثيرة ومثيرة للاهتمام تقف وراء الامتناع عن أخذ فكرة الذاتية الاجتماعية على محمل الجدّ، لا سيما لدى العقل الأنكلوسكسوني، لكنّ أحد هذه الأسباب هو، بلا شكّ، الطريقة التي جرى بها تقديم هذه الفكرة، أو اعتُقِدَ أنّها قُدِّمَت بها، لدى بعض دعاتها. وفي الكاريكاتور المشهور لفلسفة التاريخ الهيغلية نجد الروح العالمي يغذّ السير بعزم وطيد في مسيرته مستغلًا الأفراد بدهاء لأغراض يجهلونها وعادةً ما تتعارض مع الأغراض التي يسعون وراءها هم أنفسهم. وفي الآونة الأخيرة، رأى سارتر تعالي "سلسلة" الوجود الفردي في "المجموعة الملتحمة" التي يُعتبر اقتحام الباستيل نموذجًا لها[31]. في مواجهة هذه الحالات، يقرع الفردانيون الأنكلوسكسون ناقوس الخطر، نظرًا إلى أنَّ الأفراد هم إمّا مغفّلون مخدوعون وإما منساقون مع حشد من الرعاع الجامحين يمحو فرديتهم تمامًا. وهذان التصوران اللذان ننظر إليهما بمزيج من الرفض وعدم التصديق، إنّما يُنكران أيّ أهمية أو فائدة لفهم المجتمع والتاريخ.

لكنّ ما أتحدّث عنه يختلف أشدّ الاختلاف في الحقيقة عن أيٍّ من هذين التصورين اللذين أوافق على وجوب رفضهما كنموذجين. فهذان التصوران، بتخليهما عن الذاتية الفردية وتقويضها، لا يأخذاننا من الأنا إلى **نحن**، بل إلى أنا أكبر فحسب. وما أفكّر به هنا لا يناسب كاريكاتور التصور الهيغلي عن **الروح**، بل التبصّر الأصيل الذي يقف وراءه، إذ يصف هيغل هذا **الروح**، حين يقدّمه أول مرة في **الفينومنولوجيا**، بأنّه "أنا هو نحن، ونحن هو أنا"[32]. ويلحّ هيغل، في وصفه جماعة الاعتراف المتبادل، على التعددية بقدر ما يلحّ على ذاتية الوحدة الاجتماعية وفاعليتها، ولا يضع الجماعة قبالة الأفراد الذين يشكّلونها، بل يرى أنها توجد على وجه التحديد بفضل اعترافهم الواعي واحدهم بالآخر وبها تاليًا. ولدى هيغل أيضًا إحساس سليم بهشاشة هذا النوع من الجماعة ومخاطره؛ إذ يولد كحلّ للصراع بين أعضائه ذوي العقلية المستقلة، ولا يتغلّب البتة على ما يفرضه شعورهم بالاستقلال من تهديد داخلي لتماسكه. وكتاب **الفينومينولوجيا** هو رواية ما ينتج من ذلك من دراما في كثير من تنوعاتها الاجتماعية والتاريخية المحتملة. ولهذه الرواية بنية **سردية**: لا توجد جماعةٌ من الجماعات بوصفها تطورًا فحسب، بل أيضًا من خلال الفهم التأملي لذلك التطور، حين يتبنّى أعضاؤها الـ**نحن** المشتركة التي للاعتراف المتبادل.

على الرغم من جميع الاعتراضات التي قد تُثار ضد فكرة الذات الجمعية، تبقى الحقيقة أنّنا في ضروب الحالات التي وصفتها، نقول **نحن** بعضنا لبعض، ونعني بذلك شيئًا واقعيًا. وعلاوة على ذلك، فإنَّ كثيرًا من حياتنا وكثيرًا مما نفعله يكون مُسْنَدًا إلى واقعهِ بالنسبة إلينا. وآمل أن أوضح، من خلال التشديد على استخدامنا اللغة وإحساسنا بالمشاركة، أنني لا أقدم ادّعاءً كيانيًا (أنطولوجيًا) مباشرًا عن الوجود الواقعي لمثل هذه الكيانات الاجتماعية، بل رواية تأملية قائمة على الأفراد الذين يؤلّفونها ويكوّنونها. يُضاف إلى ذلك أنَّ لمصطلح "جماعة" كما أستخدمه تطبيقاته المتنوعة، من الدول القومية في التاريخ الحديث إلى كثير من المجموعات الاقتصادية واللغوية والإثنية التي غالبًا ما تدخل في صراع معها. وأنا لا أشير هنا، كما كان يمكن لهيغل أن يعتقد أو يأمل، إلى أنَّ مثل هذه الجماعات تقع داخل بعضها البعض في تراتب هرميّ. فقد يكون الصراع حتميًا، وقد لا تكون هنالك **نحن** من دون **هم**. وبالنسبة إلى الأفراد، من الواضح أنَّ كثيرًا من صراعاتهم الشخصية قد تنشأ من الولاءات المتضاربة حيال الجماعات المختلفة التي قد ينتمون إليها.

الخلاصة توجد جماعة من الجماعات حيث توجد رواية سردية عن **نحن** تواصل تجاربها وأفعالها. وتوجد مثل هذه الرواية عندما يُفصَح عنها أو تُصَاغ، ربما من خلال عضو واحد فقط أو عدد قليل فحسب من أعضاء المجموعة، بالإشارة إلى الـ**نحن** ويقبلها الباقون أو يشاركون فيها.

---

31 Jean-Paul Sartre, *Critique de la raison dialectique* (Paris: Gallimard, 1960), pp. I, 391ff.

32 G. W. F. Hegel, *Phenomenology of Spirit*, A. V. Miller (trans.) (Oxford: Oxford University Press, 1977), p. 110.



قد يُعتقد أنني بقولي هذا كسرتُ حدّة فكرة الذات الجمعية إلى درجة تفقد معها أهميتها وتبدو كأنّها لم تعد إلّا إسقاطًا في أذهان الأفراد الذين هم في النهاية الكيانات الواقعية في روايتي. وإذا ما كنت قد قلت إنَّ الـ **نحن** تتكوّن بوصفها الذات لقصةٍ في قصّ تلك القصة ومن خلاله، فلتتذكروا أنني قلت الشيء ذاته بالضبط عن الأنا. وإذا ما كان السرد الذي يكوّن الذات الفردية اجتماعيًا في الأصل جزئيًا على الأقلّ، فإنّ الأنا يدين بوجوده السردي إلى النحن بقدر ما تدين النحن إلى الأنا. فليست النحن واقعًا **ماديًا** ولا الأنا؛ لكنهما ليسا **تخييليين** أيضًا. وهما بمعنييهما المحددين الخاصين، واقعيان مثل أيّ شيء نعرفه.

4

عودةً إلى النصوص السردية باعتبارها نتاجات أدبية، سواء كانت تخييلية أو تاريخية، فقد حاولت أن أثبت زعمي أنَّ مثل هذه السرديات يجب ألا تعتبر خروجًا عن بنية الأحداث التي تصورها، ومن المؤكّد أنّها ليست تشويهًا أو تغييرًا جذريًا لها، بل امتداد لخصائصها الأساسية. يمكن لسيرورة السرد **العملية** من المرتبة الأولى التي تكوّن شخصًا أو جماعةً أن تغدو سردًا من المرتبة الثانية، لا تتغيّر ذاته لكن اهتمامه يكون معرفيًا أو جماليًا في المقام الأول. وهذا التغيير في الاهتمام قد يؤدي أيضًا إلى إحداث تغيير في المحتوى؛ على سبيل المثال، قد يروي المؤرّخ قصة عن جماعة تختلف تمامًا عن القصة التي ترويها هذه الجماعة عن نفسها (من خلال قادتها وصحافييها وغيرهم)، لكن الشكل يبقى هو ذاته.

لا أزعم، إذًا، أنّ السرديات من المرتبة الثانية، لا سيما في التاريخ، تقتصر على عكس السرديات من المرتبة الأولى التي تشكّل موضوعها أو على إعادة إنتاجها، إذ لا يمكنها أن تغيّر القصة وترتقي بها فحسب؛ بل أن تؤثر أيضًا في الواقع الذي تصوره هذه السرديات، وأنا أتفق هنا مع ريكور، من خلال توسيع نظرتها إلى إمكاناتها. وفي حين يمكن للتواريخ أن تفعل ذلك بالنسبة إلى الجماعات، يمكن للقصص التخييلية أن تفعل ذلك بالنسبة إلى الأفراد، لكنني لا أوافق على أنَّ **الشكل** السردي هو ما يُنتَج في هذه الأنواع الأدبية بغية فرضه على واقع غير سردي؛ ذلك أنَّ تصور محتوى جديد، وطرائق جديدة لقصّ القصص وعيشها، وأنواع جديدة من القصص هو ما يمكّن التاريخ والقصّ التخييلي من أن يكونا صادقين وإبداعيين في الوقت ذاته وبأفضل المعاني[33].



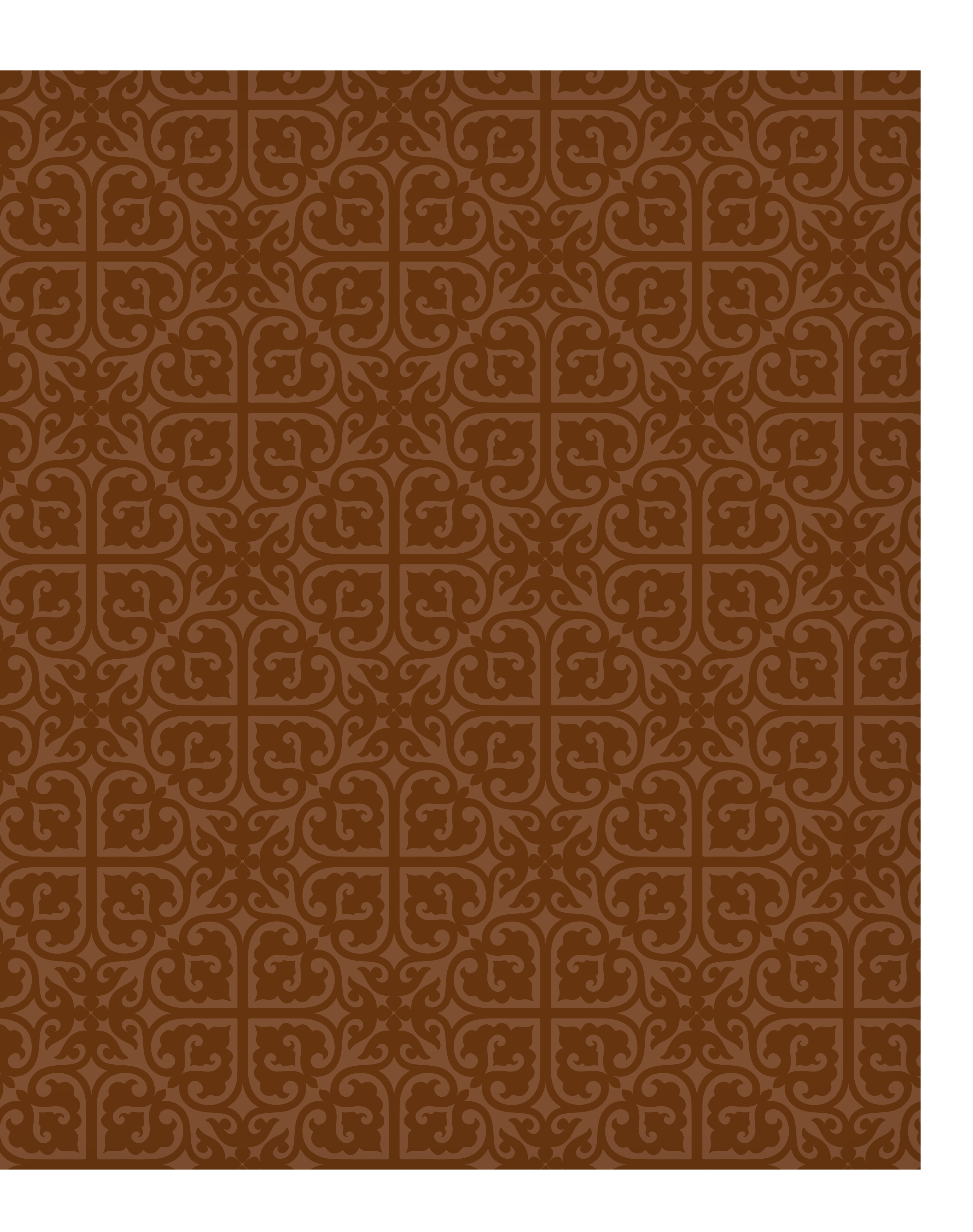
33 الأفكار الواردة في هذه الدراسة كانت قد عُرضت بإسهاب في كتابي *Times Narrative, and History* الذي صدر في عام 1986 عن مطبوعات جامعة إنديانا.

المراجع

- Barthes, Roland. "Introduction a l'analyse structurale des recits." *Communications*. vol. 8, no. 1 (1966).
- Canary, R. H. & H. Kozicki (eds.). *The Writing of History*. Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1978.
- Carr, David. "Review Essay." *History and Theory*. vol. 23, no. 3 (1984).
- Chatman, Seymour. *Story and Discourse: Narrative Structure in Fiction and Film*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 1978.
- Danto, Arthur. *Analytical Philosophy of History*. London: Cambridge University Press, 1965.
- Hardy, Barbara. "Towards a Poetics of Fiction: An Approach Through Narrative." *Novel: A forum on Fiction*. vol. 2, no. 1 (1968).
- ________. *Tellers and Listeners: The Narrative Imagination*. London: A&C Black, 1975.
- Hegel, G. W. F. *Phenomenology of Spirit*. A. V. Miller (trans.). Oxford: Oxford University Press, 1977.
- Heidegger, Martin. *Being and Time*. J. Marcquarrie & E. Robinson (trans.). New York: Harper and Row, 1962.
- Husserl, Edmund. *The Phenomenology of Internal Time-Consciousness*. J. S. Churchill (trans.). Bloomington, IN: Indiana University Press, 1964.
- Kermode, Frank. *The Sense of An Ending: Studies in the Theory of Fiction*. London: Oxford University Press, 1966.
- Kocka, J. & T. Nipperdey (eds.). *Theorie und Erzahlung in der Geschichte*. Munich: Taschenbuch-Verlag, 1979.
- Lübbe, Hermann. *Bewusstsein in Geschichten*. Freiburg: Verlag Rombach, 1972.
- MacIntyre, Alasdair. *After Virtue*. Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 1981.
- Merleau-Ponty, Maurice. *The Phenomenology of Perception*. C. Smith (trans.). New York: The Humanities Press, 1962.
- Mink, Louis O. "History and Fiction as Modes of Comprehension." *New Literary History*. vol. 1, no. 3 (1970).
- Mitchell, W. J. T. (ed.). *On Narrative*. Chicago: The University of Chicago Press, 1981.
- Munz, Peter. *The Shapes of Time*. Middletown, CT: Wesleyan University Press, 1977.
- Olafson, Frederick. *The Dialectic of Action*. Chicago: University of Chicago Press, 1979.
- O'Neill, J. (ed.). *Modes of Individualism and Collectivism*. London: Heinemann Educational, 1973.
- Quinton, Anthony. "Social Objects." *Proceedings of the Aristotelian Society*. vol. 76, no. 1 (1975-1976).
- Ricoeur, Paul. *La Métaphore vive*. Paris: Seuil, 1975.
- ________. *Temps et recit*. Paris: Seuil, 1983.
- Sartre, Jean-Paul. *Critique de la raison dialectique*. Paris: Gallimard, 1960.
- Schapp, Wilhelm. *In Geschichten Verstrickt*. 2nd ed. Wiesbaden: Klostermann Rotereihe, 1979.
- Scholes, Robert & Robert Kellogg. *The Nature of Narrative*. New York: Oxford University Press, 1966.
- Schutz, Alfred. *The Phenomenology of the Social World*. G. Walsh & F. Lehnert (trans.). Evanston, IL: Northwestern University Press, 1967.
- White, Hayden. "The Structure of Historical Narrative." *Clio*. vol. 1, no. 3 (1972).
- ________. "The Question of Narrative in Contemporary Historical Theory." *History and theory*. vol. 23, no. 1 (1984).



مراجـعات كتب
Book Reviews





فهمي رمضاني | *Fahmi Romdhani

مراجعة كتاب جدل الهوية والتاريخ: قراءات تونسية في مباحث هشام جعيط

Review of The Dialectic of Identity and History: Tunisian Readings of Hicham Djait

المؤلف: مجموعة من المؤلفين.

عنوان الكتاب: جدل الهوية والتاريخ: قراءات تونسية في مباحث الدكتور هشام جعيط.

الناشر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات؛ منشورات سوتيميديا.

سنة النشر: 2018.

عدد الصفحات: 203.

* باحث في التاريخ الثقافي، بصدد الإعداد لمناظرة التبريز في التاريخ، يدرس في دار المعلمين العليا بتونس.
Researcher in Cultural History, preparing for PhD Viva, Ecole de Tunis Normale Superieure , Tunis.

حققت المدرسة التاريخية التونسية في العقود التي تلت بزوغ فجر الاستقلال، وترسّخ قدم الدولة الوطنية، تقدمًا ملحوظًا، أسهمت فيه أجيال من المؤرخين الذين نجحوا في تطوير الكتابة التاريخية والارتقاء بها، وخلق اتجاهات مبتكرة في الفكر التاريخي العربي، من خلال مواكبة ما شهده علم التاريخ خاصة، والعلوم الإنسانية عامة، من تطورات عميقة وجذرية، فجّرتها المدارس الغربية الحديثة، والاستئناس بالمناهج العلمية كذلك، وبأدوات التحليل الحديثة التي كان لها الفضل في تثوير الفكر التاريخي. ولا ريب في أن الكتابة التاريخية لا يمكنها أن تنفصل، أو أن تكون مبتورة، عن الواقع، وعن السياق المجتمعي السائد؛ إذ أفرزت المشكلات التي ما انفكّت تعصف بمجتمعاتنا، ولا سيما المتمحورة منها حول الصراعات الإثنية ونزاعات الهوية، اهتمامًا مجتمعيًا متزايدًا بعلم التاريخ، فأضحى المؤرخ بذلك عنصرًا فاعلًا جدًا؛ نظرًا إلى ما أنيط بعهدته من مهمات وقضايا تكتسي أبعادًا راهنة واستراتيجية.

في هذا الإطار برز صوت المؤرخ هشام جعيط، الذي أسهم بحظ وافر في تطوير الكتابة التاريخية التونسية خاصة، والعربية عامة، وتجديد الفكر التاريخي كذلك، واستنباط مناهج تمكّن من إيجاد قراءات مستحدثة للتاريخ. إنه مؤرخ ومفكر. فهو مؤرخ لأنه كتب في التاريخ الوسيط الإسلامي، مهتمًا في ذلك بالمرحلة الأولى من تاريخ الإسلام، وهي في نظره مرحلة تأسيسية وجّهت تاريخ العرب، ونحتت العناصر الأساسية للشخصية العربية الإسلامية. وهو مفكر لأنه كتب في الثقافة والفكر، متناولًا في ذلك القضايا المهمة التي أرّقت الفكر العربي المعاصر، والمسائل المتعلقة بالأصالة والحداثة والتراث والتجديد، فهو بهذه الروح الخلاقة، إذًا، ينهل من التاريخ ومن الثقافة في الوقت نفسه؛ لعله ينجح في إيجاد معنى للتاريخ، والظفر بذلك الخيط الناظم الذي يمكّنه من الحفر عميقًا في أركيولوجيا النصوص التأسيسية؛ لاكتشاف البنى الثاوية والخفية التي تعتمل وفقها المجتمعات.

درّس جعيط في جامعة تونس عدة أعوام، وأشرف على تأطير العديد من الطلبة الذين أصبحوا بعدئذ من كبار الأساتذة في التاريخ الإسلامي في تونس. لكنه، على الرغم من ذلك، خرج من الباب الصغير للجامعة التونسية (لأسباب سياسية لا يتسع المقام لذكرها)، فضلًا عن أنه لم يحظَ بأي اهتمام أو تقدير من لدن السلطات السياسية؛ لذلك كانت فكرة تكريمه، من خلال القيام بدراسات وقراءات تخصّ مؤلفاته، تراود العديد من طلبته وزملائه وأصدقائه، إلى أن جاءت هذه المبادرة، وصدر في إثرها الكتاب الذي وُسم بعنوان **جدل الهوية والتاريخ: قراءات تونسية في مباحث الدكتور هشام جعيط**، وقد أصدره المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في تونس، ومنشورات سوتيميديا، في كانون الثاني/ يناير 2018، وأسهم فيه عدد من الباحثين والأساتذة والمفكرين المهتمين بفكر جعيط وفلسفته.

يضم الكتاب أربعة أبواب، تحتوي فصولًا مختلفة، تطرّق كل واحد منها إلى إشكالية معينة متصلة بفكر هذا المؤرخ. وقبل أن نتطرق إلى مضامين هذه الأبواب وفصولها، من الأهمية الإشارة إلى التصدير الذي افتُتح به الكتاب، ثم محاولة لطفي بن ميلاد كتابة سيرة ذاتية مختصرة لجعيط.

كان التصدير من إنجاز مهدي مبروك، أستاذ علم الاجتماع في جامعة تونس ومدير المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في تونس (المؤسسة التي يعود إليها الفضل في نشر هذا الكتاب)، وقد أشار فيه إلى تفرّد جعيط بانتمائه إلى جيل استثنائي بكل المقاييس؛ إذ إنه عايش عدة فترات مختلفة، أسهمت كل واحدة منها في نحت جزء مهم من شخصيته. إن هذا التفرد في الانتماء يعضده تفردٌ في تكوين ثقافي مزدوج، نهل فيه من معين الحضارتين العربية الإسلامية والغربية المسيحية. ويرى مبروك، أيضًا، أن هذا المؤرخ لا يعتبر التاريخ دراسة للماضي فحسب، وإنما هو بحث أيضًا في ثنايا المخيال، وشرايين الثقافة، وبناها الدقيقة والنفسية والذهنية أيضًا. ولعل هذا كله، إضافة إلى الخصال العديدة التي تميّز شخصية جعيط، ما حفزه ودفعه إلى إنجاح المبادرة؛ كي ترى النور، أخيرًا، في هذا الكتاب.

بعد هذا التصدير، تأتي مقالة لطفي بن ميلاد، أستاذ التاريخ الوسيط في الجامعة التونسية، وقد أراد أن تكون مقالته محاولةً في سيرة ذاتية مختصرة لجعيط. وتضمّنت هذه المقالة عناصر ثلاثة: أولها مسار المؤرخ الذي تحدّث فيه عن المسيرة العلمية للمؤرخ،

وكانت قد بدأت في الستينيات حينما عاد مبرزًا في التاريخ من المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية في عام 1962، وبداية نشره أولى مقالاته في المجلات العلمية المحكّمة الأجنبية. وتحدّث كذلك عن مغادرته الثانية لتونس نحو فرنسا؛ لإعداد شهادة دكتوراه الدولة حول الكوفة، ثم عودته، بعد ذلك، إلى الجامعة التونسية، وشروعه في الإشراف على الطلبة، في إطار أطروحات الدكتوراه، ثم تفرغه للتأليف. وكان كتابه **الفتنة** قد صدر في عام 1989، باللغة الفرنسية، من دار غاليمار للنشر، ويُعدّ من أكثر كتبه مساهمةً في شهرته. وتختتم هذه المسيرة العلمية بصدور ثلاثيته في السيرة النبوية التي قدّم فيها قراءة جديدة ورائدة، لمرحلة حساسة من التاريخ الإسلامي، وهي العهد النبوي.

ثم ينتقل بن ميلاد، بعد ذلك، إلى الحديث عن مسار المفكر، وهو لا يقل أهمية عن مسار المؤرخ، بل إن جعيط يكاد يكون مفكرًا قبل أن يكون مؤرخًا، ومؤلفاته في مجالات الفكر والثقافة متعددة، كان أولها **الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي** (ظهر بالفرنسية في شتاء 1973)، وقد حاول فيه، بالاعتماد على تحليل سوسيو-تاريخي، استقراء الوعي العربي الإسلامي؛ من أجل فهمٍ أعمق لماضي العرب ومستقبلهم. وبعده بأعوام قليلة صدر كتابه الآخر **أوروبا والإسلام**، حاول فيه أن ينتقد الاستشراق، وأن يتتبّع مسار الأيديولوجيات الغربية، من دون أن يكون في ذلك انحياز أو تحامل.

وينهي بن ميلاد هذه السيرة المختصرة بالحديث عن مسار المثقف؛ ليبيّن أن جعيط قد انخرط مبكرًا في الجدل الثقافي والاختمار الفكري اللذين كانا سائدين في البلاد في العهد البورقيبي، ثم في العهود الأخرى؛ إذ لم يكن جعيط بمنأى عما كان يعيشه الوطن العربي من انتكاسات، فقد كان دائم الانشغال بهموم الفكر العربي، محاولًا إيجاد الوعي الضروري الذي يكفل للوطن العربي الإقلاع الحضاري، ومواكبة عصر العولمة والتحولات التكنولوجية السريعة. ويختتم بن ميلاد هذه السيرة ببيان أن جعيط كان يتألم كثيرًا لغياب قراءات تونسية لكتبه، وبإيضاح أن هذا الكتاب "جاء بعد جهد صعب، هدفه إراحة الضمير، وأداء واجب، بعد تقصير باغٍ في حق المثقف الكبير" (ص 28).

بعد أن تطرّقنا إلى محتوى التصدير، وإلى ما تضمّنته السيرة المختصرة، من الأهمية أن ننتقل إلى الأبواب التي "تؤثث" هذا الكتاب والفصول التي تحويها:

فالباب الأول الذي عُنون بـ "في تاريخ الإسلام" يحتوي ثلاثة فصول اهتمت جميعها بالمؤلفات التاريخية التي كتبها المؤرخ. وسنبدأ بالفصل الأول الذي ورد بعنوان "على هامش السيرة: قراءة في ثلاثية السيرة النبوية"، لنبيل خلدون قريسة، أستاذ التاريخ الوسيط في جامعة منوبة، وهو مهتم أساسًا بالأنثروبولوجيا التاريخية للمجتمع العربي قبل الإسلام. يتعرض قريسة هنا لمسألتين أساسيتين: تتعلق الأولى بأسلوب جعيط في كتابته للسيرة النبوية، وتتعلق الثانية ببعض الموضوعات المعرفية والمنهجية، وما أفضت إليه من نتائج. وفي المسألة الأولى أكّد قريسة أن جعيط "قد نحت أسلوبًا مميزًا في الكتابة، يتسم بالنجاعة، مكّنه من أن يفتح أفقًا فكريًا مغايرًا" (ص 33). وهو، فضلًا عن ذلك، يتميز باطلاعه الجيد الواسع على الإنتاج العلمي الغربي، ولا سيما ما كتبه المستشرقون، وهذا دليل على ثراء فكره، وتفتّح ثقافته على العالم الرحب الواسع.

ينطلق قريسة بعدئذ للحديث عن الموضوعات المعرفية والمنهجية، فيشير في البداية إلى أن الثلاثية التي كتبها جعيط في السيرة النبوية هي ثمرة عملٍ متدرج ومتناسق، على امتداد أربعين عامًا، متسمٍ بمنهج فريد تبعه جعيط لقراءة الحدث وتأويل التاريخ. ويشير كذلك إلى أن جعيط قارئ جيد لمجمل الإنتاج الغربي في مجالات العلوم الإنسانية المختلفة، وهذا ما مكّنه من مناقشة المستشرقين ومجادلتهم، إما مصححًا لهم، أو موافقهم، أو معارضهم تمام المعارضة. ويختم قريسة فصله بتأكيد أن لهذا المؤرخ توجهًا عقلانيًا فريدًا، يتسم بالاتزان والجرأة، في الوقت نفسه، ولعل ذلك مكّنه من تجاوز التقليد السائد، وأن يرتقي بالكتابة التاريخية إلى ذرى الإبداع؛ من حيث الجرأة النقدية أو الموضوعية العلمية.

أما الفصل الثاني في هذا الباب، فكان من إنجاز أحد طلبة جعيط القدامى، المؤرخ عبد الحميد الفهري، أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة صفاقس، وهو مهتم بالاتجاهات السياسية والفرق والملل والنحل في صدر الإسلام. وجاء فصله بعنوان "دراما الفتنة ومفهوم صفين: صفّين مفترق الإسلام الأكبر". واعتمادًا على كتاب **الفتنة**، يقدّم الفهري قراءته لموقعة صفين التي جمعت بين عملاقَي الصراع، علي ومعاوية، على أن هذه القراءة قراءة تاريخية عميقة، يروم من خلالها كشف الخلفيات السياسية والأيديولوجية العميقة الثاوية خلف هذا الافتراق المبكر الذي مزّق جسم الإسلام تمزيقًا. فصفّين، على حد تعبيره، "ليست فتنة فقط، بل هي مرحلة جديدة في تاريخ العرب" (ص 45).

يستوقفنا الفهري، في مرحلة أولى، على الأسباب المباشرة للافتراق، فبالاعتماد على مادة مصدرية متنوعة حاول تبيّن جذور صراعٍ أرجعه إلى العهد النبوي، بتحليله النخب الاجتماعية والقوى الفاعلة والمتنفذة، الأمر الذي جعله يستخلص أن صفين مرحلة فارقة في تاريخ علاقة العرب بالدولة، اقترن فيها معنى السلطة في الإسلام بالاستبداد. وهو ما توصّل إليه جعيط، حينما تناول معركة صفّين في كتابة المذكور آنفًا.

وفي لحظة ثانية، يعنونها الفهري بـ "صفّين مفترق الرؤى وبذور قيام التعددية"، لم يقتصر فيها على ذكر أن صفّين لم تكن معركة بين جيوش ذات صبغة عسكرية، وإنما كانت أيضًا، بحسب رأيه، مرحلة مهّدت الأرض وزرعت البذور الأولى للاختلاف في الرؤى، أو للتعددية. وتظهر هذه التعددية أساسًا في بروز الخوارج والشيعة من رحم هذه الملحمة، وهما قوتان تجسّدان حق الاختلاف عن السلطة. ويذهب الفهري إلى أبعد من ذلك، فيرى في صفّين بداية نشأة المنهج العقلي في الإسلام، وبداية بروز التوجه العلماني. ويواصل الفهري تحليله المعمق لموقعة صفّين، فينتقل إلى لحظة ثالثة، يسميها "صفّين وتوسيع دائرة الافتراق"، ويرى فيها أن الاختلافات التي فجّرتها صفّين كانت ثاوية في رحم الإسلام الأول، الإسلام التأسيسي، وأن الأمصار، ولا سيما الكوفة والبصرة، منبعًا دائمًا لإفراز صور احتجاج القوى القبلية، فهذه الأمصار "أوطان جديدة"، على حد تعبيره، قامت فيها حركة فكرية وسياسية متحررة من كل نفوذ وقيد. وعند هذه النقطة، تحديدًا، يثير الفهري تساؤلات كثيرة، متمحورة حول أسباب حصول تقارب بين هؤلاء الذين يقطنون الأمصار وبين علي، بالأخص، الذي كان من صميم قريش، وأحد الرموز الذين صنعهم الإسلام.

ويرى الفهري أن عليًا أصبح "رمزًا اجتماعيًا"؛ إذ حصل نوع من التقارب، أو التوافق المصلحي، بينه وبين سكان الأمصار؛ إذ رأوا فيه خلاصهم بالقضاء على التكتل الصاعد في الخط العثماني، لكن دراما الفتنة، على الرغم من ذلك، تنتهي بسقوط أحد عملاقَي الصراع، وهو علي، وهذا ما تناوله الفهري في المرحلة الأخيرة من فصله، حيث تعرّض للخلل في سياسة علي؛ لبيان أن خلافة علي تختلف عن البقية من عدة أوجه، ولا سيما في كيفية التعامل مع الأشراف والنخب؛ فالسياسة التي اتبعها مع هؤلاء لا يمكن نعتها، بحسب الفهري، إلا بالارتباك؛ "إذ اجتمع في سلوك علي الشيء وضده" (ص 59). فضلًا عن سعيه المتواصل لفرض الانضباط المطلق للتشريعات الإسلامية، واحترام الأعراف العربية. إذًا، فالنهاية التراجيدية التي أنهت آخر فصول المعركة تعود أساسًا إلى أن عليًا لم يكن واعيًا، مثلما كان معاوية، بحصول تغيرات جذرية سريعة في طبيعة العرب، ونمط عيشهم؛ لذلك "كان معاوية أبعد نظرًا، وأكثر فهمًا للعبة السياسية" (ص 66)، بحسب تعبير الفهري. ويستخلص الفهري، في نهاية فصله، أن أحداث الفتنة، ولا سيما صفّين، نتيجة مباشرة لجملة تراكمات حصلت في الإسلام التأسيسي، وظلت تتحرك على نار هادئة وتنضج إلى أن انفجرت في العقد الرابع للهجرة، مدشنة بذلك "ثورة في الثورة"[1] على حد تعبير جعيط.

أما الفصل الأخير في هذا الباب الذي اهتم "بتاريخ الإسلام"، فكان للمؤرخ محمد حسن، أستاذ التاريخ الوسيط والآثار الإسلامية في جامعة تونس، وهو مختص في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لبلاد المغرب خلال الفترة الوسيطة، وكان قد أنجز، في عام

1 هشام جعيط، **الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر**، ترجمة خليل أحمد خليل، ط 4 (بيروت: دار الطليعة، 2000)، ص 325.

1995، أطروحة دكتوراه الدولة بإشراف جعيط، موسومة بـ "المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي". وقد وُسم فصل حسن بعنوان "هشام جعيط مؤرخًا للغرب الإسلامي"، وتطرق في هذا الفصل، منذ البداية، إلى أن جعيط قد اعتمد على الاستقراء والاستنباط، وعلى نظرة شمولية في قراءته لتاريخ المغرب الإسلامي خلال الفترة التأسيسية، فقد نشر مقالتين في مجلة "دراسات إسلامية" الفرنسية، في عامي 1967 و1968، كانتا باكورةً لبحوثه حول الغرب الإسلامي في مرحلته المبكرة، وقد مثّلتا أساس الكتاب الذي نُشر بعدئذ بعنوان **تأسيس الغرب الإسلامي**. ويرى حسن أن جعيط قد وُفّق في استعمال المفاهيم الملائمة حينما درس حقبة مفصلية من تاريخ المغرب والأندلس، وهي عصر الولاة، من ذلك، مثلًا، إصراره على استعمال كلمة "فتح" بدلًا من "غزو" أو "توسّع"، للمحافظة على أفضل المصطلحات تعبيرًا عن الواقع التاريخي. ويشير كذلك إلى أن جعيط لا يتوانى في الربط، في مقارباته، بين المشرق والمغرب؛ إذ لم يتناول قطُّ تاريخ المغرب بمنأًى عن تاريخ المشرق. ولم يفُت جعيط أن يدرس التطور السياسي والصراعات الدينية، خلال الفترة 84-184هـ؛ إذ تميزت هذه الحقبة ببروز صراعات بين القيسية والكلبية، وتفجّر ثورات البربر عام 122هـ. ويشير حسن، في النهاية، إلى أن دراسات جعيط حول المغرب الإسلامي، التي جُمعت في كتاب **تأسيس الغرب الإسلامي**، تظل مرجعًا مهمًا، على الرغم من مرور الزمن. ويرى أن كتابات هذا المؤرخ تتسم بفرادة وتميز أكسباها طرافة وجدّة، فقد اعتمد على المقاربات الحديثة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فضلًا عن اعتماده مقاربة شاملة تهدف إلى تطويق المشكل التاريخي. وبهذا الفصل ينتهي الباب الأول الذي خُصص لتاريخ الإسلام، ومن ثمّ ننتقل إلى الباب الثاني الذي تناول "المؤرخ والمنهج"، وضمّ ثلاثة فصول، نستعرضها تباعًا.

ورد الفصل الأول بعنوان "في المنهج: قضية تأويل التاريخ: قراءة في فكر هشام جعيط"، لمحمد بن محمد الخراط، وهو أستاذ جامعي يدرس بجامعة صفاقس في اختصاص تاريخ الفكر العربي المعاصر. ينطلق الخراط من فكرة مركزية ورئيسة، في الوقت نفسه، مفادها أن جعيط في معظم كتاباته التاريخية انصرف تمام الانصراف إلى فعل التأويل والقراءة، ولم يهتم كثيرًا بالتنظير، وهي الخصيصة الأولى لأعماله. أما الثانية، وهي ميزة لطالما ردّدها معظم المتدخلين في هذا الكتاب، فتشبُّعُ المؤرخ بمناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة. واجتهد الخراط في فهم إشكالية التفكير التاريخي وروافده عند جعيط؛ إذ يرى أن الاهتمام المبكر الذي أولاه جعيط للمرحلة التأسيسية في تاريخ الإسلام إنما يعود إلى إيمانه بهذه الحقبة التي طبعت، بعمق، مجرى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية؛ فهي التي تتيح الكشف عن المنطق الداخلي للأحداث، وتسمح بتحليل ميكانيزمات العقل العربي. إضافة إلى ذلك، يؤكد الخراط أن أعمال جعيط أبعد ما تكون عن القراءات التقليدية، بل إنها تنحو، في كثير من الأحيان، نحو فلسفة التاريخ، وهذا طبيعي؛ نظرًا إلى تشبّع جعيط العميق بفلسفة هيغل، ولا سيما فلسفته في التاريخ. ولئن أشار الخراط، أيضًا، إلى إعجابه بأسلوب جعيط الراقي في الكتابة، وبمهارته في بناء الحدث، وتفصيل أبعاده، فإنه لا يخفي بعض التساؤلات التي تراوده كلما أعاد قراءة الكتاب قراءة معمقة، فمثلًا استغرب الخراط ما ذهب إليه جعيط في تحليله علاقة الصدام بين النبي والمشركين، من حيث إنه كان صدامًا عقائديًا وثقافيًا بالأساس. لكن هل يمكن حقًا للثقافي أن ينفصل عن السياسي؟ وكيف يكون امتثالهم في مرحلة لاحقة سياسيًا، وقد كانت ثورتهم من قبل عقائدية؟ هذه بعض التساؤلات العميقة التي طرحها الخراط بعد قراءة دقيقة وشاملة لأعمال جعيط. وتطرّق الخراط، في العنصر الأخير من فصله، إلى إشكالية التأويل عند جعيط، ورأى أن التأويل في الكتابة التاريخية الحديثة التي ينتمي إليها المؤرخ تتأسس على استخدام جملة من المناهج والعلوم الحديثة؛ لقراءة النصوص وتفكيكها، تفهمًا وبناءً. وفي نهاية الفصل، خلص إلى أن جعيط يمثل لحظة وعي جذرية في تشخيص الفكر العربي؛ فتحليله للأحداث في التاريخ هو تحليل لميكانيزمات الحركة في التاريخ، سواء تعلقت بالإنسان في علاقته بذاته، أم بالإنسان في علاقته بالآخر وبالطبيعة وبما وراء الطبيعة.

أما الفصل الثاني في هذا الباب، فهو "مصادر الإسلام المبكر: المصادر المسيحية في القرآن من خلال كتاب تاريخية الدعوة المحمدية في مكة لهشام جعيط"، لحمادي المسعودي، وهو أستاذ تعليم عالٍ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في القيروان. ومنذ البداية، يحدد

المسعودي وجهته، فيقصرها على دراسة المصادر المسيحية في كتاب **تاريخية الدعوة المحمدية في مكة**، مبوبًا عمله في ثلاثة عناصر، هي على التوالي: المصادر المسيحية القانونية، المصادر المسيحية غير القانونية، وأثر البيئة العربية في القرآن.

يذهب حمادي المسعودي إلى أن جعيط يؤكد تأثير التراث الديني التوحيدي العتيق في القرآن، وفي النبوة المحمدية. وعلى الرغم من أن العديد من دراسات المستشرقين قد تناولت ذلك، فإن جعيط يرى أن كتاب الباحث السويدي تور أندريه أصول الإسلام والمسيحية (بالفرنسية) تظل الدراسة الأهم، رغم اقتصارها على المرحلة المكية دون المرحلة المدنية. ولا يتوانى المسعودي في تقديم أمثلة، ذكرها جعيط، تبيّن هذا التأثير الواضح من خلال بعض الألفاظ السريانية وبعض الأفكار مثل: "سبحانك، تباركت، الله، الصلاة" (ص 96). وينتهي المسعودي إلى ذكر ما توصّل إليه جعيط في النهاية من أفكار وآراء حول المشترك بين المسيحية السورية والإسكاتولوجيا الإسلامية وفي قسط وافر من الأفكار والتعبيرات. ويشمل، إضافة إلى ذلك، المصادر غير القانونية، والنصوص الأخرى، كالعهد القديم، وكذلك الأناجيل التي أقر القرآن ما ورد في بعضها من وجود بعث للأجسام، وحياة أخرى، ونعيم، وجحيم، إضافة إلى الأناجيل الأربعة. ويمكن رصد التشابه بين القرآن والنصوص المسيحية القانونية في نصوص الرسول بولس الواردة في سفر أعمال الرسل حول بعض المفاهيم.

ينتقل حمادي المسعودي بعد ذلك، كما بيّن في تخطيطه، إلى المصادر المسيحية غير القانونية في القرآن، فقد تطرّق في هذا العنصر إلى بيان التوافقات بين القرآن والنصوص المسيحية، من ذلك، مثلًا، قصة الشجرة التي انحنت لمريم؛ إذ وردت هذه القصة في إنجيل الطفولة (يسمى أيضًا "إنجيل متى المنتحل"). بينما وردت في النص القرآني بأمر الله لمريم بهزّ الشجرة: "وهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ" (مريم: 25). وعند هذا الحد، يطرح المسعودي تساؤلات تكتسي أهمية، من ذلك، مثلًا: هل اكتفى القرآن بما جاء في النصوص القديمة المسيحية القانونية وغير القانونية؟ وإلى أي حد استوعبت فيه التوحيدية والتراث التوحيدي العتيق؟ تُفضي مثل هذه الأسئلة بالكاتب إلى بيان أثر البيئة العربية في القرآن، وفي الإسلام، فيذكر أن المحيط الذي عاش فيه محمد بكل أبعاده ومميزاته، ساعد في تقبّله الأديان بصفة عامة، والمسيحية بصفة خاصة، فقد أكد جعيط، بحسب ما يذكر المسعودي، أن المسيحية كانت حاضرة بقوة في شبه الجزيرة العربية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وتُعد التجارة من أبرز العوامل التي أسهمت في انفتاح محمد على العالم التوحيدي، والفضاء الثقافي المسيحي. وفي الخاتمة ينتهي حمادي المسعودي إلى أنه لا يمكننا نفي التواصل بين القرآن والنصوص الدينية السابقة؛ إذ لا يمكن الحديث أبدًا عن قطيعة.

وأما الفصل الثالث من هذا الباب، فهو لمحمد الصحبي العلاني، وهو أستاذ محاضر في الحضارة الإسلامية الكلاسيكية في كلية الآداب بمنوبة، بعنوان "هشام جعيط والاستشراق: قراءة في كتاب التأسيس ومقالات البدايات". ولا ريب في أن عنوان الفصل يوحي بمضمونه؛ إذ سيهتم الكاتب برؤية جعيط في الاستشراق وموقفه منه.

يعتبر العلاني، منذ البداية، أن الكتاب الذي لم يحظَ بعدُ باهتمام الدارسين لعلاقة جعيط بالاستشراق هو كتاب **تأسيس الغرب الإسلامي** الذي نُشرت فيه مقالات المؤرخ في مستهل مسيرته العلمية، والتي عالجت مرحلة تأسيسية في تاريخ المغرب الإسلامي؛ هي حقبة بدايات التوسع العربي الإسلامي في بلاد المغرب، وتأسيس القيروان، وتشكّل ملامح إفريقية (27-184هـ). وفي رأي العلاني تظل مسألة الاستشراق من المسائل الحاضرة بقوة في هذا الكتاب.

يتطرق العلاني إلى وعي الاستشراق عند جعيط، فيرى أن المقالات المشار إليها سلفًا، والتي نشرها جعيط في بداياته، وهي المهتمة بالمغرب الإسلامي في المرحلة التأسيسية، لم تحتوِ مصطلح "الاستشراق"، بل يغيب ويتأخر ظهوره. ويفسر العلاني هذا

العزوف عن استعمال المصطلح، وتفضيله تعبير "الدراسة التاريخية"، برغبته في تنزيل عمله منزلة علمية أكاديمية خالصة، بعيدًا عن السياقات السجالية.

زيادة على ذلك، تظهر المقالات نوعًا من التناول النقدي للمعطيات الاستشراقية؛ إذ لم يتوانَ جعيط في تصحيح بعض الزلات اللغوية التي يقع فيها بعض المستشرقين، نتيجةَ قراءة غير سليمة للمصادر العربية، أو في تفنيده افتراضات جاء بها بعض المستشرقين، وكادت تكون من المسلّمات؛ من ذلك، مثلًا، فكرة المستشرق الفرنسي، إيميل فيليكس غوتييه، الذي رأى أن التوسع العربي الإسلامي في شمال إفريقية قد صاحبه انهيار في الحضارة الفلاحية والحضرية التي كانت مزدهرة في عهد روما.

ثم ينتقل العلاني إلى بيان صلة جعيط بالاستشراق، وموقفه منه، في مقالاته التي نُشرت منذ عام 1973، ثم في كتاب **تأسيس الغرب الإسلامي** في عام 2004. ولفهم ذلك، يشير العلاني إلى المقالة المعربة بعنوان "الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إفريقية العربية خلال القرن الثاني"، والتي نُشرت في مجلة **الحوليات** عام 1973، وهي المجلة التي حملت مشروعًا مغايرًا لمجلة **دراسات إسلامية**، فقد كان "هدفها زحزحة حقل المعرفة التاريخية من الإطار الوضعي التوثيقي الفيلولوجي" (ص 126-127). ويرى العلاني أن التمعن والتدقيق في قراءة هذه المقالة يكشفان لنا نتائج مهمة؛ من بينها أن جعيط بات يعي حدود الاستشراق ومآلاته القريبة المنتظرة، فضلًا عن تخطّيه الأطر المفهومية والتطبيقية التي حكمت المدرسة الاستشراقية الفرنسية؛ ليدشن بذلك "لحظة انعتاق مرّ فيها من حالة التماهي إلى وضعية إعادة تعيين الحدود" (ص 129)، بحسب العلاني.

وينتهي العلاني في فصله إلى أن جعيط بلور موقفًا واضحًا من الاستشراق، من طريق نصوصه الأولى، بأسلوبه العلمي، وتأكيده ضرورة وعي الاستشراق، والتمكن من وسائله، وإدراك حدوده ومآزقه.

لئن اهتم البابان الأول والثاني بمسار جعيط بوصفه مؤرخًا، فإن الباب الثالث اهتم به مفكرًا ومثقفًا، يحمل هموم الفكر العربي المعاصر وقضاياه وإشكالياته التي ما انفكت تؤرقه؛ لذلك جاء الباب الثالث بعنوان "في هموم الفكر والثقافة". ويتكون هذا الباب، كذلك، من ثلاثة فصول، أولها بعنوان "جدل الهوية والتحديث: الثقافة والهوية في فكر هشام جعيط"، لفتحي التريكي، وهو أستاذ فلسفة متميز في الجامعة التونسية، يشغل كرسي اليونسكو للفلسفة.

يرى التريكي، في بداية الفصل، أن ليس في إمكاننا أن ننكر العمق الفلسفي لمؤلفات جعيط؛ نظرًا إلى كونها تناولت قضايا مصيرية، كالحداثة والحرية والتقدم. ثم يتناول التريكي الثقافة والحداثة في فكر جعيط، ويَعدّ هذين المفهومين مركزيين في فلسفته. وفي هذا الاتجاه يعتقد التريكي أن الأسلوب الفلسفي في كل مقاربات جعيط الخاصة بالثقافة، كان هيغليَّ الاتجاه؛ إذ خاض في هذه المسائل، متعمقًا في أطروحاتها وإشكالاتها، معتمدًا في ذلك على عمق ثقافته التاريخية، وأدوات منهجية منفتحة على الأبحاث الأنثروبولوجية والفلسفية. أما بخصوص إشكالية الهوية والتاريخ، فإن التريكي يرى أن جعيط استند في تحليله إشكالية الهوية وتفكيكها إلى فلسفة الكندي، تشارلز تايلور، الذي أكد أن مفهوم الهوية ابن الحداثة ووليدها. وعند هذه النقطة يتساءل التريكي عن موقف جعيط من الحداثة، فيجيب بأنه يوافقه في اعتبارها ابنة الغرب، عندما سمَت ثقافته نحو الإبداع العلمي، والابتكار التكنولوجي، في قرون النهضة والأنوار. لكنه لا يطمئنّ كثيرًا إلى هذا الرأي؛ إذ يرى أن الحداثة أُنجزت إثر التقاء حضارات عدة، يونانية وعربية ويهودية وهندية، فهي، إذًا، ثمرة للتثاقف بين هذه الحضارات مجتمعة؛ لذلك يتناول التريكي في المرحلة الأخيرة من هذا الفصل التثاقف والعقل النقدي. ويمكننا أن نستنتج من هذا أن التريكي يثمّن ما ذهب إليه جعيط في أن الحركة التثاقفية التي تظل متمسكة بالبعد النقدي هي أفضل وسيلة للثقافة الحية، وهي الكفيلة بخلق علاقة دينامية وخلاقة. ولا يخفي إعجابه بإيمان جعيط بضرورة تحديث الإنسان العربي، بتثقيفه بثقافة متميزة، ديدنها الوحيد هو الإبداع الذي يُعد الغاية الطبيعية للإنسان ومصيره الأسمى. في خضمّ هذا كله، ينتهي التريكي

إلى موافقة جعيط حينما اعتبر أن انتكاسة النهضة العربية المعاصرة تكمن في عدم انتصارها للعقل أمام الدين، وهو ما جعلنا غرباء عن هذا العصر، ولم ننجح، بعدُ، في اعتناق الحداثة، بكل قيمها ونواميسها، فلا بد، إذًا، من اكتساب ثقافة متميزة مبدعة، تكفل حرية الفرد وكرامته.

ولا يختلف الفصل الثاني من هذا الباب كثيرًا عن مقالة التريكي؛ إذ عالج كذلك القضايا التي أثارها جعيط، وهي تتعلق بالمعضلات الرئيسة التي عصفت بالفكر العربي المعاصر؛ لذلك جاء الفصل الثاني بعنوان "شجون من مثقف مغترب الوحدة والمصير بين جعيط والعروي: هشام جعيط مدرسة الفكر المغاربي والعالم العربي"، لإدريس جباري، الباحث في الفكر المغاربي المقارن المعاصر، وأستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة "بودوين" في الولايات المتحدة الأميركية. ينطلق جباري في المقدمة من الحديث عن أجيال المثقفين الذين تكوّنوا منذ التسعينيات، والذين كان لأفكارهم صدًى واسع على المستوى الوطني والعالمي، مثل عبد الله العروي ومحمد عابد الجابري في المغرب، ومحمد أركون في الجزائر، وهشام جعيط في تونس. ولا ريب في أن اهتمامه سيكون متعلقًا بالتونسي جعيط؛ إذ حاول في هذا الفصل تبيين كيفية مساهمة الفكر النقدي الحاد الذي يَسِم هذا المفكر، والحقائق المزعجة، على حد تعبيره، التي يوردها في الحد من انتشار مشروعه الفكري، على الرغم من مساهمته الفاعلة في تجديد الفكر والبحث العربيين. يذكر جباري أن جعيط شارك في المؤتمر الذي عُقد في بلجيكا في عام 1970 بورقة حول "النهضة في العالم العربي"، نقد فيها الفكر القومي الوحدوي الذي لا يقوم على عمق تنظيري مهم، كما كان الشأن في أوروبا، وإنما يكتفي بالطابع الرومانسي والبلاغة الرنانة فحسب. وعلى الرغم من ذلك، يرى جباري أن تأثير جعيط في الثقافات العربية كان محدودًا في البداية؛ لعدة اعتبارات، إلى أن صدر كتابه **أوروبا والإسلام**، في عام 1978، الذي مكّنه من العودة إلى الساحة من جديد، ويعدّ جباري ذلك الكتاب تتويجًا لمجهود تاريخي دام طويلًا، يروم من خلاله وضع الحضارتين العربية الإسلامية والغربية المسيحية في إطار مساريهما التاريخيين، مع الاعتماد، كالعادة، على المناهج الحديثة. ويعتقد جباري أن كتاب **أوروبا والإسلام** أبان عن مفكر تجاوز الطابع الوصفي، فحفر عميقًا في بنية الحضارات؛ لفهم مسار الحضارة العربية الإسلامية، وسر انتكاساتها في الوقت الراهن.

أما الفصل الأخير في هذا الباب، فليس قراءة مباشرة في مؤلفات جعيط، بقدر ما هو محاولة في تناول مسألة لها صلة وثيقة بالقضايا التي أثارها هذا الأخير في مؤلفاته، وتحليلها، ألا وهي مسألة الانتماء؛ لذلك كان عنوان الفصل هو "الشخصية التونسية: هل هي شخصية عربية إسلامية فقط؟ سؤال الانتماء والرهان والتنوع الثقافي"، للطفي عيسى، المختص في التاريخ الثقافي للمغارب الحديثة في جامعة تونس.

يفتتح عيسى فصله ببيان أن سؤال الانتماء أصبح من المسائل الراهنة التي باتت حاضرة في جميع المجتمعات البشرية، ولا سيما مسألة الهوية التي ما انفكت تتصاعد وتيرتها من مجتمع إلى آخر. في هذا الإطار يشير عيسى إلى أن الدول العربية، بخلاف العديد من الدول الأوروبية والأميركية التي تقدّس قيم التنوع الثقافي وتحترمها، لا تزال تواجه صعوبات كثيرة في هذه المسألة، أي مسألة التنوع الثقافي والهوية.

ثم يتناول عيسى، في مرحلة ثانية، سؤال "التَوْنَسة"، فيشرع في تحليل علاقتها بالانتماء العربي الإسلامي، مؤكدًا أن الدولة الوطنية لم تنجح بالقدر الكافي في ترسيخ مشروع التونسة الذي ظلّ مشروعًا رسميًا ملتبسًا، على حد تعبيره؛ إذ لم يُعمّق التنوع الثقافي، ولم يؤكّد تنوع مكوناته؛ لذلك كان هناك دائمًا انشقاق وتصدع، فهناك من يعتبر الهوية التونسية عربية إسلامية فحسب، في حين يؤمن بعضهم بانفتاح الهوية التونسية على روافد حضارية أخرى، بالتزامن مع تأكيد أهمية الانتماء العربي الإسلامي. كل هذا يقود عيسى إلى الحديث عن أبعاد أخرى مكملة للانتماء التونسي، كالبعد المتوسطي والبربري واليهودي والزنجي الأفريقي.



وبخصوص البعد المتوسطي، يؤمن عيسى بانخراط تونس في التأثير في تاريخ المتوسط منذ فجر التاريخ، فالانتساب إلى هذه البحيرة المتوسطية، في حد ذاته، لم يكن جغرافيًا فقط، بل من خلال إسهام تونس التاريخي في كتابة العديد من صفحات هذه البحيرة المتوسطية أيضًا. أما في البعد البربري، فيرى عيسى أن الدولة الوطنية، ولا سيما خلال فترة الرئيس الحبيب بورقيبة، قد عملت على فسخ مختلف بصمات الثقافة البربرية التونسية، من ذلك، مثلًا، إخلاء مواطن سكناهم القديمة، وتوطينهم بقرى جديدة، إضافة إلى أن الدولة الوطنية كذلك قد ضربت عددًا من الخصوصيات الحضارية للعنصر البربري، كمسألة الألقاب التي أُبدلت بألقاب عربية أو تونسية، وكذلك اللهجات المحلية التي اندثرت.

ينتقل عيسى بعد ذلك إلى البعد اليهودي في عناصر الشخصية التونسية؛ إذ يرى أن الدولة الوطنية، على الرغم من عراقة الوجود التاريخي لليهود في تونس، لم تحرص على استيعابهم بعد نهاية الاستعمار، ويستغرب من غياب ذكرهم غيابًا تامًا عن محتويات كتب التاريخ المدرسية. زيادة على ذلك، يعتقد عيسى أن عدم تمكّن العديد من التونسيين من التفريق بين اليهودية والصهيونية، وخلطهم بين المسألتين، ساعدا في صعود خطاب يرفض الوجود اليهودي، سواء كان من السياسيين أو من النخب أو من العامة.

أما البعد الأفريقي الزنجي، فيراه عيسى مهمًا أيضًا؛ ذلك أن السرديات التاريخية التونسية والعربية تريد أن تنفي عن نفسها أي اعتماد على الزنجية الأفريقية، على الرغم من وجود صلات عريقة ضاربة في القدم، ربطت الشمال الأفريقي بجنوبه الصحراوي. ويعتقد عيسى أن الدولة الوطنية التي أرساها بورقيبة بعد الاستقلال كانت لها علاقات متميزة جدًا بالدول الأفريقية، شملت، على وجه الخصوص، التعاون الاقتصادي والاجتماعي الميداني؛ للدفع بحركة التقدم إلى الأمام. ويؤكد ضرورة تثمين أواصر التعاون اليوم؛ نظرًا إلى ما تشهده الدول الأفريقية من تحولات سريعة، أسهمت في بروز تكتلات إقليمية فاعلة، سواء في غربيّ القارة أم في شرقيّها. ثم يختم عيسى فصله بالدعوة إلى ضرورة تفعيل تنوع الانتماء الثقافي الذي أسهم حتمًا في إضفاء دينامية على المجتمع، وإثراء الروافد الحضارية التي تشكل شخصية الفرد وهويته.

عند هذا الحد ينتهي الباب الثالث، يليه الباب الرابع الذي مثل بيبليوغرافيا تحليلية مفصلة لجعيط، من إنجاز لطفي بن ميلاد. وقد أبانت هذه البيبليوغرافيا الدقيقة عن إنتاج غزير ميّز جعيط، خلال الفترة 1964-2017. وقد تكونت هذه البيبليوغرافيا من الدراسات التاريخية، والمباحث الفكرية وهموم المثقف والمجتمع، وقضايا الأمة الراهنة.





خالد بلعربي | Khaled Belarbi*

مسـار التجديـد في الكتابـة التاريخيـة عنـد إبراهيـم القـادري بوتشـيش

قراءة في كتاب "المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل"

Renewal in Ibrahim al-Qadiri Boutchiche's Historiography

A Reading of Marginalized People in the History of the Islamic West: Theoretical and Practical Problems in Subaltern History

المؤلف: إبراهيم القادري بوتشيش.

عنوان الكتاب: المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل.

العنوان الأصلي: الأصلي.

الناشر: رؤية للنشر والتوزيع.

سنة النشر: 2014.

عدد الصفحات: 310 صفحات.

* أستاذ التعليم العالي في قسم التاريخ جامعة سيدي بلعباس، الجزائر.
Professor of Higher Education, Department of History, Sidi Belabbas, Algeria.



مقدمة

لمع اسم الباحث إبراهيم القادري بوتشيش في سماء البحث العلمي الأكاديمي المتعلّق بتاريخ العصر الوسيط؛ إذ تمكّن من شق طريق في مجال بحثي كان بكرًا في ساحة البحث التاريخي العربي، واستطاع بجدّه واجتهاده وتكوينه المتميّز على يد أستاذه محمود إسماعيل تسليط الضوء على مناطق معتمة من تاريخ الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، مُستعينًا بخلفية منهجية ونظريات أوروبية فيما اصطُلح عليه بـ "التاريخ الجديد"، وهو تاريخ من الأسفل يركز على دراسة تاريخ الناس ومعتقداتهم وسلوكهم وحياتهم اليومية.

وإذ يخطّ بوتشيش طريقه في هذا المجال، فإنه قد استطاع المساهمة في بناء حقل بحثي جديد يتعلق بتاريخ الذهنيات، وهو الحقل الذي بقي مغيّبًا في الإنتاج التاريخي العربي؛ فمؤلفاته وأبحاثه ومشاركاته العلمية ومحاضراته في الجامعات المغربية والعربية دليل على هذه المساهمة الواضحة.

كان تاريخ الذهنيات شغله الشاغل، فقد بذل جهده وعلمه ووقته كله في دراسته والتنقيب عنه، وكانت عُدَّتُه في ذلك التفتح على مصادر بحثية جديدة، تُصنّف في عداد المهمل من كتب الجغرافيا والرحلات والنوازل، وكتب الأحكام والعقود والتراجم والمناقب والسيَر والسحر والشعوذة والعلوم الخفية، وكتب الحسبة، ليلم شتات معلوماتها ويُضفي عليها لمساته المنهجية المتميزة وتحليلاته العلمية المنفتحة على شتى المناهج، ويخرج علينا بصفحات جديدة في تاريخ ذهنيات الغرب الإسلامي.

من بين المصنّفات المهمة التي أنتجها بوتشيش في سياق توجّهه البحثي، كتابه **المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من الأسفل**. وهذا الكتاب، كما هو مُبيّن في عنوانه، يُسلّط الضوء على الحركات السياسية والمذهبية المناوئة للسلطة في تاريخ الغرب الإسلامي بمراحله المختلفة، وهو كتاب على قدر كبير من الأهمية؛ إذ يُطلعنا، من خلال قراءة جديدة، بآليات منهجية جديدة أيضًا، على فحوى هذه الحركات، بعيدًا عن ظلم وتحيّز كتابات البلاط التي شوّهتها، ووصفت قادتها بأشنع الأوصاف بفعل انتمائها إلى صف السلطان، وهو ما يُحتّم على هذه الكتابات أن ترى في هذه الحركات خروجًا على السلطان. ويتبيّن، بجلاء، للمطّلع على هذا الكتاب، صدق القراءات التي جاء بها المؤلف، فقد أنصف هذه الحركات ووضعها في إطارها وسياقها التاريخي العام، ونوّع في مصادر قراءاته حتى يخرج باستنتاجات من شأنها أن تُبقي الباب مفتوحًا أمام دراسات مستقبلية تواصل تسليط الضوء على هذه الحركات، وتفتح باب النقاش حول ما يعتقده بعض الدارسين بشأن "قُدسية كتب التاريخ السياسي".

سيرورة البحث التاريخي الأكاديمي من التأريخ من أعلى إلى التأريخ من أسفل

تتّجه الدراسات التاريخية الأكاديمية المتعلقة بتاريخ العصر الوسيط إلى تسليط الضوء على مسالك وتوجهات بحثية مسكوت عنها، سواء من المؤرخين الذين نقلوا إلينا الحدث التاريخي في مصنّفاتهم، أو من الباحثين؛ ذلك أنها لم تنل حظها من البحث والتقصّي لمعرفة مشهدها العام؛ إذ إن المتتبع لمستجدات الساحة البحثية المتعلقة بتاريخ العصر الوسيط لن تغيب عنه الملاحظة المتمثلة في طغيان التاريخ السياسي، أو تاريخ السلطان، على سجل الدراسات التاريخية. فقد عكف الباحثون على حصر عملية البحث والتقميش في التاريخ السلطاني وما يستتبعه من أحداث سياسية وعسكرية؛ من معارك وسفارات ودسائس في البلاط وسياسة السلاطين، متناسين تمامًا تاريخ المحكوم أو المهمّش، وكأن الحادثة التاريخية تتكوّن من الشق السياسي فقط.

وسط هذه المعطيات، أدّت ثُلّةٌ من المؤرخين الأوروبيين، أمثال مارك بلوخ ولوسيان فافر، في عام 1929، إلى إحداث ثورة في دائرة البحث التاريخي؛ وذلك من خلال نهج توجه بحثي جديد سُمّي "مدرسة الحوليات". فقد أسّس بلوخ وفافر مجلة **الحوليات**، ساعيَين

من خلال البحوث التي نشرت فيها لفك عقدة انغلاق التاريخ على نفسه وإخراجه من خانة العادات الكلاسيكية القديمة التي لا تعرف أي تجديد وإبداع؛ بمعنى "إسقاط الجدران العازلة التي تجاوزها الزمن وأكداس المسبقات التي تعود إلى عصر بابل من الملل والأخطاء في التصور والفهم"[1]، وتسليط الضوء على كلٍّ من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وإقحامهما في ساحة البحث التاريخي منافسَين للتاريخ التقليدي.

يرى هاري إلمر بارنر أن التاريخ الجديد هو توسيع لمجال البحث من دون إقصاء أو تهميش أي حدث في الماضي بحجة اعتباره غير تاريخي؛ وفقًا للمفهوم الكلاسيكي الذي يحصر التاريخ في الأحداث السياسية والعسكرية، ويؤكد في الوقت نفسه ضرورة الموازنة وعدم المفاضلة بين مجال وآخر، فلكل حدث أهميته؛ ذلك أن المؤرخ يقرأ الحادثة التاريخية كلها في شقها السياسي والاجتماعي والثقافي والذهني، غير أنه ليس مطالبًا بأن يُعطي اهتمامًا متساويًا بهذه التجليات كلها، بل يُسلّط الضوء على الشق الذي يميل إليه ويُفضّله[2].

من ناحية أخرى، حدد بارنر مهمتين رئيستين للتاريخ الجديد تتمثّل أولاهما في تصوير وإعادة بناء تاريخي للحضارات بناءً شموليًا يتناول كل مجالات النشاط الإنساني، من سياسة واقتصاد ومجتمع وثقافة، أما ثانيتهما فهي تتجسّد في تتبع مظاهر الثقافة والنُظم في الزمن الراهن استنادًا إلى الماضي[3].

عرفت مدرسة الحوليات انتعاشًا كبيرًا بانضمام عدة أقلام مرموقة إليها؛ مثل جورج فريدمان، وشارل مورازيه، وفرنان بروديل، صاحب الدراسة المعروفة بـ "المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني"[4]، الذي سيصبح رائد مدرسة الحوليات بعد وفاة فافر في عام 1956، وقد وضع بصمته في التاريخ الجديد عن طريق اكتشاف ميزة تُعدّ ركنًا أساسيًا في التأريخ للذهنيات؛ وذلك من خلال دراسته "التاريخ والعلوم الاجتماعية: الأمد الطويل"[5].

جدير بالذكر أن دراسة بروديل هذه كانت أولى المحاولات في هذا المجال؛ إذ لم تكن تتوافر أدبيات حول الموضوع، وقد استند صاحبها إلى دراسته حول العالم المتوسطي فقط، لنحت بداية تكون منطلقًا لدراسات أخرى أشمل وأعمق، واستتبعته في المضمار نفسه دراسةٌ لمارك بلوخ عنوانها "الخصائص المميزة للتاريخ الريفي الفرنسي"، ودراسة أخرى لأرنست بروس "لمحة عن تطوّر الأجور والأسعار في باريس في القرن الثامن عشر". وتبقى هذه الدراسات محاولات جادّة للتعمّق أكثر في الموضوع[6]، على الرغم مما اعتراها من نقائص.

يدعو بروديل، على نحو صريح وواضح، إلى ضرورة إلغاء المسافات الفاصلة بين العلوم، خاصةً الاجتماعية منها، وتحطيم حواجز التباعد بينها، وذلك من أجل التمكن من تشييد صرح تاريخ شمولي يستعين بالعلوم والتخصصات الأخرى. وأصر بروديل على ضرورة مواجهة التاريخ للعلوم الاجتماعية التي كان يصفها بالإمبريالية. فوفقًا لمنظوره ومنطلقاته الشخصية، على العلوم الإنسانية والاجتماعية أن تُروَّض وتَخضَع معرفيًا ومنهجيًا لعلم التاريخ؛ إذ إن "علم الاجتماع والتاريخ كلاهما مغامرة واحدة للعقل، فهما ليسا الوجه والقفا للنسيج ذاته، بل هما هذا النسيج ذاته في كل كثافة خيوطه"[7].

1 **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوغوف، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007)، ص 84.

2 هاري إلمر بارنر، **تاريخ الكتابة التاريخية**، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، ج 2 (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987)، ص 229-230.

3 المرجع نفسه.

4 المرجع نفسه، ص 96-97.

5 لوغوف، ص 98.

6 المرجع نفسه، ص 141-142.

7 فرانسوا دوس، **التاريخ المفتت: من الحوليات إلى التاريخ الجديد**، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009)، ص 167-168.



إبراهيم القادري بوتشيش على خطى أستاذه محمود إسماعيل

تمكّن بوتشيش من التحرر من الإكراهات المنهجية التقليدية والتفتح على نظريات جديدة بفضل جلوسه مجلس الدرس عند أستاذه محمود إسماعيل، فقد تأثر به منهجيًا من خلال ابتعاده في دراساته تحقيب التاريخ الإسلامي عن التحقيب السياسي؛ إذ يرى إسماعيل أن التاريخ الإسلامي يُحقّب وفقًا لاعتبارات تاريخية تضع في سلّم أولوياتها التحقيب وفقًا لأنماط الإنتاج السائدة، ويُعدّ هذا المعلم من بين أهم الظواهر التي طبعت مسيرة التاريخ الإسلامي، لكنّ المؤرخين أهملوا النظر فيها واعتمادها باعتبارها ظاهرة تاريخية، لها أهميتها وقيمتها في التاريخ الإسلامي، مكتفين بالتحقيب الشكلي التقليدي القائم على قيام الدول وسقوطها. والحاصل أن التحقيب وفقًا لأنماط الإنتاج ينم عن تحوّلات حقيقية طرأت على مسرح التاريخ العربي الإسلامي، ويقول إسماعيل في هذا السياق: "وهنا تسقط التحقيبات الشكلانية المؤسسة على قيام أسر حاكمة وسقوط أخرى ويصبح التحقيب الجديد دالًا على تحولات حقيقية وليس تغيرات ظاهرية"[8]. فأنماط الإنتاج هي التي توجد صراعًا بين الطبقات؛ ومن ثم ينشأ، بناءً على هذا الصراع، مجمل الأحداث السياسية والعسكرية[9].

وقد سار بوتشيش على خطى أستاذه محمود إسماعيل في الدعوة إلى البحث والتنقيب في التراث المخطوط، والتراث الشفوي الذي يختزن الكثير من الموروث التاريخي، بحكم نظرية تاريخ الزمن الطويل للظواهر الاجتماعية؛ إذ يقول إسماعيل: "ومن أسف أن الدارسين العرب والمسلمين لم يولوا هذا التراث الاهتمام الواجب، فتاريخ العلم عند العرب لم يكتب بعد، ولا تزال آلاف من المخطوطات تنتظر من يحققها، كما أن التراث الشفاهي مهدد بالضياع برغم الجهود المحدودة والمحمودة وهي معظمها جهود أفراد في تدوينه وتصنيفه"[10].

ينهج الباحث أيضًا النهج نفسه الذي خطّه أستاذه وسار عليه فيما يخص تأكيد ضرورة استعانة المؤرخ بالعلوم الأخرى لدراسة الحادثة التاريخية؛ "لذلك اعتبر المؤرخون والمشتغلون بالعلوم الاجتماعية والإنسانيات المناهج علمًا قائمًا بذاته، كما عوّلوا على المناهج جميعًا ودون مفاضلة في حقول المعرفة المختلفة، ووظفوا في دراسة الموضوع الواحد عددًا مناسبًا من المناهج، بعضها تاريخي، والآخر نفسي، والثالث اجتماعي وهلم جرًا"[11].

بناءً عليه، يعتبر بوتشيش تلميذًا وفيًّا لأستاذه؛ إذ اتبع رؤيته ومنهجيته في دراسة التاريخ الإسلامي، فها هو الأستاذ يُشيد بتلميذه في أحد مصنفاته قائلًا: "ومن جانبنا نشيد بظهور مدرسة من المؤرخين الشبان، ينتشر تلامذتها في أرجاء العالم العربي، أجادوا التأريخ موضوعًا ومنهجًا، تحليلًا وتعليلًا وتفسيرًا ورؤية ومقصدًا، كما نُنوّه بجهود بعضهم في اعتماد منهجيات مستحدثة مستمدة من مناهج العلوم الأخرى، كالإحصاء والاقتصاد والاجتماع والأنثروبولوجيا والأركيولوجيا وعلم النفس وغيرها، ويشرّفنا أن نذكر من أسماء هؤلاء إبراهيم القادري"[12].

ونجد أنه تأثر برؤية إسماعيل نفسها، الذي دعا إلى التفتح على المصادر الأخرى من قبيل كتب الحِرَف والصناعات والفقه والنوازل والطبخ والريافة، التي تكمن أهميتها في تسليط الضوء على جوانب مُبهمة من التاريخ الإسلامي، ونَحْت مصطلحات جديدة في المجال الاقتصادي والاجتماعي[13].

---

8 محمود إسماعيل، **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي: محاولة تنظير**، ج 10 (القاهرة: دار مصر المحروسة، 2005)، ص 14.

9 المرجع نفسه.

10 المرجع نفسه، ص 16.

11 المرجع نفسه، ص 24.

12 المرجع نفسه، ص 26.

13 المرجع نفسه، ص 28.

المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: محاولة جادة في التأريخ للذهنيات

محتوى الكتاب

الفصل	العناوين الفرعية	الصفحات
الهامشي والمهمش في الكتابة التاريخية: طرح وتفسير	في مفهوم التهميش. تفكيك الكتابة التاريخية العربية الوسطية ورصد موقفها من تاريخ المهمشين. تفسير عوامل التهميش في الكتابة التاريخية العربية الوسطية.	34-17
الأدوات المنهجية لكتابة تاريخ المهمشين	ارتحالات المؤرخ في مساحات الهامش والمهمش. تكثيف المناهج.	58-35
حركة المتنبئين والسحرة في الغرب الإسلامي: إعادة تقويم لحركة حاميم خلال القرن الرابع الهجري		94-60
الحركة المسرية: بين الواقع ومحاولات التزيف		117-95
حركة علي بن يدر: مراجعة جديدة	المرحلة الأولى: مرحلة النشأة وبسط السلطة. المرحلة الثانية: مرحلة الانحسار. المرحلة الثالثة: مرحلة الصحوة والانتعاش. مرحلة الضعف والانهيار.	142-118
الحركة الحفصونية: مقاربة على ضوء النمط الإقطاعي		179-143
الجوانب الخفية في حركة التصوف وكرامات الأولياء بالمغرب: العصر المرابطي والموحدي نموذجًا		200-180
الأيتام في الأندلس من وثيقة تعود للعصر المرابطي	تقديم الوثيقة. نص الوثيقة.	209-201
المتسولون في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين		225-211
العوام في مراكش خلال القرن السادس الهجري: نموذج من تاريخ المستضعفين في حواضر المغرب الإسلامي		255-226
لماذا غيبت الفئات الشعبية من تاريخ المغرب الشرقي الوسيط؟		282-257
مسألة العبيد بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين		301-283

بيبليوغرافيا الكتاب	
نوع البيبليوغرافيا	**عددها**
مخطوطات	30
المصادر	80
المراجع العربية	52
المراجع الأجنبية	34
الدوريات	12

المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: محاولة جادة للتأريخ للذهنيات

حدد بوتشيش أهداف دراسته في مقدمة الكتاب موزعةً على أحد عشر فصلًا، حيث أكد أن التاريخ العربي يحفل بثورات وانتفاضات وحركات احتجاج خلّفت دويًّا كبيرًا في حينه، بيد أنها لا تظهر اليوم في ثنايا الهيستوريوغرافيا إلا على نحو باهت، بل نكاد نجهل كل شيء عن أهدافها ومراميها التي طُمست أو شُوّهت، حين صُوِّر زعماؤها على أنهم شرذمة من السفلة والأوباش والعُصاة والمارقين والخارجين على الجماعة.

استهل المؤلف كتابه بتسليط الضوء على مفهوم "المهمّش"، والاستشهاد بالآراء المختلفة التي تخص هذا المفهوم، ثم تقديم مفهومه الخاص وقراءته الشخصية للمصطلح؛ إذ يقول: "صحيح أننا نُشاطر جان كلود سميث الرأي في أن قراءة التاريخ انطلاقًا من المركز تفرز تاريخًا مبتورًا يتمحور حول السلطة ويُقصي تاريخ الفئات الصامتة، إلّا أننا لا نقتصر على هذا المفهوم في شكله العائم لسبب بسيط وهو أن بعض الحالات في التاريخ سجّلت تهميش بعض النماذج المنتمية إلى خانة النفوذ والجاه والسلطة، بناءً على قاعدة أن التاريخ يكتبه المنتصرون"[14]. وليدعم وجهة نظره، قدّم أمثلة حول المصطلح؛ إذ يقول: "وقد عرف التاريخ البشري - في مراحله المختلفة - ألوانًا متنوعة من تهميش الشعوب المقموعة والشرائح الدنيا من المجتمع وعدم الإقرار بحقوقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويكفي التذكير في هذا الصدد بالنسبة للعالم القديم بتهميش كل من أثينا وروما للشعوب التي كانت تندرج تحت سلطتيهما، ومع ذلك اعتبرتها في درجة أدنى من درجة المواطنة الرومانية والإغريقية" (ص 22).

لقراءة النص التاريخي من منظور يركز على استكناه مكامن التحيّز الواضح في التواريخ السلطانية، علّق المؤلف على تخصيص ابن أبي زرع بصفحتين كاملتين لوصف الملامح الفيزيولوجية ليوسف بن تاشفين، ففي الوقت الذي وصف المؤرخ ابن أبي زرع الخليفة من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، مع ذكر الجزئيات الدقيقة من ملامح وجهه، لم يتعامل بالسخاء نفسه مع شرائح المجتمع المهمّشة من فلاحين ورُعاة وحرفيين، بل إنه لم ينبش بكلمة واحدة حول المشردين والمنبوذين والمتسولين الذين لم يخلُ منهم مجتمعه، أما بوتشيش فنبش في توجهات المؤرخين المهتمين بتاريخ المهمشين، وهو "يعتبر المؤرخ المسعودي كرمز ونموذج للمؤرخ المحترف الذي امتلك ناصية المنهجية التاريخية السليمة خاصة في كتابه مروج الذهب" (ص 25).

14 إبراهيم القادري بوتشيش، **المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل** (القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع، 2014)، ص 19-20.

ينطلق المؤلف من رؤية تحليلية مفادها أن الكتابة التاريخية المتعلقة بالعصر الوسيط عرفت خللًا كبيرًا في حيّز المؤرخ، حيث طغى على صفحاتها التأريخ للسلطان، وفسّر ذلك وفق عوامل الطمس والتعتيم، فتميّز مؤرخ السلطة بنظرة سطحية لاقتصاره على جمع أحداث تاريخية وعسكرية وتدوينها من دون استنطاق مكنوّناتها وتجلّياتها (ص 27).

لذلك؛ يوضح بوتشيش أنه على الرغم من الأدوار الشامخة التي قامت بها شرائح المجتمع المهمّشة داخل مجتمعاتها، فإنها لم تذكر في المصادر التقليدية إلا بنصف الكلمات، وهذا أمر بديهي إذا وضعنا في الحسبان موقع المؤرخ الاجتماعي، وموقفه من صراع الحاكم والمحكوم، والتوتر الذي ميّز علاقة الطرفين، إضافة إلى مكوّناته الثقافية ونظرته القاصرة إلى التاريخ.

يرى بوتشيش، أيضًا، أن العامل السياسي يتحكم بدرجة كبيرة في هذا الطمس، فالمؤرخ بقي حبيس رؤية البلاط للآخر؛ ذلك أنه ليس له حرية ومنطلق معينان ومبادئ شخصية يلتزم بها، بل يُردّد ما يقوله السلطان، وحسبنا أن هؤلاء كانت لهم نظرة متعالية تجاه الرعية؛ فذلك المؤرخ وصفهم بالرعاع والسفلة والهمج (ص 28)، ما أثّر في الفئة المستهدفة من الكتابة التاريخية. ومن بين عوامل الطمس أيضًا، نذكر عامل الرقابة؛ إذ شكّل عامل الوحدة تحديًا بالنسبة إلى المؤرخ، وهكذا ثم راح يسعى في كتاباته للتركيز على هذا العامل، وإقصاء كل ما يخالفه، وهو أمرٌ جعله يُصنّف محاولات الخروج على السلطة بوصفها مساسًا بوحدة الدولة وتماسكها. وانطلاقًا من هذه الرؤية، صنّف مؤرخو السلطان المهمشين ضمن الفاسقين والرعاع (ص 30-31)، وهو أسلوب "ذكي" في الظلم وعدم الإنصاف، ما يفرض على الباحث النزيه إعادة تقييم هذه الحركات المظلومة بنقد ما هو متواتر وخلخلته، وإعادة الدراسة والتحليل انطلاقًا من نظرة شمولية تربط هذه الحركات بواقعها، وبالمعتقدات والنظم السائدة.

ويذكر المؤلف، أيضًا، عامل التفسير الديني؛ ذلك أن مؤرخ السلطان غالبًا ما يُفسّر الأحداث انطلاقًا من خلفية دينية، فيحصر الحدث التاريخي ويقرؤه من زاوية العناية الإلهية (ص 31). يضاف إلى ذلك عامل التفسير الفردي للأحداث التاريخية وفق منطلق تقديس الحاكم وجعله مدار الأحداث التاريخية والبطل الوحيد والقائد المحنّك صاحب الانتصارات المدوّية.

ثم ينطلق بوتشيش من قواعد منهجية ضرورية متسلّحًا بها للتنقيب والبحث والكتابة في تاريخ المهمشين؛ من بينها نقل ساحة البحث في الفئة المؤرخ لها، فهو ينتقل من دراسة البلاط وأمور السلطة وزخم الأحداث السياسية والعسكرية والطبقة المخملية، إلى تسليط الضوء على الطبقة الدنيا؛ العبيد والباعة والمتسوّلين والمجانين وعموم الناس (ص 37)، وينقل ساحة البحث من القصور الفخمة والحدائق الغنّاء ومجالس السلطان وسهرات الطرب واللهو ومنادمة الجواري ومعاقرة الخمور إلى الشارع وحقول الفلاحين ودكاكين التجار والزوايا والأكواخ والبيوت والقرى والمداشر (ص 37-38)، إضافة إلى تسليطه الضوء على المرأة ودورها في الحياة الاجتماعية (ص 38). وقد وسّع المؤلف الفترة الزمنية للبحث المتعلق بالامتداد الزمني للدولة، أو ما اصطلح عليه بـ "الزمن الأميري"، إلى زمن أوسع منه؛ هو الزمن الاجتماعي الذي تتحكم فيه الذهنيات والمؤثرات الطبيعية والاجتماعية. وبدلًا من القول زمن الحاكم الفلاني أو زمن الدولة الفلانية، قال زمن الخوف من الطاعون وزمن الكرامات أو زمن البركة وزمن القبيلة. ومن خصائص هذا الزمن أنه زمن طويل يتجاوز القرنين من الزمن، بعكس الزمن السياسي الذي لا يتجاوز على الأكثر قرنين (ص 38)؛ ومن ثم على المؤرخ أن يتجاوز المألوف، إلى البحث والتنقيب عن المسكوت عنه، أو ما يمثل سلوكًا محرّمًا أو محظورًا في المجتمع، على غرار المثلية الجنسية والدعارة والخمر والشعوذة والسحر والانحرافات العقدية (ص 39)، وعليه أيضًا أن يرتحل من المستوى الثقافي الذي يؤرخ للعلماء والحركة العلمية إلى تسليط الضوء وإزالة الغموض المتعلق بالأميين الذين لم ينالوا تعليمًا.

على أن عدّة المؤرخ في ذلك ليست المصادر المكتوبة فقط، فنادرًا ما تطرّقت هذه المصادر إلى هذه الفئة المنبوذة؛ لذا ينبغي أن يُوسّع عدّته المصدرية بالاعتماد على الموروث الشفوي، نظرًا إلى أن هذا الموروث يحوي الكثير من الرموز والدلالات والتمثلات الاجتماعية

لهذه الفئة (ص 39-40)، إضافة إلى توسيع حقل البحث في المجال الهامشي، وذلك بدراسة الذهنية والغوص في موضوعات أخرى؛ مثل تفاعل الإنسان مع البيئة، وموقفه من الأزمات الطبيعية والظواهر الاجتماعية (ص 41).

يعكف المؤرخ على استنطاق النص التاريخي بعمق وفق منهجية معيّنة، و"ركام" من الأسئلة الموجّهة إلى النص سمّاها المؤلف "استمارة أسئلة"، لاستجلاء الخبر الكامن والتفسير الدفين بين خبايا النص، مركّزًا على دراسة تاريخ المهمشين على الانتقال من الخاص إلى العام، بمعنى توسيع آفاق البحث وتبني التحليل وفق رؤية أفقية حتى يسلّط الضوء على تاريخ "كل الناس"، بدلًا من الطبقة السياسية فقط (ص 45)، وعكس المنهجية. فبدلًا من دراسة ما يحيط بالإنسان، يتم تحويل هذه اللمسة المنهجية إلى محور الإنسان؛ ومن ثم ندرس سلوكه ونفسيته وتصرفاته في هذه الظروف (ص 45)، ويتمّ تبني المنهج الشمولي اقتداء بما طبّقه بروديل في أطروحته "المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني"؛ فقد درس عصرًا بأكمله من شتى نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية (ص 46) ضمن ما سمّاه "أسلوب الشبكة" (ص 46).

ركّز المؤلف على المنهج الكمي الإحصائي، فهو يرى أن اعتماد المؤرخ على الرسومات البيانية والجداول الإحصائية مهم جدًّا لتدعيم الدراسة المتعلقة بفئة المهمشين، فلغة الأرقام تُبرهن أكثر على المعطيات المتعلقة بالحياة اليومية للمهمشين؛ من قبيل المعطيات الاقتصادية، وقوائم الأسعار، والمنتوجات الزراعية المستهلكة بكثرة، وأسعار المواد الغذائية في أوقات الاستقرار والحروب، والمعطيات الديموغرافية قبل الحروب وبعدها (ص 46-47).

بحسب المؤلف، يساعد توظيفُ المنهج السيميائي - وهو منهج يقوم على تفسير الرموز والدلالات المبطنة بين ثنايا النص التاريخي واستكناهها - المؤرخَ على كشف ما لم يكن راغبًا في الإفصاح عنه صاحب النص، ولهذا المنهج أثرٌ محمود في النصوص المناقبية وكتب التصوّف، فهو يُعدّ ملائمًا لمثل هذه النصوص التي تعجّ بالرموز والمعاني المسكوت عنها، بل يمكن اعتبار أن المسكوت عنه في هذه النصوص أكثر من المُصرّح به، وهو ما يمثل "فجوة مصدرية" بشأن تمكّن المؤرخ من الحصول على تفصيلات أكثر فيما يخص الطبقة المهمّشة (ص 48-49).

يسعى المؤلف، أيضًا، إلى اعتماد المقاربة الأنثروبولوجية، وهي مقاربة تقوم على دراسة عادات الأمم والجماعات وتقاليدهم؛ وذلك بالتعمق في ذهنياتهم وسلوكهم وتكوينهم الجسماني. ووفق نظرة التاريخ الجديد، يُساهم هذا المنهج في إماطة اللثام عن بعض الألغاز التي تقف في طريق مؤرخ المهمشين؛ بفضل قدرته على تفكيك عناصر البنية الفردية للإنسان والمجتمع بكل ما تمثله من ارتسامات ذهنية وفيزيولوجية وتعايشها مع معادلة البيئة والظروف (ص 49).

كما يروم الباحث الاستعانة بالمنهج البنيوي الذي يقوم على لَمِّ شمل الحادثة أو الظاهرة التاريخية بكل سياقاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ومن كل أبعادها أيضًا، سواء العمودية أم الأفقية (ص 50). ويستعرض، بعد ذلك، آراء المستشرقين حول الحادثة التاريخية؛ إذ يقول حول ظاهرة المتنبئين إن لويكي Lewicki يردّها إلى استمرار المعتقدات القديمة الموجودة في منطقة "غمارة" قبل الإسلام، زاعمًا أن هذه المنطقة قاومت الإسلام من أجل المحافظة على عاداتها القديمة، في حين رأى فيها تيراس تعبيرًا عن عقلية الاستقلال وارتباطًا بعادات المجموعة البربرية التي لم ينفذ إليها الإسلام إلا بصعوبة، أما ألفرد بل فيزعم "أنها كانت تهدف إلى إصلاح الإسلام وجعله ملائمًا لطبيعة البربر" (ص 65).

يركز بوتشيش، أيضًا، على تقصّي الحادثة التاريخية وسط بيئتها ومعطياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وليس بمعزل عن هذه الظروف، مثلما هي الحال في تقصّيه عن "حركة حاميم"؛ إذ أدرك أنها ظاهرة لم تنشأ من العبث، وإنما لها مخرجاتها وجذورها الاجتماعية: "إن ظاهرة التنبؤ في أي مجتمع من المجتمعات لم تنشأ من فراغ، فهي عطاء بنية اجتماعية ارتبطت بتطوّرها، ومن ثم لا يمكن أن نأخذ هذه الظاهرة بمعزل عن الظاهرات الاقتصادية والنسيج الثقافي الذي عرفه المجتمع المغربي آنذاك، فهي تعبير عن مواقف ووسيلة لتجاوز مشكلات المجتمع" (ص 66).

ويستعين المؤلِّف بالتفسير النفسي لتفكيك الظاهرة التاريخية، وقد توصّل إلى أن ظاهرة تنبؤ "حاميم" التي ما هي إلا أحد التمثلات المكبوتة في ذهنيات الناس آنذاك، فتتفجر من خلال هذا السلوك بعد استيفاء حدّها الأدنى من الضغط والتحمّل، ويصبح من المستعجل البحث عن بديل للتنفيس من هذا الكبت (ص 66)، ويقول عن المصطنعين في الأندلس في إطار حديثه عن حركة أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة باعتباره منهم: "فإنهم ظلوا تابعين بحكم علاقات الولاء والاصطناع إلى الأرستقراطية الأندلسية، لذلك لم يكن غريبًا أن يشعروا بأنهم في وضعية اجتماعية من الدرجة الثانية، ممّا ولّد فيهم حافزًا نفسيًا للتمرد على الوضع والسلطة القائمة" (ص 98-99).

كما يسعى المؤلف للمقارنة بين ما جاء في المصادر حول الرواية التاريخية الواحدة؛ إذ أورد عن نهاية "حاميم" رواية كل من صاحب **الاستبصار في عجائب الأمصار**، وابن أبي زرع صاحب **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، والناصري السلاوي، وأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، وعبد الرحمن بن خلدون، وابن عذاري المراكشي (ص 84).

يتابع المؤلف أيضًا الخلفيات الاقتصادية الكامنة خلف الأحداث التاريخية، ونستشف ذلك من خلال قوله: "وكانت أخته دبو ساحرة كاهنة، وكانوا يستغيثون بها في الحروب والقحوط، والنص هذا يحمل مغزى عميقًا يجعل الباحث لا يعزل ظاهرة السحر عن خلفيتها الاقتصادية" (ص 88). ويقول في موضع آخر: "وفي هذه الرواية نلاحظ مرة أخرى ارتباط السحر بعدة ظواهر اقتصادية، كالخصب والجفاف والحرب، وهي القضايا التي كانت تشكل هموم سكان غمارة" (ص 89)، "ومن السذاجة اعتبارها حركة موجّهة ضد شخص الأمير فحسب، كما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين. إنها ثورة مزارعين وأقنان وعبيد ناضلوا ضد اضطهاد السلطة الإقطاعية وأساليبه القمعية" (ص 151).

ويتتبع آثار الظواهر الاجتماعية في الزمن الراهن؛ بناءً على نظرية الأمد الطويل للظواهر الاجتماعية. ونستشف ذلك من قوله: "ومن نافلة القول أن هذه الظواهر السحرية خلّفت آثارًا ما زال بعضها ماثلًا إلى اليوم في منطقة غمارة وحدها، بل في المغرب برمّته، فقد صار لممارسي السحر مكانة مهمة في المجتمع الغماري، وأصبحت شرائح كبيرة تتعاطى له وتشدّد إيمانها به إلى درجة تجعلنا نفترض أن استفحال هذه الظاهرة كان وراء ظهور التصوف والصلحاء في المنطقة" (ص 92).

يدرس بوتشيش الحادثة التاريخية في الغرب الإسلامي ضمن إطار وحدة الظاهرة في العالم الإسلامي: "كذلك يمكن فهم المغزى الاجتماعي للحركة الحفصونية ومناهضتها السافرة للطبقة الإقطاعية في ضوء ما شهده الشرق الإسلامي في ذات الفترة، فالإقطاع عرف انتشارًا واسعًا في هذا الجناح من العالم الإسلامي، فقامت ثورات المزارعين، وأهمها ثورة الزنج التي يشهد كل المؤرخين - قدامى ومحدثين - أنها جاءت كرد فعل ضد تفاقم الإقطاع. وانطلاقًا من وحدة الظاهرة في العالم الإسلامي لا نتردد في الجزم بأن الحركة الحفصونية جاءت ضمن ثورات الفلاحين المعارضة للإقطاع" (ص 153).

ويعتمد المؤلف على المنهج السيميائي في تفسير كرامات الأولياء، فقد فسّر كرامةً لأبي الفضل النحوي على النحو التالي: "إن الحكاية الكرامية هذه تحمل بين ثناياها كثيرًا من الرموز، فالوضوء هنا رمز يدل على التطهر وإزالة النجاسة وغسل الذنوب وتهيُّؤ النفس للحياة النقية. والماء في حد ذاته رمز لتجدد الحياة وانبعاثها، وعدم فراغ الإناء يعني أن فرص التوبة والانبعاث والدخول في الحياة الطاهرة النقية لا تنقطع، بل هي متواصلة مستمرة لمن يريد الاغتسال من ذنوبه" (ص 192).

ويدعو المؤلف إلى إماطة اللّثام عن التراث المخطوط، نظرًا إلى ما يحويه من مادة علمية جديدة من شأنها أن تجيب عن الكثير من الإشكاليات المطروحة في تاريخ الذهنيات، لأنها مصادر بعيدة عن البلاط وزخمه؛ إذ يقول: "لكني أؤكد أن أجوبة شافية على هذه التساؤلات الضخمة لا يمكن أن تكتمل إلا إذا قمنا بعملية حفر في تراثنا المخطوط الذي ما زال بين جدران الخزانات العامة أو المكتبات الخاصة، أو يعيش منفيًا سجينًا في رفوف الخزانات الأوروبية، آنذاك سنكتشف دون شك أجوبة وتساؤلات جديدة ومتعددة تتناسب مع ما يختزنه هذا التراث من قضايا اجتماعية قلّ نظيرها" (ص 200)، ويضيف قوله: "غير أن التنقيب بدقة عن المادة المدفونة في ثنايا المصنفات القديمة والحفر في التراث المخطوط قمين بتذليل بعض العوائق والمثبطات" (ص 214).



يُمهّد بوتشيش لإشكاليات أخرى في نهاية كل مبحث لتكون موضع بحث من الباحثين في المستقبل، نظرًا إلى اعتقاده أن تاريخ الذهنيات ما زال يحتاج إلى استقصاء وتنقيب؛ إذ يقول: "وإذا كانت الدراسة قد حاولت الإحاطة بوضعية العبيد وسلّطت الأضواء على علاقاتهم بأسيادهم، فإن النصوص لم تسمح بالإجابة عن بعض التساؤلات الملغزة وأهمها: لماذا لم يتم توظيف العبيد على نطاق واسع في العمل الزراعي واقتصر على استغلالهم في وظيفة الخدمات المنزلية؟ ولماذا لم يقوموا بانتفاضات للتعبير عن احتجاجهم على وضعهم المتدني؟ وكيف كانت وضعية الأسرى العبيد في دار الحرب؟ ذلك ما نأمل أن تتجه إليه عناية الدارسين مستقبلًا" (ص 301).

شكّلت هذه الأهداف جوهر كتاب بوتشيش الذي لم يضع على عاتقه مهمة الدفاع عن هذه الحركات المظلومة، نظرًا إلى انعدام دعواها، بقدر ما سعى لإزالة ما لفّها من غموض، وما شابها من دسائس المؤرخ الرسمي، وما علق بها من مسخ وتحريف، و"فك الحصار" عن فئات اجتماعية لم يُنصفها المؤرخون، ولم يسمحوا لها بالظهور على واجهة التاريخ حين همّشوها، وسعوا لإلقائها في "سلّة مهملات التاريخ".

خاتمة

تمكّن إبراهيم القادري بوتشيش من إماطة اللثام عن موضوعات لفّها الغموض في تاريخ الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط؛ إذ تبيّن لنا، بعد اطلاعنا على صفحات كتابه، أنه وظّف فيه مقاربات جديدة وقراءات خاصة من منطلقات مغايرة تمامًا لما كان معهودًا في ساحة البحث الأكاديمي، وأنه وظّف عدة مناهج من العلوم الاجتماعية، سخّرها لخدمة التاريخ نظرًا إلى اعتقاده أن علم التاريخ ما عاد يقتصر على أخبار الملوك، ما حدا به إلى الدعوة، في الكثير من موضوعات هذا الكتاب، إلى توسيع قراءات المؤرخ، ليتجاوز إكراهات مصادر التاريخ السياسي، وينفتح على المصادر الدفينة؛ ومن ثم ليتمكن من سبر أغوار ذهنيات المجتمع، والإجابة عن الإشكاليات المطروحة وفتح آفاق البحث.

استنتج المؤلف من خلال دراسته أن تاريخ المهمشين والمنبوذين لا يزال ملفًا مفتوحًا، ومشروعًا علميًا قابلًا للتعديل والإضافة، وأنه لا يزال يحتل مركز الصدارة في ساحة النقاش بين المؤرخين الذين أصبح لديهم اقتناع بأن اختزال حركة التاريخ في تاريخ سلطاني أو نخبوي لا يعدو أن يكون تاريخًا مبتورًا يعبّر عن سطحية الحدث التاريخي بدلًا من عمقه.





جمال فزة | Jamal Fazzeh*

في الحاجـة إلى تجديـد صنعـة المـؤرخ: قـراءة في كتـاب "الصحافـة والتاريـخ" للمـؤرخ الطيـب بيـاض

On the Need to Define the Historian's Trade: A Reading of Bayadh al-Tayyeb's The Press and History

المؤلف: الطيب بياض.

عنوان الكتاب: الصحافة والتاريخ، إضاءات تفاعلية مع قضايا الزمن الراهن.

العنوان الأصلي: الأصلي.

الناشر: منشورات دار أبي رقراق.

مكان النشر: الرباط – كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، الدار البيضاء.

سنة النشر: 2019.

عدد الصفحات: 175 صفحة من القطع المتوسط.

* أستاذ علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بجامعة محمد الخامس بالرباط.
Professor of Sociology and Anthropology at Mohamed V University, Rabat.

صدر للمؤرخ الطيب بياض، في مستهل السنة الجارية (2019) كتاب بعنوان **الصحافة والتاريخ: إضاءات تفاعلية مع قضايا الزمن الراهن**، توزعت صفحاته على قسمين: يتناول المؤلف في القسم الأول إشكالية نظرية - منهجية يتوخى بها التحديد الإبستيمولوجي لموقع التاريخ داخل نادي العلوم الاجتماعية؛ وذلك بفضل خوضه حوارًا جدليًّا ومثمرًا بين مهنة الصحافي وصنعة المؤرخ. ويكرس المؤلف في القسم الثاني كامل جهده لاختبار القيمة الكشفية والعملية للمنهجية التي تبناها في استنطاق أحداث جارية، تدخل في نطاق اهتمام الصحافي والمؤرخ على حد سواء. وقد تمكن الأستاذ بياض من وضع عدد مهم من الأحداث وتحليلها تحت لافتة عريضة سمّاها "للتاريخ إضاءة"؛ حيث يعمل على تحليل الظرفية ومعالجتها من خلال إحضار بنية تراوح مدتها الزمنية بين المتوسطة والطويلة.

جاء القسم الأول من الكتاب (ص 15)، بعنوان "التاريخ والصحافة: تبادل خدمات وتقاطع غايات واختلاف آليات". واشتمل على أحد عشر محورًا، وزعها المؤلف على موضوعات أثارت انتباه مؤرخين كبار واهتمامهم، أمثال مارك بلوك Marc Bloch، وجاك لوغوف Jacques Le Goff، ولوسيان فيفر Lucien Febre، وفيرناند بروديل Fernand Braudel، ثم باتريك بوشرون Patrick Boucheron وغيرهم. جاء هذا القسم، شكلًا ومضمونًا، متفاعلًا مع مدرسة الحوليات؛ حيث استهل المؤلف القسم الأول بمحور عنوانه "ما جدوى التاريخ؟"، قبل أن يخوض في حديث تحليلي حول الهزيمة الغريبة التي أفرد لها المحور الرابع. لكن من دون أن يغفل عن أن التجربة الإنسانية تفيض دومًا عن القوالب التي تضعها فيها الحدود السياسية والأيديولوجية والتاريخ الدبلوماسي؛ ولعل هذا كان درس المحور الخامس "الحب في زمن الحرب الباردة"؛ حيث تناول المؤلف فيه علاقة الحب التي جمعت جاك لوغوف، المؤرخ الفرنسي، بزوجته الطبيبة البولندية هانكا Hanka.

ولا يخفى على أهل الصنعة من المؤرخين أن سؤال "ما جدوى التاريخ؟" سؤال تاريخي؛ فقد طرحه بلوك في أعقاب الهزيمة التي تعرضت لها فرنسا أمام ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية[1]؛ ما يجعل من إعادة طرح السؤال مسألة حيوية تتخذ أبعادًا تأسيسيةً، ما دام أن السؤال لم يكن يُعنى بتفسير الهزيمة، كما هو الشأن بالنسبة إلى كتاب "الهزيمة الغريبة"[2]، بل بالدفاع عن صنعة المؤرخ من خلال الدعوة إلى تجديدها.

لم يكتف المؤلف بعرض بعض أوجه الحوار التي جمعت بين الصحافة والتاريخ، وهي التي كانت حاضرة في أكثر من محور داخل هذا القسم، مثل المحور السادس الذي كان عنوانه "إضاءات في النوفيل أوبسيرفاتور"، والمحور السابع: "التاريخ بأقلام صحفية"، أو المحور الثامن: "جون لاكوتير: الصحافي المؤرخ المرجع" وغيرها، بل جعل من هذا الحوار ومختلف أوجهه مناسبة لطرح نقاش أعمق يجمع بين التاريخ والعلوم الاجتماعية الأخرى. وقد ركز المؤلف في المحور الثاني، الذي كان عنوانه "المؤرخ يعيد الاعتبار لصنعته ويجيد التموقع". ما تفرق، إضمارًا، في كل محاور هذا القسم؛ حيث تبيَّن في هذا المحور، على نحو ملموس، أن معركة التموقع التي يخوضها المؤلف تدور رحاها على الحدود بين التاريخ والعلوم الاجتماعية وليس بين التاريخ والصحافة.

ولم يفت المؤرخ بياض إثارة مسألة الكتابة التاريخية وأسلوب الكتابة الذي يميز المؤرخين. ولعمري إنها قضية نادرًا ما أثارت انتباه المؤرخين، ولا سيما الوضعانيين منهم؛ حيث ساد اعتقاد أن بديع الأسلوب مفسد للموضوعية والدقة. هكذا، تجد المؤلف في المحور التاسع، يستحضر إسهام محمد باهي حرمة من أجل الاحتفاء بمتعة قراءة التاريخ وفن كتابته.

في القسم الثاني، الذي جاء بعنوان "إضاءات وتفاعلات" (ص 63)، يجمع بياض ما تفرق منذ 2013 في أعداد مجلة **زمان**، التي كان يضطلع فيها بإعداد عمود شهري عنوانه "للتاريخ إضاءة". جاء هذا القسم مشتملًا على تسعة وعشرين فصلًا موزعة على موضوعات تهم التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والدبلوماسي والأدبي ... إلخ.

---

1 Marc Bloch, *Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien*, Edition critique préparée par Etienne Bloch (Paris: Armand Colin, 1993), p. 69.

2 Marc Bloch, *L'étrange défaite: Témoignage écrit en 1940* (Paris :Gallimard, 1990).

في هذه القراءة سوف نحاول أن نكشف عن الرهانات التي تحكمت في تأليف هذا الكتاب والدواعي التي تفسر الحاجة، اليوم، إلى إعادة تعريف الصنعة التاريخية وطرح السؤال التأسيسي: ما جدوى التاريخ؟ من جديد. ولما كان هذا دافعنا من إنجاز هذه القراءة، فقد جعلناها في تمهيد وثلاثة محاور ثم خلاصة، في الآتي.

تمهيد: حديث في التاريخ

دأب المؤرخون في كتابة التاريخ وتلقينه، فكان عليهم أن يفتشوا في عدد كبير من الوثائق من مختلف الحقب، ويحرصوا على التمييز فيها بين السند الصحيح والسند الخاطئ، فقد تعارف أهل الصنعة من المؤرخين الأُوَل على أن مهمتهم تتمثل، أولًا وقبل كل شيء، في تحقيق الخبر، والظفر منه بالحكم والعبر.

لكن شتّان بين كتابة التاريخ والكتابة عن التاريخ أو في التاريخ؛ فبينهما فرق شاسع هو الفرق نفسه الموجود بين التاريخ والمعرفة التاريخية. وليس من باب التخصص أن يهتم المؤرخ بالمعرفة التاريخية، بل إنه لا يهتمّ بها إلا إذا نال الشكُّ الأسسَ التي تقوم عليها الصنعة التاريخية نفسها، فيصير لزامًا عليه أن ينظر في شروط إمكان المعرفة التاريخية ومصادر مشروعيتها، وهذا كان موضوع كتاب **الصحافة والتاريخ** الذي نتناوله بالقراءة. فالمؤلف يرجع بنا، مهتديًا برواد مدرسة الحوليات، وفي طليعتهم مارك بلوك، إلى السؤال الأول: ما جدوى التاريخ؟

فكأن المؤرخ صاحب الكتاب قد شعر بوهنٍ ما قد نال من صنعة المؤرخين، فانبرى إلى إعادة الاعتبار إلى الصنعة لافتًا انتباه المؤرخين إلى أن "داء العطب عميق".

أولًا: جدوى سؤال الجدوى

ما جدوى أن يطرح بياض، اليوم، سؤال جدوى التاريخ، إذا كان بلوك قد طرح السؤال دفاعًا عن التاريخ وحرفة المؤرخ، بعد هزيمة مدوية لفرنسا أمام غريمها الألماني، وصفها بالهزيمة الغريبة، فما الظروف التي آلت بالمؤلف إلى أن يسير على هوى بلوك ويطرح سؤال جدوى التاريخ؟

قبل أن نتصدى للجواب عن هذا السؤال، يتعين علينا، أولًا، أن نفهم وجه الغرابة في هزيمة فرنسا، وأن نفهم، بعد ذلك، لماذا ينصرف مؤرخ إلى الانهمام، في غمرة الهزيمة، بسؤال في إبستيمولوجيا الصنعة التاريخية؟ أليس في الأمر ترف زائد عن الحد المعقول أم هو وفاء غريب للصنعة يفرض علينا الوقوف على الأمر وقفة جادة؟

ليست فرنسا هي المعنيّ الوحيد بالهزيمة، في نظر بلوك، بل الحضارة الغربية برمتها. وهو بهذا الموقف إنما يريد أن يثير الانتباه إلى أن هزيمة فرنسا لم تكن هزيمة عسكرية فحسب، ولا حتى هزيمة قيادة، وإن كان قد توقف مليًا عند هذا البعد الثاني للهزيمة، بل هي هزيمة فكرية[3]، اندحرت فيها أوروبا المستقبل أمام أوروبا الماضي، أو قل أوروبا القيم الكونية أمام أوروبا العرق. ولعل ما يضفي على الهزيمة غرابةً ويزيد الغرابةَ حدةً، تجَذُّر فكرة التقدم في العقلانية الغربية حتى صارت من بداهاتها؛ فصار التاريخ بها مسيرة تتجه نحو المستقبل بثبات، مخلفة وراءها كل مظاهر التوحش والبدائية والتعصب.

3 Ibid., p. 66.

في غمرة الهزيمة الغريبة، انهمك مارك بلوك في إعادة تعريف حرفة المؤرخ؛ كيف لا وقد صار مقتنعًا بأن الهزيمة كانت فكرية أكثر من أي شيء آخر، وأن ما يجب إصلاحه فعلًا هو طريقتنا في التفكير ومعالجة الأشياء، ولا سيما أن المتقدمين من أهل الصنعة التاريخية يجمعون على أن التاريخ هو العلم الذي يدرس الماضي؛ ويا له من أمر سخيف أن يكون الماضي في حد ذاته موضوعًا للعلم[4].

يطرح بلوك سؤال جدوى التاريخ على لسان ابنه[5]؛ وهو بهذا يريد أن يقول إن موضوع التاريخ ليس هو الماضي، وإلا فإن الملائم، والحال كذلك، أن يأتي السؤال على لسان الجد لا على لسان الابن. أما جواب المؤرخ فسيكون عندئذٍ واضحًا لا غبار عليه: التاريخ هو الماضي والذاكرة، إنه الميدان حيث يحفظ مجد الأسلاف، وصلة الوصل التي تجعلهم حاضرين بيننا ويحيون فينا باستمرار. من سوف يعترض من أسلافنا على فائدة التاريخ وجدواه، فهو يوضب لهم موتًا كريمًا، ويقيم لهم جنازة لائقة، ولا خوفٌ عليهم، حتى إن نال منهم الأعداء فانهزموا، فإن للتاريخ سحرًا يحوّل غبن الهزائم النكراء إلى اعتزاز بأمجاد سلف يشفع لهم، عند الهزيمة، أنهم قاتلوا حتى النهاية من دون استسلام.

يبدو أن التاريخ متهم بالضلوع في الهزيمة، وأن علماء الاجتماع لا يجانبون الصواب كثيرًا عندما ينعتون المؤرخين وصمًا بالقبيلة؛ فالقبيلة تحيل إلى القديم والتقليدي، وإلى الانغلاق والعصبية باعتبارها رابطًا اجتماعيًا يؤول إلى تعزيز الروابط الداخلية وتمتينها في مقابل العزوف عن الانفتاح وتبخيس العلاقات الخارجية. نعم - يقول لسان حال "قبيلة المؤرخين" - نحن لم نحرز أي تقدم يذكر، لكنّ عزاءنا أننا حافظنا على أصالتنا وطهرانيتنا من المدنس الذي يتربص بها عند كل تجديد. على هذا النحو، يبدو المؤرخ لعلماء الاجتماع. وفي هذه السحنة يتراءى من اختار الماضي عنوانًا لعلمه لمن اعتبروا العلم في جوهره استباقًا Une anticipation ووثبة في اتجاه المستقبل.

يظهر، إذًا، أن الهزيمة وطبيعة الصنعة شيءٌ واحدٌ، وأن المؤرخ التقليدي متورط في الهزيمة، وسيظل التاريخ، ما لم يجدد آليات العمل، عاملًا مساهمًا في تبرير الهزيمة، ومن ثمّ تكريسها. كيف نعيد الاعتبار إلى التاريخ؟ وما هي صنعة المؤرخ المجدد؟ هذا ما انبرى إلى الجواب عنه بلوك، وهو نفسه ما حدا ببياض إلى مساءلة حرفة المؤرخ. فما الظروف التي دعت بياض إلى أن يكتب بنفَس بلوك وروحه؟

ثانيًا: في الحاجة إلى نفَس مارك بلوك وروح الحوليات

عاش بياض انهيار المعسكر الشرقي وسقوط جدار برلين، ولعمري إن هذا الزلزال وحده كافٍ ليدفع به إلى إعادة طرح السؤال حول التاريخ وجدواه، لولا أنه كان حينئذٍ طالبًا يتحسس طريقه نحو التاريخ ببطء لكن بثبات. ولن أكون مجانبًا الصواب كثيرًا أو مجحفًا في الحكم على أول إصدار له، وهو كتاب **المخزن والضريبة والاستعمار**[6]، إن اعتبرته مغالبة للسقوط وإصرارًا على المواجهة حتى النهاية؛ فبياض، في نهاية المطاف، أراد أن يقول لنا إن طريقة المتقدمين في تقسيم الأزمنة سطحية، وإن المحدد الأعمق في تقييم الأحداث والأخبار هو الزمن الاقتصادي ومحطاته البارزة. بل ليس عبثًا أن يكون أول ظهور لبياض مؤرخًا في حلة صحافية في مجلة **زمان** في نسختها العربية منتصف تشرين الأول/ أكتوبر 2013 بمقال، ضمن عمود "للتاريخ إضاءة"، عنوانه "الاقتصاد والسيادة" (ص 66).

لم يفت بياض في إحدى إضاءاته أن شابك في دروس شهر واحد، هو شهر حزيران/ يونيو، بين ذكرى الانتفاضة الشعبية التي شهدتها الدار البيضاء عام 1981 وذكرى هزيمة 1967 (ص 121). وإن دلَّ هذا على شيء، فإنما يدل على أن الانهيارات المتتالية التي عاشتها القومية العربية، والمصير الذي آل إليه النظام الإقليمي العربي قد تركا في نفس بياض جرحًا غائرًا، سرعان ما سيتحول تدريجيًا إلى وعي إبستيمولوجي بضرورة مساءلة الأداة بدل الاقتصار على فحص الموضوع.

4 Bloch, *Apologie*, p. 81.

5 Ibid., p. 69.

6 الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار، ضريبة الترتيب 1880-1915** (الدار البيضاء: إفريقية الشرق، 2011).

لكن الحدث الحاسم، الذي عزز الشعور بالاستغراب، ودفع بياض إلى مساءلة الصنعة إلى جانب فحص الموضوع، كان هو أحداث "الربيع العربي" الذي تحول بسرعة إلى خريف آخر يُضاف إلى فصول الإحباطات والانكسارات التي عاشتها الشعوب العربية والمغاربية. ولعل الدور الحاسم لهذا الحدث في توجيه بياض، إنما يعود إلى كونه اقترن بنضج الباحث وبلوغه سنًا اكتسب عوده فيها صلابةً أشدّ، وصارت في حوزته أدوات تحليل قادرة على تهذيب الرؤية وصقل المنهج. لقد دفعت الرغبة في فهم أسباب الانزياح بالمؤلف إلى إزاحة التاريخ عن كنهياته الكلاسيكية وضمنها الوطن، والاهتمام بالهوية والحركات الاحتجاجية وجماعات فرعية أخرى تعيش الحدث الوطني الواحد بمعانٍ مختلفة، بل قد تكون متناقضة.

إذا كان مارك بلوك قد دعا إلى إعادة تعريف التاريخ وتجديد حرفة المؤرخ تحت ضغط الأسئلة التي حملتها معها الحرب العالمية الثانية، وهي أسئلة عمقت ريبتنا تجاه مفاهيم كانت قد صارت جزءًا لا يتجزأ من معهودنا المعرفي والسياسي، مثل مفاهيم التقدم والكونية والوطن، فإننا، اليوم، في حاجة ماسة إلى روح بلوك ونفَسه لإعادة صوغ حرفة المؤرخ وبنائها تحت ضغط الحروب الجديدة، التي حملتها معها العولمة وثورة الإعلام والاتصال. فلقد صارت التكنولوجيا تحل أكثر فأكثر محل الإنسان، وصار المعنى يتشظى أكثر فأكثر أمام انفجار وحدات أو كنهيات مفهومية كبرى كالوطن والأمة والمجتمع، وظهرت مصادر جديدة ومتعددة لإنتاج المعنى مثل الهويات الأساسية والثقافات الفرعية والمذاهب الدينية.

ثالثًا: الخلفيات المنهجية لعمود: "للتاريخ إضاءة"

بعزم وثبات، يحاور بياض كل هذا التفتيت الذي تحدثه العولمة دونما ارتباك، لكنه في الوقت نفسه لا يستسلم لمفاعيل العولمة وإغراءاتها، فعلى الضد من كل توجه تكنوقراطي يحول المؤرخ إلى خبير يستشار في خبرته ويستفاد منها، أصر بياض على التزام المساءلة الإشكالية للحدث، ولم يكتف بالتحقيق في مدى صحته أو بطلانه فحسب؛ وذلك وفق شروط مبدعة تسمح بتوطين الظرفية داخل البنية، أي داخل حقل إشكالي - زمني أعمّ؛ وتلك كانت في **زمان**، "للتاريخ إضاءة" (ص 60).

نحتاج، إذًا، إلى مؤرخ بنفَس مؤسس مدرسة الحوليات وروحه، ينقل التاريخ من معايير التضلع إلى شروط المدة الطويلة، حتى لا نتيه في زمن تشظي المعاني وتشتتها. ولعلها مهمة المؤرخ الأولى والرئيسة في زمن العولمة الذي بالكاد نجد فيه شيئًا يجمعنا، ويستحق تضحيتنا كيما يبقى مستمرًا ومتواصلًا. إنه القلق نفسه الذي راود بلوك وهو يعبر عن وجله من ألّا يتبقى للفرنسيين شيء يستحق أن يريقوا دماءهم من أجله[7]. فعلى ما يبدو، إن عبارة هتلر الشهيرة "ليس للديمقراطيين قضية يقاتلون من أجلها" كانت تقض مضجع بلوك وتمزق أحشاءه، تمامًا كما كانت وضعية الهزيمة تمزق فرنسا برمتها.

لقد وضع انهزام الفرنسيين أمام النازيين فرنسا بين مطرقة اليمين (عودة التعصب الديني وتثمين قيم الماضي) وسندان المغامرة الشيوعية (الوعي الطبقي بديلًا من الوعي الوطني). وفي عز هذا التمزق الوجداني، الذي مارس جبروته على العقول والأذهان ملزمًا إياها بالتموقع والاصطفاف، ظل بلوك وفيًا لحرفته، واختار أن يفارق الحياة مدافعًا عن التاريخ وعن حرفة المؤرخ. ولعمري إن هذه المفارقة وحدها كافية لفتح سجل التجديد في ممارسة المؤرخ صنعته.

لكن، أي تجديد هذا الذي يتحدث عنه بياض؟ فنحن لا نعيش اليوم هزيمة وطن، بل ليس هناك ما يدعو إلى الخوف على الأوطان في زمن لم يعد يسمح لنا، أصلًا، بأن نتصورها بمعزل عن انفتاح بعضها على بعض، وقدرتها على الاندماج في اتحادات إقليمية وجهوية عامة. فلم يعد في إمكاننا اليوم أن نفهم شيئًا عن السياسات الدولية والرهانات الجيوستراتيجية بالرجوع إلى تحليل ينطلق من

7 Bloch, *L'étrange défaite*, p. 207.



وجود صراعات مفتوحة بين أوطان متنافسة ومستقل بعضها عن بعض، ولا تجد سبيلًا إلى تعزيز حظوظها في المنافسة إلا بتمتين الجبهة الداخلية ومواجهة كل المؤامرات التي قد تحاك ضدها من الخارج.

إن انخراط أوطان في اتحادات إقليمية شاسعة، كالاتحاد الأوروبي مثلًا، أو مصادقتها على اتفاقيات دولية والتزام مقتضياتها، يجعل من المركزية الوطنية مسألة غير مبررة، ومن المرونة في تدبير الخصوصيات المحلية والهويات الفرعية داخل البلد الواحد مسألة حيوية لاستمرار أي وطن مهما كانت درجة قوة معاييره الجمعية وانصهار مكوناته الفرعية.

التاريخ المجدد في زمن العولمة وحرب الثقافات غير المثقفة هو التاريخ الذي ينجح في قطع الحبل السري الذي ظل يشده، ردحًا من الزمن، إلى التاريخ الدبلوماسي؛ تاريخ الأمة التي تتماهى، بالطبع، مع الدولة، والذي يسهر على الحفاظ على الذاكرة حية إزاء أمجاد الوطن. ولكم يصعب أن يحقق التاريخ هذا التجديد، وهو العلم الذي يمكن أن نطلق عليه، أكثر من غيره من العلوم الإنسانية، لقب علم الوطن أو علم الأمة بامتياز.

وإذا كان علم الوطن يقضي بأن نلتزم قواعد "الوطنية المنهجية" Le nationalisme méthodologique فننطلق في التحليل من الكل إلى الجزء ومن أعلى إلى أسفل، فإن على المؤرخ المجدد، اليوم، أن يقلب الإستراتيجية رأسًا على عقب، فيبدأ من الجزء إلى الكل ومن أسفل إلى أعلى. سوف يكون على المؤرخ، وهو مع عالم الاجتماع في هذا الأمر سيان، أن يمارس التاريخ من أسفل Une histoire d'en bas وفي الوقت نفسه أن يحتفظ بالرغبة في التفسير وبَنْيَنَة الحدث متقدة.

لكن ممارسة التاريخ من أسفل لا تعني كتابة تاريخ مفتت إلى وحدات صغرى، بل تاريخ يستطيع أن يستنطق الأحداث المتفرقة ويُقَوِّل الوثيقة بفضل وصف حياة الناس وعوالمهم المعيشة وصفًا مكثفًا. هكذا تضاف الملاحظة إلى الوثيقة ليشكلا معًا عدة مؤرخ مقتنع قناعة مارك بلوك، الذي أخذها بدوره عن أستاذه بيرين Pirenne Henri بأن الواجب الأول الذي يتعين على المؤرخ أن يضطلع به هو الاهتمام بالحياة. ولعل هذا ما حدا بمارك بلوك أن يستدرك وهو يحول موضوع التاريخ من دراسة الماضي إلى دراسة الإنسان بقوله: "لقد تعلمنا منذ زمن طويل على يد شيوخنا أمثال ميشلي وفوستيل دي كولانج أن موضوع التاريخ هو الإنسان (L'Homme) أو بالأحرى الناس (Les Hommes) في الزمن"[8].

يبدو أن بياض قد أدرك في العمق الطابع الإشكالي لهذا التجديد في حرفة المؤرخ. بل قد عاش الإشكالية وهو يحتك بدور الصحافي ويزاول هذه الحرفة. فقد جعلته الصحافة يفاوض باستمرار معنى الأحداث من خلال بَنْيَنَة الظرفيات Structurer les conjonctures؛ فلا هو فرط في مادة الحدث، التي تسمه بميسم الفرادة، ولا هو فرط في صورة الحدث، التي تجعله قابلًا للفهم والإدراك العقلي. فكان القالب الجميل في **زمان** صفحة ازدانت جمالًا بحبكة النص وبلاغة الأسلوب عنوانها "للتاريخ إضاءة".

إن المؤرخ المجدد هو الذي ينتبه إلى عبارات تبدو في منطق الحياة اليومية تافهة لا قيمة لها، بينما هي في الواقع تكثف في صيغتها ومضمونها قاعدةً تفسيريةً عامةً. وفي ما يلي نموذج لهذا التنبه والحذر المنهجيين في ما حكاه بلوك عن علاقته بأحد الضباط الشباب على الجبهة العسكرية: "قال لي أحد الضباط الشباب: لقد علمتني هذه الحرب أشياء عديدة، هذا واحد منها: يوجد من الجنود من لن يصير محاربًا أبدًا، وهناك من المدنيين من وجدوا محاربين بالسليقة"[9]. قد تبدو هذه العبارة تافهة بالنسبة إلى كثيرين، يقول بلوك مسترسلًا: "أما بالنسبة إلي فلا أعتقد أنها مجانبة للصواب تمامًا، لا فيما يخصني أنا شخصيًا، ولا في تطبيقاتها العامة"[10].

8 Bloch, *Apologie*, pp. 83 - 84.

9 Bloch, *L'étrange défaite*, p. 33.

10 Ibid.



هي ثورة من أجل التجديد، تلك التي يدعو إليها بياض على إيقاع بلوك ورواد مدرسة الحوليات، وهي تشبه، إلى حد ما، ثورة فيزياء الكم La physique quantique: فعندما نتمكن من فهم منطق الأشياء المجهرية والدقيقة، نتمكن من إعادة صياغة التاريخ العام وكتابته. وهذا الأمر يدعونا إلى اعتماد إستراتيجية جديدة في فهمنا العلاقة بين الجزء والكل؛ فتَميز الجزء لا يعني وجود استثناء لا تقدر القاعدة على استيعابه، بل حالة تكثيف للقاعدة وتركيز شديد لها، جعلها تبدو على غير ما هي عليه. فبينما تخبو حدة القاعدة وتتلاشى في العامّ والكوني، تتركز في الخاصّ والمحلي وتتضاعف كثافتها. وما يتبقى للمؤرخ أن يفعله، كما لعالم الاجتماع ذي الهوى الفينومينولوجي، هو أن يجعل انتقاله، جيئةً وذهابًا، بين الكثيف المركز والنحيف المتلاشي واضحًا وصريحًا وقابلًا لإعادة الإنتاج من طرف شخص متوسط الذكاء؛ وهذا يدعى في العلم "إيضاح الطريقة" Expliciter la démarche. وفي "بقايا صور" يبدع الطبيب بياض في تنقله ذهابًا وإيابًا بين الحدث الفريد والمعنى العام، فتستحيل الصورة عنوانًا لزيف العناوين الكثيرة التي ينتجها عالم وضع نفسه تحت عنوان كتب بالبنط العريض: "العالم الحر" (ص 132).

خلاصة

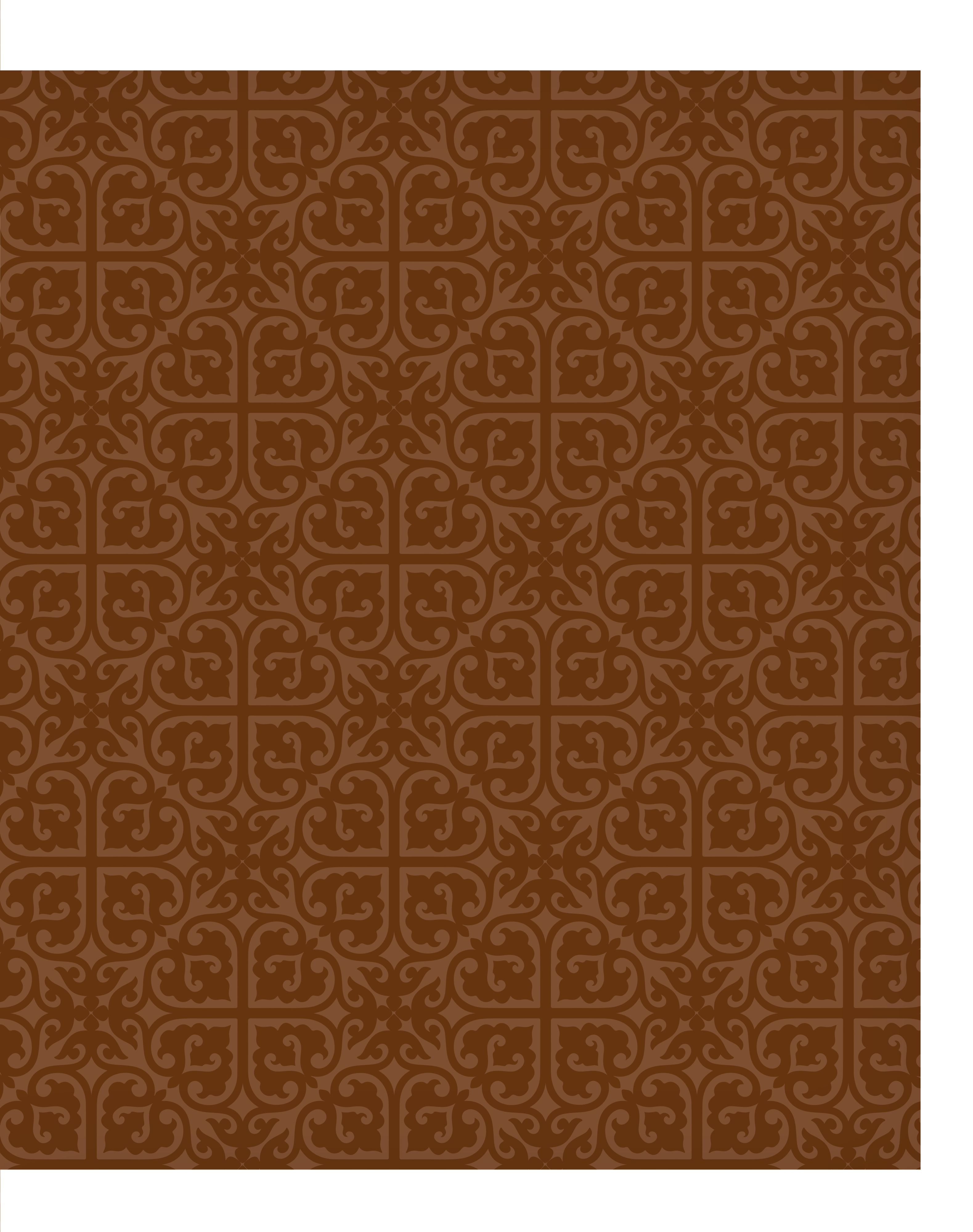
مثّل المرجع الذي نعود إليه في التحقيب محور نقاشات طويلة بين المؤرخين، لكن سيادة المنظور الوضعاني في معالجة هذه القضية أضفى على الحقب والمراحل والفترات التاريخية طابعًا واقعيًا. إن أول تجديد يدعو إليه بياض هو التحقيب بحسب الإشكالية. فالحقبة لا تنحل إلى مجموعة من الأحداث المتشابهة والمتجانسة، بل إلى مشكلة عامة وأسلوب استدلال في التعامل مع الأشياء ميز مرحلة زمنية ما. بهذا المعنى يتحول التاريخ من وعاء يشتمل على أشياء إلى بناء يحتمل معاني ويحمل دلالات. الوثيقة في المعنى الأول للتاريخ تَقول وفي المعنى الثاني للتاريخ تُقَوَّل. فهل آن الأوان، بعد كتاب **الصحافة والتاريخ**، لإعلان ميلاد تاريخ تأويلي ينشغل فيه المؤرخ بالمعنى ولا يقتصر على التحقيق؟ وهل ستكون مناسبة أخرى لحوار جديد ومجدد بين المؤرخ والإثنولوجي، بعدما نجح بياض في استخلاص ما ينبغي استخلاصه من حوار المؤرخ والصحافي؟





وثائق ونصوص

Primary Sources



سلوى الزاهري | Salwa al-Zahiri*

أربع رسائل دفينة حول "بيت المغرب بالقاهرة"

Four buried letters on Bayt al-Maghrib in Cairo

يُعتبر "بيت المغرب بالقاهرة" أول مؤسسة رسمية ثقافية مغربية منظمة خارجية في تاريخ المغرب الحديث، ويُدرج تأسيسه ضمن سياسة إرسال البعثات العلمية إلى الخارج التي دشّنها السلطان مولاي الحسن في نهاية القرن التاسع عشر. وساعدت الدولة الإسبانية الحامية على تأسيس هذا البيت؛ بسبب حاجتها إلى دعم الدول العربية وفك العُزلة عنها. بيد أن هذا البيت سيتحول إلى بؤرة لتأجيج الوعي الوطني لثلة من الطلبة المغاربة الذين سيكون لهم دور في الحركة الوطنية لاحقًا. وتُسلّط وثائق أرشيف "باريلا" الضوء على أهمية هذا البيت وطرائق تمويله، وأهداف إسبانيا من دعمه، كما تبرز عمل جواسيسها في تتبع تحركات الطلبة المغاربة هناك، من خلال تدبيج تقارير عن أدق تحركاتهم وميولاتهم واتصالاتهم بالشخصيات المصرية وغيرها، كما تُخبرنا هذه التقارير عما كان يعانيه هؤلاء الطلبة المغاربة جراء سوء تدبير هذه المؤسسة.

كلمات مفتاحية: بيت المغرب، البعثات التعليمية، السلطان مولاي الحسن، مصر.

Cairo's Bayt al-Maghrib is considered the first official organized Moroccan cultural organization outside the country in its modern history. It was founded as part of a policy of sending academic delegations abroad inaugurated by Sultan Moulay Hasan at the end of the nineteenth century. Spain – of which Morocco was then a protectorate – assisted in its founding because of its need to support and end the isolation of Arab states. However, Bayt al-Maghrib was to transform into a wellspring of nationalist agitation led by a group of Moroccan students who would later play a part in the national movement. Documents from the Barilla archive shed light on the importance of this institution, how it was funded, and the aims that lay behind its founding, as well as the Spanish spies who kept watch over Moroccan students' activities there, providing detailed reports of their movements, inclinations, and contacts with Egyptian and non-Egyptian personalities. These reports also give indications of the poor administration of the organization and the difficulties this caused for Moroccan students.

Keywords: Bayt al-Maghrib, Student delegations, Sultan Moulay Hasan, Egypt.

* المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، جهة طنجة-تطوان-الحسيمة، فرع تطوان.
Regional Center for Education and Training, Tangier-Tetouane.

مقدمة

لا يزال موضوع البعثات التعليمية التي أوفدها المغرب في العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين للدراسة في المشرق العربي، في حاجة إلى دراسة؛ إذ على الرغم من أهمية هذه البعثات وما تمخّض عنها من نتائج في الميادين المختلفة، وعلى رأسها إيقاظ الوعي الوطني، فإنها لم تنل ما تستحقه من اهتمام الباحثين[1]. وقد يعثر الباحث على إشارات أو فقرات في بعض الدراسات المتعلقة بالحركة الوطنية المغربية عمومًا، لكننا نفتقر في وقتنا الراهن إلى دراسة متخصصة في هذا الموضوع الذي نعتبره شديد الارتباط بتاريخ الحركة الوطنية المغربية[2]. ومثّلت هذه البعثات نواة الحركة الفكرية والسياسية الوطنية لدى عودتها إلى موطنها، فمنها من ولج ميدان التربية والتعليم، ومنها من دخل حقل السياسة. والفئة الأولى ستأخذ على عاتقها مهمة النهوض بالتربية والتعليم، مُكمّلة بذلك عمل الفئة الثانية في ميدان المطالبة بالإصلاح الاجتماعي والسياسي[3]. وقد لا نبالغ إن اعتبرنا أن دراسة البعثات الطالبية إلى المشرق العربي في عهد الحماية هي عملية ضرورية إن نحن أردنا معرفة مسار قادة العمل الوطني الإصلاحي. كما من شأن دراسة هذا الموضوع أن تُجلي جوانب غامضة من الحياة الثقافية والتعليمية والسياسية من تاريخ المغرب، إضافة إلى أنها تُلقي أضواء على العلاقات المغربية - المشرقية في النصف الأول من القرن العشرين.

إذا كانت قرائن تاريخية عدة تؤكد ارتباط قضية التربية والتعليم ارتباطًا وثيقًا، منذ وقت مبكر، بالعمل السياسي عند رجال الحركة الوطنية في تطوان، فيمكن اعتبار عام 1928 تاريخًا ذا دلالة في مسيرة الحركة الثقافية والوطنية في شمال المغرب، حيث تمّت أول خطوة في طريق الانفتاح الثقافي والسياسي بطريقة فعلية على المشرق العربي بإرسال أول بعثة طالبية من تلامذة المدرسة الأهلية في تطوان لمتابعة دراستهم في مدرسة النجاح في نابلس[4].

كان نجاح الحركة التي قادها الجنرال الإسباني فرانكو في عام 1936 قد دفعها إلى التقرب من الحركة الوطنية لأسباب لا يتّسع المجال لذكرها هنا. وبادرت إسبانيا إلى إعطاء المغاربة مزيدًا من الحرية السياسية والتعليمية، خصوصًا في عهد المقيم العام الإسباني بِگْبيدير Beigbeder الذي استجاب لبعض مطالب الحركة الوطنية كي يضمن لـفرانكو المزيد من الدعم والتأييد والهدوء، ومن تلك الامتيازات، تسهيل إرسال البعثات الطالبية إلى مصر.

بالفعل، تمّ إيفاد بعثتين: الأولى إلى مصر في عام 1938، بلغ عدد أفرادها 41 طالبًا، وحملت اسم "البعثة الحسنية" نسبة إلى مولاي الحسن، خليفة السلطان في المنطقة الخليفية، كما سُمّيت "بعثة المعهد الخليفي"، و"بعثة بيت المغرب في القاهرة"، وكانت تحت إشراف

---

1 الدراسة الوحيدة التي خصصت لهذا الموضوع – بحسب علمنا - هي التي أعدّتها الباحثتان الإسبانيتان: إريني غونزاليس وباربارا أزاولا، لكنهما لم تتخلّصا من الطابع التمجيدي للحماية الإسبانية بالمغرب، انظر:

Irene Gonzalez Gonzalez & Bárbara Azaola Piazza, "Becarios marroquíes en El Cairo (1937-1956): Una visión de la política cultural del Protectorado español en Marruecos," *Awraq,* vol. XXV (2008), pp. 159 - 182.

2 نشير مع ذلك إلى الدراستين القيمتين عن الموضوع نفسه، لجاك كان وامحمد بن عبود، انظر:

Jacques Cagne, "Un exemple de mission estudiantine en Orient dans les années trente: Des lycéens tétouanais à Naplouse, " in : *Titwan fi 'Ahd Al-Himaya 1912 - 1956* (Rabat: Okad, 1992).

مجموعة مؤلفين. **تطوان في عهد الحماية، 1912-1956: [أعمال ندوة نظمتها مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بكلية الآداب بتطوان]**، (الرباط: مطابع عكاظ، 1992).

M'hammad Benaboud, "Les Missions culturelles de Tétouan au Moyen Orient: la mission à Naplouse (1928-1931) el les missions au Caire (1938)," in: Collectif, *Elites et pouvoir dans le monde arabe pendant la période moderne et contemporaine* (Tunis: C.E.R.E. S, 1992), p. 62.

3 عبد العزيز السعود، "مسألة التربية والتعليم عند الحركة الوطنية في الشمال"، في: محمد داود، **الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية** (الرباط: اتحاد كتّاب المغرب، 1990)، ص 32؛ محمد العبوتي، "الجهود الإصلاحية للوطنيين في شمال المغرب خلال ثلاثينيات القرن العشرين"، مجلة **المناهل**، عدد 93-94 (تشرين الثاني/ نوفمبر 2012)، ص 98.

4 انظر: عبد العزيز السعود، **الاستعمار الإسباني في المغرب: المقاومة المسلحة والنضال الإصلاحي والسياسي الوطني**، ج 2 (تطوان: منشورات مؤسسة الشهيد امحمد بن عبود، 2017)، ص 35-36

الشيخ المكّي الناصري، زعيم حزب "الوحدة المغربية"؛ والبعثة الثانية إلى إسبانيا، وكانت صغيرة وتابعة إلى المعهد الحر، وهو مؤسسة تعليمية كانت تحت وصاية حزب الإصلاح الوطني بزعامة عبد الخالق الطريس، ولم يكن عدد أفرادها يتجاوز التسعة.

البعثة التي تُهمّنا في الدرجة الأولى هي بعثة معهد مولاي الحسن بن المهدي، لأنها ستؤدي إلى إنشاء "بيت المغرب بالقاهرة"، باعتباره أول مؤسسة رسمية ثقافية مغربية منظمة خارجية، في تاريخ المغرب الحديث، تموّله إسبانيا، ويُعيّن مديره بظهير خليفي. وأضفى هذا الأمر على البعثة طابعًا رسميًا مكّنها من اكتساب صدقية لدى البلد المضيف (مصر).

التدشين الرسمي لـ "بيت المغرب"

من الإنجازات المهمة التي واكبت البعثة الحسنية في مصر وكانت ثمرة من ثمارها، إنشاء مؤسسة "بيت المغرب" الذي يُعدّ أهم وأضخم مؤسسة شهدتها فترة النضال المغربي في الخارج، والذي دُشّن في 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1938، وتولّى إدارته محمد اليمني الناصري، شقيق الشيخ محمد المكّي الناصري.

كان بيت المغرب "أول بيت للطلبة أنشئ لدولةٍ إسلامية غير مصرية في مصر"؛ إذ حذَتْ الدول العربية حذوه، فأُسِّست على غراره بيوت لدول عربية تضم كثيرًا من طلبة الأقطار العربية والشرقية؛ فهناك بيتان للسودان، وبيت لكل من الحجاز والعراق وسورية ولبنان وإندونيسيا، وغيرها. وكان بيت المغرب بين هذه البيوت، يحتفظ بمركزه الأدبي، لأنه أول بيت من نوعه وجد في مصر[5].

دُشّن بيت المغرب بحضور عدد من الشخصيات، وصادف تدشينه حدث مهم، هو عقد مؤتمر "اتحاد البرلمانات العربية حول فلسطين" - وذلك قبل تأسيس جامعة الدول العربية - فكانت فرصة لدعوة كبار المشاركين فيه، من مصريين وعرب، لحضور حفل افتتاحه الذي حضره أيضًا جمهور غفير، من علية الشخصيات الحكومية والمدنية، وفطاحل العلماء والأدباء والشعراء، ومن بينهم: شيخ الأزهر الشريف ووزير المعارف المصرية ورئيس الديوان الملكي ورئيس البرلمان المصري ورئيس البرلمان العراقي وعدد من الشخصيات الجامعية المصرية، منهم أحمد أمين (مدير المكتب المغربي للتبادل الثقافي) وغيرهم، إضافة إلى مديره العام (الشيخ المكي الناصري)، والمدير المقيم اليمني الناصري وطاقم البعثة الحسنية، "بعثة بيت المغرب".

- أُنشئت مؤسسة بيت المغرب لتحقيق ثلاثة أهداف:
- أن يكون مكتبًا للتبادل الثقافي بين مصر والمغرب.
- أن يكون مقرًّا للبعثة المغربية.
- أن يكون معرضًا للفن المغربي.

1. مكتب التبادل الثقافي بين مصر والمغرب

أنشئ لتوطيد جميع العلاقات الثقافية والروحية بين المصريين والمغاربة. وفتح أبوابه بعد ثلاثة أسابيع على تدشين بيت المغرب. وكان قد دشّنه محمد العشماوي باي، وعُيّن أحمد أمين رئيسًا له. وكان المكتب يقع في وسط القاهرة في الطابق الأول من رقم 2 من ساحة الأوبرا. كانت لوحة كبيرة معلقة على شرفته مكتوب عليها بالعربية: "بيت المغرب" وتحتها "مركز التبادل الثقافي". وكانت صاريتان تحيطان بالشرفة، ترفع عليهما في الأعياد رايتا مصر والمغرب. وكانت راية المغرب الخليفي حمراء من دون النجمة الخماسية الخضراء. كانت الشقة تحتوي على مدخل فسيح، وقاعة استقبال كبيرة، وثلاثة مكاتب ومكتبة.

5 "رسالة محمد بن تاويت الطنجي"، أرشيف باريلا، ملف 136-1 (انظر نص الرسالة في الملحق).

حدد الفصل السادس من الظهير المحدث لبيت المغرب مهمات مكتب التبادل الثقافي ووظيفته في "اتخاذ التدابير المناسبة لاختيار الأساتذة المتخصصين في التعليم وانتدابهم للتدريس في مدارس المنطقة الخليفية ومعاهدها الثقافية، واستدعاء علماء محاضرين لإلقاء محاضرات نفيسة في المواد التي تخصصوا فيها، واقتناء كل الكتب والمراجع الضرورية لمعاهد المنطقة وخزائنها العامة، واستنساخ أو تصوير كل ما يمكن استنساخه أو تصويره من المخطوطات المفيدة للثقافة المغربية المحفوظة بدور الكتب والخزائن المصرية، وإشراك علماء مصر ومفكريها بقدر الإمكان في جميع أنواع النشاط الفكري والثقافي التي على معهدنا الخليفي أن يقوم بها، وتنظيم رحلات تعارف وإخاء، خصوصًا في الأوساط الجامعية ومن بين الأساتذة والطلبة، وطبع النشرات والكتب القيمة التي يقتضي النظر طبعها مع تصحيحها والتعليق عليها، وتعريب الكتب الأجنبية التي تكون مفيدة للنهضة المغربية مع نشرها بعد تعريبها، والدعاية الواسعة للحضارة المغربية والفن المغربي، والتعريف ببدائع هذه المنطقة ومزاياها الطبيعية في جميع الأوساط الثقافية بمصر والشرق؛ وبالإجمال تنحصر مهمة المكلف بهذا المكتب في القيام بكل ما يساعد على توثيق العلاقات الثقافية والروحية بين الأمة المصرية النبيلة وأمّتنا العزيزة"[6].

كانت المحاضرات المقدمة في المركز تدور حول الدين والتاريخ والجغرافيا والحقوق، وكان الحضور يراوح بين 200 و250 شخصًا، غالبيتهم من طلبة شمال إفريقية الذين يصحبون معهم أصدقاءهم من المصريين. كانت الدعوات تُوجّه إلى أعيان القاهرة، لكن عمومًا لم يستجيبوا لها. وكان بعض الأساتذة يحضرون المحاضرات. وفي بعض الاجتماعات المهمة كان يحضر وزير أو زعيم للوحدة العربية[7].

كان أحمد أمين هو المكلّف بتنظيم المحاضرات. ولهذا الأمر خُصّص له مرتب شهري قدره خمسون جنيهًا مصريًا، ويساعده ثلاثة كتّاب، يتقاضى كل واحد منهم عشرين جنيهًا مصريًا.

توجّه بالفعل عدد من الأساتذة المصريين للتدريس في معاهد تطوان. وقبل عودته إلى المغرب الإسباني، سعى محمد الناصري للحصول على بعث ستة أساتذة مصريين إلى معهد مولاي الحسن. وحصل في نهاية الأمر على التراخيص الضرورية، وسافر بهم إلى تطوان في 14 كانون الثاني/ يناير 1939، وهم يونس مهران (المُجاز في التاريخ الإسلامي) ومحمد وهبي (سكرتير مكتبة "بيت الفن العربي") وحسين الأبياري (أستاذ المدرسة العليا بالقاهرة) وحسين أمين إبراهيم (مُجاز في الرسم) وحافظ متولي (مُجاز في التربية البدنية)، واستقبلهم أعضاء حزب الوحدة المغربية بحماس[8].

2. مقرّ البعثة المغربية

كان في شارع السلولي، الجيزة، وهو خاص "بإيواء الطلبة" الذين يدرسون في المعاهد المصرية على حساب الميزانية العامة للمنطقة الخليفية. وحدد الفصل الخامس: مهمات المكلف بها المقرّ في: "إعداد كل ما يتوقف عليه أفراد هذا القسم من ناحية دراستهم ومعيشتهم، وكذلك مراقبة سلوكهم الشخصي والمدرسي".

3. معرض الفن المغربي

وهو يصل بين المنطقة الخليفية والمملكة المصرية من الناحيتين الفنية والصناعية، ويُعتبر معرضًا دائمًا لنماذج المصنوعات المغربية التي امتاز بها المغرب من غيره من بلدان الإسلام.

---

6 انظر نص الظهير في: إدريس كرم، "بيت المغرب بالقاهرة 1938م"، هوية بريس، 2019/3/18، شوهد في 2019/5/22، في: https://bit.ly/2HH7lAq

7 Toumader Khatib, *Culture et politique dans le mouvement nationaliste marocain au Machreq* (Tétouan: L'Association Tétouan-Asmir, 1996), p. 29.

8 Ibid, p. 30.

الوضع الرسمي لـبيت المغرب

مُنح بيت المغرب وضعًا رسميًا، حيث عُيّن مديرُه في المغرب بظهير خليفي، واستقبل البعثة في مصر وزير المعارف المصري. وتمتّع مدير بيت المغرب بسلطات واسعة، حدّدها الفصل الثالث من ظهير إنشائه: "يكون مديرُ بيت المغرب في مصر بجميع أقسامه نفسَ مدير المعهد الخليفي بتطوان، وله التفويض التام ليُعيِّن مديرًا مساعدًا له يقوم مقامه عند غيبته، وكذلك جميع الموظفين اللازمين لسير هذه المؤسسة سيرًا حسنًا، كما أن له حق العزل لمن يرى عزله مناسبًا. ومدير بيت المغرب نفسه يحدد الاختصاصات ويُعيّن المسؤوليات المتعلقة بكافة موظفيه، ويُعيّن الأجور المناسبة لكل منهم حسب اجتهاده الخاص"[9].

تولّى إدارة بيت المغرب بأقسامه كلها، مدير المعهد الخليفي في تطوان، الشيخ محمد المكي الناصري بظهير خليفي، وكان من صلاحيات المدير تعيين مدير مساعد، يقوم مقامه عند غيبته، وعين الشيخُ الناصري شقيقَه محمد اليمني الناصري في هذا المنصب.

خُصّصت لتسديد مصاريف مؤسسة بيت المغرب في القاهرة، بأقسامها كلها، ميزانية سنوية، مبلغها ثلاثمئة ألف بسيطة إسبانية (الفصل الثامن من الظهير).

طلبة البعثة الخليفية

كان خبر تكوين البعثة الطالبية قد شاع بين الأوساط الاجتماعية كلها في الشمال، بعد نشر إعلان عنها على أعمدة جريدة **الوحدة المغربية** الصادرة في تطوان، في 22 كانون الثاني/ يناير 1939، وأخذت التدخلات لفائدة هذا الطالب أو ذاك لدى المقيم العام الإسباني، خصوصًا من الشخصيات التي لها علاقة طيبة بالدوائر الإسبانية[10]، ورشّحت قبائل الريف كثيرًا من أبنائها (بني سيدال، مزورة، بني بوغافر، بني شيكر، بني بوعياش، بني بوفراح، كبدانة، بني بويفرور، سنادة، بني يطفت، تامسمان، مزوزة)، وكذا من قبائل الشمال الغربي (واد لاو، واد راس، بني سعيد)، وبادرت كل مدينة إلى الدفع بأحد طلبتها (طنجة، القصر الكبير، العرائش، الشاون، أصيلا). وبعد مخاض طويل، حُصرت لائحة تضم واحدًا وأربعين طالبًا، من بينهم خمسة عشر تكوّنوا في المعهد الخليفي، وطالب واحد من الجزائر.

يقدم أحمد معنينو في الجزء الثالث من **ذكرياته ومذكراته**[11]، اللائحة الكاملة لأعضاء البعثة مع الكلية أو المدرسة العليا التي تابع فيها كل واحد منهم دراسته، حيث تنوّعت الاختصاصات ما بين الشريعة والفلسفة والآداب والحقوق والعلوم والصناعة والهندسة والطب[12].

اختلالات وشكاوى من إدارة بيت المغرب

يمكن تقسيم هذه الاختلالات والشكاوى قسمين:

- قسم مرتبط بسوء تسيير.

---

9 انظر: كرم.

10 انظر نماذج لتلك التدخلات في مذكرات أحمد معنينو، وجاءت تلك التدخلات حتى من أعلى هرم السلطة الاستعمارية الإسبانية، حيث "تدخل فرانكو شخصيًا لإدماج أبناء خادمه الخاص السيد الشيكر في لائحة أعضاء البعثة". انظر: أحمد معنينو، **ذكريات ومذكرات**، ج 3 (طنجة: مطبعة سبارتيل، 1991)، ص 64-65. ويقدم محمد علي الرحماني، أحد أفراد البعثة، شهادة حول هذه التدخلات في مذكراته، انظر: محمد علي الرحماني، **ودارت الأعوام: ذكريات مثيرة لحقائق عشتها في المغرب ومصر** (طنجة: مطابع الشمال، 1993)، ص 78-79.

11 معنينو، ص 63.

12 المرجع نفسه، ص69-70؛ وانظر أيضًا اللائحة في: Khatib, p. 119.

❁ قسم مرتبط بالتحول الذي عرفته السياسة الإسبانية تجاه البعثة المغربية.

كان أغلب طلبة البعثة ينتمون إلى البرجوازية الحضرية، أو من أبناء الأعيان والأغنياء الذين تابعوا تدريسًا تقليديًا. ووجدوا صعوبة كبيرة في مسايرة وتيرة التعليم في مصر؛ إذ لم ينجح منهم في عام 1939 إلا أربعة طلبة في امتحانات نهاية السنة الدراسية. وكان أحد أسباب هذه النتائج السيئة، بحسب تقارير الاستخبارات الفرنسية التي حللتها توماضر الخطيب في كتابها **الثقافة والسياسة عند الحركة الوطنية بالمشرق**، يكمن في أن مدير بيت المغرب، اليمني الناصري، لم يكن مؤهلًا تمامًا للأخذ بيد طلبة البعثة في دراستهم والإبقاء عليهم في نطاق النظام. فهو – كما تصفه التقارير - "بدون شخصية، وأخلاقه مشكوك فيها، وليست لديه سلطة على الطلبة الذين ينقصهم الانتظام في حضور دروسهم"[13].

الواقع أن ما ورد مقتضبًا في هذه التقارير حول دور المدير في الاختلالات التي عرفها بيت المغرب في القاهرة، تعضده تقارير وشهادات أخرى. فلدينا تقرير إسباني يتّهم المدير باختلاس ميزانية المؤسسة: "للأسف، لم يكن المدير حينذاك [1939] محمد اليمني الناصري، أخ محمد المكي الناصري من تطوان، يوضح بتاتا طرق صرف الميزانية، وكل شيء يدفعنا للتشكيك في كون جزء كبير منها كان يذهب مباشرة إلى جيبه"[14].

إضافة إلى التقارير الفرنسية والإسبانية، لدينا شكاوى وتقارير صادرة عن طلبة البعثة أنفسهم، حيث يتّهمونه بـ "الاستبداد المطلق" و"استغلال سلطة المديرية لأغراض حزبية شخصية سخيفة". ففي رسالة بعثها محمد بن تاويت الطنجي إلى الزعيم عبد الخالق الطريس رئيس حزب الإصلاح الوطني في 21 حزيران/ يونيو 1939، يعرض فيها لما يعانيه بعض طلبة البعثة من ظلم وإجحاف على يد مدير بيت المغرب، واستشراء الفساد الإداري فيه: "فإدارة البيت (مغربيها ومصريّها) مليئة بالنفعيين الذين لا يرون في الوجود إلا المادة، والذين يضحّون في سبيلها بكل شيء، ولو كان الكرامة أو الوطنية أو الدين"[15].

أثرت هذه الأوضاع سلبيًا في نفسية الطلبة المغاربة، كما نقرأ على لسان صاحب الرسالة حينما أنهاها بقوله: "فما ذكرته قد زهدني في كل شيء حتى في الحياة. فأخلاقي تتلاشى وتبيد، وحياتي الروحية تضمحل، وعمري يمر مسرعًا دون جدوى، والهموم قد تفاحشت، وغايتي في الحضور إلى مصر أصبحت في هذه العوامل الخبيثة بعيدة التحقق. فالتفكير اليوم مقصور على إيجاد طريقة التحرر من هذه السلاسل التي وضعت على الأعناق". راجيًا من الزعيم عبد الخالق الطريس أن يساعده "بأي وسيلة ممكنة على الانفصال من البيت ولو بنصف الميزانية التي يقال إنها تُصرف على كل واحد منا"[16].

كتب أحد طلبة البعثة أيضًا (محمد علي البوركي الرحماني): "لما ساءت أحوالنا [...] وبالأخص المعيشية، التي أصبحت تُهدّد صحتنا، نظرًا لقلة ما أصبح يُصرف علينا، على يد مديرنا، الذي لم يعد يهتم بنا، ولا حتى بتفقدنا في مقرّنا كما كانت عادته من قبل، وذلك بسبب تضايقه من إلحاحنا المستمر على تحسين أحوالنا المزرية، إزاء ذلك قرر الطلبة تحرير رسالتين: الأولى وُجّهت إلى سموّ الخليفة بتطوان، والثانية وُجّهت إلى المدير المقيم في القاهرة السيد اليمني الناصري"[17].

---

13 Khatib, p. 31.

14 أرشيف الجنرال باريلا، ملف 136-1 وثيقة 136-13:
" …Desgraciadamente el entonces director Mohamed Yamani el Nasiri, hermano del Mohamed Mekki el Nasiri de Tetuan nunca rindio cuentas de como la invertia y todo hace sospechar que una parte considerable ha pasado directamente a su bolsillo".

15 انظر الرسالة في الملحق.

16 انظر نص الرسالة في الملحق.

17 الرحماني، ص 117.

لم تقف هذه المشكلات بين الطلبة وإدارة بيت المغرب - خصوصًا مع المدير اليمني الناصري - إذ وقفنا في أرشيف باريلا Varela[18] على رسالة مطوّلة بخط محمد بن تاويت الطنجي، عضو البعثة الطالبية المغربية في القاهرة، إلى المقيم العام الجنرال باريلا[19]، حول بيت المغرب في القاهرة، وهي الرسالة الثانية التي يبعث بها إلى المقيم العام، وكان قد تحدث ابن تاويت الطنجي في رسالته الأولى "عما أصابته البعثة في مهمتها من نجاح، وعن النقص الذي شاب ذلك النجاح وقعد بالبعثة دون الوصول إلى الهدف الذي قصدت إليه الحكومة". وبعد شكره الحكومة التي هيّأت له الفرصة للدراسة في جامعة مصر ومعاهدها، رأى صاحب الرسالة أن من تتمة شكره الحكومة أن يُدلي إليها بالذي تجمّع لديه من ملاحظات عن حياتهم، بصفتهم طلبة في بيت المغرب، وعمّا كان يعتري هذه الحياة من تعثّر في السير، سواء كان ذلك من الناحية الثقافية أو المادية، ثم يقترح الحل الذي ظهر له بالتجربة الطويلة أنه الحل الصالح النافع.

يعرض صاحب الرسالة لأهم الاختلالات التي عرفها بيت المغرب، خصوصًا على يد مديره، ويقترح "أن تُعيّن الحكومة المغربية شخصًا مغربيًا ليس له لونٌ حزبي أولًا، وله معرفة بمصر ثانيًا، وذو [كذا] كفاءة علمية وخلقية ثالثًا، ليقوم - كمدير- على هذا الإشراف"[20].

تعضد رسالة ابن تاويت الطنجي هذه - التي حظيت باهتمام المقيم العام وتُرجمت ترجمة رسمية إلى الإسبانية - رسالة جماعية وقّعها أحد عشر طالبًا في 30 آب/ أغسطس 1947، وأرسلت إلى الخليفة السلطاني في 4 أيلول/ سبتمبر (شتنبر) 1947 من خلال عبد السلام الطود، باسم طلبة بيت المغرب. ولهذه الرسالة دلالة كبرى؛ إذ تحرّك الطلبة بصفتهم جسمًا واعيًا ومسؤولًا تجاه الوضعية الحرجة.

يشتكي موقّعو الرسالة الموجهة إلى الخليفة السلطاني من ضعف المنحة التي لا تتجاوز ثمانية جنيهات مصرية شهريًا، منها ستة مخصصة للأكل، وجنيهان لمصروف الجيب[21].

تبدّل موقف السلطات الاستعمارية من البعثة الطالبية المغربية

أبانت إسبانيا عن سخاء في البداية، نظرًا إلى الرهانات التي كانت مطروحة آنذاك، وأولها الحرب الأهلية الإسبانية. فكانت تسعى حينئذ إلى ربح تفهّم الوطنيين المغاربة ومساندتهم، ومساندة الدول العربية، من دون أن ننسى أنها كانت تعتبر مستقبل مثل هذه المشروعات الفشل. وحاولت لاحقًا أن تُعرقل سَير هذه البعثات[22]، لكن هذه الأخيرة رأت النور على الرغم من ذلك، وأدّت دورًا فاعلًا في يقظة الوعي الوطني المغربي، خصوصًا في شمال المغرب، وكانت مصدر إزعاج لإسبانيا وفرنسا.

شجعت الإدارة الإسبانية في البداية هذه البعثات، وقدّمت إليها دعمها المادي والمعنوي، لكن أمام تطور الأحداث، خصوصًا مع التيار العروبي القوي الذي طبع الطلبة المغاربة في القاهرة، حاولت إسبانيا بالوسائل كلها أن تُجهِض هذا المشروع، وهذا ما تكشفه وثائق باريلا.

في هذا الصدد، يتطرق تقرير تركيبي صادر عن نيابة التربية والثقافة في 5 آذار/ مارس 1945، بشأن واقع العمل الثقافي الذي أُنجز في منطقة الحماية الإسبانية في الفترة أيار/ مايو 1941 وآذار/ مارس 1945، إلى بيت المغرب في القاهرة، معتبرًا أن هذا البيت "لم يقدم النتيجة المرجوّة من إنشائه". فطلبته عوض الدراسة والاستفادة من السخاء الذي تبذله إسبانيا تجاههم، نجدهم "يرتمون في أحضان

18 نشير إلى أن أرشيف الجنرال باريلا - الموجود في بلدية قادس في إسبانيا، ووضع رهن إشارة الباحثين مؤخرًا - يكتسي قيمة كبيرة بالنسبة إلى دراسة تاريخ المغرب وتاريخ الحركة الوطنية في الشمال خلال أربعينيات القرن الماضي، حيث يضم هذا الأرشيف وثائق تُغطي فترة تولّي هذا الجنرال مهمة المقيم العام الإسباني في المنطقة الخليفية 1945-1951.

19 أرشيف باريلا، محفظة 136-1 (وثيقة 137-143).

20 انظر نص الرسالة في الملحق.

21 انظر التحليل الذي قدمته تماضر الخطيب لمحتوى هذه الرسالة الجماعية، في: Khatib.

22 Gonzalez & Piazza, pp. 159 - 182.

السياسة وضد الدولة التي تدعمهم ماديًا". ولذلك أُعطي الأمر "بترحيل سبعة عشر منهم"، وحينما حلّوا في تطوان لم يلتزموا بالتأديب المفروض عليهم، وعوض تقديم الشكر إلى إسبانيا، "أفصحوا عن روحهم الوطنية العميقة المضادة لها". ومن ثمّ وُجّه الأمر لوزيرنا [المفوض] في القاهرة "بترحيل هؤلاء الطلبة تباعًا"[23].

لم يكن في نيّة الإدارة الإسبانية توسيع بيت المغرب، أو أن تحافظ على استمراريته، بل تقليص حياته أكثر ما يمكن، بسبب الأجواء الوطنية، الإسلامية والمغربية التي تسوده. ففي عام 1945، انخفض عدد الطلبة إلى 28 طالبًا فقط. ولم يُعوّض عن أولئك الذين كانوا يغادرون المؤسسة. وبدأت السلطات الاستعمارية تمارس أنواع الضغط كلها على الطلبة، من قبيل توقيف منحهم ومنع تداوي مرضاهم. ودفعت المندوبية الإسبانية ببعضهم للعودة إلى المغرب قبل استكمال دراسته، بمبرر اهتمامهم بالقضية الوطنية.

في خصوص مستقبل المؤسسة في مصر، يشير التقرير الذي أعدّه الوزير الإسباني في القاهرة في عام 1945 إلى أن مبرر وجود بيت المغرب حينما بعثه المقيم العام في تطوان آنذاك، الكولونيل بِكْبيدير، كان هو الدعاية لإسبانيا في هذه البلدان. "كان الأمر يتعلق بنوع من المهمة أو سفارة إسبانيا الوطنية [...] اليوم، عكس ذلك، ففي فورة الشعور الوطني العربي في الشرق الأوسط، وفي خضم الدعاية للوحدة العربية، لا أعتقد أننا سنجني شيئًا من الاستمرار في بعث الطلبة المغاربة هناك"[24]. ويوصي الوزير بضرورة تقليص عدد الطلبة المغاربة: "إن كانت الإقامة العامة، بالرغم من هذا، ولأسباب أجهلها، ترى من المناسب الإبقاء عليه [بيت المغرب]، فأعتقد أنها ينبغي أن تُقلّص إلى الحد الأدنى، على الأقل إقامة الطلبة".

أما بخصوص الطلبة الجدد الذين يجب إرسالهم للدراسة: "فينبغي أن يأتوا للالتحاق بجامعة الأزهر، أي للدراسات الدينية، أصول الدين، الفلسفة والشريعة الإسلامية. فمن غير اللائق لنا أن يأتوا ليدرسوا الطب والهندسة والكهرباء والراديو".

نجد تعبيرًا واضحًا عن هذا التحول في السياسة الإسبانية تجاه البعثة الطالبية المغربية في مصر، والعراقيل التي أضحت تواجهها على يد سلطات الحماية، لطالب آخر من طلبة البعثة، هو إدريس السوسي الذي بعث برسالة من القاهرة، في 3 آذار/ مارس 1949، إلى مدير ديوان الخليفة السلطاني، السيد أحمد بن البشير، جاء فيها: "إننا أرسلنا إليكم في مناسبات مختلفة عدة رسائل عن بيت المغرب، هدفنا من وراء ذلك إطْلاعكم على ما يعترض المؤسسة من عقبات، حرصًا منّا على أن يكون القصر الخليفي العامر على بيّنة من كل ما يجري في شأن هذه المؤسسة التي نعلم منزلتها لدى مولانا الخليفة.

واليوم وقد مضى على إنشاء هذه المؤسسة عشر سنوات أمدّ بيت المغرب خلالها الحركة الثقافية بكثير من حملة الشهادات، يؤسفنا أن نُنهي إلى سعادتكم أنها معرّضة لأشد الأخطار نظرًا لاتجاه رأي المشرفين 'السفارة الإسبانية' عليها إلى إعادة البقية الباقية من أعضائها قبل نهاية دراستهم العليا تمهيدًا لقفل بيت المغرب، [...] حدث منذ خمس سنوات أن قطعت المفوضية الإسبانية جميع المرتبات على فريق من الطلبة لإرغامهم على العودة".

"إن المشرفين على الطلبة مهملون كل الإهمال في العناية بهم، وأن مقرّ البعثة الذي كان مضرب الأمثال في كل شيء أصبح يهدد ساكنيه بأفتك الأمراض، لانصراف المشرفين عن الاهتمام بنظافته، وإن طبيب البعثة أمر بعدم العناية بصحة الطلبة مما أدّى إلى أن كثيرًا من الطلبة الموجودين أصبح يتشوّق إلى العودة إلى بلاده حتى قبل انتهاء دراسته، ولا يمنعهم من ذلك سوى مانع واحد، هو عدم استطاعتهم الخروج من القاهرة قبل سداد ما تراكم عليهم من ديون"[25].

23 أرشيف باريلا، محفظة 136-1.

24 أرشيف باريلا، محفظة، 136-1 (وثيقة 136-20).

25 انظر نص الرسالة في الملحق.

لم يكن هذا الأمر يعزب عن بال الوطنيين في مصر، وعلى رأسهم الشهيد امحمد بن عبود الذي كان شديد الحرص على استمرار بيت المغرب في أداء وظيفته التي أنشئ من أجلها. ففي رسالة له، وجّهها إلى السيد الطيب بنونة، نقرأ ما يلي: "سعت المفوضية الإسبانية مع وزارة المعارف المصرية على أن تساعدها على إرجاع طلبة بيت المغرب الذين أتمّوا دراستهم، وبذلك ستحقق رغبة الإسبان في إغلاق البيت. وقد اقترحت على وزارة المعارف المصرية أن تعمل على إدخال الطلبة الموجودين في مصر من المنطقة إلى البيت حتى لا يغلق. وقد حققت الفكرة وأحب أن تتصل بالحاج محمد الرزيني وتأخذ رأيه في الموافقة على إدخال نجله مع زملائه إلى البيت، وتفهمه أن الغرض من ذلك إنما هو المحافظة على البيت حتى لا يُغلَق، وحتى يمكن أن نستفيد منه في المستقبل"[26].

كما عمل الشهيد بن عبود كل ما في وسعه لإحباط محاولات إسبانيا إغلاق بيت المغرب، كما يفصله في رسالة له بعثها في 4 تشرين الأول/ أكتوبر 1949 إلى السيد الطيب بنونة، وفيها نعرف كيف "أن بيت المغرب لم تعد للسفارة الإسبانية عليه أية سيطرة، وذلك نتيجة لمعركة حامية مرت بين السفارة الإسبانية من جهة وبين الطلبة - وأنا معهم [يقول بن عبود] - من جهة أخرى"[27]، ويعرض الحيثيات التي مرّت بها تلك المعركة التي انتهت بأن أصبحت وضعية البيت كما يلي: السفارة الإسبانية تدفع الإيجار والطلبة المغاربة يتصرفون في البيت، تحت إشراف مكتب المغرب العربي في القاهرة.

الملحق: نصوص الرسائل المتعلقة ببيت المغرب

رسالة/ شكاية محمد بن تاويت الطنجي إلى الزعيم عبد الخالق الطريس[28]

3 جمادى الأولى عام 1358/21 يونيه عام 1939

معالي الأستاذ الكبير الوطني الغيور رئيس حزب الإصلاح الوطني سيدي عيد الخالق الطريس

تحياتي إليكم خالصة؛ أما بعد

فعلاوة على الضياع المدهش في المأكل إلى حد يقضي بالعجب، فإن بيت المغرب قام على أساس الكيد والمكر والخديعة والتحزّب والأغراض السخيفة بشتى أنواعها. ففيه يمتهن الحر بكل أصناف الإهانات، وفيه يتجلّى استغلال سلطة المديرية لأغراض حزبية شخصية سخيفة، وفيه تُداس الأعراض والكرامات تثبيتًا لدعائم الاستعمار الأهلي الثقيل القاتل، وفيه المهارة التامة لخلق المكائد والمشاكل، وفيه الامتيازات وعدم التساوي في تناول الحقوق، وفيه الاستبداد المطلق الذي يُحيل الحكم الروماني ديموقراطية محبوبة، وفيه، وفيه.

ولقد كانت فاتحة هذه السلسلة المخزي أن حرمنا حقنا في شراء اللباس دون الطلبة بدون أي مبرر، ولما طالبنا بذلك كان الجواب أنه في استطاعة المدير الناصري أن يرد كل من يحاول التدخل في تصرفاته إلى المغرب في أقل من سبعة أيام.

وإثر هذا التحدي الغريب أراد أن يبرر المكي تحدّيه هذا أمام المدير المصري "حبيب" فأفهمه بمحضر جماعة من المصريين كانوا الخواص في ذلك الوقت، أن هؤلاء الذين يتكلمون ليسوا إلا جواسيس الحكومة وخصوم [حزب] الوحدة المغربية لسان الأمة المغربية. قصدهم بهذا إثارة رأي الطلبة العام ووضع العراقيل لهذا البيت الفتي، فما كان من "حبيب" إلا أن جمع التلاميذ وخطب فيهم قائلًا إنه يخشى أن تكون هناك يد أجنبية خبيثة تلعب بعقول بعض التلاميذ، وأنه يخشى أن يذهب هذا المشروع العظيم ضحية أعراض شخصية دنيئة. ولقد خاطبني بأثر هذا بعض من حضر تقرير المكي من المصريين فقال: هل أنت فلان؟ فقلت: نعم. فقال: إنك في خطر، إنك خطر

---

26 أرشيف بوبكر بنونة، تطوان، وثيقة رقم 5493.

27 انظر نص الرسالة في الملحق.

28 نشرها الأستاذ محمد الحبيب الخراز، بجريدة **الشمال**، العدد 477، 478، 479 (أيار/ مايو - حزيران/ يونيو 2003).

على الأمن بالبيت. أراد المكي أن يتم البحث وهو الذي عرف بالتدقيق في مثل هذه السخافات، فجمع أذنابه، والأذناب كما عرف سهلة الاتجاه، سريعة الانقياد، ومن طلبة الريف جماعة كذلك، وطلبة الريف ويا للأسف كلهم بسطاء. وبثّ فيهم "إننا نعاديهم لأنهم أهل الريف، ولأنهم من مناصري الوحدة، وأننا نريد هدم البيت، وأننا على اتصال دائم بالحكومة وحزب الإصلاح".

فأما الاتصال بكم، فتعرفون أن هذه أول رسالة تتلقونها مني. وأما بالحكومة فيعلم الله أننا لم نكتب بما يسيء للبيت حتى لآبائنا وإننا نخلص للمشروع المغربي أكثر من إخلاص المكي وإدارة البيت له.

هكذا بذر المكي هذه البذرة الأولى للشقاق والتفرقة، فلم يلبث أن أصبح العداء ناشرًا ألويته بين الطلبة وبيننا، لا لسبب، ولأننا طالبنا بحقوق اغتصبتها منا الأيادي.

ولقد كان من نتائج ذلك مناقشات أسمعنا فيها من السب والشتائم والاتهامات ما يتفطر منه القلب، انتهت بشجار يدوي كنت أحد ضحاياه الأبرياء.

علمت جيدًا مصدر الإثارة والفتن، فتذرّعت بأسلوب "حتى يحكم الله والله خير الحاكمين"، مضت هذه المأساة وليست الأخيرة بل فاتحة لسلسلة من المآسي لا آخر لها.

وسافر المكي إلى المغرب وبقي هنا أخوه والمدير المصري "حبيب" فهل تغيّرت الحال؟ وهل استوى التلاميذ في المعاملات؟ وهل انقطعت تلك الزبائن التي كانت تلقى بين الطلبة من وقت لآخر؟ الجواب لا. لا.

لقد كان من الممكن أن ينتهي هذا المشهد المؤلم لولا أن الأغراض الشخصية زالت. فإدارة البيت (مغربيّها ومصريّها) مليئة بالنفعيين الذين لا يرون في الوجود إلا المادة، والذين يضحّون في سبيلها بكل شيء، ولو كان الكرامة أو الوطنية أو الدين.

اقتنع الأستاذ حبيب أننا جواسيس وخصوم للوحدة التي هي بيت المغرب، وأصبح الواحد منا يطلب من ضروريات الدراسة فلا يُلبّى له نداء تارة، ويسوف أخرى حتى ينفذ إليه اليأس فيتقطع عن الطلب، وبمجرد خبر وجه من الإدارة من يقول الأستاذ لإدريس اللبار (جاسوس المكي الخاص) إن أعين الجواسيس لا تخفى يا إدريس أفندي، وأن فلانا – يريد ذلك المحروم المسكين - أتي إليّ ليدلس لفلان مرارًا، وقد طردته مرارًا من الإدارة، وربما تبرع بهذه المكيدة لبعض التلاميذ.

وإدريس اللبار - بدوره - لا يلبث أن ينفذ المأمورية ويُذيع هو هذه الكلمة بين التلاميذ، ويعلم الله ما يقاسيه الإنسان بعد ذلك من نظرات قاسية كلها حقد، وكلها عداوة. ويعلم الله ما يسمع الإنسان من تلويحات نصبت من القلب الصميم فتستحيل لظى تُلهب الأحشاء.

ولمناسبة وغير مناسبة نسمع أسطورة من حبيب هي أنه لولاه لما دخلنا لمصر، وأن جوازات السفر لم تطّلع عليها وزارة الداخلية، وأنه يؤدي عنا بريد أفراد العضوية بمقدار أشهُر من ماله الخاص، للبوليس السري خوفًا أن يبلّغ عنا للحكومة ما يتنافى مع عقد البيت، تلك الأسطورة نسمعها كلما سنحت الفرصة، وهي - ولا خفاء - ترمي لإلحاق تهمة التجسس بأفراد كرههم هو كما كرههم المكي من ذي قبله.

أراد حبيب ألا تقف المسألة عند هذا الحد، فأضحى يعطي تعليمات حسب هواه للأساتذة الذين يترددون لبيت المغرب، فأصبحنا ممقوتين في نظرهم، وليس لنا من الاتصال بهم ما يصل بنا إلى هذا الحد، حد التذمر والتضجر والنظر بعين الازدراء والاحتقار. ومن هم هؤلاء؟ أولئك هم صديق حبي، وأخو صديقه، وابن خالته، وصهره ونحو ذلك.

نرجع إلى أخ [كذا] المكي: هذا رغم أنه إمعة ليس له في الأمر شيء فضرره وكيده لا يتعديان هتك الأعراض وأكل اللحوم غيبة ونميمة، ووصم المغرب وأبناءه [كذا] بما ليس في الاستطاعة سماعه، والكتابة للمكي عملًا بتعليمات جاسوس أخيه إدريس اللبار، ما بين حين وآخر. بهؤلاء الذين لا يحمدون الله على النعمة، وقد كانوا في المغرب لا قيمة لهم!!

هذا رئيس مكتب التبادل الثقافي، ويجتمع هناك بأحمد أمين وأخيه قاسم أمين، من أساتذة الجامعة مثل عبد الحميد عبادي، وعبد الوهاب عزام، وغيرهم، فيأتي الحديث عن بيت المغرب، وطلبة المغرب، فيقرر "أبو الهول" أن أبناء المغرب يتفاحشون فيما بينهم، ويزيد أن شرذمة أرسلتها الحكومة وهيئات أخرى لهدم بيت المغرب، ومعضده في ذلك "حبيب"، وإنكم لتعرفون جيدا الألفاظ التي يستخدمها سعادة الرئيس لأداء مثل هذه المعاني الساقطة، فهو فارس الميدان في مثل هذه الموضوعات الدنيئة.

ويتعرض في بعض الأحيان مع المصريين للمدن المغربية فيتكلم وكأنه من كندا عن تطوان وطنجة، ويقرر أنه ليس في هذين [كذا] المدينتين امرأة غير عاهر، سواء في ذلك المتزوجة وغيرها، سواء العائلات الشريفة أو الوضيعة. فنحن بهذا الاعتبار في نظره، أبناء زنى، وربما سمح وتكرّم فصرح بهذا اللفظ الكريم.

هكذا نأخذ أوسمة الخزي والعار من فم رئيس مكتب التبادل الثقافي، وقد امتلأت بها الآن الصدور.

وفي كثير من الأحيان يرسل وراء طالبين يقرأ عليهما إن "الشرذمة الملعونة بعينها تأتي إليه في كثير من الأوقات تدس لكم ولكنه أعقل من أن يسمع لها"، قصده بذلك إثارة الطلبة والتفرقة تبعًا لأخيه ولحبيب "فرق تسد".

هذه صورة مصغرة من رواية بيت المغرب في مصر، وقد تحريت جهدي أن أنقل إليكم الصورة غير مبالغ فيها ولا ناقصة.

أما استقصاء الحوادث وتفصيلها فيحتاج إلى صفحات وربما كانت أضعاف هذه، ولعل في المستقبل متسع [كذا] لتعريفكم بها تفصيلًا.

وأما بعد.

فما ذكرته قد زهدني في كل شيء حتى في الحياة. فأخلاقي تتلاشى وتبيد، وحياتي الروحية تضمحل، وعمري يمر مسرعًا دون جدوى، والهموم قد تفاحشت، وغايتي في الحضور إلى مصر أصبحت في هذه العوامل الخبيثة بعيدة التحقق. فالتفكير اليوم مقصور على إيجاد طريقة التحرر من هذه السلاسل التي وضعت على الأعناق.

ولقد علمت، وأظنكم تعلمون، أنه ليس لدي من أعتمد عليه ليخفف عني من هذه الآلام حتى أستطيع مواصلة العمل إلا أنتم. ولقد صوّب اتجاهي نحوكم ما عهدته فيكم من نصرة الضعيف، وإغاثة المسكين، ما شاهدته فيكم من حب الخير لمن أحسن أو أساء إليكم على السواء، ما أعرفه من نبلكم بحيث لا يخيب داعيكم.

راجيًا أن تساعدوني بأي وسيلة ممكنة على الانفصال من البيت ولو بنصف الميزانية التي يقال إنها تصرف على كل واحد منا.

وإني لقوي الأمل، كثير الرجاء في أنكم سوف تبذلون كل مجهودكم في سبيل إنقاذي من هذه الهوّة السحيقة.

والله الكريم وحده هو الذي يتكفل بجزائكم. وإني أنتظر جوابكم على كل حال، ولكن على يد أحد الإخوة لا عن طريق البيت، فإن الرسائل لا بد أن تفتح، والتي لديهم بها غرض لا تصل لربها. "حسنة من حسنات البيت" الخالدة.

هذا والرسائل المتبادلة وبالأخص الأولى من الناس مختلف في أسلوبها عن هذه، ولكن قسوة الظروف أكبر شفيع لتقبلها دون أي تعليق. **وإذا عرفتم أني أكتبها والقلب حزين، والخاطر منكسر**، اطمئن خاطري لقبول العذر، ودمتم للمغرب. والسلام

في 21 يونيه عام 1939 – 3 جمادى الأولى عام 1358

محمد بن تاويت الطنجي.

رسالة محمد بن تاويت الطنجي إلى المقيم العام الجنرال باريلا[29]

بتاريخ 20 حزيران/ يونيو 1948

القاهرة 20/6/1948م

136-137

حضرة صاحب السعادة السياسي الكبير الجنرال باريلا المقيم العام بتطوان

تحية واحتراما.

وبعد فأذ نوالي سعادتكم أن أتقدم بهذه الكلمة للمرة الثانية إلى سعادتكم حول بيت المغرب في مصر. وكان الذي دفعني حين تقدمت في المرة الأولى في 30 اكتوبر سنة 1946 بواسطة سعادة وزير اسبانيا المفوض بالقاهرة اذ ذاك وهو الكونت دي كاسا ريال الذي يشغل الآن مركز وكيل وزارة الخارجية باسبانيا - دفعني إلى ذلك اعتقادي أن الحكومة الاسبانية قد أخذت على نفسها أن تصل بالشعب المغربي إلى مكانه الذي يليق بتاريخه العظيم، وأن تبذل في سبيل رفع مستواه الأدبي والمادي كل جهد مستطاع.

وقد تحدثت إلى سعادتكم حينذاك عن البعثة الحسنية بمصر (بيت المغرب)، وعما أصابته في مهمتها من نجاح، وعن النقص الذي شاب ذلك النجاح وقعد بالبعثة دون الوصول إلى الهدف الذي قصدت إليه الحكومة، والذي نصح به سمو الخليفة لأعضاء البعثة يوم ودعهم بقصره العامر. ورددت ذلك إلى أسباب كان منها أن الاعداد الدراسي لهؤلاء الأعضاء كان ناقصاً لأن تعليمنا الثانوي والابتدائي لم يكن مَدْطُهر للوجود عاقئذ، وأن الاختيار كان غير موفق، وكان عدم التوفيق فيه ناشئا عن تدخل اعتبارات مختلفة في اختيار الطالب، وما كان يجب أن يكون لغير كفاءة الطالب واستقامة خلقه اعتبار عند ترشيحه لعضوية البعثة. ورجوت أن يكون في ايجاد تعليم ثانوي وابتدائي حقيقي عندنا ما يسد هذا النقص. ولم أغفل حينذاك الإشارة إلى أن بعثتنا هذه كانت تجربة أولى نأمل نجاحها ونخشى فشلها على حد سواء شأن

---

29 أرشيف باريلا، قادس، ملف 136-1.

حضرة صاحب السعادة السياسي الكبير الجنرال باريلا المقيم العام بتطوان

تحية واحترامًا.

وبعد، فأذنوا لي سعادتكم أن أتقدم بهذه الكلمة للمرة الثانية إلى سعادتكم حول بيت المغرب في مصر. وكان الذي دفعني حين تقدمت في المرة الأولى في 30 أكتوبر 1946 بواسطة سعادة وزير إسبانيا المفوض بالقاهرة إذ ذاك، وهو الكونت دي كاسا ريال الذي يشغل الآن مركز وكيل وزارة الخارجية بإسبانيا - دفعني إلى ذلك اعتقادي أن الحكومة الإسبانية قد أخذت على نفسها أن تصل بالشعب المغربي إلى مكانه الذي يليق بتاريخه العظيم، وأن تبذل في سبيل رفع مستواه الأدبي والمادي كل جهدٍ مستطاع.

وقد تحدثت إلى سعادتكم حينذاك عن البعثة الحسنية بمصر (بيت المغرب)، وعما أصابته في مهمتها من نجاح، وعن النقص الذي شاب ذلك النجاح وقعد بالبعثة دون الوصول إلى الهدف الذي قصدت إليه الحكومة، والذي نَصَحَ به سموّ الخليفة لأعضاء البعثة يوم ودّعَهُم بقَصْره العامر. ورددتُ ذلك إلى أسباب كان منها أن الإعداد الدراسي لهؤلاء الأعضاء كان ناقصًا، لأن تعليمنا الثانوي والابتدائي لم يكن قد ظهر للوجود عامَئذٍ، وأن الاختيار كان غير موفق، وكان عدم التوفيق فيه ناشئا عن تدخل اعتبارات مختلفة في اختيار الطالب، وما كان يجب أن يكون لغير كفاءة الطالب واستقامة خلقه اعتبار عند ترشيحه لعضوية البعثة. ورجوتُ أن يكون في إيجاد تعليم ثانوي وابتدائي حقيقي عندنا ما يسدُّ هذا النقص. ولم أُغفل حينذاك الإشارة إلى أن بعثتنا هذه كانت تجربة أولى نأمل نجاحها ونخشى فشلها على حد سواء شأن كل تجربة، وأن هذه النتيجة على ما فيها من نقص تعتبر فاتحة طيبة فيها البشارة بخير تام عندما يحسن الاختيار، وتوضع لعضوية البعثة قيود تضمن للحكومة وللطالب السير المستقيم، والنجاح الكامل.

وجاءت أخيرًا أعمال الحكومة الإصلاحية مؤيدة لاعتقادي هذا، فقد أصدرت أمرًا بتنظيم التعليم الثانوي والابتدائي تنظيمًا حديثًا كاملًا، لوحظ فيه المحافظةُ على تقاليدنا الشرقية، وعلى ديننا، والحرصُ على مسايرة التطور العالمي السريع، فكان هذا العمل دليلًا جديدًا على النيّة الطيّبة التي تضمرها الحكومة الإسبانية للمغرب وأهله.

كان ذلك أهم ما دفعني يومئذ للتقدم إلى سعادتكم، واليوم تدفعني مناسبة أخرى لا تختلف كثيرًا عن السابقة. فأنا على وشك نهاية دراستي الجامعية، لا أنتظر إلا عودة أساتذتي الذين بعثتهم الحكومة المصرية لحضور مؤتمر المستشرقين بفرنسا، حين عودتهم سأتقدم للامتحان ثم أعود إلى المغرب رأسًا، وكثير من طلبة بيت المغرب ينتهي من دراسته في هذه السنة، بل في الأشهر الآتية القليلة، وسيصبح بيت المغرب فارغًا من سكانه تقريبًا، ومن هنا أحسست بأن عليَّ أن أتقدم إلى سعادتكم من جديد بنفس العقيدة الأولى التي كانت تحدوني من قبل، وكان مما شجّعني أن تشرفت بمقابلة السنيور بيدْرو مرتنيس جومس حين زيارته القصيرة للقاهرة، فتحدثت إليه في بعض شؤون مغربية، والرجل خبير بالمغرب ومسائله لطول ما عاش في المغرب، فوجدت في حسن تقديره للأشياء ما جرَأني على فتح الحديث في بيت المغرب ومصيره بعد أن قارب طلبته النهاية. فأشار عليّ بكتابة هذه الكلمة على أن يتكرم برفعها إلى سعادتكم، ففعلتُ.

وأحب أن أعترف هنا بأن واجبي الأول - وقد أوشكت أن أنهي دراستي - أن أسجل شكري للحكومة حيث هيّأت لي الفرصة للدراسة في جامعة مصر ومعاهدها. على أني أعتقد أن من تتمة شكري للحكومة أن أُدلي إليها بالذي تجمّع لديّ من ملاحظات عن حياتنا - كطلبة في بيت المغرب - وعما كان يعتري هذه الحياة من تعثّر في السَير، سواء كان ذلك من الناحية الثقافية أو المادية، ثم أقترح الحل الذي ظهر لي بالتجربة الطويلة أنه الحل الصالح النافع. فإذا ما أخذت الحكومة بالذي أراه، كله أو بعضِه، كان

النفع عائدًا إلى كثير من أبناء الشعب المغربي، وقامت هذه الكثرة من الشباب بشكر الحكومة، وكان شكر جماعة كبرى أجدَى على الحكومة من شكر فردٍ واحدٍ.

* * *

وبيت المغرب في مصر له أثره الأدبي الجميل، تعود منفعته الأدبية على المغرب، وعلى الحكومة معًا، وعلى نسبة واحدة. فالذين يتعلمون فيه أبناءٌ مغاربة، وتعليم المغاربة وتثقيفهم هي رسالة الحكومة الإسبانية في المغرب الذي تعمل جاهدة على أدائها خير أداءٍ. وليت المغرب كذلك صورة مادية طيبة لسياسة الحكومة الإسبانية في المنطقة الخليفية يعود عليها منها الثناء الكثير من الذين يقدرون الأشياء تقديرها الصحيح، ويزنونها بميزان النظر البعيد. وقد كان أول بيت للطلبة أنشئ لدولةٍ إسلامية غير مصرية في مصر، فالتفتَ الناس إليه معجبين، وانطلقت الألسن بالثناء على الحكومة حيث أسعفتْ بإيجاد هذا البيت على هذا النحو.

وحذت الدول العربية حذو هذا البيت، فأُسِّست على غراره بيوت لدول عربية تضم كثيرًا من طلبة الأقطار العربية والشرقية؛ فهناك بيتان للسودان، وبيت لكل من دولة من الدول العربية: الحجاز – العراق – سوريا - لبنان وأندونيسيا ... إلخ. وبيت المغرب بين هذه البيوت يحتفظ بمركزه الأدبي لأنه أول بيت من نوعه وجد في مصر.

فمصلحة المغرب، والحكومة الإسبانية معًا، قاضية ببقاء هذا البيت والعناية به، ثم إعادة النظر في نظامه، واختيار من يسكنه من الطلبة اختيارًا ثقافيًا سلوكيًا، حتى يحافظ أعضاؤه على سمعة بلادهم، ويؤدُّوا رسالة هذا البيت الثقافية على أكمل الوجوه.

ولست أنكر ما مر بالبيت من حالاتٍ سادت فيها الفوضى والتدهور التي أدى إليها سوء الإدارة - قبل أن تتولاه المفوضية سنة 1943. فالمديران المغربي والمصري على السواء حينئذ قد أساءا إلى البيت إساءة كبرى من جميع النواحي. كان المدير المغربي غير مقدِّر لمركزه الأدبي، متصرف تصرفًا عاد بالضرر الكبير على السمعة الأدبية للمغرب، وكان غير أمين، فخان البيت خيانة مالية كادت أن تذهب بالمؤسسة لولا أن تداركتها الحكومة بعد الذي قدمه الطلبة من تظلّمات إلى سموّ الخليفة وإلى الإقامة العامة في سنة 1942.

وكان إلى هذا وذاك يهمل الناحية الثقافية، فلا ينظر في مصلحة طالب، ولا يساعده في حل مشكلِه الثقافي، علاوة على الحيف المادي الذي عاد على الطلبة أثره من جراء خيانته المادية.

وكان نتيجة هذا أن انعدمت الثقة والاحترام بين الطلبة والمدير المغربي نتيجة لهذا التصرف، وأصبح وجود الرجل مصدرًا من مصادر القلق في البيت.

وعمد هو من جهته إلى التفرقة بين الطلبة والدس لهم ليشغلهم بنفسهم [كذا] عنه، واحتدمت الخصومة، وعدم في البيت الصفاء بين سكانه، وهكذا انهدم ركن من أركان البيت.

ولم يكن المدير المصري بأحسن سيرة من زميله، فإنه وجد ربّ الدار غير آمن، فخان كما خان صاحبُه. واختلف المديران وظهر الشر بينهما والخلاف، وكان أضرار ذلك تعود على الطالب وعلى سمعة البيت.

وحينما سافر المدير المصري إلى المغرب لم يكن يقصد بسفره إلا أن يُحكِم الاتصال بينه وبين رجال الحكومة هناك حتى يستطيع الانفراد بالسلطة في بيت المغرب، أو على الأقل يحدّ من سطوة غيره المنافس.

وهكذا أصبحت المؤسسة (بيت المغرب) مستعمرة صُغرى تتضارب فيها المطامع، وتضيع في وسط فوضاها معالم الرسالة الثقافية التي كانت مهمة بيت المغرب في مصر.

وحينما نحاول أن نحدد مصدر هذه الفوضى نجدها تعود في كل حالاتها إلى المال. فهو وحده كان مصدر المنافسة. فالقوم كانوا مطلقي السراح في ميزانية البيت ليس وراءهم رقيب. ومن هنا نشأ الصراع.

والطلبة من جانبهم أحسّوا بالخطر المادي يحدق بهم، فانحرفوا عن الدراسة إلى التفكير الدائم في حالتهم المعيشية. ومن هنا كانت فوضى الإدارة سببًا آخر مباشرًا في النتيجة الثقافية والسلوكية، والإدارة لم يعد لها من الناحية الأدبية الحق في أن تلوم أو تقرر عن طالب أنه قصّر في دراسته ما دامت قد أخلّت بواجبها الإداري. ومن هنا يتبين وجه النقص في الإدارة، وأثره على النتائج الدراسية والخلقية في البيت.

والعلاج لذلك سهل، فقد استطاعت المفوضية هنا أن تضبط الناحية المادية، فلم يعد هناك شكٌّ في أن الناحية المادية تحسنت، وإن كان هناك نقص في المادة، فإنه لا يعود إلى مصرف الإدارة الحالية هنا، وإنما مصدره الغلاء الفاحش من جهة، وميزانية البيت المحدودة من جهة أخرى، وتلك مسألة يجب الفصل فيها في المغرب على ضوء حالة المغرب المالية، وبالنسبة لعدد طلبة البعثة.

ووجود الميزانية في يد المفوضية يكفل أن يصرف بأمانة في أماكنها، ثم إنه يجعل الطالب خاضعًا للقوانين التي تسنّ للبعثة بحيث إنه إذا أخل بالنظام تستطيع المفوضية – بناء على تقرير المدير المشرف على الناحية الثقافية بالبيت - أن توقع عقوبة على الطالب حسب المخالفة التي ارتكبها.

على أن المفوضية - رغم هذا - لم تستطع أن تحل المشكلة من جميع جوانبها، فلا تزال هناك مسألة الإشراف الثقافي والسلوكي على أعضاء البعثة. فيجب أن تعين الحكومة المغربية شخصًا مغربيًا ليس له لونٌ حزبي أولًا، وله معرفة بمصر ثانيًا، وذو كفاءة علمية وخلقية ثالثًا، ليقوم – كمدير - على هذا الإشراف، فيتّصل بالمدارس والمعاهد ليذلل الصعوبات الدراسية التي عساها تقوم في وجه الطالب. ثم يوجّه الطالب توجيهًا ثقافيًا في صالحهم. وبذلك تتم الإدارة. وعلى ضوء تعليمات هذا المشرف الثقافي، وتقريراته عن سير الطالب الثقافي في المدرسة، والسلوكي في البيت وما يتصل به - تقوم أحكام العقاب والجزاء التي تنفذها الإدارة المالية في المفوضية.

أما عن الطلبة فيجب أن يختار للبعثة المتقدم في دراسته وأخلاقه. وأظن أنه من الأحسن الإكثار من طلبة البوادي حيث إن التجربة أثبتت صلاحيتهم أحسن من غيرهم في هذا الميدان. وأرجو كذلك أن تسمحوا لي سعادتكم بالإشارة إلى أن الشفاعات والوساطات في تعيين الطالب لعضوية البعثة لا يتمثل فيها العدل أولًا، ثم إن الذي يحظون بهذه العضوية عن طريق الشفاعة يفشلون غالبًا، ولعل في تقارير البعثة الدراسية ما يثبت ذلك.

على أن أهل البوادي هؤلاء هم الذين يمثلون الشعب المغربي، وهم الذين نتحدث عنهم دائمًا.

وحينما يختار الطالب على ضوء كفاءته، يجب أن يُعرّف تمامًا أن مهمته في هذه البعثة أن ينجح في دروسه، وأن لا يشتغل بشيء غير هذه الدروس، وأن مخالفة هذا تُحرمه من البعثة وامتيازات عضويتها. كما يجب عليه أن يعرف أنه من الواجب عليه أن ينجح في كل سنة، وأنه لا يُقْبَلُ منه تخلُّفه عن النجاح إلا لعذر مقبول تقدره المدرسة، وإلا تعرض أيضًا للفصل من البعثة وإرجاعِهِ إلى المغرب.

وبعد فإن الذي يدفعني دائمًا إلى التقدم إلى سعادتكم بهذه الاقتراحات هو ما أحسّه من حبكم لخير المغرب وصالحه وما أشعر به من وجوب استمرار بيت المغرب في رسالته الثقافية في الشرق. وما أراه له من فائدة معنوية يعود خيرها على المغرب وإسبانيا على حد سواء.

وتقبلوا سعادتكم احترامي.

محمد بن تاويت الطنجي

136-143

التي عاهاالتقدم في وجه الطالب، ثم يوجه الطالب توجيها ثقافيا فيه صالحهم. وبذلك تتم الإدارة. وعلى ضوء تعليمات هذا المشرف الثقافي، وتقريراته عن سير الطالب الثقافي في المدرسة، والسلوكي في البيت وما يتصل به - تقوم احكام العقاب والجزاء التي تنفذها الإدارة المالية في المفوضية.

أما عن الطلبة فيجب أن يختار للبعثة المتقدم في دراسته وأخلاقه. وأظن أنه من الأحسن الاكثار من طلبة البوادي حيث إن التجربة اثبتت صلاحيتهم أحسن من غيرهم في هذا الميدان، وأرجو كذلك أن تسمحوا لسعادتكم بالإشارة إلى أن الشفاعات والوساطات في تعيين الطالب لعضوية البعثة لا يتمثل فيها العدل أولا ثم إن الذي يحظون بهذه العضوية عن طريقة الشفاعة يفشلون غالبا ولعل في تقارير البعثة الدراسية ما يثبت ذلك.

على أن أهل البوادي هؤلاء هم الذين يمثلون الشعب المغربي وهم الذين نتحدث عنهم دائما.

وحينما يختار الطالب على ضوء كفاءته، يجب أن يعرف تماما أن الأهمية في هذه البعثة أن ينجح في دروسه، وأن لا يشتغل بشيء غير هذه الدروس، وأن مخالفة هذا تحرمه من البعثة وامتيازات عضويتها. ولكن كما يجب عليه أن يعرف أنه من الواجب عليه أن ينجح في كل سنة، وأنه لا يقبل منه تخلفه عن النجاح إلا لعذر مقبول تقرره المدرسة. وإلا تعرض أيضا للفصل من البعثة وإرجاعه إلى المغرب.

وبعد فإن الذي يدفعني دائما إلى التقدم إلى سعادتكم بهذه الاقتراحات هو ما أحسه من حبكم لخير الأمة وصالحه، وما أشعر به من وجوب استمرار ريب المغرب في رسالته الثقافية في الشرق، وما أراه لها من فائدة معنوية يعود خيرها على المغرب واسبانيا على حد سواء. وتقبلوا سعادتكم احترامي: محمد بن تاويت الطنجي



رسالة الطالب إدريس السوسي إلى السيد أحمد بن البشير

3 جمادى الأولى عام 1368هـ/ 3 آذار/ مارس 1949

القاهرة في 3-3-1949

حضرة صاحب السعادة السيد أحمد بن البشير، دام عزّه

تحية وإجلالًا

وبعد، فتذكرون سعادتكم أننا أرسلنا إليكم في مناسبات مختلفة عدة رسائل عن بيت المغرب هدفنا من وراء ذلك إطلاعكم على ما يعترض المؤسسة من عقبات، حرصًا منا على أن يكون القصر الخليفي العامر على بيّنة من كل ما يجري في شأن هذه المؤسسة التي نعلم منزلتها لدى مولانا الخليفة.

واليوم وقد مضى على إنشاء هذه المؤسسة عشر سنوات أمدّ بيت المغرب خلالها الحركة الثقافية بكثير من حملة الشهادات، يؤسفنا أن ننهي إلى سعادتكم أنها معرضة لأشد الأخطار نظرًا لاتجاه رأي المشرفين "السفارة الإسبانية" عليها إلى إعادة البقية الباقية من أعضائها قبل نهاية دراستهم العليا تمهيدًا لقفل بيت المغرب، الأمر الذي دعا أعضاء البعثة الحاليين إلى التماس ما وسعهم الجهد ببقاء هذه المؤسسة لتظل على الدوام منارة تُضيء السبيل أمام الشعب المتعطّش إلى العلم والمعرفة، ولم نترك وسيلة مع حضرات المشرفين على بيت المغرب لإقناعهم والعدول عن رأيهم إلا وسلكناها، ولكن القوم تعنّتوا وأصرّوا واستكبروا استكبارًا، وبلغنا معهم إلى أننا تعهّدنا أمامهم باستعدادنا للتخلّي عن أماكننا والتنازل عن مكافآتنا بمجرد وصول أية بعثة جديدة من المغرب لتحل محل البعثة القديمة التي لم يبق من أعضائها سوى بضعة أفراد؛ إلا أن القوم أصرّوا كما قلت على موقفهم، وقطعوا المرتبات عن الطلبة لإرغامهم على العودة إلى بلادهم.

وتعلمون سعادتكم أن هذه ليست أول مرة يتعرّض فيها أعضاء البعثة إلى قطع مرتباتهم وحرمانهم، ويعاملون معاملة شاذة، فقد حدث منذ خمس سنوات أن قطعت المفوضية الإسبانية جميع المرتبات على فريق من الطلبة لإرغامهم على العودة، ولكنها عادت بعد ذلك فأرجعت لهم حقوقهم، ولكنها أصرّت مع الأسف الشديد على حرماني من جميع حقوقي كعضو في البعثة الحسنية من ذلك الحين إلى يومنا هذا، أي منذ خمس سنوات، وأنا محروم من كل شيء حتى إن طبيب البعثة أمرَته المفوضية بعدم معالجتي، وكان من نتيجة ذلك أن ساءت أحوالي مادية وجسمانية، وقد تراكم علي كثير من الديون وأثقلت كاهلي، وإزاء هذه الصدمات التي لقيتها على يد المفوضية الإسبانية بالقاهرة، فوّضت أمري إلى الله.

وإني إذ أبلغ سعادتكم هذه الحقائق يسوئني [كذا] أن أقول إن المشرفين على الطلبة مهملون كل الإهمال في العناية بهم، وأن مقر البعثة الذي كان مضرب الأمثال في كل شيء أصبح يهدد ساكنيه بأفتك الأمراض، لانصراف المشرفين عن الاهتمام بنظافته، وإن طبيب البعثة أمر بعدم العناية بصحة الطلبة مما أدى إلى أن كثيرًا من الطلبة الموجودين أصبح يتشوق إلى العودة إلى بلاده حتى قبل انتهاء دراسته، ولا يمنعهم من ذلك سوى مانع واحد، هو عدم استطاعتهم الخروج من القاهرة قبل سداد ما تراكم عليهم من ديون.

فإذا تفضلتم سعادتكم، وأظنكم فاعلون [كذا] - بالاتصال بالمسؤولين وإقناعهم فسوف تسدون لهؤلاء الطلبة جميعًا خدمة سيذكرها لكم التاريخ دائمًا بالفخار.

على أن أملنا الأكبر هو أن تجد رسالتنا التي نرجو أن ترفعوها لمولانا الخليفة المعظم عطفًا ساميًا، ونحن نعلم مقدمًا أن كلمة واحدة من سموّ الخليفة كافية بإرجاع حقوق هؤلاء الطلبة كما هي، كفيلة بأن تعيد إلى مؤسستنا العظيمة مكانتها الأولى، وبذلك يفتح أمام إخواننا الطلبة، ومن بينهم الموجودون في مصر باب الالتحاق بها حتى تؤدي البعثة الجديدة المنتظرة ما أدته القديمة. ونرجو أن يكون في الخلف خير السلف.

وإننا لا ننسى مطلقًا خدمات مولانا الخليفة المعظم التي أسداها إلينا أدام المولى سبحانه في حياته حتى يعود للمغرب العزيز ما فقد من عز وسيادة، تحت لوائه الطاهر.

وفي انتظار تعليمات سعادتكم بهذا الشأن، أرجو أن تتقبلوا صادق الاحترام

مقدمه إدريس السوسي

عضو البعثة الحسنية

3 جمادى الأولى سنة 1368 هـ/ 3-3-1949

مقتطف من رسالة[30] بعثها الشهيد امحمد بن عبود إلى السيد الطيب بنونة بتاريخ

4 تشرين الأول/ أكتوبر 1949

عزيزي الأخ الطيب
إليك تحياتي وأشواقي

وبعد، فقد استلمت خطابك المؤرخ في 1949/9/27، وقد ألقى لنا الضوء على الجوانب الغامضة عن الحالة هنا. أما رسالتك المؤرخة في 9/27، فلم تصل بعد. وقد أرسل الأستاذ علال الفاسي رسالة إلى الأخ المليح بشأن الطلبة القادمين إلى مصر، ويسرّني أن أذكر لك أنني قد هيّأت لهم السبيل لإقامتهم في بيت المغرب، كما أنني على أتم استعداد للعمل على إلحاقهم بالمعاهد التي يرغبون في الدراسة بها. وقد عملت في الشهور الأخيرة على توثيق الصلات بيني وبين المسؤولين في وزارة المعارف للاستفادة منها في مثل هذه المناسبات. وأذكر لك بهذه المناسبة أن بيت المغرب لم تعد للسفارة الإسبانية عليه أية سيطرة، وذلك نتيجة لمعركة حامية مرت بين السفارة الإسبانية من جهة وبين الطلبة - وأنا معهم - من جهة أخرى، منذ بضعة شهور وتتلخص هذه المسألة في أن السفارة الإسبانية في القاهرة كانت قد أخطرت طلبة بيت المغرب بأن يفرغوا البيت في الحال، فاتصلوا بي وعرضوا علي الأمر، وطلبوا مني أن أساعدهم، فعقدت معهم اجتماعًا، وشجّعتهم في البقاء في البيت، ووعدتهم بأني سأعمل في الحال على استصدار أمر من "المحافظة" لحمايتهم من السفارة، وطلبت منهم أن يمنعوا السفارة من أخذ أي شيء من البيت. كما وعدتهم بكفالة دفع إيجار البيت في حالة امتناع السفارة عن ذلك، وقلت لهم إذا حاولت السفارة أن تأخذ شيئًا من البيت، أو أن تتصرف في شيء، فامنعوها وقولوا لها إن ابن عبود يقول إنه هو المسؤول الرسمي عن البيت. وعلى إثر ذلك اتصلت بالمحافظة وأخذت تأكيدًا بأن البوليس المصري على أتم استعداد لمنع السفارة من مس أي شيء في البيت، ثم اتصلت بوزارة الخارجية وأبلغتهم بنيّة الإسبان الاعتداء على بيت المغرب. وبعد يومين من إتمامي لهذه الإجراءات أرسلت السفارة بعض الحمّالين ومعهم حراس السفارة إلى البيت لنقل ما فيه من أثاث، فمنعهم أحد الطلبة وقالوا لهم: إننا تلقينا أوامر من جهات مغربية مسؤولة لمنع أي أحد من أخذ ما يوجد في هذا البيت. فطار عقد السفارة، ولكنها لما أرادت أن تستعين بالدوائر المصرية المختصة وجدت الألغام قد بثت بطريقة متقنة. وبعد ذلك بأيام اتصل بي مدير الشؤون العربية في قصر عابدين العامر، وقال لي: إن القصر قد علم بأنني أشتكي من تصرفات السفارة الإسبانية ضد بيت المغرب، وسألني إذا كنت أريد شيئًا من أجل ذلك، فشكرته على عنايته وعطفه، وشرحت له الوضعية، فأكّد لي استعداده لتقديم أيه مساعدة إذا احتجت إليها. وبعد حوالي شهر، اتصل بي موظف كبير في قسم الشؤون العربية بوزارة الخارجية وأبلغني أن الوزارة قد اتخذت بعض الإجراءات في موضوع بيت المغرب، فتلقت من سفير إسبانيا تأكيدًا رسميًا بأن السفارة لم تفكر ولن تفكر في إقفال بيت المغرب، فشكرته. ومنذ هذا الوقت - أي منذ أوائل السنة الحالية - جعلنا نتصرف في البيت ضد رغبات السفارة، وقد لاحظنا أن السفارة كانت تبذل غاية جهدها لإرغام الطلبة على الخروج من البيت، إما بتسفيرهم، وأما بنقلهم إلى أماكن أخرى لأجل أن يفرغ البيت، فيمكن قفله بدون ضجة. ولذلك طلبت من الطلبة أن يدخلوا

30 امحمد بن عبود (تقديم)، **المراسلات السياسية للشهيد امحمد أحمد بن عبود (1946-1949)** (تطوان: منشورات مؤسسة الشهيد امحمد أحمد بن عبود، 2016).

معهم طلبة آخرين، فدخل إلى البيت اللبادي والفاسي وبن صبيح، وبعثت السفارة تهددهم بأنها ستتصل بالبوليس ليطردهم، فأكدت لهم أنني مسؤول عن كل ما يلحقهم. وقد استقروا في البيت من غير أن يصيبهم شيء. وعندما علمت بقرب وصول الطلبة القادمين من طنجة اتصلت بالطلبة في البيت، واتفقت معهم على أن يُهيّئوا لهم أماكن ليقيموا في البيت. ووضعية البيت كما ترى قد أصبحت أن السفارة تدفع الإيجار ونحن نتصرف في البيت. ونحن نفكر الآن في القيام بوضع مشروع لتسهيل السكن للطلبة المغاربة هنا ومساعدة من سيوفق منهم. فهل يمكن أن نجد من يساهم في هذا المشروع من المغرب؟

القاهرة في ٤/١٠/١٩٤٩

مكتب المغرب العربي

١٠ شارع ضريح سعد ـ مصر

تليفون ٥٦٨٢٢ — 5556

عزيزي الأخ الطيب إليك تحياتي وأشواقي

وبعد فقد استلمت الآن خطابك المؤرخ في ٢٧/٩/٤٩ وقد ألقى لنا الضوء على الجوانب الغامضة من الحالة هنا. أما رسالتك المؤرخة في ٢٢/٣ فلم تصل بعد. وقد أرسل الأستاذ علال الفاسي رسالة إلى الأخ المليح بشأن الطلبة القادمين إلى مصر. ويسرني أن أذكر لك أننا قد هيأت لهم السبيل لإقامتهم في بيت المغرب كما أنني على أتم استعداد للعمل على إلحاقهم بالمعاهد التي يرغبون في الدراسة بها.

المراجع

العربية

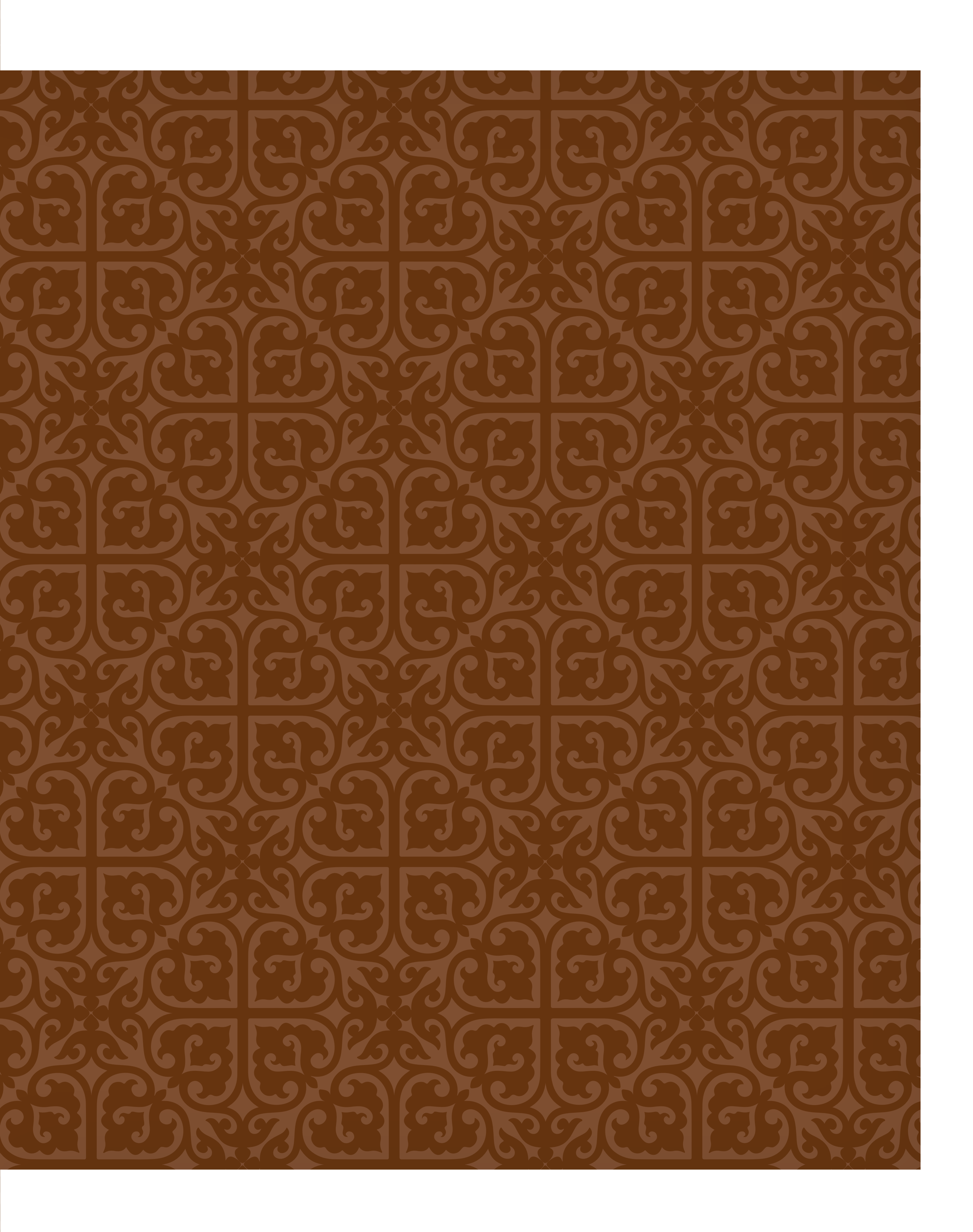
- أرشيف الجنرال باريلا، قادس/ إسبانيا (ملف 136-1).
- بن عبود، امحمد. **المراسلات السياسية للشهيد امحمد أحمد بن عبود (1946-1949)**. تطوان: منشورات مؤسسة الشهيد امحمد أحمد بن عبود، 2016.
- الرحماني، محمد علي. **ودارت الأعوام: ذكريات مثيرة لحقائق عشتها في المغرب ومصر**. طنجة: مطابع الشمال، 1993.
- داود، محمد. **الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية**. الرباط: اتحاد كتاب المغرب، 1990.
- السعود، عبد العزيز. **الاستعمار الإسباني في المغرب: المقاومة المسلّحة والنضال الإصلاحي والسياسي الوطني**. تطوان: منشورات مؤسسة الشهيد امحمد بن عبود، 2017.
- العبوتي، محمد. "الجهود الإصلاحية للوطنيين في شمال المغرب خلال ثلاثينيات القرن العشرين". مجلة **المناهل**. عدد 93 - 49 (تشرين الثاني/ نوفمبر 2012).
- مجموعة مؤلفين. **تطوان في عهد الحماية، 1912-1956: [أعمال ندوة نظمتها مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بكلية الآداب بتطوان]**. الرباط: مطابع عكاظ، 1992.
- معنينو، أحمد. **ذكريات ومذكرات**. طنجة: مطبعة سبارطيل، 1991.

الأجنبية

- Collectif. *Elites et pouvoir dans le monde arabe pendant la période moderne et contemporaine.* Tunis: C.E.R.E. S, 1992.
- Gonzalez Gonzalez, Irene & Bárbara Azaola Piazza. "Becarios marroquíes en El Cairo (19371956-): Una visión de la política cultural del Protectorado español en Marruecos." *Awraq*. vol. XXV (2008).
- Khatib, Toumader. *Culture et politique dans le mouvement nationaliste marocain au Machreq*. Tétouan: L'Association Tétouan-Asmir, 1996.



ندوة أسطور
Ostour Seminar





ندوة "أسطور"
المؤرخ العربي ومصادره

Arab Historians And Their Sources

عقدت مجلة أسطور للدراسات التاريخية، بالتعاون مع قسم التاريخ في معهد الدوحة للدراسات العليا، ندوتها بعنوان "المؤرخ العربي ومصادره"، خلال الفترة 29 - 30 نيسان/ أبريل 2019، في الدوحة – قطر، وذلك بمشاركة عدد من المؤرخين والباحثين من جامعات عربية مختلفة. دارت أشغال الندوة حول أربعة محاور ودراسة حالتين. يتعلق المحور الأول بتجارب في الأرشيف تهمّ طريقة استعماله وصعوباته، وأهمية الأجنبي منه في معالجة العديد من قضايا التاريخ العربي. أما المحور الثاني فقد وقف فيه المشاركون عند مسألة تعدد مصادر المؤرخ. وأما المحور الثالث فيتعلق بتاريخ الزمن الراهن، في حين خصص المحور الرابع لموضوع الغيرية والمصادر، وفي إطاره تعرض الباحثون للكتابات الرحلية عندما تتصدر الرحلة مدونة المؤرخ، وتصبح الرحلة نفسها أساسًا مصدريًا لكتابة تاريخ الغير. أما الحالتان اللتان جرت دراستهما، فتتعلقان بحالة المصادر العثمانية، وتعامل المؤرخين العرب مع هذه النصوص. في حين تتعلق الثانية بتاريخ فلسطين، وفي هذا المحور تطرق باحثون إلى تعامل المؤرخين والباحثين مع مصادر تاريخ فلسطين في فترات مختلفة، وفي مجالات بحثية متباينة. في هذا العدد سننشر القسم الأول من أعمال الندوة ممثلًا في تجارب مؤرخين وباحثين عرب مع الأرشيف، فيما ستنشر مجلة أسطور باقي أعمال هذه الندوة تباعًا في الأعداد القادمة.

On 29 - 30 April, Ostour – in collaboration with the Department of History at the Doha Institute for Graduate Studies – held a seminar titled Arab Historians And Their Sources in Doha, Qatar, with the participation of academics from various Arab universities. The seminar considered four main themes and two case studies. The first theme was archive experiences, the importance and difficulties of working out how to approach the archive and the importance of foreign archives to studying many topics in Arab history. The second theme was the variety of sources available to historians. The third theme was modern history. The fourth theme was otherness and sources, within which participants touched on … and travel becomes a source for writing the history of the other. The first case study was Ottoman sources and how Arab historians have approached them. The second case study was the history of Palestine. Here researchers discussed historians and researchers' approaches to sources in the history of Palestine in various periods and within various fields of study. In this issue part one of the proceedings of the seminar are made available, discussing Arab historians' experiences with the archive. Further parts will be published in later issues of Ostour.

مقدمة

التأمت بمعهد الدوحة للدراسات العليا جماعة من الباحثين من جامعات عربية مختلفة في ثلاثة أيام لتنكب على مناقشة موضوع "المؤرخ العربي ومصادره". وقد يبدو هذا الموضوع لأول وهلة مستهلكًا؛ فما عسى هؤلاء أن يقدموا؟ غير أن تتبع أشغال الندوة بيَّن أن موضوع تعامل المؤرخ مع مصادره هو موضوع متجدد بامتياز.

دارت أشغال هذا اللقاء العلمي حول أربعة محاور ودراسة حالتين. ويتعلق المحور الأول بتجارب في الأرشيف، همَّت طريقة استعماله وصعوباته وأهمية الأجنبي منه في معالجة العديد من قضايا التاريخ العربي.

ووقف المشاركون في المحور الثاني عند مسألة تعدد مصادر المؤرخ. إن كتابة التاريخ أضحت أكثر انفتاحًا على مصادر متنوعة، وتعدد المصادر يسمح بكتابة تاريخ مجالات تعذر على الباحثين مقاربتها من خلال المصادر المسماة "تقليدية". ففي هذا المحور، عولج موضوع تاريخ الضحك في المجال العربي، والنكتة باعتبارها تعبيرًا رمزيًا دفينًا يحتلّ مساحة واسعة في المخزون الثقافي للمجتمع العربي وقيمه وتقاليده وأعرافه. ووقف بحث آخر عند أهمية الأرشيف الفوتوغرافي في كتابة تاريخ فلسطين في العصر الحديث. وقد بيَّن البحث كيف استُعملت الصورة في بناء سرديات مختلفة ومتناقضة حول تاريخ فلسطين. وفي المحور نفسه، وقف بحث آخر عند أهمية الأدب الشعبي في كتابة التاريخ السياسي والاجتماعي للحركة الوطنية في تونس.

أما المحور الثالث فقد عرض فيه المتدخلون لكيفية معالجة إشكالية المصدر في حقل بحثي جديد انفتح عليه مؤرخو البلاد العربية مؤخرًا؛ إذ يتعلق الأمر بتاريخ الزمن الراهن. لقد كان من العوائق الكبيرة في هذا الحقل "أنه تاريخ من دون مصادر أرشيفية"، وهو ما يعتبر حجة للمناهضين لهذا الحقل التاريخي، وقد اصطدم مؤرخو الزمن الراهن بالعقبات القانونية التي لا تسمح للمؤرخ بالاطلاع على الوثائق قبل مضيّ نحو 30 سنة إلى 50 سنة، وفي بعض الحالات مئة سنة، وهو ما يجعل الباحث يتوجه إلى التعويض عن هذا النقص بالاستناد إلى الوثائق الخاصة والمذكرات والرواية الشفوية. بيد أن هذا الاستناد تواجهه مشكلات جمة تتمثل أساسًا في انتقائيتها وتضاربها؛ ما يجعل السؤال الذي انطلق منه الباحث في بداية بحثه مشروعًا، فأيهما أسبق من الآخر؛ السؤال قبل المدونة المصدرية أم العكس؟ وقد توقف الباحث عند هذا الإشكال فنبه إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر في التعامل مع بعض هذه المصادر، وانتبهت باحثة أخرى إلى أهمية تنويع النصوص وعرضت لتاريخ الجزائر الراهن متنقلةً بين الصحافة، من خلال الوقوف عند نموذجين من الصحافة الجزائرية الناطقة باللغة العربية، والحالة المدنية المتمثلة في دراسة عقود عدلية؛ من أجل تحديد الشبكات الحرفية في قسنطينة. وفي الاتجاه نفسه، عالج باحث آخر إشكالية التنوع والتوظيف في مصادر الثورة المهدية بالسودان، وأكد أهمية المنهج البحثي الذي يعين المؤرخ في توظيف المصادر التاريخية توظيفًا موضوعيًا.

أما المحور الرابع من هذه الندوة فناقش فيه المشاركون موضوع الغيرية والمصادر. وتعرضوا في إطاره للكتابات الرحلية عندما تتصدر الرحلة مدونة المؤرخ، وتصبح الرحلة أساسًا مصدريًا لكتابة تاريخ الغير، وتنتقل الرحلة من مصدر مساعد إلى مصدر أساسي لما تحفل به من معلومات ربما لا توفرها الوثيقة الرسمية أو النصوص التاريخية التقليدية. وقد ركز الباحث، بالأساس، على متون الرحلة المغربية إلى المشرق العربي الإسلامي. وفي الاتجاه نفسه، عالج باحث آخر استعمالات المصادر في علاقة الأقليات بالغيرية؛ حيث تنبه لخصوصيات سرديتين في تونس خلال الفترة العثمانية هما: سرديات يهود جربة، والسرديات الأباضية، كل ذلك في سبيل إعادة مساءلة منطق فاعلي الوثائق المدروسة؛ سواء من حيث مقاصدهم أو مصالحهم فيما بينهم ضمن الواقع المعيش. وتوجه دارس ثالث إلى تحليل أثر فكر المؤرخ في توجيه مسار القراءة والتفسير، من خلال مقاربة حول نص الجبرتي بين محمد جلال كشك ولويس عوض، وتظهر هذه



الدراسة اختلاف المؤرخين في مقاربة نصوصهم، فكلاهما اعتمد كتاب **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** لعبد الرحمن الجبرتي في قضية محددة؛ هي خروج النسوة إلى المجال العام المصري زمن الحملة الفرنسية، غير أنهما انتهيا إلى نتائج متناقضة باعتبار اختلاف الخلفيات والقناعات، ومن ثم يكون الوقوف عند تطويع النصوص لخدمة القناعة.

أما الحالتان اللتان جرت دراستهما فتتعلق أولاهما بحالة المصادر العثمانية، وقد تعامل المؤرخون العرب مع هذه النصوص؛ إذ توقف باحث عند أهمية النصوص العثمانية في الكشف عن تاريخ البلاد العربية في الفترة العثمانية، وتوقف عند الصعوبات التقنية الباليوغرافية اللغوية التي تواجه مستغلي الأرشيفات العثمانية. وتوقف باحث آخر عند المقارنة بين المصادر العثمانية والمصادر المغربية في رواية تاريخ العثمانيين والمغرب حتى في التواريخ العالمية، وانتهى إلى أن هناك تجاهلًا متبادلًا بين هذه المصادر، وهو تجاهل يعكس طبيعة المواقف السياسية. ودرس باحث ثالث الاختلاف بين المؤرخ التقليدي والمؤرخ العصري الذي يتجسد أساسًا، في مدى الاكتفاء بالمصادر المحلية أو الانفتاح على الفضاء الرحب؛ لما تتيحه المصادر الكونية من أجل بناء نص تاريخي متكامل.

أما الحالة الثانية فتتعلق بتاريخ فلسطين، وفي هذا المحور تطرق باحثون إلى تعامل المؤرخين والباحثين مع مصادر تاريخ فلسطين في فترات مختلفة، وفي مجالات بحثية متباينة، فجرى تناول التاريخ الحضري الفلسطيني وأهمية الوثائق الوقفية بكل أشكالها؛ من أجل استغلالها في مجالات تتجاوز التاريخ الحضري، والإجابة عن أسئلة تطرحها مدرسة التاريخ الجديد. وكان تاريخ المهمشين في فلسطين وسؤال المصادر حاضرًا على نحو قوي؛ حيث جرى اللجوء إلى سجلات المحاكم الشرعية وإعادة قراءتها، وإلى روايات زمن النكبة في سبيل استكشاف تاريخ الجماعات المهمشة منذ الفترة العثمانية إلى النكبة، بيد أن هذا السفر بين السجلات والروايات الشفوية، بالرغم من أهميته، يُعد غير كافٍ؛ لأن عمل المؤرخ يحتاج إلى الأسئلة البحثية المناسبة والمنهج النظري القويم لتأطير الحكاية قبل الغوص في تفاصيلها.

ستُنشر أعمال هذا اللقاء العلمي، تباعًا، في مجلة **أسطور** للدراسات التاريخية، قبل أن نفرد لها كتابًا سيصدر ضمن منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات في المستقبل. وفي هذا العدد، سنقتبس القسم الأول من أعمال الندوة ممثلًا في تجارب مؤرخين وباحثين عرب مع الأرشيف، أجنبيًا كان أم محليًا.

يتعلق الأمر بثلاثة أبحاث مختلفة: الأول مع أرشيف محلي، والثاني والثالث مع أرشيفين أجنبيين يتفاوتان في علاقتهما بالعالم العربي؛ من أرشيف دولة استعمارية لها أطماع ومصالح في مشرق البلاد العربية ومغربها، إلى أرشيف دولة لم تكن لها أطماع استعمارية، ولكن كانت لها مصالح اقتصادية وسياسية في المغرب بحكم العلاقات التاريخية التي ربطت البرتغال بالمغرب، والتي جعلت أرشيفها يزخر بآلاف الوثائق عن التطورات السياسية والاقتصادية في المغرب.

عملت الأبحاث الثلاثة على رصد خصوصيات هذه الأرشيفات والعناية بقيمتها وبأرصدتها التي تسعف في إثارة قضايا تصطبغ بحاضر المؤرخ. كما ركزت على الصعوبات التي يواجهها مستغلو هذه الأرشيفات، وهي صعوبات متنوعة:

الأولى، لغوية؛ حتى عندما يتعلق الأمر بالوثائق المكتوبة باللغة العربية. وسواء تعلق الأمر بالأرشيف الفرنسي والأرشيف البرتغالي، واجه مستغلو هذه الأرشيفات صعوبات كبيرة في التعامل مع الطريقة التي كُتبت بها وثائق هذه الأرشيفات. فلغة القرن الثامن عشر البرتغالية ليست هي اللغة الحديثة، وإن كان الأمر أهون بالنسبة إلى الأرشيف الفرنسي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

والثانية، باليوغرافية؛ إذ ركز كل الباحثين على مسألة الخطوط التي كُتبت بها وثائق الأرشيفات المحلية والأجنبية، وهو ما يتطلب من الباحث المستغل الإحاطة بقراءة الخطوط. واضطرهم ذلك إلى تكريس جهود لتعلم طرائق قراءة الوثائق.



أما الصعوبة الثالثة فتتعلق ببنية الوثائق، وبنية الوثيقة مرتبطة أشد الارتباط ببنية المؤسسات التي تصدر عنها هذه الوثائق. ومن ثمة سعى عبد الحميد هنية إلى التساؤل عن الأسباب التي كانت من وراء وضع الدفاتر الجبائية والسياقات التي أنجزت فيها هذه الدفاتر. ومن جهته، نبه وجيه كوثراني إلى أن وثائق أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية ذات طبيعة مختلفة تحكم في مضمونها نوعية الذين صدرت عنهم، ولكنها في المجمل تقدم "معرفةً ما" هي جزء من العلمية التاريخية (جزء من سلطة معرفة موظّفة ومستخدمة). واعتبرها وثائق "المطبخ السياسي" ومواده وعدته وأشياءه الصغيرة والكبيرة، المخفية منها والمحكية، المسكوت عليها والمعلنة. وكذلك كانت الوثائق البرتغالية التي استفاد منها عثمان المنصوري في دراسة العلاقات بين المغرب والبرتغال خلال الفترة 1790-1844.

أما الصعوبة الرابعة فمرتبطة بزمن استغلال هذه الأرشيفات بالنسبة إلى الباحثين الثلاثة، فكلهم اشتغلوا بهذه الوثائق في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي؛ حيث كانت هذه الأرشيفات أقل تنظيمًا مما عليه الآن، سواء تعلق الأمر بالأرشيف التونسي أو بغيره من الأرشيفات. ومن ثمة تأتي أهمية رصد هذه التجارب التي تسمح بالتأريخ لتعامل المؤرخين مع هذه الأرشيفات. كيف انتقل هؤلاء الباحثون في التعامل مع هذه الأرشيفات من مصدر لمعلومات إلى مرحلة تتميز بالقراءة الواعية للنصوص المتحصل عليها؟ وكيف تحوّل الأرشيف معهم من مصدر معلومات إلى موضوع للتفكير والتأمل؟

عالج الباحثون الثلاثة قضايا مختلفة، ففي حين ركز عبد الحميد هنية على قضايا الملكية والتملك في البلاد التونسية خلال الفترة العثمانية، توقف وجيه كوثراني عند ثلاثة قضايا؛ هي مسألة الخلافة والبديل الذي اقترحته وزارة الخارجية الفرنسية والجهود التي بذلتها فرنسا من أجل تحقيق مشروعها، والموقف من سايكس - بيكو وموقف مختلف الفاعلين الفرنسيين منه، وأخيرًا الموقف الفرنسي من تقسيم سورية والتعويل على الاستفادة من التعدد الطائفي والإثني في بلاد الشام. أما عثمان المنصوري فقد توقف عند رواية الوثائق البرتغالية للأحداث التي عرفها المغرب في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر.

ولكن ما يجمع الباحثين الثلاثة هو أن عيونهم ظلت متفتحة على الكيفية التي تعامل بها الباحثون قبلهم من الأجانب مع هذا الركام الوثائقي، لقد ظلت الوثائق التي نشرها هنري دوكاستر وجماعته توجه إلى حد بعيد تعامل عثمان المنصوري مع مختلف الأرشيفات البرتغالية. كما أن عبد الحميد هنية اضطر إلى استثمار جهد كبير من أجل ما يسميه "حل العقد المعرفية الاستشراقية التي تمنعه من دراسة الوثائق المتعلقة بالتملك وفهمها على أحسن حال". أما وجيه كوثراني، وإن لم يُظهر في دراسته، هذه العلاقة مع الدراسات الأجنبية فإنها كانت حاضرة على نحو خفي عندما تعرض لقضايا تعرض لها باحثون فرنسيون قبله، من أمثال جاك توبي في كتابه **فرنسا الإمبريالية: من 1890 إلى 1914**.

عبد الرحيم بنحادة
أستاذ التاريخ بمعهد الدوحة للدراسات العليا





المؤرخ العربي ومصادره

الورقة الخلفية

كيف للمؤرخ العربي أن ينهض بالمعرفة التاريخية؟ وهل للمصادر دور في ذلك؟ يحتاج المؤرخ، لكي ينتج معرفة تاريخية رصينة وطريفة، إلى مادة مصدرية متنوعة وجديدة، كما يحتاج إلى التزود بالأدوات المنهجية الأساسية التي تمكّنه من مساءلة هذه المادة، ثم تفكيكها وتحليلها وتأويلها، وأخيرًا إعادة تركيبها. إن التفكير في المصادر التي يعتمدها المؤرخ العربي، وفي كيفية تنوعها وإثرائها واستعمالاتها، يمثل أحد الشروط الأساسية للنهوض بالكتابة التاريخية. كل مؤرخ يستنبط مدونته المصدرية، وهي ضرورة لا حياد عنها. كيف يستنبط المؤرخ مدونته ويبنيها؟ وكيف يحدد ملامح موضوع بحثه من حيث العلاقة بمكونات هذه المدونة؟

تعترض المؤرخ أثناء القيام بعملية بناء مدونته مجموعة من المشكلات: كيف يكون انتقاء المعطيات؟ وكيف تكون المعاينة؟ وما الذي تراه العين؟ وما الذي لا تراه؟ فالمؤرخ يكون دائمًا انتقائيًا في نظرته إلى المعطيات عند بناء المدونة المصدرية؛ إذ يختار ما يراه مجديًا ويترك ما لا يراه كذلك، بحيث يكون في تبعية كاملة لقدراته المعرفية ولتجربته البحثية. والإشكال الأساسي في هذا المجال هو: كيف ينوِّع المؤرخ مصادر معلوماته حتى لا يقع في خطأ إنجاز تحليل أحادي لواقع مركّب ومتعدد الأوجه؟ وكيف يبني مدونته وينتقي معلوماته بصور مجدية، وبطريقة تكون مستقلة عن إكراهات التصنيفات المصدرية أو الأرشيفية أو الإحصائية؟

هنالك أسئلة أساسية تعترض المؤرخ في هذا المجال، تتعلق كلها بشروط التجديد في الكتابة التاريخية: هل السؤال قبل المصدر أو العكس؟ كيف نتخطى معضلة قلة المصادر ونبحث عن "المصادر الدفينة"؟ وأخيرًا، تأتي أسئلة الاستعمالات؛ منها: كيف نستقرأ الخطاب الذي يرشح من خلال كلمات الوثائق النصية؟

هل السؤال قبل المدونة المصدرية أو العكس؟

ما من شك في أن المؤرخ يبني مدونته المصدرية بإيحاء من سؤال يطرحه أولًا؛ إذ إن السؤال هو في صميم المنهج الذي يوجه المؤرخ نحو البحث عن السبل التي من شأنها أن تُطور الكتابة التاريخية، وهكذا يوفّر السؤال الإمكانات المصدرية الجديدة والكفيلة بتطوير المعرفة التاريخية. واستحضار **المناهج**، اعتمادًا على العلوم المساندة، يمكّن من تخصيب هذه المصادر لتطوير المعرفة التاريخية.

يكون بناء المدونة وكيفية استعمالها وما يتبع ذلك من إشكالات منهجية رهين الحقول البحثية التي تحددها الأسئلة. ثم بعد ذلك تساعد المدونة - بفعل عكسي - على تناول تلك الأسئلة بالبحث والتحقيق والتدقيق؛ ومن ثمّ يمكن القول إن القيمة المعرفية للمدونة المصدرية تكون رهينة الكيفية التي بُنيت بها. أما المعطيات ذات البعد النظري، فهي تأتي بعد ذلك؛ أي في مرحلة استعمال المصادر وتوظيفها. والانفتاح على الحقول المعرفية المساندة التي تساعد المؤرخ على الخروج من "السجون المعرفية" التي تحدّ من جدوى عمله، وتمنعه من الفهم السليم للواقع الذي يريد دراسته، هو أمر ضروري. ومن بين السجون المعرفية نذكر السجون المرتبطة، مثلًا، بتاريخ الذاكرة بصورة عامة، وبتاريخ ذاكرة الدولة بصورة أخص. والخروج من سجن الذاكرة يبدأ بمساءلة الذاكرة من حيث هي موضوع بحث بذاته. والأمر نفسه بالنسبة إلى سجن الدولة؛ ذلك أنّ الخروج منه يكون، أيضًا، بمساءلة الدولة بالطريقة نفسها.

قلة المصادر والموضوعات المنسية أو المهمشة

نوّع المؤرخون مصادرَهم؛ ما جعلهم يتحركون في حقول كثيرة. ومن بين هذه المصادر نجد كتب الإخبار، والحوليات السلطانية، وتراجم الفقهاء والعلماء، ومناقب الأولياء ورجالات الزوايا، وأنساب الشرفاء، وبيوتات الأعيان، وسجلات المحاكم الشرعية، والأوقاف والأحباس،

والدفاتر التجارية. ونجد كذلك كتب الفقه، والأحكام، والنوازل، والدواوين، والأمثال الشعبية، والتصوف، والمناقب، والرحلات، وغيرها. وفيما يتعلق بموضوع الغذاء، نجد كتب الفلاحة والنبات والجغرافيا، وكتب الأغذية والأدوية، وكتب الطبخ، وكتب الحسبة.

لا مفرَّ من إثارة مسألة محدودية المصادر الإخبارية التي وصلتنا وما فيها من ثغرات، خاصة في مجالات معيَّنة تتسم بالهامشية، مقارنةً بما نعرفه في المجال السياسي، مثلًا، وهو ما أوجد عدم توازن في مجالات البحوث التاريخية. ونلاحظ الأمر نفسه بالنسبة إلى مجال "تاريخ النساء"، وهو عمومًا من المجالات المنسية. ومن الموضوعات التي تتميز بقلة المصادر نذكر المسائل الديموغرافية. عند ما يطمح المؤرخ إلى دراسة الطواعين يواجه ندرة المصادر؛ وذلك رغم أنّ الأوبئة في العالم العربي آفة دورية، لا يخلو زمان منها في النظام الديموغرافي السابق للفترة الرأسمالية، وتكون عادة مقترنة بصورة مباشرة بالمجاعات وغلاء الأسعار. وكثيرًا ما تكون مرتبطة بتقلب الدورة المناخية في الحوض المتوسطي على الخصوص.

ومن العوائق الأساسية التي حَرمت أيضًا كتابة التاريخ من الأسفل أنّ المصادر الإخبارية المتوافرة عادة ما تهتم بالفئات العليا، وبالبلاطات، والأحداث السياسية والعسكرية، دون غيرها. أما الأوساط السفلى فهي، في أغلب الحالات، مهملة. وقد جاءت الدراسات التاريخية المعتمدة على هذه المصادر خلال الفترات السابقة سجينة ما يقدمه هذا النوع من المصادر. لهذا بات من الضروري البحث في "المصادر الدفينة" لبناء معرفة تاريخية متكاملة.

مقاربة تقاطع الاختصاصات من أجل الكشف عن "المصادر الدفينة"

كيف نجدد الكتابة التاريخية ونخرجها على مستوى المواضيع والمناهج من الزاوية المغلقة التي وجدت فيها، ونجعل من البحث التاريخي مجالًا علميًا منفتحًا ومتجددًا بصورة مستمرة؟

يكون ذلك أولًا عبر منهج تقاطع الاختصاصات الذي من شأنه أن يحرر البحث التاريخي من الكتابة على النمط القديم؛ سواء على مستوى المواضيع، أو على مستوى المناهج المتَّبعة. فكثيرًا ما يكون ذلك **المنطلق** في العثور على "الوثائق الدفينة". ويكون منهج تقاطع الاختصاصات هو الأمثل للتحكّم في مسارات البحوث التاريخية ونتائجها، خاصة من زاوية طرح الأسئلة واستنباط المدونة المصدرية. واكتشاف وثائق دفينة من شأنه أن يبدل بصورة جذرية فهم التاريخ وكتابته. وكلما تنوعت المصادر، فتحت نوافذ جديدة للبحث، وفي الوقت ذاته يحصل إمكان الاهتداء إلى مصادر أخرى؛ ذلك أن تغيير الحقول البحثية، وتوسيع دائرتها وحدودها، من شأنه أن يؤمّن إمكانية الاهتداء إلى وثائق مصدرية جديدة.

والمصادر الدفينة متنوعة؛ منها الأرشيفات بأنواعها، ويمكن أن نذكر، على سبيل المثال، تلك المصادر التي نجدها في مراكز مختصة بجمعها وترتيبها، وكذلك ما تجمعه العائلات من وثائق تحفظ مصالحها وذاكرتها، ومنها الكُنّاشات [الدفاتر الصغيرة] التي يدوِّن فيها الأفراد ملاحظاتهم واهتماماتهم اليومية، ونجد كذلك كتب النوازل الفقهية، وكتب المناقب والأنساب، وكتب الجغرافيا والرحلات، والموسوعات القديمة، ومؤلفات البدع، وبعض الشروحات للمتون الدراسية، ودواوين الشعراء ... إلخ. ونجد، أيضًا، كتب الرحلات والتراجم، إضافة إلى الأدب الفقهي المتمثّل في رسائل الطواعين التي ظلّت إلى فترة غير بعيدة مغمورة.

من بين التجارب البحثية الجديدة التي ساعدت خلال السنوات الأخيرة على استنباط وثائق دفينة نجد تلك التجارب التي اهتمت باللباس ورموزه، وبالجسد، وبالغذاء. وتَطوُّر المعارف بمنهج تقاطع الاختصاصات في هذه المجالات هو الذي جاء بهذه المباحث التاريخية مُستحدَثة إلى دائرة الضوء لدى المؤرخين. هذا ما يثبت أنّ الكتابة التاريخية لا يمكن أن تكون إلّا في ارتباط وثيق بالعلوم المجاورة التي يُستمد منها العناصر الضرورية لتناول قضاياه البحثية بأكثر دقة. هكذا، إذًا، يكون توسيع رقعة المصادر دافعًا لتوسيع رقعة الحقول البحثية في الكتابة التاريخية المجددة.



من المدونة المصدرية إلى استعمالاتها

مهما كانت المصادر دقيقةً وثريةً، فهي لا تبني البحث. وعلى المؤرخ ألّا يعتمدها بعفوية، وألّا يأخذها على ظاهرها. كيف يسائل المؤرخ مصادره؟ وبأي منهج يتناول موضوعاته من خلالها؟

كيفما كانت طبيعة المصادر، فهي تبقى دائمًا خاضعة لشروط إنتاجها؛ باعتبارها مادة غير جامدة من وضع أفراد في ظروف معينة. لهذا يجب ألّا نهمل الشروط الذاتية التي كانت وراء بناء مدونة مصدرية. فإبراز الجوانب الذاتية التي كانت وراء عملية استنباط محاور مدونة مصدرية وعملية بنائها من شأنه أن يساعد على تخطي بعض المطبات التي تفرزها المدونة، بحيث تكون المعرفة التي تُنتج من خلالها في تبعية للسياق الذي وضعت فيه؛ لذلك فإنّ التفكير في هذه الشروط، ومساءلة حمولة مكونات المصادر، يساعد المؤرخ على استغلال المعطيات المصدرية بأكثر جدوى.

يحتاج المؤرخ إلى ترتيب مصادره وتحديدها ووضع مسطرة الاستعمال المناسبة. ويحتاج، أيضًا، إلى استنباط تصنيفاته المعرفية المناسبة لحقل بحثه وطبيعة مدونته. ومن حيث المنهج، من المفيد التفكير في طريقة توظيف المصادر التاريخية، والبحث في منطقها ووظيفتها وبنيتها، وهو أمرٌ يساعد على بناء إشكاليات مجددة تنفذ إلى عمق الممارسات الاجتماعية، وذلك من خلال الاهتمام بالتمثلات والإمساك بالمضمون الاجتماعي للتصنيفات الاجتماعية، مع التمييز بين تاريخ الكلمة وتاريخ استعمالاتها (أي مضمونها الاجتماعي)؛ ذلك أن الكلمة تكون دائمًا مرتبطة بتمثيلات في الذاكرة الدلالية. ربما لا تتغير الكلمات في شكلها، ومع ذلك فهي مصدر لتأويلات متنوعة، بل أحيانًا مختلف بعضها عن بعض اختلافًا جذريًّا. إن السياقات هي التي تجعل معنى الكلمات واستعمالاتها في تحول متواصل، بحيث نستحضر ذلك القول الشهير للفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتغنشتاين (1899-1951): "لا وجود لكلمات، هناك استعمالات فقط".

كيف يستطيع المؤرخ تخطي المحلية (التي عادة ما تفرضها طبيعة المدونة المصدرية) إلى طرح قضايا ذات بعد كوني؟ من المفروض أن يشكّل تخطى المحلية والتوق - بقدر المستطاع - إلى الكونية (أو العالمية) الهاجس المنهجي الأساسي في عمل المؤرخ. والخروج من "سجن المحلية" يتمّ عادة عبر اعتماد منهج المقارنة في معالجة عيّنات المدونة، وكذلك القضايا التي تطرحها.

والانفتاح على النظريات، وما تقدمه العلوم المساندة، يجب ألّا يُنسيَ المؤرخ ضرورةَ النظر إلى الداخلي، وإيلاء أدوار الفاعلين المحليين وأقوالهم أهميةً كبرى، بعيدًا عن النظرة النخبوية للواقع. المهم أن يكون المؤرخ أكثر انغماسًا في الواقع المحلي.

كيف نتعامل مع الوثائق التاريخية من أجل التأويل والحفر والتنقيب؟ يعتبر التأويل والتفكيك بمنزلة الآليات الأساسية لقراءة الوثائق التاريخية قصد بناء معرفة تاريخية رصينة. وقوام تأويل الوثائق النصية هو الحس النقدي والتركيز على التمثلات، وعلى الرموز التي ترشح بها الكلمات. إن الممارسة التأويلية للوثائق التاريخية تجعلنا ننفلت من دوغمائية القراءات السطحية، وتجنبنا مأزق الثنائيات التي كثيرًا ما تعرقل المعرفة التاريخية. ولتجاوز هذا العائق، علينا أن نبحث عن مجالات التداخل بين العناصر المكونة للثنائيات والعلاقات المتبادلة بينها.

عبد الحميد هنية
رئيس قسم التاريخ بمعهد الدوحة للدراسات العليا



وجيه كوثراني | Wajih Kawtharani*

في الاشـتغال عـلى أرشـيف وزارة الخارجيـة الفرنسـية كشـف معطيـات في مسـائل اجتماعيـة وسياسـية (الخلافة، سايكس – بيكو، تقسيم سورية)

Researching the Archive of the French Foreign Ministry: Data Analysis in Social and Political Affairs

مقدّمة

من خلال تجربة عملي في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية، ومن خلال اشتغالي البحثي على إشكاليات انتقال ما أسميته الاجتماع السلطاني – العصباني، المتمثل بالدولة العثمانية وصيغ سلطاتها الأهلية الوسيطة في بلاد الشام، وبالتحديد في سورية ولبنان، إلى زمن الاجتماع الوطني المتمثل بنشأة "الدولة الوطنية"، كنت أتوخى أن أجد معطيات للإجابة عن سؤالين مترابطين:

أولًا: ما كانت عليه أوضاع السلطات الأهلية (التقليدية) من أمراء محليين ومشايخ وزعماء طوائف وقبائل وعائلات نافذة وقوى إنتاج (تجار، حرف، فلاحون) بعد أن فعل فعله التغلغل الغربي الرأسمالي في بنيات المجتمع الأهلي، ولا سيما في غضون القرن التاسع عشر؟

وثانيًا: ما كانت نظرة الدبلوماسية الفرنسية، بل على نحو أشمل، ما كانت عليه استراتيجيات فرنسا وسياساتها، وقد كانت، إلى جانب بريطانيا، فاعلًا أساسيًا في رسم السياسات الكولونيالية وتحديد مناطق النفوذ في المنطقة بل في تصور كيانات سياسية بديلة وتحديدها؟

لا شك في أن الإجابة عن السؤال تتطلّب العودة إلى مصادر أهلية ومحلية ككتب التراجم والأعيان والسير والمذكرات، وأرشيفات أهلية، لكنّ معطياتٍ تذخر بها مراسلات القناصل في عواصم الولايات العثمانية، كبيروت ودمشق والقدس وحلب، وكذلك تقارير خبراء ومستشارين ورجال أعمال وغرف تجارة (كليون ومرسيليا)، ورجال دين (لا سيما من الإرسالية اليسوعية)، كانت مفيدة في إلقاء الضوء على وضع تاريخي مزدوج، بل ملتبس، فمن جهة، ثمة وصف في المراسلات القنصلية وفي تقارير الخبراء (لا سيما في هذه الأخيرة) لحالات اجتماعية واقتصادية وسكانية (ديموغرافية) ولأرقام ومقابلات مع شخصيات، فهي من هذه الجهة تنقل واقعًا (إمبريقيًا)، أو تزعم نقل واقع، ولكن من جهة ثانية تقدم "منظورًا" لهذا الواقع محملًا بتفسير خاص، وغالبًا بتأويل مشبع بالإسقاطات الأيديولوجية (الغربية)، وموظفٍ في سياسات واستراتيجيات ومصالح محددة، ومع هذا يبقى "معطى تاريخيًا" يمكن، بل يجب، التعامل معه كجزء لا يتجزأ من العملية التاريخية نفسها. فهذه التقارير والمراسلات تختلف عن تصريحات المسؤولين العلنية، كما تختلف عن طبيعة القرارات الكبرى ونصوص الاتفاقات والمعاهدات المنجزة والتي غالبًا ما يعود إليها المؤرخون التقليديون: إن المراسلات القنصلية وتقارير الخبراء والمستشارين تقدم "معرفةً ما" هي جزء من العملية التاريخية (جزء من سلطة معرفة موظّفة ومستخدمة). إنها وثائق "المطبخ السياسي" ومواده وعدته وأشياؤه الصغيرة والكبيرة، المخفية منها والمحكية، المسكوت عليها والمعلنة.

إذًا ماذا نجد في هذا المطبخ؟ أو بالأحرى ماذا وجدت في هذا المطبخ مما كان له علاقة (وأقصد بالعلاقة هنا العلاقة المعرفية) بالإشكاليات البحثية التي كنت بصدد معالجتها؟ إنها كثيرة، تتوزع أوراقها التي هي رسائل وتقارير ومذكرات ودراسات على مجموعات منظمة في ملفات، هي أشبه بمجلدات، وتنتظم هذه الملفات في سلاسل Series وتحمل كل سلسلة عنوانًا يشير إلى بلد أو منطقة وحقبة زمنية معينة.

* مؤرخ وأستاذ زائر في برنامج التاريخ، معهد الدوحة للدراسات العليا، قطر.
Historian and visiting professor at the Doha Institute for Graduate Studies, Qatar.

ومن نماذج هذه السلاسل التي عدتُ إلى بعض محتوياتها في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية:

- Turquie (1912-1914).
- Turquie-Guerre (1914-1918).
- Levant, Syrie-Liban (1918-1929).
- Levant-Palestine (1918-1929).

يرتبط المضمون الذي يسعى له المؤرخ في خضم الكم الهائل من الأوراق الذي تحويه هذه الملفات باهتمامات ذهنية وفرضيات لديه، تؤدي دور الموجه للاختيار والانتقاء، علمًا أن اكتشافاتٍ لما هو غير متوقع، تبقى محتملة الورود أثناء التفتيش والتصفح والتفحص، وهي عمليات لا نهاية لها إلا بقرار إرادي ملزم بوقتٍ محدود وزاد معلوم من الوثائق. تحوي هذه الملفات على سبيل المثال تقارير خبراء – ومنهم من أهل الاختصاص الأكاديمي – وفيها دراسات في الديموغرافيا والسكان، وتوزعهم المناطقي والديني والمذهبي، بل أيضًا مقاربات في الأنثروبولوجيا الدينية والاجتماعيات الدينية السياسية في البلاد، كمقاربات عن مختلف الطوائف والإثنيات في بلاد الشام؛ عن الموارنة والدروز والعلويين، والجركس والشيعة والسنة، كما نجد تقارير خبراء في الاقتصاد والثروات الطبيعية والزراعية وتأهيل الموانئ والسكك الحديدية، وغير ذلك. وهذا في الجانب الكمي والتحليلي من المعرفة الديموغرافية والسوسيولوجية والاقتصادية.

- وفي جانب آخر، جانب التحليل الاجتماعي – السياسي والثقافي للقوى السياسية في البلاد وللنخب المحلية واتجاهاتها، نجد التقارير التفصيلية عن الصحف وأصحابها، والكتّاب واتجاهاتهم وكيف السبيل إلى استمالتهم، كما نجد محاضر قناصل عن مقابلات أجروها مع زعماء طوائف أو كتّاب (كالمقابلة التي أجراها قنصل دمشق مع محمد كرد علي).
- وفي الجانب السياسي – الاستراتيجي، ولا سيما في موضوع مصير الإمبراطورية العثمانية وولاياتها في المشرق، نجد تقارير ودراسات في مآل ما ستسفر عنه مناطق النفوذ في سياق الصراع والتنافس بين القوى الأوروبية ولا سيما بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا. ومن مفردات هذا الصراع، مسألة الخلافة واحتمال تداعياتها، زعامة الشريف حسين، بواكير الوعي القومي العربي، الصلات ما بين مشرق ومغرب، ما بين سورية ومصر، سايكس – بيكو وردّات الفعل عليها، كيف ينبغي التعامل مع "المسألة السورية" بعد أن تفككت المسألة الشرقية إلى مسائل، أي دولة أو دول تقترح كبدائل في ظل مشروع الانتداب الفرنسي، وغير ذلك.

نكتفي في هذه الورقة بكشف ما في هذه الوثائق حول ثلاث مسائل:

- **أولًا: مسألة الخلافة.**
- **ثانيًا: حول الموقف الفرنسي من سايكس – بيكو.**
- **ثالثًا: في الحوار السري بين الرئيس الفرنسي ميلّران والجنرال الفرنسي غورو: مخطط تنظيم سورية.**

أولًا: مسألة الخلافة

عندما دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا، وانطلقت دعوة "الجهاد" من الجانب التركي في وجه "حلف الكفار"، كما جاءت الصفة في نص الدعوة، حتى كان الحلفاء بدورهم يستخدمون الأسلحة نفسها (الدينية) للتصدي لهذه الدعوة. ففضلًا عن تحركات بريطانيا إلى جانب الشريف حسين، حيث طرحت في أذهان المخططين الإنكليز أهمية نقل قيادة العالم الإسلامي من أيدي الترك إلى أيدي العرب انصب الجهد الدبلوماسي لدى الحلفاء وانصبّت الجهود الفكرية (بل البحثية) المرافقة على دحض دعوة الجهاد

التي صدرت عن السلطان (باعتباره خليفة) وعن شيخ الإسلام وبيان بعدها الشرعي عن الإسلام، وتقديم التحليلات المختلفة عن الخلافة ومسألة الوحدة الإسلامية ومستقبل المدينتين الإسلاميتين المهمتين في الجزيرة العربية؛ مكة والمدينة.

من جانب فرنسا تلجأ وزارة المستعمرات إلى إعداد مذكرة في هذا الشأن بموضوع "الوحدة الإسلامية والخلافة" يعدها جهاز المعلومات، ويرسلها وزير المستعمرات إلى وزير الشؤون الخارجية، اعتمادًا على مراقبة التحركات الدبلوماسية البريطانية في القاهرة، ولا سيما أن بواكير نسج العلاقة مع الشريف حسين (شريف مكة) وأبنائه كانت قد بدأت منذ عام 1912، والتي أسفرت لاحقًا عن مراسلات حسين مكماهون المعروفة: وجوهرها مملكة عربية مشرقية.

الموقف الفرنسي يلخصه وزير المستعمرات في رسالته: "إن فرنسا هي أيضًا مهتمة جدًا بمستقبل مكة والمدينة [...] إن أي نظرة مستقبلية تستهدف أي تعديل محتمل في الوضع الحالي للحجاز، يجب أن تستتبع منطقيًا تفاهمًا مشتركًا بين بريطانيا وفرنسا وروسيا وإمكانية دعوة إيطاليا إلى الانضمام إلى ذلك".

معروفة هي، وبالتفاصيل، الخطوات والمسارات اللاحقة على مستوى الأحداث والقرارات والإجراءات، لكن المذكرة، التي هي أشبه بتقرير يعكس معارف دراسة أو دراسات معتمدة حول مسألة الخلافة الإسلامية، تحمل - إذا ما شئنا أن نؤرخ للأفكار، ولا سيما للأفكار السياسية لدى خبراء الدبلوماسيات – معانيَ ودلالات للإجابة عن أسئلة مؤرخ معاصر من مثل: مدى انطباق مؤسسة الخلافة على الحال العثماني، وماهية الأبعاد السياسية والاستراتيجية التي تستدعيها أو تستحضرها في العالم الإسلامي وفي العالم، بل ماهية ما تعنيه في العقل السياسي لدى النخب محليًا، أو في المقابل، لدى العقل السياسي الكولونيالي. وهنا الفرنسي بالتحديد.

تحمل مذكرة وزارة المستعمرات التاريخ التالي: باريس، 31 كانون الأول/ ديسمبر 1914، علمًا أن مذكرة أخرى، أعدّها خبراء وزارة الشؤون الخارجية أيضًا "أحداث الشرق والخلافة"، كتبها أحد الخبراء حيث حملت اسمه M. Gaillard، وتاريخها 7 آذار/ مارس 1915.

تبدأ المذكرة الأولى بإعلان "أن فتوى شيخ الإسلام في الدعوة إلى الجهاد لم تر في العالم المحوري الرد الذي كان يُنتظر ضد الحلفاء، ذلك أن الإمام في إطلاقه عملية الجهاد معتمدًا على قوة 'كافرة' نزع عن دعوته الصفة الشرعية الضرورية لنجاح مثل هذا المشروع المتوخى".

من هنا يتساءل كاتب المذكرة "عما إذا كانت اللحظة مناسبة، حيال النشاط الجرماني التركي المتذرع بالوحدة الإسلامية أن يثير معارضة خليفة جديد تتوافر فيه جميع الشروط العقائدية الضرورية".

يستعرض كاتب المذكرة شخصيتين، ويتساءل أي شخصية يمكن أن تدعى إلى مثل هذا الدور الإسلامي؟

1. سلطان مراكش، بصفته شريفًا ونظرًا إلى الدور الذي قامت به الأسرة الشريفة منذ قرون، هو مؤهل بكل تأكيد لادعاء الإمامة، لكن بصفته "محميًا فرنسيًا" Protégé français مما يفقده حيال هذا الشأن، ميزة الاستقلال الضرورية في نظر المسلمين. أكثر من ذلك، يضيف من جهة أخرى أن "ليس لنا مصلحة في تقوية سلطته المعنوية والتي لا نظير لها في مراكش، فهي تجسد فعلًا اتجاهًا إسلاميًا خاصًا Shisme، وفي إمكانها أن تقوم كسلطة مغربية في مواجهة سلطة خليفة المشرق. ونحن لا يمكن إلا أن نتمنى غياب وحدة الطاعة في الإسلام. وإذًا، تستبعد المذكرة ترشيح سلطان مراكش عن هذه الوظيفة المرشحة للنقل من إسطنبول إلى مركز عربي (ملائم).

2. المرشح الثاني في المذكرة هو شريف مكة، تقول المذكرة "إن موقع شريف مكة يبدو من ناحية هذه النقطة الأخيرة، أكثر ملاءمة، فهو من ناحية شرعية محق تمامًا في المطالبة بالخلافة، وهو يمثل في مواجهة الإسلام العثماني الرسمي، الإسلام العربي القديم، ولأنه حامي الأماكن المقدسة فإنه يحظى بهذه الصفة باحترام جميع المحمديين. إذًا فإن هذه الشخصية اللامعة في العالم الإسلامي هي القادرة على أن تقف ضد الاغتصاب العثماني".



على أن المذكرة تعود فتستذكر أو تستدرك أن الحراك الدبلوماسي البريطاني هو المؤهل للتفكير في هذا المشروع والقادر عليه. تصرّح المذكرة: "فإلى بريطانيا يعود الأمر في تفحص الدور الذي ينبغي إعطاؤه في هذه الشخصية [...] فهذه الدولة الكبرى لها مصلحة في إقامة نظام خلافة على أبواب مصر، بتنظيم مركز ديني يجمع شمل العرب في قلب الجزيرة العربية".

تضيف المذكرة بعدًا آخر عالميًا يمكن أن تسعى إليه بريطانيا؛ احترام معتقدات 62 مليونًا من المسلمين الهنود. "تخليص مدن الإسلام المقدسة من السيطرة العثمانية لتنشئ في مهد العقيدة الإسلامية وتحت إشرافها الضمني استقلالًا لا يسع مسلمي العالم بأسرهم أن يكنُوا له اعتبارًا".

وبمعزلٍ عما آلت إليه الاتصالات البريطانية مع الشريف حسين آنذاك، وبمعزل أيضًا عن موقف الشريف حسين من التسمية الاصطلاحيةً لمنصبه المتصور (أو المتخيل) مستقبلًا (ويبدو أن الدبلوماسية الفرنسية لم تكن على علم بتفاصيلها آنذاك أي حين كتابة المذكرة الأولى) فإن السياسة الفرنسية كان يهمها بالدرجة الأولى، تداعيات هذا المتغير الكبير، أي مركز الزعامة الإسلامية العالمية، على نفوذها "المكتسب" في شمال إفريقية (المغرب، الجزائر، تونس، موريتانيا ... إلخ) وعلى مشروعها المستقبلي في سورية الكبرى (أي بلاد الشام). تخفف المذكرة من قلق الاستراتيجيا الفرنسية في هذا الأمر فتخلص إلى الاستنتاج: "ومن وجهة النظر الفرنسية، لن يكون هناك ثمة تغيير باستثناء أن الإمام المنصّب وفقًا للتقليد السني، سيمارس - بصفته العربية - جاذبية أكبر على مسلمينا في إفريقية الشمالية. ولكن ليس لنا أن نقلق بسبب ذلك. فالخليفة الجديد لن يفكر في أي لحظة في تحقيق وحدة إسلامية لم توجد قط في التاريخ حتى في أروع عصور محمد".

على أن المذكرة الثانية والتي تحمل عنوان "أحداث الشرق والخلافة"، والمؤرخة بتاريخ 7 آذار/ مارس 1915 تقدّم أفكارًا تتقاطع بعضها مع المذكرة الأولى ولكنها تضيف عناصر تاريخية وأيديولوجية وجيوسياسية أكثر "عمقًا" وواقعية من ناحية معرفية، وكذلك من ناحية تلائم التفكير الاستراتيجي الكولونيالي مع معطيات الواقع. تبدأ المذكرة بالقول: "إن الحرب الأوروبية واحتمال انتصار دول الوفاق الثلاثي، يمكن أن يؤديا إلى تغير عميق في وضعية سلطان إسطنبول حيال الإسلام، وأن من الضروري أن نرصد منذ الآن النتائج من أجل تعيين الاتجاه المناسب لسياستنا الإسلامية في شمال إفريقية وموريتانيا والسودان".

مقدمات هذا الرصد تتمثل أولًا باكتشاف ما تسميه المذكرة "الخلل" التاريخي الذي أصاب نموذج "الخلافة" التأسيسي الأول في العهدين الراشدي وصدر الإسلام. بعد ذلك ثمة انشقاقات كرست واقعًا تاريخيًا تجزيئيًا يصعب بل يستحيل تجاوزه. يسترجع كاتب المذكرة أحداثًا من مثل "السلاطين المغاربة من مرابطين موحدين خلقوا من خلال إعلان استقلالهم عن خلافات المشرق، نوعًا من إسلام مغاربي امتد طويلًا في كل المغرب من تونس إلى مراكش"، ومن جهة الشرق "الانشقاق الشيعي فصل فارس عن الجماعة الإسلامية".

أما بالنسبة إلى أسرة بني عثمان التي "استولت على الخلافة" على الرغم من سنة الرسول القائلة باختيار الخليفة من قريش بحسب قوله (وهو قول مختلف عليه)، فتشدد المذكرة على جانب مهم في عمليات الاستيلاء واستمرارها كسلطة (أي كسلطان مستمر وممتد وبمعنى Pouvoir)، وهو الجانب الذي تسميه المذكرة "القوة المادية" للإسلام. تقول المذكرة "هذا السلطان التركي لم يعترف بسلطانه إلا حيث امتدت قوته العسكرية. وإذا كان السلطان حتى الساعة، لا يزال يتمتع بشيء من النفوذ في ممتلكاته الأفريقية، ليس لأنه يعتبر 'أميرًا للمؤمنين'، بل لأنه لا يزال يمثل التعبير الأمثل والأعلى لقوة الإسلام المادية". وتستنتج المذكرة: "وفي هذه الحالة، تؤدي الفكرة الدينية دورًا أقل ممّا تؤديه فكرة المقاومة (أو المعارضة) السياسية الموجهة هنا ضد القوة الأوروبية المهيمنة". ولهذا يلاحظ كاتب المذكرة "أن الجيل الشاب من ذوي الاتجاهات الحديثة هو الأكثر إظهارًا للتعاطف مع الأتراك، في كل من الجزائر وتونس ومصر".

أما عن شباب "تركيا الفتاة" فيرى الكاتب أن تعاطفهم مع فكرة "الحرب المقدسة" (أي دعوة الجهاد)، هو تعاطف سياسي بحت. ثم يجمل القول: "الشباب المسلم الذي تربى - كما يقول - في أجواء الأفكار الحديثة وكان على احتكاك مع الأوروبيين تأسرهم فكرة تجميع عناصر الإسلام لمقاومة أوروبا ونيل استقلالهم".

وفي المقابل، يرصد الكاتب حالةً إسلاميةً لا تزال قائمة وصحيحة حتى اليوم هي حالة المحافظين. يقول: "أما إخوانهم في الدين ممن نشأوا نشأة إسلامية محافظة ʼفي التقليد الإسلاميʼ فإنهم يأخذون في الاعتبار أن المفهوم القديم لأمير المؤمنين، لم يعد ممكنًا في الدول المسلمة الحديثة أو الواقعة نوعًا ما في التبعية لأوروبا، وجل ما يطمحون إليه هو أن يحافظوا على نوع من روابط تقليدية حيال زعيم روحي يدعى له في الصلاة، وهذه البقية الباقية من الخلافة ترضي ضميرهم، وأنه خلف هؤلاء تسير الجماهير الجاهلة".

على قاعدة هذا الفهم، يتوقع الكاتب السيناريوهات التالية بعد هزيمة الدولة العثمانية:

1. استمرار السلطان العثماني في منصبه (حتى في حال تدويل القسطنطينية كاحتمال)، ولكن سيصبح ضعيفًا ومحدود الصلاحيات في إطار انحسار تركية في آسيا الصغرى.
2. قبول افتراض الشريف حسين سلطانًا على الأماكن المقدّسة في الحجاز، وزعيمًا روحيًا لعالم إسلامي يحتك به كل عام عبر موسم الحج.
3. أما تونس والجزائر والمغرب فيتساءل الكاتب عن "أي موقف ينبغي أن نتبناه حيال أملاكنا في الشمال الغربي الأفريقي؟".

يفرد من أجل الإجابة عن هذا السؤال بقية المذكرة.

في المنطلق، يشدّد الكاتب على أن "مصلحة فرنسا (مصلحتنا) تقضي بأن نترك الإسلام يتجزأ. ولهذا – يضيف - ينبغي من طرفنا أن نظهر التأييد لشريف مكة في المشرقين من دون أن نعينه على التوسع في المغرب. وهذا يقودنا نحو تصور لإعادة بناء الإسلام المغربي في ظل السلطة الروحية لسلطان المغرب".

لكن الصعوبة التي يتنبّه لها الكاتب هي عملية استباع أو استدراج تونس والجزائر إلى الاعتراف بالسلطة الروحية لسلطان المغرب والذي هو ومن زاوية تاريخية وعرقية مستقل عن سلطان تركيا.

يعرض الكاتب المشكلة كالتالي:

"أن تونس تقبل رسميًا سيادة سلطان القسطنطينية، وباسم هذا الأخير تقام الصلاة في المساجد". وهذا الواقع لم يغب عن انتباه سلطات الوصاية الفرنسية منذ بداية الحرب، ولكن تركت الأشياء على حالها، لكي لا تستثير شعورًا غير مجدٍ لدى المسلمين المثقفين الكثر ذوي النفوذ في تونس.

"أما في الجزائر، فتجري الصلاة باسم الخلفاء الأولين الأربعة. وهذه صيغة يؤخذ بها في حال عدم وجود أمير للمؤمنين معترف به. والناس في الجزائر اعتادوا هذه الصيغة. وهنا لا وجود لجماعة من المثقفين المسلمين المحليين. أما المدارس الموجودة والتي يديرها مواطنونا فلا تشبه أبدًا جامعات الأزهر في القاهرة، والزيتونة في تونس، والقرويين في فاس".

إذًا، لا مشكلة بالنسبة إلى الجزائر، لأن كاتب المذكرة متيقن آنذاك أن فرنسا ممسكة بالوضع، ومسيطرة على المدارس، وليس هناك من مركز ديني (قطب ديني) قادرٍ على استقطاب ديني سياسي مستقل.

"إعادة البناء" الذي يقترحه الكاتب ويسميه "إصلاحيًا" يقوم على التوجه نحو حلين أو مقترحين؛ الأوّل: إضافة اسم "الباي" إلى جانب اسم سلطان المغرب في خطبة الصلاة. وهذا الاقتراح يشكك في قبوله، "فقد لا يستقبل على نحو مشجع" ويترك هذا الأمر في انتظار "استشارة الحماية الفرنسية في تونس". والثاني، وهو الأهم، وتُطلب المباشرة به: البدء أولًا بإقامة علاقة بين علماء تونس وعلماء المغرب، أي على نحو أساسي بين جامع القرويين وجامع الزيتونة، حيث تجري محاولة إقناع علماء تونس بقبول الاعتراف بالسلطة الروحية لسلطان المغرب، وعلى موازاة ذلك، تكليف علماء "بتنظيم التعليم العالي الإسلامي وقضايا الحبوس".

ويختم الكاتب مذكرته بالاستنتاج التالي: "لا شك في أن مثل هذه الروابط التي ستنشأ مع الجزائر ومع تونس هي اصطناعية. ولذا ينبغي ألا ننتظر في البداية حماسًا كبيرًا من أجل سيادة السلطان-الشريف (سلطان المغرب) قبل أن تتأكّد (هذه السيادة) مع الوقت



والعادة. وعلى كل حال فإن المستقبل هو الذي لا بد من رؤيته. ذلك أن إعادة بناء الإسلام المغربي ستقدم لاحقًا فائدة عظمى، ليس فقط للعرب البربر في شمال إفريقية ولكن أيضًا للسكان المسلمين في الصحراء وموريتانيا. فهؤلاء نظرًا إلى بدائيتهم، وسوء استيعابهم للإسلام وطواعيتهم الأكثر وضوحًا من إخوانهم البيض، سيكونون إلى حدّ ما بمنأى عن التأثيرات التي لا ننالها بوسائلنا. ومن هنا فإن هؤلاء يمكن أن يتلقوا توجيهات أكثر اتفاقًا مع رؤانا السياسية".

ثانيًا: حول الموقف الفرنسي من سايكس – بيكو

حملت اتفاقية سايكس – بيكو، منذ انكشافها أثر الثورة البلشفية في عام 1917، تفسيرات وتأويلات وردّات فعل مختلفة الإيقاعات والتأثيرات والتداعيات، جاءت بالنسبة إلى النخب العربية المشرقية ناكثةً بوعود بريطانيا للشريف حسين، كما جاءت بالنسبة إلى السياسة الإنكليزية وبعد مجريات المعارك العسكرية التي اتضح فيها غلبة الدور العسكري البريطاني على جميع الجبهات المقاتلة، بحصةٍ لها أقل بكثير من اعتبارات ميزان القوى على الأرض، وبصيغةٍ - وقد اكتشف البترول في الموصل من جهة وأقطع وعد بلفور للصهاينة من جهة أخرى – لا تلبي مصالحها في العراق وفلسطين، أي آمالها في بترول العراق وحساباتها الاستراتيجية والصهيونية في فلسطين والتي هي (أي فلسطين) جسر وصلٍ أو حاجز قطعٍ بين سورية ومصر.

أما بالنسبة إلى الفرنسيين، فجاءت سايكس - بيكو "مخيبةً" لآمال عدد من القطاعات الفاعلة الفرنسية، وفي مقدّمة تلك القطاعات رجال الأعمال الفرنسيون، ولا سيما الممثلون في غرفة تجارة ليون وغرفة تجارة مرسيليا، وكذلك الإرسالية اليسوعية، وأدبيات أكاديمية كولونيالية، مثلتها على نحو أساسي مجلة *L'Asie Francaise* والمباحث الكثيرة التي جمعتها بيبلوغرافيا Masson.

يجد الباحث في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية وثائق كثيرة حول مواقف هذه الأوساط من سايكس - بيكو. وقد توقفت في مبحثي حول هذا الموضوع على أربع وثائق، هي رسائل "عرائض" Petitians مقدمة إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسي، وهي:

1. رسالة غرفة تجارة ليون المؤرخة في 15 كانون الثاني/ يناير 1915، ومعنونة كالتالي:

La chambre de commerce de Lyon à Monsieur le Ministre des Affaires étrangères, Juin 1915 dans F.M.A.E, série Turquie-Guerre 1914-1918. Dossier 869, folio 28.

2. مذكرة غرفة تجارة مرسيليا، بتاريخ 26 تموز/ يوليو 1915.

3. مذكرة غرفة تجارة ليون بتاريخ 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1918.

F.M.A.E. serie Levant 19181929-, Dossier 3 folio 192-193.

4. تقرير الرئيس العام للإرسالية اليسوعية بتاريخ 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1918.

تشدد مذكرة 1915 على "وحدة سورية الطبيعية"، فتنطلق أساسًا، من تعيين إطار رقعة المصالح الاقتصادية الفرنسية في الشرق وحدودها. هذه "الرقعة" هي "سورية، كما يعرفها تجارُنا، التي يُطالبون بها لفرنسا بصورة غير قابلة للجدال؛ وهي تمتد من طوروس إلى مصر، وتشتمل على كيليكيا، كما على فلسطين".

أما المصالح الاقتصادية الفرنسية التي تبرر ذلك، فتُعبّر عنها رسالة غرفة ليون كما يلي: "إن سورية بلد منتج للحرير، وهذا يعني أنها جزء من سوق ليون الكبيرة التي أصبحت بدورها ومنذ فتح قناة السويس أهم مركز للعالم للمواد الحريرية. إن سورية تُصدّر إلينا نحو 500 ألف كيلو من الحرير سنويًا، أي ما يُعادل في السنة العادية 25 مليونًا من الفرنكات. هذا ولم يكتف مواطنونا باستيراد المنتوجات

التي يُعدّها أهل البلاد، بل بادروا بأنفسهم إلى إنشاء "حلالات" في لبنان، كما أن عمليات شراء الشرانق التي تتطلب رساميل كبيرة كانت تؤمن بواسطتهم، أنهم يعرفون جيدًا مراكز الإنتاج والأراضي الزراعية ولديهم علاقات شخصية مع أهالي البلاد"[2].

بيد أن رسالة غرفة ليون بتركيزها على إنتاج الحرير لا تستطيع أن تبرر "اقتصاديًا" مطلبها في سلخ سورية "كاملة" Integral من الإمبراطورية العثمانية، ورسم هذه الحدود الواسعة لها (من طوروس حتى مصر، ومن الفرات حتى البحر)، فإنتاج الحرير يتركز زراعةً وصناعةً وتصريفًا على شريطٍ ساحلي، وبصورة خاصة في جبل لبنان وبيروت.

لذلك تتكامل خطى الرأسمالية الفرنسية في مطالبتها الحكومة الفرنسية في السيطرة على سورية "كاملة" و"طبيعية" من خلال تحرك غرفة تجارة مرسيليا أيضًا، وذلك بعد أسابيع من رفع مذكرة غرفة تجارة ليون. فمرفأ مرسيليا، الفرنسي المتوسطي هو الذي كان يُصدّر ويستقبل من المشرق وإليه. وتجار مرسيليا أقدر على معرفة قيمة مناطق "سورية" من الناحية التجارية (الأسواق والمدن والمرافئ والمواصلات)، ومن ثم على تبرير المطلب وفق اتساع المصالح الفرنسية ومناطق وجودها وإمكانات إنمائها[3].

تحدد رسالة غرفة تجارة مرسيليا مطلبها بالصيغة التالية: "إن سورية الكاملة (Intégrale) هي التي تمتد شمالًا من جبال طوروس والجبال المقابلة لها (Anti - Taurus) إلى خط ينطلق جنوبًا من العريش على المتوسط، ويتجه نحو مرفأ العقبة في نهاية خليج العقبة الذي هو عبارة عن لسان بحري في البحر الأحمر. ومن الفرات شرقًا حتى البحر غربًا".

تضيف غرفة تجارة مرسيليا: "لا يُمكننا في الواقع أن نرضى، كما كان الأمر في وقت معيّن، بسورية التي تقتصر على رقعة ساحلية تمتد من اللاذقية إلى غزة وإلى وادي العاصي والأردن. إنما يجب أن تضم سورية حتمًا كل ولاية حلب مع مرفأ الإسكندرون التابع لها، وكذلك كل ولاية أضنة في حدودها الإدارية الحالية. ومن دون شك فإن فلسطين وولايتي بيروت (مع لبنان) وسورية (دمشق) لا يمكن التغاضي عنها".

لكن "أماني" رجال الاقتصاد كانت تصطدم بحدود إمكانات الدولة الفرنسية وحدود مشاركتها في الحرب، ولا سيما من ناحية الجبهة الشرقية. فغلبة الدور العسكري البريطاني من ناحية العراق ومن ناحية السويس، كانت تفرض تقسيمًا لمناطق النفوذ في بلاد الشام يأخذ في الاعتبار حسابات بريطانيا الاقتصادية والاستراتيجية في الشمال الشرقي (الموصل) والجنوب (فلسطين)، وهذا ما عبّرت عنه، على كل حال، صيغة سايكس - بيكو المعروفة، ووعود بريطانيا للشريف حسين، وترجمه الصراع الدبلوماسي البريطاني - الفرنسي بعد الحرب[4]. فالمشاريع التي أنتجتها الحرب لم تكن قط بحجم الآمال الفرنسية التي علقت في مرحلة ما قبل الحرب، أو في المرحلة التي "نبّهت" فيها غرفتا تجارة ليون ومرسيليا الحكومةَ وطالبتها بسورية "كاملة".

بانتهاء الحرب، تعود غرفة تجارة ليون على الفور، وكان خبر اتفاقية سايكس - بيكو قد شاع، لترفع في 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1918 رسالة إلى وزير الخارجية تُذكّره برسالتها الأولى المُقدّمة في 7 حزيران/ يونيو 1915[5]، وتعترض فيها الآن على اتفاقية 1916. تقول: "إن حصة فرنسا في سورية تبدو مختلفة كليًا عن تلك التي حق لنا أن نأمل بها. لقد انحسرت الآن إلى شريط ساحلي بسيط، حيث لم يعد لسورية تلك السِمة الجغرافية التي عرفناها قبل الحرب. حُذِفت منها ثلاث مناطق مهمة: حلب، الموصل، دمشق. وهي مناطق ستُقام عليها إمارات عربية، بل أكثر من ذلك، إن إنكلترا تحتفظ لنفسها بمرافئ عكا وحيفا، بينما يعلن مرفأ الإسكندرون مرفأ حرًا [...]".

---

2 La Chambre de commerce de Lyon à Monsieur Le ministre des affaires Etrangères, Lyon, Juin 1915; F. M. A. E, serie Turquie-Gerene (1914-1918) dossier 869, p. 28.

3 Lettre à Monsieur le ministre des affaires étrangères sur la question de la Syrie d'une note sur la valeur ééconomique.

ثمة نسخة موجودة في أرشيف المكتبة الشرقية، جامعة القديس يوسف، بيروت.

4 هذا الجانب معالَج في دراسة موثقة بصورة غنية: زين نور الدين زين، **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان** (بيروت: دار النهار، 1971). وإذا كنا لا نقف عند المشاريع التي برزت خلال الحرب (سايكس – بيكو، وعد بلفور، مراسلات حسين – مكماهون)، فلأن وثائق هذه المشاريع نُشرت ودُرست في كتب كثيرة، ولا داعي لترددها هنا، ذلك أننا توخّينا من خلال هذه الدراسة الوثائقية، استخدام "الوثائق" الجديدة، أو التي لم تُستخدم جيدًا بعدُ من جانب الباحثين.

5 F. M. A. E., série Levant (1918-1929), Syrie – Liban, vol. 3, pp. 192 - 193.

تضيف رسالة غرفة تجارة ليون: "إذًا من الناحية الاقتصادية تقلّصت سورية كثيرًا، حيث لم يعد لها سوى مرفأين: طرابلس وبيروت. وفي المقابل فإن حيفا التي هي الآن رأس خط حديد واسع المجرى يمكن أن تُصبح خلال بضعة أعوام نهاية شبكة تمتد من الهند إلى المتوسط. تستقطب حركة تجارة الداخل كلها، وبذلك تكون أفضل من بيروت التي هي نهاية لخط طوله 96 كم، ويتخلله 35 كم ʻسلسلة أسنانʼ (à crémaillère). ومن ناحية نفوذنا التاريخي في الشرق، فإن منح دمشق إلى إمارة عربية يُعدّل كليًا السمة التقليدية لسورية، فبهذا لا تعود إلا بلدًا منفوخًا من الأعلى (يقصد الشريط الساحلي) وغارقةً، عدا ذلك في المجهول؛ إذ من يستطيع أن يعرف من سيكون الأمراء العرب الذين سيحكمون دمشق؟ بأي شكل ولمصلحة من سيستثمرون هذا ʻالامتياز الدينيʼ المرتبط بمدن الإسلام؟ أيجب أن تُعطى إنكلترا هذه الحواضر المقدسة كلها: دمشق، بغداد، القاهرة، مكة، التي كانت سابقًا مراكز الخلفاء الأقوياء؟ أليست فرنسا هي أيضًا قوة إسلامية؟ ومصير مستعمراتنا في شمال إفريقية، ألا يتوقف إلى حد ما على الحالة الفكرية التي تهيمن في المشرق؟".

بناء على هذه الأسباب، تطالب غرفة تجارة ليون بإعادة النظر في بنود اتفاقية 1916، والمبرر الظرفي هو "أن أحداثًا عدّلت الموقف. فمن جهة زوال روسيا القيصرية، ومن جهة ثانية دخول دولة عظمى هي الولايات المتحدة الأميركية الحرب".

تكرر رسالة غرفة تجارة ليون تذكيرها برسالة 1915، وبمطالب الفرنسيين المقيمين وذوي المصالح في سورية: "الذين تستحق تجربتهم ومعرفتهم ببلاد الشرق أن تؤخذا في الاعتبار. إن ما يطلبه هؤلاء باعتباره شيئًا أساسيًا لمصالحنا ونفوذنا هو أن تُضم دمشق وحلب، واستطرادًا الموصل، إلى منطقة النفوذ المخصصة لفرنسا"[6].

هذه الأفكار يستعيدها على نحو أوضح تقرير كتبه الرئيس العام للإرسالية اليسوعية في سورية الذي عاش فترة طويلة في البلاد. والتقرير يُلحق برسالة مؤرخة في 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1918، موجهة من رئيس مجلس الوزراء ووزير الحربية إلى وزير الخارجية[7]، بهدف الاطلاع عليه والاستفادة منه.

يقدم التقرير ثلاثة اعتراضات على اتفاقية 1916 سايكس – بيكو:

1. بالنسبة إلى دمشق والموصل وحلب، يشير التقرير إلى "أن هذه الأراضي هي أراضٍ سورية، وأن فصلها عن هذه البلاد، لدمجها في دولةٍ سيكون مركزها السياسي في مكة، هو فصل اعتباطي".
2. من شأن التخلي عن مرافئ حيفا وعكا لبريطانيا واعتبار مرفأ الإسكندرون مرفأً حرًا أن "يحرم فرنسا المنفذ الطبيعي لتجارة أكثر من نصف أملاكها. ذلك أن حركة التجارة ستختار طريق دمشق - حيفا، مُفضلة إياها على خط دمشق - بيروت. وهذا الاختيار سيفرض نفسه بصورة أكبر عندما تُصبح حيفا في غضون وقت قصير رأس خط حديد يربط بين الهند والمتوسط. وينتج أيضًا من فتح مرفأ الإسكندرون بصورة حرة، أن تخسر فرنسا إمكانية الاستفادة من رسوم أي ترانزيت في شمال سورية".
3. اعتراض ثالث ربما يكون أخطر وهو ناتج من كون دمشق ستُفصَل عن سورية لِتُضَم إلى كونفدرالية عربية؛ بذلك تفقد فرنسا إمكانية الاستفادة من إحدى المدن الإسلامية المقدسة. وفي المقابل، فإن روابط إنكليزية من شأنها أن تشد هذه الكونفدرالية إلى إنكلترا "بذلك تكون حليفتنا قد وضعت يدها على مدن الإسلام الثلاث: مكة، دمشق، القاهرة. ولن نكون حينها مبالغين إذا شددنا على مخاطر النتائج المتأتية من هذا الوضع. فمن تلك المراكز التي تستأثر باحترام كل مسلم يمكن أن تنشأ تيارات وأفكار وشعارات لا نستطيع أن نمارس عليها أي رقابة. ويمكن أن يمتد تأثيرها إلى شتى أنحاء إمبراطوريتنا الإسلامية. إذًا ليس في التخلي عن دمشق خسارة فحسب لممتلكاتنا الآسيوية، بل أيضًا خطر مهم على توازن ممتلكاتنا في شمال إفريقية".

6 Ibid.

7 Ibid., pp. 276 - 278.

نشأ صراع دبلوماسي حاد بين الدولتين، استُخدمت فيه الصراعات المحلية في المنطقة، ومن بينها الاتجاهات السياسية والوفود[8]. وأسفر هذا الصراع عن اتفاق 15 أيلول/ سبتمبر 1919[9]، الذي شكل التمهيد لمقررات مؤتمر سان ريمو. فمقابل جلاء الجيش البريطاني عن سورية وكيليكيا تحلّ القوى الفرنسية بديلًا منها. في المقابل نال الإنكليز من الفرنسيين المكاسب الآتية[10]:

1. عدم المطالبة بإدخال ولاية الموصل ضمن الحدود السورية.
2. عدم المنازعة في تقرير مصير فلسطين، أي أن تكون هذه الأخيرة لبريطانيا.
3. عدم المنازعة في وضع العراق تحت الانتداب البريطاني.
4. بقاء مقاطعة شرق الأردن تحت الاحتلال البريطاني.

بهذا الاتفاق تحددت ضمنًا الخطوط العامة لـ "سورية الفرنسية". ولكي "ترسّخ" هذه الهيمنة الفرنسية كان لا بد من أمرين؛ ضرب الحركة العربية في دمشق، وإزاحة فيصل، وإثبات أن لا جدوى من تطبيق اتفاق فيصل – كليمنصو، وتنظيم سورية تنظيمًا يضمن السيطرة عليها عبر مشاريع الكونفدرالية والتجزئة.

من الملاحظ أن الأمر الأول دُرس درسًا مستفيضًا في العديد من الكتب الوثائقية والعامة. أما الأمر الثاني فلم يُدرس على حد علمنا دراسة وافية.

استوقفنا عدد كبير من الوثائق حول هذا الموضوع، منها دراسات وتقارير ذات طابع سوسيولوجي يعود بعضها إلى ما قبل الحرب، ومنها أيضًا مراسلات سرية تمت بين المسؤولين، ولا سيما غورو وميلران في المرحلة الأولى من تنظيم الانتداب على سورية. وارتكزت المشاريع الإدارية السياسية التي حملتها المراسلات إلى حد بعيد على التقارير والدراسات السوسيولوجية الوصفية (المونوغرافيات).

ثالثًا: في الحوار -السري بين الرئيس الفرنسي ميلّران والمفوض السامي الفرنسي الجنرال غورو: مخطط تنظيم سورية

بعد معركة ميسلون (24 تموز/ يوليو 1920)، وترحيل الإنكليز فيصل في اليوم الثاني، ودخول غورو دمشق بمشهدية "بطولية" مصطنعة لتغطية انسحاب القوات الفرنسية من كيليكيا أمام المقاومة التركية التي قادها مصطفى كمال في الأناضول، يجري حوار سري، بواسطة برقيات تلغرافية مشفرة بين الرئيس الفرنسي ميلّران Millerand والجنرال غورو تمتد نحو 17 يومًا (6 - 23 آب/ أغسطس 1920)، والموضوع الرئيس لهذه البرقيات "مخطط لتنظيم الانتداب الفرنسي في سورية"، وهو عنوان البرقية الأولى التي يبعثها الرئيس الفرنسي إلى الجنرال غورو بعد احتلال هذا الأخير دمشق.

البرقيات التي جرى تفكيك شفرتها في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، محفوظة في سلسلة المشرق Serie Levant، سورية – لبنان، ملف 125، وموزعة على صفحات (أوراق) مرقمة 193-233.

يقترح الرئيس الفرنسي في مخططه المرسل إلى غورو صيغة بديلة لما يسميه "الملكية القومية" وهي كما يشرحها "إن النظام الذي يستجيب بصورة أفضل لمصالح سورية ومصالحنا أيضًا هو سلسلة دول مستقلة جمهورية الشكل Une serie autonomies à républicaine

8 لا نرى لزامًا أن نتوسع في هذه النقطة وقد عالجناها في: وجيه كوثراني، **الاتجاهات الاجتماعية- السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، 1860 – 1920**، التاريخ الاجتماعي للوطن العربي، الفصل 7 (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1976)، ص 295-354.

9 يقضي هذا الاتفاق بين الدولتين إبدال القوات الإنكليزية في سورية وكيليكيا بقوات فرنسية، مقابل إلحاق الموصل وفلسطين ضمن مناطق النفوذ الإنكليزي، وهو التعديل الأساس والاستراتيجي الذي طرأ على اتفاقية سايكس – بيكو. لمزيد من التفصيل انظر: المرجع نفسه، ص 299؛ عادل إسماعيل وإميل خوري، **السياسة الدولية في الشرق العربي**، ج 5 (بيروت: دار النشر للسياسة والتاريخ، 1965)، ص 37.

10 حسن الحكيم، **الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي والفيصلي والانتدابي الفرنسي، 1915-1946** (بيروت: دار صادر، 1974)، ص 61.

على طراز جمهوري، تتناسب مع تنوع الأعراف والديانات والحضارات وتتحد في فيدرالية تحت السلطة العليا للمفوض السامي ممثل الدولة المنتدبة، وبذلك لا تكون الوحدة وحدة إدارة مركزية، بل وحدة اقتصادية (جمركية مالية)".

يبدأ ميلّران بالبلاد التركية والكردية ويقصد المناطق التي يسكنها أتراك وأكراد في شمالي سورية وجنوبي كيليكيا، يقرر أنه "لا يمكن أن ندخل (هذه المناطق) في الفدرالية السورية، فأراضي عينتاب، بيره جك، كلّس هي أراضٍ تركية وشرق الفرات مع أورفه وماردين أراض كردية وهي مناطق تقع في الشمال والشمال الشرقي، تفتقر إلى أي رابطة قومية مع سورية". المقترح هو تجنب إقامة إدارة عسكرية فرنسية مباشرة، بل تسليم الحكم مدة من الزمن لباشا محلي تركي في الأراضي التركية، وباشا كردي في الأراضي الكردية. إضافة إلى تلوين الديموغرافيا الكردية شرق الفرات "بتوطين عناصر كلدانية وأشورية".

بالنسبة إلى القبائل العربية، يطمئن ميلّران أن هذه القبائل ليس لديها تعاطف مع النظام الحجازي (إشارة إلى الشريف حسين في الحجاز) وتبدو – كما يقول – "مستعدة للتفاهم معنا"، ويقترح طريقةً أو أسلوبًا للتعامل معها "أن ننظم علاقاتنا بها" بواسطة ما يسميه "التكليف" Investiture وعن طريق ضباط ارتباط فرنسيين، وحيث "يطلب منهم الأمن على أطراف المدن الأربع (حلب، حمص، حماة، دمشق) وفتح طرق الصحراء أمام التجارة"، مقابل "الخدمات والهدايا والاعتبارات التي تقدّم لهم" وهذا من شأنه "ضمان العلاقات الجيدة".

وبالنسبة إلى لبنان، يرى ميلّران أن ثمة ثلاثة شروط مع الحالة اللبنانية:

1. عدم ضم لبنان إلى الكونفدرالية أو الفدرالية السورية (التي سيقترحها).
2. فرنسة لبنان بأكبر قدر ممكن، ومن أجل ذلك يجب أن تقوم سلطة فرنسية مهمة وتمثيلية تتمتع باستقلالية واسعة تبقى في بيروت ولبنان حتى لو جعل مركز المفوضية العليا في مكان آخر.
3. تكوين لبنان كبير بإلحاق البقاع (أي السهل الضروري لحياة الجبل) وجبل عكار (أي شمال السلسلة الجبلية حيث أكثر سكانها من المسيحيين) حتى النهر الكبير، عازلين بذلك طرابلس، المركز السني، ويضيف: "ويبدو أنه من الصعب ألّا ندمج بلبنان، وذلك على الرغم من اعتراضات الموارنة، سنجق صيدا، أي المسلمين، المتاولة الشيعة سكان بلاد صور وصيدا الذين لا يمكن أن نتركهم معزولين بين لبنان والمستعمرات الصهيونية التي تجتاح شمال فلسطين". فأقل ما يمكن هو أن يربط سنجق صيدا بلبنان بشكل فدرالي مع بعض "الاستقلالية". أما بالنسبة إلى مدينتي بيروت وطرابلس فيرى: أن تكون بيروت عاصمة للبنان، مع استقلالية بلدية ومالية Autonomie municipale et budgetaire.

أما طرابلس، فيراها "مدينة إسلامية سنية"، "لا ترغب في الالتحاق ببلاد مسيحية"، ويقترح معالجة أمرها (مصيرها) كما هي حال المدن السورية الأخرى، كجزء من "الكونفدرالية السورية" التي يقترحها (متضمنة في المخطط).

بعد هذا العرض الذي يقدمه ميلّران بشأن أوضاع المناطق التي يعتبرها ذات "طابع خاص" ينتقل إلى تنظيم المناطق التي يرشحها كوحدات إدارة سياسية للكونفدرالية السورية. يقول: يمكن أن نتصوّر من الآن مجموعات مستقلة Groupes autonomes هي من الشمال إلى الجنوب: 1) سنجق الإسكندرون، 2) municipe حلب، 3) المجموعة النصيرية، 4) municipe حمص، 5) municipe طرابلس، 6) municpe دمشق، و7) حوران وتتضمن هذه الأخيرة مجموعتين: الدروز والمسلمين السنة.

يقترح ميلّران لتنظيم مجموعة مبدأ "الاستقلالية الواسعة كنظام الكانتون"، ويرى أن التعداد الذي قدّمه للمجموعات لا يدّعي أنه نهائي، لكنه يخيل أنه يتضمّن المجموعات المتشكلة "عضويًا" في بلاد تفتقر إلى التقليد السياسي والرأي العام، كما أنها اعتادت تلقي كل شيء من السلطة. إذًا، "يجب أن تكون سياساتنا مرنة جدًا: أن نشكّل 'مجموعة' Groupe حيث هي موجودة، وأن نقبل بأن يكون لكل مجموعة تنظيمها الخاص الذي يناسبها".

وهذا التنظيم الداخلي الخاص، لا يخرج عن إطار الصلاحيات البلدية والأمنية المحلية بإشراف رقابة فرنسية، بل إنه يستبعد صراحة مفهوم النظام البرلماني والاجتماعات الديمقراطية، "فهذا لا يستجيب لأي حقيقة في الظرف الراهن من تطور التربية العامة

للبلاد. والدولة المنتدبة تعتبر أن الهدف من تنظيم سورية هو أن ينطبق هذا التنظيم واقعيًا على مصلحة جماهير السكان، لا على مصلحة الجماعات المسيّسة"، ومن أجل مخاطبة الرأي العام الدولي ورغبة القطاع المتقدم من الرأي المحلي كما يقول، يقترح: "ثمة مجال لخلق رابط فدرالي بين مختلف هذه الكيانات المستقلة. هذا الرابط يتمثل بالمفوضية العليا ممثلة الدولة المنتدبة، وتكون هذه المفوضية ʻالجهاز التنفيذي الذي لا تهيمن عليه أي سلطة محليةʼ".

وينهي ميلّران برقياته المتتالية إلى غورو بطرح مسألة دقيقة هي اختيار عاصمة الكونفدرالية السورية، والمراكز الأخرى التي تناسب الحواضر الكبرى في سورية.

يقول في ذلك: "إن بيروت تناسب أن تكون مقرًا لمحكمة القضاء الأعلى Haute cour حيث يهيمن العنصر الفرنسي، كذلك فإنها تصلح لأن تكون مركزًا اقتصاديًا للعلاقات مع الخارج".

إلا أن ميلّران يحتار بين الحواضر الثلاث لاختيار عاصمة الكونفدرالية يقول: "بين دمشق وحلب وبيروت يصعب الاختيار"، لكن يضيف: "يمكن اعتماد حل مختلط: تكون حلب مقر المفوضية العليا، وبيروت مقر محكمة القضاء الأعلى. أما دمشق فلأنها كانت دائمًا مركزًا ثقافيًا إسلاميًا، فقد نجعلها مقرًا لجامعة، ذلك أنه يبقى دائمًا أن نحذر من خطر أن تتحوّل دمشق إلى مركز ديني للمعارضة".

رد الجنرال غورو

هذه المسائل التي يعرضها الرئيس ميلّران في مخططه شكلت موضوعات للنقاش عبر برقيات متتالية بعث بها الجنرال غورو ردًا على اقتراحات الرئيس الفرنسي في الفترة 13-20 آب/ أغسطس 1920.

بينما كان ميلّران يقترح تعددية واسعة في تجزئة سورية إلى كيانات يتم ضمها في اتحاد كونفدرالي أو فدرالي واحد، وبينما كان يرى أيضًا ضرورة إعطاء لبنان استقلالية مرحلية خارج هذا الإطار الفدرالي، كان الجنرال غورو يرى ضرورة قيام تجزئة محدودة لسورية وضرورة أن تقوم فدرالية سورية – لبنانية، أو أن يوضع لبنان في الكونفدرالية السورية.

هذا الموقف تحمله برقياته المرسلة إلى الرئيس ميلّران، بتاريخ 20 آب/ أغسطس. ويقول في إحداها: "أعتقد أننا إذا أردنا اليوم طرح الاستقلال التام للبنان حيال الكونفدرالية المجاورة، فإن أهمية مصالح الطرفين المشتركة من وجهة النظر الاقتصادية سوف تقود حتمًا إلى اتحاد لبناني سوري يُترجم نفسه أخيرًا باندماج كامل للبنان في الكونفدرالية".

أما بشأن عدد الكيانات السياسية التي يقترحها ميلّران في سورية فيجيب غورو عن هذا الاقتراح: "أما فيما يتعلّق بتقسيم هذه الكونفدرالية، إلى ثماني أو تسع مجموعات فإن ذلك يترتب عليه نتائج خطيرة. فمن وجهة نظر سياسية بشكل عام، قد يخدم هذا التدبير فكرة الوحدة بدلًا من أن يقضي عليها، وذلك أن إنشاء مجموعات صغيرة لا تستطيع تأمين وجودها بنفسها يجعلها تتكاتف وتتقارب بدافع الإحساس المشترك بوحدة المصالح".

يقترح غورو في المقابل، أن تنحصر التجزئة في ثلاث أو أربع دول. يقول: "على العكس فإنه من السهل الإبقاء على التوازن في ثلاث أو أربع دول كبيرة يتيح لها وضعها أن تكفي نفسها بنفسها، ويساعدنا عند الحاجة في تأليب بعضها على بعضها الآخر. وهذا واقع حساس تبدو بوادره بين دمشق وحلب".

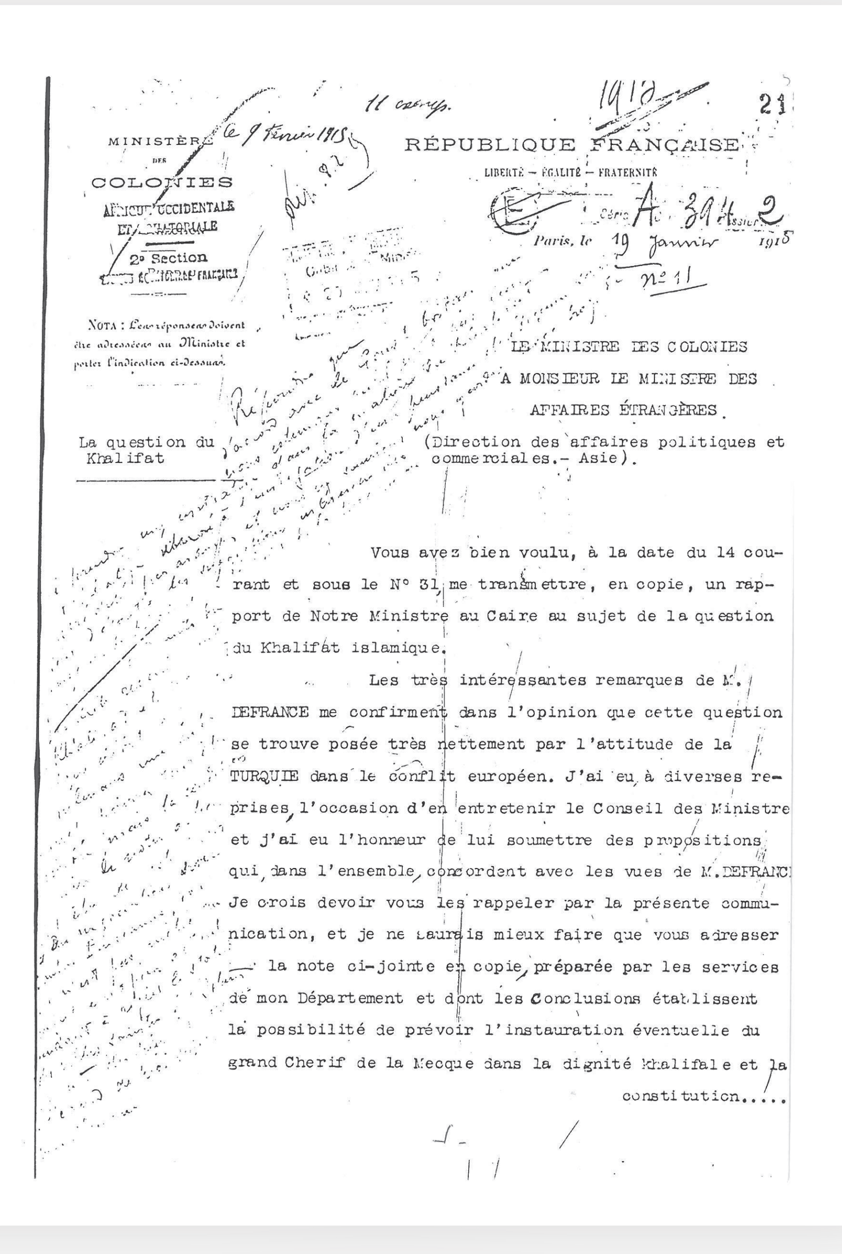
يبدو من خلال القراءة المتتابعة للبرقيات، وما حصل فعليًا في التاريخ أن اقتراح مشروع الفدرالية والكونفدرالية سُكِت عنه ليصار إلى تأكيد ما اقترحه غورو بدايةً: في برقية أرسلت بتاريخ 13 آب/ أغسطس يصر غورو على ما يلي: "إني أطلب اليوم من سعادتكم بنحو خاص وملحّ أن تسمحوا لي، وفق الشروط المذكورة، آنفًا بإعلان قيام دولة لبنان الكبير في وقت قريب جدًا، وجعل بيروت عاصمته، وطرابلس الشام ملحقة به"، بل يضيف: "إني عازم على أن تكون بداية العمليات إلغاء المنطقة الغربية وإعلان دولة لبنان الكبير في 15 آب/ أغسطس".



ملحق

وثيقة فرنسية توضح السياق التاريخي للمذكرة التي حملت وجهة النظر الفرنسية في مسألة الخلافة

الوثيقة أدناه رسالة وجهها وزير المستعمرات الفرنسي إلى وزير الشؤون الخارجية عام 1915 يطلب فيها منه الاطلاع على مذكرة كتبها "جهاز المعلومات" في وزارته حول "مسألة الخلافة" للتفكر في ما سيؤول إليه مصير الدولة العثمانية وولاياتها ولا سيما في إطار التحرك الدبلوماسي البريطاني المتمحور حول موقع الخلافة والبدائل المطروحة، ومصالح فرنسا في هذه السيناريوهات.



MINISTÈRE DES COLONIES

AFRIQUE OCCIDENTALE ET ÉQUATORIALE

2e Section

NOTA : Les réponses doivent être adressées au Ministre et porter l'indication ci-dessous.

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE

LIBERTÉ – ÉGALITÉ – FRATERNITÉ

Paris, le 19 Janvier 1915

N° 11

LE MINISTRE DES COLONIES

A MONSIEUR LE MINISTRE DES AFFAIRES ÉTRANGÈRES.

(Direction des affaires politiques et commerciales.- Asie).

La question du Khalifat

Vous avez bien voulu, à la date du 14 courant et sous le N° 31, me transmettre, en copie, un rapport de Notre Ministre au Caire au sujet de la question du Khalifat islamique.

Les très intéressantes remarques de M. DEFRANCE me confirment dans l'opinion que cette question se trouve posée très nettement par l'attitude de la TURQUIE dans le conflit européen. J'ai eu, à diverses reprises, l'occasion d'en entretenir le Conseil des Ministre et j'ai eu l'honneur de lui soumettre des propositions qui, dans l'ensemble, concordent avec les vues de M. DEFRANCE. Je crois devoir vous les rappeler par la présente communication, et je ne saurais mieux faire que vous adresser la note ci-jointe en copie, préparée par les services de mon Département et dont les Conclusions établissent la possibilité de prévoir l'instauration éventuelle du grand Cherif de la Mecque dans la dignité Khalifale et la constitution.....

On peut se demander à vrai dire à la lecture du rapport de M. DEFRANCE si le dessein plus ou moins dissimulé du gouvernement britannique ne serait pas de se réserver d'agir seul, dans cette question du Khalifat. Mais la France est également intéressée au sort futur de la Mecque et de Médine, en raison du fait que ces deux villes sont les seuls sanctuaires traditionnels où les Musulmans sunnites puissent ranimer leur zèle religieux dans le souvenir des débuts de leur foi. Il s'ensuit donc que toute vue d'avenir tendant à la modification éventuelle du statut actuel du Hadjaz, devrait logiquement comporter un concert préalable de l'Angleterre, de la France et de la Russie, auquel l'Italie pourrait être invitée, semble-t-il, à s'adjoindre. Les Gouvernements des Puissances alliées renforcées, comme il serait souhaitable dans son intérêt même, du gouvernement italien, garantiraient l'indépendance et la neutralité du nouvel état musulman, en évitant d'ailleurs toute intervention directe, et nécessairement suspecte, dans le déplacement d'influence religieuse dont la création de la principauté serait sans doute l'origine au détriment certain de l'empire ottoman./.

[signature]

- 2 -





المراجع

العربية

- إسماعيل، عادل. وإميل خوري. **السياسة الدولية في الشرق العربي**. بيروت: دار النشر للسياسة والتاريخ، 1965.
- الحكيم، حسن. **الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي والفيصلي والانتدابي الفرنسي، 1915-1946.** بيروت: دار صادر، 1974.
- زين، زين نور الدين. **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان**. بيروت: دار النهار، 1971.
- كوثراني، وجيه. **الاتجاهات الاجتماعية- السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، 1860 - 1920**. التاريخ الاجتماعي للوطن العربي. بيروت: معهد الإنماء العربي، 1976.

عبد الحميد هنية[1] | Abdelhamid Henia

تجربة بحث في الأرشيفات العثمانية في تونس خلال العهد الحديث

A Reseach Experience in Tunisia's Modern Ottoman Archives

مقدمة

كيف يمكن أن تفيدنا الأرشيفات لاستحضار الماضي في غيريته ؟ dans son altérité وهل يمكن أن يُستحضر الماضي من خلال الأرشيفات من دون أن يُصطبغ بحاضر المؤرخ وبمدى قدرته الذاتية على استنطاق هذه الأرشيفات؟ وكيف يمكن أن يكون وضع المعرفة التاريخية عندما تستند إلى أرشيفات مصطبغة بالمنظومة التي كانت وراء وضعها، سواء كانت هذه المنظومة متمثلة في الدولة، أو في العائلة، أو في هيئة أخرى؟ وكيف يمكن أن نحد من تأثير الفراغات التي تتركها بالضرورة أرشيفات الدولة، خاصة أنها وضعت أولًا وبالذات لتلبية حاجة الإدارة المركزية؟ وكيف يمكن أن نحد من وقع الأرشيف وتأثيره اللاشعوري في المؤرخ عن طريق العبارات والكلمات المحفوفة بخطاب الإدارة المركزية، أو بمعيارية المجتمع كلّه في لحظة معيَّنة؟

لمعالجة هذه القضايا، أنطلق من التفكير في تجربتي الشخصية في التعامل مع الأرشيفات العثمانية لدراسة جوانب من تاريخ البلاد التونسية خلال الفترة الحديثة (القرون 17 و18 و19)، وهي تجربة ترجع إلى السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي. ولم تكن لي في بداية تجربتي هذه دراية خاصة بالاشتغال بالأرشيفات، ولا بالمسائل المتعلقة باستعمالاتها، فأشرح كيف تعاملت مع هذه الوثائق، مبينًا تعثراتي والحلول التي اهتديت إليها لتخطي "المطبات" التي اعترضتني، وأبين كيف تعلمت أن أنتقل من مرحلة كنت أجمع فيها المعطيات من الخزان الأرشيفي وأنتقيها بعفوية كاملة قصد توظيفها لما سأراه مفيدًا لبحثي، إلى مرحلة أكثر جدوى تتمثل في كوني أصبحت أقرأ من خلال المعطيات الأرشيفية ولا أكتفي بجمعها.

إن التفكير في ذاتية التمشي الذي أعتمده في هذه الورقة أساسي، بل يشكل جزءًا من المعرفة في هذا الموضوع، فالجانب الذاتي في الأرشيفات يقابله الجانب الذاتي في التعامل معها. هكذا بعد أن استعملت لعدة سنوات خلَت الأرشيفات لدراسة جوانب شتى من تاريخ البلاد التونسية، ها أنا أتوقف بعد أربعين سنة تقريبًا للحظة تفكير، أُعيد النظر في هذه التجربة، وفي الطريقة التي تعاملت بها مع هذه الأرشيفات، فهو عود إلى البدء، أُبرز النجاحات في تجربتي وكذلك الإخفاقات.

أولًا: دراسة التاريخ المحلي بمدونة أرشيفية جاهزة

مع بداية الستينيات من القرن الماضي، أي بعد بضع سنوات من استقلال البلاد التونسية عن الاستعمار الفرنسي، بدأت تظهر نزعة جديدة لدى المؤرخين التونسيين نحو الاهتمام بالوثائق المحلية. وجاءت هذه النزعة كردة فعل على اتجاه ساد في الكتابات التاريخية

1 أستاذ التاريخ الحديث، رئيس برنامج التاريخ في معهد الدوحة للدراسات العليا، قطر
Professor of Histor, Head of History Program at the Doha institute for Graduate Studies, Qatar

خلال فترة الاستعمار، تميز بالاعتماد على المصادر الأجنبية بصورة تكاد تكون كاملة. وكان يتعهد هذه الكتابات بالدرجة الأولى مؤرخون فرنسيون، ليست لهم معرفة بمحتويات الأرشيفات المحلية وبأهميتها. ثم هم لا يطمئنون إلّا إلى المصادر الأجنبية مثل الأرشيفات الفرنسية، وهي بالنسبة إليهم أساسية لبناء معرفة تاريخية سليمة.

وبالنسبة إلى البحوث التاريخية المتعلقة بالعهد الحديث بالتحديد، كانت المصادر المعتمدة مستخرجة أساسًا من الأرشيفات الفرنسية، ومن كتب الرحالة الأجانب بصورة عامة[2]، ومما تُرجم من مصنفات المؤرخين التي ترجع إلى تلك الفترة[3]. ولم يكن هنالك اهتمام كبير إلى حد ذلك التاريخ بالأرشيف المحلي وبالمصادر العربية الأخرى. ومع نهاية الستينيات من القرن العشرين، بدأت البحوث التاريخية المتعلقة بالعهد الحديث التي أنجزها مؤرخون تونسيون تقوم بالدرجة الأولى على استغلال وثائق الأرشيف الوطني[4]؛ وهو توجه ما فتئ يتأكد بصورة تدريجية كلما تقدمنا في الزمن[5]، بحيث كان التوجه نحو الأرشيفات المحلية منطلقًا لعدة دراسات أسست لمعرفة تاريخية ذات بال، غيرت جذريًا وجهة الإستغرافيا التونسية، لكن في هذا الدفع الجديد للإستغرافيا التونسية قلَّما نجد مؤرخًا يركز في بحوثه على دراسة الأرشيف العثماني لأجل كتابة منوغرافيا تاريخية تتناول بالدراسة جهة معينة في البلاد التونسية؛ إذ تميزت هذه الفترة بإنجاز دراسات ذات طابع شمولي، تتناول تاريخ البلاد التونسية في مجملها خلال فترة زمنية معينة[6].

فكانت البداية في اتجاه كتابة تاريخ محلي مع رسالة الدكتوراه الحلقة الثالثة التي أقدمت على إنجازها حول واحات الجريد في الجنوب الغربي للبلاد التونسية، وعلاقتها بدولة البايات بين سنتي 1676 و1840[7]، وهي تجربة تقطع مع البحوث السابقة ذات الطابع الشمولي، والميزة الأخرى لهذا البحث كونه يرتكز أساسًا على الدفاتر الجبائية التي أنشأتها دولة البايات حول منطقة الجريد. وتكاد تمثل هذه الدفاتر المصدر الوحيد لتناول واقع المجموعات المحلية بهذه الجهة بالدرس خلال العهد الحديث[8]. وهو ما لا

2 انظر على سبيل المثال:
Jean Ganiage, *Les Origines du protectorat Français en Tunisie (1861-1881)*, 2ème éd. (Tunis: Maison tunisienne de l'édition, 1968).

3 انظر مثلًا:
Mohamed Sghîr Ben Youssef, *Târîkh al-mašra‘ al-mulkî fî salt'anat 'Awlâd 'Alî at-Turkî*, Victor Serres & Mohammed Lasram (trad.), *Mechra el-Melki: Chronique Tunisienne (1705-1771): Pour servir à l'histoire des quatre premiers beys de la famille Husseïnite*, 2ème éd. (Tunis: Éditions Bouslama, 1978).

4 كان الأرشيف التونسي يسمى في فترة السبعينيات من القرن الماضي "الأرشيف العام للحكومة التونسية"، ومقره بالوزارة الأولى بالقصبة في مدينة تونس.

5 وظف الأستاذ محمد الهادي الشريف في بحوثه في أواخر الستينيات من القرن الماضي أرشيف جمعية الأوقاف بتونس (تم ضم هذا الأرشيف لاحقًا إلى مؤسسة الأرشيف الوطني التونسي)، ومن بين البحوث التي اعتمد فيها الباحثون على الأرشيفات المحلية، أذكر:
Mohamed-Hédi Chérif, "Introduction de la piastre espagnole 'riyal' dans la Régence de Tunis au début du XVIIe siècle," in: *Les Cahiers de Tunisie*, tome XVI, no. 61-62-63-64, 1er-2ème-3ème-4ème trim. (1968), pp. 45-55; Mohamed-Hédi Chérif, "L'Histoire économique et sociale de la Tunisie au XVIIIe siècle à travers les sources locales: Enseignements et perspectives," in: J. Berque & D. Chevalier (éds.), *Les Arabes par leurs archives (XVIe-XXe siècles)* (Paris: CNRS, 1976), pp. 101-118; Lucette Valensi, *Fellahs Tunisiens: L'Économie rurale et la vie des campagnes aux XVIIIe et XIXe siècles* (Paris: La Haye Mouton, 1977); Taoufik Bachrouch, *Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XVIIe siècle* (Tunis: Publications de l'Université de Tunis, 1977); Khalifa Chater, *Dépendance et mutations précoloniales: La régence de Tunis de 1815 à 1857* (Tunis: Publications de l' Université de Tunis, 1984).

6 المقصود بالدراسات التاريخية الشمولية تلك الدراسات التي تناولت تاريخ البلاد التونسية في كليتها، وخلال فترة طويلة من الزمن. يمكن أن نشير هنا إلى الأمثلة التالية: روبار برنشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15**، نقله إلى العربية حمادي الساحلي في جزأين (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988)؛ أحمد عبد السلام، **المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19م: رسالة في تاريخ الثقافة**، نقله من الفرنسية إلى العربية أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي (تونس: بيت الحكمة، 1993)؛ رشاد الإمام، **سياسة حمودة باشا في تونس** (تونس: منشورات الجامعة التونسية، 1980).
Valensi; Mohammed-Hédi Chérif, *Pouvoir et société dans la Tunisie de H'usayn Bin 'Alî (1705-1740)*, vol. 1, 2 (Tunis: Publications de l'Université de Tunis, 1984-1986); Bachrouch; Taoufik Bachrouch, *Le Saint et le prince en Tunisie: Contribution à l'etude des groupes sociaux dominants 1782 - 1881* (Tunis: Publications de l'Université de Tunis, 1989); Chater.

7 كان اختيار الموضوع بتوجيه وإشراف علمي من الأستاذ محمد الهادي الشريف. وناقشت هذه الرسالة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية (جامعة تونس) في شباط/ فبراير 1979. وجاءت تحت العنوان التالي:
Abdelhamid Henia, *Le Jérid: Ses rapports avec le beylik de Tunis (1676-1840)* (Tunis: Publications de l'École normale supérieure de Tunis, 1980).

8 لقد سبق أن بيّن الأستاذ محمد الهادي الشريف أهمية هذا النوع من الوثائق بالمقارنة مع المصادر الأخرى مثل المصنفات الإخبارية والوثائق الصادرة عن قناصل الدول الأوروبية وكتب الرحالة، انظر: Chérif, "L'Histoire économique," pp. 222-223.

يمكن التعرف إليه فقط بالاعتماد على المصنفات الإخبارية والمصادر الأجنبية؛ إذ لا يهتم هذا الصنف من المصادر إلا بالمدن الكبرى، وبرجالات الدولة، وبالنخب العالمة والدينية، بصورة عامة. واختياري موضوع واحات الجريد التونسي يعدّ تكيفًا مع طبيعة المادة الوثائقية المتوافرة حول الجهة. وكنت محظوظًا في تجربتي هذه، لأن هذه المستندات الأرشيفية كانت متوافرة في ما يسمى اليوم بالأرشيف الوطني التونسي، لذلك يمكن القول إني وضعت يدي على مدونة أرشيفية جاهزة وفي متناولي، وهو كل ما يتمناه أي باحث لكي يشتغل بكل أريحية، فانطلقت في مشروعي البحثي بشيء من الطمأنينة: موضوع محدد في الزمان والمكان، ومدونة مصدرية ثرية ومحدودة.

ثانيًا: في بداية التجربة مع الدفاتر الجبائية

شرعت في التنقيب في الدفاتر الجبائية، وهي وثائق تتضمن معلومات غزيرة ودقيقة. وسؤالي في ذلك هل تساعد الدفاتر الجبائية على فتح نافذة ننظر من خلالها إلى واقع منطقة الجريد خلال الفترة المعنية؟ في الوهلة الأولى التي باشرت فيها تصفح هذه الدفاتر، بدا لي أني وضعت يدي على الأداة التي سأنفذ بواسطتها إلى واقع جهة الجريد. وفي حقيقة الأمر، كنت حينئذ أبحث في هذه الدفاتر عن مجرد إثباتات لفرضيات جئت بها مسبقًا.

لذلك سخرت جهدي لكي أجمع من دون هوادة المادة الغزيرة المتوافرة في هذه الوثائق. أنسخ وأنسخ المعطيات وكأنني عثرت على كنز من المعلومات، تلك هي غنيمتي من الأرشيف، وهي لا تعدو أن تكون أكثر من عملية نقل لما كنت أعتقد أنه يمثل معلومات ثمينة، وأُرتب هذه المعطيات في جذاذات مختلفة قصد استثمارها في استعمالات متوقعة لا أفقه بعدُ كليًا أبعادها المعرفية بصورة جلية، فلم أكن أعرف حقًا في تلك اللحظة ما عسى أن أفعل بهذه المعطيات؛ كل ما أراه أنها معطيات تبدو ثمينة ومتنوعة، وكنت أقول سأرى لاحقًا ما عسى أن أفعل بها. هكذا أنظر إلى الدفاتر على أنها عبارة عن خزانة معطيات خام أجمعها عسى أن أوظفها لبناء معرفة تاريخية. في الواقع، كنت أتقدم في الاشتغال بهذه الأرشيفات وكأني في طريق مظلم، ومع ذلك كنت أنتشي عندما أرى الجذاذات تتكاثر أمامي، وأشعر كأنني أكتشف أشياء، من دون معرفة مسبقة إلى أي وجهة ستقودني. في الحقيقة كانت رؤيتي للدفاتر تقوم على نظرة صنمية للوثيقة، وهنا تكمن بالذات سذاجتي كباحث؛ سذاجة الباحث المبتدئ الذي لا يعرف كيف يرسم مشروعه حتى يفقه الغاية التي يريد أن يصل إليها، وأنا مثل الذي أُلقي به في اليمّ وقيل له إياك إياك أن تغرق، وكان الغرق آتيًا لا محالة.

كانت تجربتي هذه مع الدفاتر الجبائية صادمة؛ إذ تفطنت بعد مدّة زمنية من الاشتغال على هذه الدفاتر إلى قصورها، على الأقل من وجهة نظري في تلك اللحظة، وذلك على الرغم من دقة المعلومات التي وفرتها، فأيقنت أنها تكشف عن جوانب وتخفي في المقابل جوانب أخرى، ثم بدت لي المعلومات التي توفرها ذات رتابة مزعجة، فهي لا تتغير في معظمها من سنة إلى أخرى، وتمتد فترة عدم التغيير بالنسبة إلى بعض المعطيات أحيانًا إلى عقود طويلة. إن اللافت للانتباه هو الجمود الذي ميز مقادير الضرائب العادية الموظفة على الأهالي بداية من عهد علي باشا (1735-1756) إلى تاريخ إنهاء العمل بالنظام الجبائي المعمول به في سنة 1840[9] وطالت مدة رصد هذه الرتابة، وأصبحتُ في حيرة من أمري، أسأل نفسي عمّا يمكن أن أجنيه من معطيات لا تتغير كثيرًا من سنة إلى أخرى.

9 باستثناء المحاولة الجريئة التي أقدم عليها الباي حسين بن علي سنة 1726-1727 والمتمثلة في عملية إحصاء خصَّت "الرجالة"، و"البيوت"، والأرزاق لدى القبائل (انظر: الأرشيف الوطني التونسي، **الدفتر رقم 620**)، والتي توقفت على إثر اندلاع الحرب بين "الحسينية" و"الباشية" في سنة 1728، فإن الدولة لم تقدم على تغيير جذري للنظام الجبائي قبل عهد أحمد باي (1837-1855)، حول هذا الإحصاء انظر: عبد الحميد هنية، "الملكية والأسرة لدى بعض القبائل التونسية في بداية القرن الثامن عشر"، **الكراسات التونسية**، مج 30، العددان 121-122 (1982)، ص 171-185؛ وانظر أيضًا: Valensi; Henia.



لكنني تفطنت إلى أن عدم تغيير بعض المعطيات وتكرارها طيلة ردح من الوقت لا يعني استمرار الممارسات الجبائية وجمودها في الواقع المعيش، بل يكشف عن سياسة معينة يتعين عليَّ تحديد ملامحها واستنتاجها من خلال بعض الممارسات التي لا تظهر دائمًا بصورة جلية. فهمت، إذًا، أن هناك حجابًا يحول دون فهم هذه المصادر، فكانت الصدمة بمجرد الشعور بانسداد الأفق الذي يمنعني من المضي قدمًا في النفاذ إلى كنه هذه المصادر حتى أتلمس واقع منطقة الجريد التونسي، فكان من الضروري أن أراجع نفسي، وأتوخى منهجية مغايرة قصد معالجة هذه الدفاتر بطريقة مثلى وبأكثر جدوى.

وفهمت أنه مهما كانت دقة المصادر وثراؤها فهي لا تبني البحث بذاتها، وعلى المؤرخ ألّا يعتمدها بعفوية وألّا يأخذها على ظاهرها، وهي القناعة الأولى التي حصلت لي مع تجربتي البحثية في الدفاتر الجبائية بالأرشيف التونسي. هكذا استفقت من سذاجتي وأدركت أن عملي كان في البداية من دون جدوى كبيرة، وتفطنت إلى قصور المنهج الذي اعتمدته في تناولي دراسة هذه الدفاتر.

واضح أن الأرشيف لا يُفهم بصورة عفوية، ولا يُفهم بمجرد النظر إليه، فهو يحتاج إلى إحاطة واستحضار معطيات خارجية حتى يفصح عن مكنونه. هكذا تبيَّن لي أنه من الضروري الحفر في كلمات الأرشيف للكشف عما تخفيه من معانٍ ودلالات، ظاهرها وخفيها؛ إذ لا تبوح الأرشيفات بهذه الدلالات ولا تفصح عنها، بل على المؤرخ استنتاجها بقراءة ما تخفيه الكلمات.

كشفت لي تجربتي إلى حد هذه المرحلة عن ضرورة التخلي عن الفكرة السائدة التي تَعتبرُ الدفاتر الجبائية مجرد خزانة أجمع منها ما طاب لي من المعطيات التاريخية، وكشفت لي أيضًا عن ضرورة مقاومة فكرة أن المصادر مهما كان نوعها تبوح بمخزونها بسهولة ومن أول وهلة، بل وجب عليَّ وضعها، بصورة متواصلة، تحت آلة التأويل والمساءلة. وهذا لا يتم من دون أخذ المسافة اللازمة لكي أتهيأ لِمُساءلة مصادري؛ ذلك أن استنطاق المصادر الأرشيفية للكشف عن مميزاتها الذاتية، وللكشف أيضًا عن الواقع التاريخي الذي تخبرني عنه، يمثل أهم الأعمال الموكلة لي كمؤرخ، وخَلْق المسافة اللازمة بيني وبين الأرشيف جرني إلى التفكير في كيفية بناء هذه الدفاتر، وفي الشروط الموضوعية لإنتاجها؛ حتى أفهم السياقات التي لازمت عملية وضع هذه الوثائق، وكذلك ما تظهره وما تخفيه.

ثالثًا: الدفاتر الجبائية وشروط إنتاجها

مهما كانت طبيعة المصادر الأرشيفية فهي تبقى دائمًا خاضعة لشروط إنتاجها، باعتبارها مادة غير جامدة من وضع أفراد ومؤسسات في سياقات معينة، فإبراز الجوانب الذاتية التي كانت وراء عملية وضع هذه الأرشيفات وبنائها من شأنه أن يساعدني على تخطي المطبات التي تفرزها، لأن المعرفة التي تُنتج من خلال الدفاتر الجبائية هي في تبعية للسياق الذي وضعت فيه، لذلك تفطنت إلى أن التفكير في هذه الشروط ومساءلة حمولة مكونات الدفاتر الجبائية يساعدني على استغلال أمثل للمعطيات وبأكثر جدوى.

واضح أن الأرشيف الجبائي يفرض أقنعة تَنتُج من الطريقة التي وضعت بها الدولة هذه الأرشيفات، لذلك تبدو في أول وهلة مبهمة وعصية على الفهم والاستثمار. وجب، إذًا، الكشف عن هذا القناع، ورفع الحجاب حتى يتسنى الولوج إلى كنه الوثيقة الأرشيفية؛ ذلك أنها كُتِبت بخلفية سياسية وإدارية، وبرؤية معينة، بحيث يكون من الصعب الكشف عن معناها، وما تثيره من معلومات من دون التعرف إلى هذه الرؤية. وحصلت لي قناعة أنه لا يمكن أن أقرأ من خلال هذه الوثائق وأستثمرها بصورة مجدية من دون الكشف عن الشروط

الموضوعية التي كانت وراء وضعها من طرف كُتّاب الإدارة المركزية في باردو، والاستفادة من هذه الدفاتر تكون أيضًا رهينة فك رموز المصطلحات التي يعتمدها الكتاب في الإدارة المركزية لتحريرهم القائمات الجبائية المخصصة لكل مجموعة معينة[10].

وبالرغم من كل ذلك فإنه يمكن أن نتبين من خلال هذه الدفاتر الواقع المؤسساتي في ذلك الوقت، خاصة سير المؤسسات وسلوكياتها، لأن أشكال التدوين في هذه الدفاتر الجبائية تعكس بالضرورة طبيعة المؤسسة وخصوصياتها في اللحظة ذاتها[11]. فطريقة تقديم قائمات الضرائب والميزانيات الخاصة بكل مجموعة تخضع لقواعد ثابتة، وهو ما ينم عن وجود تنظيم محكم وموحد، وكذلك وجود هيكل إداري يسهر على تقنين كل ذلك.

هكذا؛ بمجرد الاهتداء إلى ضرورة الكشف عن الشروط الموضوعية لبناء الأرشيف الجبائي، فتحتُ لنفسي آفاقًا بحثية جديدة، فأعدت النظر في طريقة تعاملي مع هذه المصادر، واهتديت إلى استنتاج مفاده أنني كنت أنظر في الدفاتر الجبائية بشكل سطحي، وأكتفي بجمع المعلومات التي تتضمنها، ولم أكن أقرأ من خلالها ولا أُسائل هذه الشروط التي كانت وراء وجودها وكيفية تضمينها وترتيبها في هذه الدفاتر، فكان ذلك الاكتشاف الذي مكنني من تغيير زاوية النظر إلى الدفاتر والولوج إلى أعماق هذا النوع من الوثائق، والذي لم أعتده، ولم أقرأ شيئًا من قبل حول كيفية التعامل معه، لذلك لا خيار لي في إعادة النظر في هذه الدفاتر، لأنها تمثل بالنسبة إليَّ المصدر الوحيد المتاح في ذلك الوقت لإنجاز الأطروحة.

خلصت تدريجيًا إلى قناعة مفادها أن هذه الدفاتر لا تكشف في النهاية سوى عن الجانب الذي يخص المركز السياسي، وتحجب الجوانب التي تخص أطرافًا أخرى، فهي تحجب بصورة كلية أدوار العناصر المحلية خاصة. لذا، كان عليَّ أن أُسائل هذا الجانب الخفي في الدفاتر الجبائية ودلالة ذلك، ففتحت لنفسي بذلك بابًا جديدًا للقراءة من خلال هذه المصادر، فأصبحت لي رؤية أخرى حولها: أحاول النظر من خلالها للكشف عن أدوار الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين الذين عملوا على وضعها على صورتها تلك برتابتها وتكرارها طيلة سنوات، وكذلك في الكشف عن سبب غياب الفاعلين من أهالي المنطقة دافعي الضرائب. حتى مكنتني زاوية النظر هذه من إمكانية البحث عن العلاقة المركبة بين أعوان الدولة من ناحية وأهالي منطقة الجريد من ناحية ثانية، فما كان عائقًا للمعرفة التاريخية لهذه المنطقة أصبح بصورة تدريجية مصدر معرفة، وهو درس تعلمته في بدايات تجربتي البحثية هذه: أقرأ من خلال المصادر ولا أكتفي بالنظر إليها لمجرد جمع المعطيات الواردة فيها.

---

10 كيف نقرأ الكلمات التي تعج بها الدفاتر الجبائية، وهي كلها غريبة بالنسبة إلى لغة اليوم وذات معانٍ متعددة؟ من ذلك نذكر الكلمات التالية من دون ترتيب معين: "المجبى" (أو المجبا)، و"بيت"، و"زمالة"، و"قطعة"، و"مقام"، و"علم"، و"منصب"، و"هوا"، و"بردعة"، و"وبرية الملك"، و"الرمية"، و"هنشير"، و"ماشية"، و"محارير"، و"محازيز"، و"صيفية"، و"عزيب"، و"ربع" ... إلخ، وإن تعرضت جل هذه العبارات إلى شروح مختلفة وأحيانًا متباينة فإنها تبقى، دائمًا، في حاجة إلى مجهود إضافي من طرف الدارسين لتدقيق معانيها واستخراج مكنوزها. ما يُلاحظ في هذا الصدد أن الكلمات الواردة في هذه الأرشيفات تتغير في دلالاتها واستعمالاتها بحسب الزمان والمكان؛ ذلك أنَّ الكلمة تكون دائمًا مرتبطة بتمثلات في الذاكرة الدلاليَّة. قد لا تتغير في شكلها، ومع ذلك فهي مصدر لاستعمالات متنوّعة. إنَّ السياقات هي التي تجعل معاني الكلمات واستعمالاتها في تحول متواصل. ونستحضر هنا المقولة الشهيرة للفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتغنشتاين(1899-1951 Ludwig Wittgenstein) : "لا وجود لكلمات، هناك استعمالات فقط". حول هذه المصطلحات الجبائية وغيرها، راجع على سبيل المثال الأعمال التالية:
Taoufik Bachrouch, "Sur la fiscalité muradite: Présentation d'une source et des premiers résultats d'une enquête en cours," in: *Les Cahiers de Tunisie*, tome XX, no. 79 - 80 (1972), pp. 125-146; Bachrouch, Formation sociale; Chérif, Pouvoir et société; Henia; Abdelhamid Henia, Propriété et stratégies sociales à Tunis à l'époque moderne (XVIe-XIXe Siècles), (Tunis: Faculté des sciences humaines et sociales de Tunis, 1999); Abdelhamid Henia, "Techniques fiscales et Pratiques des scribes (*kâtib*) pour une maîtrise du territoire en Tunisie aux XVIIIe et XIXe siècles," in: Hassan Elboudrari & Daniel Nordman (eds.), *Les Savoirs de l'administration: Histoire et société au Maghreb du XVIe au XXe siècle* (Casablanca: Fondation du Roi Abdul-Aziz, 2015), pp. 75-97;
عبد الحميد هنية، "عندما يخترق دفتر جبائي الأجيال"، كراسات الأرشيف، **الدفتر الجبائي رقم 1**)تونس: منشورات الأرشيف الوطني التونسي، 2010)، ص 5-12.

11 Jean Boutier, "L'Usage historien des archives," in: Jean Boutier et al., *Corpus, sources et archives*, série: Études et travaux de l'IRMC (Tunis: Institut de recherche sur le Maghreb contemporain, 2001), pp. 9 - 32.



اهتديت في ذلك أيضًا إلى أن المصدر الوحيد لا يمكن أن يساعد المؤرخ سوى على الكشف عن بعض الجوانب وتبقى جوانب أخرى خفية. هكذا وجدت نفسي مع الدفاتر الجبائية أمام مصدر وحيد فأصبحت سجينًا له، فأحادية المصدر تخلق أحادية النظرة، لهذا كان الواقع المحلي مغيبًا أو مطموسًا في الدفاتر الجبائية[12]. والخطر كل الخطر أن يأخذ المؤرخ نتائج هذه النظرة الأحادية على أنها الصورة الكاملة التي يسعى لإبرازها، فتعدد مصادر المعرفة ضروري للاقتراب من الكشف عن الواقع التاريخي في شكله المركب، فاقتنعت أن استقراء الأرشيفات في إطار ما يسمى بتقاطع المصادر ضروري لتخطي الفخاخ الناجمة عن إخفاء المعلومات، سواء عن قصد أو عن غير قصد، حتى تصبح في هذه الحالة عملية إحدى الاستراتيجيات المعتمدة من طرف المؤرخ لتخطي الفخاخ التي تضعها الأرشيفات.

لا تكشف الدفاتر الجبائية عن كيفية استخلاص الضرائب، أو المقاييس المعتمدة لتحديد الضريبة التي يدفعها الفرد من الأهالي، لأن الضرائب التي يفرضها البايليك تبرز بشكل جماعي، ويقوم الأعيان أصحاب النفوذ المحلي بعملية توزيعها على مختلف المساهمين من الأهالي، وهو الشيء الذي لا تكشف عنه الدفاتر الجبائية، فهي لا تكشف أصلًا عن أي شكل من أشكال نظام توزيع هذه الضرائب، لأن توزيعها لم يكن من مهمات جهاز الإدارة المركزية، ولا يهم سوى الأهالي المثلين في الأعيان. ولا تكشف الدفاتر الجبائية أيضًا عن العلاقات الاجتماعية التي ترافق عملية جمع الضرائب من الأهالي والتناقضات الاجتماعية التي تفرزها، ولا إمكانية للكشف عن هذه الجوانب سوى الالتجاء إلى وثائق أخرى غير الإدارية، فبات من الأكيد إذًا أن أبحث عن وثائق أخرى تكشف عن وجهة نظر من الداخل، أي وجهة نظر الأهالي، وتزيح اللثام عن الواقع المحلي في كل تجلياته.

فتح ذلك أمامي فكرة ضرورة الكشف عن أدوار الفاعلين المحليين في العملية الجبائية والمقصين تمامًا من دفاتر البايليك، وفهمت منذ البداية أن هذه الوثائق لا يمكن أن تكون إلّا "دفينة" لدى العائلات المحلية، فزرت الجريد التونسي زيارات متعددة حتى أكون أكثر التحامًا بالعباد والتراب، أي بالواقع المحلي. وهذه الزيارات لم تكن في الحسبان في البداية؛ إذ لم يكن في تقليد الممارسة الإستغرافية في البلاد التونسية آنذاك القيام بالعمل الميداني، على الأقل بالنسبة إلى دراسة الفترات التاريخية السابقة عن الاستعمار، أي العهد الحديث.

وكانت الفائدة التي جنيتها من استجوابات أهالي المنطقة ومن الوثائق المحلية التي سلموني إياها كبيرة جدًّا، مما جعل بحثي يصبح أكثر انغماسًا في الواقع المحلي، ويأخذ بعدًا أنثروبولوجيًا واضحًا. والمهم أن ذلك مكنني من مقارنة نظرة المركز السياسي التي تفرضها المصادر الأرشيفية بنظرة الأهالي من الداخل كما أستشفها من خلال محادثاتي معهم، وخاصة من خلال الوثائق العائلية التي وضعوها على ذمتي[13]، فمكنتني هذه الوثائق من الكشف عن جوانب عديدة كانت مغمورة عندما كنت أطلع فقط على الدفاتر الجبائية.

وبالرجوع إلى الوثائق العائلية، استطعت التعرف إلى نظام توزيع الضرائب بين الأهالي، والصعوبات التي كان يلقاها الأهالي لتسديد الضرائب، وكذلك إلى المستفيدين من هذه الوضعيات الحرجة التي تحصل لضعفاء الحال. كل ذلك بعلاقة مع الضغط الذي يفرضه وجود المحلة[14] في منطقة الجريد على الأهالي، ذلك أن المحلة تبقى رابضة في الجريد إلى أن تستوفي جمع الضرائب المطلوبة.

12 Abdelhamid Henia, "Archives ottomanes en Tunisie et histoire régionale," in: A. EL-Moudden & A. Benhadda (coord.), *Les Études Ottomans au Maghreb à travers les archives locales et méditerranéennes* (Rabat: La Faculté des lettres et des sciences humaines, 2005), pp. 241 - 255.

13 هذه الوثائق العائلية عبارة عن عقود عدلية في مجملها تتعلق أساسًا ببيع العقارات، وعقود دين بين المتساكنين ... إلخ. نشرت نماذج من هذه الوثائق في ملحق ضمن كتابي حول علاقة منطقة الجريد بالبايليك في تونس، انظر: Henia, *Le Jérid*.

14 "المحلة" هي مؤسسة سياسية وعسكرية تعود في الأصل إلى العهد الحفصي (1229-1474)، وتتكوّن من فرق عسكرية مختلفة تخرج لجمع الضرائب مرتين في السنة: تتوجه في الشتاء (خلال كانون الأول/ ديسمبر - كانون الثاني/ يناير) نحو الجنوب، وخاصة نحو الجريد زمن صابة التمور، وتتوجه في الصيف (خلال تموز/ يوليو - آب/ أغسطس) نحو الشمال زمن صابة الحبوب. وقد حافظ العثمانيون على هذه المؤسسة عندما انتصبوا في البلاد التونسية في سنة 1574.

تكشف الوثائق العائلية كيف أن المحلة تشكل بمجمل مكوناتها عبئًا ثقيلًا على الأهالي (من انتهاكات وتسلط أعوانها وضرورة تأمين العلف للدواب المرافقة، وغيرها من المصاريف الثقيلة المرتبطة بتواصل بقاء المحلة في المنطقة)، لذلك يعمل الأهالي على التخلص من وجودها على أراضيهم، لكن مهما كان الأمر لا يحصل ذلك إلا بعد استيفاء عملية خلاص الضرائب المطلوبة، فيقع الضغط على المتلكئين أو غير القادرين على دفع المطلوب منهم، فينتهز أصحاب الجاه المادي (الأغنياء) الفرصة لاستغلال ضعفاء الحال لحملهم على التداين لديهم برهن أرزاقهم أو بيعها بأثمان بخسة.

وطبعًا، لا تقول الدفاتر الجبائية أي شيء عن هذه الجوانب التي لا تهم سوى الأهالي، سواء كانوا مستفيدين أو متضررين، فالوثائق العائلية وحدها هي التي تكشف عن هذه الجوانب. وبالرجوع إليها استطعت أن أقلل من تأثير هذا الخلل المتمثل في عدم التوازن في الرؤى إلى واقع منطقة الجريد خلال الفترة المعنية بالدراسة، فتعدد زوايا النظر في هذه الحالة ضروري لتحسس هذا الواقع في تجلياته المركبة.

لا شك في أن الأرشيف الجبائي كان يؤمّن مهمة تحقيق المركزة السياسية والإدارية على منطقة الجريد. كما يجب ألّا ننسى أن هذه المنطقة نائية وبعيدة جدًا عن المركز السياسي، ثم إنها عُرفت منذ العهد الحفصي بنزعتها الاستقلالية[15]، لهذا كان إحكام السيطرة على هذه المنطقة مشروعًا سياسيًا قائمًا بصورة متواصلة طيلة العهد الحديث، علمًا أن المركزة السياسية في إطار بناء الدولة المجالية في البلاد التونسية في ذلك التاريخ تمثل القيمة السياسية الأولى، تمامًا مثلها في ذلك مثل الدول بالمعنى الحديث للكلمة المعاصرة لها، ولذلك لا تزيح هذه الأرشيفات اللثام عن الجوانب التي تتناقض مع مبدأ تحقيق هذه المركزة السياسية والإدارية الكاملة في منطقة الجريد، فهي تحجب لتحقيق ذلك كل ما له علاقة بالأدوار التي كان يؤمنها الأعيان المحليون في العملية الجبائية، والذين كانوا يتحركون في إطار مجموعاتهم في اتجاه يكاد يكون معاكسًا تمامًا لما كانت تطمح إلى تحقيقه من دون هوادة الإدارة المركزية طيلة العهد الحديث.

وكان هؤلاء الأعيان يمارسون نفوذهم المحلي، ويقتطعون جزءًا من العائدات الجبائية بطريقتهم الخاصة تحجبها الدفاتر الجبائية كليًا، وتعقد السلطة المركزية، في إطار استراتيجية سياسية، اتفاقًا ضمنيًا مع الأعيان المحليين يقضي مبدأ الاعتراف المتبادل بمجال نفوذ كل طرف: نفوذ مركزي بيد الباي ومن يمثله في الجهة مثل مؤسستي "القايد" و"المحلة" من ناحية، ونفوذ محلي عتيد يمثله الأعيان المنتظمون في مجالس محلية من ناحية ثانية، فتكشف الدفاتر عن المجال الأول، وتخفي (تقريبًا كليًا) مجال النفوذ المحلي، وتكشف الوثائق العائلية وحدها عن مجال النفوذ المحلي.

هكذا، لكل أرشيف نظرة إلى الأمور وإلى الواقع تختلف عن أخرى؛ فالدفاتر الجبائية تبرز رؤية الإدارة المركزية في باردو التي لا يهمها سوى ما تستخلصه من ضرائب (نقدًا وعينًا). أما الجوانب العملية المتعلقة باستخلاص الضرائب، وخاصة تحديد القدرة الدفوعية لكل أفراد المجموعات بمنطقة الجريد، فهي من اختصاص الأعيان المحليين، بحيث تكون هناك جوانب عديدة لا تفصح عنها الدفاتر الجبائية. وعندما تكشف أحيانًا عن بعضها، فعادةً ما تكون بصورة مقتضبة وتبقى في أغلب الحالات غامضة ومبهمة، ومن ثم تحتاج إلى قراءة بين السطور لفك رموزها، لكن نرى أحيانًا كيف أن الآلة الإدارية تكشف رغم أنفها عن بعض الجوانب من هذا الذي تريده مخفيًا، فبإبراز الفارق décalage بين الجوانب المعلنة والجوانب المخفية (التي لا تفصح عنها الدفاتر الجبائية) نستطيع من خلاله أن نبني في نهاية المطاف معرفة. هكذا يكون بناء معرفة أحيانًا من خلال رصد غياب المعرفة.

---

15 انظر: برنشفيك.

تبدو، إذًا، الدفاتر الجبائية نتاجًا لتمثل وتصور. وبالكشف عن المنظومة المتحكمة في وضعها، يتضح أن المعطيات التي تتضمنها تحمل في طياتها خطابًا يشي بمنطقها الخاص، ويكشف عن مضامينها الحاملة لمعناها، فالوثيقة الأرشيفية هي في نهاية المطاف فعل في سياق معين ومن زاوية نظر معينة، من الضروري أن نحيلها على واضعها، وعدم الوضوح في هذا الجانب يمنعنا من التفكير فيها، ومن ثم يمنعنا من الاستفادة منها.

هكذا أصبحت أركز النظر في هذه الوثائق من حيث هي قبل كل شيء نتاج لفعل اجتماعي، وأصبحت لا أكتفي بجمع المعطيات من مختلف هذه الوثائق، وإنما أقرأ من خلالها أساسًا وأستخلص المعاني، فاهتديت إلى المنطق الذي يحتكم إليه النظام الجبائي المعمول به في منطقة الجريد وغير المعلن عنه في المصدر، واهتديت إلى المنطق الذي تحتكم إليه الممارسات الجبائية التي تبدو غامضة من أول وهلة. نفهم، إذًا، أننا لسنا إزاء أرشيفات تفصح تلقائيًا عن الواقع حتى نبني بها سردية تاريخية عادية، وإنما أمام أرشيفات تقدم مادة مصدرية تفرض علينا استنباط لغة خاصة وأسئلة معينة حتى تفصح عن الجوانب الخفية، وعن الجوانب التي تبدو غامضة من أول وهلة، ومع ذلك لا يمكن أن يذهب بنا الظن إلى أننا استنفدنا بذلك كل معاني محتوياتها.

لكن صعوبات الباحث مع الأرشيفات لا تكون فقط بعلاقة مع عملية إنتاج الوثيقة، فهي أيضًا في ما هو خارج الوثيقة ذاتها؛ إذ إن عدم فهم الوثيقة وإدراك معناها لا يتأتى من الوثيقة ذاتها أيضًا، كما رأينا مع الدفاتر الجبائية، وإنما من الجهاز المعرفي الذي يتوافر للباحث عند لحظة مباشرة الوثيقة، وهو ما ظهر لي شخصيًا عند مباشرة التعامل مع الأرشيفات لاستقراء قضايا الملكية العقارية وأشكال التملك في مدينة تونس وضواحيها، قصد إنجاز دكتوراه الدولة في بداية الثمانينيات من القرن الماضي[16].

رابعًا: عندما تصبح المعرفة حول قضايا التملك عائقًا أمام الفهم السليم للأرشيفات

كانت تجربتي في دراسة وثائق الملكية العقارية مختلفة عن تجربتي مع الدفاتر الجبائية ولاحقة لها، فقد تغيرت المادة الأرشيفية، وتغير موضوع البحث. عند تناولي موضوع الملكية في مدينة تونس ومجالها الريفي خلال العهد الحديث، كان هدفي يتمثل في استثمار المصادر الأرشيفية في مجال الملكية العقارية، وكانت هذه المصادر على نوعين: فمنها ما نجده في أرشيف الدولة، ومنها ما يتعلق أساسًا بأرشيف الأوقاف بشكل عامّ؛ سواء كانت أوقافًا عامة (خيرية)، أو أوقافًا خاصة (أهلية - عائلية)[17]. وكان مشروعي يتمثل في استقراء هذه الأرشيفات للكشف عن أشكال التملك و الاستراتيجيات الاجتماعية التي تتخللها.

وما إن أبدأ في الاشتغال بالوثائق ذات الصلة بالملكية العقارية في مدينة تونس حتى تحصل الصدمة وانسداد الأفق. كان ذلك ناتجًا من طبيعة الأدوات التحليلية والتصنيفات المعرفية المتوافرة في الكتابات التاريخية المتاحة لمعالجة قضايا التملك. وكان التمشي

---

16 وهي أطروحة الدكتوراه التي ناقشتها في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية (جامعة تونس) في حزيران/ يونيو 1995، وتم نشر الأطروحة في سنة 1999، انظر: Henia, *Propriété et stratégie*.

17 وكان أغلب هذا النوع من الوثائق حول مدينة تونس يوجد في أرشيف لجنة تصفية الأوقاف بمركز ولاية تونس. حول هذه الوثائق والإطار الذي تتنزل فيه دراستي لهذه الوثائق، انظر:
Sophie Ferchiou, (dir.), *Hasab wa nasab: Patrimoine, alliance et en Tunisie,* séries: Sociétés arabes et musulmanes 7 (Paris: Éditions du CNRS, 1992); Abdelhamid Henia, "Circulation des Biens et Liens de parenté à Tunis: XVIIe-début XXe siècle," in: Ferchiou, pp. 517-250; Abdelhamid Henia, *Propriété et stratégies,* p. 433.

الذي اعتمدته في البداية هو أن أتسلح منهجيًا أولًا بما تقدمه هذه الكتابات التاريخية من تصنيفات معرفية قبل الغوص في الوثائق ذاتها، والمشكلة التي اعترضتني منذ البداية هي: بأي أدوات معرفية أعالج قضايا التملك التي تكشف عنها الأرشيفات المتوافرة؟

طبعًا، لست أول من درس قضايا الملكية وأشكال التملك في البلاد التونسية. أُنجزت دراسات كثيرة، خاصة في فترة الاستعمار الفرنسي ومباشرة بعدها[18]. ومن المفارقة أن تشكل الحصيلة المعرفية والمفاهيمية التي راكمتها هذه الدراسات أول عقبة وجدتها في مسار بحثي في الأرشيفات المتعلقة بالملكية العقارية.

من المعلوم أنّ البلاد التونسية عرفت بداية من سنة 1881 انتصاب الاستعمار الفرنسي، وهو حدث أثّر بعمق في هياكلها المادية والذهنية، ففرض معارف جديدة، وأدخل تصنيفات مبتكرة في مجالات عدة من الحياة المادية والاجتماعية، بحيث أعاد استنباطها. والمهم أنه أنتج علمًا قائمًا بذاته، وهو "العلم الاستعماري" الذي شمل كل الحياة المادية والثقافية بالبلاد التونسية. لم يتأسس هذا العلم الذي مُورس في البلاد التونسية في سنة 1881، بل ظهر قبل ذلك، وبالتحديد غداة احتلال الجزائر في سنة 1830، عندما عمل الفرنسيون على استكشاف منطقة شمال إفريقية عمومًا وأنظمتها الاجتماعية والسياسية، وتحول الاستكشاف بالتدريج إلى بحث علمي استعماري سُخر لتمهيد البلاد، وإضفاء مشروعية على عملية وضع اليد على الأملاك العقارية فيها لغاية التهيئة للاستيطان الفرنسي.

صرف هذا "العلم الاستعماري" همته بدرجة أساسية لإعادة استنباط أشكال التملك للأرض، لما لهذا الجانب من ارتباط وثيق بالاستعمار الاستيطاني بصورة عامة، فأعاد كتابة التاريخ العقاري في منطقة شمال إفريقية، وأنتج في نهاية المطاف قناعات ومعارف جديدة حول قضايا التملك مستندة إلى القانون العقاري الفرنسي. وكانت "المعرفة الاستعمارية" المنتجة تحدد كيفية فهمنا لواقع الملكية؛ لا في فترة الاستعمار فحسب، وإنما أيضًا في الماضي، أي قبل الاستعمار، بل يمكن القول إنها أصبحت تمنعنا أصلًا من قراءة المصادر حول الملكية بطريقة سليمة.

---

18 من بين هذه الدراسات العديدة نذكر:
أولًا، الدراسات التي أنجزت خلال الفترة الاستعمارية:
Max Van Berchem, *La Propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premiers califes: Étude sur l'impôt du Kharâdg* (Genève: H. Georg, libraire de l'universite, 1886); J. Chailley-Bert, "La Colonisation agricole en la Tunisie," *Revue générale des sciences pures et appliquées* (1896), pp. 1112-1116; Paul Lescure, *Du double régime foncier de la Tunisie: Droit musulman et loi foncière* (Tunis: Imprimerie française B. Borrel, 1900); M. Pouyanne, *La Propriété foncière en Algérie* (Alger: Jourdan, 1900); M. Gounot, "Le Régime de la propriété foncière en Tunisie", in: *Congrès de l'Afrique du Nord* (1908), pp. 593-599, accessed on 27/5/2019, at: https://bit.ly/2JeVAC8;
H. Coste, *Les Impôts Achour et Hokor dans le département de Constantine* (Alger: Jourdan, 1911); P. Dumas, *Les Populations indigènes et la terre collective de tribu en Tunisie* (Tunis: Imprimerie française, 1912); CH. Saumagne, "Sur la législation relative aux terres incultes de L'Afrique Romaine," *Revue Tunisienne* (Janvier-Juin 1922), pp. 57-116; H. de Montety, *Une loi agraire en Tunisie: Étude de la législation établie en vue d'assurer la fixation au sol des indigènes sur les terres habous* (Cahors: IMP. Coueslant, 1927); H. de Montety, *Code du droit d'occupation des fonds Ruraux Habbous en Tunisie* (Tunis: Imprimerie de la renaissance, 1932); H. de Montety, "Adaptation du jurisme occidental aux réalités sociales tunisiennes en Matière Foncière," *IBLA*, vol. 5, no. 2 (Avril 1942), pp. 144-152; A. Scemla, *Le Contrat d'enzel en droit tunisien* (Paris: Domat-montchrestien, 1935); Robert Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XV siècle*, vol. 1, 2 (Paris: Adrien-Maisonneuve, 1940 et 1947).

ثانيًا، الدراسات التي أنجزت بعد الاستعمار الفرنسي:
A. Bessis et al., *Le Territoire des Ouled Sidi Ali Ben Aoun: Contribution à l'étude des problèmes humains dans la steppe tunisienne* (Paris: P.U.F, 1956); J. Poncet, "Un problème d'histoire rurale: Le Habous Aziza Othmana au Sahel," *Les Cahiers de Tunisie*, no. 31, 3ème trim. (1960), pp. 137-156; J. Poncet, *La Colonisation et l'agriculture européennes en Tunisie depuis 1881: Étude de géographie historique et économique* (Paris: La Haye Mouton, 1962); J. Poncet, "Statut foncier et rapports sociaux dans la Tunisie d'avant 1881," in: C.E.R.M., *Sur le féodalisme* (Paris: Éd. sociales, 1974), pp. 188-210; A. Benachenhou, *Régime des terres et structures agraires au Maghreb* (Alger: Éditions populaires de l'armée, 1970); Abdelmajid Bouslama, "L'évolution du Régime de la Propriété immobilière en Tunisie," *Revue juridique et politique: Indépendance et coopération*, vol. 24, no. 4 (1970), pp. 683 et sq; Valensi, *Fellahs Tunisiens*; Jacques Berque, *L'Intérieur du Maghreb: XVe-XIXe siècle* (Paris: Gallimard, 1978).



بات من الضروري بالنسبة إليَّ أن أعالج مصادري من منظور إبستيمولوجي مغاير. ولتحقيق ذلك كان عليَّ أن أسائل هذه "المعرفة الاستعمارية" في مجال التملك ذات الخلفيات الأيديولوجية، لأنها وضعت بدرجة أساسية لخدمة المنظومة الاستعمارية القاضية بوضع اليد على أكثر ما يمكن من الأراضي. ولمواجهة هذا العلم، كان عليّ أن أطرح الأسئلة التالية: كيف أعيد النظر في البناء المعرفي الاستعماري في ما يتعلق بالملكية العقارية؟ وما هو البعد الإبستيمولوجي في ذلك؟ وما هي الأسئلة التي ساعدتني على القطع مع الدراسات التي أنجزت حول موضوع الملكية في الفترة الاستعمارية وحتى في الفترة الأولى بعد الاستقلال؟

هكذا بدأت الخروج من الانسداد المعرفي بإعادة التفكير أولًا في التصنيفات المعرفية ذاتها، وخاصة بإعادة تفكيكها ومساءلتها؛ فبدلًا من أن أنطلق منذ البداية في دراسة قضايا التملك خلال الفترة الحديثة بالاعتماد على الأرشيفات المعنية، كان عليَّ أولًا أن أستثمر الجهد في حل العقد المعرفية الاستشراقية التي تشكل حاجزًا أمام دراسة وثائق الملكية وفهمها على أفضل حال. وكان الحل هو التخلص من العبء الاستشراقي والانطلاق بعد ذلك في دراسة قضايا الملكية وأشكال التملك، ولم يكن ذلك ممكنًا منذ البداية من دون الوعي بقصور الجهاز المفاهيمي الاستشراقي المتوافر، ومن دون تفكيكه واستبداله بتصنيفات معرفية تتخطى المعوقات التي فرضها العلم الاستعماري.

هكذا تخلصت من السطوة المعرفية التي بناها المستشرقون، واتجهت إلى معالجة قضايا التملك خلال الفترة السابقة عن الاستعمار بأدوات ومصطلحات أخرى لا تمُتُّ بصلة إلى ما أنتجه العلم الاستعماري. وكانت الطريقة التي اعتمدتها للخوض في قضايا التملك هذه أن أنطلق من تصنيفات الفاعلين في الفترة السابقة للاستعمار، التي أرصدها من الأرشيف ذاته، وأن أطرح أسئلة حولها في علاقة وطيدة بالسياق التاريخي للفترة الحديثة، وهو التمشي الذي أسميته لاحقًا منهج "أهلنة" المعرفة[19]؛ وبهذا التمشي لا يكون الحذر في الطريقة المتوخاة في قراءة الوثائق ومساءلتها فقط، بل في الطريقة المعتمدة لتوظيف المفاهيم والأدوات التحليلية المناسبة، والتخلي عن كل ما يشبه الإسقاط أيضًا.

خاتمة

ما هي الاستنتاجات التي نخرج بها من إعادة النظر في التجربة البحثية في الأرشيفات المتعلقة بتاريخ البلاد التونسية خلال العهد الحديث؟

عمومًا مرَّت تجربتي في الاشتغال بالأرشيفات بثلاث مراحل أساسية، وذلك من دون تخطيط مسبق:

- تميزت الأولى بالعفوية والسذاجة في التعامل مع الوثائق. ومن الغريب أن يُواكب هذه المرحلة إحساس بالنشوة وبلذة الاكتشاف السهل.
- في مرحلة ثانية يتضح لي أن تلك النشوة، وكذلك ما اعتقدته اكتشافًا هو في الحقيقة مجرد سراب. وسرعان ما ينتابني إحساس بانسداد الأفق، فتكون الصدمة مع الشعور بالإحباط.
- تأتي بعد ذلك وقفة التأمل، فكانت بالنسبة إليَّ مرحلة المساءلة والكشف عن مواضع الإعاقة، والبحث عن آلة التأويل، واستنباط الأسئلة المناسبة، والوصول إلى حلول منهجية تساعدني في النهاية على الخروج من عنق الزجاجة، خاصة عند الاهتداء إلى طريقة مجدية للتعامل مع هذه الأرشيفات وخصوصيتها.

19 عبد الحميد هنية، "التجديد في الكتابة التاريخية عبر منهج 'أهلنة' المعرفة"، ورقة مقدمة في مؤتمر العلوم الاجتماعية والإنسانية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة 23-2019/3/25.

كانت هذه المراحل الثلاث تتكرر بالطريقة نفسها تقريبًا مع الأرشيفات من تجربة إلى أخرى، ولا أظن أن هنالك "وصفة" محددة تكون صالحة للتعامل بصورة مثلى مع كل الأرشيفات.

تلك هي، إذًا، خلاصة تجربتي الخاصة مع الأرشيفات التي اشتغلت بها. إنها تجربة ذاتية جدًا، ولا أظنها تحصل لباحث آخر بالصورة نفسها، والإفصاح عن الجانب الذاتي في هذا المجال مفيد، ويمكن أن يكون مصدر معرفة في حد ذاته، ذلك أن البحث هو قبل كل شيء فعل اجتماعي، له سياقاته وإكراهاته. ويحسن أن نفكر فيه من هذه الزاوية، لأنه يشكل في نهاية المطاف مكوِّنًا من بين مكونات المعرفة.

كشفت لي تجربتي أيضًا أن الأرشيفات تحمل في طياتها فخاخًا يمكن أن تحدَّ من الفهم الحقيقي للواقع الذي أروم الكشف عنه إذا لم أنتبه إليها. في تجربتي مع الأرشيف الجبائي المتعلق بمنطقة الجريد التونسي، كان عليَّ أن أتخلى عن فكرة عبادة الأرشيف la fétichisation de l'archive كونها تكشف عن كل الجوانب ما دامت صادرة عن الإدارة المركزية، وكونها أيضًا "موضوعية" (هكذا أُولت أو صُنفت من طرف بعض الدراسات) وتختلف عن كتابات "الإخباريين" المتقطعة والمشحونة بالخطاب المنحاز إلى جانب السلطة المركزية. إن الأرشيفات ليست أكثر "موضوعية" في الحقيقة؛ إذ لا تكشف سوى عن جوانب وتهمل أخرى، فالأرشيف يخضع بالأساس لإكراهات الإدارة المركزية التي سهرت على وضعه، ومن الضروري الكشف عن هذه الإكراهات إذا أردنا الولوج إلى أعماق معاني الأرشيفات، وإذا أردنا أن نعرف أيضًا كيف نقرأ من خلالها.

من هنا بات من الضروري أن نقرأ المصادر الأرشيفية على أنها فعل اجتماعي له سياقاته ورهاناته، حتى نتعرف إلى المنطق أو المنظومة التي تتحكم في عملية إنشائها، وأن المعرفة التي تُبنى انطلاقًا من هذه الأرشيفات هي أيضًا نتاج لفعل اجتماعي يكون مصدره الباحث ذاته الذي يخضع بدوره لسياقات الحاضر بكل ما يحمله من إكراهات معرفية وغير معرفية.

من دون قراءة الأرشيفات على أنها نتاج (اجتماعي وحرفي وسياسي)، قد لا نفهم الشيء الكثير منها. هذا يعني أن نفكر أولًا في الكيفية التي أنتجت بها هذه الأرشيفات وسياقاتها. يمكن أن نقرأ من خلالها أشياء كثيرة قد لا نراها لو اقتصرنا فقط على البحث عن المعلومات المعزولة والمتناثرة فيها، والبحث عن المعلومة الخارقة للعادة قد يخفي عنَّا إمكانية اكتشاف العادي الذي هو أمام أعيننا أحيانًا، وهو الذي يساعدنا حقًا على فهم أدوار الفاعلين الذين كانوا وراء وضع الوثيقة الأرشيفية. هكذا يجب على المؤرخ في هذه الوضعيات أن يؤول المصدر الأرشيفي باستمرار، وهذا يعني أنه يجب عليه دائمًا أخذ المسافة اللازمة من الأرشيف، فالكشف عن النقائص التي تحملها الأرشيفات يمكن أن يساعد على الكشف عن الآليات التي كانت وراء ذلك النقص.

هكذا يتبين أن الوثائق الأرشيفية هي إنتاج وممارسة أكثر منها خزانة معلومات. فهي نتاج لفعل اجتماعي في وضعها، كما أن استعمالها لبناء معرفة تاريخية هو أيضًا نتاج لممارسة وتجربة بحثية، ويجب أن ننظر إلى هذه المعرفة التاريخية على أنها قبل كل شيء نتاج لفعل المؤرخ وإمكاناته الذاتية في سياق حاضره، فالكتابة التاريخية فعل ينهل من حاضر المؤرخ ومن إمكاناته المنهجية والمعرفية، أي إنها في نهاية المطاف نتاج لفعل اجتماعي أيضًا، فهي إذًا ليست نتاجًا صرفًا للأرشيفات؛ ذلك أن الأرشيفات لا تبني المعرفة التاريخية، ولا تعطيها بصورة تلقائية أصلًا.

واضح أن معرفة الماضي لا تتقدم إلا من خلال توسيع حقول المصادر الوثائقية والتجديد في النظر فيها ومن خلالها. وطبعًا، يكون ذلك متلازمًا مع التجديد في طرق استجوابها ومساءلتها. وحتى نستفيد من مخزون الأرشيفات، يجب أن نعيد دائمًا استنباطها من حيث كونها مدونة مصدرية متجددة، نطرح عليها الأسئلة المناسبة لكي نجعلها تبوح من جديد بأسرارها التاريخية. والاستثمار المجدي

للوثائق يمر حتمًا عبر التغيير المتجدد في زاوية النظر وفي كيفية تحليل الوثيقة ومساءلتها. ومن خلال تدقيق النظر في الوثائق والتحقيق فيها بصورة متجددة تتغير الاستنتاجات الأولية، ذلك أن البحث تجربة معرفية، وهو مسار ونهج.

ما الذي استنتجته من هذا الفعل الانعكاسي في تجربتي البحثية؟ أو بتعبير آخر ماذا علمني هذا التفكير في تجربتي البحثية في الأرشيفات العثمانية في تونس؟

ما قدمته في هذه الورقة هو إعادة التفكير في التجربة البحثية الأولى التي وظفت فيها هذه الوثائق الأرشيفية منذ أكثر من أربعين سنة مضت، فهو رجوع إلى البدء، وبذلك يكتمل محيط الدائرة la boucle est bouclée، لغاية معرفية متجددة. وهو بصورة أو بأخرى فعل انعكاسي اجتماعي على النمط الذي تصوره بورديو Bourdieu[20]. والمسافة في هذا المجال ضرورية حتى يستطيع المؤرخ التفكير في تجربته مع الأرشيف: في ما حققه من نتائج، وفي ما أخفق فيه.

هكذا تبدو العلاقة بين المؤرخ والأرشيف ممتدة في الزمن؛ فهي متجددة لا تنتهي. وبالرجوع إلى التفكير في الممارسة الأرشيفية تصبح القراءة في الأرشيفات وفي كيفية التعامل معها من درجة ثانية une lecture au second degré، فالمسألة بالأساس ثقافية معرفية، فكلما تقدم المؤرخ في الزمن نضجت أفكاره وتعمق فهمه لمصادره ولموضوعاته، فيحصل العود إلى المصادر الأرشيفية، وتحصل إعادة التفكير فيها كلما توفرت أسئلة جديدة وأدوات تحليلية مبتكرة لمعالجتها، فأسئلة الحاضر حول أرشيفات الماضي هي في نهاية المطاف نتاج لمعارف تتراكم بصورة تدريجية.

هناك إذًا تماثل symétrie في التعامل بين المصادر الأرشيفية والكتابة التاريخية في الزمن الحاضر، مما يضع تاريخية عمل المؤرخ، والمؤرخ ذاته أيضًا، في قلب التمشي الذي يعتمده لمعالجة مصادره الأرشيفية. كل ذلك يبين كيف أن الحاضر المتجدد (أي حاضر المؤرخ) يفعل فعله في استقراء الأرشيفات، وأن المعرفة التاريخية، وإن اعتمد بناؤها على مصادر من الماضي، تبقى في نهاية المطاف نتاج فعل اجتماعي وليد حاضر المؤرخ[21]. هكذا يصبح المؤرخ وذاتيته في قلب رحى المعرفة التاريخية. بهذه النظرة نضع المؤرخ في الصورة التي يرسمها بنفسه، تمامًا كما نضع الفنان داخل اللوحة التي يرسمها.



20 انظر على سبيل المثال:
Jérémy Clairat, "Les Mises en scène d'un sociologue: Pierre Bourdieu par lui-même. Sources et ressources de la réflexivité," in: O. ihl & P. Veitl, Séminaire, "Les Mises en Scène du politique," Université Pierre Mendès France, Institut d'études politiques de Grenoble (2003-2004), accessed on 27/5/2019, at: https://bit.ly/2Ma5U2Y

21 في هذا الموضوع، انظر:
Joseph Morsel, "Traces? Quelles traces? Réflexions pour une histoire non passéiste," *Revue historique*, vol. 4, no. 680 (Janvier 2016), pp. 813 - 868.

المراجع

العربية

الأرشيف الوطني التونسي، **الدفتر رقم 620.**

الإمام، رشاد. **سياسة حمودة باشا في تونس.** تونس: منشورات الجامعة التونسية، 1980.

برنشفيك، روبار. **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15.** نقله إلى العربية حمادي الساحلي. ج 1 و2. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988.

عبد السلام، أحمد. **المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19م: رسالة في تاريخ الثقافة.** نقله من الفرنسية إلى العربية أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي. تونس: بيت الحكمة، 1993.

هنية، عبد الحميد. "الملكية والأسرة لدى بعض القبائل التونسية في بداية القرن الثامن عشر". **الكراسات التونسية.** مج 30. العددان 121-122 (1982).

________. "عندما يخترق دفتر جبائي الأجيال". كراسات الأرشيف. **الدفتر الجبائي رقم 1.** تونس: منشورات الأرشيف الوطني التونسي، 2010.

________. "التجديد في الكتابة التاريخية عبر منهج 'أهلنة' المعرفة". ورقة مقدمة في مؤتمر العلوم الاجتماعية والإنسانية. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. الدوحة 23-2019/3/25.

الأجنبية

- Bachrouch, Taoufik. *Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XVIIe siècle.* Tunis: Publications de l'université de Tunis, 1977.
- ________. *Le Saint et le prince en Tunisie: Contribution à l'etude des groupes sociaux dominants 1782-1881.* Tunis: Publications de l'Université de Tunis, 1989.
- Ben Youssef, Mohamed Sghîr. *Târîkh al-mašra' al-mulkî fî salt'anat 'Awlâd 'Alî at-Turkî.* Victor Serres & Mohammed Lasram (trad.). *Mechra el-Melki: Chronique tunisienne (1705-1771): Pour servir à l'histoire des quatre premiers beys de la famille Husseïnite.* 2ème éd. Tunis: Éditions Bouslama, 1978.
- Benachenhou, A. *Régime des terres et structures Agraires au Maghreb.* Alger: Éditions populaires de l'armée, 1970.
- Berchem, Max Van. *La Propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premiers califes: Étude sur l'impôt du kharâdg.* Genève: H. Georg, libraire de l'universite, 1886.
- Berque, J. & D. Chevalier (éds.). *Les Arabes par leurs archives (XVIe-XXe siècles).* Paris: CNRS, 1976.
- Berque, Jacques. *L'Intérieur du Maghreb: XVe-XIXe Siècle.* Paris: Gallimard, 1978.
- Bessis, A. et al. *Le Territoire des Ouled Sidi Ali Ben Aoun: Contribution à l'étude des problèmes humains dans la steppe tunisienne.* Paris: P.U.F, 1956.
- Bouslama, Abdelmajid. "L'Évolution du régime de la propriété immobilière en Tunisie," *Revue juridique et politique: Indépendance et coopération*. vol. 24, no. 4 (1970).
- Boutier, Jean et al. *Corpus, sources et archives*, serie: Études et travaux de l'IRMC. Tunis: Institut de recherche sur le Maghreb contemporain, 2001.
- Brunschvig, Robert. *La Berbérie orientale sous les hafsides des origines à la fin du XV siècle*. vol. 1, 2. Paris: Adrien-Maisonneuve, 1940 et 1947.
- C.E.R.M., *Sur le féodalisme.* Paris: Éd. Sociales, 1974.
- Chailley-Bert, J. "La Colonisation agricole en la Tunisie," *Revue générale des sciences pures et appliquées* (1896).

- Chater, Khalifa. *Dépendance et mutations précoloniales: La régence de Tunis de 1815 à 1857.* Tunis: Publications de I' Université de Tunis, 1984.
- Chérif, Mohammed-Hédi. *Pouvoir et société dans la Tunisie de H'usayn Bin 'Alî (1705- 1740).* Series publications de l'Université de Tunis. 4ème série: Histoire. vol. 1, 2. Tunis: Publications de i'Université de Tunis, 1984-1986.
- Congrès de l'Afrique du Nord (1908). at: https://bit.ly/2JeVAC8
- Coste, H. *Les Impôts Achour et Hokor dans le département de Constantine.* Alger: Jourdan, 1911.
- Montety, H. de. *Une loi agraire en Tunisie: Étude de la législation établie en vue d'assurer la fixation au sol des indigènes sur les terres habous.* Cahors: IMP. Coueslant, 1927.
- ________. *Code du droit d'occupation des fonds ruraux Habbous en Tunisie.* Tunis: Imprimerie de la renaissance, 1932.
- ________. "Adaptation du jurisme occidental aux réalités sociales tunisiennes en matière foncière," *IBLA*. vol. 5, no. 2 (Avril 1942).
- Dumas, P. *Les Populations indigènes et la terre collective de tribu en Tunisie.* Tunis: Imprimerie française, 1912.
- Elboudrari, Hassan & Daniel Nordman (eds.). *Les Savoirs de l'administration: Histoire et société au Maghreb du XVIe au XXe siècle.* Casablanca: Fondation du Roi Abdul-Aziz, 2015.
- EL-Moudden, A. & A. Benhadda (coord.). *Les Études ottomans au Maghreb à travers les archives locales et méditerranéennes.* Rabat: La Faculté des lettres et des sciences humaines, 2005.
- Ferchiou, Sophie (dir.). *Hasab wa nasab: Patrimoine, alliance et en Tunisie.* Series: Sociétés arabes et musulmanes 7. Paris: Éditions du CNRS, 1992.
- Ganiage, Jean. *Les Origines du protectorat français en Tunisie (1861- 1881).* 2ème éd. Tunis: Maison tunisienne de l'édition, 1968.
- Henia, Abdelhamid. *Le Jérid: Ses Rapports avec le Beylik de Tunis (1676-1840).* Tunis: Publications de l'Ecole Normale Supérieure de Tunis, 1980.
- ________. Propriété et stratégies sociales à Tunis à L'époque moderne (XVIe-XIXe Siècles). Tunis: Faculté des Sciences humaines et sociales de Tunis, 1999.
- Ihl, O. & P. Veitl Séminaire. "Les Mises en scène du politique," Université Pierre Mendès France. Institut d'études politiques de Grenoble (20032004-). at: https://bit.ly/2Ma5U2Y
- Morsel, Joseph. "Traces? Quelles traces? Réflexions pour une histoire non passéiste." *Revue Historique*. vol. 4, no. 680 (January 2016).
- *Les Cahiers de Tunisie*. no. 31, 3ème trim. (1960).
- ________. Tome XVI. no. 6164-63-62-, 1er-2ème-3ème-4ème trim (1968).
- ________. Tome XX. no. 79-80 (1972).
- Lescure, Paul. *Du double régime foncier de la Tunisie: Droit Musulman et loi foncière.* Tunis: Imprimerie française B. Borrel, 1900.
- Poncet, J. *La Colonisation et l'agriculture européennes en Tunisie depuis 1881: Étude de géographie historique et économique.* Paris: La Haye Mouton, 1962.
- Pouyanne, M. *La Propriété foncière en Algérie.* Alger: Jourdan, 1900.
- Saumagne, CH. "Sur la législation relative aux terres incultes de L'Afrique Romaine." *Revue Tunisienne* (Janvier - Juin 1922).
- Scemla, A. *Le Contrat d'enzel en droit tunisien.* Paris: Domat-Montchrestien, 1935.
- Valensi, Lucette. *Fellahs tunisiens: L'Économie Rurale et la vie des campagnes aux XVIIIe et XIXe siècles.* Paris: La Haye Mouton, 1977.

عثمان المنصوري | Otmane Mansouri[1]

تجربتي مع الأرشيف البرتغالي

My Experience in the Portuguese Archives

مقدمة

تعود تجربتي مع الأرشيف الأوروبي عمومًا، والأرشيف البرتغالي خصوصًا، إلى بداية ثمانينيات القرن الماضي. ففي عام 1980، حصلت على الشهادة التي تخوّلني إعداد دبلوم الدراسات العليا، فاتصلت بعبد اللطيف الشادلي، فعرض عليَّ البحث في موضوع التجارة والتجار بالمغرب في القرن السادس عشر[2]. وكان واضحًا لنا منذ البداية أن المصادر المغربية التقليدية لا يمكنها بطبيعتها أن تفيد كثيرًا في معالجة هذا الموضوع. ونظرًا إلى صعوبة الموضوع، أوصاني الأستاذ المشرف بالتريّث قبل تسجيله، والقيام بجولة في المظان الموجودة، والتأكد من قابلية هذا المشروع للإنجاز، وأشار عليّ بأن أنقّب في مجموعة المصادر الأصلية لتاريخ المغرب، علّني أجد فيها غايتي من المعلومات التقنية الضرورية للتعامل مع موضوع التجارة. وبعد قضائي لعدة شهور في استطلاع ما تحويه هذه المجموعة من مادة، تبيّن لي أن الأمر جدير بالمجازفة، فأخبرت أستاذي أنني قررتُ الاشتغال في الموضوع، وسجّلته في عام 1980. في هذه الفترة كان اهتمام الباحثين ومؤطريهم منصبًّا على فترتَي التاريخ الوسيط والمعاصر، وعلى الدراسات المونوغرافية والتاريخ العام والديني والاجتماعي، ولم يتعدَّ عدد الأبحاث المسجلة في مجال التاريخ الاقتصادي أصابع اليد الواحدة[3].

بعد مناقشة هذه الرسالة عرض عليّ الأستاذ الشادلي أن أشتغل على موضوع العلاقات المغربية - البرتغالية، على أساس استغلال الأرشيف البرتغالي الذي تبيّن من خلال الموضوع الأول أنه غني ومنوّع، ويحتاج إلى من يستغلّه استغلالًا جيدًا لمعرفة العديد من الجوانب الخفية في تاريخ المغرب نفسه، وفي علاقاته بالبرتغال والدول الأوروبية.

قسمت هذا العرض إلى قسمين، وفي كل منهما قدّمت تجربتي في التعامل مع المادة الأساسية التي اشتغلت بها في إعدادي موضوع التجارة والعلاقات المغربية - البرتغالية.

أولًا: تجربتي مع المصادر الأصلية لتاريخ المغرب[4]

1. تعريف بالمصادر الأصلية لتاريخ المغرب

يأتي إصدار هذه المجموعة في إطار مشروع ضخم، بدأ قبل فرض الحماية الفرنسية على المغرب، وذلك في عام 1905، تحت إشراف الكونت هنري دو كاستر. مع طاقم من الباحثين المتخصصين الذين عملوا على البحث في أرشيف بعض المكتبات الأوروبية عن

---

1 باحث ومؤرخ، رئيس الجمعية المغربية للبحث التاريخي.
Researcher and historian, Head of the Moroccan Association for Historical Research.

2 نُشر هذا البحث تحت عنوان: عثمان المنصوري، **التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر: مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2001)، 501 صفحة.

3 ثلاث رسائل كلها من الفترة الحديثة، انظر: عمر أفا، **دليل الأطروحات والرسائل الجامعية المسجلة بكليات الآداب بالمغرب 1961-1994**، ج 3 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996)، ص 286.

4 تحيّر المترجمون في ترجمة Les Sources Inédites de L'Histoire Du Maroc، فمنهم من سمّاها الغميسة، ومن سمّاها الأصلية، ومن سمّاها مصادر لم تنشر، ومنهم من اكتفى بتسميتها مصادر دوكاستر، نسبة إلى صاحب المشروع هنري دوكاستر.



كل الوثائق الموجودة فيها والمتعلّقة بتاريخ المغرب، أو علاقاته بالدول الأوروبية، واقتصر عملهم على الدول التي كانت لها علاقات مهمة بالمغرب في الفترتين الحديثة والمعاصرة، وهي فرنسا وإسبانيا وإنكلترا والبرتغال والأراضي المنخفضة. وعملوا على رصد هذه الوثائق وجردها وتصويرها وجمعها، ثم ترتيبها كرونولوجيًا، بحسب المكتبات والدول التي توجد فيها. وبعد ذلك أُعدت للنشر، عن طريق مجموعة من العمليات المرافقة للنصوص، أوّلها ضبط المضامين بالشرح اللغوي وتوضيح الإشكالات الباليوغرافية وتفسير المصطلحات والتعريف بالأعلام والأماكن، وتوضيح النصوص بالخرائط والرسوم البيانية والجداول، وترجمتها وتلخيصها وتعزيزها بمقالات عامة توضح السياقات التي رافقت الأحداث والمحطات الكبرى التي تتطرق إليها.

قُدّمت الوثائق مرتبة بحسب الأعوام، بالمنهجية نفسها المعتمدة في كل المجلدات، حيث تُعطى الوثيقة رقمًا ترتيبيًا يوضع في أعلى الصفحة، مع عنوان يوضح نوعيتها (رسالة، عقد، اتفاق، تقرير، وغير ذلك). وتحته ملخص في بضعة أسطر لمضامين الوثيقة باللغة الفرنسية، ويليه مكان صدورها وتاريخها إن كان معروفًا. وإذا كانت الوثيقة باللغة العربية تقدّم مرقونة وكاملة، ومعها صورة النص الأصلي، ثم ترجمتها كاملة إلى الفرنسية، وكذلك الشأن إن كانت بالفرنسية، أما إن كانت بلغة أخرى مثل الإسبانية أو البرتغالية، فيقدّم لها بملخص يترجم مضمونها بالفرنسية.

صدرت في إطار هذا المشروع مجلدات قاربت الثلاثين، استمرت أزيد من ستين عامًا، حيث أكمل المشروع باحثون آخرون، وقدّموا إلى الباحثين في تاريخ المغرب مادة غنية ومميزة. وبحكم اشتغالي على القرن السادس عشر، ركزت في بحثي على المجلدات المتضمنة الوثائق المنتمية إلى هذا القرن، وهي الأجزاء الثلاثة الأولى من المجموعة الفرنسية عن الأسرة السعدية، والجزء الأول من مجموعة الأراضي المنخفضة والأجزاء الإسبانية والإنكليزية والبرتغالية، ما يُعطي في الأخير 15 مجلدًا، يراوح عدد صفحات كل واحد منها بين 400 و700 صفحة.

2. طريقة تعاملي مع المصادر الأصلية لتاريخ المغرب

لم يكن الحصول على هذه المجلدات في متناول أمثالي من الباحثين في الثمانينيات، لارتفاع ثمنها وعدم وجودها في مكتبات البيع، وكان عليّ الانتقال من مدينة المحمدية إلى المكتبة العامة بالرباط، للاطلاع عليها في قاعة المطالعة، لأنها من الكتب التي لا تُعار. وكان عليّ أيضًا أن أقوم بمسح كامل لها، بحثًا عن جميع الإشارات والمعلومات التي لها علاقة بالتجارة والتجار في القرن السادس عشر، وتسجيلها مع ملاحظاتي عليها وتوثيقها بالمجلد والصفحة، مع ضرورة الاستغلال الجيد للوقت المحدود المُتاح لي، خارج أوقات العمل، وفي العطل المختلفة، والعمل على نسخ الوثائق الأهمّ بخط اليد أو بالتصوير (الفوتوكوبي) الذي كان في بداياته مكلفًا، ولا يمكنه تلبية طلبات العدد الكبير من روّاد المكتبة.

بحثتُ في البداية عن المعلومات المباشرة التي لها علاقة واضحة ووثيقة بالتجارة، مثل النقود والسلع والأثمان والأسواق والموازين، لكن اتضح لي بعد بضعة أسابيع، أن هذه الطريقة لن تجديني نفعًا. فغيّرت استراتيجيتي، بأن نظرت إلى الموضوع نظرة أوسع، وأدخلت فيه العوامل المؤثرة في النشاط التجاري والعلاقات بالدول الأوروبية، وخصصت للعمل دفترًا كبيرًا، أسجل فيه كل المعلومات التي أحصل عليها، مرتبة وموثّقة، وجعلته المرجع الأساسي للمادة التي سأشتغل عليها عند تحرير الرسالة فيما بعد.

أهم ميزة في هذه المجموعة الوثائقية هي أنها ميسّرة للباحث، حيث لا يحتاج إلى فك طلاسم الخطوط، ولا إلى التوقف مطوّلًا للبحث عن الشروح المتعلقة بالأماكن والأعلام والمصطلحات، أو البحث عن المعلومات الأساسية عن الوثيقة ومحل وجودها، وغير ذلك من المعلومات الضرورية. كما أعطى ترتيبها بحسب تاريخ إصدارها الباحث فرصةَ التوجه مباشرة إلى الفترة التي يشتغل عليها. ولعل هذا

هو السبب الذي حصر استغلالها في عدد محدود من الباحثين الذين اتجهوا مباشرة إلى الأعوام والأحداث السياسية التي تهم بحثهم، وقلة قليلة جدًا هي التي اطلعت بالتفصيل على كل الأجزاء، أو على معظمها.

كانت طبيعة الموضوع الذي اشتغلت عليه، تتطلّب مني ألّا أكتفي بالاطلاع على الموضوعات العامة، وأن أغوص في التفصيلات، وأن أقرأ النصوص سطرًا سطرًا، بحثًا عن المعلومات الشحيحة والمتفرقة التي لا تجود بها المصادر المغربية عادة، ومن بينها المعلومات المتعلقة بالبضائع التي كانت محل تبادل بين المغرب والدول الأخرى، أو كانت رائجة في المغرب، والنقود المستعملة والرائجة وعمليات الصرف والأسعار وحجم التبادل التجاري والأسواق والموازين والمقاييس، والمسافات بين المراكز التجارية ومخازن السلع والجمارك والضرائب، والاتفاقات المرتبطة بالنشاط التجاري، وأسماء التجار والسماسرة والوكلاء والأحداث المؤثرة في النشاط التجاري وأثمان السلع، مثل الحروب والمجاعات والجفاف والسكان وتدخّل المخزن أو الدول الأوروبية والاحتكار، وعمليات الصرف، ومشاكل التعامل والمنافسة والمواصلات. وهذا يعني أنني كنت مضطرًا إلى قراءة الوثائق كلها والتدقيق فيها وعدم الاكتفاء بالمقدمات التي تترجم باختصار مضامينها، والبحث بدقة في الوثيقة نفسها، وغالبًا ما تكون مكتوبة بلغة غير الفرنسية، مثل الإسبانية أو الإنكليزية أو البرتغالية، فأضطر إلى الاستعانة بقواميس هذه اللغات، ما يزيد الأمر صعوبة، ويأخذ مني وقتًا إضافيًا.

3. خصائص ومزايا مصادر دوكاستر

لا تُمكّن المصادر المغربية الباحث من الحصول على مادة تُشبِع نهمَه من أجل إعداد الموضوعات التي تخرج عن السياسة والأحداث العامة والسير والحياة الدينية والاجتماعية، وعادة ما تأتي هذه المعلومات بشكل عرضي واستثنائي، في سياق الحديث عن المجاعات والجفاف، أو ضمن كتب النوازل والمناقب. ويمكن أن نستثني كتاب **وصف إفريقية**، للحسن الوزان، الذي يتضمن معلومات كثيرة، يمكن أن تُستَغل في التعرف إلى الحياة الاقتصادية في المغرب خلال بدايات الفترة الحديثة، لكن هذا الكتاب مصدر مكتوب بحسب اهتمامات الأوروبيين ورغباتهم، وتلبية لحاجتهم إلى التعرف إلى هذا الجزء من العالم الذي يكاد يكون مجهولًا بالنسبة إليهم، ومع هذا اعتمدتُ عليه كثيرًا، مع إبداء ما يلزم من التحفظات المنهجية على استعماله[5].

أما مصادر دوكاستر، فتمتاز بالتنوع الشديد، حيث نجد فيها الرسائل والاتفاقات والتقارير والإحصاءات والإيصالات والأحكام القضائية والوصف، وغيرها من الوثائق التي تتناول الموضوعات التي أسلفنا الحديث عنها، وهي تكاد تغيب في مصادرنا التقليدية. وعلى الرغم من أن معظمها كتبه أوروبيون، وخلا من الموضوعية في الشق المتعلق بالجوانب السياسية، وتقارير الحكام البرتغاليين، أو الأحكام المتعلقة بالمغاربة أو الديانة الإسلامية، فإن هذه المصادر كانت أكثر صدقية عندما تتحدث عن أحوال المغرب الاقتصادية، لأن التقارير التي كانت تصل إلى الدول الأوروبية، كانت موجّهةً إلى التجار والدول للاعتماد عليها في التبادل مع المغرب أو ربح المنافسة، وفيها يُركّز على بعض التفصيلات التي لا تؤخذ باهتمام الإخباريين المغاربة، لكنها مهمة للتجار البرتغاليين ودولهم، مثل المعلومات المتعلقة بأحوال السواحل ومصبّات الأنهار والمناخ والمد والجزر وتوافر المنتوجات الفلاحية أو المصنّعة، أو عدم توافرها، في كل المناطق القريبة من الثغور المحتلة والمراسي، وأسماء القبائل وشيوخها والحكام والأحداث المحلية والعملات الرائجة.

إن الميزات المشار إليها، لا تخفف كثيرًا من المشكل الأساسي، وهو نُدرة المادة المطلوبة لإنجاز عمل متكامل في مجال التاريخ الاقتصادي، وخاصةً عندما يضيق هذا المجال بالاقتصار على موضوع بعينه، وهو التجارة. وأمام هذا الخصاص، اعتمدتُ بالاتفاق

5 انظر: عثمان المنصوري، "وصف إفريقية للحسن الوزان، مصدرًا لتاريخ المغرب"، في: محمد استيتو (تنسيق)، **المغرب في عهد الوطاسيين من خلال "وصف إفريقية" للحسن الوزان**، سلسلة دراسات وأبحاث تاريخية 1 (الرباط: منشورات جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية، 2011)، ص 9-26.

مع أستاذي المشرف تصميمًا يُمكّنني من توظيف المادة التي حصلتُ عليها، عن طريق توسيع المجال الزمني ليشمل القرن السادس عشر كله، وبذلك يرتفع كم الأرقام المستعملة التي توظف كمؤشر، أكثر من كونها أرقامًا إحصائية دقيقة، وكاملة وموزّعة بانتظام على القرن كله. وقد وسعتُ - كما سبق أن ذكرت - مجال الموضوع ليشمل موضوعات تُفسّر النشاط التجاري وتطوّره وخصائصه، وتزيل عن البحث طابعه التقني الجاف، ومن بين هذه الموضوعات الفصول الخمسة من الباب الثالث التي تناولت تأثير المخزن والدول الأوروبية في النشاط التجاري، وكذلك الحروب والكوارث والسكان والضرائب.

ثانيًا: تجربتي مع أرشيف القنصلية البرتغالية العامة بطنجة

خلال مناقشة رسالتي عن التجارة، عبّر محمد حجي، رئيس اللجنة، عن رأي وافقه فيه العربي مزين، يتلخص في أن التركيز على دولة أوروبية واحدة يمكن أن يكون أكثر فائدة في البحث، وأبدى رغبته في أن أركز في بحثي القادم على دولة من دول أوروبا بعينها.

بعد المناقشة بنحو شهر، استدعاني أستاذي وقال لي إن حماس العمل لا يجب أن يخبو، وعليّ المبادرة بإعداد تقرير عن موضوع الأطروحة من أجل التسجيل تحت إشرافه. وكان عنوان الموضوع جاهزًا، وهو العلاقات المغربية - البرتغالية، من دون تحديد، في انتظار ما ستسفر عنه تحرّياتي الأولى. ولتسهيل مهمتي، اتصلتُ بصديق عزيز، تعرفت إليه في هذه المناسبة، وهو المستشار الثقافي للسفارة البرتغالية آنذاك السيد روي راشكيليو، وحدّد لي موعدًا للقائه واستشارته.

كان المستشار، الشاعر والمؤرخ، رجلًا طيبًا وعمليًا، ولا يتوانى في تقديم المساعدة، والقيام بكل المبادرات التي يمكنها أن تؤدي إلى التقارب بين البلدين، ورحّب أيّما ترحيب بفكرة الموضوع، وأبدى رغبته في مساعدتي إلى أبعد الحدود، فخرجت من لقائي به وأنا مصمم العزم على ركوب المغامرة الجديدة، ثم استدعاني مرة ثانية ووضع رهن إشارتي في أحد مكاتب السفارة، مجموعة من السجلات التي تتضمن نسخًا من وثائق السفارة التي كانت تسمى سابقًا القنصلية العامة للبرتغال، وكان مقرّها بطنجة، وأمضيت اليوم في تصفحها، على الرغم من أنني لا أعرف إلا نتفًا قليلة من اللغة البرتغالية، لا تسمن ولا تغني من جوع، وتبدّت لي أهميتها. كانت صفحاتها تربو على الستة آلاف صفحة، وكان معظمها يعود إلى القرن التاسع عشر، وظهر لي من الاطلاع السريع، أنها تفي بالغرض المطلوب، لكن الحكم النهائي بأهميتها يتطلّب تخصيص وقت أكبر لها، وضرورة التغلّب على العائق الأساسي، أي جهلي باللغة البرتغالية. اتّفق معي السيد راشكيليو على تزويدي بكل السجلات لتصويرها وإعادتها إليه، وبذلك أستطيع الاحتفاظ بها والاطلاع عليها جميعها متى شئت. أما بالنسبة إلى عائق اللغة، فقال لي إنه سيطلب لي منحة لتعلم اللغة البرتغالية في لشبونة عندما يستقر رأيي على الموضوع. وبذلك بدأت رحلة بحث طويل استمرت نحو 13 عامًا، وانتهت إلى مناقشة الأطروحة في عام 2001.

1. تعريف بأرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة

بعد توقيع البرتغال اتفاقية الصلح مع المغرب في نهاية عام 1774، في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، أصبح لها ممثل في المغرب، كان وكيلًا تجاريًا في تطوان، ثم انتقل إلى طنجة التي أصبحت عاصمة للدبلوماسيين الأجانب، بصفة قنصل، ثم قنصلًا عامًا للبرتغال في المغرب، وهو جورج كلاصو الذي تولّى تمثيل الدولة البرتغالية في المغرب بين عامَي 1773 و1783. وعمل كلاصو على إرساء بنيات التمثيل البرتغالي في المغرب، وتابع خلفاؤه من أسرته[6] العمل على تركيز هذا التمثيل في كل المدن الساحلية التي كانت لها مصالح

6 بعد موت الأب جورج كلاصو، خلفه ابنه جورج بيدرو كلاصو الذي قضى في المنصب أكثر من 33 عامًا (1783-1816)، وخلفه ابنه جورج جوزي كلاصو (1816-1841) الذي خلفه أيضًا ابنه جورج ريموندو (1841-1856)، وبعده أخوه جوزيف دانييل كلاصو الذي استمر في مزاولة مهماته إلى نهاية القرن التاسع عشر.

في المغرب، عن طريق إحداث قنصليات في أهم الموانئ: العرائش والدار البيضاء وأزمور والجديدة وأسفي وغيرها، لحماية مصالح الدولة البرتغالية في المغرب، وخاصةً التبادل التجاري والتنسيق العسكري والملاحة[7].

خلال هذه المدة، كانت القنصلية البرتغالية تزوّد وزارة الخارجية والمصالح والإدارات المرتبطة بالملاحة والصحة والتجارة والجيش بالعديد من الوثائق والتقارير عن المغرب وأحواله المختلفة وعلاقاته بالدول الأخرى وغير ذلك من الموضوعات والمعلومات المهمة.

أ. توزيع أرشيف القنصلية العامة على المكتبات والمؤسسات البرتغالية

ترتب عن التقارير المذكورة آنفًا، كم كبير من الوثائق التي تُغطي هذه الفترة كلها، وتشكل مادة صالحة للاستغلال من الباحثين. وهي الآن موزعة على العديد من المكتبات والمؤسسات، ومن بينها على الخصوص:

- **مكتبة طوري دو طومبو في لشبونة** Torre do tombo: اشتغلتُ فيها بمراسلات القناصل البرتغاليين إلى كتابة الدولة في الشؤون الخارجية - التي تمرّ منها جلّ المراسلات - وتوجد في ثلاثة صناديق خشبية، تشتمل على نحو 3000 صفحة مؤرخة بالفترة الممتدة بين عامي 1787 و1844[8].
- **مكتبة أكاديمية العلوم بلشبونة** *Academia das Ciências de Lisboa*: تشتمل هذه الأكاديمية العريقة على العديد من الوثائق والمخطوطات العربية، وجزء من الأرشيف البرتغالي المتعلق بالمغرب، ومنه مجموعة من الوثائق المتعلقة بقنصليتي البندقية والبرتغال[9].
- **أرشيف السفارة البرتغالية بالرباط:** اشتغلتُ على الجزء المتعلق بالفترة المدروسة، وهو يقدر بما يزيد على 6000 صفحة من الصور التي تمكّنت من نسخها في بداية اشتغالي[10]، ونُقلت مؤخرًا إلى البرتغال، آلاف الصفحات الأخرى التي عاينتُها وصوّرت بعضًا منها، وتوجد في مكتبة وزارة الخارجية البرتغالية في انتظار التصنيف والضبط[11].
- **وثائق أخرى:** توجد أيضًا وثائق معظمها نسخ من المراسلات الأصلية أو ملاحق موجّهة إلى إدارات عمومية برتغالية أو إلى الموانئ والبحرية البرتغالية، في الأرشيف التاريخي لما وراء البحار Arquivo Historico Ultramarino – A.H.U، الذي يضم عشرات الآلاف من الوثائق المتعلقة بالمناطق التي ربطتها بالبرتغال علاقات تبعية أو مصالح تجارية في العالم، ومن بينها منطقة شمال إفريقية[12].

---

7 انظر مادة أسرة كلاصو في **معلمة المغرب**، العدد 24 (2008)، الملحق 1، ص 260-263. أعيد نشرها في: عثمان المنصوري، **المغرب والبرتغال: أبحاث من الأرشيف البرتغالي** (الرباط: مطابع الرباط نت، 2017)، ص 13-18؛ انظر أيضًا:
Jorge Forjaz, *Os Colaço: Uma Família Portuguesa em Tânger* (Lisboa: Guarda-Mór, 2004), pp. 103 - 105.

8 تشكل هذه الصناديق أساسَ عملي في الأطروحة، ويشتمل الصندوق الأول على المراسلات المؤرخة بين عامَي 1787 و1822، ورقمه: Cx: MNE:299، ويضم الصندوق الثاني مراسلات الفترة الممتدة بين عامَي 1822 و1832، ورقمه: Cx: MNE:300، أما الصندوق الثالث، فيتضمن نحو 212 مراسلة، ويغطي الفترة بين عامَي 1833 و1844، ويحمل رقم: Cx: MNE:299.

9 اشتغلتُ على مجموعتين: **الأولى** تؤرخ للفترة بين عامَي 1771 و1845، ورقمها: 1020؛ **والثانية** تغطي بين عامَي 1786 و1803، ورقمها: 2021.

10 بلغ عدد السجلات التي سبق لي أن اطلعتُ عليها في مقر السفارة، وأعددتُ جردًا لها في عام 1888، 26 سجلًا، تتضمن نسخًا لما يربو على 4460 وثيقة، زيادة على السجلات التي تتضمن لوائح وجداول بمجموع يفوق 400 صفحة.

11 يتعلق الأمر بمهمة تطوّعتُ في إنجازها، فقد جردتُ جزءًا من أرشيف القنصلية البرتغالية العامة في طنجة الموجود في مقر السفارة (نحو 8000 صفحة)، وأثرت اهتمام السفارة إلى ضرورة حفظه من التلاشي والضياع، فأرسلت وزارة الخارجية لجنة لمعاينته، وقررت إرساله إلى مكتبة وزارة الخارجية في لشبونة.

12 لتوضيح أهمية هذا الأرشيف، أشير إلى أن جورج أفونصو، وهو أحد الزملاء الباحثين البرتغاليين، اشتغل على العلاقات بين البرتغال وبلاد المغارب، وذكر في مقدمة عمله أن هذا الأرشيف يشتمل على أربعين صندوقًا من الوثائق المتعلقة بشمال إفريقية والبرتغال، انظر:
António Jorge Ferreira Afonso, "Portugal e o Magrebe nos finais do Antigo Regime," Master Dissertation, Universidade de Lisboa, Lisboa, 1998.



وقد اعتمدتُ أساسًا على الوثائق التي أرسلها القناصل من عائلة كلاصو إلى وزارة الخارجية البرتغالية، وهي مجموعة في الصناديق الثلاثة المذكورة آنفًا، في مكتبة طوري دو طومبو، المرتبة ترتيبًا كرونولوجيا، وفي ملفات مرقمة عن كل عام، مصحوبة بالملحقات من رسائل وتقارير وحسابات وغيرها، وتوجد فيها مجموعات من الرسائل المتبادلة مع المخزن المغربي بنصّها العربي مع ترجمتها إلى البرتغالية.

ب. مضامين الوثائق

كثيرةٌ هي الموضوعات التي كان القناصل يتطرّقون إليها في مراسلاتهم إلى دولتهم، حيث كانوا أشبه بمراسلي الصحف الذين يبعثون الأخبار أولًا بأول، ويمكن أن نلخص مضامين هذه الوثائق فيما يلي:

- **أخبار المغرب السياسية:** منها أخبار السلاطين والثورات والمعارك وتحركات القبائل والعلاقات بالدول الأجنبية.
- **العلاقات الدبلوماسية:** منها خاصةً الاتفاقات المُبرَمة واستقبال المبعوثين والسفراء والهدايا، وكواليس الحياة الدبلوماسية في مدينة طنجة.
- **الأخبار العامة عن المغرب والتقارير عن أوضاعه المختلفة:** الطرق والمواصلات، وتكلفة المراسلات، ومُدَد السفر، والتنقل، والأمن، والمواصلات البحرية، والأوبئة وكيفية انتشارها وطرق التعامل معها، والجفاف، وغير ذلك.
- **أخبار مدينة طنجة نفسها:** هي العاصمة الدبلوماسية التي زاد فيها القناصل، حيث مارسوا مهمتهم عقودًا طويلة، وأخبار الرعايا البرتغاليين في المدينة وخارجها.
- **المعلومات المتعلقة بالملاحة والتجارة:** مثل حال الموانئ ورواجها والسلع الرائجة فيها ونوعية السلع وأثمانها وأنواع السفن التي تتاجر فيها وحجم حمولتها وجنسيتها والصيد البحري والمؤونة المقدمة إلى السفن، والحقوق المؤداة فيها والأمناء، والمشاكل والتجار المغاربة والأجانب.
- **معلومات مفيدة عن المؤسسة القنصلية البرتغالية في المغرب:** طريقة عملها وتطوّرها وشبكات القنصليات والوكلاء المتعاملين معها، والمشاكل التي عاناها القنصل، ومنها المادية والعائلية ومنافسة القناصل الآخرين والمبعوثين التجاريين البرتغاليين أنفسهم، واتصالاته المتعددة من أجل حل المشاكل التي تعترض علاقات دولته بالمغرب[13].

ج. مميزات الوثائق

تتسم معظم المعلومات المتضمنة في المراسلات والتقارير والملاحق التي يبعثها القناصل البرتغاليون إلى دولتهم بكثير من الصدقية، وخاصةً حين يتعلق الأمر بأخبار لها تأثيرها الكبير في المصالح البرتغالية السياسية والاقتصادية، وفي تدبير علاقاتها بالمغرب. وكان القناصل يحرصون باستمرار على أن تحظى دولة البرتغال بمكانة لائقة ضمن الدول الأخرى المتعاملة مع المغرب، وخاصةً إسبانيا وفرنسا وإنكلترا.

وعلى الرغم من بعض المآخذ التي يمكن ملاحظتها عن هذه الوثائق، فإنها لا تُنقص من قيمتها، ولا شك في أن الباحث المتمرس يستطيع أن يُميّز بين الوثائق بحسب سياقاتها والأغراض المرجوّة منها والجهة المخاطبة ومقارنتها بوثائق أخرى، أو بما يأتي بعد ذلك من أخبار مؤكدة في الوثائق نفسها. ويمكن أن نقسم هذه الوثائق من حيث القيمة والشكل والخصائص وطبيعة المعلومات التي تتضمنها إلى ما يلي:

13 انظر: عثمان المنصوري، **العلاقات المغربية – البرتغالية (1790-1844)**، ج 1 (المحمدية: مطبعة فضالة، 2005)، ص 27-34.

- **الوثائق التي تتضمن معلومات مؤكدة:** هي المعلومات التي يمكن للباحث أن يعتمد عليها باطمئنان كبير، لأن القنصل بعثها إلى دولته بعد أن تأكد منها، سواء من مصادر مغربية رسمية، أو من مصادر دبلوماسية في طنجة، أو من رجال المخزن، أو من رسائل رسمية وصلته، أو من مبعوث خاص، أو من ممثليه، أو وقعت له شخصيًا، وعاينها بنفسه في طنجة. ومنها الحسابات السنوية التي يقدمها إلى دولته عن نفقات القنصلية، أو الهدايا، أو السفن التي دخلت إلى الموانئ أو خرجت منها، والسفارات التي شارك فيها وغير ذلك من المعلومات التي تؤكدها مصادر أخرى، وقد تنفرد بها الوثائق البرتغالية.
- **الوثائق التي تتضمن أحداثًا محتملة الوقوع:** يتعلق الأمر بالمعلومات أو الأحداث التي تحدث عنها القنصل البرتغالي، من دون أن نجد لها أثرًا في المصادر المغربية، بناءً على أخبار وصلت إليه من جهات أخرى مغربية أو أوروبية، وقد يذكرها من دون تحديد مصدرها، حين يقول مثلًا: وصلتنا أخبار من كذا، أو يتحدث الناس هنا عن كذا، أو يقال إن كذا، ويدخل في هذا النوع الإشاعات التي تصل إلى طنجة، والتي يتبيّن مع الوقت أنها كاذبة، أو الاستنتاجات الخاصة للقنصل باحتمال وقوع أحداث بناءً على قرائن قوية؛ مثل مرض السلطان، أو وجود الوباء وانتشاره ووفيات بعض الشخصيات المهمة. وتبقى أهمية هذا النوع من الأخبار قائمة على الرغم من عدم وقوعها، لأنها تبيّن الجو السائد آنذاك، وتأثيرها في أحوال الناس.
- **الوثائق التي تتضمن الآراء الشخصية للقنصل:** نجدها مُتَضمَّنة بشكل كبير في جلّ مراسلاته، وخاصةً عند تولية وزراء الخارجية الجدد؛ فمقام القناصل من أسرة كلاصو لما يزيد على قرن بطنجة، مكّنهم من تكوين فكرة جيدة عن الناس والجهاز المخزني والأمراء، ومعرفتهم بعادات المغاربة وديانتهم وطرق التعامل معهم، ونستشف منها نظرة الآخر إلى المغرب والمغاربة وتكيّفه مع أحوالهم وظروف معيشتهم.
- **الوثائق التي تتضمن النصائح والتقارير:** حرص القناصل الأوروبيون على إعداد تقارير عامة عن الأحوال في المغرب، وتقديمها عند تعيين وزير خارجية جديد، لمساعدته على فهم الأوضاع في المغرب، وكانوا يقدمون تقارير أيضًا إلى ممثلي بعض الدول، بصفتهم من أقدم الممثلين الدبلوماسيين الأوروبيين في المغرب، وأكثرهم تمرّسًا في التعامل مع الجهاز المخزني في طنجة والعاصمة. وتقدم هذه التقارير معلومات مفيدة عن الأوضاع في المغرب، من الناحية السياسية والاقتصادية والنظام القضائي والأحوال الطبيعية والمواصلات والتبادل التجاري والأوضاع الاجتماعية والدينية، وغير ذلك من الأمور التي تساعدهم على معرفة أفضل للمغرب. وغالبًا ما يعقد القناصل مقارنات بين المغرب والدول الأخرى لتوضيح الصورة.
- **المستويات المتعددة للخطاب:** لا بد للباحث من أن يُميّز بين الوثائق، أثناء التعامل معها، على أساس أنها لا تستقر على المستوى نفسه، بحسب طبيعة المخاطب، وبحسب الظروف الخاصة التي يعيشها القناصل؛ إذ تتسم الرسائل المتعلقة بالمغرب والموجّهة إلى دولته، بالدقة والحياد والموضوعية، ما دامت لا تمس شخصه أو مصالحه أو معتقداته الدينية، ويكتبها متحررًا من كل خوف، ومن دون مجاملة أو تملّق. أما الرسائل التي يتبادلها مع السلطان وموظفي المخزن، ففيها الكثير من المُداراة والتحفظ والمراعاة لشخص المخاطبين. وحين يتعلق الأمر بشخص القنصل نفسه ومصالحه، يتخلّى أحيانًا عن حياده، ويبالغ في تصوير الأخطار المُحدِقة به، والشكوى من القضاة المسلمين، وسوء أحواله المادية، كما أنه لا يخفي تعصّبه لديانته عند الحديث عن الدين الإسلامي.
- **مواكبة الأحداث بحسب تسلسلها الزمني وتطوّرها:** غالبًا ما يتمّ الحديث عن بعض الأحداث في بداياتها، على شكل تساؤلات وتكهنات، قبل أن تتأكد للقناصل، وتتابع المراسلات تطوّرها إلى أن تنتهي، كما هو الشأن بالنسبة إلى أخبار الأوبئة والمجاعات والثورات والاتفاقات السرّية وكواليس العلاقات بالدول الأوروبية، وغيرها. ويسمح هذا التسلسل بالتعرّف إلى تأثير هذه الأحداث خلال المراحل كلها، وإلى تطوّرها التدريجي.



2. طريقة تعاملي مع أرشيف القنصلية البرتغالية بطنجة

حين استقر رأيي على موضوع العلاقات المغربية - البرتغالية، وسجّلته في كلية الآداب عين الشق بالدار البيضاء، بدأت رحلة طويلة في مضمار أجهل عنه الكثير، وأفتقر افتقارًا شديدًا إلى أدوات العمل فيه، وعلى رأسها اللغة البرتغالية التي لا يمكنني من دونها أن أخطو فيه. وكان عليَّ أن أنسى ما راكمته من تجربة في موضوعي الأول عن التجارة في الفترة الحديثة، وأنتقل إلى الاشتغال في موضوع يطل على الفترة المعاصرة، ويتعلق بالعلاقات الخارجية، ما شكّل تحولًا كبيرًا في مساري البحثي، وتحدّيًا جديدًا لا يخلو من الصعوبة.

أ. مصاعب البداية ودهشة اللقاء

حصلتُ - كما كان منتظرًا - على منحة لتعلّم اللغة البرتغالية من معهد الثقافة واللغة البرتغالية ICALP، وسافرتُ في خريف 1990 إلى لشبونة، وزادي من اللغة البرتغالية لا يتعدى بضع كلمات وجمل. وهي أول مرة أسافر فيها للإقامة في إحدى الديار الأوروبية. وكان الأسبوع الأول صعبًا، حيث تعيّن عليّ تدبير شؤون السكن والتنقل والتعرف إلى المدينة والكلّية والحي الجامعي بمفردي، والحرص على تدبير المنحة التي لم تكن لتكفي متطلّبات الإقامة والمصاريف. لكن الله قيّض لي زميلًا عزيزًا هو فؤاد البريكي الذي كان خبيرًا بالبلاد ولغتها. وبعد أن كدت أجمع حقائبي وأعود إلى المغرب، التقيته ووجدت فيه صديقًا وفيًّا وأنيسًا وعارفًا بخبايا المدينة ودليلًا ساعدني على تذليل كل المصاعب.

كان هذا السفر محطة مهمة في حياتي، لأنني انتقلت، أول مرة، للعيش - ولو مدة محدودة - بين ظهراني شعب آخر، يختلف عنّا في اللغة والدين والحضارة والثقافة ونظام الحكم والبنيات السياسية والثقافية ونمط العيش. ومكّنني مقامي القصير أن أقارن أحوال هذا البلد بالمغرب، وأن أحب هذه الدولة بشعبها ومآثرها وتاريخها وإرثها الثقافي، وأربط علاقات صداقة بكثير من الباحثين البرتغاليين لأعوام عديدة، وأن أطلع على ما أنجزوه في مجال البحث التاريخي، وخاصةً ما تعلق منه بالمغرب إبان الاحتلال البرتغالي لعدد من ثغوره الساحلية.

كان عليَّ أن أعدَّ نفسي في البرتغال لأتمكن من إنجاز المهمة التي ذهبتُ من أجلها، وأن أركّز على تعلّم البرتغالية التي يتوقف عليها نجاحي في مهمتي، وعقد اتصالات مع بعض الباحثين البرتغاليين، والبحث في المكتبات البرتغالية عن المادة الضرورية لإنجاز البحث، سواء في المكتبة الوطنية بلشبونة، أو في المكتبات التي يتوافر فيها الأرشيف البرتغالي، مثل طوري دو طومبو، لمعاينة ما تزخر به من وثائق، ووضع خطة للاستفادة منها. وحتى لا أضيّع الوقت، انخرطت في العملين في الوقت نفسه.

ب. مراحل الإعداد في لشبونة

كانت المنحة التي حصلت عليها محدودة في عام، وكان عليَّ أن أستغل هذا الحيّز من الوقت لتعلّم أقصى ما يمكن تعلّمه من هذه اللغة، وأن أسعى في الوقت نفسه لاستغلال الوقت للتعرف إلى الأرشيف ومكنوناته، وعقد اتصالات مع بعض الباحثين للاستفادة من خبراتهم، وتعلّم ما يُمكن تعلّمه عن تاريخ البرتغال، وخاصةً ما تعلق منه بالعلاقات بالمغرب، والبحث في المراجع والدراسات عن الأبحاث التي أنجزت في الموضوع. وكان من حسن حظي أن جهود المستشار الثقافي راشكيليو نجحت في تمكيني من منحة ثانية استثنائية لمتابعة دراستي للغة البرتغالية، وبذلك حصلت على فرصة تمديد مقامي في البرتغال عامًا إضافيًا، لتكملة ما بدأته في السنة الأولى.

خصصت المؤسسة المانحة برنامجًا خاصًا، لتعليم اللغة البرتغالية للأجانب، في كلية الآداب بلشبونة، وكان عدد المسجلين فيه آنذاك نحو 800 طالب، من مختلف بقاع العالم، ويقوم على منح شهادتين في السنة، ويكتمل في السنة الثانية، بعد اجتياز أربعة مستويات.

وتُدرّس، إضافة إلى اللغة، مواد عن تاريخ البرتغال وجغرافيته ونظامه السياسي والحضارة البرتغالية. وفي هذا المجال تمكّنتُ من اجتياز المستويات الأربعة، خلال العامين اللذين قضيتهما في البرتغال. إلا أن ما تعلمته آنذاك، كان مدخلًا ومفتاحًا لأنطلق في تعميق معرفتي باللغة البرتغالية، ولم يكن كافيًا، لأن اللغة لا تُمتَلك إلا بالتطبيق الفعلي، وبالتعامل مع المكتوب منها، ولأن النصوص التي عليّ التعامل معها تعود إلى قرون سابقة ولغة مخالفة، ولذلك لا بد من بذل مجهود شخصي، سيستمر إلى ما بعد عودتي إلى المغرب.

- **العمل في المكتبة**: مع استقرار أوضاعي في لشبونة، وضعت خطة للاستفادة من مقامي فيها، والتوفيق بين دراسة اللغة والاطلاع على ما أستطيع الاطلاع عليه من المصادر والوثائق التي يمكنها مساعدتي في عملي، واتصلت بناءً على توصية من أستاذي الشادلي بأحد الأساتذة البرتغاليين المتخصصين في تاريخ الإسلام والتاريخ البرتغالي بالمغرب، وهو أنطونيو دياش فارينيا الذي أصبح صديقًا حميمًا، والذي رحّب بي ولم يبخل عليّ بجميع أنواع المساعدات الممكنة، وأرشدني إلى المنجم الأساسي الذي اشتغلت عليه، وهو صناديق وزارة الخارجية الثلاثة، وكان بمنزلة مؤطر ثانٍ، لا يبخل بتوجيهاته ومساعداته، سواء خلال مقامي بالبرتغال، أو بعد رجوعي إلى المغرب. وصادف وصولي إلى البرتغال افتتاح المقر الجديد لمكتبة طوري دو طومبو، وهو مقر عصري فخم، مجهّز تجهيزًا عصريًا ومريحًا، وفيه كل الظروف المساعدة على عمل الباحثين، عوض المقر القديم الذي لم يكن يتسع سوى لعشرين باحثًا. وكان تدشينه في كانون الأول/ ديسمبر 1990، بجوار مبنى كلية الآداب، ما يسّر مهمتي إلى أبعد حد.

تطور عملي في المكتبة بحسب تطور معرفتي باللغة والتمرس بالخط البرتغالي وخصائص المخطوطات. واكتفيت في البدايات بنسخ الوثائق المكتوبة باللغة العربية، بخط يدي، لأفوز بما يمكنني الاشتغال عليه فيما بعد، كما نسختُ الوثائق التي لا يمكن قراءتها بعد التصوير بسبب تداخل حروف صفحاتها مع صفحات ظهرها. وحين فُتح المجال أمامي لتصوير الوثائق التي أشتغل عليها، وضعت خطة لتصويرها جميعها بالتدريج. واستغرق ذلك مدة إقامتي كلها. ولم يخلُ الأمر من مشاكل، خاصةً بعد أن لاحظت إحدى الموظفات أنني صورت أكثر مما ينبغي، وامتنعت عن تصوير المزيد، فلجأت إلى الاستعانة بزملائي في دروس اللغة الذين تقاطروا على المكتبة لتصوير صفحات من الصناديق نفسها، ومرة أخرى رفضت المسؤولة ذلك، لتأكدها أنني وراء هذه العملية. بعد ذلك اتصلت بالأستاذ فارينيا الذي كانت زوجته تعمل في المكتبة، فتدخّلت وسمحت لي بتصوير ما أريد من الوثائق.

إضافة إلى مكتبة طوري دو طومبو، بحثت في أكاديمية لشبونة للعلوم عن مجموعة من الوثائق المتعلقة بالمغرب، وصوّرتها، واطلعت على بعض المنشورات التي تزخر بها، وبحثتُ في المكتبة الوطنية بلشبونة عن الدراسات التي يمكن أن تكون قريبة من موضوعي وتفيدني في التعرف إلى تاريخ البرتغال وعلاقاته الخارجية، وفي مكتبة كلية الآداب أيضًا العريقة والغنية بالدراسات عن تاريخ البرتغال، وخاصةً فترة الاكتشافات الجغرافية، ومكتبة أكاديمية التاريخ البرتغالية الغنية بإصداراتها المهمة والمنوّعة.

- **التكوين الموازي**: كان وجودي في البرتغال مناسبة لأستفيد من بعض الدروس والتكوينات، وتعميق معرفتي بهذه الدولة وتاريخها. واستفدت كثيرًا من دروس التاريخ والحضارة التي كنت أتلقّاها خلال التكوين، وربطت صداقات ببعض الباحثين، ومنهم أنطونيو دي كيرا الذي كان متخصصًا في الباليوغرافيا، وأتاح لي حضور دروسه مع طلابه، ومكّنني من أبجديات هذا التخصص العلمي الدقيق، وحضرت معظم دروس الأستاذ فارينيا، وساهمتُ في تقديم محاضرات إلى طلابه عن تاريخ المغرب، ولم أتخلف عن الأنشطة التي كانت تنظم في كلية الآداب أو بكلية آداب الجامعة الجديدة المجاورة لها، ولا عن

أنشطة أكاديمية التاريخ، وأكاديميتي الجغرافيا والعلوم، المتعلقة بالتاريخ أو ببعض العلوم المساعدة. واستفدت من بعض الرحلات العلمية إلى بعض المناطق البرتغالية والمتاحف التي كانت تتخللها شروح وافية (مثل مدن فارو وسيلفش وميرطولا وسينترا، وغيرها)، ما كان له دور في تعميق معرفتي بتراث هذا البلد. وبذلك عدتُ إلى المغرب مسلّحًا بزاد لا بأس به في اللغة، وبكم كبير من الوثائق المنسوخة أو المصورة والدراسات والكتب، وبمعرفة أعمق بدولة البرتغال وتاريخها وحضارتها.

ج. تعاملي مع الأرشيف بعد العودة إلى المغرب

بعد عودتي إلى المغرب في صيف 1992، شرعتُ في تصفّح وقراءة ما تجمّع لدي من وثائق تُغطي أكثر من قرن ونصف، وتربو صفحاتها – بما فيها وثائق السفارة البرتغالية بالرباط - على عشرة آلاف صفحة. واستعنتُ بالوثائق المكتوبة بالعربية لتكوين صورة عن جلّ الموضوعات الموجودة في الأرشيف، في انتظار القيام بجرد دقيق ومتأنٍ لها. وأعددتُ تقريرًا لتقديمه إلى الأستاذ المشرف عن نتائج مهمتي والحصيلة، وللتشاور في تحديد الصيغة النهائية للموضوع، وخطوات العمل.

- **مخطط العمل الأول بعد الاجتماع مع الأستاذ المشرف:** بعد أن قدمت عرضًا إلى الأستاذ الشادلي عن نتائج عملي في البرتغال، لاحظ أن الفترة التي تغطيها طويلة، وأنّ عليّ تحديدها، كما أن الوثائق تدخل في صلب الموضوع الأصلي، لكنها كثيرة، ولربح الوقت، يجب أن أركّز على الوثائق التي تتضمن مادة يمكن استغلالها في الموضوع، مع تعزيز ذلك بقراءات في كل الدراسات التي تناولت تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر في الجامعة المغربية، لتدارك ما ينقصني عن هذه الفترة التي ليست أساسًا من تخصصي. وكان رأيي أن أتتبع الموضوع إلى نهاية القرن، وأستغل كل الوثائق.

بدأ اللقاء الحقيقي مع هذا الأرشيف حين بدأتُ أقرؤه صفحةً صفحةً، وأحاول فك طلاسمه، واستخلاص ما يتضمنه من معلومات، وبموازاة ذلك قضيتُ أكثر من عامين في التهام ما جادت به مكتبة كلية الآداب بالرباط من أطاريح ورسائل جامعية، وما كتب عن الفترة في المجلات بالعربية والفرنسية، وببعض اللغات الأخرى. كان الاشتغال بوثائق القنصلية أصعب بكثير من الاشتغال بمصادر دوكاستر، لأن الأخيرة كانت مهيَّأة للاستعمال، بينما كانت الأولى بكرًا، وفي حاجة إلى الإعداد. وكان عليّ أن أقرأ المضامين، وأُفكك مشاكل الخطوط، وأضبط المصطلحات والأسماء، وكنت أعاني رداءة بعض الوثائق المكتوبة بخط رديء، أو التي تداخلت فيها الكلمات، وأن أتعامل مع لغة برتغالية مخالفة في رسمها ومصطلحاتها للغة البرتغالية الحالية، وأن أبحث عن المعاني التي تستعصي أحيانًا، وقد توقف العمل ساعات، وأحيانًا أيامًا. ولم تكن هذه الصعوبات تسمح بالاستعمال السلس لهذه الوثائق، والرجوع إليها، لذلك قررت تغيير خطة العمل، والاجتماع مع الأستاذ المشرف.

- **مخطط العمل الثاني:** حملت مخطط العمل الجديد معي إلى الأستاذ الشادلي، ويمكن أن أقول إنني فاجأته بمفاجأة لم يكن ينتظرها، لأنه كان يحثّني على الإسراع في إنجاز أطروحتي، بينما حمل المخطط أعباء جديدةً ستأخذ مني وقتًا طويلًا. قلت له إنني لا يمكن أن أشتغل على الوثائق وأستغلها على حالتها تلك، وعزمتُ على ترجمتها كلها. حاول إقناعي، لكنني كنت مُصرًّا، وتحملتُ مسؤوليتي، وكان رأيي أن هذه الوثائق توجد في صناديق من دون ترقيم وصفحات، ولا يمكن أن تفيد الإحالة عليها بشكلها الحالي، كما أنها مكتوبة باللغة البرتغالية التي لا يكاد يعرفها أحد، وأنني بترجمتها سأسدي خدمة للباحثين، وبترجمتها سوف أوفّر للباحثين جميعهم، مرجعًا مضبوطًا ومنظمًا شبيهًا بمصادر دوكاستر، يُمكنهم الرجوع إليه. وأمام إصراري، قبِل أستاذي على مضض، لكنه أصرّ على تحديد المدة الزمنية في فترة أقصر، على أساس تبرير بدايتها ونهايتها، ولم أجد صعوبة في ذلك؛ لأن عامَي 1790 و1844، ارتبطًا في المغرب بحادثتين مهمتين، هما وفاة سيدي محمد بن عبد الله،

ومعركة إيسلي. وبذلك بدأتُ عملًا شاقًّا وطويلًا، خصصته في الأساس لترجمة الوثائق؛ بكل ما يعنيه ذلك العمل من صبر، واستشارات، ومعاناة مع الخطوط، إضافة إلى المراجعة المستمرة للنصوص، وإعدادها للاستعمال، لتصبح جاهزة للطبع.

بعد ذلك أصبح التعامل مع الوثائق سهلًا، والرجوع إليها مُيسّرًا، وتمكنتُ من استغلالها استغلالًا جيدًا في تحرير أطروحتي عن العلاقات المغربية - البرتغالية بين عامَي 1790 و1844، التي ناقشتها في عام 2001، بكلية آداب عين الشق بالدار البيضاء[14].

خاتمة

لا شك في أن تجربتي مع الأرشيف البرتغالي كانت مثمرة، على الرغم من الصعوبات التي اكتنفتها، ولعل هذه الصعوبات هي التي أكسبتني مهارات وتخصصات لم أكن لأكتسبها من دون خوض التجربة، فالخوض في موضوع يخص التاريخ الاقتصادي، والتعامل مع لغة جديدة، وتغيير فترة الاشتغال من التاريخ الحديث إلى المعاصر، والموضوع من التجارة إلى العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية، والتعامل مع وثائق وخطوط برتغالية، وأكثر من ذلك اكتساب مهارات في الترجمة، كل ذلك فتح لي آفاقًا جديدةً في العمل ما زلت أجني ثمارها إلى الآن.



14 نُشرت هذه الأطروحة في عام 2005 في جزأين، في المركز الوطني للبحث العلمي والتقني. ويتضمن الجزء الأول الأطروحة ونصوص الوثائق العربية في 624 صفحة، أما الجزء الثاني فيتضمن نصوص الوثائق المعربة، وهو في 700 صفحة.

المراجع

العربية

- أفا، عمر. **دليل الأطروحات والرسائل الجامعية المسجلة بكليات الآداب بالمغرب 1961-1994**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996.
- المنصوري، عثمان. **التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر: مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2001.
- ______________. **العلاقات المغربية – البرتغالية (1790-1844)**. المحمدية: مطبعة فضالة، 2005.
- ______________. **المغرب والبرتغال: أبحاث من الأرشيف البرتغالي**. الرباط: مطابع الرباط نت، 2017.
- استيتو. محمد (تنسيق). **المغرب في عهد الوطاسيين من خلال "وصف إفريقية" للحسن الوزان**. سلسلة دراسات وأبحاث تاريخية 1. الرباط: منشورات جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية، 2011.

الأجنبية

- Afonso, António Jorge Ferreira. "Portugal e o Magrebe nos finais do Antigo Regime." Master Dissertation. Universidade de Lisboa. Lisboa, Portugal, 1998.
- Forjaz, Jorge. *Os Colaço: Uma Família Portuguesa em Tânger*. Lisboa: Guarda-Mór, 2004.

مجلة "أسطور" للدراسات التاريخية

مجلّة **أسطور** للدراسات التاريخية دورية محكّمة تصدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. تحمل الرقم الدولي المعياري (ISSN: 2305-2473). وقد صدر عددها الأول في كانون الثاني/ يناير 2015، وهي دورية نصف سنوية محكّمة تصدر مرّةً واحدةً كلّ ستة أشهر، ولها هيئة تحرير علمية أكاديمية متخصصة وهيئة استشارية دولية فاعلة تُشرف على عملها، وتستند إلى ميثاق أخلاقي لقواعد النشر وللعلاقة بينها وبين الباحثين. كما تستند إلى لائحة داخلية تنظّم عمل التحكيم، وإلى لائحة معتمدة بالمحكمين في مختلف أنواع الاختصاصات.

يَستوحي اسم المجلة المشتق من لغة العرب ومصطلحاتهم إيحاءات العلاقة بين الدلالة اللغوية العربية والقرآنية للجذر "س. ط. ر" وكلمتي Historia وIstoreing من أصول يونانية اللتين انبثق منهما علم التاريخ بصيغة History وHistoire. وتعتمد المجلة اسم "أسطور" بالمعنى الاصطلاحي الحديث لتأسيس "تاريخ عربي جديد" يتواصل مع الإنجازات العربية الأولى ولا يقطع معها، بل يجدّدها ويطوّرها ويؤسّس إبداعات جديدة.

تعتمد مجلة **أسطور** في انتقاء محتويات أعدادها المواصفات الشكلية والموضوعية للمجلات الدولية المحكّمة وفق ما يلي:

- **أولًا**، أن يكون البحث أصيلًا مُعدًّا للمجلة حصرًا، وألّا يكون قد نُشر جزئيًا أو كليًا، أو نُشر ما يشبهه في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، أو قُدّم في أحد المؤتمرات العلمية من غير المؤتمرات التي يعقدها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، أو إلى أيّ جهة أخرى.
- **ثانيًا**، أن تُرفق مع البحث السيرة العلمية للباحث باللغتين العربية والإنكليزية.
- **ثالثًا**، يجب أن يشتمل البحث على العناصر التالية:

1. عنوان البحث باللغتين العربية والإنكليزية، وتعريف موجز للباحث والمؤسسة العلمية التي ينتمي إليها وآخر إصداراته باللغتين العربية والإنكليزية.
2. الملخّص التنفيذي باللغتين العربية والإنكليزية في نحو 250-300 كلمة، والكلمات المفتاحيّة (Key Words) بعد الملخص، ويُقدّم الملخص في جمل قصيرة ودقيقة وواضحة إشكالية البحث الرئيسة، والطرائق المستخدمة في بحثها، والنتائج التي توصل إليها البحث.
3. تحديد مشكلة البحث، وأهداف الدراسة، وأهمّيتها، والمراجعة النقديّة لما سبق أن كُتب في الموضوع، بما في ذلك أحدث ما صدر في مجال البحث، وتحديد مواصفات فرضيّة البحث أو أطروحته، ووضع التصوّر المفاهيميّ وتحديد مؤشّراته الرئيسة، ووصف منهجيّة البحث، والتحليل والنتائج، والاستنتاجات. على أن يكون البحث مذيلًا بقائمة بيبليوغرافية في آخره تتضمن أهمّ المراجع التي استند إليها الباحث، إضافةً إلى المراجع الأساسية التي استفاد منها ولم يُشر إليها في الهوامش. وتُذكر في القائمة بيانات الأبحاث بلغتها الأصلية؛ أي باللغة الأجنبية في حال العودة إلى مصادر بلغة أجنبية.
4. أن يتقيد البحث بمواصفات التوثيق وفق نظام الإحالات المرجعية الذي يعتمده المركز (انظر: أسلوب كتابة الهوامش وعرض المراجع).



5. لا تنشر المجلة مستلات أو فصولًا من رسائل جامعية أُقرّت إلا على نحوٍ استثنائي، وبعد إعدادها من جديد للنشر في المجلة من جهة الباحث، وفي هذه الحالة يجب على الباحث أن يشير إلى ذلكً، ويقدّم بيانات وافيةً عن عنوان الأطروحة وتاريخ مناقشتها والمؤسسة التي جرت فيها المناقشة.

6. أن يكون البحث في مجال أهداف المجلة واهتماماتها البحثية.

7. تهتم المجلة بنشر مراجعات نقدية للكتب المهمة التي صدرت حديثًا في مجالات اختصاصها بأيّ لغة من اللغات، على ألّا يكون قد مضى على صدورها أكثر من ثلاث سنوات، وألّا يتجاوز عدد كلماتها 2800-3000 كلمة. ويجب أن يكون هذا الكتاب في مجال اختصاص الباحث أو في مجال اهتماماته البحثية الأساسية، وتخضع المراجعات إلى ما تخضع له البحوث من قواعد التحكيم.

8. تهتم المجلة بنشر وثائق أصيلة من أرشيفات مختلفة أو نصوص مخطوطات. ويشترط في نشر الوثيقة أو النص المخطوط الالتزام بالمعايير المعمول بها في تحقيق ونشر النصوص، ويصحب النص المنشور بصورة الوثيقة أو صورة من الصفحة الأولى من النص، إضافة إلى معلومات تعريفية بالنص ومكان حفظه.

9. تُفرد المجلة بابًا خاصًا لمناقشات متعلّقة بفكرة أو نظرية أو قضية مُثارة في مجال علم التاريخ، من دون أن يتجاوز عدد الكلمات المناقشة فيها 2800-3000 كلمة، وتخضع المناقشات إلى ما تخضع له البحوث من قواعد التحكيم.

10. يراوح عدد كلمات البحث بما في ذلك المراجع في الإحالات المرجعية والهوامش الإيضاحية، والقائمة البيبليوغرافية وكلمات الجداول في حال وجودها، والملحقات في حال وجودها أيضًا، بين 6000-8000 كلمة. وللمجلة أن تنشر بحسب تقديراتها وعلى نحوٍ استثنائيّ بعض البحوث والدراسات التي تتجاوز هذا العدد من الكلمات.

11. في حال وجود مخططات أو أشكال أو معادلات أو رسوم بيانية أو جداول، ينبغي إرسالها بالطريقة التي استُغلت بها في الأصل بحسب برنامجي إكسل (Excel) أو وورد (Word)، ولا تقبل الأشكال والرسوم والجداول التي تُرسل في شكل صور.

❁ **رابعًا**، يخضع كلّ بحث لتحكيم سرّي تامّ، يقوم به محكّمان متخصّصان تخصّصًا دقيقًا بموضوع البحث، ومن ذوي الخبرة العلمية بما أُنجز في مجاله، ومن المعتمدين في قائمة المحكّمين- القراء في المركز. وفي حال تباين تقارير المحكّمين، يُحال البحث على محكّم مرجّح ثالث. وتلتزم المجلة بموافاة الباحث بقرارها الأخير النشر/ النشر بعد إجراء تعديلات محدّدة/ الاعتذار عن عدم النشر، وذلك في غضون ستة أشهر من استلام البحث.

❁ **خامسًا**، تلتزم المجلة بميثاق أخلاقي يشتمل على احترام الخصوصية والسرية وعدم إفصاح المحرّرين والمراجعين وأعضاء هيئة التحرير عن أيّ معلوماتٍ بخصوص البحث المُحال عليهم إلى أيّ شخصٍ آخر غير المؤلّف والمحكّمين وفريق التحرير (الملحق 2).

1. يخضع ترتيب نشر الأبحاث لمقتضيات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث.

2. لا تُدفع مكافآت ماليّة عن الموادّ من البحوث والدراسات والمقالات التي يتمّ نشرها؛ مثلما هو متَّبَعٌ في الدوريات العلميّة في العالم، كما لا تتقاضى المجلة أيّ رسوم على النشر فيها.

the submitting author must include an image of that manuscript (or of its first page), as well as some explanatory details about the nature of the manuscript and the location in which it is archived.

9. *Ostour* carries a special section devoted to essays that address a point of contemporary, theoretical debate within the historical sciences. Such essays are between 2,800 and 3,000 words in length, and are subject to all of the same guidelines as regular research papers which apply.

10. Research papers submitted to *Ostour* must be between 6,000 and 8,000 words in length, not inclusive of bibliographies, footnotes and appendixes. The editorial board of *Ostour* reserves the right to publish articles of greater length, in exceptional circumstances where it deems this is merited.

11. All charts and tables must be submitted in a format compatible with Microsoft Office (specifically Word or Excel), making it possible for the data to be accessed. Submissions will not be accepted if any accompany graphs or charts are included purely as image files (such as JPEGs, GIFs, etc.).

- The peer review process for *Ostour* and for all journals published by the Arab Center for Research and Policy Studies is treated with the strictest confidence. Two preliminary readers are selected from a short list of approved reader-reviewers. In cases where there is a major discrepancy between the first two readers in terms of a submitted paper's value, it is referred to a third reviewer. The editors undertake to notify all authors of a decision either to publish, to publish after modifications, or to decline to publish, within two months of the receipt of the first draft.

- *Ostour* adheres to a strict code of ethical conduct, which has the clearest respect for the privacy and the confidentiality of authors. For a complete description of the ethical guidelines which adopted by *Ostour*, please see Appendix II.

1. The order of publication of submitted articles follows a set of purely technical determinants, and has no relation to the academic standing of the submitting author.

2. In keeping with global norms in the academic publishing industry, *Ostour* neither accepts payment in return for publishing an article nor does it offer payment to authors whose papers are published in the journal.



2. An abstract, ranging between 250 and 300 words in length, in both Arabic and English versions as well as a list of keywords. The abstract must explicitly detail the problematic that the research tackles, the methodologies used to cover it and the main conclusions which the author presents.

3. A clear exposition of the research problematic, the main aims of the paper and the importance of the results must be included. In addition, papers published in *Ostour* must include a critical review of the literature previously published on the topic. The hypothesis as well as the conceptual framework of the author and an analysis of the answers must all be presented. In addition, any research papers submitted for consideration must include a complete bibliography inclusive of all references, regardless of whether or not these appear in the footnotes. References must be maintained in the original language in which the source was written.

4. Authors must follow the referencing guidelines adopted by the Arab Center for Research and Policy. See Appendix I for a complete guide to the reference style used across all of our journals.

5. Doctoral theses and other student projects are only published as part of the journal in exceptional circumstances. In such exceptional circumstances, the editorial board will require exhaustive information about the way in which the thesis in question was examined, and institutional correspondence information of those responsible for it.

6. All works must fall within the broad scope of *Ostour*.

7. Book reviews will be considered for submission to the journal provided that the book covers a topic which falls within the scope of the journal and within the reviewer's academic discipline and/or main areas of research. Reviews are accepted for books written in any language. Book reviews are subject to the same standards of rigorous scrutiny which apply to research papers. Book reviews must be between 2,800 and 3,000 words in length. Book reviews/critiques are only accepted for titles published within the three years leading up to the submission.

8. *Ostour* carries a special section devoted to the examination of original documents, primary sources and manuscripts which are relevant to the journal's scope of interest. To the extent possible, publication of manuscripts/original documents follows the same standards and guidelines as research articles submitted to the paper. Before the publication of a text related to a manuscript can be considered,





Ostour: the Arab Journal for Historical Studies

Ostour is a peer-reviewed academic journal focused on the academic study of history (ISSN: 2305-2473). The first edition of this bi-annual journal was published by the Arab Center for Research and Policy Studies in January, 2015. *Ostour* is overseen by a specialist academic editorial board and an active international advisory board. Publication in *Ostour* and relations between authors and the editorial staff are all governed by a strict code of ethics. Review of submitted journal articles is overseen by a carefully selected list of approved reviewers who cover a broad range of academic specialisms and is governed by an internal set of by-laws.

The name of the journal draws on the archaic Arabic root *s-t-r* and also echoes, if only phonetically, the Greek and Latin *historia* and *Istorein* which have their contemporary cognates in today's *history*. In a similar fashion, *Ostour* seeks to establish a "new Arabic history", one which is rooted in an older tradition of Arabic historical writing and also builds to renew it.

In line with academic titles from across the globe, and in keeping with the standards set by the Arab Center for Research and Policy Studies across all of its journals, publication in *Ostour* follows a set of clear guidelines and procedures. Specifically, these include:

- Only original work which is drafted exclusively for publication within the journal will be accepted. No work which has been previously published fully or in part will be considered for publication in *Ostour*, except as part of an approved translation. Similarly, work which was previously presented at academic conferences will not be accepted for publication in the journal, with the exception of conferences hosted by the ACRPS.
- Submissions must be accompanied by the author's curriculum vitae (CV), in both Arabic and English versions.
- All submissions must include the following elements:

1. A title in both Arabic and English, as well as the author's correspondence information and institutional affiliation.



أسلوب كتابة الهوامش وعرض المراجع

الكتب

اسم المؤلّف، **عنوان الكتاب**، اسم المترجم أو المحرّر، الطّبعة (مكان النّشر: النّاشر، تاريخ النّشر)، رقم الصّفحة؛ كما يلي:

نبيل علي، **الثقافة العربية وعصر المعلومات**، سلسلة عالم المعرفة 265 (الكويت: المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، 2001)، ص 227.

كيت ناش، **السوسيولوجيا السياسية المعاصرة: العولمة والسياسة والسلطة**، حيدر حاج إسماعيل (مترجم) (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013)، ص 116.

ويُستشهد بالكتاب في الهامش اللاحق غير الموالي مباشرةً على النّحو التالي مثلًا: ناش، ص 116. (ما لم يكن يوجد أكثر من مرجع واحد للمؤلّف نفسه، ففي هذه الحالة يتمّ استخدام العنوان مختصرًا: ناش، **السوسيولوجيا**، ص 116).

أمّا في قائمة المراجع فيرد الكتاب على النّحو التالي: ناش، كيت. **السوسيولوجيا السياسية المعاصرة: العولمة والسياسة والسلطة**، حيدر حاج إسماعيل (مترجم)، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013.

وبالنسبة إلى الكتاب الذي اشترك في تأليفه أكثر من ثلاثة مؤلفين، فيُكتب اسم المؤلف الرئيس أو المحرر أو المشرف على تجميع المادة مع عبارة "وآخرون". مثال: السيد ياسين وآخرون، **تحليل مضمون الفكر القوميّ العربيّ**، ط 4 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991)، ص 109. ويُستشهد به في الهامش اللاحق كما يلي: ياسين وآخرون، ص 109.

أمّا في قائمة المراجع فيكون كالآتي: ياسين، السّيد وآخرون. **تحليل مضمون الفكر القوميّ العربيّ**، ط 4، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991.

الدوريات

اسم المؤلّف، "عنوان الدّراسة أو المقالة"، **اسم المجلّة**، المجلّد و/أو رقم العدد (سنة النّشر)، رقم الصّفحة. مثال: محمد حسن، "الأمن القوميّ العربيّ"، **إستراتيجيات**، المجلد 15، العدد 1 (2009)، ص 129.

أمّا في قائمة المراجع، فنكتب: حسن، محمد. "الأمن القوميّ العربي"، **إستراتيجيات**، المجلد 15، العدد 1 (2009)، ص 120-135.

مقالات الجرائد

لا تُذكر إلّا في الهوامش (في قائمة المراجع لا تُذكر).

مثال: إيان بلاك، "الأسد يحثّ الولايات المتحدة لإعادة فتح الطّرق الدبلوماسية مع دمشق"، **الغارديان**، 2009/2/17.

المنشورات الإلكترونية

اسم الكاتب (إن وجد)، "عنوان المقال أو التقرير"، اسم الموقع الإلكتروني، تاريخ النشر (إن وجد)، شوهد في: 2016/8/9، في: http://www، مثال:

كريستوفر هِل، "السياسة الخارجية الأميركية على طريقة ترامب"، الجزيرة نت، 2016/8/7، شوهد في 2016/8/9، في: http://bit.ly/2aOCz9M

في حال وجود سلسلة تنشر على الموقع الإلكتروني، تُكتب بخط سميك (مثال: **تقدير موقف** أو **تقييم حالة** أو **تحليل سياسات** أو **دراسات**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ... إلخ).

إذا جرى الاقتباس عن كتاب أو تقرير أكاديمي أو دولي أو عن مجلة دورية تنشر على الإنترنت، تُذكر بيانات النشر حسب نوع الإصدار (كتاب، مجلة، تقرير)، ولكن يُضاف الرابط الإلكتروني بعد البيانات المعتادة لنشر تلك الإصدارات مع ضرورة ذكر رقم الصفحة التي جرى الاقتباس منها.

يتعين ذكر الرابط كاملًا بحيث يوصل القارئ إلى الصفحة الإلكترونية التي جرى الاقتباس منها مباشرة وليس إلى العنوان العام للموقع.

يتعيّن اختصار الرابط الإلكتروني من خلال "مُختصِر الروابط الإلكترونية" (e.g. Bitly or Goo.gl Shortener).

ملاحظة: في الهوامش وقائمة المراجع العربيّة، ينبغي أن يكون عنوان الكتاب أو المجلّة بالخطّ العريض. أمّا إن كان بلغة أجنبية، فينبغي أن يُكتب بخطّ مائلٍ.



Corresponding Bibliographical Entry: Springborg, Robert. "State-Society Relations in Egypt: The Debate Over Owner-Tenant Relations," *Middle East Journal*, vol. 45, no. 2 (Spring 1991), pp. 232-249.

Newspaper articles

Newspaper articles should be cited only in the footnotes (not in the Bibliography). As an example:

Ellen Barry, "Insisting on Assad's Exit Will Cost More Lives, Russian Says," *The New York Times*, 29/12/2012.

Electronic Resources

Author's name (if available), "The electronic resource's title," The website name, Date of publication (if available), accessed on d/m/y, at: shortened URL. As an example:

"Sovereign Wealth Fund Rankings 2015," Sovereign Wealth Fund Institute, accessed on 9/8/2016, at: http://bit.ly/1sQqBfr





Footnotes and Bibliography

Books

Author's name, *Title of the book in italics* (Place of Publication: Publisher, Year of Publication), page number. As an example:

Michael Pollan, *The Omnivore's Dilemma: A Natural History of Four Meals* (New York: Penguin, 2006), pp. 99-100.

Successive footnotes would be in the form: Pollan, p. 3.

If there is more than one reference by the same author, we use a short title: Pollan, *Omnivore's Dilemma*, p. 3.

The corresponding bibliographical entry: Pollan, Michael. *The Omnivore's Dilemma: A Natural History of Four Meals*. New York: Penguin, 2006.

Books written by four or more authors should follow the same rules as above, but only the first author is named, followed by "et al.". As an example: Dana Barnes et al., *Plastics: Essays on American Corporate Ascendance in the 1960s* (Chicago: University of Chicago Press, 1982), p. 142.

In successive footnotes: Barnes et al., p. 142.

The corresponding bibliographical entry: Barnes, Dana et al. *Plastics: Essays on American Corporate Ascendance in the 1960s*, Chicago: University of Chicago Press, 1982.

Periodicals

Author's name, "Title of the article," *Name of Journal in italics*, volume number, issue number, page number. As an example:

Robert Springborg, "State-Society Relations in Egypt: The Debate Over Owner-Tenant Relations," *Middle East Journal*, vol. 45, no. 2 (Spring 1991), p. 247.



أخلاقيات النشر في مجلات المركز العربي

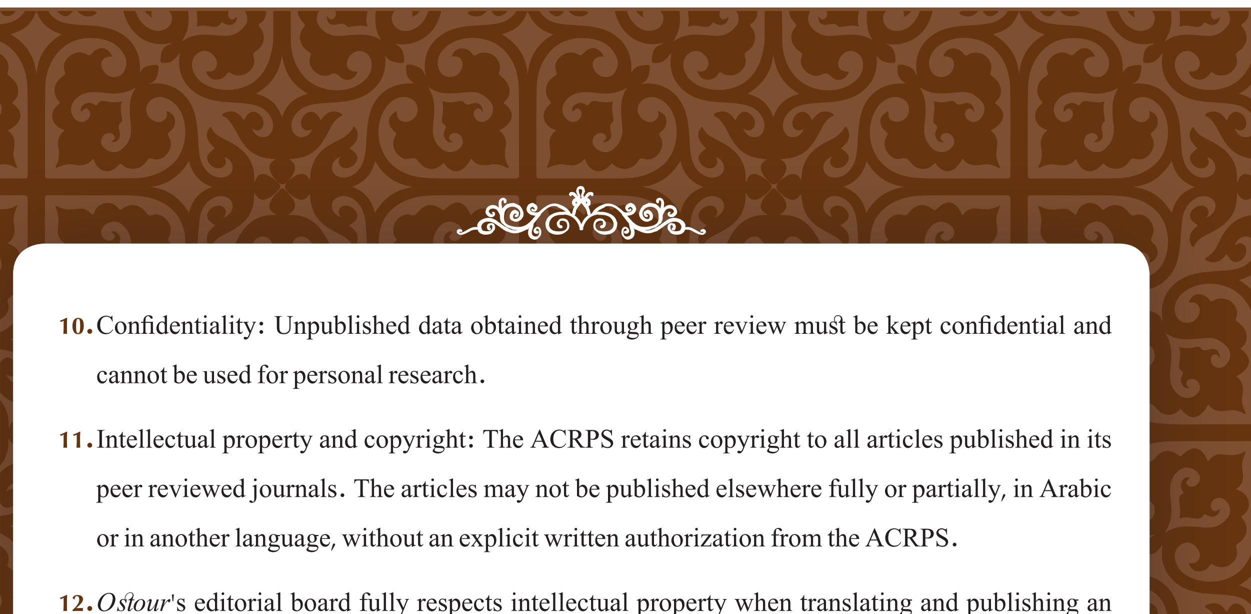
- تعتمد مجلات المركز قواعد السرية والموضوعية في عملية التحكيم، بالنسبة إلى الباحث والمحكّمين على حدّ سواء، وتُحيل كل بحث قابل للتحكيم على محكّمَين معتمديْن لديها من ذوي الخبرة والاختصاص الدقيق بموضوع البحث، لتقييمه وفق نقاط محددة. وفي حال تعارض التقييم بين المحكّمين، تُحيل المجلة البحث على قارئ مرجّح آخر.
- تعتمد مجلات المركز محّكمِين موثوقِين ومجرّبِين ومن ذوي الخبرة بالجديد في اختصاصهم.
- تعتمد مجلات المركز تنظيمًا داخليًا دقيقًا واضح الواجبات والمسؤوليات في عمل جهاز التحرير ومراتبه الوظيفية.
- لا يجوز للمحرّرين والمحكّمين، باستثناء المسؤول المباشر عن عملية التحرير (رئيس التحرير أو من ينوب عنه) أن يبحث الورقة مع أيّ شخصٍ آخر، بما في ذلك المؤلّف. وينبغي الإبقاء على أيّ معلومةٍ متميّزة أو رأيٍ جرى الحصول عليه من خلال التحكيم قيد السرّية، ولا يجوز استعمال أيٍّ منهما لاستفادةٍ شخصية.
- تقدّم المجلة في ضوء تقارير المحكمين خدمة دعم فنّي ومنهجي ومعلوماتي للباحثين بحسب ما يستدعي الأمر ذلك ويخدم تجويد البحث.
- تلتزم المجلة بإعلام الباحث بالموافقة على نشر البحث من دون تعديل أو وفق تعديلات معينة، بناءً على ما يرد في تقارير التحكيم، أو الاعتذار عن عدم النشر، مع بيان أسباب الاعتذار.
- تلتزم مجلات المركز بجودة الخدمات التدقيقية والتحريرية والطباعية والإلكترونية التي تقدمها للبحث.
- احترام قاعدة عدم التمييز: يقيّم المحرّرون والمراجعون المادّة البحثية بحسب محتواها الفكري، مع مراعاة مبدأ عدم التمييز على أساس العرق أو الجنس الاجتماعي أو المعتقد الديني أو الفلسفة السياسية للكاتب.
- احترام قاعدة عدم تضارب المصالح بين المحررين والباحث، سواء كان ذلك نتيجة علاقة تنافسية أو تعاونية أو علاقات أخرى أو روابط مع أيّ مؤلّف من المؤلّفين، أو الشركات، أو المؤسّسات ذات الصّلة بالبحث.
- تتقيد المجلات بعدم جواز استخدام أيّ من أعضاء هيئتها أو المحررين المواد غير المنشورة التي يتضمنها البحث المُحال على المجلة في أبحاثهم الخاصة.

- النسخة النهائية للبحث والتعديلات: تعرض المجلة النسخة المحررة شبه النهائية من البحث بصيغة PDF على الباحث قبل النشر. وفي هذه المرحلة، لا تُقبل أيّ تعديلات مهمّة أو إضافات على البحث، إلّا ما كان من تصحيحاتٍ أو تصويبات أو تعديلات طفيفة؛ وذلك ضمن أمدٍ زمني وجيز جدًا تُحدّده رسالة المجلة إلى الباحث.

- **حقوق الملكية الفكرية**: يملك المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات حقوق الملكية الفكرية بالنسبة إلى المقالات المنشورة في مجلاته العلمية المحكّمة، ولا يجوز إعادة نشرها جزئيًّا أو كلّيًا، سواءٌ باللغة العربية أو مترجمة إلى لغات أجنبية، من دون إذنٍ خطي صريح من المركز العربي.

- تتقيد مجلات المركز في نشرها لمقالات مترجمة تقيّدًا كاملًا بالحصول على إذن الدورية الأجنبية الناشرة، وباحترام حقوق الملكية الفكرية.

- **المجانية**: تلتزم مجلّات المركز العربي بمجّانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلّفين من جميع رسوم النشر.



10. Confidentiality: Unpublished data obtained through peer review must be kept confidential and cannot be used for personal research.

11. Intellectual property and copyright: The ACRPS retains copyright to all articles published in its peer reviewed journals. The articles may not be published elsewhere fully or partially, in Arabic or in another language, without an explicit written authorization from the ACRPS.

12. *Ostour*'s editorial board fully respects intellectual property when translating and publishing an article published in a foreign journal, and will not proceed before obtaining the authorization from the journal in question.

13. *Ostour* does not make payments for manuscripts published in the journal, and all authors and researchers are exempt from publication fees.



Ethical Guidelines for ACRPS Periodicals

1. The *Ostour* editorial board maintains confidentiality and adheres to objectivity in the peer reviewing process. It adopts an anonymized peer review process, where the editorial board selects the appropriate reviewer to assess paper's suitability for publication, according to specific criteria. In case of a conflict between the reviewers regarding the publication assessment, a third reviewer will be selected.
2. *Ostour* relies on a pool of experienced peer reviewers who are up to date with the latest developments in their field.
3. *Ostour* adopts a rigorous internal organization with clear duties and obligations to be fulfilled by the editorial board.
4. Disclosure: With the exception of the editor in charge (Editor-in-Chief or those standing in for the editor), neither the editors, nor the peer reviewers, are allowed to discuss the manuscript with third parties, including the author. Information or ideas obtained in the course of the reviewing and editing processes must be kept confidential and cannot be used for personal gain.
5. When needed, based on the reviewer report, the editorial board may offer researchers methodological, technical and other assistance in order to improve the quality of their submissions.
6. *Ostour*'s editors commit to informing authors of the acceptance or otherwise of their manuscripts, based on the reviewers' report, or to notify authors in case of rejection, specifying the reasons for rejection.
7. The journal is committed to providing quality professional copy editing, proof reading and online publishing service.
8. Fairness: The editors and the reviewers evaluate manuscripts for their intellectual and scientific merit, without regard to race, ethnicity, gender, religious beliefs or political views of the authors.
9. Conflict of interests: Editors and peer reviewers should not consider manuscripts in which they have conflicts of interests resulting from competitive, collaborative or other relationships or connections with any of the authors, companies, or institutions connected to the papers.

دعوة للكتابة

تدعـو دورية **أُسطــــور** الأكاديميـين والباحثين وسـائر الكتّاب المهتمـين بالبحث التاريخـي -المنفتح عن منهجيـات العلـوم الأخرى ومقارباتهـا بما فيها مقاربات العلـوم الدقيقة- إلى الكتابـة في صفحاتها. تقبـل الدورية الأبحاث النظرية والتطبيقية المكتوبة باللغة العربية، وتفتح صفحاتها أيضًا لمراجعات الكتب ونـشر النصوص والوثائق الدفينة. تخضع كل المواد التي تصل إلى **أُسطــور** لتحكيم أكاديميين متخصّصين. ولذلـك تتوخّى الدورية التزام المعايـير الدوليّة المتعارف عليها. ويضمن هذا الالتـزام تراكمًا علميًا جادًا وجـودة المادة التي تصـل إلى القراء. تهدف هذه الدورية إلى أن تكـون طيّعة الفهم لدى المتخصّصين وغير المتخصّصين من القراء من دون التضحيةِ برصانة المضمون.

ترسل كل الأوراق الموجهة إلى النشر باسم رئيس التحرير على العنوان الإلكتروني الخاص بالمجلة
ostour@dohainstitute.org

OSTOUR
أُسطور

قسيمة الاشتراك

الاسم ....

العنوان البريدي ....

البريد الإلكتروني ....

عدد النسخ المطلوبة ....

طريقة الدفع ☐ تحويل بنكي ☐ شيك لأمر المركز



Invitation to Submit Papers

The editors of *Ostour* invite scholars from across all the disciplines and specializations of history to submit papers for consideration in future editions of the journal. *Ostour* publishes in Arabic across all fields of history. The journal also carries critical, incisive essays and book reviews as well as primary source materials. All submitted manuscripts will be subject to the same rigorous peer review process. The journal aims to advance historical knowledge and understanding for diverse audiences of professional historians and non-specialists alike while continuing to uphold its high academic standards.

All manuscripts submitted for publication should be addressed to the Editor-in-Chief by email to:
ostour@dohainstitute.org

الاشتراكات السنوية

(عددان في السنة بما في ذلك أجور البريد المسجل)

للأفراد:

20 دولارًا في لبنان.
30 دولارًا في الدول العربية والأفريقيّة.
50 دولارًا في أوروبا.
60 دولارًا في القارة الأميركية.

للمؤسسات:

30 دولارًا في لبنان.
40 دولارًا في الدول العربية والأفريقيّة.
60 دولارًا في أوروبا.
80 دولارًا في القارة الأميركية.

عنوان الاشتراكات:

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES
جادة الجنرال فؤاد شهاب - بناية الصيفي 174 - مار مارون
ص.ب: 11-4965 رياض الصلح 2180 1107 بيروت - لبنان
هاتف: 9/8/991837 1 961+
فاكس: 991839 1 961+
بريد إلكتروني: distribution@dohainstitute.org

عنوان التحويل البنكي:

Beneficiary: ARAB CENTER FOR RESEARCH AND POLICY STUDIES
Bank: SOCIETE GENERALE DE BANQUE AU LIBAN SAL
Branch: MAZRAA - AL MAMA STREET - SGBL BLDG.
BEIRUT - LEBANON
Swift: SGLILBBX
IBAN: LB63 0019 0001 1004 3696 6650 4023
Account No.: 011 004 369 666504 023